

سَلُوا صَادِقَ

آل البيت المطهرين

عن علوم الأولين والآخريين

مشام آل قاطيط

قسم

المكتبة وحيد المكيه المكيه

- مناقشات الإمام الصادق (ع) مع خصومه
- نظرية الضوء عند الإمام الصادق (ع)
- نظرية الإمام الصادق (ع) بشأن أشعة النجوم
- نظرية النسبية والزمن عند الإمام الصادق (ع)
- الإنسان يعمل على تقصير عمره
- توحيد الفضل، إمام الإمام الصادق (ع)



سلوا صادق أهل البيت
المطهرين
عن علوم الأولين والآخرين

محمّدة الطيّب حنفية
الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

توزيع :

مؤسسة الآداب الشرقية
العراق - النجف الأشرف - سوق الحويش
تلفون : ٠٧٩٠٤١٥٦٧٩٣ - ٠٧٨٠١١٤٣٧٢٢



للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت ص.ب 25/309 الفهيري
تلفاكس : 961 1 541980 ، خليوي ، 03/445510
e-mail: alfajrb@yahoo.com

سلوا صادق أهل البيت المطهرين عن علوم الأولين والآخرين

هشام آل قطيط

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net



الإهداء

إلى مؤسس الجامعة الجعفرية...
 إلى أستاذ أئمة المذاهب الأربعة السنية...
 إلى أستاذ جابر بن حيان مؤسس علوم الكيمياء...
 إلى الإمام السادس من أئمة أهل البيت عليه السلام..
 إلى مؤسس المذهب الجعفري (الشيوعي الإمامي الاثنا عشري)...
 إلى الزاهد، العابد، العالم في عصره...
 إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام...
 أهدي هذه البضاعة المزجاة راجياً منك سيدي وإمامي الشفاعة..
 الشفاعة.. الشفاعة.. يوم الحساب.

خادم أعتابكم

هشام آل قطيط

بيروت ٢٠٠٩/٤/١



Yazın, düşünün, tartışın, öğrenin. Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

Öğretmenlerinizle birlikte çalışarak, kendi öğrenme süreçlerinizi geliştirerek, öğrencilerinizi de aynı şekilde eğiterek, öğrenerek ilerleyin.

مقدمة الدكتور عبد المجيد العلي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآل الطيبين الطاهرين، وبعد،

إن القارئ لفصول هذا الكتاب والبحث المهم عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام سادس أئمة أهل البيت عليهم السلام وعلى جدهم محمد عليه السلام إنه ليقف مذهولاً ومدهوشاً أمام علوم صادق آل البيت المطهرين، وأذكر أهم النقاط التي لفتت نظري في هذا البحث، هو سبقه لإينشتاين صاحب النظرية النسبية، ونظرية الإمام الصادق بشأن الأرض ودورانها حول الشمس سابقاً لكل علماء الغرب مثل غاليليو وفاسكو دوغاما وليس لدينا ما يثبت أن غاليليو، وهو العالم الإيطالي الذي كان أول من اكتشف أن الأرض تدور حول الشمس، قد اهتدى إلى أن الأرض تدور حول نفسها، ويلوح أن هذا الباحث الفيزيائي والمنجم الذي يدين له التقدم العلمي في العالم بفضل القوانين العلمية التي وضعها لأول مرة والذي مات بعد اكتشاف أمريكا بقرن ونصف قرن، كان يقول بدوران الأرض حول الشمس فقط، وأن محكمة التفتيش العقائدية (إنكيزيسون) حاكمت غاليليو، لمجرد أنه قال إن الأرض تدور حول الشمس، وأكرهته على التوبة والاستغفار، ونظرية أخرى للإمام الصادق عليه السلام توصل من خلالها إلى معرفة القوانين الميكانيكية لحركة النجوم من خلال معرفته لحركة الأرض ودورانها، فلولا معرفته بتلك القوانين لما استطاع التوصل إلى هذه النتيجة.

وأما نظرية الإمام الصادق عليه السلام الخاصة بشأن الكون، فلا تختلف عن النظرية العصرية الخاصة بالذرة وأصل الكون، وقد أشار الإمام إلى قطبين متضادين وهو ما يماثل القوتين الإيجابية والسلبية داخل الذرة، وتتولد المادة من الذرة، ونظرية أخرى اكتشفها وكان من السابقين إليها ألا وهي نظرية الضوء فمن رأيه أن الضوء ينعكس من الأجسام على صفحة العين البشرية أما الأجسام البعيدة فلا ينعكس منها إلا جزء صغير من الضوء، ولهذا تتعذر رؤيتها بالوضوح الكافي. ونتيجة للإتصال الذي تحقق بين أوروبا والشرق في أثناء الحروب الصليبية، انتقلت هذه النظرية من الشرق إلى أوروبا، ودرست في المعاهد العلمية والجامعات الأوروبية، وكان من جملة المهتمين بها روجر بيكسون الأستاذ بجامعة أكسفورد.

وجاءت نظرية بيكون في الضوء مطابقة لنظرية الإمام الصادق عليه السلام وبفضل هذه النظرية اخترع ليبرشي الفلامندي المجهر في عام ١٦٠٨م واستعان غاليلو بهذا المجهر في اختراع المقرّب الفلكي في عام ١٦١٠م ومن نظرياته أيضاً: نظرية نسبية الزمن: من القضايا الهامة التي نوقشت في مدرسة الإمام الصادق عليه السلام وكان من رأي بعض فلاسفة اليونان أن الزمن ليست له حقيقة أو وجود خارجي، في حين رأى البعض الآخر أن الزمن حقيقة ثابتة تقام الدلائل والبراهين على تأكيدها ونظرية أخرى سبق على العلماء إليها ألا وهي (نظرية أشعة النجوم وهذه النظرية من مؤداها أن من بين النجوم التي نراها في الليل ما هو أضخم من الشمس، وأن شمسنا تعتبر بالقياس إليها صغيرة الحجم ضئيلة الضياء.

واليوم، وبعد مضي اثني عشر قرناً ونصف قرن، أثبت العلم صحة نظرية الإمام الصادق عليه السلام إذ تبين للعلماء أن هناك مجموعات من النجوم

السواطع تتضاءل تلقاء حجمها وضياؤها الشمس نفسها. ويطلق على هذه النجوم (المجرات) اسم (الكوازرز) الواحدة فيها كوزار (Quasars) وبعضها يبعد عن الأرض بمقدار تسعة آلاف مليون (أي تسعة مليارات سنة ضوئية).

ونظرية أخرى كان سباقاً إليها إمامنا الصادق وهي النظرية البيئية المهمة بشأن البيئة حيث في هذا العصر المصانع الضخمة في أوروبا وأمريكا تلعب دوراً كبيراً في تلويث مياه الأنهار والبحار والبيئة لأنها تلقي بنفاياتها في الأنهار الجارية مثل نهر الرون في أوروبا الغربية قتلت الأسماك وغيرها من الحيوانات التي كانت تعيش في مياهه، وتعرضت بحيرات المياه العذبة في أمريكا الشمالية لمصير مماثل، والمحيطات نفسها باتت متعرضة لمخاطر هذا التلوث، سواء بفعل المواد المشعة التي تدخن نفاياتها فيها، أو بفعل النفط الذي تقذفه السفن أو يتدفق من ناقلات النفط الغارقة، وصارت العوالق البحرية (البلانكتون) التي تعيش في المحيطات معرضة للفتن، لا سيما وهي تعيش قريباً من اليابسة.

ومن فوائد هذه العوالق البحرية أنها تولد حوالى ٩٠ في المائة من الأوكسجين المنتشر في الأرض، وإن فتك بها التلوث، هبطت نسبة الأوكسجين على ١٠٪ وهو لا يفي بحاجات التنفس للإنسان والحيوان والنبات، مما يهدد الحياة نفسها، وينذر بانقراض نسل الحيوان والنبات.

وهذه النتيجة ليست مجرد نظرية علمية تحتاج إلى الإثبات، وإنما هي واقع فعلي فبسبب تلوث المحيطات يتناقض عدد العوالق البحرية في كل سنة وسينخفض عددها إلى النصف بعد خمسين عاماً، مع ما يترتب على ذلك من انخفاض الأوكسجين في الأرض بنسبة مماثلة.

وتكهن العالم الفيزيائي (اسحق أزيمواف) بانقراض الأرض بعد مائة عام إذا استمر هذا الوضع، ويومئذ تنقرض أيضاً الحيوانات التي تعيش في

البحار والمحيطات، لأنها تحتاج بدورها إلى الأوكسجين ولو عاشت في عمق الأعماق ومن أراد معرفة المزيد لصادق ما أذهب إليه فيراجع) كتاب الإمام الصادق (كما عرفه علماء الغرب والذي نقله إلى العربية وترجمه الدكتور نور الدين آل علي).

والذي لفت نظري في هذا البحث أهمية تأسيس الإمام الصادق عليه السلام الجامعة الإسلامية في عصره والذي نهلت منها جميع المذاهب الإسلامية مما فيها اللاتحة بالأربعة المشهورين (أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل) وهو بحث جدير بالقراءة والاهتمام لما فيه من محاضرات ومناظرات للإمام عليه السلام مع خصومه في تلك الحقبة وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين ونسأل الله تعالى لمؤلفه الموفقية والتسديد لما يحبه ويرضاه.

الدكتور عبد المجيد العلي

٢٠٠٩/٥/١

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين، الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فقد بعث الله عز وجل نبيه ﷺ في فترة عمّ فيها الشرك واستشرى فيها الجهل، حتى إنه لم يبق في ذلك الزمان من يعبد الله على الأرض إلا بقايا من أهل الكتاب وبعض من أتباع الحنيفة.

فهذا البحث عن الإمام الصادق عليه السلام سادس الأئمة من أهل البيت عليه السلام لم يتناول الترجمة عنه أو حياته بشكل مفصل بل تناولت فيه بعض الجوانب من علومه وإنشاء جامعته الإسلامية، واحتجاجاته، ومناظراته مع خصومه ومناظراته مع الزنادقة في عصره والملحدين.

وتناولت فيه رسالته المفصلة في التوحيد. ورسالته المفصلة إلى تلميذه (المفضل بن عمر الجعفي). وتناولت فيه رسائله ومكاتيبه إلى شيعته. وتناولت فيه جانباً مهماً من اختراعاته وإبداعاته في عصره مثل نظرية النسبية، نظرية البيئة، ونظريته بشأن النجوم، مستفيداً من كتاب (الإمام

الصادق كما عرفه علماء الغرب). وتناولت أيضاً (من عرفانه وحكمه ومواعظه، ومناظرات أحد تلاميذه المشهورين الذي يسمى (البهلول) ومناظراته مع سفيان الثوري.

وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

هشام آل قطيط

بيروت ٢٠٠٩/٥/٣

الفصل الأول

شخصية الإمام جعفر الصادق عليه السلام
وأقوال العلماء فيه

من كتاب أسد حيدر الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

شخصية الإمام الصادق عليه السلام:

التاريخ هو مرآة تأخذ الصور فتحفظها للأجيال، وهو للجميع لا يختص بأمة دون أخرى، ولا يتقيد برأي دون رأي، وهو أمين، والأمين يقبح به أن يخون أمانته. ولئن تحتم عليه أن يحتفظ بالحقائق والأضاليل معاً فليس ذلك إلى أمد الآماد ثم تنكشف الحقائق لتثبت وحدها سليمة من مجاورة الأضاليل.

والتاريخ يسجل الحوادث على ما هي عليها بصورها وأشكالها، فلا تغيير ولا تبديل، ولا نقل صورة وترك أخرى، هذه هي وظيفة التاريخ الصحيح في كل دور من الدوار.

ولكن التلاعب السياسي الذي لعب دوراً هاماً في سيطرته على نظام التاريخ وتصرفه في سيره، وسلب حريته في أداء أمانته، جعلنا نعتز بأنّه لم يتمكن من أداء واجبه على الوجه الصحيح، وقد أودعت في طياته أشياء هي أعظم عليه من وخز المدّين وتركّت أشياء هي مفخرته عندما يؤديها للأجيال، وأن من المؤسف جداً أن يفقد التاريخ حريته، وتلتوي به الطرق، وإذا به ينظر في مرآة الغير ولا ينظر الغير في مرآته. بفعل المسيطرين عليه لا يفعله هو.

ولئن مني التاريخ بتلك القيود فهو لا يخلو من حقائق يطمئن إليها كل باحث، وما نحن على ضوء تلك الحقائق نتزع من أشواك العصبية والأهواء

زهرة حياة الإمام الصادق، وإن أكثر المؤرخين قد أهملوا أخباره وسيرته ولم يذكروا إلا النزر منها، ومن وقف على ما كتبه ابن كثير في تاريخه عن بعض الشخصيات التي لا قيمة لها في سوق الاعتبار يعرف مدى انحرافه وإنه أهمل الواقع وظلم الحقيقة. وتراه عندما يأتي لذكر جعفر بن محمد الصادق في حوادث ١٤٨ هـ يقتصر على قوله: وفيها مات الإمام جعفر الصادق. ولا يروق له ذكر شيء عن حياته. وكثيرون أمثال ابن كثير من قبل ومن بعد.

وأغرب شيء وقفنا عليه أن البحاثه محمد محيي الدين المعروف بالتتبع وضبط الألفاظ في تصحيحه وتعليقه على الكتب أهمل اسم جعفر بن محمد وغيره اسمه، فيقول عند ذكر وفاته في العنوان: وفاة محمد بن جعفر العلوي^(١). وهب أن ذلك غلط مطبعي أو من الناسخ في أصل الكتاب فإن الواجب عليه التنبيه والالتفات لهذا الغلط.

ومثل شخصية جعفر بن محمد تلك الشخصية الإسلامية العظيمة يجب على التاريخ إعطاءها حقها من البحث، فهو أبرز شخصية في عصره وأعلم الأمة على الإطلاق.

ولا نتجاوز الحقيقة إن قلنا أن الإمام الصادق عليه السلام كان أعلم أهل عصره وهو أولى الناس بحفظ أمانة الدين، ولا نبعد عن الواقع، إن قلنا أن تلك الخطوات التي سار عليها في عصر ازدهار العلم قد أعطت الأمة درساً، وعلمتهم كيف يجب أن يكون المصلح الذي يقتدي به عظماء الأمة ورجال الدعوة، وأن يستقل العلم بمؤهلاته النفسية ويفرض نفسه على المجتمع بقيمه الروحية، بدون التزام بالقوة. بل الأولى أن يكون مقبولاً من

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٢١٢.

حيث هو، لا من حيث الإرهاب والسلطة أو المغريات الخداعة، وإن الكثير ممن درسوا حياة الإمام الصادق عليه السلام إنما سلكوا طرق الحذر والتكتم، فتلك دراسة سطحية لا تتجاوز حدود دائرة الحذر أو التعصب، وقد رسمت صورته في إطار التأريخ بريشة مفن مرتعشة لذلك لم تبرز طبق الأصل ومع هذا جاءت سليمة من التشويه وفريدة في الإبداع.

وغرضنا في البحث عن حياة الصادق بيان منزلته العلمية بالقياس إلى غيره ممن أخذ الشهرة وما هو منه في شيء، والأسباب غير مجهولة والحقيقة غير صامتة. وهنا يلزمنا أن نتخلى عن الموضوع ونستمع إلى أقوال علماء الأمة ورؤساء المذاهب، وحفاظ الحديث، وكبار المؤرخين والكتاب من القدماء إحاطة للكل، بل من يحضرنا ذكره فلنصنع لأقوالهم تمهيداً للبحث.

أقوال العلماء في الإمام الصادق عليه السلام:

«في كل زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه، وحجة زماننا ابن أخي جعفر لا يضل من تبعه ولا يهتدي من خالفه»^(١).

زيد بن علي عليه السلام

«إن جعفرأ كان ممن قال الله فيه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾. وكان ممن اصطفاه الله وكان من السابقين في الخيرات»^(٢) وإنه ليس من أهل بيت إلا وفيهم محدث وإن جعفر بن محمد محدثنا اليوم»^(٣).

المنصور الدوانيقي

«جعفر بن محمد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على إحدى

(١) مناقب ابن شهر آشوب، ج ٢، ص ١٤٧.

(٢) يعقوبي، ج ٣، ص ١٧٧.

(٣) المناقب، ج ٢، ص ٣٠٢.

ثلاث خصال، إما مصل، وإما صائم وإما يقرأ القرآن^(١)، وما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادةً وورعاً^(٢).

مالك بن أنس

«كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين»^(٣).

عمرو بن المقدام

«ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهبيّ له من المسائل الشداد فهيات له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما أبصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلمت عليه وأوماً إليّ فجلست ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة.

قال جعفر: نعم. ثم اتبعها قد أنانا. كأنه كره ما يقول فيه قوم إنه إذا رأى الرجل عرفه، ثم التفت المنصور إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائلك. فجعلت ألقى عليه فيجيبني، فيقول: أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا فربما تابعهم وربما خالفنا جميعاً حتى أتيت على الأربعين مسألة، ثم قال أبو حنيفة: ألسنا رويناً أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»^(٤).

أبو حنيفة

(١) إلى هنا عبارة التهذيب، وما بعدها زيادة في كتاب المجلس السنية، ج ٥، وقد ذكر ابن تيمية في كتاب التوسل والوسيلة ص ٥٢، ط ٢ هذه العبارة في جملة طويلة في ضمنها هذه الجملة.

(٢) تهذيب، ج ٢، ص ١٠٤.

(٣) تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ١٠٤.

(٤) مناقب أبي حنيفة للموفق، ج ١، ص ١٧٣ وجامع أسانيد أبي حنيفة، ج ١، ص ٢٢٢ وتذكرة الحفاظ للذهبي، ج ١، ص ١٥٧.

«ما هذا ببشر وإن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء، ويتروح إذا شاء، فهو هذا. وأشار على الصادق».

ابن أبي العوجاء

«جعفر بن محمد الصادق هو ذو علم غزير وأدب كامل في الحكمة وزهد في الدنيا وورع تام عن الشهوات وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ويفيض على الموالين له أسرار العلوم، ثم دخل العراق وأقام بها مدة، ما تعرض للإمامة قط، ولا نازع في الخلافة أحداً، ومن غرق في بحر المعرفة لم يبق في شط، ومن تعلأ إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط»^(١).

أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني

«الإمام الصادق كان بين أخوته خليفة أبيه نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن غيره. كان رأساً في الحديث، روى عنه يحيى بن سعيد وابن جريح ومالك بن أنس وابن عيينة وأبو أيوب السجستاني وغيرهم».

القرماني في تاريخه

«جعفر بن محمد كان من سادات أهل البيت فقهاً وعلماً وفضلاً».

ابن حيان

«جعفر بن محمد ثقة لا يسأل عن مثله»^(٢).

الحافظ أبو حاتم

«جعفر بن محمد هو من علماء أهل البيت وساداتهم، ذو علوم جمّة، وعبادة موفورة، وأوراد متواصلة، وزهادة بينة، وتلاوة كثيرة، يتتبع معاني

(١) الملل والنحل، ج ١، ص ٢٧٢ - ط ٢.

(٢) تهذيب، ج ٢، ص ١٠٤.

القرآن ويستخرج من بحره جواهره ويستنتج عجائبه، ويقسم أوقاته على أنواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكر بالآخرة، واستماع كلامه يزهد في الدنيا، والاقتداء بهديه يورث الجنة، نور قسماته شاهد أنه من سلالة النبوة، وطهارة أفعاله تصدع أنه من ذرية الرسالة، نقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من أعيان الأمة وأعلامهم، مثل يحيى بن سعيد الأنصاري، وابن جريح، ومالك بن أنس، والثوري، وابن عيينة، وأيوب السجستاني، وغيرهم، وعدوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها»^(١).

كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي

«جعفر بن محمد الإمام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق أقبل على العبادة والخضوع، وآثر العزلة والخشوع ونهى عن الرئاسة والجموع»^(٢).

أبو نعيم

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرئاسة»^(٣).

عبد الرحمن بن الجوزي

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب وكنيته أبو إسماعيل ويلقب بالصادق والطاهر والفاضل، وأشهر ألقابه الصادق»^(٤).

أبو المظفر يوسف شمس الدين

(١) مطالب السؤل، ج ٢، ص ٥٥.

(٢) حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٩٢.

(٣) صفوة الصفوة، ج ٣، ص ٩٤.

(٤) تذكرة الخواص، ص ٣٥١.

«أدركت في هذا المسجد (يعني الكوفة) تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد»^(١).

الحسن بن علي الوشاء

«جعفر بن محمد، ازدحم على باب العلماء، واقتبس من مشكاة أنواره الأصفياء، وكان يتكلم بغوامض الأسرار وعلوم الحقيقة وهو ابن سبع سنين»^(٢).

عبد الرحمن بن محمد الحنفي البسطامي

«جعفر بن محمد، الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه، ويقال: أن أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب»^(٣).

أبو بحر الجاحظ

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقيه صدوق»^(٤).

ابن حجر العسقلاني

«مناقب الصدق فاضلة، وصفاته في الشرف كاملة، جرى على سنن آبائه الكرام وأخذ بهديه وهداهم عليه السلام، ووقف نفسه الشريفة على العبادة وحبسها على الطاعة والزهادة، واشتغل بأوراده وتهجده وصلاته وتعبده لو طاوله الفلك لتزحزح عن مكانه».

الوزير أبو الفتح الأربلي

«أبو عبد الله الإمام المعظم جعفر الصادق، صاحب الخوارق الظاهرة

(١) المجالس للسيد الأمين، ج ٥، ص ٢٠٩.

(٢) مناهج التوسل، ص ١٠٦.

(٣) رسائل الجاحظ للسندوي، ص ١٠٦.

(٤) تقريب التهذيب، ص ٦٨.

والآيات الباهرة المخبر بالمغيبات الكائنة أمه وأم أخيه عبد الله أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر وأما أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ولذا كان جعفر بن محمد عليه الرضوان يقول ولدني أبو بكر مرتين ولد سنة ٨٤ وتوفي سنة ١٤٨ هـ ودفن بالبقيع^(١).

نقيب حلب محمد بن حمزة بن زهرة

* * *

«جعفر الصادق نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريح ومالك والسفيانين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السجستاني»^(٢).

أحمد بن حجر الهيثمي

«ولد الصادق بالمدينة يوم الجمعة عند طلوع الفجر سنة ٣٨ وعاش ٦٥ سنة وكانت إمامته أربعاً وثلاثين سنة، وقد نقل الناس عنه على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم ما سارت به الركبان، وقد عد أسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف رجل. توفي في شوال سنة ١٤٨ ودفن بالبقيع مع أبيه وجده وقيل قتله المنصور والدوانيقي بالسم»^(٣).

محمد سراج الدين الرفاعي

«جعفر الصادق بن محمد الباقر زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، سمي الصادق لصدقه، وينسب إليه كلام في صفة الكيمياء والزجر والغال ولد سنة ٨٠ بالمدينة بالبقيع».

همرو بن الورد في تاريخه

(١) غاية الاختصار، ص ٦٢.

(٢) الصواعق المحرقة، ص ١٢٠.

(٣) صحاح الأخبار، ص ٤٤.

«جعفر الصادق بن محمد الباقر الإمام السيد أبو عبد الله الهاشمي العلوي الحسيني المدني، وكان يلقب بالصابر والفاضل والطاهر، وأشهر ألقابه الصادق. حدث عنه أبو حنيفة وابن جريح وشعبة والسفيانان ومالك وغيرهم»^(١).

جمال الدين أبو المحاسن

«وجعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب السادس من الأئمة الإثني عشر والدته أم فروة كريمة القاسم بن محمد ابن أبي بكر (رض). ولد الإمام جعفر في المدينة المنورة سنة ٨٢ هـ وهو أبزر أولاد الإمام محمد الباقر وتلمذ على والده فريد زمانه في العلم والفضل، استمر على حلقة تدريس وإفادات جعفر الصادق الإمام الأعظم أبو حنيفة، واستفاد منه أولاً في المعارف الظاهرية والباطنية، وكان للإمام اليد الطولى في الجفر والكيمياء والإمام بسائر العلوم، وكان ممن تلمذ على الإمام موجد فن الكيمياء جابر، لم يكن له نصير في الزهد والتقوى، والقناعة وحسن الأخلاق، ولصدق حسبه سمي بالصادق. كان أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين يدعو إلى تعظيم الإمام وتكريمه ويستنير بأرائه وإرشاداته ونصائحه، وعرض أبو مسلم الخرساني الخلافة ابتداء على الإمام جعفر الصادق فلم يقبلها، كان له من الأولاد سبعة أبناء وثلاث بنات، توفي في سنة ١٤٨ عمر ناهز ٦٥ في المدينة المنورة ودفن بجوار جده ووالده، عرف صاحب الترجمة بإمام المذهب الشيعي والمنتمون إليه سمووا بالجعفرية»^(٢).

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب الهاشمي المدني

(١) النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٨.

(٢) قاموس الأعلام تأليف ش سامي، ج ٣، ص ١٨٢١ استانبول وقد ترجمت الكلمة عن اللغة التركية.

المعروف بالصادق أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر... متفق على إمامته وجلالته^(١).

علي القاري

«جعفر بن محمد الصادق وهو ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي رضي الله عنهم، ويكنى أبو عبد الله وأمّه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأم أم فروة أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان من سادات أهل البيت، سمع أباه ومحمد بن الكندر وعطاء بن أبي رباح، روى عنه عبد الوهاب الثقفي، وحاتم بن إسماعيل، ووهيب بن خالد، وحسن بن عياش، وسليمان بن بلال، والثوري والداروردي ويحيى بن سعيد الأنصاري، وحفص بن غياث ومالك بن انس، وابن جريح، ولد سنة ثمانين ومات سنة ثمان وأربعين ومائة وهو ابن أربعة وستين سنة»^(٢).

محمد بن طاهر بن علي المقدسي

«جعفر الصادق أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي، سادس الأئمة الإثني عشر عند الإمامية: كان من أجل التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم أخذ عنه جماعة منهم: أبو حنيفة، ومالك وجابر بن حيان، ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط، له أخبار مع الخلفاء من بني العباس، وكان جريئاً عليهم صداعاً في الحق، وصنف تلميذه جابر بن حيان كتاباً في ألف ورقة يتضمن (رسائل الإمام جعفر الصادق) وهي خمسمائة رسالة، مولده ووفاته بالمدينة»^(٣).

خير الدين الزركلي

(١) شرح الشفا لعللي القاري، ج ٢، ص ٣٥.

(٢) الجمع بين رجال الصحيحين، ج ١، ص ٧٠.

(٣) الأعلام، ج ١، ص ١٨٦.

«لولا الستان لهلك النعمان»

أبو حنيفة

يقول الألوسي: «هذا أبو حنيفة وهو من أهل السنة يفتخر ويقول بأفصح لسان لولا الستان لهلك النعمان» يعني الستين اللتين جلس فيهما لأخذ العلم عن الإمام جعفر الصادق^(١).

«جعفر الصادق فاق جميع أقرانه من أهل البيت وهو ذو علم غزير، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وأدب كامل في الحكمة».

الشيخ عبد الرحمن السلمي

«جعفر الصادق كان من بين أخوته خليفة أبيه ووصيه، نقل عنه في العلوم ما لم ينقل عن غيره وكان إماماً في الحديث ومناقبه كثيرة».

السويدي في سبائك الذهب

«جعفر الصادق له عمود الشرف، ومناقبه متواترة بين الأنعام، مشهورة بين الخاص والعام، وقصده المنصور الدوانيقي بالقتل مراراً فعصمه الله».

جمال الدين الداوردي

«ولا مشاحة أن انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامي، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الذي تزعم تلك الحركة: هو حفيد علي بن أبي طالب المسمى بالإمام الصادق، وهو رجل رحب أفق التفكير، بعيد أغوار العقل، ملم كل الإمام بعلوم عصره، ويعتبر في الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في الإسلام، ولم يكن يحضر حلقاته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية

فحسب، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية»^(١).

السيد مير علي الهندي



«جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكنيته أبو عبد الله وقيل أبو إسماعيل وألقابه الصادق والفاضل والطاهر وأشهرها الأول، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الكبار كيحيى ومالك وأبي حنيفة»^(٢).

محمود بن وهيب البغدادي



«الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم الهاشمي المدني الصادق، أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، روى عن أبيه والقاسم بن محمد ونافع وعطاء ومحمد بن المنكدر والزهري وغيرهم، وروى عنه محمد بن إسحاق ويحيى الأنصاري ومالك والسفيانان وابن جريح وشعبة ويحيى القطان وآخرون - واتفقوا على إمامته وجلالته، قال عمر بن أبي المقدام: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين»^(٣).

أبو زكريا محيي الدين بن شرف

(١) تاريخ العرب، ص ١٧٩.

(٢) جواهر الكلام، ص ١٣.

(٣) تهذيب الأسماء، ج ١، ص ١٥٥.

«جعفر الصادق أبو عبد الله بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب روى عنه كثيرون كمالك والشافعي وإسحاق، واتفقوا على إمامته وجلالته وسيادته، ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٤٨هـ قيل مسموماً. وثقة في روايته الشافعي وابن معين وأبو حاتم الذهبي وهو من فضلاء أهل البيت وعلمائهم».

أحمد شهاب الدين الخفاجي



«كان جعفر بن الصادق مستجاب الدعوة إذا سأل الله شيئاً لا يتم قوله إلا وهو بين يديه».

الشبلنجي في نور الأبصار



«جعفر بن محمد سيد بني هاشم أبو عبد الله العلوي».

الذهبي



«جعفر بن محمد أبو عبد الله فقيه صدوق»^(١).

الزرقاني



«أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية وكان من سادات آل البيت، ولقب بالصادق لصدقه وفضله أشهر من أن يذكر».

ابن خلكان في وفياته

(١) شرح المواهب، ج ١، ص ٥١.

«سلالة النبوة ومعدن الفتوة أبو عبد الله جعفر الصادق بن أبي جعفر محمد الباقي بن زين العابدين بن علي الحسين الهاشمي العلوي، وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، فهو علوي الأب بكري الأم ولد سنة ثمانين في المدينة وفيها توفي ودفن بالبقيع في قبر فيه أبوه محمد الباقر، وجده زين العابدين، وعم جده الحسين بن علي رضوان الله عليهم أجمعين، وأكرم بذلك وما جمع من الأشراف الكرام، أولي المناقب، وإنما لقب بالصادق لصدقه في مقالته، وله كلام نفيس في علوم التوحيد وغيرها وقد ألف تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتاباً يشمل على ألف ورقة يتضمن رسائله وهي خمسمائة رسالة»^(١).

اليافعي

وقال الشيخ المناوي^(٢) عند ذكر الإمام جعفر الصادق: وكانت له كرامات كثيرة ومكاشفات شهيرة منها:

«إنه سعي به عند المنصور فلما حج أحضر الساعي وقال للساعي: أتحلف؟ قال نعم، فحلف، فقال جعفر للمنصور: حلفه. فقال: قل برئت من حول الله وقوته والتجأت إلى حولي وقوتي لقد فعل جعفر كذا وكذا فامتنع الرجل، ثم حلف فما تم حتى مات مكانه.

ومنها أن بعض الطغاة قتل مولاه فلم يزل ليلته يصلي ثم دعا عليه عند السحر فسمعت الضجّة بموته.

ومنها لما بلغه قول الحكم بن العباس الكلبي في عمه زيد:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب

(١) مرآة الجنان، ج ١، ص ٣٠٤.

(٢) الكواكب الدرية، ج ١، ص ٩٤.

قال: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك. فافترسه الأسد.

ومنها ما أخرجه الطبري من طريق ابن وهب قال: سمعت الليث بن سعد يقول حجبت سنة ثلاثة عشر ومائة فلما صليت العصر رقيت أبا قبيس فإذا رجل جالس يدعو فقال: يا رب، حتى انقطع نفسه ثم قال: يا حي يا حي حتى انقطع نفسه ثم قال: إلهي إني أشتهي العنب فأطعمنيه وأن بردي قد خلق فاكسني قال الليث: فما تم كلامه حتى نظرت إلى سلة مملوءة عنباً إلى آخر ما ذكره.

المناوي



«السادس من الأئمة جعفر الصادق ذو المناقب الكثيرة والفضائل الشهيرة، روى عنه الحديث كثيرون مثل مالك بن أنس وأبي حنيفة ويحيى بن سعيد، وابن جريح والثوري، ولد رضي الله عنه بالمدينة المنورة سنة ثمانين من الهجرة وغرر فضائله على جبهات الأيام كاملة، وأندية المجد والعز بمفاخره ومآثره أهلة وتوفي رضي الله عنه سنة ١٤٨هـ»^(١).

عبد الله الشبراوي



«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبو عبد الله الصادق المدني أحد الأعلام حدث عن أبيه وجده وأبي أمه القاسم بن محمد وعروة وعنه خلق لا يحصون فمنهم ابننا موسى وشعبة والسفيانان قال الشافعي وابن معين وأبو حاتم ثقة مات سنة ١٤٨ عن ٦٧هـ»^(٢).

الجزري

(١) إنحاف الأشراف، ص ٥٤.

(٢) الخلاصة، ص ٧٦.

«أبو عبد الله جعفر الصادق: كان من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقه في مقالته، ولد سنة ثمانين وروى عنه مالك بن أنس وأبو حنيفة وكثيرون من علماء المدينة»^(١).

محمد الخضري



«وأكبر شخصيات ذلك العصر في التشريع الشيعي بل ربما كان أكبر الشخصيات في ذلك في العصور المختلفة الإمام جعفر الصادق، وعلى الجملة فقد كان الإمام جعفر من أعظم الشخصيات في عصره وبعد عصره، وقد مات في العام العاشر من حكم المنصور».

الدكتور أحمد أمين



«جعفر بن محمد كان إماماً مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط، وإنما بقي منها في كل غد قادم حتى القيامة صوت صارخ، يعلم الزهاد زهداً، ويكسب العلماء علماً، يهدي المضطرب ويشجع المقتحم، يهدم الظلم ويبني للعدالة، وهو ينادي بالمسلمين جميعاً أن هلموا واجتمعوا، وإن قوماً لم يختلفوا في ربهم وفي نبيهم لمجموعون مهما اختلفوا في يوم قريب»^(٢).

عبد العزيز سيد الأهل



«كان بيت جعفر الصادق كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار

(١) التشريع الإسلامي، ص ٢٦٣.

(٢) كتاب جعفر بن محمد، ص ٦.

في الحديث والتفسير والحكمة والكلام، فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألفان وبعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين، وقد ألف تلاميذه من جميع الأحاديث والدروس التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعد بمئاته دائرة معارف للمذهب الشيعي أو الجعفري».

السيد محمد صادق نشأة الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة



«أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين هو أحد الأئمة الاثنى عشر على مذهب الإمامية كان من سادات أهل البيت النبوي لقب بالصادق لصدقه في كلامه»

فريد وجدي



«جعفر الصادق وهو ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين كان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه، وفضله عظيم، له مقالات في صناعات الكيمياء والزجر والقال وكان تلميذه جابر بن حيان قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن «رسائل الصادق» وهي خمسمائة رسالة، إليه ينسب كتاب الجفر وسيذكر، وكان جعفر أديباً نقياً ديناً حكيماً في سيرته»^(١).

بطرس البستاني



«عندما يتفرغ الباحث لدراسة شخصية الإمام جعفر بن محمد بن علي

(١) دائرة المعارف، ج ٦، ص ٤٦٨.

بن الحسين بن علي بن أبي طالب دراسة صحيحة على ضوء الضمير النقي، والواقع العقلي، والتجرد العلمي، متبعاً الأصول الحديثة، مبتعداً عن العاطفة، ومرض التعصب، وأثر الجنسية، فلا يستطيع إلا الإقرار بأنها مجموعة فلسفية قائمة بذاتها، تزخر بالحيوية النابضة، والروحية المتجسدة، والعقلية المبدعة التي استنبطت العلوم، وأبدعت الأفكار، وابتكرت السنن، وأوجدت النظم والأحكام^(١).

معهد البحوث الشرقية

حارف ثامر، والأب أ. عبده خليفة السوحي



وبهذا نكتفي عن ذكر أقوال بقية العلماء الآخرين، وسيأتي محل آخر ننشر فيه آراء علماء العصر من المسلمين وغيرهم. ويلزمنا التنبيه على شيء مر ذكره في بعض هذه الأقوال وهو نسبة الزجر والفال إلى الإمام الصادق عليه السلام، وهذا من الخطأ والاشتباه، وإنما كان الإمام يستشف ما وراء الحجب باستقراء الحوادث السياسية، وينظر المستقبل بحكمته وصفاء باطنه، يخبر بالحوادث قبل وقوعها، وقد أخبر بأن الخلافة للسفاح ومن بعده للمنصور وتبقى في أولاده من بعده، وأخبر بمقتل محمد وإبراهيم على يد المنصور، وكان معارضاً لبيعة محمد في المؤتمر الذي عقده الهاشميون من عباسيين وعلويين لبيعة محمد بن عبد الله، وقال لعبد الله بن الحسن: لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت بعد، فقال عبد الله لقد علمت خلاف ما تقول، قال الصادق: لا، ولكن هذا وأبناؤه دونك وضرب بيده على أبي العباس. ثم نهض فأتبعه عبد الصمد بن علي وأبو جعفر المنصور فقالا له: أتقول ذلك؟ قال: نعم أقوله والله وأعلمه.

وليس في وسعنا بسط القول في علمهم عليهم السلام وانكشاف حقائق الأشياء لهم، فقد أخبروا بكثير من الحوادث قبل وقوعها، وقد صدر عن الصادق كثير من ذلك مما لا يتسع المجال لذكره.

وأما نسبة الزجر والفال إليه فهو خطأ نشأ من اشتباه في الاسم وتقارب في الزمن، وذلك أن جعفر بن محمد البلخي المعروف بأبي معشر الفلكي كان مشهوراً بالزجر والفال وأستاذ عصره في التنجيم، ونقل الناس أخباره وشاع ذكره.

قال ابن كثير: والظاهر أن الذي نسب إلى جعفر بن محمد الصادق من علم والفال، واختلاج الأعضاء إنما هو منسوب إلى جعفر بن أبي معشر هذا وليس بالصادق وإنما يخلطون^(١).



الفصل الثاني

الإمام الصادق عليه السلام
مدرسته وتلامذته ورواة حديثه



مدرسة الإمام الصادق عليه السلام:

ليس من المبالغة والخروج عن الواقع وصف مدرسة الإمام الصادق بأنها جامعة إسلامية، خلفت ثروة علمية وخرجت عدداً وافراً من رجال العلم، وأنجبت خيرة المفكرين وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء، وقد عدت أسماء تلامذته والمتخرجون من مدرسته فكانوا أربعة آلاف رجل، وقد صنف الحافظ أبو العباس بن عقدة كتاباً جمع فيه رجال الصادق ورواة حديثه وأنهاهم إلى أربعة آلاف.

قال الشيخ المفيد في الإرشاد: «إن أصحاب الحديث قد جمعوا الرواة عن الصادق من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف».

وقال الشيخ محمد بن علي الفتال: «وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف».

وقال السيد علي بن عبد الحميد النيلي في كتاب الأنوار: «ومما اشتهر بين العامة والخاصة أن أصحاب الحديث جمعوا أسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف».

وقال الشيخ الطبرسي في أعلام الوري: «ولم ينقل عن أحد من سائر العلوم ما نقل عنه، فإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من

الثقات فكانوا أربعة آلاف رجل، وقال في القسم الثالث: «وروى عن الصادق من أهل العلم أربعة آلاف إنسان».

وقال ابن شهر آشوب في المناقب: «نقل الصادق من العلوم ما لا ينقل عن أحد، وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء فكانوا أربعة آلاف».

وقال المحقق في المعبر في جملة كلامه عن الصادق: «فإنه انتشر عنه عن العلوم الجمة ما بهر به العقول وروى عنه جماعة من الرجال ما يقارب أربعة آلاف رجل».

وقال الشهيد في الذكرى: «إن أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق كتب من أجوبة مسائله أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف، ودون من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجل من أهل العراق والشام والحجاز».

وقال الشيخ حسين والد العلامة البهبهاني في ذكر الصادق: «ودون العامة والخاصة ممن تبرز بعلمه من العلماء والفقهاء أربعة آلاف».

وعلى أي حال فإن مدرسة الإمام الصادق، كانت مصدراً للمعلم وينبوعاً يفيض على الأمة بالعلوم والمعارف الإسلامية. وأغدقت على العالم الإسلامي بخدماتها الجليلة، في بث تلك التعاليم القيمة في عصر ازدهر فيه العلم، وأقبل المسلمون على انتهاله.

ولو تسنى لمدرسة الإمام الصادق عليه السلام الظهور التام لأدت رسالتها على أحسن ما يتطلبه واقع المسلمين وما هم فيه من الحاجة إلى نشر التعاليم القيمة في بث روح الأخوة الإسلامية، والعدالة الاجتماعية، ومحو المعتقدات الفاسدة والآراء الشاذة.

ولكن بمزيد الأسف أن السلطة الحاكمة قد اتخذت جميع التدابير

لمحاربة تلك المدرسة، لأن شهرة الإمام الصادق عليه السلام في العالم الإسلامي كانت تقض مضاجعهم، وتبعث في قلوبهم الوجل من نشاطه العلمي إلى جانب ما لأهل بيته من النشاط السياسي، ولهذا فقد كانوا يضعون الخطط التي يأملون فيها الوصول إلى غلق أبواب تلك المدرسة والقضاء على الإمام الصادق بكل وسيلة، لأن الأنظار أصبحت متجهة إليه، وكانت وفود رجال الأمة وطلاب العلم تتسابق إلى الحضور عنده، والاستماع منه حتى كان ذكره حديث الركبان، وكانت أبدية العلم في العواصم الإسلامية تلهج بذكره، وينتهي الاحتجاج في الاستشهاد بقوله.

«والحقيقة، أن مدرسة الإمام جعفر الصادق الفكرية قد أنجبت خيرة المفكرين، وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء، إذا كانت هناك يجب أن تقال فهي: أن الحضارة الإسلامية والفكر العربي مدينان لهذه المدرسة الفكرية بالتطور والرقى والخلود، ولعميدها الصادق بالمجد العلمي والتراث الثمين».

كما إنها وجهت الأمة إلى قواعد الاستنباط ونقد الحديث وبعثت على النشاط في مجال التأليف وتبويب الأحكام فكانت ملتقى العلماء، ومجمعاً لطلابهم رغم تلك المحاولات التي تبذل في طريق شهرتها والوقوف أمام انتشار ذكرها.

وأود بأن أسارع هنا فأشير إلى ما يأتي فيما بعد: بأن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام: كان طابعها التي طبعت عليه ومنهجها الذي اختصت به، هو استقلالها الروحي، وعدم خضوعها لنظام السلطة، ولم تفسح المجال لولاة الأمر بأن يتدخلوا في شؤونها، أو تكون لهم يد في توجيهها وتطبيق نظامها لذلك لم يتسن لذوي السلطة استخدامها في مصالحهم الخاصة، أو تتعاون معهم في شؤون الدولة، ومن المستحيل ذلك - وإن بذلوا جهدهم

في تحقيقه - فهي لا تزال منذ نشأتها الأولى تحارب الظالمين، ولا تتركهم كما لا ترتبط وإياهم بروابط الألفة، ولم يحصل بينها وبينهم انسجام، وبهذا النهج الذي سارت عليه، والطابع الذي اقتصت به أصبحت عرضة للخطر، فكان النزاع بينها وبين الدولة يشتد والعداء يتضخم، الأمر الذي جعل المدرسة عرضة للخطر.

ورغم ذلك كله فقد صمدت لتلك الهجمات التي توجهها الدولة لتمحوها من صفحة الوجود، وقد عانت من بطش الجبارين وعسف الظالمين ما لا يحيط به البيان.

وعلى كل حال فإن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام كانت بعيدة عن التأثير بآراء الحكام الذين يفرضون إرادتهم على العلم والعلماء، ويحاولون أن تكون لهم السلطة الدينية إلى جانب السلطة التنفيذية.

وقد بذل المنصور كل ما في وسعه لجلب رضا الإمام الصادق عليه السلام والفوز بمساييرته له، ولكنه لم يفلح، فقد أعلن عليه السلام مقاطعته، وأوعز إلى أصحابه ذلك، فسارت مدرسته على ذلك الاستقلال الروحي، ونالت تلك الشهرة العظيمة، وخلفت ذلك التراث الثمين والمجد العلمي، وإن الحضارة الإسلامية مدينة لها بالتطور والخلود.

تلامذة الإمام الصادق عليه السلام ورواة حديثه:

أما تلامذته فقد أجمع العلماء على أنهم كانوا أربعة آلاف، وهم من مختلف الأقطار الإسلامية على اختلاف آرائهم ومعتقداتهم، وقيل: إن الثقات منهم كانوا بهذا العدد، ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى البعض منهم مقتصرين على ذكر أسمائهم بدون تفصيل، كما إننا لم نذكر منهم إلا من اشتهر بالعلم وخرج حديثه أصحاب الصحاح كالبخاري، ومسلم، والترمذي، وأصحاب السنن.

وإن منهم من أصبحوا رؤساء طوائف، وأئمة مذاهب: كأبي حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠هـ صاحب المذهب المنسوب إليه وقد اشتهر قوله: ما رأيت أعلم من جعفر بن محمد.. وقوله: لولا السنتان لهلك النعمان^(١) وكانت له مع الإمام الصادق اتصالات متفرقة بالمدينة والكوفة، وقد لازمه مدة سنتين متواصلتين بالمدينة. فجعل هاتين السنتين نجاة له من الهلكة.

مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩هـ رئيس المذهب المنسوب إليه وكانت له صلة تامة بالإمام الصادق عليه السلام وروى الحديث عنه واشتهر قوله: ما رأيت عين أفضل من جعفر بن محمد.

سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١هـ وهو من رؤساء المذاهب وحملة الحديث وأعلام الأئمة وقد بقي مذهبه معمولاً به إلى ما بعد القرن الرابع. وكان لسفيان الثوري اختصاص بالإمام الصادق وقد روى عنه الحديث كما روى كثيراً من آدابه عليه السلام وأخلاقه ومواعظه.

سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ والمدفون بالحجون وهو من رؤساء المذاهب البائدة. وغير هؤلاء من جملة الحديث وأعلام الأمة ولا يتسع المجال لذكرهم الآن ونكتفي بذكر البعض منهم في عرض موجز وهم:

شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي المتوفى سنة ١٦٠هـ خرج له أصحاب الصحاح والسنن وروى عنه خلق كثير. قال الشافعي: لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق. وقال أحمد: شعبة أمة وحده.

وفضيل بن عياض بن سعد بن بشر التميمي اليربوعي المتوفى سنة

١٨٧هـ قال الجزري: «هو أحد أئمة الهدى والسنة، روى عنه الأعمش وسليمان التيمي وابن المبارك وابن القطان وأحمد بن المقدم وخلق كثير، وثقة النسائي وغيره، وخرج له البخاري والترمذي ومسلم والنسائي».

وحاتم بن إسماعيل المتوفى سنة ١٨٠هـ كوفي الأصل خرج له البخاري ومسلم والترمذي والجماعة وكان ثقة في الحديث، أخذ عن الصادق وأخذ عنه خلق كثير منهم إسحق وابن معين^(١).

وحفص بن غياث بن طلق بن معاوية بن مالك أبو عمرو الكوفي المتوفى سنة ١٩٤هـ روى عن الصادق وروى عنه أحمد، وإسحق، وأبو نعيم، ويحيى ابن معين، وعلي بن المديني وعفان بن مسلم، وعامة الكوفيين، ولي قضاء بغداد ثم عزل وولي قضاء الكوفة، وكان كثير الحديث حافظاً له ثبتاً فيه مقدماً عند المشايخ كتبوا عنه من حفظه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حديث، خرج الجماعة أجمع^(٢).

وزهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني المتوفى سنة ١٦٢هـ أخذ عن الإمام الصادق وعنه أبو داود الطيالسي، وروح بن عبادة، وأبو عامر العقدي، وعبد الرحمن بن مهدي والوليد بن مسلم، ويحيى بن بكير، وأبو عاصم وغيرهم وثقة أحمد ويحيى وعثمان الدارمي وهو من رجال الصحاح.

يحيى بن سعيد بن فروخ القطان الحافظ البصري المتوفى سنة ١٩٨هـ روى له رجال الصحاح وحدث عنه ابن مهدي، وعفان ومسدد وأحمد وإسحق وابن معين.

(١) خلاصة الكمال، ص ٥٦.

(٢) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٨٨ والخلاصة، ص ٧٤.

إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري المتوفى ببغداد سنة ١٨٠هـ روى عنه محمد بن جهضم ويحيى بن يحيى النيسابوري، وأبو الربيع الزهراني، وأبو معمر الهذلي وغيرهم، قال ابن سعد: ثقة وهو من أهل المدينة قدم بغداد ولم يزل بها حتى مات، خرج له البخاري ومسلم والجماعة^(١).

إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي أبو إسحاق المدني المتوفى سنة ١٩١هـ روى عن الصادق، وله كتاب مبوب في الحلال والحرام، وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست، وروى عنه إبراهيم بن طهمان والثوري وهو أكبر منه وكني عن اسمه، وابن جريح والشافعي وسعيد بن أبي مريم وأبو نعيم وآخرون ويعد من مشايخ الشافعي وقد أكثر عنه في كتبه^(٢) وقد اتهم إبراهيم بالخط من السلف فضعف ونسب إلى الكذب، ولعل سبب ذلك اختصاصه بحديث أهل البيت أكثر من غيره.

الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل البصري المتولد سنة ١٢٢هـ والمتوفى سنة ٢١٤ روى عنه الصادق وعنه البخاري وأحمد بن حنبل وابن المدني وإسحاق ابن راهويه، قال ابن شعبة: والله ما رأيت مثله.

محمد بن فليح بن سليمان المدني المتوفى سنة ١٧٧هـ روى له البخاري والنسائي وابن ماجه.

عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت المتوفى سنة ١٩٤هـ روى عنه محمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابن المديني وغيرهم، قدم بغداد في أيام المنصور وحدث بها وثقه ابن معين وكانت غلة

(١) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٨٨ والخلاصة، ص ٧٤.

(٢) تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٢٨٢ - ٧٦٠.

عبد الوهاب في كل سنة مائتين وأربعين ألف ينفقها على أصحاب الحديث لا يحول الحول على شيء منها. خرج له مسلم البخاري.

عثمان بن فرقد العطار أبو معاذ البصري خرج له البخاري في صحيحه والترمذي وروى عنه ابن المدني وابن المثنى وزيد بن أحزم، قال ابن حبان مستقيم الحديث.

عبد العزيز بن عمران بن عبد العزيز الزهري بن أبي ثابت الأعرج المدني المتوفى سنة ١٩٧هـ خرج له الترمذي في صحيحه.

عبد الله بن دكين الكوفي خرج له البخاري في الأدب المفرد وثقه أحمد وروى عنه يحيى الوضاحي وموسى بن إسماعيل.

زيد بن عطا بن السائب روى عنه إسرائيل وجريز بن عبد الحميد وثقه أبو حاتم. وخرج حديثه النسائي والترمذي.

مصعب بن سلام التميمي الكوفي روى عنه أحمد وأبو سعيد الأشج وخرج له الترمذي، قال ابن معين: ليس به بأس، وقال أبو حاتم: شيخ محلة الصدق.

بشير بن ميمون الخراساني المتوفى سنة ١٨٤هـ روى عنه أحمد بن عاصم الخراساني؛ قدم بغداد وروى الحديث عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام خرج له ابن ماجه.

إبراهيم بن سعد الزهري المتوفى سنة ١٨٣هـ أحد الأعلام ومن رجال الصحاح وهو من شيوخ أحمد بن حنبل.

سعيد بن مسلمة الأموي المتوفى سنة ٢٠١هـ وهو من رجال الصحاح وشيوخ الشافعي.

الحارث بن عمير البصري نزل مكة روى عن الصادق عليه السلام وعنه ابن عيينة وابن مهدي وأبو أسامة.

المفضل بن صالح الأسدي أبو جميلة الكوفي خرج له الترمذي وروى عنه محمد بن عبيد الله المحاربي.

أيوب بن أبي تميمة السختياني أبو بكر البصري مولى عنزة، ويقال مولى جهينة روى عنه الأعمش وقتادة وهو من شيوخه والحمدان والسفيانان وشعبة، وخلق كثير، وثقه ابن سعد وابن معين، ولد سنة ٦٦هـ ومات سنة ١٢١هـ.

عبد الملك بن جريح القرشي أحد العلماء المشهورين ويقال: إنه أول من صنف الكتب في الإسلام، ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٤٩هـ.

وغير هؤلاء ممن نسب لمدرسة الصادق، وأخذ عنه وروى حديثه، وقد ذكر ذلك ابن حجر في تهذيب التهذيب ولسان الميزان وتقريب التهذيب، والذهبي في ميزان الاعتدال وتذكر الحفاظ، والجزري في الخلاصة، والخطيب في تاريخه، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل وغيرهم. ولا يصعب على المتتبع إحصائهم، وقد أفرد بعض علمائنا رسائل في عددهم وذكر أسمائهم وسيأتي في الجزء الثاني بيان جملة منهم.

أما حملة فقهه عليه السلام وخواص أصحابه، الذين كانت لهم اليد الطولى في خوض معارك الحياة الاجتماعية والسياسية، ومحاربة أهل الإلحاد والزندقة، ومناظرة أهل العقائد الفاسدة والآراء الشاذة ومقابلة الظلمة في شدة الإنكار عليهم وتوجيه الانتقال إليهم، وسيأتي في هذا الكتاب تفصيل عن حياة بعضهم والمشهورين منهم، كأبان بن تغلب، ومؤمن الطاق،

ونكتفي هنا بالتنويه عن بعضهم:

أبان بن تغلب:

أبو سعد الكوفي، روى عن السجاد، والباقر، والصادق، ومات في أيامه. قال الشيخ في الفهرست: أبان بن تغلب بن رباح أبو سعيد البكري الحريري مولى جرير بن عباد، ثقة جليل القدر عظيم المنزلة في أصحابنا، لقي أبا محمد علي بن الحسين وأبا جعفر الباقر وروى عنهم، وكانت له عندهم حظوة وقدم، وقال له أبو جعفر الباقر: اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس فإنني أحب أني يرى في شيعتي مثلك، وكان غزير العلم متضلعا في عدة علوم وله كتب ذكرها ابن النديم في الفهرست منها كتاب معاني القرآن، كتاب القراءات، كتاب الأصول في الرواية على مذهب الشيعة^(١).

وقال ابن سعد في الطبقات: أبان الربيعي توفي في الكوفة في خلافة أبي جعفر وعيسى بن موسى وإل على الكوفة، وكان ثقة وروى عنه شعبة، وقال في التهذيب روى عنه موسى بن عقبة، وشعبة، وحماد بن زيد وابن عيينة وجماعة، وثقه أحمد، وأبو حاتم، والنسائي.

قال الذهبي في ميزان الاعتدال أبان بن تغلب الكوفي شيعي جلد لكنه صدوق فلنا صدقه وعليه بدعته^(٢) وقد وثقه أحمد بن حنبل وابن معين وأبو داود خرج له مسلم وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

قال الجوزجاني: أبان بن تغلب زائغ مذموم المذهب، قال ابن حجر: وأما الجوزجاني فلا عبرة بحطه على الكوفيين، فالتشيع في عرف المتقدمين

(١) ابن النديم، ص ٣٠٨.

(٢) لم يكن أبان مبتدعا ولكنه بتفضيله لملي وقوله بإمامته أصبح مبتدعا في نظر الذهبي وإضرابه.

هو اعتقاد تفضيل عثمان، وإن علياً كان مصيباً في حروبه وإن مخالفه مخطئ مع تقديم الشيخين، وربما اعتقد بعضهم أن علياً أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ وإذا كان معتقد ذلك ورعاً ديناً صادقاً مجتهداً فلا ترد روايته^(١).

أبان بن عثمان بن أحمر البجلي أبو عبد الله أصله كوفي، وكان يسكنها تارة والبصرة أخرى، وقد أخذ عنه أهلها منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى وأبو عبد الله محمد بن سلام، وأكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام، روى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام وأبي الحسن موسى عليه السلام وله مؤلفات منها كتاب المبتدي، والبعث والمغازي والوفاء، وذكره ابن حبان في الثقات، قال محمد بن أبي عمر: كان أبان من أحفظ الناس بحيث إنه يرى كتابه فلا يزيد حرفاً، توفي على رأس المئتين^(٢).

وهو من السنة أصحاب أبي عبد الله عليه السلام الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم والإقرار لهم بالفقه وهم: جميل بن دراج، وعبد الله ابن مسكان، وعبد الله بن بكير، وحمام بن عيسى، وحمام بن عثمان وأبان بن عثمان.

بكير بن أعين الشيباني أخو زرارة روى عن الباقر والصادق عليه السلام ومات في أيام الصادق عليه السلام لوما بلغه خبر موته قال: أما والله لقد انزله الله بين رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام. وذكره يوماً فقال: رحم الله بكيراً. وهو من الثقات، وقد روى عنه جماعة.

جميل بن دراج بن عبد الله النخعي روى عن الصادق والكاظم وتوفي أيام الرضا، وهو من الستة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم.

(١) نهذيب التهذيب، ج ٣، ص ٩٣.

(٢) لسان الميزان، ج ١، ص ٢٤.

حماد بن عثمان بن زياد الرواسي الكوفي روى عن الصادق عليه السلام والكاظم والرضا عليه السلام، وهو من أصحاب الصادق عليه السلام ومن الستة المار ذكرهم توفي سنة ١٩٠هـ.

الحارث بن المغيرة النصري روى عن الباقر عليه السلام وعن الصادق عليه السلام والكاظم عليه السلام، كان جليل القدر مقبول الرواية له منزلة عظيمة.

هشام بن الحكم البغدادي الكندي مولى بني شيبان كنيته أبو محمد وقيل أبو الحكم أصله من الكوفة وانتقل إلى بغداد قال ابن النديم: هو من جلة أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وهو من متكلمي الشيعة ممن فتن الكلام في الإمامة وهذب المذهب والنظر وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب سئل عن معاوية أشهد بداراً؟ فقال: نعم من ذاك الجانب، وكان ينزل الكرخ من مدينة السلام وتوفي بعد نكبة البرامكة مستتراً، وقيل في خلافة المأمون وله من الكتب كتاب الإمامة، كتاب الدلالات، ثم ذكر له أكثر من عشرين مؤلفاً.

ودعى له الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك، وكان أولاً من أصحاب جهم بن صفوان ثم انتقل إلى القول بالإمامة وبالدلائل والنظر، وكان الصادق عليه السلام يقول فيه: هذا ناصرنا بقلبه ولسانه ويده، ويقول أيضاً: هشام بن الحكم رائد حقنا وسائق قولنا المؤيد لصدقنا والدامغ لباطل أعدائنا.

وكان هشام يقول: ما رأيت مثل مخالفينا عمدوا إلى من ولاه الله من سمائه فعزلوه، وإلى من عزله الله من سمائه فنصبوه، ولهشام أخبار كثيرة ومحاججات ومناظرات مع خصوم آل محمد، وكان يخوض غمرات البحث فيخرج منها وحليفه النصر.

روى الكليني في الصحيح أنه ورد على الصادق عليه السلام رجل من أهل

الشام فقال له: إني صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك.

فقال له الصادق عليه السلام: كلامك هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله أو من عندك؟

فقال الرجل: بعضه من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وبعضه من عندي،

قال الإمام الصادق عليه السلام: فأنت إذا شريك رسول الله صلى الله عليه وآله! قال: لا، قال: فسمعت الوحي عن الله تعالى؟ قال: لا، قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: لا، فقال الصادق عليه السلام: هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم، ثم أخرج الصادق عليه السلام رأسه وكان في خيمة في الحرم قبل الحج بأيام فإذا هو ببيعير يخب فقال عليه السلام: هشام ورب الكعبة. فإذا هشام بن الحكم قد ورد وهو أول ما اختطت لحيته وليس في أصحاب الصادق عليه السلام إلا من هو أكبر سنًا فوسع له الصادق عليه السلام وقال: ناصرنا بقلبه ولسانه ويده، ثم قال للشامي: كلم هذا الغلام، يعني هشام بن الحكم.

فقال الشامي لهشام: سلني في إمامة هذا. يعني الصادق عليه السلام. فغضب هشام حتى ارتعد وقال: يا هذا ربك انظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال: بل ربي أنظر لخلقه، قال هشام: فعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟ قال: كلفهم وأقام لهم حجة ودليلاً على ما كلفهم وأزاح في ذلك عنهم.

قال: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟

قال: هو رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فبعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: الكتاب والسنة، قال: فهل ينفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه حتى رفع عنا الاختلاف؟

قال: فقال الشامي: نعم. فقال هشام: فلم اختلفنا نحن وأنت وجئنا من الشام نخالفنا وتزعم أن الرأي طريق الدين وأنت تقر أن الرأي لا يجتمع على القول الواحد للمختلفين؟ فسكت الشامي كالمفكر فقال له الصادق عليه السلام: مالك لا تتكلم؟ قال: إن قلت ما اختلفنا كابرت، وإن قلت إن الكتاب والسنة يرفعان الاختلاف أبطلت لأنهما يحتملان الوجوه، ولكن لي عليه مثل ذلك. فقال الصادق عليه السلام: سله تجده ملياً. فقال لهشام: من انظر للخلق ربهم أو أنفسهم؟ قال: بل ربهم، قال: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم ويبين حقهم من باطلهم؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: أما في ابتداء الشريعة فرسول الله ﷺ، وأما بعده فغيره، قال: من هو غيره؟ قال: في وقتنا هذا هو هذا الجالس الذي تشد إليه الرحال. يعني الصادق عليه السلام إلى آخر ما ذكره^(١).

المعلی بن خنیس كان من أصحاب الإمام ومواليه ومن عذب في الله وقتل بحب آل محمد، قتله الأمير داوود بن علي وصادر أمواله - والأسباب غير مجهولة في ذلك - لأن المعلی كان من خواص الإمام الصادق عليه السلام بصورة تستدعي غضب الوالي، وكان داوود بن علي عندما ولي المدينة أو الجزيرة برمتها استعمل العسف والجور والاضطهاد للطالبين فكان شديداً في مطاردتهم وتتبع أنصارهم. وبطبيعة الحال عن مثل المعلی بمواقفه واتصاله بالإمام لا يسلم من شر هذا الوالي وقد تلقى الإمام الصادق هذه الحادثة بالاستياء وأثر في نفسه ومشى إلى ديوان الأمير وهو محقق على خلاف عادته وقال له: قتلت مولاي وأخذت مالي أما علمت أن الرجل ينাম على الثكل ولا ينَام على الحرب، وقابله الإمام بالشدة والعنف وحاول ذلك الأمير أن يسند هذا الجرم لصاحب الشرطة ويبرأ من تبعته، فأمر بقتله

(١) أصول الكافي، ص ١، ص ١٧٢ - ١٧٣.

ليست بذلك، ولكن صاحب الشرطة فضح أمره فأعلن للملأ عندما سبق للإعدام بقوله: يأمروني بقتل الناس فأقتلهم لهم ثم يأمرون بقتلي.

وقد اختلفت أقوال المؤرخين في الحادثة فتارة يذكرونها في عهد السفاح وأخرى في عهد المنصور.

هذا وليس في إمكاننا إحصاء أصحابه عليه السلام ورواة الحديث عنه من الشيعة وغيرهم ونكتفي بهذا القدر، وقد أرجأنا ذكر بعض الأعيان منهم إلى الجزء الثالث: كعبد الملك بن أعين ووزارة وابنه، وعلي بن يقطين، وعمار الدهني وعمرو بن حنظلة، والفضيل بن يسار، وأبو بصير، ومؤمن الطاق، ومحمد بن مسلم، ومعاوية بن عمار، والمفضل بن عمر، وهشام بن سالم، وغيرهم.

مع البخاري

شهرة البخاري:

قطع صحيح البخاري^(١) شوطاً بعيداً عن الشهرة ونال قبولاً دون غيره من كتب الحديث، فأصبحت له منزلة لا يشاركه بها غيره، ومن العسير مؤاخذته بشيء لأن ذلك يدعو إلى الرمي بالبدعة والخروج عن سبيل المؤمنين^(٢) ولهذا تهيب أكثر الحفاظ نقده، ووقفوا أمامه موقف خضوع وتسليم.

(١) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن (بردزیه) بياض موحدة مفتوحة ثم راء ساكنة ثم دال مهمة مكسورة ثم زاء ساكنة ثم باء موحدة ثم هاء، معناه بالعربية الزراع، وكان جده المغيرة مجوسياً كآبيه أسلم على يد اليمان البخاري الجعفي لذلك قيل للبخاري جعفي لأنه مولى يمان الجعفي ولد سنة ١٩٤ وتوفي سنة ٢٥٦ ودفن بخرنك قرية على فرسخين من سمرقند.

(٢) قواعد التحديث، ص ٢٤١.

يقول الذهبي في ذكره لبعض الأحاديث: ولولا هيبة الصحيح لقلت إنها موضوعة. وذهب ابن حزم إلى تكذيب بعض أحاديثه^(١) فعنف، لأن التسليم بجميع ما في كتاب البخاري أصبح سنة وصحيحه أصبح معمولاً به، فلا يمكن لأحد أن يعمل بحرية الرأي، ومع هذا فإن بعض الحفاظ من كبار المحدثين تناوله بالنقد بصراحة وحرية في الرأي من وجوه أهمها:

١ - ترتيب الكتاب والعلاقة بينه وبين الترجمة وما تحتها.

٢ - إنه يقطع الحديث فيذكر بعضه في باب وبعضه في آخر، وقد تختلف الرواية في الأجزاء المختلفة، وقد يذكر بعضها متصل السند وبعضها منقطعة، وقد أخذ عليه في هذا الباب بعض مآخذ لم يستطع المنتصرون له أن يجيبوا عنها^(٢).

٣ - انتقده الحفاظ في بعض أحاديث بلغت ١١٠ منها ٣٢ حديثاً اتفق فيها هو ومسلم ومنها ما انفرد بتخريجه وهو ٧٨.

٤ - إن بعض الرجال الذين روى لهم غير ثقات وقد ضعف الحفاظ من رجال البخاري نحو الثمانين.

وعلى كل حال فإن صحيح البخاري كان محلاً للوثوق والاعتماد عند أكثر المحدثين فهم يقبلون روايته بدون نقاش تهيئاً لمكانته، وحذراً من المؤاخذات القاسية والتهجم المر، لأن أكثر الناس يزعمون أنه أعظم كتاب على وجه الأرض، أو أنه:

«هو عدل القرآن وأنه إذا قرأ في بيت أيام الطاعون حفظ أهله منه، وإن من ختمه على أية نية حصل ما نواه، وأنه ما قرأ في شدة إلا فرجت، ولا ركب به في مركب ففرقت»^(٣).

(١) تهذيب التهذيب، ج ٨، ص ١٤٦.

(٢) ضحى الإسلام، ج ٢، ص ١١٦.

(٣) قواعد التحديث للقاسمي، ص ٢٥٠.

وقد جرى على العمل بذلك كثير من رؤساء العلم، ومقدمي الأعيان إذا ألم بالبلاد نازلة، يوزعون أجزاءه على العلماء والطلبة (لكشف الخطوب وتفريج الكروب، فهو يقوم عندهم في الحرب مقام المدافع والصارم والأسل، وفي الحريق مقام المضخة والماء، وفي الهبضة مقام الحبطة الصحيحة وعقاقير الأطباء، وفي البيوت مقام الخفراء والشرطة، وعلى كل حال هو مستنزل الرحمت ومستقر البركات)^(١).

والحاصل أن صحيح البخاري قد أحيط بهالة من التقديس والإكبار فهو عدل القرآن وهو أصح كتاب على وجه الأرض - كما يقال - ولهذا فقد تهيب أكثر الحفاظ عن نقد أحاديثه ومن أقدم على ذلك عفا.

ومن أظرف الأشياء: أن مجلس المبعوثان في عهد الأتراك بالعراق قد قرر مبلغاً جسيماً لوزارة الحربية جعلوه لقراءة البخاري في الأسطول، فقال الزهاوي - وكان عضواً في المجلس -: أنا أفهم أن هذا المبلغ في ميزانية الأوقاف، أما الحربية فالمفهوم أن الأسطول يمشي بالبخر لا بالبخاري فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة^(٢).

ونحن لا ننكر عظمة حديث النبي ﷺ وبركة آثاره، ولكن من الخير أن نتساءل لأي شيء اختص صحيح البخاري دون غيره بهذه الخصوصية من كتب الحديث؟ ولماذا كانت له هذه المنزلة دونها؟! ونتساءل لِمَ لم يقرأ القرآن وفيه شفاء للناس ودفع لما يكرهون؟! ولماذا كان صحيح البخاري عدلاً للقرآن وأصبح التوسل به من العقائد الراسخة يتلى لدفع المجاعة ويوزع أحزاباً في المساجد والبيوت كما حدث في مجاعة سنة ٧٩٨ في

(١) من مقال لأحد علماء الأزهر نشر في إحدى المجلات المصرية في معرض نقده لذلك الاعتقاد السائد، نشر

سنة ١٣٢٠هـ وقواعد التحديث ص ٢٥١.

(٢) مجلة الرسالة السنة الخامسة، ص ٤٠٣.

مصر؟؟؟ فإن كان لصحة أحاديثه فلماذا لم تكن هذه الخصوصية لموطأ مالك الذي قيل فيه أنه أصبح كتاب بعد كتاب الله؟! وصحيح مسلم الذي قالوا فيه: ما تحت أديم السماء أصبح من كتاب مسلم^(١) ويقول ابن حجر: حصل لمسلم في كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحد مثله بحيث أن بعض الناس كان يفضل على صحيح محمد بن إسماعيل وذلك لما اختص به من جمع الطرق وجودة السياق والمحافظة على أداء الألفاظ من دون تقطيع ولا رواية بمعنى. وقال الحاكم: سمعت أبا الوليد يقول، قال لي أبي: أي كتاب تجمع؟ قلت أخرج على كتاب البخاري، قال: عليك بكتاب مسلم فإنه أكثر بركة.

وهذا صحيح الترمذي بحسن ترتيبه وتنميقه وتبعه للصحيح من غيره لم يكن بمنزلة البخاري؟! وقد قالوا: إن كتاب الترمذي أنور من كتاب البخاري. فإن كانت تلك العظيمة التي أحرزها صحيح البخاري لما حواه فالقرآن أولى بأن يتخذ لدفع تلك المشاكل، أو كان لعظمة البخاري نفسه؟ فإن مالك بن أنس صاحب الموطأ أعظم منزلة وأعلى كعباً، وأعرق نسباً، وأغزر علماً.

ولا نريد أن نقسو على البخاري بالحكم، أو نجحف بحقه، ونقول بمقالة جمال الدين الحنفي: «من نظر في كتاب البخاري تزندق»^(٢).

ولا نذهب بعيداً عن الواقع فنقول: إن كل ما فيه صحيح يلزم الاعتقاد به والتصديق له، وإن عدم التصديق بدعة، أو كفر بالله وتكذيب لأحاديث الرسول ﷺ كما ذهب إلى ذلك كثير من المقلدين الذين لا يعقلون.

إن كتاب البخاري لا يخلو من أحاديث لا تتصف بالصحة كما لا

(١) تذكرة الحفاظ، ج٢، ص١٠٤.

(٢) شذرات الذهب، ج٧، ص٤٠.

يخلو من أحاديث عليها علامة الوضع كحديث «إن النبي كان مسحوراً...» وغيره من الأحاديث التي لا يمكن القول بصحتها، لتناقضها أو تعارضها مع غيرها مما يصعب الجمع بينها.

والعلماء الذين أنكروا صحة بعض أحاديثه لم ينكروها إلا بأدلة قامت عندهم، ولا يعد ذلك طعنًا في دين الإسلام، وهدماً للسنة كما يذهب بعضهم.

وقد انتقد العلماء من أحاديث البخاري أكثر من مائة حديث، كما انتقدوا رجاله وطعنوا في كثير منهم لأنهم أناس لا قيمة لهم في ميزان الصدق والعدالة، ومنهم ضعفاء لا يتصف حديثهم بالصحة.

ولقد ترك البخاري الرواية عن كثير من علماء الأمة وأعلام الحديث، ومن هم أدرى بحديث الرسول ﷺ، وأشد عناية فيه وإحاطة له، وفي طليعتهم الإمام الصادق عليه السلام فلم يقدر ذلك فيهم أو يحط من مقامهم.

وقد خرج أحاديث أناس لم يسلموا من الطعن، سواء في العقيدة أو العدالة، أو الوثاقة، فإن منهم من اتهم بالكذب، ووصف بوضع الحديث، وللمثال نذكر منهم:

إسماعيل بن عبد الله بن أويس بن مالك المتوفى سنة ٢٢٦.

قال يحيى بن معين: إن إسماعيل مخلط كذاب. وقد تكلم فيه النسائي كما أنه عرف بوضع الحديث لأهل المدينة إذا اختلفوا فيما بينهم.

وزياد بن عبد الله العامري المتوفى سنة ٢٨٢ فإنه متهم بالكذب. قال الترمذي عن وكيع: إن زياد بن عبد الله على شرفه كان يكذب في الحديث.

والحسن بن مدرك السدوسي الطحان رماه أبو داود بالكذب، وتلقين المشايخ وغير هؤلاء ممن لا نحب إطالة الحديث عنهم وبسط القول فيهم.

أما الضعفاء فقد ذكروا منهم عدداً لا يقل عن الثمانين أمثال: الحسن ابن ذكوان البصري فقد كان قدرياً يدلّس، وعرف بالخطأ، وضعفه أحمد وابن معين، والنسائي، والترمذي، وابن المديني.

ومنهم أحمد بن أبي الطيب البغدادي، وسلمة بن رجاء التميمي، وبسر بن آدم الضرير وغيرهم ممن نص الحفاظ على ضعفهم.

أما القدريّة، فهم عدد كثير كعبد الله بن أبي لبيد المدني، وعبد الله بن أبي نجيع المكي، وكهمس بن منهال السدوسي، وهارون بن موسى الأزدي وسفيان بن سليمان، وعبد الوارث بن سعيد، وغيرهم.

والقول: بأن تخريج البخاري هو دليل الوثاقة، وشاهد العدالة، وأن من يروي له البخاري «فقد جاز القنطرة» كما يقول بعضهم بمعنى أنه لا يلتفت إلى ما قيل فيه. فهذا مجرد افتراض لا يدعمه دليل، وتخالفه القرائن والشواهد، فليس قول البخاري في الشخص هو الحكم العدل والقول الفصل، فالخلاف في الجرح والتعديل لم ينته إلى حد أو يقف عند قول أحد، على أنهم قد أحصوا على البخاري أخطاء في معرفة الرجال وأسمائهم، كجعله اسم الرجل الواحد اسمين أو ثلاث، كالوليد بن أبي الوليد مولى عبد الله بن عمر، وهارون بن سعد مولى قريش، وكثير بن خنيس وغيرهم، فقد جعل اسمين لكل واحد منهم، وكذلك جعل محمد بن أيوب اليمامي ثلاثة أسامي وهو واحد، كما نسب عبد الملك بن أخي القعقاع إلى القعقاع، وذكر في باب النون اسم ناسح الحضرمي، وهو عبد الله بن ناسح الذي يروي عنه شرحبيل بن شفيعة، إلى غير ذلك من المؤاخذات عليه.

وهناك ناحية ذات أهمية في الموضوع وهي تخريجه لأناس عرفوا

بالنصب والعداء لعلي عليه السلام وبغضهم لآل محمد من خوارج وغيرهم أمثال:

عمران بن حطان السدوسي البصري المتوفى سنة ٨٤ هـ. كان من رؤوس الخوارج والمعلنين عداء الإمام علي عليه السلام وهو الذي مدح عبد الرحمن ابن ملجم المرادي بقوله:

يا ضربة من تفي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
فهذا الرجل قد تحدى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسمى من ومسه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه
أشقى الأولين والآخرين، بأنه تقي، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قال:

«يا علي أتدري من أشقى الأولين؟ فقال علي عليه السلام: الله ورسول أعلم. فقال صلى الله عليه وآله وسلم عاقر الناقة. قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي أتدري من أشقى الآخرين؟ فقال عليه عليه السلام: الله ورسول أعلم. قال صلى الله عليه وآله وسلم: قاتلك يا علي». أخرجه أحمد بن حنبل وابن الضحاك ورواه الطبري^(١).

وروى صهيب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله وكان علي عليه السلام يقول لأهله: والله وددت لو انبعث أشقاها. أخرجه أبو حاتم.

فأي ثقة وأي عدالة لمن يخالف قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتجرأ على مقامه، فيسمي من سماه صلى الله عليه وآله وسلم شقياً تقياً ويعلن مدحه والثناء عليه. وقد انبرى للرد عليه كثير من علماء الإسلام نظماً ونثراً مما لا يتسع المجال لذكرهم.

وأبو الأحمر السائب بن فروخ المتوفى سنة ١٣٦ هـ وكان شاعراً هجاء خبيثاً فاسقاً مبغضاً لآل محمد، وهو القائل لأبي عامر بن وائلة الصحابي المعروف بأبي الطفيل^(٢).

(١) ذخائر العقبى، ص ١١٥.

(٢) أبو الطفيل عامر بن وائلة بن عبد الله بن عمر الليثي الكنتاني صحابي جليل وهو آخر الصحابة وفاة. بقي إلى سنة ١٠٠ هـ وتوفي فيها وكان من شيعة علي شهد معه حروبه كلها.

لعمرك أنني وأباطفيل لمختلفان والله الشهيد
لقد ضلوا بحب أبي تراب كما ضلت عن لاحق اليهود^(١)
فهذا الرجل كسابقه أيضاً قد تحدى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال:
«علي مع الحق والحق مع علي» وقوله ﷺ: «علي مع القرآن والقرآن مع
علي» إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة عنه ﷺ بأن الهدى في إتباع
علي ﷺ والضلالة في خلافه ولكن هذا الشاعر الأموي قد رد أقوال
النبي ﷺ وتحدى مقامه، فأى عدالة يتصف بها وأي ثقة تدعو إلى
الاطمئنان بقوله!!؟

وحريز بن عثمان الحمصي^(٢) المتوفى سنة ١٦٣هـ كان من المشهورين
بالنصب والمعلنين العداء لعلي ﷺ، وكان ينال منه ويقول: لا أحب علياً
قتل آبائي. ويقول: لنا إمامنا (يعني معاوية) ولكم إمامكم (يعني علياً).

وغير هؤلاء من رجال صحيح البخاري الذين عرفوا بالنصب أمثال
إسحق بن سويد التميمي المتوفى سنة ١٣١هـ، وعبد الله بن سالم الأشعري
المتوفى سنة ١٧٩هـ، وزباد بن علاقة أبو مالك الكوفي المتوفى سنة
١٢٩هـ، وغيرهم من النواصب والخوارج الذين أعلنوا العداء لعلي وتظاهروا
بالتحامل عليه، وقد قال ﷺ: «يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك
إلا منافق». وإن المنافقين لفي الدرك الأسفل من النار.

فكيف تصدق أخبارهم ويؤخذ بأحاديثهم (والله يشهد أن المنافقين
لكاذبون).

فمن الحق وواجب العلم أن نستنكر على البخاري تخريج حديث

(١) نكت الهيمان للصفدي.

(٢) تهذيب التهذيب، ج ١ ص ٢٣٨ وتاريخ بغداد، ج ٢، ص ٢٩٥ وشذرات الذهب، ج ١، ص ٢٥٧ وغيرها.

أناس خالفوا أحاديث الرسول ﷺ في وجوب حب آل لهجه ﷺ وأعلنوا العداء لهم وعرفوا بالنصب، ولعل هناك أمر خفي علينا وكان هو الداعي له على إقدامه لروايته عنهم واحتجاجه بهم، ولست أدري أخفي على البخاري قول النبي لعلي: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق. حتى اشتهر في عصر الصحابة إنهم كانوا لا يعرفون المنافقين إلا ببغضهم علي بن أبي طالب. وبغض علي بغض رسول الله ﷺ؟!.

أم خفي على البخاري قوله عليه السلام: يا علي حربي وسلمك سلمى أليس علي هو من النبي بمنزلة هرون من موسى كما يحدثنا البخاري نفسه في صحيحه، ج ٢، ص ١٩٩!!.

وهناك آلاف من الأحاديث في فضل علي عليه السلام وأهل بيته وقد خرجها الحفاظ من طرق عديدة، ولكن البخاري لم يخرج إلا ثلاثة أحاديث أو أربعة منها، وليس من المعقول أن عدم تخريجه لأكثر من هذا كان لعدم وثوقه بصحتها، ولكن هناك شيء غير هذا، ولعله كان يفقد الشجاعة والجرأة الأدبية كما لاحظ ذلك منه بعض الكتاب فقال ما مضمونه: إن كتاب البخاري لا تتجلى فيه الشجاعة وعدم الخوف من العباسيين كمسند أحمد لأنه - أي مسند أحمد - لم يتخرج من ذكر أحاديث كثيرة في ذكر مناقب عليه وشيعته، وعكسه البخاري.

وللإيضاح نذكر بعض ما ورد في أهل البيت مما خرج حفاظ الحديث وعلماء الأمة من طرق صحيحة ليتضح لنا مدى تحفظ البخاري وإعراضه عن ذكر فضائل آل محمد.

آية التطهير

وانها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ

تخريج الحفاظ لآية التطهير:

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١).

أخرج مسلم في صحيحه عن طريق عائشة: خرج النبي ﷺ وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي ﷺ فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٢).

وأخرج الترمذي من طريق عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ في بيت أم سلمة فدعا النبي ﷺ فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً فجلبهم بكساء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» قالت أم سلمة: يا رسول الله وأنا معهم؟ قال: أنت على مكانك وأنت على خير^(٣).

وأخرج الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفي سنة ٣٠٣هـ من طريق سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللهم هؤلاء أهل بيتي^(٤).

وأخرج الخطيب من طريق أبي سعيد عن أم سلمة قالت: نزلت هذه

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

(٢) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٢٧.

(٣) الترمذي، ج ٤، ص ٣٠٤.

(٤) الخصائص، ص ٤.

الآية وكان في البيت علي وفاطمة والحسن والحسين، قالت: وكنت على باب البيت فقلت: أين أنا يا رسول الله؟ قال: أنت في خير وإلى خير^(١).

وأخرج أيضاً من طريق أبي سعيد عن النبي ﷺ في نزول هذه الآية قال: جمع رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ثم أدار عليهم الكساء فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي... الخ.

وأخرج ابن عبد البر^(٢) قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً في بيت أم سلمة وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» وأخرجه ابن الأثير من طريق أم سلمة^(٣).

وأخرج ابن جرير الطبري في تفسيره عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي، وحسن وحسين وفاطمة. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

وأخرج عن أم سلمة أن هذه الآية نزلت في بيتها وأن في البيت رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين.

وعن أبي سعيد الخدري عن أم سلمة أن النبي ﷺ قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وأخرج أيضاً من طريق أبي هريرة عن أم سلمة مثله، وكذلك أخرجه عن شهر بن حوشب عن أم سلمة.

(١) الخطيب، ج ٩، ص ١٢٧.

(٢) الاستيعاب بهامش الإصابة، ج ١، ص ٢٧.

(٣) أسد الغابة، ج ٥، ص ٥٢١.

وأخرج عن وائلة بن الاسقف عن علي عليه السلام أنها نزلت في رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يمر ببית فاطمة ستة أشهر كلما خرج إلى الصلاة فيقول الصلاة أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ وعن أبي الحمراء مثله ^(١).

وقال السيوطي ^(٢) من طريق أم سلمة: أخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان في بيتها على منام له وعليه كساء خيبري، فجاءت فاطمة فقال ﷺ: أدعي لي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم فينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله ﷺ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ الآية، فأخذ النبي بفضله إزاره فغشاهم ثم أخرج يده من الكساء وأوماً بها إلى السماء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي. الخبر ^(٣).

وقال محمد بن أحمد المالكي: روى الواحدي في كتابه المسمى أسباب النزول يرفعه بسنده إلى أم سلمة أنها قالت: كان النبي ﷺ في بيتها يوماً فأتته فاطمة ببرمة فيها عصيدة فدخلت بها عليه، فقال لها: ادعي لي زوجك وابنيك. فجاء علي عليه السلام والحسن والحسين عليهم السلام فدخلوا يأكلون والنبي ﷺ جالس على دكة وتحته كساء خيبري قالت: وأنا في الحجرة قريب منهم فأخذ النبي الكساء فغشاهم به، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» فأدخلت رأسي

(١) تفسير ابن جرير، ج ٧، ص ٢٢.

(٢) الدر المشور، ج ٥، ص ١٩٨.

(٣) الدر المشور، ج ٥، ص ١٩٨.

وقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ قال ﷺ: إنك على خير، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ الآية^(١).

وأخرجه محب الدين الطبري قال: في بيان أن فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً هم أهل البيت المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ إلى آخر ما ذكر.

ورواه من طريق أم سلمة، ومن طريق عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله ﷺ، ومن طريق زينب بنت أبي سلمة، ومن طريق وائلة بن الاسقف، ومن طريق عائشة^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري أنها نزلت في خمسة: رسول الله، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، وأخرجه أحمد في المناقب والطبراني.

وأخرجه الخطيب البغدادي عن سعد بن أبي عوف عن أبي سعيد عن أم سلمة، وعن أبي سعيد الخدري أنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين^(٣) وأخرجه البغوي من طريق عائشة^(٤).

وأخرجه الحاكم في المستدرک عن عطاء بن يسار عن أم سلمة^(٥).

وقال عبد الملك الثعالبي النيسابوري: جمع النبي علياً وفاطمة والحسن والحسين، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ قال: ويروى أن جبرائيل انضم إليهم واندس فيهم تقريباً إلى الله تعالى بمداخلتهم وقال: كساء آل محمد يضافون إليه فيقال: آل الكساء كما قال ديك الجن في مدحهم:

(١) الفصول المهمة، ص ٦.

(٢) ذخائر العقبى، ص ٢١ - ٢٤.

(٣) تاريخ بغداد، ج ٩، ص ١٢٩ وج ١٠، ص ٢٧٨.

(٤) معالم التنزيل بهامش الخازن، ص ٢١٣.

(٥) المستدرک، ج ٢، ص ٤١٦.

والخمسـة الغر أصحاب الكساء معاً خـير البرية من عجم ومن عرب^(١)

وقال ابن تيمية في جواب من سألـه عن دخول علي عليه السلام في أهل البيت: مما لا خلاف فيه بين المسلمين، وهو أظهر عندهم من أن يحتاج إلى دليل بل هو أفضل أهل البيت وأفضل بني هاشم بعد النبي صلى الله عليه وآله، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله أنه أدار كساء علي وفاطمة وحسن وحسين فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»^(٢).

وقال ابن حجر الهيتمي في شرح همزية البوصيري ص ٣١٩ عند قوله: وبأمر السبطين زوج علي وبنيها ومن حوته العباء وهم النبي صلى الله عليه وآله وفاطمة وعليه وابناهما الحسن والحسين.

وقال: وصح أنه صلى الله عليه وآله جعل علي علي وفاطمة وابنيهما كساء قوال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، فقالت أم سلمة: وأنا منهم؟ قال: إنك على خير؛ وفي رواية ألقى عليهم كساء ووضع يده عليهم وقال: «اللهم إن هؤلاء آل محمد صلى الله عليه وآله فأجعل صلواتك وبركاته على آل محمد إنك حميد مجيد».

وقال الشيخ عبد القادر الرافعي: عند ذكر بيت البوصيري ومن حوته العباء هم: النبي وعلي وفاطمة وابناهما^(٣).

وذكر ابن كثير في تفسيره طرق نزول هذه الآية في الخمسة فقط، وهم محمد صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين، في خمس عشر مورداً. ونود الإشارة إليها زيادة في التوضيح وتأكيده للبيان:

(١) ثمار القلوب: ص ٤٨٣ - ٤٨٤.

(٢) الفتاوى لابن تيمية، ج ١، ص ٢٣٠.

(٣) نيل المراد، ص ٦٥.

١ - حديث أبي الحمراء أن النبي ﷺ كان إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي عليه السلام وفاطمة وقال: الصلاة الصلاة يا أهل البيت، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً.

٢ - حديث شداد بن عمار عن وائلة، قال ابن عمار: إني جالس عند وائلة بن الاسقف إذ ذكروا علياً فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن هذا الذي شتموه، كنت عند رسول الله ﷺ إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم فألقى عليهم كساء لهم ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

٣ - حديث أبي رباح عن حدثه عن أم سلمة أنها نزلت في الخمسة.

٤ - من طريق أبي هريرة عن أم سلمة أيضاً.

٥ - عن حكيم بن سعد: ذكرنا علي بن أبي طالب عن أم سلمة، فقالت في بيتي نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

٦ - عن عطية عن أبيه عن أم سلمة.

٧ - عن سعيد عن أم سلمة.

٨ - عن شهر بن حوشب عن أم سلمة.

٩ - عن عمر بن أبي سلمة عن أم سلمة.

١٠ - عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج النبي ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله معه ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ثم جاء علي فأدخله معه ثم قال ﷺ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

١١ - وعن العوام بن حوشب، عن ابن عم له قال: دخلت مع أبي علي أم المؤمنين عائشة فسألته عن علي فقالت: تسألني عن رجل كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ وكانت ابنته تحته، رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فألقى عليهم ثوباً، فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» قالت: فدنوت منهم فقلت: يا رسول الله وأنا من أهل بيتك؟ فقال: تنحي إنك على خير^(١).

١٢ - عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنها نزلت في خمسة: في علي وفاطمة وحسن وحسين.

١٣ - عن عامر بن سعد عن سعد قال: إن النبي ﷺ حين نزلت عليه فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: ربي هؤلاء أهلي وأهل بيتي.

١٤ - عن أبي جميلة عن الحسن بن علي ﷺ.

١٥ - عن السدي عن أبي ديلم عن علي بن الحسين ﷺ.

هذا ما ذكره ابن كثير في تفسيره سلكننا في نقله طريق الاختصار واعتقد أن المنصف يكتفي بما ذكرنا ولا نحتاج إلى ذكر تفاصيل أخرى حول تخصيص نزول هذه الآية في أهل البيت خاصة، فالأمر أجلى من الشمس.

وكان ﷺ يؤكد بعمله أمام أصحابه بهذه المنزلة، لذلك كان يمر على باب فاطمة يرفع صوته بالسلام عليهم ويتلو هذه الآية.

(١) أخرجه البغوي عن عائشة في معالم التنزيل، ص ٢١٣ المطبوع بهامش تفسير الخازن، وكذلك الخازن نفسه ذكره من طريق عائشة ص ٢١٣، وفيه زيادة أنت من أزواج النبي ولا تنكف البحث عن قوله ﷺ لعائشة تنحي. والحق أنت على خير أو أنت من أزواج النبي.

روى الترمذي في صحيحه عن أنس بن مالك . قال : إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر كلما خرج إلى صلاة الفجر ويقول : الصلاة يا أهل البيت ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾^(١) .

وفي رواية أبي الحمراء : إن النبي ﷺ كان يمر ببית فاطمة وعليه عليه السلام فيقول : السلام عليكم أهل البيت ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

رواه السيوطي عن أبي الحمراء أن النبي ﷺ كان يمر على باب بيت فاطمة ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى الصلاة الغداة إلا وأتى باب فاطمة ويقول : السلام عليكم أهل البيت إنما يريد الله ... الآية^(٢) .

ورواه ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة أبي الحمراء قال رواه الثلاثة^(٣) .

وعن ابن عباس : شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي عليه السلام عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم أهل البيت إنما يريد الله ... الآية خمس مرات .

وهذا البيان منه ﷺ زيادة في البيان لأتمه وتأكيداً لهم في إبراز أهله بتلك المنزلة العظيمة وبديهي أنه ما كان قصده أن يوقظهم للصلاة فهم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .

(١) شرح الترمذي لأبن العربي، ج ١٣، ص ٨٥ وابن عبد البر في الاستيعاب بهامش الإصابة، ج ٤، ص ٤٦ .

(٢) الدر المنثور، ج ٥، ص ١٧٤ .

(٣) الدر المنثور ج ٥، ص ٩٩ وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب، ج ٤، ص ٦٤ .

ولكن لشدة اهتمامه بآله وبإظهار فضلهم للأمة كان يعمل هذا ليطبقه تطبيقاً عملياً. وقال الشيخ عبد المجيد الشرنوبى الأزهرى^(١).

ثم إنه يختلف تفسير آله عليه السلام باختلاف المقامات، ففي مقام الزكاة هم الذين تحرم عليهم الصدقة كبنى هاشم وفي مقام المدح هم أهل بيته الكرام الذين يحبهم وبزيارتهم يبلغ العبد المرام. وفي الحديث: من مات على حب آل محمد مات مغفوراً له. ولله در القائل:

أرى حب آل البيت عندي فريضة على رغم أهل البعد يورثني القربى
فما اختار خير الخلق منا جزاءه على هديه إلا المودة في القربى
وهم أهل العبا جمعهم النبي صلى الله عليه وآله تحت الكساء وقال: اللهم هؤلاء
أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فأنزل الله عز وجل:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ الآية. وهم الحسن والحسين وأمهما وأبوهما، كما قال بعضهم:

إن النبي محمداً ووصيه وابنيه وابنته البتول الطاهرة
أهل العباء وأنسي بولائهم أرجو السلامة والنجا في الآخرة
ورواه الشيخ عبد الله الشبراوي^(٢)، وأخرجه ابن عساكر في تاريخه
وأطال البحث في تحقيقه^(٣). ومحمد بن يوسف الشافعي في كفاية
الطالب^(٤). والشيخ أبو بكر بن ملا الحنفي في كتاب قرة العيون^(٥). وابن
عبد ربه في العقد الفريد^(٦).

(١) شرح الشافية، ص ١٢٣.

(٢) الأنحاف السنية، ص ٥.

(٣) تاريخ ابن عساكر، ج ٤، ص ٢٠٤.

(٤) كفاية الطالب، ج ٢، ص ١٣.

(٥) قرة العيون، ج ١، ص ١٨٩.

(٦) العقد الفريد، ج ١، ص ٣٧.

والشيخ نعمان الألوسي في غالبية المواعظ قال أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن الآية نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين وأخرج البيهقي والترمذي وابن المنذر عن أم سلمة... (١).

وأخرجه الواحدي في أسباب النزول عن أبي سعيد عن أم سلمة (٢).

ويطول بنا البحث، في تتبع إيضاح هذه الآية، وذكر روايتها، وبيان اختصاصها بآل محمد ولا يشاركهم بتلك المنزلة أحد، فنقتصر على هذا البيان الموجز بالنسبة لما تقتضيه من إيضاح يستدعي إلى وضع مجلدات.

حديث الغدير

رواة حديث الغدير من الصحابة:

رواه جماعة من الصحابة، ينوف عددهم على المائة، وفي طليعتهم أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري المتوفى سنة ٢١ هـ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «ما أضلت الخضراء، ولا أفلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر»، رواه عنه جماعة من الأعلام.

وحذيفة اليماني المتوفى سنة ٢٩ هـ والبراء بن عازب، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري المتوفى بغزوة الروم سنة ٥٠ هـ، وسعد بن أبي وقاص، وسلمان الفارسي المتوفى سنة ٣٦ هـ وطلحة بن عبيد التيمي، وعائشة زوجة النبي ﷺ أخرج حديثها ابن عقدة (٣) في كتاب حديث الولاية.

(١) غالبية المواعظ، ج ٢، ص ٨٦.

(٢) أسباب النزول، ص ٢٦٧.

(٣) هو أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي المتوفى ٢٣٠ قال الذهبي: هو حافظ العصر والمحدث البحر، كان إليه انتهى في قوة الحفظ وكثرة الحديث، وقال الدارقطني أجمع أهل الكوفة إنه لم يكن بالكوفة من=

وعبد الله بن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ والعباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وعثمان بن عفان، وأبو اليقظان عمار بن ياسر العنسي شهيد صفيين سنة ٢٧ هـ، والصديقة فاطمة بنت النبي ﷺ وغيرهم إلى عدد يتجاوز المائة.

ورواه من التابعين عدد ينوف على الثمانين، وكانت عناية الجميع بهذا الحديث ظاهرة، وقد خرج جماعه من العلماء في كتبهم المعتبرة كمسلم في صحيحه، والترمذي والحاكم، وعدد لا يمكننا حصره بهذه العجالة، وقد ألف فيه جماعة كتباً خاصة يربو عددهم على الثلاثين.

وشهد به لأمر المؤمنين عدد من الصحابة، يوم ناشدهم بحديث الغدير في مواطن عديدة كيوم الشورى، وأيام عثمان، ويوم الرحبة، وقام له في ذلك اليوم من الصحابة عدد ليس بالقليل وفي طليعتهم: أبو الهيثم بن التيهان وأبو هريرة الدوسي؛ وأبو سعيد الخدري، وغيرهم عدد لا يقل عن العشرين وتواتر النقل بتعدد مناشدة أمير المؤمنين أصحاب محمد ﷺ بإظهارهم للملا هذا الحديث الشريف كما ورد أنه ناشدهم يوم الجمل، ويوم الركباني في الكوفة، وشهد له بذلك جماعة من الصحابة منهم عمار بن ياسر وهو من البدرين، وأبو الهيثم بن التيهان، وهزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وقيس بن سعد بن عبادة، وهم ممن شهدوا بصدقاً. وقد أخفى ذلك الحديث جماعة من القوم لمؤثرات العاطفة وعوامل التعصب فدعا عليهم أمير المؤمنين ﷺ بقوله: اللهم من كنتم هذه الشهادة وهو يعرفها

«زمن ابن مسعود إلى زمن ابن عقدة أحفظ منه، وقال أبو علي الحافظ: ما رأيت لحديث الكوفيين أحفظ من أبي العباس بن عقدة، وكان ابن عقدة يقول: أحفظ مائة ألف حديث بأسانيدنا ويقول أجيب في ثلثمائة ألف حديث من أحاديث أهل البيت قال الذهبي وكان مقدماً في الشيعة، انظر تذكرة الحفاظ للذهبي، ج ٣، ص ١٦ وذكرنا ترجمته هنا لأنه من الذين ألفوا في حديث الغدير في القرن الرابع وأخرج الحديث من مائة وخمسين طريقاً.

فلا تخرجه من الدنيا حتى تجعل به آية يعرف بها، فبرص أنس، وعمي البراء بن عازب، ورجع جرير إعرابياً بعد هجرته وهم ممن كتبوا شهادتهم ولم يؤدوا ما حملوا، ومنهم زيد ابن أرقم، ويزيد بن وداعة.

وكذلك ناشد أمير المؤمنين عليه السلام أصحاب محمد صلى الله عليه وآله يوم صفين، واحتجت به فاطمة عليها السلام والإمام السبط الحسين بن علي عليه السلام وعبد الله بن جعفر وغيرهم، ولزيادة البيان نورد طرفاً من خطبة النبي صلى الله عليه وآله يوم الغدير.

خطبة النبي ﷺ يوم الغدير:

أخرج ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٢١٠هـ في كتاب الولاية بسنده عن زيد بن أرقم قال: لما نزل النبي ﷺ بغدير خم في رجوعه من حجة الوداع وكان في وقت الضحى وحر شديد فأمر بالدوحات فقامت ونادى للصلاة جامعة فجمعنا فخطب فخطب باللغة ثم قال:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ إِلَيَّ ﴿يَبْلُغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَقْضِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وقد أمرني جبرائيل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخي ووصي وخليفتي والإمام بعدي، فسألت جبرائيل أن يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذنين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي، وشدة إقبالي عليه حتى سموني أذنًا، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ولو شئت أن أسميهم وأدل عليهم لفعلت ولكني بسترهم قد تكرمت، معاشر الناس فإن الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً وفرض طاعته على كل أحد ماض حكمه جائز قوله. ملعون من خالفه. مرحوم من صدقه، وأطيعوا فإن الله مولاكم وعلي إمامكم، ثم الإمامة من صلبه إلى القامة. ومنها:

«افهموا كتاب الله، ولا تتبعوا متشابهه ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا أخذ بيده شائل بعضده ومعلمكم: إن من كنت مولاه فعلي مولاه ومولاته من الله عز وجل أنزلها علي. ألا وقد أدبت، ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت» إلى آخر خطبته عليه السلام التي رواها الثقات من رجال الأمة.

ومن أراد الإطلاع وسعه البيان فليراجع ما كتبه الحجة المتتبع فقيه التاريخ شيخنا العلامة الأمين الشيخ عبد الحسين الأميني في كتابه «الغدير» ففيه نجعة الرائد وبغية الطالب.

فهذا بيان موجز عن حديث الغدير، الذي تخرج البخاري عن إخراجهِ وتنكر له كما تنكر لكثير من فضائل أهل البيت، وحادثة الغدير أهم الحوادث الإسلامية التي سجلها التاريخ بصورة لا مجال لأحد إنكارها، وأهم شيء إنكار بعض المسلمين لهذه الحادثة المهمة، مكابرة منهم بعد وضوح الحجة والدليل القاطع يوم قام النبي صلى الله عليه وآله في ذلك الحفل الرهيب، والجمع الحاشد وفي ذلك الهجير المضطرم، في غدير خم حيث مفترق المدنيين والمصريين والعراقيين، وعدد الجمع لا يقل عن مائة ألف، وبلغ ما أمر به ربه «بأن ينص على علي عليه السلام وينصبه علماً للناس من بعده، وكان النبي صلى الله عليه وآله يعلم أن ذلك سوف يثقل على الناس وقد يحملونه على المحابة والمحبة لابن عمه وصهره، ومن المعلوم أن الناس ذلك اليوم وإلى اليوم ليسوا في مستوى واحد من الإيمان واليقين بنزاهة النبي صلى الله عليه وآله وعصمته عن الهوى والغرض، ولكن الله سبحانه لم يعذره في ذلك فأوحى إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فلم يجد بداً من الامثال بعد هذا الإنذار الشديد، فخطب الناس عند منصرفه من حجة الوداع في غدير خم فنادى وجلهم يسمعون: ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فقالوا: اللهم نعم. فقال: «من كنت مولاه فهذا علي

مولاه» إلى آخر ما قال ثم أكد ذلك في مواطن أخرى تلويحاً وتصريحاً وإشارة ونصاً حتى أدى الوظيفة، وبلغ عند الله المعذرة، ولكن كبار المسلمين بعد النبي ﷺ تأولوا تلك النصوص نظراً منهم لصالح الإسلام حسب اجتهادهم فقدموا وأخروا وقالوا: «الأمر يحدث بعده الأمر»^(١).

عناية الشيعة بعيد الغدير:

وكان عيد الغدير محل عناية أهل البيت وشيعتهم على مرّ العصور يقيمون شعائره حسب مناسبات الظروف، وفي عهد آل بويه أقيم في بغداد سنين متطاولة بصورة علنية نظراً لرفع الرقابة وعدم الحذر، وقد عظم ذلك على خصوم الشيعة فثاروا ضد إعلان هذا العيد وحدثت ثورات دموية بين السنة والشيعة على ممر الزمن، والشيعة متمسكة بإظهار هذا العيد لا تقف تلك المحاولات في طريق إقامة شعائره، ولما رأى خصوم الشيعة أن وسائلهم التي قاموا بها ضد هذه الشعائر كان نصيبها الفشل، التجأوا إلى المغالطات العلمية فقاموه في أحداث عيد يقابلون فيه عيد يوم الغدير الزاهر. وهو يوم الغار وجعلوه عيداً وأقاموا الزينة ونصبوا القباب في اليوم السادس والعشرين من ذي الحجة، وزعموا أن النبي ﷺ وأبا بكر اختفيا في الغار، وهذا من الجهل والغلط البين، فإن أيام الغار إنما كانت في آخر صفر أو أول شهر ربيع الأول^(٢) واستمروا على ذلك مدة ثم كان مصير هذا العيد إلى الإهمال والنسيان.

أما الشيعة فقد استمروا بإقامة عيد الغدير وإقامة المآتم يوم عاشوراء فضايق بأعدائهم ذرعاً ففي سنة ٣٦٣هـ عمدوا إلى مقابلة الشيعة وأركبوا امرأة

(١) أصل الشيعة وأصولها، ص ١٠٨.

(٢) شذرات الذهب لابن العماد، ج ٣، ص ١٢٠.

وسموها عائشة، وتسمى بعضهم بطلحة وبعضهم بالزبير، وقالوا: نقاتل أصحاب علي فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير^(١).

واستمرت الفتن بين الطرفين بسبب إقامة هذه الشعائر، وبلغت مبلغاً شديداً حتى التجأ خصوم الشيعة إلى الاستعانة بالجند والسودان وذلك في سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م وكان الجنود يسألون من يجدونه في الطريق من خالك؟ فإن لم يقل معاوية ضربوه.

وطاف أحد السودان المتهجمين بالطرقات وهو يصيح بين الناس: معاوية خال علي فتابعه العامة، وأصبحت هذه هي صيحة أهل السنة بمصر حينما يريدون قتال الشيعة^(٢).

ويحكي عن بعض الشيعة في تلك المحنة قيل له: معاوية خالك فقال: لا أدري أكانت أمي نصرانية. كل ذلك محاولة منهم لإرغام الشيعة على ترك إقامة هذه الشعائر، ولكنها مرت على ذلك غير مبالية بتلك المقابلات الفاشلة.

كما أنهم قابلوا يوم عاشوراء بيوم مصرع مصعب بن الزبير، وأقاموا عليه النياحة وزاروا قبره يومئذ بمسكن ونظروه بالحسين عليه السلام لكونه صبر وقاتل حتى قتل، ولأن أباه ابن عمه رسول الله وحواريه، كما أن أبا الحسين عليه السلام ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وفارس الإسلام فنعوذ بالله من الهوى والفتن^(٣).

وناهيك ما جرى في بغداد من حروب دامية مبعثها الجهل والتعصب التي يقف القلم عند وصفها، وأعظمها محنة وقعة الكرخ التي تجلت فيها

(١) تاريخ ابن كثير، ج ١١، ص ٢٢٥.
(٢) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز، ص ١٠٨.
(٣) شذرات الذهب، ج ٣، ص ١٣٠.

نفسية قوم أشرب في قلوبهم بغض آل محمد والقضاء على من يواليهم، فقد هجمت طوائف يبعثهم صلف الولاة وميلهم للنزعات، حتى أحرقوا دور شيعة آل محمد عليه السلام وقتلوا الرجال والأطفال فكانت عاقبة الدولة إلى الدمار والانهيار بعد تلك الحادثة بقليل، وليس في وسعنا التعرض لذكر تلك الفجائع السود ولا نود نبش تلك الدفائن التي مرت في تلك العصور المظلمة، ونحن في عصر ما أحوجنا فيه إلى الأخوة والاتحاد لنقابل من يكيد الإسلام ويحاول القضاء على تعاليمه ولا يروق له اتحاد المسلمين لأن في اتحادهم يكون القضاء على المستبدين بأمور الأمة، لوجود الوعي الشامل بوجوب تطبيق نظام الإسلام ومن الله نسأل تحقيق ذلك.

حديث الثقلين

تخريج الحفاظ لحديث الثقلين:

أخرج مسلم في صحيحه من طريق زيد بن أرقم خطبة النبي عليه السلام يوم الغدير وقوله عليه السلام فيها: وأنا تارك فيكم الثقلين كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي^(١).

وأخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله عليه السلام: إني محاربتهم ديناً نسبوه ظلماً لجدهم عليه السلام ولعبت أطوار التاريخ في ذلك أدواراً مريرة، حتى جردوهم من أنسابهم وأملأهم وأوقافهم؛ بعد أن أفاءوا عليهم صنوف المهانات وألوان العذاب باسم الدين المظلوم ما لا يعلمه إلا الله، ولم يكفهم أن ينالوا منهم حتى دفعهم سوء الطبع وسوء الأدب وسوء

(١) صحيح مسلم، ج ٧، ص ١٢٢.

الإيمان والغفل الدفين إلى تأليف الكتب في اضهاد آل الرسول وسبهم باسم إحياء السنة واجتهاد الرسول والعياذ بالله. انتهى^(١).

وقال في القاموس في مادة ثقل: الثقل كعنب، ضد الخفة، والثقل محركة متاع المسافر وحشمته وكل شيء نفيس مصون، ومنه الحديث: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي».

وقال محب الدين في التاج في مادة ثقل عند ذكر الحديث: جعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وتفخيماً لهما، قال ثعلب: سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما ثقل والعمل بهما ثقل.

وقال ابن أبي منظور في لسان العرب: روي عن النبي ﷺ أنه قال في آخر عمره: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» ثم ذكر قول ثعلب وقال: وأصل الثقل أن العرب تقول لكل شيء نفيس مصون خطير ثقل فسماهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وتفخيماً لشأنهما ويقال للسيد العزيز ثقل، إلى آخره.

وقال ابن الأثير في النهاية بعد أن ذكر قوله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما والعمل بهما ثقل، ويقال لكل خطير ثقل، وقال في المصباح: العترة نسل الإنسان قال الأزهري وروي ثعلب عن أبي الإعرابي: إن العترة ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه ولا تعرف العترة غير هذا.

وقال السيد محمد صديق حسن البخاري في كتاب الدين الخالص بعد ذكره لهذا الحديث من طريق زيد من أرقم:

هذا الحديث فيه فضيلة أهل البيت وبيان عظم حقهم في الإسلام،

وإنهم قرين القرآن في التعظيم والإكرام، وليس بعد هذا البيان من رسول الله ﷺ بيان، ولا قرية بعد عبادان.

وقال: وعندي أن المراد بهم «أي بأهل البيت» هم الموجودون في عصر النبوة أولاً بالذات، ولكن يدخل فيهم أيضاً من وجد بعدهم من السادة القادة إلى العلم والعبادة، كالأئمة الاثني عشر من العترة.

إلى أن يقول: والمراد بأهل البيت - هنا - العترة الطاهرة، والذرية المطهرة خاصة دون أزواج النبي ﷺ^(١).

ويطول بنا الحديث إذا حاولنا تتبع مخارج هذا الحديث وبسط القول فيه، وقد اقتصرنا على هذا القدر من طرده وقد ألف الحافظ محمد بن طاهر بن علي المعروف بالقيصري كتاباً خاصاً جمع فيه طرق هذا الحديث وقد خرجه عن ٢٧ صحابياً.

وهناك أمر يستدعي الانتباه وهو أن يد التحريف التي لا زالت تبعث على الأمة عوامل التفرقة قد جنت جناية عظيمة، فحرفته مخالفة لله ولرسوله فإن الحديث يقول: كتاب الله وعترتي، هم يقولون كتاب الله وسنتي وهم يقصدون من وراء ذلك تغيير الواقع والتمويه لما يتضمنه هذا الحديث الشريف الذي قرن العترة بالكتاب، وجعلهما كتوأمين يلزم التمسك بهما، وإيثار أحدهما، وأن العترة باقية إلى يوم القيامة.

قال الشريف السمهودي: هذا الخبر يفهم منه وجود من يكون أهلاً للتمسك به من عترته ﷺ في كل زمن إلى قيام الساعة حتى يتوجه الحث المذكور على التمسك به، كما أن الكتاب كذلك، ولذا كانوا أماناً لأهل الأرض، فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض^(٢).

(١) الدين الخالص، ج ٣، ص ٥١١ - ٥١٤.

(٢) الدين الخالص، ج ٣، ص ٥١١ - ٥١٤.

وقال الشيخ الزرقاني - بعد شرحه لهذا الحديث -: أما الكتاب فلا نه معدن العلوم الدينية، والأسرار والحكم الشرعية، وكنوز الحقائق، وخفايا الدقائق.

وأما العترة فلأن العنصر إذا طاب أعان على فهم الدين، فطيب العنصر يؤدي إلى حسن الأخلاق، ومحاسنها يؤدي إلى صفاء القلب ونزاهته وطهارته، وأكد ﷺ تلك الوصية وقواها بقوله: «فانظروا بماذا تخلفوني فيهما» هل تبعوني فتسروني، أو لا فتسيئونني؟^(١).

وهو ﷺ أعرف بالمصالح العامة، ورأى أن مصلحة أمته في التمسك بهذين الثقليين من باب رعاية المصلحة لهم، وتحصيلاً لسعادتهم، فأكد ﷺ في عدة مواطن على لزوم إتباع أهل بيته وإنهم أولى الناس برعاية شؤون الأمة ولذا جعل مثلهم كمثّل سفينة نوح.

حدث أبو ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ - وهو آخذ بباب الكعبة - أنه قال: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق».

خرجه أحمد بن حنبل والحاكم في المستدرک، وغيرهما من المحدثين. وأخرج الطبراني عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إنما أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له».

وغير هذه الأحاديث الواردة بالطرق الصحيحة مما ملا سمع الدنيا ورددتها الأجيال وأوردها العلماء فهي تقضي بوجوب التمسك بأهل البيت وإتباعهم وحبهم ومناصرتهم، فهم دعاة الحق وهداة الخلق، وأعلام الرشاد وقادة العباد.

(١) شرح المواهب المدنية، ج ٨، ص ٢٠.

ونحن نقطع بأن المسلمين لو توفرت لهم حرية الرأي توافراً تاماً ليعلموا غير خائفين فيمن يجب أن يرشحوه خليفة عليهم، ويؤهلوه لرعاية أمورهم وولاية أمرهم لتحقيق المصالح العامة وسعادة المجتمع الإسلامي من جميع الوجوه، لما عدلوا عن أهل بيت النبي ﷺ رعاية لوصاياه ﷺ وامتنالاً لأمره، وإن أهله المرشحين للخلافة قد اجتمعت فيهم خصال الكمال وأهلية الرعاية وولاية الأمر ولم يستطع أحد أن يلصق بهم عيباً وإن كان خصماً لهم، وحرماً عليهم.

ولكن الأمر أصبح وراثياً في أسرة معينة، ينتقل من واحد لواحد بالوصاية وولاية العهد. كما رأينا من فعل معاوية ببيعة يزيد بالسيف وقوة السلطان، وهكذا من بعده في ولاية الحكم ولا رأي للأمة في ذلك.

وعلى أي حال فإن أهل البيت هم هداة الأمة، وكانت الأنظار تتجه إليهم في جميع الأدوار، وسنوضح فيما بعد التفاف الناس حول الإمام الصادق وترشيحه لولاية الأمر، لأنه زعيم أهل البيت وسيدهم في عصره.

ونعود إلى القول: بأن عدم تخريج الشيخ البخاري أحاديث الإمام الصادق هو شيء يعود إلى البخاري نفسه ولا يقدر بشخصية الإمام الصادق عليه السلام فهو الذي أجمعت الأمة على صدقه فلقبوه بالصادق، وقد خرج البخاري أحاديث تلامذة الإمام الصادق عليه السلام ولكنه تجنب الروايات التي يروونها عنه عليه السلام.

وليس بغريب أن تقضي الظروف القاسية بأن يبتعد الناس عن أهل البيت حباً للسلامة أو استسلاماً لعوامل أخرى.

ولا بد لنا أن نشير هنا بأن البخاري لم يجمع الأحاديث الصحيحة عنده كلها فإنه قد ترك الكثير منها.

حدث الإسماعيلي عنه أنه قال: لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً وما تركت من الصحيح أكثر^(١).

وقد نقل عنه أنه يحفظ مائة ألف حديث صحيح^(٢) وليس في كتابه بالنسبة لذلك إلا القليل، فإن جميع ما فيه أربعة آلاف والمكرر ألفان فيكون المجموع ستة آلاف.

ومع هذا فلا يمكن القطع بصحة كل ما يرويه أو أنها أصح الأحاديث.

قال المحقق ابن همام في شرح الهداية: وقول من قال: أصح الأحاديث ما في الصحيحين، ثم ما انفرد به البخاري، ثم ما انفرد به مسلم، ثم ما اشتمل على شرطهما، ثم ما اشتمل على شرط أحدهما تحكم لا يجوز التقليد فيه، إذ الأصحية ليست إلا لاشتمال رواتها على الشروط التي اعتبرها، فإن فرض وجود تلك الشروط في رواية حديث في غير الكتابين أفلا يكون الحكم بأصحية ما في الكتابين عين التحكيم؟!.

وبعد هذا نقول: لعل ترك البخاري للأحاديث الصحاح في فضائل أهل البيت عليه السلام لم يكن لعدم وثوقه في صحتها، أو توقفه عن قبولها، ولكنه مع ذلك تركها عمداً اختصاراً لكتابه، أو تهيباً مما وراء ذلك من اتهام.

كما أن عدم تخريج أحاديث الإمام عليه السلام لا لشيء يعود لنفس الصادق عليه السلام بل أن ذلك يعود لنفس البخاري، ولم يستطع البخاري ولا غيره أن يجرحوا الإمام الصادق عليه السلام بشيء أبداً.

(١) هداية الباري، ص ٥.

(٢) شرح الفية العراقي، ج ١ ص ٤٨.

والأمة الإسلامية قد تقبلت رواياته وأخذت بأقواله عليه السلام حتى لقب بالصادق، وكان المرجع الوحيد لإيضاح المبهم وحل ما أشكل عليهم: وقد ملأ رواة حديثه الأقطار الإسلامية، وكان في الكوفة ألف شيخ محدث كل يقول: حدثني جعفر بن محمد.

ولا نطيل الحديث هنا وسيأتي فيما بعد ما له صلة بالموضوع إن شاء الله.

بعض المؤلفين من تلامذته:

وقد ألف تلامذته المختصون به كتباً في سائر العلوم والفنون. منهم:

١ - أبان بن تغلب الربيعي أبو سعيد الكوفي المتوفى سنة ١٤١هـ. له كتاب (معاني القرآن) كتاب (القراءات) كتاب من الأصول على مذهب الشيعة^(١).

٢ - علي بن يقطين المتوفى سنة ١٨٤هـ. له كتاب ما سئل عنه الإمام الصادق من أمور الملاحم^(٢).

٣ - أبو حمزة ثابت بن أبي صفية الثمالي المتوفى سنة ١٥٠هـ. له كتاب في التفسير، وكان من تلامذة الباقر والصادق^(٣).

٤ - أبو بصير يحيى بن القاسم المتوفى سنة ١٥٠هـ وهو من تلامذة الباقر والصادق عليه السلام له تفسير القرآن، ذكره ابن النديم.

٥ - علي بن حمزة: أبي الحسن الكوفي البطائني من تلامذة الإمام الصادق. له كتاب جامع أبواب الفقه، ذكره النجاشي.

(١) فهرست ابن النديم، ص ٣٠٨.

(٢) فهرست ابن النديم، ص ٣٠٨.

(٣) كشف الظنون، ج ٢، ص ٤٤٤ وفهرست ابن النديم، ص ٥٠.

٦ - إسماعيل بن أبي خالد محمد بن مهاجر له كتاب محبوب في القضاء، ذكره الشيخ الطوسي.

٧ - المفضل بن عمر الكوفي. له كتاب التوحيد الذي أملاه عليه الإمام الصادق عندما التقى المفضل بأحد الزنادقة وناظره، وطلب من الإمام أن يملئ عليه بما يقوى به على مناظرة الزنادقة، فأملئ عليه الإمام الصادق تلك الدروس القيمة التي تحتوي على دلائل التوحيد، ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم من بيان هيئة العالم، وتأليف أجزائه، وكيف خلق الإنسان وتكوينه، وكيفية ولادته وتغذيته، وغرائزه وطبائعه، وبيان الدماغ وعظمته، وما فيه وفي سائر الأعضاء من عجب الصنع، وعظيم القدرة، وذكر الفؤاد والنخاع، والدم والأوردة والشرابين، وبيان قوى البدن من جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة، وبيان تركيب بدنه وتنسيق أعضائه وانتصاب القامة واعتدالها، وبيان الحواس وأعمالها وأسرارها والوسائط التي بينها من ضياء وهواء، وماهية الصوت وحقيقة الكلام، والمنطق والكتابة وما أعطي الإنسان من علم، والأشياء المخلوقة لمآرب الإنسان، وما يتوقف عليه نظام حياته، إلى غير ذلك.

وقد شرحه الأستاذ الطبيب الماهر محمد الخليلي شرحاً وافياً بالغرض، وطبقه على العلوم الحديثة في مجلدين، ولا يزال مخطوطاً تتمنى له الظهور لعالم النشر.

٨ - هشام بن الحكم المتوفى سنة ١٨٥ هـ.

أبو محمد الشيباني الكوفي من تلامذة الإمام الصادق وابنه موسى الكاظم عليهما السلام، له من الكتب: كتاب (الإمام) كتاب (حدوث الأشياء). كتاب (الرد على الزنادقة)، كتاب (الأكف)، وغيرها. وقد ذكر له ابن النديم خمسة وعشرين كتاباً^(١).

٩ - محمد بن النعمان .

١٠ - أبو جعفر الأحول المعروف بـ (مؤمن الطاق) وتسميه خصومه (شيطان الطاق) من أصحاب أبي عبد الله الصادق، كان متكلماً حاذقاً، له من الكتب: كتاب (الإمامة)، كتاب (المعرفة)، كتاب (الرد على المعتزلة)، كتاب في أمر طلحة والزبير^(١).

وغير هؤلاء من تلامذة الإمام الصادق الذين ألفوا في عصره سائر العلوم والفنون، كما ستقف عليه في بحث تدوين الفقه والحديث .

ونعود إلى الحديث عن بعض رواة حديث الإمام الصادق عليه السلام من كبار العلماء وحملة الحديث من رؤساء طوائف وأئمة مذاهب وغيرهم، مقتصرين على ذوي الشهرة منهم ومن خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، وقد سلكنا طريق الاختصار لضيق المجال .

تلامذته ورواة حديثه:

١ - إبراهيم بن سعد :

إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن الزهري المتوفى سنة ١٨٣هـ أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة، روى عنه يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل وخلق كثير، وثقه ابن معين، وأبو حاتم، والعجلي، وأحمد بن حنبل، وروايته عن الصادق في التهذيب والكافي يرويها عنه ابنه يعقوب .

٢ - إبراهيم بن زياد :

إبراهيم بن زياد البغدادي المتوفى سنة ٢٢٨هـ . روى له مسلم وأبو داود والنسائي .

٣ - إبراهيم بن محمد:

إبراهيم بن محمد بن يحيى الأسلمي أبو إسحاق المدني المتوفى سنة ١٩١هـ.

٤ - إبراهيم بن طهمان:

إبراهيم بن طهمان بن شعيب الهروي المتوفى سنة ١٦٨هـ. كان أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة، قال أبو نعيم: حدث عن جعفر بن محمد الصادق: وثقه أحمد، وأبو داود، وأبو حاتم.

٥ - إبراهيم بن علي:

إبراهيم بن علي بن الحسن رافع المدني. روى عنه أحمد بن محمد، وإبراهيم بن المنذر، ويعقوب بن حميد. خرج حديثه ابن ماجه.

٦ - إبراهيم بن مهاجر الأزدي:

روى عنه حفص بن راشد وغيره، وذكره الخطيب في المتق.

٧ - إبراهيم بن محمد:

إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى المتوفى سنة ١٨٤هـ. أحد الأعلام روى عنه الشافعي ووثقه، والثوري، ويحيى بن آدم. قال أحمد بن حنبل: «كان قديراً معتزلياً جهمياً كل بلاء فيه». وقال ابن عقدة: «ليس بمنكر الحديث» وقال ابن عدي: «هو كما قال ابن عقدة». ذكره الشيخ الطوسي في رجال الصادق، وأن له كتاباً مهبواً في الحلال والحرام يرويه عن جعفر بن محمد. وقال بعض ثقات العامة: إن كتب الواقدي سائرهما إنما هي منه.

٨ - بسام بن عبد الله:

بسام بن عبد الله الصيرفي أبو الحسن الكوفي، وثقه أحمد ويحيى بن

معين. خرج له النسائي في صحيحه. قال ابن حجر: «صدوق من الخامسة».

٩ - بشار بن قيراط:

بشار بن قيراط النيسابوري أبو نعيم، روى عنه عبد الله بن الوليد بن مهران وعمر بن رافع ونوح بن أنس، قال ابن عدي كان ينتحل الرأي، وروى عنه عمار بن الحسن.

١٠ - بشار بن ميمون:

بشار بن ميمون الخراساني المتوفى سنة ١٨٠هـ. سكن مكة، وقدم بغداد وحدث بها عن جعفر بن محمد، فترك الناس حديثه، نظراً لظروف سياسة الدولة التي تريد أن تطيع الناس بطابعها الخاص.

١١ - تليد بن سليمان:

تليد بن سليمان المحاربي أبو سليمان الكوفي الأعرج المتوفى سنة ١٩٠هـ، روى عنه أحمد بن حنبل وإسحاق بن موسى، خرج حديثه الترمذي. قال ابن عقدة: إن له كتاباً عن الصادق يرويه عنه جماعة.

١٢ - الجراح بن مليح:

الجراح بن مليح الرواسي الكوفي المتوفى سنة ١٧٥هـ. روى عنه ابنه وأبو قتيبة، وسفيان بن عتبة، وابن مهدي. قال ابن سعد: ولي بيت المال ببغداد في خلافة هارون، وكان ضعيفاً في الحديث. روى له البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه، وأبو داود والترمذي وابن ماجه. قال أبو أحمد بن عدي: له أحاديث صالحة وروايات مستقيمة. وحديثه لا بأس به، وهو صدوق.

١٣ - جرير بن عبد الحميد:

جرير بن عبد الحميد بن قرط أبو عبد الله الرازي القاضي المتوفى سنة ١٨٨هـ. روى عنه ابن راهويه، وابنا أبي شيبة، ويحيى بن معين، وموسى القطان، ومحمد بن قدامة وغيرهم.

قال العجلي: كوفي ثقة نزل الري. وقال النسائي: ثقة. وقال أبو قاسم: مجمع على ثقته، وهو من رجال الصحاح الستة. عده الشيخ في رجاله من أصحاب الصادق. وقال ابن حجر في التقریب: ثقة صحيح.

١٤ - حبيب بن النعمان:

حبيب بن النعمان الأسدي أحد بني عمر بن أسد.

قال النجاشي: حبيب بن النعمان النجاشي رجل من بني أسد من أهل البادية، له كتاب يرويه عن الصادق عليه السلام. وقال ابن حجر: حبيب بن النعمان مقبول من السادسة. وذكره ابن حبان في الثقات. روى له أبو داود وابن ماجه.

١٥ - حبيب بن يسار:

حبيب بن يسار الكندي الكوفي. روى عنه زكريا بن يحيى الحميري، وأبو الجارود، ويوسف بن صهيب وغيرهم. وثقه ابن معين، وأبو زرعة، وأبو داود. وذكره ابن حبان في الثقات. قال ابن حجر: ثقة من الثالثة. ذكره الشيخ في رجال الصادق وأخرج حديثه الترمذي وأبو داود.

١٦ - الحسن بن عياش:

الحسن بن عياش بن سالم الأسدي أبو محمد الكوفي المتوفى سنة ١٧٢هـ. روى عنه ابن مهدي وأحمد بن يونس. وثقه ابن معين والنسائي وابن حبان. خرج له مسلم والترمذي والنسائي.

١٧ - الحكم بن عتبة:

الحكم بن عتبة أبو محمد الكندي مولا هم المتوفى سنة ١١٣ هـ - ١١٤ هـ. روى عنه الأعمش، ومنصور، وأبو إسحاق السبيعي، والشيباني وغيرهم وهو من رجال الصحاح الستة.

ذكره النجاشي في رواة الصادق، روى له في الكافي والتهذيب والنهاية. قال ابن حجر: ثقة ثبت فقيه. وقال ابن عيينة: ما كان بالكوفة بعد إبراهيم والشعبي مثل الحكم. وثقه أبو حاتم وابن معين. وقال العجلي: كان صاحب سنة وإتباع، وكان فيه تشيع إلا أن ذلك لم يظهر منه.

وقد نص على تشيعه شعبة بن الحجاج وابن قتيبة.

١٨ - الحارث:

ابن عمران الجعفري المدني خرج حديثه ابن ماجه، وروى عنه عبد الله ابن عمر بن محمد المعروف بمشكداته، وعلي بن محمد الموصلي، ومحمود بن غيلان.

١٩ - الحارث:

ابن عمير البصري نزيل مكة، روى عنه ابنه حمزة، وعبد الرحمن بن مهدي وجماعة، وكان حماد بن زيد يقدمه ويشني عليه وثقه ابن معين وخرج حديثه الأربعة.

٢٠ - حميد بن قيس:

حميد بن قيس الأعرج المتوفى سنة ١٣٠ هـ من رجال الصحاح الستة. روى عنه معمر والسفيانان ومالك بن أنس وغيرهم.

٢١ - حماد بن عيسى:

حماد بن عيسى الجهني المدني نزيل البصرة المتوفى سنة ٢٠٨هـ. خرج حديثه الترمذي وابن ماجه. وروى عنه إسحاق الجوزجاني ومحمد بن بكار البصري ومحمد بن المثنى وغيرهم.

٢٢ - الحارث بن عمران الأسدي:

الحارث بن عمران الأسدي. روى عنه أبو سعيد الأشج، وخرج حديثه ابن ماجه.

٢٣ - حاتم بن إسماعيل:

حاتم بن إسماعيل المدني أبو إسماعيل الحارث مولى بني عبد الدار المتوفى سنة ١٨٦ - ١٨٧هـ. خرج حديثه أصحاب الصحاح وروى عنه يحيى بن سعيد القطان، وإبراهيم بن حمزة، وهارون ابن معروف، وعثمان بن أبي شيبة ومحمد بن مهران وغيرهم.

٢٤ - داود بن الزبرقان:

داود بن الزبرقان الرقاشي أبو عمر البصري ثم البغدادي المتوفى سنة ١٨٦هـ. روى عنه سعيد بن عروة، وبقية وعلي بن حجر وشعبة بن الحجاج وهو من شيوخه وأبو صالح المصري والحسن بن عرفة وغيرهم، ذكره في جامع الرواة وعده ابن حجر من الطبقة الثامنة. خرج حديثه الترمذي وابن ماجه.

٢٥ - الربيع بن حبيب:

الربيع بن حبيب العبسي مولا هم الكوفي، روى عنه وكيع وغيره. وثقه ابن معين. وقال البخاري: منكر الحديث، خرج حديثه ابن ماجه.

٢٦ - رحيل :

رحيل - بالمهملة مصغر - ابن معاوية بن حديج الجعفي، روى عنه أخوه زهير، وشجاع بن الوليد. وثقه ابن حبان. وخرج حديثه أبو داود والترمذي. قال ابن حجر: صدوق من السابعة.

٢٧ - رقبة :

رقبة بن مصقلة العبد الكوفي أبو عبد الله المتوفى سنة ١٢٩هـ. روى عنه سليمان التميمي، وأبو عوانة، وابن فضل. قال أحمد: ثقة مأمون وعده ابن حجر من السادسة. خرج حديثه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة في التفسير.

٢٨ - الركين بن الربيع :

الركين بن الربيع بن عميلة أبو الربيع الكوفي المتوفى سنة ١٣١هـ. روى عنه شعبة، والثوري ومعتمر بن سليمان. وثقه النسائي، وخرج حديثه البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه والأربعة. قال ابن حجر: ثقة من الرابعة.

٢٩ - زكريا بن إسحاق :

زكريا بن إسحاق المكي المتوفى سنة ١٤٨هـ. وثقه البخاري وأبو داود وابن معين. وهو من رجال الصحاح الستة. وكان يرمي بالقدر. وثقه ابن معين وابن حجر.

٣٠ - زياد بن سعد :

زياد بن سعد الخراساني أبو عبد الرحمن المكي نزيل اليمن. روى عنه ابن جريح، وهمام ومالك بن انس، وهو من رجال الصحاح الستة. قال النسائي: ثقة ثبت. ذكره ابن حجر في الطبقة السادسة.

٣١ - زيد بن عطاء:

زيد بن عطاء بن السائب الكوفي الثقي . روى له الترمذي وأبو داود .

٣٢(٢) - زهير بن محمد التميمي:

زهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني المتوفى سنة ١٦٢هـ .
تقدم في الجزء الأول .

٣٣ - زيد بن الحسن:

زيد بن الحسن القرشي الأنماطي . روى عنه إسحاق وابن المديني .
وخرج حديثه الترمذي في صحيحه .

٣٤ - سعيد بن سالم:

سعيد بن سالم القداح أبو عثمان الكوفي . روى عنه الشافعي ويحيى
بن آدم . قال أبو داود: صدوق يذهب إلى الأرجاء . وقال ابن حجر:
صدوق يهم ، رمي بالأرجاء وكان فقيهاً من كبار التاسعة . خرج حديثه أبو
داود والنسائي .

٣٥ - سعيد بن عبد الجبار:

سعيد بن عبد الجبار الزبيدي أبو عثمان (أو عثيم) الحمصي ، خرج له
ابن ماجه ، روى عنه محمد المقدمي ، وهشام بن عبيد الله ، ويحيى بن
المغيرة الرازي وغيرهم .

٣٦ - سعيد بن عبد الرحمن:

سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أبو عبد الله المدني المتوفى سنة
١٧٦هـ . وثقه ابن معين ، وروى عنه ابن وهب ، ومحمد بن سليمان ، وعلي
بن حجر . روى له مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه .

٣٧ - سلمة بن كهيل:

سلمة بن كهيل الحضرمي أبو يحيى الكوفي المتوفى سنة ١٢١هـ. روى عنه ابنه يحيى وشعبة وحمام بن سلمة وغيرهم، وهو من رجال الصحاح الستة. قال ابن الميدين: له نحو مائتين وخمسين حديثاً. وثقه أحمد. وقال ابن حجر: ثقة في الرابعة. كان من البترية. وكان من تلامذة الباقر والصادق، وقد ذمه الإمام الباقر مع جماعة بقوله: إنهم أضلوا كثيراً ممن ضل من هؤلاء، وإنهم ممن قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٣٨ - سليمان بن مهران الأعمش:

سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي^(١) أبو محمد الكوفي الأعمش المتوفى سنة ١٤٧ - ١٤٨هـ. أحد العلام، ومن رجال الصحاح الستة، ورؤساء المذاهب البائدة. روايته عن الصادق في كتاب من لا يحضره الفقيه في نكت الحج.

٣٩ - سليمان:

سليمان بن بلال التميمي القرشي مولاهم أبو محمد المتوفى سنة ١٧٢هـ. خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة. وروى عنه أبو عامر العقدي، وابن المبارك، ومعلّى بن منصور، وعبد بن وهب وغيرهم. وثقه ابن سعد، وابن عدي، وأحمد بن حنبل ونص ابن داود على توثيقه وذكره في أصحاب الإمام علي بن موسى الرضا، وأكثر علماء الرجال يعدونه من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام^(٢) وقد أدرك عصر الإمام الرضا عليه السلام.

(١) الإمام الصادق المذاهب الأربعة، ج ١.

(٢) تهذيب التهذيب، ٤ - ١٧٥ وتاريخ الإسلام للذهبي ٦ - ٤٥.

٤٠ - سفيان الثوري:

سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري^(١) أبو عبد الله الكوفي المتوفى سنة ١٦١هـ. أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة، ورؤساء المذاهب البائدة. كان كثير التردد على الإمام الصادق، وله أخبار كثيرة يرويها عنه ابن داود، والحلي والكشي.

٤١ - سفيان بن عيينة:

سفيان بن عيينة بن أبي عمران المتوفى سنة ١٩٨هـ. وهو أحد رؤساء المذاهب البائدة.

٤٢ - سعيد بن عبد الرحمن:

سعيد بن عبد الرحمن الجمحي المتوفى سنة ١٧٦هـ أحد الأعلام. روى له أصحاب الصحاح ما عدا البخاري، وثقه أحمد وغيره. وذكره الشيخ الطوسي.

٤٣ - سنان بن هرون:

سنان بن هرون البرجمي أبو بسر الكوفي، روى عنه وكيع ومحمد بن سلميان. خرج له الترمذي في صحيحه.

٤٤ - سعيد بن طريف:

سعيد بن طريف الحنظلي الاسكافي الكوفي. روى عنه إسرائيل وابن علية. خرج حديثه الترمذي وابن ماجه. قال ابن حجر: كان رافضياً من السادسة. عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الصادق وروايته مطروحة وغير مستقيم.

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١.

٤٥ - سعيد بن أبي خثيم:

سعيد بن أي خثيم بن رشد الهلالي أبو معمر الكوفي المتوفى سنة ١٨٠هـ. روى عنه أحمد بن حنبل وعبد الله بن أبي شبة. وثقه ابن معين وغيره قال في التقريب: أبو معمر الكوفي صدوق رمي بالشيعة، خرج له الترمذي والنسائي.

٤٦ - سعيد بن حسان:

سعيد بن حسان المخزومي المكي القاضي. روى عنه السفينان، وأبو أحمد الزبيري، ووكيع، وأبو نعيم وغيرهم. وثقه ابن معين. وعده الشيخ من أصحاب الصادق. وقال ابن حجر: صدوق له أوهام من السادسة. خرج حديثه مسلم والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

٤٧ - سعيد بن سالم:

سعيد بن سالم القداح بن عثمان المكي، أصله من خراسان أو الكوفة وقال ابن حجر: صدوق يرمي بالأرجاء، وكان فقيهاً من كبار التاسعة. روى عنه الشافعي ويحيى بن آدم، وأسد بن موسى، وأحمد بن يونس وغيرهم، قال ابن معين: ليس به بأس. وقال أبو داود وابن عدي: صدوق يذهب إلى الأرجاء. خرج له أبو داود والنسائي.

٤٨ - سعيد بن مسلمة:

ابن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي ويقال مسلمة بن أمية بن هشام كان ينزل الجزيرة.

خرج حديثه الترمذي وابن ماجه وروى عنه محمد بن إدريس الشافعي، وعمر بن إسماعيل بن مجالد، وعلي بن ميمون العطار.

ذكره الذهبي من رواية حديث الإمام الصادق عليه السلام وقال ابن داود: له كتاب وهو من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام.

٤٩ - سالم بن عبد الواحد:

سالم بن عبد الواحد المرادي أبو العلاء الكوفي. روى عنه الصباح بن محارب ووكيع. خرج له الترمذي. قال ابن حجر: مقبول. وقال الخزرجي: ضعفه ابن معين، وثقه ابن حبان.

٥٠ - شعبة بن الحجاج:

شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي، مولاهم أبو بسطام المتوفى سنة ١٦٠هـ.

الحافظ أحد الأئمة الأعلام. قال ابن المديني: له نحو ألفي حديث. وقال أحمد: شعبة أمة وحده وهو من رجال الصحاح الستة. روى عن الإمام الصادق وحضر عنده. وروايته عنه في التهذيب. يروي عنه يحيى بن أبي بكر وخلق كثير.

٥١ - شعيب بن خالد:

شعيب بن خالد البجلي. عده ابن حجر في التقريب من الطبقة السابعة: قال النسائي: ليس به بأس. خرج حديثه أبو داود. وروى عنه يحيى بن العلاء الرازي، وعمر بن قيس، وحجاج بن دينار، وزهير بن معاوية وغيرهم.

٥٢ - الضحاک بن مخلد:

الضحاک بن مخلد الشيباني^(١) أبو عاصم النبيل المتوفى سنة ٢١٢هـ

(١) الإمام الصادق المذهب الأربعة، ج ١.

والمولود سنة ١٢٢هـ. البصري الحافظ أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. من شيوخ البخاري وأحمد وابن المديني وغيرهم. قال النجاشي: روى عن جعفر بن محمد كتاباً، يرويه عنه هارون بن مسلم وعباس بن محمد بن حاتم. وذكر ذلك في الخلاصة أيضاً. وكان آخر تلامذة الإمام الصادق وفاة.

٥٣ - طلحة بن زيد:

طلحة بن زيد القرشي أبو مسكين الرقي، روى عنه شيبان بن فروخ، رماه أحمد وابن معين بالوضع، روى له ابن ماجه.

٥٤ - عاصم بن عمر:

عاصم بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب. وثقه ابن حبان، وضعفه أحمد. روى عنه أبو داود الطيالسي، وإسماعيل بن أبي أويس، ومحمد بن فليح، وعبد الله بن نافع، وابن وهب وغيرهم. خرج حديثه الترمذي وابن ماجه.

٥٥ - عاصم بن حميد:

عاصم بن حميد الحنات الكوفي، وثقه أبو زرعة. وقال ابن حجر: صدوق من السابعة، وروى عنه محمد بن عبد الله بن نمير، ويحيى الحماني، وإسماعيل بن موسى الفزاري، وأبو نعيم الطحان.

٥٦ - عاصم بن سليمان:

عاصم بن سليمان البصري أبو عبد الرحمن المعروف بالكوزي المتوفى سنة ١٤١هـ أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. وروى عنه قتادة، وسليمان التيمي، ومعمّر بن راشد، وحماّد بن زيد، وشعبة، وإسماعيل بن زكريا وغيرهم.

٥٧ - عامر بن السمط:

عامر بن السمط التميمي الكوفي أبو كنانة. وثقه ابن حجر وابن القطان، وخرج له النسائي في مسند علي.

٥٨ - عتبة بن عبد الله:

عتبة بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود أبو العميس الهذلي. روى عنه شعبة، وأبو معاوية، وأبو أسامة، وثقه أحمد وابن معين. خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، له نحو أربعين حديثاً.

٥٩ - عثمان بن فرقد:

عثمان بن فرقد العطار البصري^(١). روى له البخاري والترمذي.

٦٠ - عثمان بن عبد الرحمن:

عثمان بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري أبو عمر المدني الوقاص، ويقال له المالكي نسبة إلى جده الأعلى أبي وقاص مالك المتوفى في خلافة الرشيد. كذبه ابن معين، قال ابن حجر متروك.

٦١ - عثمان بن مطر:

عثمان بن مطر البصري الشيباني. روى عنه مسلم بن إبراهيم. وخرج حديثه ابن ماجه.

٦٢ - عطاء بن مسلم:

عطاء بن مسلم الخفاف الحلبي أبو مخلد المتوفى سنة ١٩٠هـ. روى عنه ابن المبارك، وأبو توبة، وعبد الرحمن بن يزيد، وهشام بن عمار. وثقه ابن معين، وخرج حديثه الترمذي في الشمائل، والنسائي في السنن.

٦٣ - علي بن حمزة:

علي بن حمزة أبو الحسن الأسدي المتوفى سنة ١٨٠ - ١٨٢ هـ المعروف بالكسائي العالم النحوي أحد الأئمة القراء من أهل الكوفة استوطن بغداد وكان قد تعلم النحو على كبر سنه، وقد روى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وجماعة من أعلام الحديث ذكره الذهبي.

٦٤ - علي بن صالح:

علي بن صالح أبو الحسن الهمداني الكوفي المتوفى سنة ١٥١ هـ. خرج له مسلم والأربعة، وروى عنه ابن نمير ووكيع وأبو نعيم. وثقه أحمد، وابن معين. قال ابن المديني: له نحو ثمانين حديثاً، وقال ابن حجر: ثقة عابد من الطبقة التاسعة.

٦٥ - العوام بن حوشب:

العوام بن حوشب الشيباني الربعي أبو الحرث الواسطي المتوفى سنة ١٤٨ هـ. أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. قال العجلي ثقة روى عنه نحو مائتي حديث.

٦٦ - عيسى بن عمر:

عيسى بن عمر الأسدي الكوفي المتوفى سنة ١٥٦ هـ المعروف بالهمداني. روى عنه ابن المبارك ووكيع. وثقه ابن معين والنسائي. خرج له الترمذي والنسائي.

٦٧ - عبد الجبار:

عبد الجبار بن العباس الهمداني الشامي. روى عنه مسلم بن قتيبة، وابن المبارك. قال أبو حاتم، وابن حجر صدوق روى له البخاري في الأدب المفرد، والترمذي في صحيحه.

٦٨ - عبد العزيز:

عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون التميمي مولاهم المدني المتوفى سنة ١٦٦هـ. أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. روى عنه الليث وابن مهدي، وخلق كثير. وثقه ابن سعد، وابن حبان. وقال ابن معين: ثقة كان يرى القدر، ثم رجع. ذكره الشيخ والأردبيلي والاسترابادي في رواية حديث الصادق عليه السلام.

٦٩ - عبد العزيز:

عبد العزيز بن محمد بن عبيد الدراوردي أبو محمد الجهني مولاهم المدني المتوفى سنة ١٨٧هـ. خرج حديثه أصحاب الصحاح، وروى عنه إسحاق بن راهويه، ويعقوب الدورقي. وخلق كثير، وثقه ابن العدي وغيره.

٧٠ - عبد العزيز:

عبد العزيز بن عمران بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني المتوفى سنة ١٩٧هـ. خرج حديثه الترمذي، وروى عنه ابنه سليمان، ويعقوب بن محمد الزهري، وعلي بن محمد المدائني، ومحمد بن عيسى الطباع، وأبو غسان الكناني، وإبراهيم بن المنذر وغيرهم.

٧١ - عبد العزيز:

عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومي المدني المتوفى في خلافة المنصور، روى له البخاري في الأدب المفرد، ومسلم والترمذي في الصحيح وابن ماجة في السنن.

٧٢ - عبد الوهاب:

شيوخ الشافعي، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وابن المديني وغيرهم.

٧٣ - عبد الملك بن جريح:

عبد الملك بن جريح^(١) أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح توفي سنة ١٤٩هـ.

٧٤ - عبد الله بن رجاء:

عبد الله بن رجاء المكي أبو عمران المكي المتوفى سنة ١٨٠هـ. روى عنه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين وإسحاق وخلق كثير. خرج حديثه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والبخاري في جزء القراءة، وثقه ابن معين، وأبو حاتم، وابن سعد.

٧٥ - عبد الله بن جعفر:

عبد الله بن جعفر بن نجيع السعدي مولا هم المدني المتوفى سنة ١٧٨هـ. روى عنه قتيبة وعلي بن حجر. خرج حديثه الترمذي وابن ماجه.

٧٦ - عبد الله بن جعفر:

عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخزومة أبو محمد المدني المتوفى سنة ١٧٠هـ، وثقه العجلي. وقال ابن معين: صدوق. خرج حديثه مسلم والأربعة.

٧٧ - عبد الله بن الزبير:

عبد الله بن الزبير بن عيسى الأسدي المكي المتوفى سنة ٢١٩هـ. من شيوخ البخاري. خرج له في صحيحه، وروى له أبو داود الترمذي، وابن ماجه في التفسير، له كتاب عن الصادق يرويه عنه يعقوب الأسدي.

٧٨ - عبد الله بن دكين :

عبد الله بن دكين أبو عمر الكوفي نزيل بغداد. خرج حديثه البخاري في الأدب المفرد، روى عنه يزيد بن هارون، وأبو نعيم، وموسى بن إسماعيل، ومحمد بن بكار الريان وغيرهم، وثقه أحمد.

٧٩ - عبد الله بن ميمون :

عبد الله بن ميمون بن داود القداح المخزومي مولاهم المكي، روى عنه أبو الخطاب زياد بن يحيى، ومؤمل بن أهاب، ويعقوب بن حميد، وأبو الأزهر وغيرهم.

خرج حديثه الترمذي، ضعفه النسائي، وقال أبو حاتم: منكر الحديث. ووثقه ابن داود الحلبي.

٨٠ - عبيد الله بن عمر :

عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو عثمان المدني المتوفى سنة ١٤٧هـ. أحد الفقهاء السبعة والعلماء والإثبات. ومن رجال الصحاح الستة. روى عنه شعبة والسفيانان والليث ومعمر وخلق كثير. وذكر حديثه عن الصادق أبو نعيم في الحلية. وعده الشيخ وغيره من رجاله.

٨١ - علي بن هاشم :

علي بن هاشم بن البريد العابدي أبو الحسن الكوفي المتوفى سنة ١٨٠هـ. أحد الأعلام ومن شيوخ أحمد بن حنبل. وأحمد بن معين، وابن منيع، وغيرهم. خرج حديثه البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه والأربعة.

٨٢ - علي بن عبد الأهلئ:

أبو الحسن الكوفي الأحول خرج حديثه أبو داود، والنسائي والترمذي، وابن ماجه، وروى عنه إبراهيم بن طهمان، وهشيم، وزهير بن معاوية وغيرهم.

وثقه الترمذي، وقال أحمد والنسائي ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات.

٨٣ - عمرو بن خالد:

عمرو بن خالد القرشي، مولى بني هاشم. روى عنه إسماعيل بن يونس، وعباد بن كثير البصري، وجعفر بن زياد، وغيرهم. خرج حديثه ابن ماجه.

٨٤ - عمرو بن هارون:

عمرو بن هارون البلخي المتوفى سنة ١٩٤هـ. كان كثير الحديث، بصيراً بالقراءات. وكان من كبار الطبقة الرابعة. وخرج حديثه الترمذي وابن ماجه. وروى عنه الرازيون، وهشام بن عبيد الله وابن حميد وكان عنده من الصادق عليه السلام ستين حديثاً. وكتب عنه أحمد بن حنبل.

٨٥ - عمر بن قيس:

عمر بن قيس الملائي الكوفي المتوفى سنة ١٤٦هـ. روى عنه إسماعيل بن أبي خالد والثوري وإسماعيل بن زكريا، ومصعب بن سلام وغيرهم، وثقه أبو حاتم، وأحمد والنسائي، وروى له البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه والأربعة.

٨٦ - عمر بن دينار:

عمر بن دينار المكي أبو محمد الأثرم الجمحي مولا هم المتوفى سنة

١٢٦هـ. روى عنه جماعة كمالك وشعبة وداود. أخذ عن الباقر والصادق عليهما السلام وحديثه في الصحاح الستة.

٨٧ - فضيل بن عياض:

فضيل بن عياض بن السعد بن بسر التميمي^(١) المتوفى سنة ١٨٧هـ.

٨٨ - فضيل بن مرزوق الكوفي:

فضيل بن مرزوق الكوفي، روى عنه يحيى بن آدم وغيره، وثقه السفينان وقال ابن معين: شديد التشيع. خرج حديثه مسلم والأربعة.

٨٩ - فليح بن سليمان:

فليح بن سليمان بن أبي المغيرة الخزاعي أبو يحيى الكوفي المتوفى سنة ١٦٨هـ. أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة، روى عنه ابن وهب وأبو عامر وخلق كثير، ضعفه النسائي، وقال ابن حجر: صدوق كثير الخطأ.

٩٠ - القاسم بن معن:

القاسم بن معن - بفتح الميم وسكون العين - ابن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود الهذلي المتوفى سنة ١٧٥هـ. أبو عبد الله الكوفي روى عنه ابن مهدي وأبو نعيم وغيره، وثقه أبو حاتم. خرج له أبو داود والنسائي.

٩١ - القاسم بن عبد الله:

القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عمر بن الخطاب العمري العدوي المتوفى سنة ١٥٠هـ. روى عنه محمد بن الحسن بن زباله المدني وعبد الله بن وهيب وآخرون، رماه أحمد بن حنبل بالكذب. خرج له ابن ماجة.

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأول.

٩٢ - محمد بن إسماعيل :

محمد بن إسماعيل بن جابر بن ربيعة أبو عبد الله الكوفي المتوفى سنة ١٦٧هـ. قال ابن حجر: صدوق يتشيع، خرج حديثه النسائي في الخصائص، وروى عنه يحيى بن آدم، وأبو نعيم، ويحيى الحماني، ومحمد بن الحسن بن المختار، ذكره ابن أبي حاتم من رواة حديث الصادق عليه السلام.

٩٣ - محمد بن إسحاق :

محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى سنة ١٥١هـ. روى عنه يحيى الأنصاري وشعبة والحمدان وخلق كثير، خرج حديثه مسلم والأربعة.

٩٤ - محمد بن فليح :

محمد بن فليح بن سلميان المدني المتوفى سنة ١٩٧هـ. خرج له البخاري والنسائي وابن ماجة، روى عنه إبراهيم بن المنذر بن أبي علقمة الغروي، ومحمد بن يعقوب الزبيري، وأبو سعيد الأشج.

٩٥ - محمد بن الحسن :

محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني أبو الحسن الكوفي نزيل واسط. خرج حديثه الترمذي، وروى عنه إسماعيل بن إبراهيم الترمساني، والحسن ابن حماد الحضرمي، وأحمد بن منيع وغيرهم.

٩٦ - محمد بن راشد :

أبو عبد محمد بن راشد المكحولي الدمشقي الخزاعي نزيل البصرة المتوفى سنة ١٧١هـ.

خرج عن الثوري وشعبة - وهما من أقرانه - وابن المبارك وابن مهدي، وزيد بن أبي الزرقاء والوليد بن مسلم، ويزيد بن هارون وغيرهم.

وثقه ابن معين، وقال عبد الرزاق ما رأيت رجلاً أروع منه في الحديث وقال أحمد بن حنبل: إنه ثقة ثقة. وسئل عنه أبو حاتم فقال: إنه كان رافضياً. وقال أبو زرعة: لم يكتب عنه أبو مسهر لأنه كان يرى الخروج على الأئمة (أي على حكام عصره).

قال الذهبي بعد نقله لقول أبي حاتم ونسبة ابن راشد للرفض: وفيه نظر فكيف يكون دمشقي نزيل البصرة رافضياً؟ والله أعلم.

وبعد قليل من مرافقة الذهبي في اشكاله وتأمله وتعجبه من رجل شامي ينسب إلى الرفض وهي نسبة تحط بمقام الشخص، وتستوجب ترك حديثه وتعرضه لكل نقص وتهجم.

نعم بعد قليل يرتفع أشكال الذهبي ويتضح له الأمر فيقول: ثم تأملت فوجدته (أي محمد بن راشد الرافضي) خزاعياً وخزاعة يوالون أهل البيت^(١).

ونحن هنا لا نود أن نخرج عن الموضوع فنعلق على هذا الكلام ولا نقول أكثر من قولنا: بأن موالات أهل البيت وحبهم هو علامة الرفض عندهم والرفض كما أوضحته عبارات كثير من المحدثين موجب للرمي بالزندقة والخروج عن الإسلام، وموجب لترك الرواية، وهذه من جنائيات سوء الفهم، والتحديث لنواميس الإسلام، والرد لوصايا النبي ﷺ بآله، ولزوم حبهم، ووجوب موالاتهم.

٩٧ - محمد بن مجيب:

محمد بن مجيب الثقفي الكوفي سكن بغداد وكان كثير الرواية عن جعفر ابن محمد، وروى عنه عبد الرحمن بن عفان، وعبد الرحمن بن نافع، وعيسى بن محمد بن مسلم والفيض بن وثيق.

٩٨ - محمد بن ثابت :

محمد بن ثابت بن أسلم البنان البصري . روى عنه عبد الصمد بن عبد الوارث، وجعفر بن سليمان، وأبو داود الطيالسي، وأبو عبيدة وخلق كثير خرج حديثه الترمذي .

٩٩ - محمد بن جعفر :

محمد بن جعفر بن أبي كثير المدني، روى عنه خالد بن مخلد وسعيد بن أبي مريم وثقه ابن معين وقال ابن حجر في التقريب: ثقة من الطبقة السابعة خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة .

١٠٠ - معلى بن هلال :

معلى بن هلال الحضرمي أبو عبد الله الكوفي . روى عنه قتيبة كذبه أحمد وغيره، وخرج له ابن ماجة .

١٠١ - معمر بن راشد :

معمر بن راشد الصنعاني أبو عروة البصري المتوفى سنة ١٥٣هـ . قال ابن حجر: ثقة ثبت فاضل . روى عنه أيوب والثوري وخلق كثير، خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة .

١٠٢ - معمر بن يحيى :

معمر بن يحيى بن سام الضبي الكوفي، وثقه أبو زرعة، وخرج حديثه البخاري في صحيحه .

١٠٣ - منصور بن المعتمر :

منصور بن المعتمر السلمي أبو عتاب الكوفي المتوفى سنة ١٣٢هـ . روى عنه خلق كثير، وهو أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة، وروى عن الباقر والصادق عليه السلام، قال العجلي: ثقة ثبت له ألفي حديث .

١٠٤ - المنهال بن عمر:

المنهال بن عمر الأسدي مولا هم الكوفي، وثقه ابن معين والنسائي،
وخرج له الحسين والباقر والصادق عليهم السلام.

١٠٥ - ميسرة بن حبيب:

ميسرة بن حبيب النهدي أبو حازم الكوفي، روى عنه شعبة وإسرائيل
ووثقه ابن معين والعجلي والنسائي. خرج له البخاري في الأدب المفرد
وأبو داود والترمذي والنسائي، قال ابن حجر: صدوق من السابعة.

١٠٦ - مالك بن أنس:

مالك بن أنس الأصبحي^(١) المتوفى سنة ١٧٩هـ أحد أئمة المذاهب
الأربعة.

١٠٧ - مكّي بن إبراهيم:

مكي بن إبراهيم الحنظلي أبو السكن البلخي المتوفى سنة ٢١٥هـ،
أحد الحفاظ ومن شيوخ البخاري روايته في الصحاح الستة.

١٠٨ - مسعود بن سعد:

مسعود بن سعد الكوفي أبو سعد الجعفي، روى عنه أبو خالد الأحمر
وأبو غسان النهدي. قال ابن معين: ثقة من خيار عباد الله، وقال ابن حبان
يكتب حديث. خرج له مسلم والنسائي.

١٠٩ - مسلم بن خالد:

مسلم بن خالد المخزومي مولا هم أبو خالد المكي المعروف بالزنجي
المتوفى سنة ١٨٩هـ، روى عنه الشافعي وابن وهب وغيره وثقه ابن معين،
خرج له أبو داود وابن ماجه.

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأول.

١١٠ - مصعب بن سلام:

مصعب بن سلام التميمي الكوفي نزيل بغداد، روى عنه أحمد بن حنبل وأبو الأشج. قال ابن معين: ليس به بأس. وقال المجلي: ثقة. خرج له الترمذي في صحيحه.

١١١ - معاوية بن صالح:

معاوية بن صالح الحضرمي أبو عبد الرحمن الحمصي المتوفى سنة ١٥٨هـ. عالم الأندلس وقاضيه، روى عنه الثوري والليث وابن وهب، وثقه أحمد، وابن معين. روى له مسلم والأربعة.

١١٢ - معاوية بن عمار:

معاوية بن عمار البجلي الدهني المتوفى سنة ١٧٥هـ، روى عنه يحيى بن سعيد، ومعاذ بن معاذ وخلق كثير، وثقه ابن معين. وابن داود. روى له مسلم والترمذي والنسائي. قال في نهج المقال: له كتب يرويه عنها أصحابنا: كتاب الصلاة، كتاب يوم وليلة، كتاب الطلاق، كتاب الدعاء.

١١٣ - معروف بن خربوذ:

معروف بن خربوذ - بفتح الخاء والراء - مولى عثمان المكي، روى عنه وكيع وغيره، خرج له البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه وهو من تلامذة الباقر والصادق عليه السلام. وهو غير معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠هـ والمدفون ببغداد وهو من علماء الشيعة وأصحاب الإمام الرضا عليه السلام وقبره ظاهر يزار.

١١٤ - مفضل:

أبو جميلة مفضل بن صالح الأسدي الكوفي النخاس. خرج حديثه الترمذي، وروى عنه محمد بن عبيد المحاربي، وأحمد بن بديل البامي، ومحمد بن إسماعيل الأحمسي وغيرهم.

١١٥ - النعمان بن ثابت :

النعمان بن ثابت أبو حنيفة التيمي^(١) مولا هم المتوفى سنة ١٥٠ هـ
رئيس المذهب الحنفي .

١١٦ - نوح بن دراج :

نوح بن دراج النخفي مولا هم الكوفي القاضي المتوفى سنة ١٨٢ هـ ،
روى عنه سعيد بن منصور ، وخرج له ابن ماجة في التفسير .

١١٧ - هارون بن سعد العجلي :

هارون بن سعد العجلي ، قال ابن معين : ليس به بأس . خرج له
مسلم في صحيحه ، وقال الكشي : هو زيدي . وقال ابن حجر : رمي
بالرفض . ويقال رجع عنه .

١١٨ - هارون بن موسى :

هارون بن موسى الأزدي مولا هم أبو عبد الله القارئ . روى عنه بهز
ابن أسد ، ومسلم بن إبراهيم ، وخلق كثير ، خرج له البخاري ومسلم
والترمذي والنسائي وأبو داود ، وثقه ابن معين . قال ابن حجر : ثقة مقرب
إلا أنه رمي بالقدر من السابعة .

١١٩ - هلال بن أبي حميد :

هلال بن أبي حميد أو ابن مقلص أبو أيوب الصيرفي الكوفي . روى
عنه مسعر وشعبة وخرج له البخاري وأبو داود ، ومسلم والترمذي والنسائي .

١٢٠ - وهيب بن خالد :

وهيب بن خالد الباهلي البصري المتوفى سنة ١٦٥ هـ . أحد الحفاظ

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأول .

الأعلام ومن رجال الصحاح الستة. قال ابن سعد: حجة كثير الحديث. وقال في منهج المقال. وهيب بن خالد البصري ثقة، وقال النجاشي: إن له كتاباً يرويه عنه إسماعيل.

١٢١ - يحيى بن سعيد:

يحيى بن سعيد بن فروخ القطان^(١) المتوفى سنة ١٩٨هـ. أحد الأعلام ومن الحفاظ المشهورين. روى عنه أصحاب الصحاح الستة، وهو من شيوخ أحمد وابن معين.

١٢٢ - يحيى بن قيس:

يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري المدني أبو سعيد المدني القاضي المتوفى سنة ١٤٤هـ. روى عنه الأوزاعي والسفيانان وخلق كثير، قال ابن المديني: له ثلاثمائة حديث خرج له البخاري في الأدب المفرد. قال ابن سعد: ثقة حجة.

١٢٣ - يحيى بن سليم:

يحيى بن سليم الطائفي أبو محمد القرشي نزيل مكة المتوفى سنة ١٩٣هـ. روى عنه أحمد وإسحاق وقتيبة. احتج به البخاري والجماعة. وثقه ابن معين والنسائي وابن سعد.

١٢٤ - يعلى بن الحرث:

يعلى بن الحرث المحاربي الكوفي المتوفى سنة ١٦٨هـ، روى عنه وكيع وابن مهدي وجماعة، وثقه ابن معين، وخرج له البخاري، ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه.



وبهذه العجالة نكتفي عن التوسع في ذكر الرواة إذ لا يسع المجال هنا لأكثر من هؤلاء وقد ذكرنا عدداً وافراً منهم في كتابنا عن حياة الإمام الصادق، كما أننا سنتعرض لذكر حملة فقهه من الشيعة في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

وسياتي ذكر آخرين منهم في بحثنا عن رجال الحديث من الشيعة في الجزء السادس من الذين خرج حديثهم أصحاب الصحاح الستة ويتجاوز عددهم ثلاثمائة رجل.

الرواة:

نظراً لاشتغال مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، إذ أصبحت جامعة إسلامية كبرى، تقصدها وفود الأمصار، فقد كثر المنتمون إليها من جميع الأطراف على اختلافهم في الآراء والمعتقدات، والميول والنزعات، ولهذا فلم يكونوا سواء في حسن الاستماع، وقوة الحفظ، وصدق اللهجة، وإخلاص النية.

وربما كان فيهم من ذوي الأغراض السيئة الذين يحرفون الكلام عن مواضعه، لغاية في نفوسهم، فتعمدوا الكذب، ونسبوا إليه عليه السلام ما لم يصدر عنه أمثال:

وهب بن وهب القاضي المعروف بأبي البختري، فقد اشتهر هذا الرجل في الكذب ذكره، وعرف أمره^(١).

وسالم بن أبي حفصة العجلي^(٢) والمغيرة بن سعيد، وصائد النهدي ومحمد بن مqlاص.

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، الجزء الأول.

(٢) هو أبو يونس سالم بن أبي حفصة المتوفى سنة ١٤٠ هـ خرج حديثه البخاري في الأدب المفرد والترمذي في صحيحه، قال ابن داود: كان يكذب على أبي جعفر وقد لعنه الإمام الصادق عليه السلام.

وحيث كان لوضاع الأحاديث أخطر آفة على العلم، وأعظم خطر على الدين، فقد أعلن الإمام عليه السلام للملأ وجوب الحذر، ولزوم التحفظ من هؤلاء الذين انحرفوا عن طريق الاستقامة والصواب، فكان يقول: والله ما الناصب لنا حرباً بأشد علينا مؤونة من الناطق علينا بما نكره. ويقول: إن الناس قد أولعوا بالكذب علينا، وإنني أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير تأويله، وذلك إنهم كانوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند الله وإنما يطلبون الدنيا، وكل يحب أن يدعى رأساً.

وقد كان بعضهم يغير ما ينقله عنه بزيادة أو نقصان. قال له رجل من أصحابه: يا ابن رسول الله قد بلغنا عنك أنك قلت: إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم. فقال أبو عبد الله إني قلت: إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم، فإنه يقبل منكم. وكان يقول: إنا أهل بيت لا يزال الشيطان يدخل فينا من ليس منا، ولا من أهل ديننا، فإذا رفعه ونظر الناس إليه، أمره الشيطان فيكذب علينا. إلى غير ذلك من أقوال في تحذير الأمة من قبول ما ينقل عنه بواسطة أولئك الدجالين كأبي البختری وأضرابه من الكذابين، وأبي الخطاب وأمثاله من الغلاة الذين اندسوا في صفوف المسلمين ليفرقوا الكلمة ويغيروا القلوب، وقد قضى الإمام الصادق عليه السلام على حركاتهم، وفرق شملهم، ولم يبق لهم ذكر إلا في بطون الكتب وعلى ألسنة دعاة الفرقة الذين تجندوا لخدمة خصوم الإسلام وهم كما يقول القائل:

إن يسمعوا الخير أخفوه وإن علموا شراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا
وقد اهتم علماء الحديث من الشيعة وبذلوا جهدهم في عناية تامة بالبحث والتحقيق عن معرفة الحديث وترتيب طبقات رجاله والتثبت في أحوالهم وبيان عدالتهم فالفوا كتباً تكشف النقاب عن أحوال الرجال منها:

كتاب الرجال لشيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي

المتوفى سنة ٤٦٠ هـ.

وكتاب الشيخ أحمد بن علي بن أحمد النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠هـ .
 وكتاب الضعفاء المنسوب للشيخ أحمد بن عبيد الله الغضائري وكان
 معاصراً للشيخ الطوسي .
 وكتاب تقي الدين الحسن بن علي بن داود وهو من تلامذة جمال
 الدين ابن طاووس والمحقق الحلبي .
 وكتاب الخلاصة لأبي منصور جمال الدين العلامة الحلبي المتوفى سنة
 ٧٢٦هـ .

وغيرها من كتب الرجال، وقد تشدد الشيعة في قبول الرواية أكثر من
 غيرهم، ولهم شروط خاصة، والمسلمون بصورة عامة يشترطون شروطاً في
 الراوي حذراً من الكذابين الذين أخبر عنهم النبي ﷺ فقال (من كذب
 علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) ولهذا كان الصحابة لا يأخذون بالرواية
 إلا ممن يصح الأخذ عنهم ويتأكدون في ذلك مع قرب عهدهم من
 النبي ﷺ .

مشاهير الثقات:

كان من المناسب ذكر مشاهير الثقات من أصحاب الإمام الصادق
 والمؤلفين منهم وبيان أحوالهم بترجمة وافية، ولكن نطاق هذا الجزء لا
 يتسع لذكرهم وسيأتي ذلك في الجزء الثالث إن شاء الله، ونرى من الخير
 هنا أن نشير إلى بعض المؤلفين من الرواة لحديثه ﷺ ونترك ذكر الآخرين
 لمحل آخر، ونقتصر على ذكر أسمائهم حذراً من الإطالة وإليك أنموذجاً من
 الكتب:

إبراهيم بن خالد العطار العبدي، وإبراهيم بن نعيم العبد المعروف
 بأبي الصباح، وإسحاق بن بشر الكاهلي، وإسحاق بن جندب، وأنس بن

عياض الليثي المدني، وبرد الاسكاف الأزدي من تلامذة الإمام الباقر والصادق عليه السلام، وأيوب بن عطية الحذاء، وثابت بن جرير، وثابت الضرير، وثعلبة بن ميمون القارئ الفقيه، وجحدر بن المغيرة الطائي الكوفي، وجفیر ابن الحكم أبي المنذر العبدي، وجميل بن دراج، وحارث بن المغيرة النضري، وحبيب بن النعمان الأعرابي الأسدي، وحذيفة بن زائدة الأسدي، وحريز ابن عبد الله الأزدي السجستاني، وحسان بن مهران الكوفي، والحسن بن الحسين بن الحسن الجحدري الكندي، وخطاب بن مسلم الكوفي، وخلاد السندي البزاز الكوفي، وداود بن الحسن الأسدي الكوفي، وداود بن سرحان العطار الكوفي، ورافع بن سلمة بن زياد بن أبي الجعد الأشجعي، وزريق بن الزبير الخلقاني، وزكريا بن يحيى الواسطي، وزيد بن يونس أو ابن موسى أبي موسى الشحام الكوفي، وسالم الحناط أبي الفضل الكوفي، وسالم بن مكرم ابن عبد الله من أصحاب الصادق والكاظم عليه السلام، والسري بن عبد الله ابن يعقوب السلمي الكوفي، وسعيد بن عبد الرحمن أو عبد الله الأعرج السمان التميمي الكوفي، وسعيد بن غزوان الأسدي، وكتاب سلام بن أبي عمرة الخراساني وهو من الكتب الموجودة الباقية^(١)، وسليم الفراء الكوفي، وسليمان بن داود المنقري أبو أيوب الشاذكوني، وسماعة بن مهران الحضرمي، وسويد بن مسلم، وسيف بن سليمان التمار الكوفي، وشعيب العفرقوفي، وشهاب بن عبد ربه بن أبي ميمون من أصحاب الصادق والكاظم عليه السلام والصباح الحذاء بن صبيح إمام مسجد دار اللؤلؤ بالكوفة، وصباح بن يحيى المزني الكوفي من تلامذة الباقر والصادق عليه السلام، وصفوان بن مهران الكوفي، وطلاب بن حوشب الشيباني الكوفي، وعاصم بن سليمان البصري، وعامر بن جداعة الزدي،

وعبيد بن زرارة بن أعين الشيباني، وعبيد الله بن الوليد الرصافي يروي عن الباقر والصادق عليهما السلام، وعقبة بن خالد الأسدي الكوفي، وعلي بن عقبة خالد الأسدي الكوفي، وعمار بن مروان البيكري، وعمار بن موسى الساباطي، وعمرو بن إبراهيم الأزدي، وعمرو بن الياس بن عمرو بن الياس البجلي، وعمرو بن حريث الصيرفي الأسدي الكوفي، وعمرو بن خالد الأفرق الخياط، وعمرو بن منهل بن مقلص الصيرفي، وأبي محمد بن قتيبة بن محمد الأعشى المؤدب المغربي، وكعيب بن عبد الله مولى بني طرفة الكوفي، ومالك بن عطية الأحمسي الكوفي البجلي، ومحمد بن حمران النهدي، ومحمد بن عذافر بن عيسى الصيرفي المدني من أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام وعباد بن صهيب أبو بكر البصري، وعباس بن الوليد بن صبيح الكوفي، وعبد الحميد بن أبي العلاء بن عبد الملك الأزدي، وعبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الفزاري، وعبد الغفار بن حبيب الطائي، وعبد الغفار بن قيس بن فهد الأنصاري من تلامذة الباقر والصادق عليهما السلام، وعبد الكريم بن هلال الجعفي الكوفي يقال له الخلقاني وعبد الله بن أبي يعفور وعبد الله بن بكير بن أعين الشيباني، وعبد الله بن زرارة بن أعين الشيباني، وعبد الله بن سعيد بن شبل، وعبد الله بن غالب الأسدي الشاعر الفقيه، وعبد الله بن الفضل بن عبد الله الهاشمي النوفلي، وعبد الملك بن حكيم الخثعمي الكوفي، وعبد الملك بن عتبة النخعي الصيرفي الكوفي.

إلى آخر ما هو مذكور في كتاب الفهرست للشيخ الطوسي، وكتاب النجاشي، وجامع الرواة. وقد ذكر شيخنا البحاث حجة الإسلام الشيخ محمد المحسن الطهراني في كتابه الذريعة الجزء السادس عدداً وافراً منها في حرف الحاء، وذكر طرق الرواية لها، كما أنه ذكر في الجزء الأول في حرف الهمزة في باب الأصول عدداً كثيراً من رجال الأصول الذين دونوا

أحاديثهم عن الإمام الصادق عليه السلام . وقد ذكرنا بعض من لهم كتب عن الإمام الصادق عليه السلام في تلك المجموعة المتقدمة ولم نعد ذكرهم كما إنا لم نذكر من هؤلاء هناك .

جابر بن حيان:

اشتهر جابر بن حيان بعلم الكيمياء، وهو أول من عرف به، ونسب أخذه وتعلمه لذلك عن الإمام الصادق عليه السلام، وقد اختلفت الآراء في ذلك، وما نحن نذكره استطراداً في البحث، فلنا من أهل الاختصاص فيما اختص به أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي ويقال الحراني الصوفي، فهو أول من اشتهر في علم الكيمياء وتلميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهو أول من تكلم في علم الكيمياء، ووضع فيها الكتب وبين صنعة الإكسير والميزان، ونظر في كتب الفلاسفة في الإسلام، واكتشف جابر في امتحاناته أموراً كثيرة في علم الكيمياء، وترجمت بعض مصنفاته إلى جميع اللغات، وطبعت واشتغل بها الناس فانتفعوا بها، ونسب إليه قوم اختراع الجبر، وألف خمسمائة رسالة في الكيمياء في ألف ورقة، وهي تتضمن رسائل جعفر الصادق عليه السلام واختلف الناس في أمر جابر اختلافاً كثيراً.

فيذهب البعض إلى إنه شخصية موهومة، وإنه اسم موضوع. وضعه المصنفون في هذا الفن. ويؤيدون هذا الرأي بأن شخصية جابر تكل الشخصية العظيمة لم يكن لها ذكر في تاريخ العرب.

وأجاب ابن النديم عن هذا الإيراد بقوله: «إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة، يتعب قريحته وفكره بإخراجه ويتعب يده وجسمه بنسجه ثم ينحله لغيره، إما موجوداً أو معدوماً ضرب من الجهل وأن ذلك لا يستمر على أحد ولا يدخل تحته من تحلى ساعة

واحدة بالعلم، وأي فائدة في هذا وأي عائدة، والرجل له حقيقة، وأمره أظهر وأشهر، وتصنيفاته أعظم وأكثر، ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة أنا أوردتها في مواضعها، وكتب في معان شتى من العلوم قد ذكرتها في مواضعها من الكتاب. وقد قيل أن أصله من خراسان، والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان. ثم ذكر ابن النديم مؤلفاته^(١).

وللقدماء والمتأخرين ومن المستشرقين كلام كثير في شأن جابر، وقد نشر رسائله المستشرق كراوس، وفيها دلالة على تشيعه وأخذه عن الإمام الصادق عليه السلام كإمام مفترض الطاعة متبع الرأي.

وقد كبر على المستشرقين أن يكون رجل عربي مسلم ومن أهل القرن الثاني للهجرة يمتاز بتلك الآراء السديدة، وتكون نظرياته الأسس العامة التي قام عليها علم الكيمياء قديمة وحديثة، فصاروا يخطئون في تعرضهم لكتبه كحاطب ليل، فمرة يشكون في وجوده وتارة في زمانه، وأخرى فيما نسب إليه من تلك الكتب، ورابعة في نسبة ما يرويه البعض عن أستاذه الصادق عليه السلام، وخامساً في التبويب والوضع والأسلوب، لأنه لم يكن يعرفه أهل ذلك العصر إلى غير ذلك.

وقد فند تلك الشكوك والمزاعم الكاتب إسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور فيما نشره في المقتطف (٦٨، ٥٤٤، ٥٥١، ٦١٧، ٦٢٥) وجلى في هذه الحلقة الأستاذ أحمد زكي صالح فيما كتبه في مجلة الرسالة المصرية السنة الثامنة، ص ١٢٠٤ و ١٢٠٦.

ولقد فند تلك الأوهام والمزاعم تفنيداً حكيمياً علمياً وصرح مراراً

بتشييعه وقال في مناقشة رأي الأستاذ كراوس: ومن الجلي الواضح لدى كل من درس علم الكلام أن فرق الشيعة كانت أنشط الفرق الإسلامية حركة، وكانت أول من أسس المذاهب الدينية على أسس فلسفية حتى أن البعض ينسب فلسفة خاصة لعلي بن أبي طالب عليه السلام^(١).

ومنهم من يقول إنه تلميذ خالد بن يزيد، واستدل ملا كتاب جلبي على ذلك بالبيتين المشهورين من قول بعض الشعراء:

حكمة أورثناها جابر عن إمام صادق القول وفي
لوصي طاب في تربته فهو كالمسك تراب النجف

وذلك لأن خالد بن يزيد وفي لعلي واعترف له بالخلافة، وترك الإمامة^(٢) وهذا الاستدلال بعيد عن إثبات الدعوى من كل وجه بما لا حاجة إلى إيضاحه، وعبارات جابر بن حيان في رسائله تؤيد ما يقوله الأكثر بأنه أخذ ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام فقد كرر عباراته ما يشعر بذلك، ويعبر عنه بقوله: حدثني سيدي عن آبائه واحداً بعد واحد وقال لي...^(٣). ويقول: وكنت يوماً قاصداً دار سيدي جعفر «صلوات الله عليه»، ويكثر من قوله، وحق الله وحق سيدي صلوات الله عليه...^(٤).

وفي ص ٣١٦ في المقالة ٢٤: رضي الله عن سيدي فإنه كان إذا مر به مثل هذه الخواص شيء قال: يا جابر هذه حياة القلوب وما ينبغي إذا نظرت في كتبنا هذه إلا أن تجمعها وما يضاف إليها من فنونها والسلام.

وقد نص أكثر المؤرخين والكتاب على ذلك كابن خلكان في وفيات

(١) حياة الإمام الصادق للمظفر، ص ٢٠٢.

(٢) كشف الظنون، ج ٢، ص ١٩٨.

(٣) رسائل جابر بن حيان التي نشرها المستشرق كراوس، ص ٣٣٥ في كتاب السر المكتون.

(٤) كتاب الخواص الكبير، ص ٢٠٥.

الأعيان، والياضي في مرآة الجنان، وابن الوردى في تاريخه، والحاج خليفة في كشف الظنون، ويطرس البستاني في دائرة المعارف، و(ش) سامي في قاموس الأعلام باللغة التركية.

ويقول الأستاذ الدكتور محمد يحيى في كتابه الإمام الصادق ملهم الكيمياء :

من الأمور التي تلفت النظر في تاريخ العلوم مشكلة الإمام جعفر الصادق عليه السلام وعلاقته الكبرى مع جابر بن حيان، أبو الكيمياء في العصور الوسطى، ولقد تصدى إلى هذا الموضوع عدد من المستشرقين، والكيميائيين، فلم يوفوه حقه، لأنهم عالجوا المشكلة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث في رسائل جابر نفسها، مما لها علاقة مع الإمام الصادق مبرزين ميزاتها، وإمكانية صدورهما عن الإمام، وإننا في هذه الدراسة المقتضبة سوف نحاول أن نقوم في عمل هذا الاستقراء. مستعينين بما وصل إلى أيدينا من المصادر التي نعتز بأننا قليلة، ومن الضروري عمل دراسة عملية عن الإمام جعفر الصادق، ومكانته الأدبية، ودوره في التاريخ الفكري الإسلامي لتظهر لنا كثيراً من النقاط الغامضة على ضوء النهار.

إلى أن يقول في ص ٣٩: لدى مطالعتنا للتراث الضخم الذي خلفه لنا جابر عن الكيمياء نرى اعترافاً صريحاً بأن المعلم لهذه الصنعة هو الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وقد اطلع على هذه الحقيقة كثير من المستشرقين الغربيين فاعتقدوا في ذلك مبالغة عظيمة، وفي النقد الذي وجهوه ضد هذه المشكلة قالوا: إنه لمن المستحيل على جعفر أن يلم هذا الإمام العظيم بالعلوم والفنون التي ذكرها جابر في المخطوطات التي وصلت إلينا، والتي يوجد منها عدد كبير في القاهرة، والتي لم تدرس الدراسة الكافية بعد،

ويعتقد (دروسكا) إنه لمن المستحيل على جعفر أن يكون كيميائياً، فليس من الممكن أن يتعاطى تلك الصنعة سواء كان ذلك نظرياً أو عملياً وهو في المدينة، ولقد أعجب كل من (برتلو الإفرنسي) و(هولميارد الإنكليزي) بالمعلومات التي تسند إلى جابر. إلى آخر ما ذكره في تصحيح نسبة اتصال جابر بالإمام جعفر عليه السلام ولا نتعرض لأكثر من هذا فلسنا من أهل الاختصاص فيما اختص به جابر بن حيان، وإنما تعرضنا له على سبيل الإشارة والاستطراد.

الفرق:

لما كانت مدرسة الإمام جامعة للعلوم، ولم يكن هناك منهج خاص للمسائل التي يسأل فيها، بل كان تارة يسأل عن مختلف العلوم والمسائل المشكلة فيحلها، ويتدئ تارة فيهدي قلباً متنبه عن جدد الطريق، وتارة يجتمعون حواله فيحدثهم عن آباءهم عن جده فيما يصلح لمعادهم ومعاشهم وربما يملئ ويكتب الكتاب في أهم مسائل علم الكلام والحديث، لذلك كانت مدرسته موضع عناية المفكرين يقصدها زعماء الفرق، فكان الإمام يناظرهم، وقد اجتمع بكثير منهم في العراق ومكة، فكانوا يخضعون لعدوبة منطقته، وحسن بيانه وقوة حجته، وقدرته الفائقة في التوجيه، لاتساع علمه، وساطع برهانه. وقد حضر عنده كثير من أهل الآراء والمعتقدات المنحرفة عن طريق الصواب، فهدى الله به بعضاً منهم وتعتت آخرون. وسنشير إلى ذكر الفرق في عصره ومناظراته معهم واهتمامه العظيم في اعتدال اعوجاج طرقهم، وإن كان ذكرهم هنا أجدر، ولكن ضيق المجال أرغمنا على تأخير، لذلك أشرنا إليه.



الفصل الثالث

الإمام الصادق عليه السلام
ملوك عصره وأمراء بلده





تمهيد:

لقد كان الإمام الصادق عليه السلام مثلاً كاملاً لدعاة الإصلاح، وعلماً من أعلام الصلاح، يأمر بالأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة، واكتساب الفضائل والابتعاد عن الرذائل، لا يدخر النصح عن أحد.

كان يدعو الناس بلين ورفق، ويجادلهم بالتي هي أحسن، ولا يتشدد على الشاك في الدين، بل كان يوضح له ما أشكل، ويبين له ما أبهم، حتى يظهر له الحق ويجلو له السبيل.

وكان يتشدد على أصحابه المتشددين في معاملة المنحرفين عن الحق، ويأمرهم بأن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويقول لهم: «لأحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم، ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون، وما يدخل به الأذى علينا، أن تأتوه فتؤنبوه وتعذلوه وتقولوا له قولاً بليغاً».

فقال له بعض أصحابه: إذاً لا يقبلون منا.

قال: اهجروهم واجتنبوا مجالسهم.

فهو يوجب على العالم أن لا يتخلى عن تعليم الجاهل الذي يتردى بجهالته، فيرتكب ما يخالف الدين، ويدخل به الأذى على دعاة الإصلاح وحماة المسلمين، ولا يصح لهم هجره إلا بعد اليأس من إصلاحه، وإزالة

الغشاوة التي أعمت بصره، ففي هذه الحالة تكون مواصلته تشجيعاً، ومجالسته إغراء.

وكان ﷺ يبذل جهده في توجيه الناس وتقويم أخلاقهم، وإصلاح شؤونهم ما استطاع، ويريد منهم أن يلتزموا الجوهر ويتركوا العرض، ويأمرهم بالعمل، ويدعو ذوي اليسر إلى الإنفاق على ذوي العسرة، وأن يوسعوا على المضيق منهم حتى يمنعهم من ذل السؤال، وكان ينفق حتى لا يبقى شيئاً لعياله^(١) كما يحدث عنه الهياج بن بسطام.

يقول شعيب بن ميثم: قال لي الصادق: يا شعيب أحسن إلى نفسك وصل قرابتك، وتعاهد إخوانك، ولا تستبد بالشيء فتقول: ذا لنفسي وعيالي، أن الذي خلقهم هو يرزقهم.

إلى غير ذلك من أقواله وأفعاله، التي كان يبعث فيها الشعور لسامعيه على لزوم التخلق بالسجايا الحسنة اقتداء به، لأنه ﷺ كان حريصاً على توجيه المجتمع، والتخلي بآداب الإسلام، فهو يدعو الأغنياء لمواساة الفقراء والإحسان إليهم، لنزول عوامل العداوة والحسد والبغضاء، ويكون الجميع أخوة، كل يحب الخير لأخيه، فلا أثر ولا بخل، ولا إهانة بعض لبعض، ولا خصومة ولا مشاحنة، إلى غير ذلك مما دعا الإسلام كل مسلم أن يتصف به.

ولحرصه ﷺ على تأليف القلوب وإزالة الشحناء، وإطفاء نار العداوة والبغضاء، كان يدفع إلى بعض أصحابه من ماله ليصلح به بين المتخاصمين على شيء من حطام الدنيا تسوية للخلاف، ودفعاً للتقاطع والتهاجر. ومنعاً من الترافع لحكام الجور.

(١) القرماني، ص ١٢٨، وكشف الغمة للأربلي، ج ١، ص ٢٢٣.

نهي عن المنازعات وفض الخصومة لدى حكام الجور:

قال أبو حنيفة واسمه سعيد بن بيان: مر بنا المفضل بن عمر وأنا وأخت لي نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة، ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل. فأتيناه وأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعتها إلينا حتى إذا استوثق كل واحد منا صاحبه قال المفضل: أما إنها ليست من مالي، ولكن أبا عبد الله الصادق أمرني: إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن أصلح بينهما، وأتديهما من ماله فهذا مال أبي عبد الله الصادق.

وهكذا يكشف لنا عظيم اهتمامه بجمع الكلمة، وعدم الفرقة أولاً، وإنهاء الخصومات على يد من أقامه من قبله لذلك ثانياً.

لأنه عليه السلام منع عن المرافعة إلى حكام الجور، وأمر بمقاطعتهم وقد أقام جماعة من كبار أصحابه حكماً من قبله، ينظرون في الخصومات، ويحكمون بحكم الله عز وجل، وقد أمر الإمام الصادق بالرجوع إليهم، والمرافعة عندهم وقال:

أيما رجل كانت بينه وبين أخ له ممرارة في حق، فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه وبينه، فأبى إلا أن يرفعه إلى هؤلاء، كان بمنزلة الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُزِيلَ إِلَيْكَ وَمَا يُزِيلُ مِنْ قَلْبِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾.

وكان يعلن عليه السلام بأن المرافعة إلى أولئك الحكام إثم، وأن حكمهم غير نافذ، لأن الحكومة للإمام العادل بالحكم، العالم بالقضاء، كني أو وصي نبي؛ وهو عليه السلام أحق بالحكم، وأمر بالرجوع لمن جعله من قبله للحكم بين المتنازعين.

وقد ورد عنه عليه السلام أنه قال :

إياكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور، وأيما مؤمن قدم مؤمناً في خصومة إلى قاض أو سلطان جائر فقاضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم.

والمراد بقوله : بغير حكم الله مطلق ما يحكمون به، سواء كان الحكم بالحق أم بالباطل، لأنهم حكام جور، وليس لهم حق الحكومة بأحكام الله، فحكمهم غير حكم الله.

وكما كان ينهى عن المرافعة إليهم، كان ينهى عن معاونتهم والعمل لهم، حتى في البناء وكراية الأنهر، وقال في جواب من سأله عن ذلك : ما أحب أن أعقد لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء، إن الظلمة وأعوان الظلمة في سرادق من نار، حتى يحكم الله بين العباد.

نهي عن الولاية للظالمين:

وطلب منه مولى من موال جده علي بن الحسين عليه السلام أن يكلم والي المدينة - وهو داود بن علي - أن يدخل في بعض الولايات.

فقال عليه السلام : ما كنت لأفعل.

فظن الرجل أن امتناع الإمام عليه السلام كان خوفاً من أن يظلم أحداً؛ فحلف له بالإيمان المغلظة أنه يعدل ولا يجور، فكان جواب الإمام عليه السلام أن قال له : تناول السماء أيسر عليك من ذلك. وقد أشرنا من قبل إلى مواقفنا ضد الحكام وأحكامهم، وإعلانه المقاطعة لهم. وعلى هذا النهج سار أتباعه، وطبعت مدرسته بهذا الطابع، فكانت عرضة للخطر من قبل حكام الجور، ولكنها واصلت كفاحها في سبيل ترسيخ مبادئها وإعلاء كلمة الحق. وكان يحرص الحرص الشديد على إزالة الشحنة من القلوب، وبث روح الأخوة، فهو ينهى عن التهاجر والمقاطعة.

قال المفضل: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول:

لا يفترق رجلان على الهجران إلا استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربما استوجب ذلك كلاهما.

فقال له معتب: جعلت فداك هذا حال الظالم، فما بال المظلوم؟!

قال عليه السلام: لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته، ولا يتغافل عن كلامه. سمعت أبي يقول: إذا تنازع اثنان فعاد أحدهما الآخر فليرجع المظلوم إلى صاحبه حتى يقول له: أي أخي أنا الظالم. حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فإن الله حكم وعدل يأخذ للمظلوم من الظالم.

وقال جابر بن عون: إن رجلاً قال لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام: إن بيني وبين قوم منازعة في أمر، وإني أريد أن أتركه، فيقال لي: إن تركك له ذلة.

فقال عليه السلام: إن الذليل هو الظالم.

حثه على صلة الرحم:

فهو عليه السلام يحاول أن يزيل من القلوب ضغائن الأحقاد التي تبعث على الكراهة والفرقة، وكان هو عليه السلام من حسن سيرته ومكارم أخلاقه يصل من قطعه، ويعفو عمن أساء إليه، كما ورد أنه وقع بينه وبين عبد الله بن الحسن كلام، فأغلظ عبد الله في القول، ثم افترقا وذهبا إلى المسجد، فالتقيا على الباب، فقال الصادق عليه السلام لعبد الله بن الحسن: كيف أمسيت يا أبا محمد؟.

فقال عبد الله: بخير - كما يقول المغضب - .

قال الصادق عليه السلام: يا أبا محمد أما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب؟ ثم تلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَعْمَلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَن يُوصَلَ وَيَخْتَفُونَ مِنْهُمْ وَيَخْفَوْنَ مِنْهُ الْحِسَابُ﴾.

فقال عبد الله : فلا تراني بعدها قاطعاً رحماً .

وكان يقول : قال رسول الله ﷺ : لا تقطع رحمك وإن قطعك .

وجاء إليه رجل فشكا أقاربه ، فقال ﷺ : اكظم غيظهم . فقال الرجل : إنهم يفعلون ويفعلون . فقال ﷺ : أتريد أن تكون مثلهم فلا ينظر الله إليكم !!! .

وقال ﷺ : إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن لي أهلاً قد كنت أصلهم وهم يؤذوني ، وقد أردت رفضهم . فقال رسول الله ﷺ : إن الله يرفضكم جميعاً .

قال الرجل : وكيف أصنع ؟

قال ﷺ : تعطي من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، فإذا فعلت ذلك كان الله عز وجل لك عليهم ظهيراً .

فكان ﷺ يصل رحمه ويبذل لهم النصح ، ويدعوهم إلى ما فيه صلاح أنفسهم ، وإصلاح الأوضاع التي اضطرب حبل استقامتها في عصرهم وكان يصل فقراءهم بالليل سراً وهم لا يعرفونه ، كما كان ﷺ يبذل النصح لجميع المسلمين ، ويدعوهم إلى الالتزام بأوامر الدين .

وكان يحث في كثير من تعاليمه على مساعدة الضعفاء ومعاونة المعوزين ، وصلة الفقراء والمساكين ، ويقوم هو بنفسه بصلتهم ومعاونتهم ، ويوزع عليهم من ماله . وإذا جن الليل قام بصدقة السر ، يطوف على بيوت الفقراء .

قال هشام بن الحكم رضي الله عنه : كان أبو عبد الله الصادق عليه السلام إذا أعتم وذهب من الليل شطرهن أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم فيحمله ، ثم يذهب فيه إلى أهل الحاجة من أهل المدينة ، فيقسمه فيهم ، وهم لا

يعرفونه، فلما مضى أبو عبد الله فقدوا ذلك فعلموا أنه كان هو أبو عبد الله الصادق عليه السلام.

حُثّه على مساعدة الضعفاء وأبناء السبيل:

وقال له رجل من أصحابه: جعلت فداك. بلغني أنك تفعل في عين زياد (اسم ضيعة له) شيئاً أحب أن أسمعك منك.

فقال عليه السلام: نعم كنت أمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم في حياطينها الثلم، ليدخل الناس ويأكلوا، وكنت أمر أن يوضع عشر بنيات يقعد على بنية عشرة، كلما أكل عشرة جاء عشرة أخرى، يلقي لكل نفس منهم مد من رطب، وكنت أمر لجيران الضيعة كلهم: الشيخ والعجوز والمريض والصبي والمرأة، ومن لا يقدر أن يجيء فيكون لكل إنسان مداً، فإذا أوفيت القوام والوكلاء أجرتهم أحمل الباقي إلى المدينة، ففرقت في أهل البيوت والمستحقين على قدر استحقاقهم، وحصل لي بعد ذلك أربعمئة ديناراً، وكانت غلتها أربعة آلاف.

وقال مصادف: كنت مع أبي عبد الله عليه السلام ما بين مكة والمدينة فمررنا على رجل في أصل شجرة، وقد ألقى بنفسه، فقال عليه السلام: مل بناء إلى هذا الرجل، فإني أخاف أن يكون قد أصابه العطش. فملنا إليه فإذا هو رجل من النصارى طويل الشعر، فسأله الإمام: أعطشان أنت؟ فقال: نعم. فقال الإمام: انزل يا مصادف فاسقه. فنزلت وسقيته ثم ركب وسرنا.

فقلت له: هذا نصراني، أفنتصدق على نصراني؟

فقال: نعم. إذا كانوا يمثل هذه الحالة.

ولشدة اهتمامه بمساعدة الضعفاء، وقضاء حوائج المؤمنين، كان يرى عليه السلام أن الإعراض عن المؤمن المحتاج للمساعدة استخفاف به،

والاستخفاف بالمؤمن استخفاف بهم ﷺ . وجاء ذلك موضحاً في قوله ، وقد كان عنده جماعة من أصحابه : ما لكم تستخفون بنا؟ فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال : معاذ الله أن نستخف بك أو بشيء من أمرك .

فقال ﷺ : إن أحد من استخف بي .

فقال الرجل : معاذ الله أن أستخف بك!!!

فقال له ﷺ : ويحك ألم تسمع فلاناً ونحن بقرب الجحفة ، وهو يقول : احملني قدر ميل فقد والله أعيب . فوالله ما رفعت له رأساً ، لقد استخففت به ، ومن استخف بمؤمن فبنا استخف ، وضيع حرمة الله عز وجل .

وقال صفوان الجمال : دخلت على أبي عبد الله الصادق ﷺ فدخل عليه رجل من أهل مكة - يقال له ميمون - فشكى إليه تعذر الكراء عليه .

فقال ﷺ : قم فأعن أخاك . فقممت معه فيسر الله كراه ، فرجعت إلى مجلسي ، فقال أبو عبد الله : ما صنعت في حاجة أخيك؟
فقلت : قضاها الله : بأبي أنت وأمي .

فقال ﷺ : أما إنك إن تُعِن أخاك المسلم أحب إلي من طواف أسبوع في البيت .



ودخل عليه عمار الساباطي ، فقال له : يا عمار إن رب مال كثير فتؤدي ما افترض الله عليك من الزكاة؟

قال : نعم .

قال ﷺ : فتخرج الحق المعلوم من مالك؟

قال : نعم .

قال عليه السلام : فتصل قرابتك ؟

قال : نعم .

قال : فتصل إخوانك ؟

قال : نعم .

قال عليه السلام : يا عمار إن المال يفنى ، والبدن يبلى ، والعمل يبقى والديان حي لا يموت .

يا عمار ما قدمت فلم يسبقك ، وما أخرت فلن يلحقك .

وقال المفضل بن قيس : دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فشكوت إليه بعض حالي ، وسألته الدعاء فقال : يا جارية هاتي الكيس ، فجاءت بكيس فقال : هذا كيس فيه أربعمئة دينار فاستعن به .

قال المفضل : فقلت لا والله ما أردت هذا ولكن أردت الدعاء لي .

فقال عليه السلام : ولا أدع الدعاء ولكن لا تخبر الناس ما أنت فيه فتهون عليهم .

وقال الشقراني - مولى رسول الله - : خرج العطاء أيام المنصور ، فوقفت على الباب متحيراً ، وإذا بجعفر بن محمد قد أقبل ، فذكرت له حاجتي ، فدخل ثم خرج وإذا بعطائي في كفه وناولني إياه وقال : إن الحسن من كل أحد حسن وإنه منك أحسن ، وإن القبيح من كل أحد قبيح ، وإنه منك أقبح لمكانك منا .

قال ابن الجوزي : وإنما قال في جعفر ذلك لأن الشقراني كان يشرب الشراب ، فمن مكارم أخلاق جعفر أنه رحب به وقضى حاجته مع علمه بحاله ووعظه على وجه التعريض ، وهذا من أخلاق الأنبياء .

وقال يوماً لبعض أصحابه: ما بال أخيك يشكوك؟!

فقال: يشكوني إذ استقصيت عليه حقي .

فجلس الإمام مغضباً وقال: كأنك إذا استقصيت عليه حقه لم تسي؟
أريت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب؟ أخافوا أن يجور عليهم؟
لا . ولكن خافوا الاستقصاء فسماه الله سوء الحساب فمن استقصى فقد
أساء .

قال زرارة: قلت لأبي عبد الله: إن لي على رجل ديناً وقد أراد أن
يبيع داره فبعطني .

فقال الصادق عليه السلام: أعيذك بالله أن تخرجه من ظل رأسه، أعيذك بالله
أن تخرجه من ظل رأسه .

وكان يسأل القادمين عليه من أصحابه عن معاونة بعضهم بعضاً . قال
محمد بن زيد الشحام رأي أبو عبد الله وأنا أصلي فأرسل ودعاني، فقال
لي:

من أين أنت؟ قلت: من الكوفة، فقال: من تعرف من الكوفة .
فذكرت له رجلين .

قال: وكيف صنيعهما إليك . قلت: وما أحسن صنيعهما إليّ .
فقال عليه السلام: خير المسلمين من وصل وأعان ونفع . ما بت ليلة قط وفي
مالي حق يسألني الله تعالى ثم قال: أي شيء معك من النفقة، قلت: عندي
مائتا درهم . قال: أرنيتها، فأتيته، فزاد فيها ثلاثين درهماً ودينارين، ثم
قال عليه السلام: تعش عندي . فتعشيت عنده .

قال زيد: فلما كان من السنة القابلة لم أذهب إليه، فأرسل إليّ
فدعاني، فقال عليه السلام: ما لك لم تأتيني البارحة؟

قلت: لم يأتي رسولك، فقال عليه السلام: فأنا رسول نفسي إليك ما دمت مقيماً في هذه المدة.

قال زيد: فقلت له علمني دعاء. قال: أكتب. بسم الله الرحمن الرحيم. يا من أرجوه لكل خير، وآمن سخطه عند كل عثرة، يا من يعطي الكثير بالقليل، ويا من يعطي من سأله تحتاً منه ورحمة، ويا من أعطى من لم يسأله ومن لم يعرفه، صل على محمد وأهل بيته، وأعطني بمسألتني إياك خير الدنيا وجميع خير الآخرة، فإنه غير منقوص ما أعطيت وزدني من سعة فضلك يا كريم.

ثم رفع يده فقال: يا ذا المن والطول، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا النعماء والجود، إرحم شيعتي من النار.

ثم وضع يديه على لحيته، ولم يرفعهما، حتى امتلأ كفه دموعاً. وقال مصادف: كنت عند أبي عبد الله الصادق فدخل رجل فسلم عليه، فسأله الإمام: كيف من خلفت من إخوانك؟ فأجاب الرجل وأحسن الثناء وأطراهم. فسأله الإمام: كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم؟! فقال الرجل: قليلة.

قال الإمام: كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟

فقال الرجل: قليلة.

قال الإمام: كيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم؟

فقال الرجل: إنك تذكر أخلاقاً قل ما هي فيمن عندنا.

قال الإمام: فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعةنا؟!

قال إسحاق بن عمار: دخلت على أبي عبد الله الصادق. فنظر إليّ

بوجه قاطب، فقلت: ما الذي غيرك لي؟

قال ﷺ: الذي غيرك لإخوانك، بلغني يا إسحاق أنك أقعدت ببابك بواباً يرد عند الفقراء.

فقلت: جعلت فداك إنني خفت الشهرة.

فقال ﷺ: ألا خفت البلية.

قال إسحاق بن إبراهيم: كنت عند أبي عبد الله الصادق ﷺ، إذ دخل عليه رجل من خراسان فقال: يا ابن رسول الله أنا من مواليكم، وبينى وبينكم شقة بعيدة، وقد قل ذات يدي، ولا أقدر أن أتوجه إلى أهلي إلا أن تعينوني، فنظر أبو عبد الله وقال: أما تسمعون ما يقول أخوكم؟

إنما المعروف ابتداء، فأما ما أعطيت بعد ما سأل إنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه، أفبييت ليلة متارقاً متململاً بين اليأس والرجاء، لا يدري أين يتوجه، فيعزم على القصد إليك، فأتاك وقلبه يجب، وفرائضه ترتعد، وقد نزل دمه في وجهه، وبعد هذا فلا يدري أينصرف من عندك بكآبة الرد، أم بسرور النجح، فإن أعطيته رأيت أنك قد وصلته، وقد قال رسول الله ﷺ:

«والذي فلق الحب، وبرأ النسمة، وبعثني بالحق نبياً، لما يتجشم من مسألته إياك أعظم مما ناله من معروفك».

قال إسحاق: فجمعوا له خمسمائة درهم ودفعوها إليه.

وكان ﷺ يوجه المجتمع بتعاليمه إلى جميع مهمات الحياة، ويحث الإنسان على عزة النفس وعدم الإهانة لها فيقول: إن الله فوض إلى المؤمن أموره كلها، ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع قول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، إن المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستقل منه بالمعاول، والمؤمن لا يستقل من دينه

حثه على العمل وطلب الرزق الحلال:

وقد حث عليه السلام في جملة من تعاليمه على طلب المال من حله، ويدعو أصحابه إلى التكسب في الأسواق، ويجعل ذلك عزاً للإنسان.

يقول المعلى بن خنيس: رأني أبو عبد الله عليه السلام وقد تأخرت عن السوق، فقال لي: أغدو إلى عزك.

وقال لآخر - وقد ترك غدوه إلى السوق - : ما لي أراك وقد تركت غدوك إلى عزك؟!!

فهو عليه السلام يدعو لكسب المال من حله لينال المرء عزة في نفسه ولا يكون كلاً على الناس فيهان.

ولقد أخبر عن رجل قال: لأقعدن ولأصلين، ولأصومن ولأعبدن الله، فأما رزق فيأتيني.

قال عليه السلام: هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم.

وقال له رجل: إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها.

قال عليه السلام: ماذا تحب أن تصنع بها.

فقال الرجل: أوسع بها على نفسي وعيالي، وأصل بها قرابتي، وأنصدق وأحج، وأعتمر.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة.

وكان هو بنفسه يطلب الرزق الحلال.

قال أبو عمر الشيباني: رأيت أبا عبد الله الصادق وبيده مسحاة يعمل في حائط له والعرق يتصبب، فقلت: جعلت فداك أعطني أكفك.

فقال لي: إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة.

وقال المفضل بن قرة: دخلنا على أبي عبد الله في حائط له (أي بستان) ويده مسحاة يفتح بها الماء وعليه قميص، وكان يقول: إني لأعمل إني لأعمل في بعض ضياعي وإن لي من يكفيني ليعلم الله أنني أطلب الرزق الحلال.

وخرج عليه السلام في يوم صائف شديد الحر فاستقبله عبد الأعلى - مولى آل سام - في بعض طرق المدينة، فقال له: يا بن رسول الله حالك عند الله عز وجل وقربتك من رسول الله ﷺ وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم!!

فقال عليه السلام: يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك.

نُبذ من أعماله وأقواله:

فهو عليه السلام يعلم الناس قولاً وعملاً لأنه ناصح مرشد بأقواله وأفعاله يدعو إلى الخير ويهدي إلى سبيل الرشاد. بلغه عن رجل من أصحابه أنه وقع بينه وبين أمه كلام، فأغلظ لها، فلما دخل عليه من الغد ابتدأه قائلاً:

يا مهزم مالك وخالدة (اسم أمه) أغلظت في كلامها البارحة، أما علمت أن بطنها منزل قد سكنته، وأن حجرها مهد قد عمرته، وأن ثديها وعاء قد شربته؟ فقال: بلى، قال عليه السلام: فلا تغلظ لها.

ودخل عليه صالح بن سهل - وكان يذهب مذهب الغلاة - فلما نظر إليه قال: يا صالح إنا والله عبيد مخلوقون لنا رب نعبده. وإن لم نعبده عذبنا. فترك صالح ما كان يذهب إليه.

وكان عبد العزيز القزار ممن يذهب لهذا المذهب، فلما دخل على الإمام عليه السلام قال له: يا عبد العزيز ضع لي ماء أتوضأ به.

قال عبد العزيز: ففعلت. فلما دخل قلت في نفسي هذا الذي قلت فيه ما قلت؟!!

فلما خرج قال عليه السلام يا عبد العزيز لا تحمل البناء فوق ما لا يطيق. إنا عبيد مخلوقون.

وهكذا كان عليه السلام يرشد للحق ويدعو إلى سبيل الرشاد ويعظ جلساءه. ويوجه بأقواله وأعماله من شذ عن الطريق السوي، ويعلن براءته مما يدعي فيهم من الغلو، ويقول أمام الملأ: إنا عبيد مخلوقون لرب إن عصيانه عذبننا.

وكان مجلسه يكتظ بمختلف الطبقات، من علماء الفرق وأهل الآراء فهو يُلقى عليهم دروساً توجيهية بأقواله وأفعاله.

قال سدير الصيرفي: كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزاز في مجلس أبي عبد الله، إذ خرج إلينا وهو مغضب فلما أخذ مجلسه قال:

يا عجباً لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب إلا الله عز وجل، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة، فهربت مني فما علمت في أبي بيت من الدار هي.

فهو بهذا يرد مزاعم أولئك المنحرفين عن منهج أهل البيت عليه السلام ويدعون جبههم، ويزعمون أنهم يوحى إليهم، وأنهم يعلمون الغيب الذي هو لله وحده، فأوضح عليه السلام لجلسائه بطلان هذه المزاعم ليحملوا ذلك عنه، وينشروه في البلاد النائية، لأنه شديد الاهتمام بأمر الغلاة، وإعلان الحرب عليهم، وهم ليسوا من شيعته، وإنما هم أعداء له، يريدون الإساءة له والوقعة في أتباعه.

وسأله رجل من جلسائه فقال: إن قوماً من مواليكم يلمون بالمعاصي ويقولون: نرجو.

فقال ﷺ: كذبوا ليسوا لنا بموالٍ، أولئك قوم ترجحت بهم الأمانى. من رجا شيئاً عمل له، ومن خاف شيئاً هرب منه.

وكما قلنا إن مجلسه كان مكتظاً بمختلف الطبقات، من رواد العلم وحملة الحديث، وكان سفيان الثوري وهو أحد أعلام الأمة ومن رؤساء المذاهب البائدة، يكثر التردد عليه ويطلب منه الموعدة والتوجيه.

ويحدثنا سفيان: أنه دخل على الإمام الصادق ﷺ وكان عليه جبة خز دكناء قال سفيان: فجعلت أنظر إليها متعجباً.

فقال لي: يا ثوري، ما لك تنظر إلينا، لعلك مما رأيت؟

قال فقلت: يا بن رسول الله ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك. فقال لي: يا ثوري، كان ذلك الزمان مقفراً مقترأ، ثم حسر عن رदन جبهته، وإذا تحتها جبة صوف بيضاء، وقال: يا ثوري لبسنا هذا لله (وأشار إلى جبة الصوف) وهذا لكم (وأشار إلى الخز) فما كان لله أخفيناه، وما كان لكم أبديناه.

وكان ﷺ يؤوي الضيف ويدعو الغرباء إلى ضيافته ويكرمهم، ومن حسن أخلاقه لا يود أن يسارع الضيف في رحلته، ويمنع خدمه من المعاونة لهم في رحلتهم، وهذا من مفاخر العرب، ولهم فيه أشعار كثيرة. وعندما يسأله ضيوفه عن سبب ذلك يقول: إنا أهل بيت لا نعين أضيافنا على الرحلة من عندنا.

كما أنه يبذل الطعام ويدعو إلى بذله. وسأله محمد بن قيس فقال: إني لا أتغدى ولا أتعشى إلا ومعى اثنان أو ثلاث أو أكثر.

فقال ﷺ: فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم.

فقال محمد: جعلت فداك كيف؟! وأنا أطعمهم طعامي، وأنفق عليهم، ويخدمهم خادمي.

فقال عليه السلام: إذا دخلوا عليك دخلوا بالرزق الكثير، وإذا خرجوا خرجوا بالمغفرة.

وقال رجل من الجالسين عنده: إن المنصور مذ صارت الخلافة إليه لا يلبس إلا الخشن، ولا يأكل إلا الجشب.

فقال عليه السلام: يا ويحه مع ما مكن الله له من سلطان!!

فقيل: إنما يفعل ذلك بخلاً وجمعاً للأموال.

فقال عليه السلام: الحمد لله الذي حرمه من دنياه ماله مع دينه. ولما أحضره المنصور في مجلسه وقع الذباب على وجه المنصور حتى ضجر، فقال المنصور:

يا أبا عبد الله لم خلق الله الذباب؟

فقال عليه السلام: ليذل به الجبارين. فوجم لقوله.

وقد أدب أصحابه بآداب الإسلام، في جمع الكلمة وعدم الفرقة، وحسن الصحبة لمن يصحبه.

قال أبو بصير: سمعت أبا عبد الله الصادق يقول: اتقوا الله وعليكم بالطاعة لأنتمكم، قولوا ما يقولون، واصمتوا عما صمتوا فإنكم في سلطان من قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ مَكْرُومًا يُنْزِلُ مِنْهُ الْبُحْبُوحُ﴾. فاتقوا الله فإنكم في هدنة، صلوا في عشايرهم، واشهدوا جنائزهم، وأدوا الأمانة إليهم، وعليكم بحج البيت، فإن في إيمانكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم. وأحوال يوم القيامة.

وقال أبو ربيع الشامي: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام والبيت غاص، فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق، فلم أجد موضعاً أقعد فيه، فجلس أبو عبد الله وكان متكئاً ثم قال: يا شيعة آل محمد إنه ليس منا من

لم يملك نفسه عند غضبه، ولمن يحسن صحبة من صحبه، ومخالقة من خالقه، ومرافقة من رافقه، يا شيعة آل محمد اتقوا الله ما استطعتم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وقال عليه السلام للمفضل: من صحبتك؟ قال رجل من إخواني قال عليه السلام: فما فعل؟ قال المفضل منذ دخلت المدينة لم أعرف مكانه. فقال لي: أما علمت أن من صحب مؤمناً أربعين خطوة سأله الله عنه يوم القيامة.

وبعث الإمام الصادق عليه السلام غلاماً له في حاجة، فأبطأ الغلام، فخرج على أثره فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يروحه فانتبه، فقال الإمام عليه السلام: والله ما ذلك لك، تمام الليل والنهار!! لك الليل ولنا منك النهار.

ودخل عليه رجل فقال: يا بن رسول الله أخبرني بمكارم الأخلاق. فقال عليه السلام: هي العفو عمن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك.

وقال يوماً لأصحابه: إنا لنحب من كان عاقلاً، فهماً، حليماً، مدارياً صبوراً، صدوقاً، وفيّاً. إن الله عز وجل خص الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كانت فيه فليحمد الله على ذلك، ومن لم تكن فيه فليتضرع إلى الله عز وجل، وليسأله إياها.

فقال له ابن بكير: جعلت فداك وما هن؟

قال عليه السلام: هن الورع والقناعة والصبر والشكر والحلم والحياء والسخاء والشجاعة والغيرة، والبر وأداء الأمانة.

وهكذا كان عليه السلام، يلقي على الناس نصائحه ويغتنم الفرص في التوجيه والإرشاد، لما فيه صلاح أنفسهم، وبذلك يصلح المجتمع. فهو عليه السلام طول حياته يهدي إلى الخير، ويدعو إلى سبيل الرشاد، في امتثال أوامر الله، والوقوف عند نواهيه.

وقد بذل جهداً عظيماً في بذل النصيح لجميع المسلمين لينتصر المجتمع الإسلامي على مبوله ونزعائه، عندما تهذب النفوس من دون الرذائل، وتتحول عن شهواتها.

ولم يترك طريقاً للنصح إلا سلكه في أقواله وأفعاله، ولم يدع باباً للتوجيه إلا سلكه، ويدفع بالناس إلى التحلي بفضائل الأعمال، ويحث على الورع والتقوى، والاجتهاد في الطاعة، والإلفة والمحبة والتعاون، ومناصرة المظلوم والوقوف في وجه الظلم، وأخذ الحق للضعيف من القوي، وقال غير مرة:

«ما قدست أمة لم تأخذ لضعيفها من قوتها بحقه».

كما إنه عليه السلام كان يوصي من يريد السفر من أصحابه، أو الوفود القادمين عليه من البلاد النائية بالمرورة، ثم يشرحها لهم بقوله: هي كثرة الزاد وطيبه، وبذله لمن كان معك، وكتمانك على القوم بعد مفارقتك إياهم، وكثرة المزاح في غير ما يسخط الله. ثم يقول: والذين بعث جدك رسول الله ﷺ بالحق نبياً، إن الله عز وجل يرزق العبد على قدر المرورة، وإن المعونة تنزل على قدر المؤونة، وإن الصبر ينزل على قدر شدة البلاء.

ويوصيهم بعد ذلك بما أوصى لقمان ابنه إذ يقول: إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم، وأكثر التيسر في وجوههم، وكن كريماً على زادك بينهم، وإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنتهم، واستعمل طول الصمت، وكثرة الصلاة وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء أو زاد، وإذا استشهدت على الحق فاشهد لهم، وأجهد رأيك إذا استشاروك ولا تجب في مشورة حتى تقوم بها، فإن من لم يحض النصيحة لمن استشاره سلبه الله رأيه ونزع عنه الأمانة.

وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، وإذا رأيتهم يعملون فاعمل

معهم، وإن تصدقوا أو أعطوا قرصاً فأعطهم معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سناً، وإذا أمروك بأمر أو سألوك شيئاً فقل نعم ولا تقل لا، فإن لا عي ولؤم؛ وإذا تحيرتم في الطريق فانزلوا، وإذا شككتهم في الأمر فقفوا وتوامروا، وإذا رأيتم شخصاً واحداً فلا تسألوه ولا تسترشدوه، فإن الشخص الواحد في الفلاة مريب، لعله أن يكون عين للصوص. الخ...

حول أخطاء بعض الكتاب:

هذه لمحة موجزة ونظرة خاطفة لبعض سيرته في حياته التي قضاه في الدعوة إلى سبيل الخير، قائداً روحياً يوجه المجتمع إلى ما يسعده، وقد رأينا كيف كان في منهجه مع ولاة عصره، فهو لم يكن مسالماً لهم، ولا مبرراً أعمالهم. ومن الخطأ في الرأي ما يذهب إليه بعض الكتاب من أن الصادق عليه السلام كان مسالماً يقعد عن نصرة أبناء عمه، كما يقول الأستاذ أمين الخولي:

«إن الصادق - كما تشهد حياته - مسالم أو مسرف في المسالمة، يقعد عن نصرة أبناء عمه، فقد خرج ابن عمه محمد بن عبد الله بن حسين بالمدينة، فهرب هو حتى قتل محمد، فلما قتل واطمأن الناس وأمنوا رجع على المدينة، وذلك أقصى المسالمة، أو هو يصل إلى شيء وراء المسالمة قد يتتقد»^(١).

هذا ما يقول الأستاذ الخولي. ولم يكن هو أول من يسهم في تجاهل الحقائق والحكم على الشيء قبل معرفته، فهناك الكثير ممن حاولوا أن يلحقوا أهل البيت بوصمات الانتقال نتيجة للتعصب، أو لضيق أفق المعرفة أمامهم، فتأهوا في بيداء التخبط والتعثر، عندما ركضوا في طريق الانحراف عن الواقع.

(١) مالك بن أنس لأمين الخولي، ص ٩٢.

وإن مثل هذا القول يرينا إلى أي حد بلغ التأثير بأفكار المنحرفين عن الواقع، فلم يتجاوزوا في كتاباتهم عن أهل البيت حدود الخطة التي رسمتها لهم أقلام منحرفة، وآراء شاذة.

الدعوة العباسية:

أشرنا سابقاً إلى سوء معاملة الأمويين، وإجحافهم بحق الرعية، وظلمهم الذي لم يسلم منه أحد حتى الشيخ في محرابه، والطفل في مهده، فعم الاستياء جميع الطبقات، وساد الاضطراب جميع أنحاء المملكة، وقد وصف الشاعر الجعدي تلك الحالة السيئة بقوله:

والناس في كربة يكاد لها تنبذ أولادها حواملها
فكان الوضع السيئ يفسح المجال للثورة، وأي دعوة إلى الخلاص من تلك المحن وويلاتها تلقى قبولاً، وقد قامت الجمعيات السرية للدعوة إلى الرضا من آل محمد، ونالت النجاح بسرعة مدهشة حتى قضى على الدولة الأموية، وقامت على أطلالها الدولة العباسية.

وإذا أردنا أن نستنتج الحوادث، ونبحث عن العوامل التي أدت إلى نجاحهم، فلنا لم نجد لهم في أول الأمر أي نشاط يذكر، ولا يؤمل لهم النجاح بالدعوة والفوز في ميدان الكفاح السياسي.

إذاً كيف بدأت الدعوة وما هي أسباب طمعهم بالخلافة؟ وأي أسلوب اتخذوه لجلب القلوب؟ هذه أسئلة تجيب عليها الحوادث فلنعرض ذلك بموجز من البيان.

كان محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية^(١) يعتقد

(١) هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب، كان من سادات قریش وشجعانهم المشهورين وأقويائهم المعروفين، أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بني حنيفة، روى الحديث عن أبيه علي، وخرج حديثه

بعض الناس فيه أنه هو الإمام بعد أخيه الحسين بن علي عليه السلام، وأنه صاحب الدولة المبشر بها.

فلما مات محمد بن علي أوصى إلى ابنه أبي هاشم، وكان أبو هاشم، واسمه عبد الله، من رجالات أهل البيت البارزين، فاتفق أنه قصد هشام بن عبد الملك وافداً فوصله هشام، ثم رأى من فصاحته ورئاسته ما حسده عليه، وخاف منه، فبعث إليه من سمه في الطريق، فلما علم أبو هاشم بذلك، عدل إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فأعلمه أنه ميت، وأوصى إليه، وكان معه جماعة من أصحابه فأوصاه فيهم، وذلك سنة ٩٩ هـ.

وكانت هذه الوصية بذرة طمع وبارقة أمل (فهرس محمد بن علي بن عبد الله منذ يومئذ بالخلافة، وشرع في بث الدعاة سرّاً، وما زال الأمر كذلك حتى مات سنة ١٢٥ هـ وخلف أولادهم وهم جماعة، منهم: إبراهيم المعروف بالإمام والسفاح والمنصور)^(١).

فقام إبراهيم بالدعوة، وأخذ يتحدث مع المنكوبين في آلامهم، ويشاركهم في التأثر ويعطف على المظلومين، ويلعن الظالمين، والناس يندفعون وراء من يشاركهم آلامهم، ويميلون لمن يأملون الخلاص على يده من الظالمين.

انتشر دعاة إبراهيم في بلاد خراسان، وهم من الرجال الذين لهم الأثر هناك، منهم زياد مولى همدان، وحرب بن قيس، وسليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وغيرهم، فبعضهم قتلوا في سبيل الدعوة، ومثل ببعضهم وحبس البعض الآخر^(٢) وما زال الأمر يتفاقم والناس تتقبل هذه الدعوة.

(١) الآداب السلطانية، ص ١٢٧.

(٢) تاريخ ابن الساعي، ص ٣.

والجدير بالذكر أن الدعوة كانت على جانب كبير من الغموض والتكتم باسم الخليفة، وأن الشخص الذي يبايعه الناس لا يعرفه إلا الدعاة، والعامّة تباع إلى (الرضا من آل محمد).

وكان في طليعة الدعاة نشاطاً وقوة ودهاء أبو مسلم الخراساني، وقد ولاه إبراهيم الإمام على خراسان وجعله قائداً لتلك الحركة وذلك سنة ١٢٨هـ.

وقد عرف أبو مسلم الخراساني بالدعاء والمهارة الحربية، وكان يبذر بذور الشقاق بين جنود الأمويين، ليحصل الانقسام بينهم، وقد استفاد بذلك ونجح في مهمته، فقد انجفل الناس من هراة، والطالقان، ومرو، وبلخ، وتوافروا جميعاً مسودين الثياب، وأنصاف الخشب التي كانت معهم^(١).

وكان السواد هو شعار الدعوة العباسية جعلوه علامة حزن لما نال أهل البيت عليه السلام في العهد الأموي من القتل والتشريد.

أساليب الدعوة:

تولى الدعاة نشر الدعوة بكل نشاط، وتجاوب الناس لقبولها، وكانت الأساليب تستهوي النفوس، وتثير الشعور، وأهمها أن الثورة إنما تقوم على التنظيم ورعاية مصالح الأمة، والانتصار للعدالة المفقودة والحق الضائع، وأن الخليفة هو من أهل البيت ومن عتره محمد وورثته، وناهيك ما لأهل البيت من أثر في النفوس، ووقع في القلوب، لأنهم أهل العدل وحماة الدين.

كان الدعاة يلقون على الناس العبارات التالية:

هل فيكم أحد يشك أن الله عزّ وجلّ بعث محمداً واصطفاه؟ قالوا: لا.

أفتشكون أن الله أنزل عليه كتابه فيه حلاله وحرامه وشرائعه؟ قالوا: لا.

أفتظنون أنه خلفه عند غير عترته وأهل بيته؟ قالوا: لا.

أفتشكون أن أهل البيت معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله؟ الذي علمه الله. قالوا: لا^(١).

وعندما يسمع الناس هذه العبارات المعبرة عن أمانيتهم في تحقيق سعادتهم تحت ظل دولة تكفل لهم القضاء على آلامهم، وتضمن تحقيق آمالهم بالعمل على إزالة كابوس ذلك الحكم الجائر. يزداد نشاطهم ويكثر حماسهم.

ومن الأساليب التي اتخذت لنجاح الدعوة هو الشعار الأسود الذي يعبر عن محاربة الضلالة، أو إظهار الحزن والحداد على أهل البيت، الذين قامت الدعوة باسمهم للانتقام من الأمويين على ما ارتكبوه منهم، بدون مراقبة لله ولا احترام لرسوله. وقد أرسل إبراهيم الإمام لواء يدعى الظل أو السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً، وكتب إلى أبي مسلم إنني قد بعثت إليك براية النصر^(٢). وقد تأولوا الظل أو السحاب: أن السحاب يطبق الأرض وكما أن الأرض لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي^(٣). وإن ذلك اللواء يمثل لواء رسول الله، لأنهم ذكروا أن لواءه في حروبه وغزواته كان أسوداً.

(١) الكامل لابن الأثير، ج ٥، ص ١٧.

(٢) الطبري، ج ٩، ص ٨٢.

(٣) الكامل لابن الأثير، ج ٥، ص ١٧٠ والطبري، ج ٩، ص ٨٥.

على أن للتنبؤات وكشف حجب الغيب عن المستقبل أثر في نشاط الدعوة، واندفاع المنظمين إليها، وقد جرى على الألسن من تلك النبوءات: (ع) بن (ع) بن (ع) سيقتل (م) بن (م) بن (م) وتأولوا أن المراد بالأول هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس، والثاني هو مروان بن محمد بن مروان، كما ادعوا أيضاً أن النبي ﷺ كان يبشر بدولة هاشمية، وزعموا أنه قال لعنه العباس: إنها تكون في ولدك.

قال محمد بن الأسود: بينما عبد الله بن علي، يساير أخاه داود بن علي ومعهما عبد الله بن الحسن، فقال داود لعبد الله: لِمَ لم تأمر ابنك بالظهور؟

فقال عبد الله بن الحسن: هيهات، لم يَأْن لهما بعد. فالتفت إليه بعد الله بن علي فقال: كأنك تحسب أن ابنك هما قاتلا مروان.

فقال عبد الله: إن ذلك كذلك. فقال عبد الله: هيهات وتمثل:

سيكفيك المقالة مستعميت خفيف اللحم من أولاد حام
أنا والله قاتله^(١).

وغير ذلك من التنبؤات التي كان يؤمن بها الناس، والتي اتصلت في نفوسهم اتصالاً وثيقاً، فكان ذلك من العوامل في اندفاع الناس، وهذه الأمور ظهرت في العهد الأموي الأسود.

ولما اتصل أبو مسلم الخراساني بإبراهيم الإمام فسأله عن اسمه. فقال: اسمي إبراهيم بن عثمان. فقال له الإمام غير اسمك فإنه لا يتم لنا الأمر إلا بتغيير اسمك. على ما وجدته في الكتب. فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم، وكنيته أبو مسلم.

وهذا يكشف لنا أن الدعوة كانت محفوفة بدعايات غيبية، ويدعى وجود كتب تنطق بانتقال الخلافة إلى بني العباس، ولكنهم تكتموا في إظهار ذلك للناس ولم يطلعوا عليها إلا النقباء من خواصهم، وكان التكتم باسم الخليفة هو عامل جوهري في نجاح الدعوة، حتى يتم الأمر، وينتهي كل شيء، عندما يزول سلطان الأمويين، وهناك يعلن اسم الخليفة الذي يعرفه القواد والنقباء.

وعلى أي حال فإن الدعوة كانت تدعو إلى تحريك الشعور الديني بالانتصار لأهل البيت، الذين أريقَت دماؤهم في سبيل الانتصار للحق، وقدموا أنفسهم إلى الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

وبهذه الآمال انبعث في نفوس المسلمين الأمل بانبثاق فجر العدل الإسلامي الذي يضمن للناس سعادتهم، على يد رجل من أهل بيت النبي ﷺ وهم أئمة العدل وهداة الخلق، ولا سيما في الولايات التي كان الولاة والعمال يستغلونها لأنفسهم، مدفوعين بعوامل الجشع، وقد أذاقوا الناس أنواع الأذى وضروب المحن، فاستأثروا بالأموال وضاعفوا الضرائب، وأخذوا الجزية على المسلمين.

وكذلك انبعث الأمل في نفوس غير المسلمين ممن لم يعرفوا عن الإسلام في العهد الأموي سوى الاضطهاد، ودفع الجزية، وجباية الضرائب على اختلاف أنواعها، فاندفع كثير من الدهاقين من المجوس إلى إتباع أبي مسلم وأظهروا الإسلام.

كما استجاب كثير من أهل الآراء والعقائد الخارجة عن الإسلام، وغرضهم التخلص من الحكم الأموي، عندما رأوا العطف من أبي مسلم على مذاهبهم وعقائدهم، وكان الكثير منهم يعتبرونه وحده الإمام، واعتقدوا فيه أنه أحد أعقاب زرادشت الذي ينتظر المجوس ظهوره، حتى أنهم لم يعتقدوا بموت أبي مسلم، بل كانوا ينتظرون رجعه.

وصفوة القول أن العباسيين قد وجدوا الفرصة سانحة للقيام بدعوة الناس إلى الثورة ضد الأمويين، لوجود العوامل الكثيرة التي ياملون بها نجاح دعوتهم لأنفسهم، وقد تستروا بالدعوة لآل بيت النبي ﷺ وعترته، وهم يخفون من ورائها الآمال والمطامع لأنفسهم.

ولهذا التجأوا إلى مجارة أبناء علي عليه السلام، ليهيئوا جواً تسوده مشاعر المحبة والوثام، حتى يتم لهم ما يريدونه، بدون عرقلة من جانب أهل البيت الذين هتفت الجماهير بالانتصار لهم، لذلك عقدوا في بادئ الأمر مؤتمراً بالأبواء يضم العلويين، والعباسيين، ليبايعوا رجلاً منهم، يكون هو الخليفة عندما يفتح الله عليهم في نجاح الثورة، وأرسلوا إلى الإمام الصادق عليه السلام وقد علموا إباءه في قبول البيعة من قبل.

وانتهى المؤتمر بعد مداولة فيما بينهم إلى مبايعة محمد بن عبد الله بن الحسن وقد جاء في كلام المنصور يخاطب به الحاضرين:

لأي شيء تخذعون أنفسكم؟ والله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى (يعني محمد بن عبد الله بن الحسن).

فقالوا: قد والله صدقت، فبايعوا جميعاً محمداً، ومسحوا على يده، وبعد ذلك حضر الإمام الصادق عليه السلام وقال لعبد الله بن الحسن: والله ما هي إليك (أي الخلافة) ولا لابنك، وإنهما لمقتولان. ثم نهض^(١).

ويمكننا أن نعتبر هذا المؤتمر من أهم الوسائل التي اتخذها العباسيون لإيقاف أي عرقلة تقف في طريق سريان الدعوة من جانب أهل البيت، وأنصارهم المدفوعين بدافع الولاء، والانتصار للحق والعدالة، لأن أهل البيت لهم فضيلة سبق إلى الإيمان، وقوة التمسك بالدين، والتضحية في

سبيل الله، وهم أعدل الناس في الحكم وأولاهم برعاية المصالح العامة، في تطبيق نظام الإسلام.

ولا يعزب عن البال ما حاوله العباسيون أيضاً في زج أبناء علي في ذلك المعترك السياسي، وهم يعلمون بالخطة التي اختطها الإمام الصادق لنفسه، ولأبناء عمومته، من الانعزال عن تلك الاتجاهات والاحتفاظ بمركزهم الديني، لأن الظروف غير مواتية للثورة، وكل شيء يقع قبل أوانه فنتيجته الفشل، ولكن العباسيين استطاعوا صدع الصف العلوي بجلب البعض إليهم من بني الحسن في مبايعة محمد بن عبد الله المحض.

والخلاصة: أن الدعوة استمرت في طريقها، وقام دعاة العباسيين بنشاطهم، وأظهروا حماساً شديداً في الولايات الإسلامية، فكانوا يجوبون بلاد خراسان لبثها، ولا يدعون لشخص معين، وإنما يذيعون بين الناس أنه لا خلاص لكم إلا إذا ولي أمركم آل البيت.

وهكذا سار كل ما دبره العباسيون بنجاح مدهش، فقد غلب أبو مسلم على خراسان، واستولى على كورها، وقامت الحروب هناك، وتجمعت الجنود يقاتلون ويبدلون نفوسهم وأموالهم في سبيل الانتصار، وهم يمثلون الأوامر من قواد يدعون لخليفة لا يعرفه الناس، ولم ينق عليهم مالا ولم يعط أحدهم دابة، ولا سلاحاً، بل كانوا هم يجبون إليه الأموال، ويحملون إليه الخراج في كل سنة، وهو متستر بعبادتهن وإصلاح شأنه حتى ظهر أمره لمروان فقبض عليه سنة ١٣١هـ وحبسه بهران ثم قتله، فخاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من بني العباس، وقصدوا الكوفة ولهم بها شيعة ودعاة، وفي طليعتهم أبو سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمد، فأخلى لهم داراً، وتولى خدمتهم بنفسه، وكنتم أمرهم لأنه أراد صرف الخلافة عنهم لآل علي.

ولكنه غلب على أمره، ووصلت جند أبي مسلم إلى الكوفة وظهر أمر بني العباس، فأخرجوا السفاح إلى المسجد وباعوه ولقبوه المهدي، وخطب في الناس أول يوم من خلافته بخطبة استهلها بالتنويه عن الآمال التي بعثها الدعاة في النفوس بتلك الأساليب الخداعة، أو الكذب المنظم.

وعلى أي حال: فقد فاز العباسيون واعتلى أبو العباس السفاح عرش الخلافة، وتم لهم ما أرادوا، وقد خابت آمال المندفعين بدافع الإيمان الصحيح، والولاء لأهل البيت في إسناد الحكم إليهم لتحقيق العدل الإسلامي، والتكافل الاجتماعي، وتطهير الأرض من آلام الظلم وويلات الحروب، كما خابت آمال أبي سلمة الخلال في تحويل الأمر لآل علي، وعدوله عن الدعوة للعباسيين، وقد احتجزهم بالكوفة مدة من الزمن، ليكشف رأي العلويين في قبوله البيعة لأنفسهم، ولكنه غلب على أمره، وانتهى كل شيء ببيعة السفاح.

ومهما تكن البواعث التي دعت أبا سلمة الخلال إلى تحويله عن فكرة الدعوة لبني العباس إلى آل علي، كما نص عليه كثير من المؤرخين^(١) فلا يهمنا البحث عن ذلك، ولكن المهم هو الرد من قبل الإمام الصادق وعدم إجابته له، ففي ذلك دلالة واضحة على نظره الصائب وحده الثاقب، وعلمه بما وراء الحوادث. فلم يخدع بتلك المغريات، فيعرض نفسه وأهل بيته بل المجتمع الإسلامي كله لخطر لا قبل لهم على دفعه.

دعوة الإمام الصادق للخلافة:

ذكر كثير من المؤرخين أن أبا سلمة^(٢) كاتب ثلاثة من أعيان العلويين

(١) الطبري، ج ٩، ص ١٢٤ - وابن فنية، ص ١٢٨ - والطفطقي، ١٢٧ وغيرهم.

(٢) أبو سلمة: حفص بن سليمان، كان مولى بني الحارث بن كعب، وقد نشأ بالكوفة، ولعب دوراً هاماً في -

وهم: جعفر بن محمد الصادق، وعمر الأشرف بن زين العابدين، وعبد الله المحض. وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم يسمى محمد بن عبد الرحمن بن أسلم مولى لرسول الله ﷺ وقال أبو سلمة للرسول: العجل العجل فلا تكونن كوافد عاد، وقال له: اقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين. وإن لم يجب فالتق عبد الله المحض فإن أجاب فأبطل كتاب عمر، وإن لم يجب فالتق عمراً.

فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولاً، ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فقال الإمام عليه السلام: مالي ولأبي سلمة؟ وهو شيعة لغيري. فقال له الرجل: اقرأ الكتاب. فقال عليه السلام: لخادمه: ادن السراج مني فأدناه. فوضع الكتاب على النار حتى احترق. فقال الرسول: ألا تجيبه؟ قال عليه السلام: قد رأيت الجواب. عزف صاحبك بما رأيت.

فخرج الرسول من عنده وأتى عبد الله بن الحسن، ودفع إليه الكتاب، وقرأه وابتهج، فلما كان غد ذلك اليوم الذي وصل إليه فيه الكتاب، ركب عبد الله حتى أتى منزل أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق، فلما رآه أبو عبد الله أكبر مجيئه، وقال: يا أبا محمد (كنية عبد الله المحض) أمر ما أتى بك؟ قال: نعم، هو أجل من أن يوصف، فقال له: وما هو يا أبا محمد؟ قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى الخلافة، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان، فقال له أبو عبد الله: يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان

«الدعوة العباسية لما اتصف به من فصاحة وعلم بالأخبار والسير وقوة البديهة وحضور المحبة؛ وكان ذا ثروة طائلة ينفق من ماله على رجال الدعوة، وقد اتصل إبراهيم الإمام بواسطة بكر بن ماهان، أحد أبطال الدعوة المختصين بإبراهيم الإمام، فلما أدركته الوفاة قال لإبراهيم الإمام: إن لي صهراً بالكوفة يقال له أبو سلمة الخلال قد جعلته عوزي في القيام بأمر دعوتكم، فلما مات كتب إبراهيم إلى أبي سلمة يأمره بالقيام بالدعوة، فقام بها خير قيام وتركزت في الكوفة بجهوده، وقتله السفاح لعلمه بالتحرفه وميله للملوكيين بعد أن استوزره بمدة.

شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان وأنت أمرتهم بلبس السواد، وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم، أو وجهت فيهم، وهل تعرف منهم أحداً؟ فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام، إلى أن قال: إنما يريد القوم ابني محمد لأنه مهدي هذه الأمة، فقال أبو عبد الله جعفر الصادق: ما هو مهدي هذه الأمة ولئن شهر سيفه ليقتلن.

فقال عبد الله: كان هذا الكلام منك لشيء. فقال الصادق: قد علم الله أنني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف أخره عنك فلا تمن نفسك الأباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء، وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك^(١).

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نكشف كثيراً من الحقائق الناصعة، فإن امتناع الإمام عن إجابة أبي سلمة دليل قاطع على أن خطته الحكيمة ومنهجه السديد في عدم امتزاجه بذلك المعتك الذي لا يؤمل من ورائه نجاح تلك المهمة، فهو عليه السلام قد أصاب كبد الحقيقة بتلك النظرة الصائبة والحدس الثاقب وعلمه بما وراء الحوادث، فقد فشل أبو سلمة فشلاً ذريعاً، في تلك المحاولة التي جاءت متأخرة عن وقتها.

ولقد ابتعد الإمام الصادق عن ذلك المعتك وبذل لأبناء عمه النصح بأن لا يزجوا أنفسهم في ذلك الصراع، وحذرهم عاقبة الأمر التي لا تعود عليهم إلا بالخيبة، وقد لقي منهم استنكاراً وربما اتهموه، ولكنه يرى ما لا يرونه ويعلم ما لا يعلمون. إذ الأمر جاء قبل أوانه، وهو عليه السلام يرى التريث إلى إعداد العدة وإحكام الأمور حتى يأتي الوقت المناسب.

ولم يكن أبو سلمة وحده يتحول عن رأيه، في الدعوة لبني العباس،

(١) مروج الذهب للمسعودي، ج ٣، ص ١٨٤ والآداب السلطانية، ص ١٢٧.

فقد سبقه أبو مسلم الخراساني لذلك، فإنه تحول عن رأيه، وحاول أن يستميل الإمام الصادق في إسناد الحكم إليه. فكتب إلى الإمام الصادق عليه السلام كتاباً يقول فيه:

إني قد أظهرت الكلمة، ودعوت الناس عن موالة بني أمية إلى موالة أهل البيت فإن رغبت فلا مزيد عليك.

فكتب إليه الإمام عليه السلام: ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني^(١).

وها نحن أولاء نترك تقدير هذا الجواب إلى القارئ النبيه، ليلمس فيه الحقائق التي تدل على الروح المشبعة بالإيمان، والشخصية المستعصمة بالفكر الثاقب، والنظر الدقيق لعواقب الأمور، ومراعاة المصلحة العامة، والسير على الخطط المحكمة والآراء السديدة، في تقدير الظروف ومناسباتها، فلم يندفع وراء تيار الأقوال البراقة، ولم يجر في ميدان السياسة عندما حاول الكثيرون إثارة حفيظته، وتحريك عواطفه نحو الثورة وإعلان الحرب على أولئك الحكام الذين استشرى داؤهم وعظم خطرهم.

ولقد أراد بعض أصحابه حمله على الخروج وإعلان الثورة لما يعرفونه من كثرة محبيه وأنصاره، ولكنهم كانوا ينظرون الأمور نظرة سطحية، فتغلب عليهم سلامة الصدر، وسرعة التصديق.

دخل عليه سهل بن الحسن الخراساني فسلم عليه وقال له: يا ابن رسول الله لكم الرافة والرحمة، وأنتم أهل بيت الإمامة، ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه؟! وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف.

ودخل عليه سدير الصيرفي، فقال: يا أبا عبد الله ما يسمعك القعود.

(١) الملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ٢٤١.

فقال عليه السلام: ولم يا سدير؟ قال لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك. فقال: يا سدير وكم عسى أن يكونوا؟ قال: مائة ألف. فقال الصادق عليه السلام: مائة ألف؟ قال نعم^(١).

فأجابه عليه السلام بما حاصله: أن تلك الكثرة المزعومة، وذلك العدد الكبير لا يوجد فيهم من الرجال المخلصين الذين تمكنت العقيدة في نفوسهم إلا نفر قليل، فلا يمكنه أن يخوض معركة كما يريد سدير وغيره، مع عدم العدة الكافية من المخلصين الذين يمكنه الركون إليهم والتعويل عليهم. فإن التسرع في مثل تلك الظروف عديم النفع، وإن أنجع وسيلة أن يواصل دعوته لإيجاد التكامل الخلقي، والتكافل الذي يربط أجزاء المجتمع، ويصل الأفراد إلى نقطة الإدراك لكيفية الانتفاضة ضد الحكم القائم، ويحصل وعي عام من جراء أعمال ولاية الأمر، المخالفة لنظم الإسلام، فتكون الثورة للعدالة الضائعة ولتحقيق نظم الدين. ولا جدال بأن الإمام الصادق كان يفكر ويقلب وجوه الرأي، ليجد المدخل الذي يدخل منه لإصلاح ما فسد من أمور المسلمين، ويحاول أن يسلك أقرب الطرق للوصول إلى حل تلك المشاكل، وإنقاذ المجتمع من برائن الظلم ونير الاستعباد، عندما ولي الحكم أناس انحدروا مع شهواتهم انحدار البهائم، وتناحروا تناحر الوحوش، وتهافت الناس لإتباعهم كتهافت الفراش على النار، فلا يمكنه أن يخوض ذلك المعترك المضطرب الهائج، لأن في ذلك ضياعاً للمصلحة التي يتطلبها الوضع، وإهداراً للدماء من غير نتيجة مرضية. وهو لا يطلب إلا سعادة المجتمع تحت ظلال الإسلام، ولقد عاش عليه السلام وهو غير بعيد عن مجتمعه الذي يعيش فيه، وقد عرف مقدرتهم الحربية وعدم ثباتهم أمام الكوارث، وقد اتضح للجميع تخاذلهم عن نصره أهل

البيت الثائرين من قبل، وبهذا فلا يمكنه الركون إليهم والاعتماد عليهم لأنهم لا ينتصر بهم في حرب، ولا يشتون في شدة. وأهل الثبات والصدق قلة.

ولم يكن أبو سلمة معروفاً بولائه الصحيح، وعقيدته الصادقة فيكون محل ثقة الإمام ليستجيب له، ولو استجاب لكانت العاقبة أدهى وأمر، كما اتضحت الحالة وظهرت الحقائق.

وصفة القول إن الإمام الصادق عليه السلام قد اعتزل ذلك المعترك السياسي، لا عن خضوع وتسليم، بل كان انعزال ثورة وتصميم، فقرر أن يدعو إلى الله، لتوجيه الوعي الإسلامي بالقوة الروحية التي جعلها الإسلام هي الأساس الوحيد للحياة الدنيا، وهو أقوى أثراً في اندفاع الإنسان إلى العمل. والشعور بالمسؤولية، وأن يقوم المصلحون بالدعوة الصامتة، فهي أنجع الوسائل في التبليغ، وأقرب الطرق لهداية الناس.

إذاً ما هي الدعوة الصامتة؟...

الفصل الرابع

الدعوة الصامتة
عند الإمام جعفر الصادق عليه السلام





قال الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه:

«أوصيكم بتقوى الله واجتناب معاصيه، وأداء الأمانة لمن ائتمنكم، وحسن الصحابة لمن صحبتهموه، وأن تكونوا لنا دعاة صامتين».

موقف الإمام الصادق عليه السلام واتجاهه للإصلاح:

تقدمت الإشارة في الأبحاث السابقة عن موقف الإمام الصادق وسط ذلك المعترك السياسي المائج بالفتن والهائج بالأهواء، فلم يساهم عليه السلام في تلك الحوادث أو يمد أنملة للاشتراك فيها، لعلمه بعواقب الأمور وأن الدعاة لهم أهداف وغايات. فاخبط لنفسه ولأهل بيته خطة الاعتزال عن تلك التيارات والأعاصير السياسية، واتجه إلى الاحتفاظ بمركزه العلمي، لأداء رسالة الإسلام على أكمل وجه، فذلك وحده كفيل بسعادة المجتمع. فابتعد عن المغامرة رغم إلحاح الكثيرين ممن ينظرون إلى الأمور نظراً سطحياً، ولا يعلمون بعواقب الأمور. فهم يظنون أن الزمن قد حان لإقامة حكومة عادلة تسير على نظام الإسلام وقوانينه، وهو المؤهل لتلك المنزلة لأنه زعيم أهل البيت وسيدهم، وله المكانة المرموقة في المجتمع بشخصيته الفذة، التي كانت تزعج الفتنة الحاكمة، وتشير كل مخاوفها، الأمر الذي جعل الكثير من الناس يرمقونه بعين الإكبار، ويعدونه الرجل المنقذ الذي تتحقق بشخصه آمالهم بالقضاء على ذلك الحكم الذي أذاق الناس أنواع المحن والظلم.

فكان عليه السلام على جانب كبير من رصانة التفكير، وبُعد النظر في العواقب، وخبرة فائقة بأحوال الناس ونزعاتهم وميولهم، وعلماً بالظروف ومقتضيات الزمن، فلم يستجب لتلك المحاولات، ولم يتحول عن منهجه فيغامر بنفسه وبأهل بيته مغامرة عقيمة النتائج، تعود على المجتمع بأخطار جسيمة؛ لذلك كان ينهى أبناء عمه عن القيام بكل نشاط ثوري، لثقتة بفشل كل محاولة في ذلك الوقت. فلم يتجاوز في نشاطه الحد الذي يهدم جهوده التعليمية، أو يحول دون متابعة دعوته الإصلاحية، ولو أنه أجاب أبا سلمة أو أبا مسلم لما ندباه إليه كما تقدم، لكان عرضةً لتلك الأخطار التي حلت بغيره ممن عرف بنشاطه الثوري. فكان لتلك الأحداث أثر سيء في نفوس الناس.

ولا بد لداعي الإصلاح من أنصار ينصهرون بمبادئ الدعوة وأهدافها يشاركونه بذلك الشعور عن نية صادقة وعزيمة ثابتة، لينتصر بهم ويركن إليهم، ويكونوا أعماناً مخلصين يأمنهم في كل خطوة يخطوها بطريق الإصلاح. وكم من إنسان يأمل النصر من أناس، ولكنهم يخذلونه عند حاجته إلى النصر، لعدم اختباره لهم وعدم علمه بأحوالهم، لذلك كان من الحزم تحسس ذلك النوع من الأنصار كما فعل الإمام الصادق، ويظهر أثره في جوابه لأبي مسلم^(١) بقوله: ما أنت من رجالي ولا الزمان زمانني. وكذلك

(١) أبو مسلم الخراساني: هو عبد الرحمن بن مسلم. اتصل بإبراهيم الإمام وهو غلام، فنشأ في خدمته وتربى في نعمته، وكان ذكياً فطناً قوي النفس، فأرسله إبراهيم إلى خراسان داعياً للدعوة وهو ابن ثمان وعشرين سنة، وقال لهم: إنه منا أهل البيت، فكان يسمى أمين آل رسول الله وقام بدوره في الدعوة حتى أظهرها سنة ١٢٩هـ وكان شديد البطش سفاكاً للدماء حتى أحصى من قتلهم في أيامه فكانوا ستمائة ألف. ذكر ابن عساكر أن رجلاً قام لأبي مسلم وهو يخطب، فقال له: ما هذا السواد الذي عليك؟ قال: حدثني أبو الزبير عن جابر أن رسول الله دخل مكة وعليه عمامة سوداء، يا غلام اضرب عنقه فضربت عنق الرجل السائل.

وقد استقل أبو مسلم بالحكم والناس له تبع حتى قال بعضهم بإمامته، ولما خشي المنصور من بطشه احتال عليه فقتله سنة ١٣٧هـ فلم تصدق طائفة من تابعيه بموته، وقالوا أنه حي، وذهبت أخرى إلى التصديق =

قوله لرسول أبي سلمة: ما أنا ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري، فلا يمكنه لقيام بثورة دموية وقد عرف عواقبها واتضح للجميع نتائج القيام بها مع علمه بذلك المجتمع الذي أنهكت قواه الحروب المتتالية والثورات المتتابعة.

وقد وجد عليه السلام أن الأمر يدعو إلى الحزم والترث، وأن يتحين الفرص المؤاتية إذ القيام بأمر في غير أوانه لا بد وأن يفشل وينهار، فصمم على الاحتفاظ بالاتجاه العلمي، والوقوف موقف المصلح المتسلح بالإيمان بالله، وأن يتحمل الأذى في خدمة الأمة، موجهاً عنايته لتوجيه الناس إلى الدين، ونشر تعاليمه، وبعث الوعي الإسلامي بالقوة الروحية، التي هي أقوى العوامل لتوجيه الإسلام نحو الخير، وقد جعلها الإسلام هي الأساس الوحيد للحياة الدنيا، لأن المجتمع الإسلامي حسب تعاليمه ونظمه لا يقوم إلا على الإيمان بالله بعقيدة راسخة، ومنه تنبعث القوة الروحية، لأداء الواجب والشعور بالمسؤولية والتضامن بين الأفراد والتكافل الاجتماعي، وبذلك يسعد المجتمع وينعم أفراد.

فكان الإمام الصادق عليه السلام خير داعية للإصلاح لما اتصف به من صدق القول ومثابرة العمل، ولم يقعد به عن ذلك ما لقيه من الأذى وما نزل به من مصائب، فلم تهن عزيمته ولم تفتر همته، بل ثبت في نشر دعوته، وواصل أداء رسالته بالدعوة إلى العمل الصالح وهو دليل رسوخ العقيدة والإيمان بالله. وكلما ازداد الإيمان بالله ازداد العمل الصالح، وبذلك تهون المخاطر التي تحوط دعوة المصلح وتهدها، ويكسبها قوة الصمود، واجتياز العراقيل والعقبات.

=يموته، وقالوا بإمامه ابنه من بعده. وإن التاريخ حافل بأخباره وسيرته من بطش وفك وتقلب في الرأي وفساد في العقيدة.
سأل بعضهم عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم: أهو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول أن أبا مسلم خير من أحد ولكن الحجاج شر منه.

وكيف ينجو المصلح من مجابهة الشدائد؟ ومهمته أن يحول بين نفوس الناس وشهواتها، ويباعد بينها وبين ما ألفته من العادات، فمن العسير أن يخلعوا أنفسهم مما هم فيه وأن يمدوا أعناقهم للحق الذي ابتعدوا عنه.

والمصلح يحتاج إلى ثبات فلا يتسرب اليأس إلى نفسه، ولا تهن عزيمته عندما يصطدم بعقبة تعترض سبيل دعوته. ولا يحصل ذلك الثبات إلا بقوة الإيمان بالله. وهناك يستطيع أن يوجد أمة تصرخ بوجه الطغاة الذين استبدوا بالحكم، وظلموا العباد وخربوا البلاد ﴿وَمَنْ لَّمْ يَمُخَّكُمْ بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. فالذين آمنوا بالله حق الإيمان يجاهدون في الله حق جهاده، لتكون كلمة الله هي العليا، ولا تأخذهم في الحق لومة لائم.

أسس الدعوة إلى الإصلاح:

اتجه عليه السلام منذ تفرده بالزعامة واستقلاله بمهمة الإمامة إلى الدعوة لله، وقد ألزم دعاة الخير وقادة الصلاح بأن يدعوا الناس بأعمالهم قبل الدعوة لهم بأقوالهم، لأن الناس من شأنهم أن ينظروا أعمال من يدعونهم إلى الخير، فإن رأوا منهم العمل بما يدعونهم إليه والوقوف عند حدوده اتبعوهم، وإن رأوا عملهم يخالف قولهم نبذوهم، ولذلك قالوا: إن تأثير العمل على الناس فوق تأثير القول.

وإن أمثل قاعدة يسترشد بها في اصطفاء من يتخذه الناس زعيماً لهم وقدوة هي أعماله، فهي التي تجعله أهلاً لأن يسلم إليه الناس قيادهم، ويأتمنوه على عقولهم يثقفها ويغذيها، وعلى أخلاقهم يقومها ويزكيها، وإن أثر الحكمة الخلقية تسمع من أفواه الوعاظ أو الدعاة إلى الخير ليس بأكثر منها وهي مسطورة في الكتب، أو منقوشة في الجدار، إذ الأقوال الخالية عن العمل من قبل قائلها تدعو الناس إلى عدم الاعتداد بها؛ لأنهم لا يرون أثراً منها على من يأمر بامثالها. فلهم الحق إذا نفروا عنه. وكان ذلك من

جملة العوامل التي دعت الإمام إلى تقرير القيام بالدعوة الصامته كما جاء في وصيته لأصحابه بقوله: «أوصيكم بتقوى الله وأداء الأمانة لمن ائتمنكم، وحسن الصحابة لمن صحبتموه وأن تكونوا لنا دعاة صامتين».

فوق هذا القول عندهم موقع الاستغراب. أجل، كيف يكون الداعي للخير صامتاً؟ وكيف يقومون بهذه المهمة وهم لا يتكلمون؟ فطلبوا منه إيضاح الأمر وإزالة الاشتباه ليزول الاستغراب فقالوا: يا ابن رسول الله وكيف ندعو ونحن صامتون؟

قال عليه السلام: تعملون بما أمرناكم به من العمل بطاعة الله، وتعاملون الناس بالصدق والعدل، وتؤدون الأمانة، وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، ولا يطلع الناس منكم إلا على خير، فإذا رأوا ما أنتم عليه علموا فضل ما عندنا فتنازعوا إليه. وبذلك أراد أن تكون الوساطة بينه وبين المجتمع تعكس واقع تعاليمه، وتحبذ منهجه ومبادئه، فركز على أن ينهج أصحابه منهج العمل الصحيح والقول الصادق.

ولم يزل يكرر هذه القاعدة ويلزم أصحابه بالالتزام بها، ويحثهم على العمل بما أمرهم به، وقد ورد عنه كثير من الأقوال بهذا المضمون.

قال أبو أسامة: سمعت أبا عبد الله الصادق يقول: عليكم بتقوى الله والورع والاجتهاد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة وحسن الخلق، وحسن الجوار، وكونوا دعاة لأنفسكم بغير ألسنتكم وكونوا زيناً، ولا تكونوا شيناً.

وقال ابن أبي يعفور: سمعت الصادق يقول: كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم. ليروا منكم الاجتهاد، والصدق، والورع.

فالإمام الصادق عليه السلام كان يحاول أن تكون الدعوة أساسها العمل الصالح والخلق الطيب، فهي أنجع وسيلة لخوض معركة صامته، تكافح

المظالم بكافة أنواعها، وتقف إلى جنب المظلومين، ليظهر بذلك خطأ أولئك الذين اغتصبوا حقوق الأمة وترأسوا على المسلمين، وقد انحرفوا كل الانحراف عن مبادئ الإسلام وتعاليمه.

فالمسلم الذي يتحلّى بصفات الإسلام لا يمكنه النفاق ولا المسايرة لذلك الركب المنحرف عن طريق الحق والرشاد.

نعم إنه عليه السلام يرى أن الدعوة الإصلاحية بالأقوال والمواظب الخلقية والاجتماعية لا يتحقق أثرها إلا إذا كانت الأعمال مظاهر لها، وأن الاتصاف بتقوى الله واجتناب معاصيه، ومعاملة الناس بعاطفة نبيلة وخلق رفيع، وأداء الأمانة وحسن الصحبة والجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل صفة من صفات الخير والصلاح كما جاء في وصيته، لجدير بأن يكون صاحبها مقبولاً قوله مؤثراً بدعوته، لأنه يملك مشاعر أبناء جنسه، فهم يحبونه ويخلصون له بالمودّة، وناهيك بما وراء الحب من أثر في تغيير الطباع لإتباع المحبوب.

وقد قرر علماء الاجتماع: أنه لا يتم إصلاح لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب إلا إذا أفعمت القلوب حباً للمصلح وطاعة لأوامره.

وإن الاتصاف بالأخلاق الفاضلة والانتصار على النفس ما هو إلا خطوة نحو الثورة الشاملة لجلب قلوب الناس، لمن اتصف بتلك الصفات، وإن المرء إذا استطاع ضبط نفسه وتنظيمها لجدير بأن تنقاد الناس إلى دعوته.

مهمة الداعي:

إن مهمة الداعي إلى الله مهمة عظيمة وعليه مسؤولية كبرى، ولا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة من ترمي بهم المصادفات، لأنه ليس كل فرد

صالحاً لهذا العمل الشاق، ولا كل فرد قادراً على تحمل أعبائه، فالداعي يجب أن تتوفر فيه صفات عقلية وأخلاقية تخوله أداء واجبه على الوجه المطلوب، إذأ فلا بد لمن يقوم بالنصح أن يتصف بالصبر ومحامده، ويتحمل الأذى وشدائده، فلا يبالي بما يلاقه من أذى في سبيل أداء رسالته ونشر عقيدته، وأن تكون له برسول الله أسوة حسنة وكل هذا إنما يتفرع عن الإيمان بالله والعمل بطاعته.

وقد تضمنت فقرات تلك الوصية المتضمنة لهذه القاعدة الإصلاحية (الدعوة الصامتة) كل نواحي الخير في الإنسان الدالة على كماله النفساني وهي ثلاثة:

١ - الناحية الاعتقادية التي تكمن وراءها القوة الروحية، وعليها تبنى صحة أعماله، وهي تتمثل في إدراكه بصلته بالله، وامتنال أوامره، وتلك القوة هي أعظم أثراً في قيام الإنسان بالعمل. وهذا الإدراك العقلي، أو الشعور الوجداني بصلة الإنسان بالله يجعل الإنسان مدفوعاً إلى العمل بطاعته.

٢ - ناحية خلقه الفردي وتهذيب نفسه بالأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة، لأن بناء المجتمع الصالح إنما هو بصلاح أفراده، وإعدادهم لأن يكونوا أعضاء صالحين، وتزويد كل فرد منهم بما يجب عليه للأسرة وللمجتمع فإذا صلح الفرد وتهذبت الأسرة صلحت الأمة، واتجهت لسبيل الصلاح.

٣ - الناحية الاجتماعية التي تنشأ عن مخالطة الناس ومعاشرته لهم من حسن الصحبة، وحسن الجوار، وأداء الأمانة وغيرها، فإذا كملت في الشخص هذه النواحي الثلاثة، كان هو الإنسان الذي يصلح لأن يدعو إلى الخير وسواء السبيل. وعلى هذا فليست العبرة بالصلاح هي المظاهر التي

يكون مرجعها القلب، وما قد نواه في ذلك، ولكل امرء ما نوى، فربما يكون الداعي مظهرًا للدعوى بطول السجود وكثرة التسبيح، ولكن باطنه غير ظاهره، بل العبرة بالاستقامة ظاهراً وباطناً، وإتيان الأعمال الصالحة التي تنبعث عن النية الصادقة والإيمان، بما يعود على المجتمع بالسعادة في حسن المعاملة مع الناس ولذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام :

لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده فإن ذلك ربما يكون شيء قد اعتاده، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء الأمانة.

والغرض أنه عليه السلام كان حريصاً على توجيه الأمة توجيهاً صحيحاً لتسير إلى المثل الأعلى في الحياة، وأن تسعى ما أمكنها السعي إلى تطبيق نظم الإسلام وتعاليمه. ففي ذلك صلاح المجتمع وسعادته، وأي إصلاح أعظم من نشر دين يهدي الناس إلى المحبة والتعاون والأخوة الصادقة.

الإسلام هو دين الله الذي أنزله رحمة بالإنسانية المعذبة، فهو دين شامل بتعاليمه يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الظلم والفحشاء، ويجعل المجتمع كنفس واحدة، لأنه يبعث في نفس كل فرد شعوراً يلزمه احترام جميع الأفراد، كما يشعر بأضرار أبناء جنسه وآلامهم، كشعوره بأضرار نفسه وآلامها، ويحس بمنافع أبناء مجتمعه كإحساسه بمنافع نفسه، طبقاً للتعاليم التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ومنها: «حب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك».

ويقول الإمام الصادق: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئاً منه وجد ذلك في سائر جسده، إن المؤمن أخو المؤمن هو عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعدده فيخلفه».

الإسلام يتناول الحياة كلها بجميع ما تشتمل عليه من تنظيم، وهو يرسم للبشر صورة كاملة لما ينبغي أن تكون عليه حياتهم في هذه الأرض.

الإسلام يتناول الإنسان فرداً في جميع أحواله يوجهه ويهذبه، ويتناوله وهو يعيش في مجتمعه مع غيره من الأفراد، فأعطى للمجتمع دروساً يبين له كيف تكون الصلات بين أفرادها، وكيف تكون العلاقات وتنشأ المودة والإخاء والحب والتكافل والتعاون، ولو نفذ المسلمون دستور دينهم، وساروا على منهاجه وتعاليمه، لكانوا المثل الأعلى للإنسانية الراقية، ولسادوا العالم بأسره ولأصبح كل فرد منهم مثلاً للفضيلة ورمزاً للكمال.

شخصية الداعي:

وصفة القول إنه عليه السلام اتجه إلى الإصلاح بالدعوة للعمل الصالح، لأن العمل الصالح من شأنه أن يحول بين الناس وبين ظلمهم بعضهم بعضاً، وهو أعظم حاجز بينهم وبين الشرور، ومن شأنه أن يهذب النفوس ويظهرها من الخبث، لأنه يربط الإنسان بربه بصلة الإيمان به، فهو يخشاه في سره وعلانيته، ومن كان كذلك فلا يخشى ضرره، ولا يقع منه ظلم، ولا يصبح أسير شهواته، وصريع أهوائه، ومن كان يدعو الناس إلى دعوة هذا أساسها، فجدير به أن يتحمل الأذى ويصبر على ما يلاقه من أعداء الحق وأنصار الباطل، فلا يهون لشدة، ولا يضعف لاضطهاد، بل يقابلها بالحزم والعزم، وبقلب لا يعرف الضعف إليه سبيلاً، ولا يجد الخوف من الناس فيه مكاناً.

فلقد كان عليه السلام قوياً في دينه لا يهن لشدة، ولا يضعف عند النكبة، بل يتلقى كل ذلك بقلب لا يتسرب إليه الضعف، وفؤاد لا يتزلزل عند النوازل، وهو قوي الثقة بربه وخالفه، كثير الرجوع إليه في حاجاته ومهمات، يلجأ إليه في كل شدة، وينتصر به على أعدائه، ويرد بالالتجاء إليه كيدهم، وما يريدونه به من سوء وما يدبرون له من مكائد.

ولقد مرت عليه أيام مختلفة تبدلت فيها سياسات، وتقلبت فيها أمور، وشاهد أنواعاً من الحكم وكانت الأيام تبسم له مرة وتعبس أخرى، ويقسو عليه الحكم تارة، ويلين تارة أخرى، وهو يتحمل الأذى ويصبر على المحن، وكيف لا يكون كذلك وهو يحمل رسالة الإصلاح وأعظم مصلح عرفه التاريخ في عصره وبعد عصره. كان هدفه تقويم المعوج وإرشاد الضال وتوجيه الشاذ، ليسير بالقافلة في طريق الخير مرحلة إثر مرحلة، ولا تحول دونه ودون عزمته المخاطر والأهوال، ولا يخشى انفجار مشاعر أعدائه المكبوتة، وغيظهم المتوقد، وقد مر غير مرة محاولة أعدائه للفتك به، والقضاء عليه، وترويج التهم حوله، ولكن الله عصمه ورد كيدهم عنه، ولما حل قضاؤه ولا راد لقضائه نفذ ما أرادوه، وتم ما حاولوه من المكيدة. فمضى بعد أن ترك للأجيال دروساً وعبراً لم تكن مقصورة على أتباعه فحسب، بل كانت عامة لجميع الأمة.

ملاحظات حول دعوته الإصلاحية:

١ - إن قوله ﷺ: كونوا دعاة صامتين. لم يكن المقصود منه كون الداعي للعمل الصالح صامتاً مطلقاً، لأن ذلك ينافي قوله ﷺ: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكونان مع الصمت، ولكن المقصود بأن يكون القول مقروناً بالعمل، إذ هو بدون لغو كما تقدم بيانه، فجعل ﷺ الدعوة بالعمل الصالح قبل الدعوة بالقول.

٢ - إنه كان يأمر بالإقدام في النصيح، وأن لا يحول بين الداعي وبين نشر دعوته خوف ظالم؛ لأن الأمر بالمعروف من أهم فروض الإسلام وأكبر واجباته، إذ هو أساس نشر الحق، وإعلان المبادئ السامية. فيقول في الحث عليه: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، فإن الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر لم يقرباً أجلاً ولم يبعداً رزقاً. ويقول: ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ - يتجلى لنا أن هذه الدعوة قد وقفت في طريقها عقبات وحواجز، لأن في انتشارها انتشاراً لمبادئ الإسلام ونظمه وتعاليمه، ولم يبق من وراء ذلك لظالم طمع بالحكم، ولا لمعادي الإسلام من وسيلة يحاربه بها انتصاراً لمبادئه، لذلك فقد أحست العناصر المعادية للإسلام بخطر هذه الدعوة، وإنها بدون شك ستقضي على مآربهم التي من أجلها اندسوا في صفوف المسلمين، وبدون شك أنها تهدم آمالهم المعقودة على ذلك التدخل، من إثارة الفتنة وتشويه محاسن الإسلام، عندما يغيرون الحقائق ويقلبون الأوضاع، ولهذا أطلقوا دعائهم ضد تحقيق هذه الدعوة الإصلاحية، فانتحلوا لأنفسهم حب أهل البيت وأظهروا ولاءهم للإمام الصادق، الذي انفرد بزعامة ذلك البيت الطاهر. وقد تبرأ منهم وأمر بهجرهم. لأن تلك الفئة المعادية للإسلام انطلقت بكل قوة، فاستغلت جهالة العامة ممن لم تساعدهم ظروفهم على الاتصال بأهل البيت، فصدقوا بما ادعاه أولئك المندسين بصفوف الأمة من الغلو في أهل البيت.

٤ - إن الناس في مقابلة الدعوة الإصلاحية ثلاثة طوائف. فطائفة تقبل الدعوة وتنصرها ظاهراً وباطناً ويضحون في سبيل مناصرتها، وهم ذوي العقول الراجحة الذين لم تستطع العاطفة أن تسيطر على عقولهم، بل غايتهم إتباع الحق أحق أن يتبع.

وطائفة أخرى تعادي تلك الدعوة ظاهراً وباطناً، مع اتضاح صدق الداعي وظهور حجته، ووضع برهانه، وهم المعاندون، والمعاند لا يقنع بشيء، لأنه لا يطلب حقاً ولا يحيد عن باطل، وإنما هو متعنّت يخالف الواقع، ويبعد عن سنن الطريق لخبث في نفسه وفساد في طويته.

وطائفة ثالثة تعادي في الباطن وتناصر في الظاهر وهم المنافقون^(١) وهؤلاء أشد ضرراً على الدعوى من الفئة الثانية، وهم المعادون لها ظاهراً وباطناً، لأنهم شاركوهم بتلك الصفات الخبيثة، وقد امتازوا عليهم بالجبن والخور وضعف القلب، فلا يستطيعون أن يصارحوا المصلح بأنهم أعداء له، إذ ليست لهم قابلية للقيام بالجرأة الأدبية، ولا تسمح نفوسهم بأن يظهرُوا بالمظهر الواقعي، ويتقبلوا تلك الدعوة بقبول حسن عندما يصطدمون بالواقع، لخبث نفوسهم وفساد نيتهم.

٥ - نظراً لأهمية هذا الموضوع وما يتعلق به، فإن المجال لا يتسع للإحاطة بجميع أطراف البحث، وإن للإمام الصادق أقوالاً كثيرة ومواقف متعددة حول الدعوة بالعمل الصالح، فلذلك اخترنا الوقوف عند هذا الحد من البحث حول الدعوة الصامته التي قام بها عليه السلام في عصر انطلاق الفكر، وازدهار العلم، وهو رئيس أعظم مدرسة إسلامية. وزعيم تلك الحركة العلمية، وكان خير قدوة صالحة في العلم والعمل الصالح، لا يفتر عن تعليم الناس وتوجيههم إلى الخير والفضيلة، كما لا يفتر عن عبادة الله والعمل بطاعته ويخشاه في سره وعلنه.

(١) المنافق مشتق من النافقاء، وهو جحر الضب، فالمنافق هو مثل ذلك الحيوان الخبيث يعمل له جحراً في الأرض يسمى النافقاء، له بابان إذا أراد أن يدخل إليه من أحد البابين لوح له يذنيه أنه مقبل عليه ليطعمه، ثم يخرج من الباب الآخر، أو هو إحدى حجرة البريوع الذي يعملها في الأرض ظاهرة يراها الناس، فإذا ذهبوا إليها إذا به قد أعد جحراً آخر قد أخفاها عن الناس.

الفصل الخامس



مناظرات الإمام الصادق عليه السلام واحتجاجاته





احتاج الإمام الصادق عليه السلام على الزنادقة في حدوث العالم وفي التوحيد

روي عن هشام بن الحكم^(١) أنه قال: من سؤال الزنديق الذي أتى أبا عبد الله عليه السلام أن قال: ما الدليل على صانع العالم؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: وجود الأفاعيل التي دلت على أن صانعها صنعها ألا ترى أنك إذا نظرت إلى بناء مشيد مبني، علمت أن له بانياً وإن كنت لم تر الباني، ولم تشاهده.

قال: فما هو؟

قال: هو شيء بخلاف الأشياء، أرجع بقولي شيء إلى إثباته، وإنه شيء بحقيقته الشيثية، غير أنه لا جسم، ولا صورة، ولا يحس، ولا يجس، ولا يدرك بالحواس الخمس، لا تدركه الأوهام، ولا تنقصه الدهور، ولا يغيره الزمان.

قال السائل: فإننا لم نجد موهوماً إلا مخلوقاً.

(١) هشام بن الحكم الكندي من أكابر أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وكان فقيهاً وروى حديثاً كثيراً وصحب أبا عبد الله عليه السلام وبعده أبا الحسن موسى عليه السلام، وكان يكنى أبا محمد وأبا الحكم وكان مولى بني شيان وكان مقيماً بالكوفة وبلغ من مرتبته وعلوه عند أبي عبد الله عليه السلام أنه دخل عليه بنى وهو غلام، وفي مجلس شيوخ الشيعة فرفعه على جماعتهم وليس فيهم إلا من هو أكبر سنّاً منه فلما رأى الإمام الصادق عليه السلام أن ذلك الفعل كبير على أصحابه قال: هذا ناصرنا بيده ولسانه. ورويت له مدائح جليلة عن الإمامين عليه السلام، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضراً الجواب، وقال له الإمام الصادق مرة: يا هشام لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك.

قال أبو عبد الله عليه السلام: لو كان ذلك كما تقول، لكان التوحيد منا مرتفعاً لأننا لم نكلف أن نعتقد غير موهوم، لكننا نقول: كل موهوم بالحواس مدرك بها تحده الحواس ممثلاً، فهو مخلوق، ولا بد من إثبات كون صانع الأشياء خارجاً من الجهتين المذمومتين، إحداهما: النفي إذا كان النفي هو الإبطال والعدم. والجهة الثانية التشبيه بصفة المخلوق الظاهر التركيب والتأليف، فلم يكن بد من إثبات الصانع لوجود المصنوعين، والاضطرار منهم إليه، إنهم مصنوعون، وإن صانعهم غيرهم وليس مثلهم، إن كان مثلهم شبيهاً بهم في ظاهر التركيب والتأليف، وفيما يجري عليهم من حدوثهم بعد أن لم يكونوا، وتنقلهم من صغر إلى كبر، وسواد إلى بياض وقوة إلى ضعف، وأحوال موجودة لا حاجة بنا إلى تفسيرها لثباتها ووجودها.

قال السائل: فأنت قد حددته إذ أثبت وجوده!

قال أبو عبد الله عليه السلام: لم أحده ولكني أثبتته، إذ لم يكن بين الإثبات والنفي منزلة.

قال السائل: فقله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١)؟

قال أبو عبد الله عليه السلام: بذلك وصف نفسه، وكذلك هو مستوٍ على العرش بائن من خلقه، من غير أن يكون العرش محلاً له، لكننا نقول: هو حامل، وممسك للعرش، ونقول في ذلك ما قال: ﴿وَبِعَ كُرْسِيِّهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٢) فثبتنا من العرش والكرسي ما ثبتته، ونفيينا أن يكون العرش والكرسي حاوياً له، وأن يكون عز وجل محتاجاً إلى مكان، أو إلى شيء مما خلق، بل خلقه محتاجون إليه.

(١) سورة طه، الآية ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

قال السائل: فما الفرق بين أن ترفعوا أيديكم إلى السماء وبين أن تخفضوها نحو الأرض؟

قال أبو عبد الله عليه السلام: في علمه وإحاطته وقدرته سواء، ولكنه عز وجل أمر أوليائه وعباده برفع أيديهم إلى السماء نحو العرش، لأنه جعله معدن الرزق، فثبتنا ما ثبته القرآن والأخبار عن الرسول، حين قال: «ارفعوا أيديكم إلى الله عز وجل» وهذا تجمع عليه فرق الأمة كلها.

* * *

وعن هشام بن الحكم قال: دخل ابن أبي العوجاء^(١) على الصادق عليه السلام فقال له الصادق عليه السلام:

يا ابن أبي العوجاء! أنت مصنوع أم غير مصنوع؟ قال: لست بمصنوع.

فقال له الصادق: فلو كنت مصنوعاً كيف كنت؟ فلم يجد ابن أبي العوجاء جواباً، وقام وخرج.

قال: دخل أبو شاهر الديصاني - وهو زنديق - على أبي عبد الله وقال: يا جعفر بن محمد دلني على معبودي!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: اجلس! فإذا غلام صغير في كفه بيضة يلعب بها فقال أبو عبد الله: ناولي يا غلام البيضة! فتناوله إياها، فقال أبو عبد الله: يا ديصاني هذا حصن مكنون، له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهب مائعة، وفضة ذائبة، فلا الذهبية

(١) هو عبد الكريم بن أبي العوجاء ربيب حماد بن سلمة ومن تلامذة الحسن البصري. كان مانوياً يؤمن بالتناسخ، ويقول بالقدر، ويتخذ من شرح سيرة ماني وسيلة للدعوة، وتشكيك الناس في عقائدهم ويتحدث في التعديل والتجويز. وكان زنديقاً مشهوراً بذلك، وله مواقف كثيرة مع الإمام الصادق أنعمه الإمام في كل مرة.

المائعة تختلف بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلف بالذهبة المائعة، فهي على حالها، لا يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن إصلاحها، ولا يدخل إليها داخل مفسد فيخبر عن إفسادها، لا يدري للذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أترى له مدبراً؟

قال: فأطرق ملياً ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأنت إمام وحجة من الله على خلقه، وأنا نائب مما كنت فيه.



وعن هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أسماء الله عزّ ذكره اشتقاقها، فقلت: الله، ممن هو مشتق؟

قال: يا هشام، الله: مشتق من إله، وإله يقتضي مألوهاً، والاسم غير المسمى، فمن عبد الاسم دون المعنى، فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى، فقد كفر وعبد الاثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم، فذاك التوحيد أفهمت يا هشام.

قال: فقلت: زدني! فقال: إنّ الله تسعة وتسعين اسماً، فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها إلهاً، ولكن الله معنى يدل عليه فهذه الأسماء كلها غيره، يا هشام الخبز اسم للمأكول، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحروق أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به أعداءنا، والمتخذين مع الله غيره؟ قلت: نعم.

قال: فقال: نفعلك الله به، وثبتك!

قال هشام: فوالله ما قهرني أحد في علم التوحيد حتى قمت مقامي

هذا.

عن هشام بن الحكم قال: كان زنديق بمصر يبلغه عن أبي عبد الله عليه السلام علم، فخرج إلى المدينة لينظره فلم يصادفه بها، وقيل: هو بمكة، فخرج إلى مكة ونحن مع أبي عبد الله عليه السلام. فأنهى إليه - وهو في الطواف - فدنا منه وسلم.

فقال له أبو عبد الله: ما اسمك؟ قال: عبد الملك.

قال: فما كنتك؟ قال: أبو عبد الله.

قال أبو عبد الله عليه السلام: فمن ذا الملك الذي أنت عبده، أمن ملوك الأرض أم من ملوك السماء؟ وأخبرني عن ابنك أعبد إله السماء، أم عبد إله الأرض؟ فسكت. فقال أبو عبد الله عليه السلام: قل! فسكت.

فقال: إذا فرغت من الطواف فائتنا، فلما فرغ أبو عبد الله عليه السلام من الطواف أتاه الزنديق، فقع بين يديه ونحن مجتمعون عنده.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: أتعلم أن للأرض تحتاً وفوقاً. فقال: نعم.

قال: فدخلت تحتها؟ قال: لا.

قال: فهل تدري ما تحتها؟ قال: لا أدري إلا أنني أظن أن ليس تحتها شيء.

فقال أبو عبد الله: فالظن عجز ما لم تستيقن، ثم قال له: صعدت إلى السماء؟ قال: لا.

قال: أفتردي ما فيها؟ قال: لا.

قال: فأتيت المشرق والمغرب فنظرت ما خلفهما؟ قال: لا.

قال: فالعجب لك! لم تبلغ المشرق، ولم تبلغ المغرب، ولم تنزل تحت الأرض، ولم تصعد إلى السماء، ولم تخبر ما هناك فتعرف ما

خلفه، وأنت جاحد بما فيه، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟! فقال الزنديق: ما كلمني بهذا غيرك.

قال أبو عبد الله عليه السلام: فأنت من ذلك في شك، فلعل هو ولعل ليس هو. قال: ولعل ذلك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، ولا حجة للجاهل على العالم، يا أخا أهل مصر، تفهم عني، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ولا يستبقان، يذهبان ويرجعان، قد اضطرا ليس لهما مكان إلا مكانهما، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعا. وإن كانا غير مضطرين فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلاً؟ اضطرا والله يا أخا أهل مصر.

إن الذي تذهبون إليه وتظنون من الدهر، فإن كان هو يذهبهم، فلم يردهم؟ وإن كان يردهم، فلم يذهب بهم؟ أما ترى السماء مرفوعة، والأرض موضوعة، لا تسقط السماء على الأرض، ولا تنحدر الأرض فوق ما تحتها، أمسكها والله خالقها ومدبرها.

قال: فآمن الزنديق على يدي أبي عبد الله عليه السلام فقال: هشام خذ إليك وعلمه.



من كتاب الغرر للسيد المرتضى (رض): قيل: إن الجعد بن درهم^(١) جعل في قارورة ماء وتراباً فاستحال دوداً وهواماً فقال لأصحابه: أنا خلقت ذلك، لأنني كنت سبب كونه، فبلغ ذلك جعفر بن محمد عليه السلام فقال:

(١) الجعد بن درهم: مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى، قتل على ذلك بالعراق والقصة مشهورة، وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة.

ليقل: كم هي؟ وكم الذكران منه والإناث إن كان خلقه؟ وكم وزن كل واحد منهن؟ وليأمر الذي سعى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره، فانقطع وهرب.

ويروى أنه لما جاء إلى أبي عبد الله عليه السلام قال له: ما اسمك؟ فلم يجبه، وأقبل عليه غيره، فانكفاً راجعاً إلى أصحابه، فقالوا: ما وراءك؟ قال: شرّ ابتدأني، فسألني عن اسمي، فإن كنت قلت: عبد الكريم فيقول: من هذا الكريم الذي أنت عبده؟ فإمّا أقزّ بمليك، وإمّا أظهر مني ما أكنتم، فقالوا: انصر عنه، فلما انصرف قال عليه السلام: وأقبل ابن أبي العوجاء إلى أصحابه معجوجاً قد ظهر عليه ذلة الغلبة فقال من قال منهم: إن هذه للحجة الدامغة، صدق وإن لم يكن خيراً يرجى ولا شرّ يتقى فالتاس شرع سواء، وإن يكن منقلب إلى ثواب وعقاب فقد هلكنا؛ فقال ابن أبي العوجاء لأصحابه: أو ليس بابن الذين نكل بالخلق^(١)، وأمر بالخلق، وشوه عوراتهم، وفرّق أموالهم، وحزّم نساءهم.

ومن سؤاله أن قال: ألا يجوز أن يكون صانع العالم أكثر من واحد؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: لا يخلو قولك إنهما اثنان من أن يكونا قديمين قوين أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قوياً، والآخر ضعيفاً، فإن كانا قوين فلم لا يدفع كل واحد منهما صاحبه، ويتفرد بالربوبية، وإن زعمت أن أحدهما قوي والآخر ضعيف، ثبت أنه واحد كما نقول، للعجز الظاهر في الثاني، وإن قلت: إنهما اثنان، لم يخل من أن يكونا متفقين من كل جهة، أو مفترقين من كل جهة، فلما رأينا الخلق منتظمةً، والفلك جارياً، واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر، دلّ ذلك على صحة الأمر والتدبير، واتلاف الأمر، وأن المدبر واحد.

(١) نكل به: صنع به صنيعاً يحذر غيره إذا رآه.

وروي أيضاً: أنَّ ابن أبي العوجاء سأل الصادق عليه السلام عن حدوث العالم فقال: ما وجدت صغيراً ولا كبيراً إلا إذا ضم إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى، ولو كان قديماً ما زال ولا حال، لأنَّ الذي يزول ويحول يجوز أني وجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأزل دخول في القدم، ولن يجتمع صفة الحدوث والقدم في شيء واحد.

قال ابن أبي العوجاء: هبك علمك في جري الحالتين والزمانين على ما ذكرت استدلت على حدوثها، فلو بقيت الأشياء على صغرها من أين كان لك أن تستدل على حدوثها؟

فقال عليه السلام: إنا نتكلم على هذا العالم الموضوع، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر كان لا شيء أدل على الحدث، ومن رفعنا إياه ووضعنا غيره، لكن أجيبك من حيث قدرت أن تلزمنا، فنقول: إنَّ الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنه متى ضم شيء منه إلى شيء منه كان أكبر، وفي جواز التغير عليه خروجه من القدم، كما أنَّ في تغييره دخوله في الحدث، وليس لك وراءه شيء يا عبد الكريم.

مناظرته عليه السلام مع الزنديق في رؤية الله وفي صفات الله وفي مسائل متفرقة

عن يونس بن ظبيان قال: دخل رجل على أبي عبد الله عليه السلام قال: رأيت الله حين عبده؟

قال: ما كنت أعبد شيئاً لم أره.

قال: فكيف رأيته؟

قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقايق الإيمان لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه.

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(١) قال: إحاطة الوهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢) ليس يعني بصر العيون، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾^(٣) وليس يعني من أبصر نفسه ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾^(٤) ليس يعني عمي العيون، إنما عني: إحاطة الوهم - كما يقال: فلان بصير بالشعر وفلان بصير بالفقه وفلان بصير بالدرهم وفلان بصير بالثياب - الله أعظم من أن يرى بالعين.

* * *

ومن سؤال الزنديق الذي سأل أبا عبد الله عليه السلام عن مسائل كثيرة أنه قال: كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟

قال: رآته القلوب بنور الإيمان، وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رآته من حسن التركيب وإحكام التأليف، ثم الرسل وآياتها والكتب ومحكماتها، اقتصرت العلماء على ما رأت من عظمتهم دون رؤيته.

قال: أليس هو قادر أن يظهر لهم حتى يروه فيعرفونه فيعبدوا على يقين؟ قال: ليس للمحال جواب.

قال: فمن أين أثبت أنبياء ورسلاً؟

قال عليه السلام: إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا أن يلامسه ولا أن يباشرهم ويباشره ويحاجهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراء

(١) سورة الأنعام، الآية ١٠٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٠٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٠٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٠٤.

في خلقه وعباده يدلونهم على مصالحهم ومنافعهم، وما به بقاؤهم، وفي تركه فناؤهم، فثبت الأمور والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، وثبت عند ذلك أن له معبرون هم أنبياء الله وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين بالحكمة، مبعوثين عنه، مشاركين للناس في أحوالهم على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب، مؤيدين من عند الحكيم العليم، بالحكمة والدلائل والبراهين والشواهد؛ من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص فلا تخلو الأرض من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقال الرسول ووجوب عدالته.

ثم قال ﷺ - بعد ذلك - : نحن نزعم أن الأرض لا تخلو من حجة، ولا تكون الحجة إلا من عقب الأنبياء، ما بعث الله نبياً قط من غير نسل الأنبياء، وذلك أن الله شرع لبني آدم طريقاً منيراً، وأخرج من آدم نسلأ طاهراً طيباً، أخرج منه الأنبياء والرسل، هم صفوة الله، وخلص الجوهر، طهروا في الأصلاب، وحفظوا في الأرحام، لم يصبهم سفاح الجاهلية، ولا شاب أنسابهم، لأن الله عز وجل جعلهم في موضع لا يكون أعلى درجة وشرفاً منهم فمن كان خازن علم الله، وأمين غيبه ومستودع سره، وحجته على خلقه، وترجمانه ولسانه، لا يكون إلا بهذه الصفة فالحجة لا يكون إلا من نسلهم، يقوم النبي ﷺ في الخلق بالعلم الذي عنده وورثه عن الرسول، إن جحدته الناس سكت، وكان بقاء ما عليه الناس قليلاً مما في أيديهم من علم الرسول على اختلاف منهم فيهن قد أقاموا بينهم الرأي والقياس وإنهم إن أقروا به وأطاعوه وأخذوا عنه، ظهر العدل، وذهب الاختلاف والتشاجر واستوى الأمر وأبان الدين، وغلب على الشك اليقين، ولا يكاد أن يقر الناس به ولا يطيعوا له أو يحفظوا له بعد فقد الرسول، وما مضى رسول ولا نبي قط لم تختلف أمته من بعده، وإنما كان علة اختلافهم على الحجة وتركهم إياه.

قال: فما يصنع بالحجة إذا كان بهذه الصفة؟ قال: قد يقتدى به ويخرج عنه الشيء بعد الشيء مكانه منفعة الخلق وصلاحهم، فإن أحدثوا في دين الله شيئاً أعملهم وإن زادوا فيه أخبرهم، وإن نفذوا منه شيئاً أفادهم.

ثم قال الزنديق: من أي شيء خلق الله الأشياء؟ قال: لا من شيء.

فقال: كيف يجيء من لا شيء شيء؟

قال عليه السلام: إِنَّ الأشياء لا تخلق إما أن تكون خلقت من شيء أو من غير شيء، فإن كان خلقت من شيء كان معه، فإن ذلك الشيء قديم، والقديم لا يكون حديثاً ولا يفنى ولا يتغير، ولا يخلق ذلك الشيء من أن يكون جوهرأً واحداً ولوناً واحداً، فمن أين جاءت هذه الألوان المختلفة، والجواهر الكثيرة الموجودة في هذا العالم من ضروب شتى؟ ومن أين جاء الموت إن كان الشيء الذي أنشئت منه الأشياء حياً؟! ومن أين جاءت الحياة إن كان ذلك الشيء ميتاً؟! ولا يجوز أن يكون من حيٍّ وميت قديمين لم يزالا، لأنَّ الحي لا يجيء منه ميت وهو لم يزل حياً، ولا يجوز أيضاً أن يكون الميت قديماً لم يزل لما هو به من الموت، لأنَّ الميت لا قدرة له ولا بقاء.

قال: فمن أين قالوا إنَّ الأشياء أزلية؟

قال: هذه مقالة قوم جحدوا مدبر الأشياء فكذبوا الرسل، ومقاتلهم، والأنبياء وما أنبأوا عنه، وسموا كتبهم أساطير، ووضعوا لأنفسهم ديناً بآرائهم واستحسانهم، إنَّ الأشياء تدل على حدوثها، من دوران الفلك بما فيه، وهي سبعة أفلاك وتحرك الأرض ومن عليها وانقلاب الأزمنة، واختلاف الوقت، والحوادث التي تحدث في العالم؛ من زيادة ونقصان وموت وبلى واضطرار النفس إلى الإقرار بأنَّ لها صانعاً ومدبراً، ألا ترى الحلو يصير حامضاً، والعذب مرأً، والجديد بالياً، وكل إلى تغير وفناء؟!

قال: فلم يزل صانع العالم عالماً بالأحداث التي أحدثها قبل أن يحدثها؟

قال: فلم يزل يعلم فخلق ما علم.

قال: أمختلف هو أو مؤتلف؟

قال: لا يليق به الاختلاف ولا الائتلاف، وإنما يختلف المتجزئ، ويأْتلف المتبعض، فلا يقال له: مؤتلف ولا مختلف.

قال: فكيف هو الله الواحد؟

قال: واحد في ذاته، فلا واحد كواحد، لأنَّ ما سواه من الواحد متجزئ وهو تبارك وتعالى واحد لا يتجزئ، ولا يقع عليه العد.

قال: فلأي علة خلق الخلق وهو غير محتاج إليهم، ولا مضطر إلى خلقهم، ولا يليق به التعبد بنا؟

قال: خلقهم لإظهار حكمته وإنفاذ علمه وإمضاء تدبيره.

قال: وكيف لا يقتصر على هذه الدار فيجعلها دار ثوابه ومحتسب عقابه؟

قال: إنَّ هذه الدار دار ابتلاء، ومتجر الثواب ومكتسب الرحمة، ملئت آفات، وطبقت شهوات، ليختبر فيها عبده بالطاعة، فلا تكون دار عمل بل دار جزاء.

قال: أفمن حكمته أن جعل لنفسه عدواً، وقد كان ولا عدو له، فخلق كما زعمت إبليس فسَلطه على عبده يدعوهم إلى خلاف طاعته، ويأمرهم بمعصيته وجعل له من القوة كما زعمت ما يصل بلطف الحيلة إلى قلوبهم، فيوسوس إليهم فيشككهم في ربهم، ويلبس عليهم دينهم، فيزيلهم

عن معرفته، حتى أنكروا قوم لما وسوس إليهم ربوبيته وعبدوا سواه، فلم يسلط عدوه على عبيده، وجعل له السبيل إلى إغوائهم؟

قال: إن هذا العدو الذي ذكرت لا تضره عداوته، ولا تنفعه ولايته. وعداوته لا تنقص من ملكه شيئاً، ولايته لا تزيد فيه شيئاً، وإنما يتقى العدو إذا كان في قوة يضر وينفع، إن هم بملك أخذه، أو بسلطان قهره، فأما إبليس فعبد، خلقه ليعبده ويوحده، وقد علم حين خلقه ما هو وإلى ما يصير إليه، فلم يزل يعبده مع ملائكته حتى امتحنه بسجود آدم، فامتنع من ذلك حسداً، وشقاوة غلبت عليه فلمعنه عند ذلك، وأخرجه عن صفوف الملائكة، وأنزله إلى الأرض ملعوناً مدحوراً فصار عدو آدم وولده بذلك السبب، ما له من السلطة على ولده إلا الوسوسة^(١)، والدعاء إلى غير السبيل، وقد أقر مع معصيته لربه بربوبيته^(٢).

قال: أفصلح السجود لغير الله؟ قال: لا.

قال: فكيف أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟

قال: إن من سجد بأمر الله سجد لله إذا كان عن أمر الله.

قال: فمن أين أصل الكهانة، ومن أين يخبر الناس بما يحدث؟

قال: إن الكهانة كانت في الجاهلية، في كل حين فترة من الرسل، كان الكاهن بمنزلة الحاكم يحتكمون إليه فيما يشتبه عليهم من الأمور بينهم، فيخبرهم عن أشياء تحدث، وذلك من وجوه شتى: فراسة العين، وذكاء القلب، ووسوسة النفس، وفتنة الروح، مع قذف في قلبه، لأن ما

(١) وهذا مصداق الآية الكرمة: «وَمَا كَانَ لِيَظْلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا مَنَ شَيْءٌ نَحْنُ نَقْتَضِعُ لَكُمْ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ، الآية

٢٢.

(٢) وذلك عندما قال إبليس لله تعالى: «رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ»، سورة الحجر، الآية ٣٩.

يحدث في الأرض من الحوادث الظاهرة، فذلك يعلم الشيطان ويؤديه إلى الكاهن، ويخبره بما يحدث في المنازل والأطراف.

وأما أخبار السماء: فإن الشياطين كانت تفقد مقاعد استراق السمع^(١) إذ ذاك، وهي لا تحجب، ولا ترجم بالنجوم، وإنما منعت من استراق السمع لثلا يقع في الأرض سبب تشاكل الوحي من خبر السماء، فيلبس على أهل الأرض ما جاءهم عن الله، لإثبات الحجة، ونفي الشبهة. وكان الشيطان يسترق الكلمة الواحدة من خبر السماء بما يحدث من الله في خلقه، فيختطفها، ثم يهبط بها إلى الأرض، فيقذفها إلى الكاهن، فإذا قد زاد كلمات من عنده، فيخلط الحق بالباطل، فما أصاب الكاهن من خبر مما كان يخبر به، فهو ما أداه إليه الشيطان لما سمعه، وما أخطأ فيه، فهو من باطل ما زاد فيه، فمنذ منعت الشياطين عن استراق السمع انقطعت الكهانة، واليوم إنما تؤدي الشياطين إلى كهانها أخباراً للناس بما يتحدثون به، وما يحدثونه، والشياطين تؤدي إلى الشياطين، ما يحدث في البعد من الحوادث من سارق سرق، ومن قاتل قتل، ومن غائب غاب، وهم بمنزلة الناس أيضاً، صدوق وكذوب.

قال: وكيف صعدت الشياطين إلى السماء، وهم أمثال الناس في الخلقة والكثافة وقد كانوا يبنون لسليمان بن داود عليه السلام من البناء ما يعجز عنه ولد آدم؟

قال: غلظوا لسليمان كما سخرُوا وهم خلق رقيق، غذاؤهم النسيم، والدليل على كل ذلك صعودهم إلى السماء لاستراق السمع، ولا يقدر الجسم الكثيف على الارتقاء إليها (إلا) بسلم أو بسبب^(٢).

(١) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ كَمَا تَوَلَّوْا مِنْهَا مَقَوِّدٌ يُنتَهِجُ فَمَنْ يَنْتَهِجِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ سَبِيلًا مَخْرَجًا﴾، سورة الجن، الآية ٩.
(٢) وذلك بخلاف من قوله تعالى: ﴿يَنْتَشِرُ الْهَيَّانُ وَالْأَيَّانُ إِلَى اسْتَنْتَظَمُوا أَنْ تَفْعَلُوا مِنْ أَفْكَارِ اسْتَنْتَظَمُوا وَالْأَرْضُ فَاتْنُذَرُوا لَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِأُذْنِي﴾، سورة الرحمن، الآية ٣٣.

قال: فأخبرني عن السحر ما أصله؟ وكيف يقدر الساحر على ما يوصف من عجائبه، وما يفعل؟

قال: إنَّ السحر على وجوه شتى، وجه منها: بمنزلة الطب، كما أنَّ الأطباء وضعوا لكل داء دواء، فكذلك علم السحر، احتالوا لكل صحة آفة، ولكل عافية عاهة، ولكل معنى حيلة.

ونوع آخر منه: خطفة وسرعة ومخاريق وخفة^(١) ونوع آخر: ما يأخذ أولياء الشياطين عنهم.

قال: فمن أين علم الشياطين السحر؟

قال: من حيث عرف الأطباء الطب، بعضه تجربة وبعضه علاج.

قال: فما تقول في الملكين هاروت وماروت؟ وما يقول الناس بأنهما يعلمان الناس السحر؟

قال: إنهما موضع ابتلاء وموقع فتنة، تسبيحهما: اليوم لو فعل الإنسان كذا وكذا لكان كذا وكذا، ولو يعالج بكذا وكذا لكان كذا، أصناف السحر فيتعلمون منهما ما يخرج عنهما، فيقولان لهم: إنما نحن فتنة فلا تأخذوا عنا ما يضركم ولا ينفعكم.

قال: أفيقدر الساحر أن يجعل الإنسان بسحره في صورة الكلب أو الحمار أو غير ذلك؟

قال: هو أعجز من ذلك، وأضعف من أن يغيّر خلق الله، إنَّ من أبطل ما ركبّه الله وصوّره وغيّره فهو شريك الله في خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لو قدر الساحر على ما وصفت لدفع عن نفسه الهرم

(١) الخطفة: من الاختلاس والاستلاب بسرعة. الخفة: ضد الثقل في العمل وغيره.

والآفة والأمراض، ولنفى البياض عن رأسه والفقر عن ساحته، وإن من أكبر السحر النيمة، يفرق بها بين المتحابين، ويجلب العداوة على المتصافين، ويسفك بها الدماء، ويهدم بها الدور ويكشف بها الستور، والنمام أشد من وطئ الأرض بقدم، فأقرب أقاويل السحر من الصواب أنه بمنزلة الطب، إن الساحر عالج الرجل فامتنع من مجامعة النساء فجاء الطبيب فعالجه بغير ذلك العلاج، فأبرئ.

قال: فما بال ولد آدم فيهم شريف ووضع؟ قال: الشريف المطيع، والوضع العاصي.

قال: أليس فيهم فاضل ومفضل؟ قال: إنما يتفاضلون بالتقوى^(١).

قال: فتقول إن ولد آدم كلهم سواء في الأصل لا يتفاضلون إلا بالتقوى؟

قال: نعم. إنني وجدت أصل الخلق التراب، والأب آدم والأم حواء، خلقهم إله واحد، وهم عبيده، إن الله عز وجل اختار من ولد آدم أناساً طهر ميلادهم، وطيب أبدانهم، وحفظهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، أخرج منهم الأنبياء والرسل، فهم أزكى فروع آدم، فعل ذلك لأمر استحقوه من الله عز وجل ولكن علم الله منهم - حين ذراهم - أنهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً فهؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة عنده، وهؤلاء الذين لهم الشرف والفضل والحسب، وسائر الناس سواء إلا من اتقى الله أكرمه، ومن أطاعه أحبه، ومن أحبه لم يعذبه بالنار!!

قال: فأخبرني عن الله عز وجل كيف لم يخلق الخلق كلهم مطيعين موحدين وكان على ذلك قادراً؟

(١) كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿لَئِنْ أَصْرَمْتُكَ بِدَأْرٍ قَرْصَةٍ﴾، سورة الحجر، الآية ١٣.

قال عليه السلام: لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب، لأن الطاعة إذا ما كانت فعلهم لم يكن جنة ولا نار، ولكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته واحتج عليهم برسله وقطع عذرهم بكتبه، ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون ويستوجبون بطاعتهم له الثواب وبمعصيتهم إياه العقاب.

قال: فالعمل الصالح من العبد هو فعله، والعلم الشر من العبد هو فعله؟

قال: العمل الصالح من العبد بفعله والله به أمره، والعمل الشر من العبد بفعله والله عنه نهاه.

قال: أليس فعله بالآلة التي ركبها فيه؟

قال: نعم. ولكن بالآلة التي عمل بها الخير قدر على الشر الذي نهاه عنه.

قال: فإلى العبد من الأمر شيء؟

قال: ما نهاه الله عن شيء إلا وقد علم أنه يطيق تركه، ولا أمره بشيء إلا وقد علم أنه يستطيع فعله، لأنه ليس من صفته الجور والعبث والظلم وتكليف العباد ما لا يطيقون.

قال: فمن خلقه الله كافراً أيستطيع الإيمان وله عليه بتركه الإيمان حجة؟

قال عليه السلام: إن الله خلق خلقه جميعاً مسلمين^(١)، أمرهم ونهاهم، والكفر اسم يلحق الفعل حين يفعله العبد، ولم يخلق الله العبد حين خلقه كافراً، إنه إنما كفر من بعد أن بلغ وقتاً لزمته الحجة من الله، فعرض عليه الحق فجحدته فبإنكاره الحق صار كافراً.

(١) أي كانوا في أصل خلقتهم وطبيعتهم الأولى متقادين لما يأمر وينهى، حيث لم تكن نفوسهم متصفة لما يستدعي الخلاف والطغيان، بل كانوا على فطرة الله التي فطر الناس عليها.

قال: أفيجوز أن يقدر على العبد الشرّ، ويأمره بالخير وهو لا يستطيع الخير أن يعلمه، ويعذبه عليه؟

قال عليه السلام: إنه لا يليق بعد الله ورأفته أن يقدر على العبد الشر ويريد منه، ثم يأمره بما يعلم أنه لا يستطيع أخذه، والإنزاع عما لا يقدر على تركه، ثم يعذبه على أمره الذي علم أنه لا يستطيع أخذه.

قال: بماذا استحق الذين أغناهم وأوسع عليهم من رزقه الغناء والسعة، وبماذا استحق الفقير التقدير والتضييق؟

قال عليه السلام: اختبر الأغنياء بما أعطاهم لينظر كيف شكرهم، والفقراء بما منعهم لينظر كيف صبرهم.

ووجه آخر: إنه عجل لقوم في حياتهم، ولقوم آخر ليوم حاجتهم إليه.

ووجه آخر: فإنه علم احتمال كل قوم فأعطاهم على قدر احتمالهم ولو كان الخلق كلهم أغنياء لخربت الدنيا وفسد التدبير، وصار أهلها إلى الفناء ولكن جعل بعضهم لبعض عوناً، وجعل أسباب أرزاقهم في ضروب الأعمال وأنواع الصناعات، وذلك أدوم في البقاء وأصح في التدبير، ثم اختبر الأغنياء بالاستعطاف على الفقراء، كل ذلك لطف ورحمة من الحكيم الذي لا يعاب تدبيره.

قال: فيم استحق الطفل الصغير ما يصيبه من الأوجاع والأمراض بلا ذنب عمله، ولا جرم سلف منه؟

قال: إنَّ المرض على وجوه شتى: مرضى بلوى ومرض عقوبة، ومرض جعل علة للفناء، وأنت تزعم أن ذلك من أغذية ودية، وأشربة

وبية^(١)، أو من علة كانت بأمه، وتزعم أن من أحسن السياسة لبدنه، وأجمل النظر في أحوال نفسه وعرف الضرر مما يأكل من النافع لم يمرض، وتميل في قولك إلى من يزعم أنه لا يكون المرض والموت إلا من المطعم والمشرب! قد مات أراطاليس معلم الأطباء وأفلاطون رئيس الحكماء، وجالينوس شاخ ودق بصره وما دفع الموت حين نزل بساحته، ولم يألوا حفظ أنفسهم، والنظر لما يوافقها، كم مريضاً قد زاده المعالج سقماً، وكم من طبيب عالم، بالأدواء والأدوية ماهر، مات وعاش الجاهل بالطب بعده زماناً، فلا ذاك نفعه علمه بطبه عند انقطاع مدته وحضور أجله، ولا هذا ضرره الجهل بالطب مع بقاء المدة وتأخر الأجل.

ثم قال عليه السلام: إن أكثر الأطباء قالوا: إن علم الطب لم تعرفه الأنبياء، فما نصنع على قياس قولهم بعلم زعموا ليس تعرفه الأنبياء الذين كانوا حجج الله على خلقه، وأمناءه في أرضه، وخزان علمه، وورثة حكمته، والأدلاء عليه، والدعاة إلى طاعته؟

ثم إنني وجدت أن أكثرهم يتنكب في مذهبه سبل الأنبياء ويكذب الكتب المنزلة عليهم من الله تبارك وتعالى، فهذا الذي أزهديني في طلبه وحامله.

قال: فكيف تزهد في قوم وأنت مؤدبهم وكبيرهم؟

قال عليه السلام: إنني رأيت الرجل الماهر في طبه إذا سأله لم يقف على حدود نفسه وتأليف بدنه وتركيب أعضائه ومجري الأغذية في جوارحه، ومخرج نفسه وحركة لسانه، ومستقر كلامه ونور بصره وانتشار ذكره،

(١) أي ما كثر فيه الوباء، والوباء كل مرض عام، وفي الحديث دلالة أن جرثوم الوباء وميكروبه يكون في المياه، كما يستفاد ذلك أيضاً من دعاء الإمام السجاد عليه السلام في الدعاء السابع والعشرين من الصحيفة السجادية: وامزج مياههم بالوباء، وأطعمتهم بالأدواء.

واختلاف شهواته وانسكاب عبراته، ومجمع سمعه وموضع عقله، ومسكن روحه ومخرج عطسته، وهيج غموه وأسباب سروره، وعلة ما حدث فيه من بكم وصمم وغير ذلك، لم يكن عندهم في ذلك أكثر من أقاويل استحسنوها، وعلل فيما بينهم جوزوها.

قال: فأخبرني عن الله أله شريك في ملكه، أو مضاد له في تدبيره؟

قال عليه السلام: لا.

قال: فما هذا الفساد الموجود في العالم: من سباع ضارية، وهوام مخوفة وخلق كثير مشوهة، ودود وبعوض وحيات وعقارب زعمت أنه لا يخلق شيئاً إلا لعله، لأنه لا يبعث^(١)؟!

قال عليه السلام: أأستترع أن العقارب تنفع من وجع المثانة والحصاة، ولمن يبول في الفراش، وأن أفضل الترياق ما عولج من لحوم الأفاعي، فإن لحومها إذا أكلها المجدوم بسب^(٢) نفعه، وتزعم أن الدود الأحمر الذي يصاب تحت الأرض نافع للأكلة؟ قال: نعم.

قال عليه السلام: فأما البعوض والبق فبعض سببه أنه جعله أرزاق الطير، وأهان بها جباراً تمرّد على الله وتجبر، وأنكر ربوبيته، فسلب الله عليه أضعف خلقه ليريه قدرته وعظمته، وهي البعوضة، فدخلت في منخره حتى وصلت إلى دماغه فقتلته واعلم أنا لو وقفنا على كل شيء خلقه الله تعالى لم خلقه؟ ولأي شيء أنشأه؟ لكننا قد ساويناه في علمه وعلمنا كل ما يعلم واستغنيينا عنه، وكنا وهو في العلم سواء.

(١) هذا من الأبحاث العميقة التي كانت متداولة بين الحكماء الأقدمين من أن الشرور كيف تصدر عن الحكيم؟ بعضهم أجابوا عنها، وبعضهم كالشوية ذهبوا إلى تعدد خالق الخيرات والشرور وقد أجاب عنها الإمام بأجوبة متينة تحل به عقد الإشكال.

(٢) الشب: ملح معدني قابض، لونه أبيض ومنه أزرق وهو أشبه بالزاج. شب الليل: نبات.

قال: فأخبرني هل يعاب شيء من خلق الله وتدبيره؟

قال عليه السلام: لا.

قال: فإن الله خلق خلقه عزلاً، أذلك منه حكمة أم عبث؟

قال عليه السلام: بل منه حكمة.

قال: غيرتم خلق الله، وجعلتم فعلكم في قطع الغلفة أصوب مما خلق الله لها، وعبتم الأغلف^(١) والله خلقه، ومدحتم الختان وهو فعلكم. أم تقولون إن ذلك من الله كان خطأ غير حكمة؟

قال عليه السلام: ذلك من الله حكمة وصواب، غير أن سن ذلك وأوجبه على خلقه، كما أن المولود إذا خرج من بطن أمه وجدنا سرته متصلة بسرة أمه كذلك خلقها الحكيم فأمر العباد بقطعها، وفي تركها فساد بين للمولود والأم وكذلك أظفار الإنسان، أمر إذا طالت أن تقلم، وكان قادراً يوم دبر خلق الإنسان أن يخلقها خلقة لا تطول، وكذل الشعر من الشارب والرأس يطول فيجوز وكذلك الشيران خلقها الله فحولة وإخصاؤها أوفى، وليس في ذلك عيب في تقدير الله عز وجل.

قال: ألسن تقول: يقول الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢) وقد نرى المضطر يدعوه فلا يجاب له، والمظلوم يستنصره على عدوه فلا ينصره؟

قال: ويحك! ما يدعوه أحد إلا استجاب له، أما الظالم: فدعاؤه مردود إلى أن يتوب إليه، وأما المحق: فإنه إذا دعاه استجاب له، وصرف عنه البلاء من حيث لا يعلمه، أو أدخر له ثواباً جزيلاً ليوم حاجته إليه، وإن

(١) الأغلف: الذي لم يختن.

(٢) سورة غافر، الآية ٦٠.

لم يكن الأمر الذي سأل العبد خيراً له إن أعطاه أمسك عنه، والمؤمن العارف بالله ربما عز عليه أنني دعوه فيما لا يدري أصواب ذلك أم خطأ، وقد يسأل العبد ربه هلاك من لم ينقطع مدته أو يسأل المطر وقتاً ولعله أوان لا يصلح فيه المطر، لأنه أعرف بتدبير ما خلق من خلقه، وأشباه ذلك كثيرة فافهم هذا.

قال: أخبرني أيها الحكيم، ما بال السماء لا ينزل منها إلى الأرض أحد ولا يصعد من الأرض إليها بشر، ولا طريق إليها، ولا مسلك، فلو نظر العباد في كل دهر مرة من يصعد إليها وينزل، لكان ذلك أثبت في الربوبية وأنفى للشك وأقوى لليقين، وأجدر أن يعلم العباد أن هناك مديراً إليه يصعد الصاعد ومن عنده يهبط الهابط؟!!

قال عليه السلام: إن كل ما ترى في الأرض من التدبير إنما هو ينزل من السماء، ومنها يظهر، أما ترى الشمس منها تطلع، وهي نور النهار، وفيها قوام الدنيا، ولو حبست حار من عليها وهلك، والقمر منها يطلع، وهو نور الليل، وبه يعلم عدد السنين والحساب، والشهور والأيام، ولو حبس لحرار من عليها وفسد التدبير، وفي السماء النجوم التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ومن السماء ينزل الغيث الذي فيه حياة كل شيء؛ من الزرع والنبات والأنعام، وكل الخلق لو حبس عنهم لما عاشوا، والرياح لو حبست لفسدت الأشياء جميعاً وتغيرت، ثم الغيم والرعد والبرق والصواعق، كل ذلك إنما هو دليل على أن هناك مديراً يدبر كل شيء ومن عنده ينزل، وقد كلم الله موسى وناجاه، ورفع الله عيسى ابن مريم والملائكة تنزل من عنده، غير أنك لا تؤمن بما لم تره بعينك، وفيما تراه بعينك كفاية إن تفهم وتعقل.

قال: فلو أن الله رد إلينا من الأموات في كل مائة عام واحداً لنسأله

عمن مضى منا. إلى ما صاروا وكيف حالهم، وماذا لقوا بعد الموت. وأي شيء صنع بهم، لعمل الناس على اليقين، واضمحل الشك، وذهب الغل عن القلوب.

قال: إن هذه مقالة من أنكر الرسل وكذبهم، ولم يصدق بما جاءوا به من عند الله، إذ أخبروا وقالوا: إن الله أخبرني كتابه عز وجل على لسانه أنبيائه، حال من مات منا، أفيكون أحد أصدق من الله قولاً ومن رسله.

وقد رجع إلى الدنيا مما مات خلق كثير، منهم (أصحاب الكهف) أماتهم الله ثلاثمائة عام وتسعة، ثم بعثهم في زمان قوم أنكروا البعث، ليقطع حجبتهم، وليريهم قدرته وليعلموا أن البعث حق.

وأما الله (أرمياء) ^(١) النبي ﷺ الذي نظر إلى خراب بيت المقدس وما حوله حين غزاهم بختنصر وقال: ﴿أَنْ يُّعَى. هَٰذَا اللَّهُ بِمَدِّ مَوْعِدَاتِهِ اللَّهُ يَأْتِي عَامٍ﴾ ^(٢) ثم أحياه ونظر إلى أعضائه كيف تلتئم، وكيف تلبس اللحم، وإلى مفاصله وعروقه كيف توصل، فلما استوى قاعداً قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٣).

وأحيا الله قوماً خرجوا عن أوطانهم هاربين من الطاعون لا يحصى عددهم، وأماتهم الله دهرأ طويلاً حتى بليت عظامهم، وتقطعت أوصالهم وصاروا تراباً، بعث الله في وقت أحب أن يري خلقه قدرته نبياً يقال له: «حزقيل» فدعاهم فاجتمعت أبدانهم، ورجعت فيها أرواحهم، وقاموا كهينة يوم ماتوا، لا يفقدون من أعدادهم رجلاً، فعاشوا بعد ذلك دهرأ طويلاً.

(١) قال الطبرسي في «البيان» في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنْ يُّعَى مَكْرَ عَلَ قَرْيَةٍ﴾، هو عزير، عن قتادة وعكرمة والسدي وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام، وقيل: هو أرميا بن وهب، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام وقيل: هو الخضر.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

وإن الله أمات قوماً خرجوا مع موسى ﷺ حين توجه إلى الله فقالوا: ﴿أَوَلَا اللَّهُ جَهَنَّمُ؟﴾^(١) فأماتهم الله ثم أحياهم.

قال: فأخبرني عمن قال بتناسخ الأرواح من أي شيء قالوا ذلك، وبأي حجة قاموا على مذاهبهم؟

قال ﷺ: إن أصحاب التناسخ قد خلفوا وراءهم منهاج الدين، وزينوا لأنفسهم الضلالات، وأمرجوا^(٢) أنفسهم في الشهوات وزعموا أن السماء خاوية ما فيها شيء مما يوصف، وأن مدبر هذا العالم في صورة المخلوقين، بحجة من روى أن الله عز وجل خلق آدم على صورته، وأنه لا جنة ولا نار، ولا بعث ولا نشور، والقيامة عندهم خروج الروح من قلبه وولوجه في قلب آخر، فإن كان محسناً في أعلى درجة من الدنيا، وإن كان مسيئاً أو غير عارف صار في بعض الدواب المتعبة في الدنيا، أو هوام مشوهة الخلقة وليس عليهم صوم ولا صلاة، ولا شيء من العبادة أكثر من معرفة من تجب عليهم معرفته وكل شيء من شهوات الدنيا مباح لهم؛ من فروج النساء وغير ذلك من الأخوات والبنات والخالات وذوات البعولة.

وكذلك الميتة، والخمر، والدم، فاستقبح مقاتلتهم كل الفرق، ولعنهم كل الأمم، فلما سئلوا الحجة زاغوا وحادوا، فكذب مقاتلتهم التوراة، ولعنهم الفرقان، وزعموا مع ذلك أن إلههم ينتقل من قلب إلى قلب، وأن الأرواح الأزلية هي التي كانت في آدم، ثم هلم جراً تجري إلى يومنا هذا في واحد بعد آخر، فإذا كان الخالق في صورة المخلوق فبما يستدل على أن أحدهما خالق صاحبه؟

وقالوا: إن الملائكة من ولد آدم كل من صار في أعلى درجة من

(١) سورة النساء، الآية ١٥٣.

(٢) أمرجوا: تركوها تذهب حيث نشاء.

دينهم خرج من منزلة الامتحان والتصفية فهو ملك، فطوراً تخالهم نصارى في أشياء، وطوراً دهرية يقولون: إن لا يأكلوا شيئاً من اللحم، لأنّ الذرات عندهم كلها من ولد آدم حولوا من صورهم، فلا يجوز أكل لحوم القربات.

قال: ومن زعم أنّ الله لم يزل ومعه طينة مؤذية، فلم يستطع التفصي منها إلا بامتزاجه بها ودخوله فيها، فمن تلك الطينة خلق الأشياء!!

قال عليه السلام: سبحان الله تعالى!! ما أعجز إلهاً يوصف بالقدرة، لا يستطيع التفصي^(١) من الطينة! إن كانت الطينة حبة أزلية، فكأننا إلهين قديمين فامتزجا ودبرا العالم من أنفسهم، فإن كان ذلك كذلك، فمن أين جاء الموت والفناء؟ وإن كانت الطينة ميتة فلا بقاء للميت مع الأزلي القديم، والميت لا يجيء منه حي.

وهذه مقالة الديصانية، أشد الزنادقة قولاً وأمهمهم مثلاً، نظروا في كتب قد صنفتها أوائلهم، وحبروها بألفاظ مزخرفة من غير أصل ثابت، ولا حجة توجب إثبات ما ادعوا، كل ذلك خلافاً على الله وعلى رسله بما جاءوا عن الله.

فأما من زعم أنّ الأبدان ظلمة، والأرواح نور، وأنّ النور لا يعمل الشر والظلمة لا تعمل الخير، فلا يجب عليهم أن يلوموا أحداً على معصية ولا ركوب حرمة ولا إتيان فاحشة، وإنّ ذلك عن الظلمة غير مستنكر، لأنّ ذلك فعلها ولا له أن يدعو رباً، ولا يتضرع إليه، لأنّ النور الرب، والرب لا يتضرع إلى نفسه ولا يستعبد بغيره، ولا لأحد من أهل هذه المقالة أن يقول: أحسنت يا محسن أو أسأت، لأنّ الإساءة من فعل الظلمة وذلك

فعلها، والإحسان من النور، ولا يقول النور لنفسه أحسنت يا محسن، وليس هناك ثالث، وكانت الظلمة على قياس قولهم، أحكم فعلاً وأتقن تدبيراً وأعز أركاناً من النور، لأن الأبدان محكمة، فمن صور هذا الخلق صورة واحدة على نعوت مختلفة؟

وكل شيء يرى ظاهراً من الزهر والأشجار والثمار والطير والدواب يجب أن يكون إلهاً، ثم حبست النور في حبسها والدولة لها، وأما ما ادعوا بأن العاقبة سوف تكون للنور، فدعوى، وينبغي على قياس قولهم أن لا يكون للنور فعل، لأنه أسير، وليس له سلطان، فلا فعل له ولا تدبير، وإن كان له مع الظلمة تدبير، فما هو بأسير بل هو مطلق عزيز، فإن لم يكن كذلك وكان أسير الظلمة، فإنه يظهر في هذا العالم إحسان وجامع فساد وشر، فهذا يدل على أن الظلمة تحسن الخير وتفعله، وكما تحسن الشر وتفعله، فإن قالوا محال ذلك فلا نور يثبت ولا ظلمة، وبطلت دعواهم، ورجع الأمر إلى أن الله واحد وما سواه باطل، فهذه مقالة ماني الزنديق وأصحابه.

وأما من قال: النور والظلمة بينهما حكم، فلا بد من أن يكون أكبر الثلاثة الحكم، لأنه لا يحتاج إلى الحاكم إلا مغلوب أو جاهل أو مظلوم، وهذه مقالة المانوية والحكاية عنهم تطول.

قال: فما قصة ماني^(١)؟

(١) ماني بن فاتك ظهر في أيام سابور: ثاني ملوك الدولة الساسانية ومذهبه بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنو المسيح (عليه السلام) ولا يقول بنو موسى عليه السلام، وقد زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزا، ولن يزا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم، وزعم أنهما لم يزا قوين حساسين، دراكين سميعين بصيرين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان، وفي الخير متحاذيان تحاذي الشخص والظل. وقد فرض ماني على أصحابه العشر في أمواله كلها، والصلوات الأربع في اليوم والليلة، والدعاء إلى الحق، وترك الكذب، والقتل، والسرقة، والزنا والبخل، والسحر، وعبادة الأوثان، وأن يأتي على ذي روح ما يكره أن يؤتى إليه=

قال: متفحص أخذ بعض المجوسية فشابهها ببعض النصرانية، فأخطأ الملتين ولم يصب مذهباً واحداً منهما، وزعم أنَّ العالم دبر من إلهين، نور وظلمة، وأنَّ النور في حصار من الظلمة على ما حكينا منه، فكذبتة النصارى، وقبلته المجوس.

قال: فأخبرني عن المجوس^(١) أفبعث الله إليهم نبياً؟ فإني أجد لهم كتباً محكمة ومواعظ بليغة، وأمثالاً شافية، يقرون بالثواب والعقاب، ولهم شرايع يعملون بها.

قال عليه السلام: ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وقد بعث إليهم نبي بكتاب من عند الله، فأنكروه وجحدوا كتابه.

قال: ومن هو فإن الناس يزعمون أنه خالد بن سنان؟

قال عليه السلام: إنَّ خالداً كان عربياً بدوياً، ما كان نبياً، وإنما ذلك شيء يقوله الناس.

قال: أفزردشت^(٢)؟

«بمثله. وأما اعتقاده في الشرائع والأنبياء: أن أول من بعث الله تعالى بالمعلم والحكمة: آدم، أبو البشر، ثم بعث شيئاً بعده، ثم نوحاً بعده، ثم إبراهيم بعدهم (عليهم الصلاة والسلام)، ثم بعث بالبدعة إلى أرض الهند، وزردشت إلى أرض فارس، والمسيح كلمة الله وروحه إلى أرض الروم والمغرب، وبولس بعد المسيح إليهم، ثم يأتي خاتم النبيين إلى أرض العرب.

(١) المجوسية هي أقدم الطوائف والمجوس أصلهم من بلاد فارس، وهم عبدة النيران والقائلون بأن العالم أصليين نور وظلمة. فهما الأصلين والمديرين القديمين، وهما يقتسمان الخير والشر، والنفع والضرر، والصلاح والفساد، فيسمون أحدهما: النور، والآخر: الظلمة، وبالفارسية: يزدان، وأهرمان. ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين اثنتين: إحداهما: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة. والثانية: بيان سبب خلاص النور من الظلمة، وجعلوا الامتزاج مبدأ، والخلاص معاداً.

(٢) زردشت بن بورشپ ظهر في زمان كشتاسب بن لهراسب أحد ملوك الفرس، وقد زعمت الزردشتية أن الله خلق من وقت ما في الصحف الأولى، والكتاب الأعلى من ملكوته خلقاً روحانياً، فلما مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذ مبعوثه في صورة من نور متلألئ على تركيب صورة إنسان، وأحف به سبعين من الملائكة المكرمين، وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض، وبني آدم غير متحركة ثلاثة آلاف سنة ثم جعل روح زردشت في شجرة أنشأها في أعلى علين، وأحف بها سبعين من الملائكة المكرمين، وغرسها في قلة»

قال عليه السلام: إن زردشت أتاهم بزمزة، وادعى النبوة، فأمن منهم قوم وجحدته قوم، فأخرجوه فأكلته السباع في بركة من الأرض.

قال: فأخبرني عن المجوس كانوا أقرب إلى الصواب في دهرهم، أم العرب؟

قال عليه السلام: العرب في الجاهلية، كانت أقرب إلى الدين الحنيفي من المجوس وذلك أن المجوس كفرت بكل الأنبياء وجحدت كتبهم، وأنكرت براهينهم ولم تأخذ بشيء من سننهم وآثارهم، وإن كيخسر وملك المجوس في الدهر الأول قتل ثلاثمائة نبي، وكانت المجوس لا تغتسل من الجنابة، والعرب كانت تغتسل والاعتسال من خالص شرايع الحنيفية، وكانت المجوس لا تختن وهو من سنن الأنبياء، وأول من فعل ذلك إبراهيم خليل الله، وكانت المجوس لا تغسل موتاهم ولا تكفنها، وكانت العرب تفعل ذلك، وكانت المجوس ترمي الموتى في الصحارى والنوابيس والعرب تواربها في قبورها وتلحدها، وكذلك السنة على الرسل، إن أول من حفر له

«جبل من جبال أذربيجان يعرف باسميذخر. ثم مازج شيخ زردشت بلين بقرة فشربه أبو زردشت فصار نطفة ثم مضى في رحم أمه فقصداه الشيطان وغيرها، فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالة على برئها فبرئت، ثم لما ولد ضحك ضحكة تبينها من حضر. فاحتالوا على زردشت حتى وضعوه بين مدرجة البقر، ومدرجة الخيل، ومدرجة الذئب، فكان ينهض كل واحد لحمايته من جنسه، ونشأ بعد ذلك إلى أن بلغ ثلاثين سنة فبعث الله تعالى نبياً ورسولاً إلى الخلق، فدعا كشتاسب الملك، فأجابه إلى دينه، وكان دينه، عبادة الله والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث، وقال أيضاً أن البارئ تعالى هو خالق الظلمة والنور ومبدعهما، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة، ولكن الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة، ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم، والبارئ تعالى هو الذي مزجهما وخلطهما لحكمة رآها في التراكيب، ووجود النور وجود حقيقي، وحصل الظلام تبعاً، ولزردشت كتاباً صنفه وهو يقسم العالم فيه إلى قسمين: مينة، وكيتين يعني الروحاني والجسماني أو الروح والشخص، وما في العالم ينقسم قسمين: بخش وكش، يعني: التقدير والفعل، وموارد تكليف الإنسان يقسمها ثلاثة أقسام: منش، وكوش، وكش، يعني بذلك: الاعتقاد والقول والعمل، وبالثلاثة يتم التكليف، فإذا قصر الإنسان فيها خرج عن الدين والطاعة، وإذا جرى في هذه الحركات على مقتضى الأمر والشرعية فاز الفوز الأكبر كما أن الزردشتية تدعي لزردشت معجزات كثيرة.

قبر آدم أبو البشر، وألحد له لحد، وكانت المجوس تأتي الأمهات وتنكح البنات والأخوات، وحرمت ذلك العرب، وأنكرت المجوس بيت الله الحرام وسمته بيت الشيطان، والعرب كانت تحجه وتعظمه، وتقول: بيت ربنا، وتقر بالتوراة والإنجيل، وتسأل أهل الكتب وتأخذ، وكانت العرب في كل الأسباب أقرب إلى الدين الحنيفية من المجوس.

قال: فإنهم احتجوا بإتيان الأخوات أنها سنة من آدم.

قال عليه السلام: فما حجتهم في إتيان البنات والأمهات وقدم حرم ذلك آدم، وكذلك نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وسائر الأنبياء، وكل ما جاء عن الله عز وجل.

قال: ولم حرم الله الخمر ولا لذة أفضل منها؟

قال عليه السلام: حرّمها لأنها أم الخبائث، ورأس كل شر، يأتي على شاربها ساعة يسلب لبه، ولا يعرف ربه، ولا يترك معصية إلا ركبها ولا حرمة إلا انتهكها ولا رحم ماسة إلا قطعها، ولا فاحشة إلا أتاها، والسكران زمامه بيد الشيطان، إن أمره أن يسجد للأوثان سجد، وينقاد حيث ما قاده.

قال: فلم حرم الدم المسفوح؟

قال عليه السلام: لأنه يورث القساوة، ويسلب الفؤاد رحمته، ويعفن البدن ويغيّر اللون وأكثر ما يصيب الإنسان الجذام يكون من أكل الدم.

قال: فأكل الغدد؟

قال عليه السلام: يورث الجذام.

قال: فالميتة لِمَ حرّمها؟

قال عليه السلام : فرقاً بينها وبين ما يذكى ويذكر اسم الله عليه، والميئة قد جمد فيها الدم وتراجع إلى بدنها، ف لحمها ثقيل غير مريء لأنه يؤكل لحمها بدمها.

قال : فالسمك ميئة؟

قال عليه السلام : إن السمك ذكاته إخراجه حياً من الماء، ثم يترك حتى يموت من ذات نفسهن وذلك أنه ليس له دم، وكذلك الجراد.

قال : فليَم حرم الزنا؟

قال عليه السلام : لما فيه من الفساد وذهاب الموارث وانقطاع الأنساب، لا تعلم المرأة في الزنا من أحبلها، ولا المولود يعلم من أبوه، ولا أرحام موصولة، ولا قرابة معروفة.

قال : فليَم حرم اللواط؟

قال عليه السلام : من أجل أنه لو كان إتيان الغلام حلالاً لاستغنى الرجال عن النساء وكان فيه قطع النسل، وتعطيل الفروج، وكان في إجازة ذلك فساد كثير.

قال : فليَم حرم إتيان البهيمة؟

قال عليه السلام : كره أن يضيع الرجل ماءه ويأتي غير شكله، ولو أبا ذلك لربط كل رجل أتاناً^(١) يركب ظهرها ويغشى فرجها، وكان يكون في ذلك فساد كثير فأباح ظهورها، وحرم عليهم فروجها، وخلق للرجال النساء ليأنسوا بهن ويسكنوا إليهن، ويكن مواضع شهواتهم، وأمهاة أولادهم.

قال : فما علة الغسل من الجنابة، وإن ما أتى حلالاً وليس في الحلال

تدنيس؟

(١) الأتان: أنثى الحمار.

قال عليه السلام: إنَّ الجنابة بمنزلة الحيض، وذلك أنَّ النطفة دم لم يستحكم ولا يكون الجماع إلا بحركة شديدة وشهوة غالبة، فإذا فرغ تنفس البدن ووجد الرجل من نفسه رائحة كريهة، فوجب الغسل لذلك، وغسل الجنابة مع ذلك أمانة ائتمن الله عليها عبده ليختبرهم بها.

قال: أيها الحكيم! فما تقول فيمن زعم أنَّ هذا التدبير الذي يظهر في العالم تدبير النجوم السبعة؟

قال عليه السلام: يحتاجون إلى دليل، إنَّ هذا العالم الأكبر والعالم الأصغر من تدبير النجوم التي تسبح في الفلك، وتدور حيث دارت متعبة لا تفتري، وسائرة لا تقف.

ثم قال عليه السلام: وإنَّ لكل نجم منها موكل مدبر، فهي بمنزلة العبيد المأمورين المنهيين فلو كانت قديمة أزلية لم تتغير من حال إلى حال.

قال: فمن قال بالطبايع^(١)؟

قال: القدرية^(٢)، فذلك قول من لم يملك البقاء، ولا صرف الحوادث وغيرته الأيام والليالي، لا يرد الهرم، ولا يدفع الأجل، ما يدري ما يصنع به.

قال: فأخبرني عمن يزعم أنَّ الخلق لم يزل يتناسلون ويتوالدون ويذهب قرن ويجيء قرن، وتفنيهم الأمراض والأعراض وصنوف الآفات، ويخبرك الآخر عن الأول، وينبئك الخلف عن السلف، والقرون عن

(١) أي من قال: بأن الموجودات حصلت من الطبايع الأربع وهي البرودة والحرارة والرطوبة واليوسة، ولم يعتقد بوجود صانع ما وراءها.

(٢) القدرية هم من أقدم الفرق والمعتزلة ورثة هذه الفرقة، وهم يقولون بنفي الصفات، ونفي القدر خيره وشره من الله تعالى. وأن الله تعالى غير خالق لأكساب العباد ولا شيء من أعمال الحيوان، والناس هم الذين يقدرون أكسابهم، فالله تعالى فوض إلى العباد، فليس لله في أعمال العباد مشيئة.

القرون، أنهم وجدوا الخلق على هذا الوصف بمنزلة الشجر والنبات، في كل دهر يخرج منه حكيم عليم بمصلحة الناس، بصير بتأليف الكلام، ويصنف كتاباً قد حبره بفطنته، وحسنه بحكمته، قد جعله حاجزاً بين الناس، بأمرهم بالخير ويحثهم عليه، وينهاهم عن السوء والفساد ويزجرهم عنه، لئلا يتهارشوا^(١)، ولا يقتل بعضها بعضاً؟.

قال عليه السلام: ويحك! إن من خرج من بطن أمه أمس، ويرحل عن الدنيا غداً لا علم له بما كان قبله ولا ما يكون بعده، ثم إنه لا يخلو الإنسان من أن يكون خلق نفسه أو خلقه غيره، أو لم يزل موجوداً، فما ليس بشيء ليس يقدر أن يخلق شيئاً وهو ليس بشيء، وكذلك ما لم يكن فيكون شيئاً، يسئل فلا يعلم كيف كان ابتداءه، ولو كان الإنسان أزلياً لم تحدث فيه الحوادث، لأن الأزلي لا تغيره الأيام، ولا يأتي عليه الفناء، مع أنا لم نجد بناءً من غير بان، ولا أثراً من غير مؤثر، ولا تأليفاً من غير مؤلف، فمن زعم أن أباه خلقه، قيل: فمن خلق أباه؟ ولو أن الأب هو الذي خلق ابنه لخلق على شهوته. وصوره على محبته ولملك حياته، ولجأز فيه حكمه، ولكنه إن مرض فلم ينفعه، وإن مات فعجز عن رده، إن من استطاع أن يخلق خلقاً وينفخ فيه روحاً حتى يمشي على رجله سوياً، يقدر أن يدفع عنه الفساد.

قال: فما تقول في علم النجوم؟

قال عليه السلام: هو علم قلت منفعه، وكثرت مضراته، لأنه لا يدفع به المقدور ولا يتقى به المحذور، إن المنجم بالبلاء لم ينجه التحرز من القضاء، إن أخبر هو بخير لم يستطع تعجيله، وإن حدث به سوء لم

(١) هاش القوم: اختلطوا واضطربوا ووقعت بينهم الفتنة. تهارشوا: من تهاشت الكلاب أي يتقاتلون ويتناوبون.

يمكنه صرفه، والمنجم يضاد الله في علمه، بزعمه أن يرد قضاء الله عن خلقه.

قال: فالرسول أفضل أم الملك المرسل إليه؟

قال عليه السلام: بل الرسول أفضل.

قال: فما علة الملائكة الموكلين بعباده، يكتبون عليهم ولهم، والله عالم السر وما هو أخفى؟

قال عليه السلام: استعبدكم بذلك وجعلهم شهوداً على خلقه، ليكون العباد لملازماتهم إياهم أشد على طاعة الله مواظبة، وعن معصيته أشد انقباضاً، وكم من عبد يهتّم بمعصيته فذكر مكانهما فارعوى^(١) وكف، فيقول ربي يراني، وحفظتي عليّ بذلك تشهد، وإنّ الله برأفته ولطفه أيضاً وكلهم بعباده، يذبون عنهم مردة الشيطان وهوام الأرض، وآفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله إلى أن يجيء أمر الله.

قال: فخلق الخلق للرحمة أم للعذاب؟

قال عليه السلام: خلقهم للرحمة، وكان في علمه قبل خلقه إياهم، أنّ قوماً منهم يصيرون إلى عذابه بأعمالهم الردية وجحدهم به.

قال: يعذب من أنكر فاستوجب عذابه بإنكاره فبمّ يعذب من وحده وعرفه؟

قال: يعذب المنكر لإلهيته عذاب الأبد، ويعذب المقرّ به عذاب عقوبة لمعصيته إياه فيما فرض عليه، ثم يخرج، ولا يظلم ربك أحداً.

(١) ارعوى: أي كف ورجع.

قال: فبين الكفر والإيمان منزلة^(١)؟

قال عليه السلام: لا.

قال: فما الإيمان وما الكفر؟

قال عليه السلام: الإيمان: أن يصدق الله فيما غاب عنه من عظمة الله كتصديقه بما شاهد من ذلك وعائنه، والكفر: الجحود.

قال: فما الشرك وما الشك؟

قال عليه السلام: الشرك: هو أن يضم إلى الواحد الذي ليس كمثله شيء آخر والشك: ما لم يعتقد قلبه شيئاً.

قال: أف يكون العالم جاهلاً؟

قال عليه السلام: عالم بما يعلم، وجاهل بما يجهل.

قال: فما السعادة وما الشقاوة؟

قال عليه السلام: السعادة: سبب الخير، تمسك به السعيد فيجره إلى النجاة، والشقاوة سبب خذلان، تمسك به الشقي فيجره على الهلكة، وكل يعلم الله^(٢).

(١) وهذا مما يذهب إليه واصل بن عطاء. شيخ المعتزلة أن بين الكفر والإيمان منزلة وهي الفسق، فصاحب الكبيرة لا يكون مؤمناً مطلقاً، ولا كافراً مطلقاً، بل هو في منزلة بين المتزلتين لا مؤمن ولا كافر، وذلك أن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً وهو اسم مدح وإذا لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمناً وسمي فاسقاً، وليس هو بكافر مطلقاً لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها، لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالداً فيها، إذ ليس في الآخرة إلا فريطان: فريق في الجنة، وفريق في السعير، ولكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار، وأكثر الأمة على خلافه يقولون: إن صاحب الكبيرة من أمة الإسلام مؤمن لاعتقاده بالرسول وبما جازوا به، ولكنه فاسق بكبيرته، وفسقه لا ينفي عنه الإيمان والإسلام.

(٢) وفي هذا إشارة إلى بطلان من زعم أن السعادة والشقاوة ذاتيتان والعبد مجبول عليهما وليستا في حيطته ومقدوره، وأن السعادة سبب خير تمسك به العبد باختياره وإرادته فيجره إلى النجاة والسعادة، والشقاوة سبب خذلان تمسك به باختياره وإرادته فيجره إلى الشقاوة والهلكة، والله تعالى عالم بأن العبد أبهما يختار ويريد.

قال: أخبرني عن السراج إذا انطفئ أين يذهب نوره؟

قال عليه السلام: يذهب فلا يعود.

قال: فما أنكرت أن يكون الإنسان مثل ذلك إذا مات وفارق الروح

البدن لم يرجع إليه أبداً كما لا يرجع ضوء السراج إليه أبداً إذا انطفئ؟

قال عليه السلام: لم تصب القياس، إن النار في الأجسام كامنة. والأجسام

قائمة بأعيانها كالحجر والحديد، فإذا ضرب أحدهما بالآخر سقطت من

بينهما نار، تقتبس منها سراج له ضوء، فالنار ثابت في أجسامها والضوء

ذاهب، والروح: جسم رقيق قد ألبس قالباً كثيفاً، وليس بمنزلة السراج

الذي ذكرت. إن الذي خلق في الرحم جنيناً من ماء صاف، وركب فيه

ضروباً مختلفة: من عروق عصب وأسنان وشعر وعظام وغير ذلك، وهو

يحييه بعد موته، ويعيده بعد فناءه.

قال: فأين الروح؟

قال عليه السلام: في بطن الأرض حيث مصرع البدن إلى وقت البعث.

قال: فمن صلب فأين روحه؟

قال عليه السلام: في كف الملك الذي قبضها حتى يودعها الأرض.

قال: فأخبرني عن الروح أغير الدم؟

قال عليه السلام: نعم، الروح على ما وصفت لك، مادتها من الدم، ومن

الدم رطوبة الجسم وصفاء اللون وحسن الصوت، وكثرة الضحك، فإذا

جمد الدم فارق الروح البدن.

قال: فهل يوصف بخفة وثقل ووزن؟

قال عليه السلام: الروح بمنزلة الريح في الزق^(١)، إذا نفخت فيه امتلأ الزق منها، فلا يزيد في وزن الزق ولوجها فيه، ولا ينقصها خروجها منه، كذلك الروح ليس لها ثقل ولا وزن.

قال: فأخبرني ما جوهر الريح؟

قال عليه السلام: الريح هواء إذا تحرك يسمى ريحاً، فإذا سكن يسمى هواء، وبه قوام الدنيا^(٢)، ولو كفت الريح ثلاثة أيام لفسد كل شيء على وجه الأرض ونتن، وذلك أن الريح بمنزلة المروحة، تذب وتُدفع الفساد عن كل شيء وتطيبه، فهي بمنزلة الروح إذا خرج عن البدن نتن البدن وتغير، وتبارك الله أحسن الخالقين.

قال: أفتتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق؟

قال: بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور، فعند ذلك تبطل الأشياء، وتفتنى فلا حس ولا محسوس، ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها، وذلك أربعمئة سنة يسبت^(٣) فيها الخلق وذلك بين النفختين.

قال: وأنت له بالبعث والبدن قد بلي، والأعضاء قد تفرقت، فعضو ببلدة يأكلها سباعها، وعضو بأخرى تمزقه هوامها، وعضو صار تراباً بني به مع الطين حائط!!

قال عليه السلام: إن الذي أنشأه من غير شيء، وصوره على غير مثال كان سبق إليه، قادر أن يعيده كما بدأه.

قال: أوضح لي ذلك!

(١) زق الحداد: كبره وما ينفخ فيه.

(٢) إشارة إلى أن الهواء سبب للحياة بما فيه من الأوكسجين.

(٣) سبت: استراح.

قال عليه السلام: إنَّ الروح مقبِمة في مكانها، روح المحسن في ضياء وفسحة، وروح المسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير تراباً كما منه خلق، وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها مما أكلته ومزقته كل ذلك في التراب. محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وإنَّ تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور، فتربو الأرض ثم تمخضوا مخض^(١) السقاء، فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء، والزبد من اللبن إذا مخض، فيجتمع تراب كل قالب إلى قلبه، فينتقل بإذن الله القادر إلى حيث الروح، فتعود الصور بإذن المصور كهيتها، وتلج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً.

قال: فأخبرني عن الناس يحشرون يوم القيامة عراة؟

قال عليه السلام: بل يحشرون في أكفانهم.

قال: أتى لهم بالأكفان وقد بليت؟!

قال عليه السلام: إنَّ الذي أحيا أبدانهم جدد أكفانهم.

قال: فمن مات بلا كفن؟

قال عليه السلام: يستر الله عورته بما يشاء من عنده.

قال: أفيعرضون صفوفاً؟

قال عليه السلام: نعم، هم يومئذ عشرون ومائة ألف صف في عرض الأرض.

قال: أوليس توزن الأعمال؟

(١) مخض الشيء: حركه سريعاً.

قال ﷺ : لا، إِنَّ الأعمال ليست بأجسام، وإنما هي صفة ما عملوا، وإنما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء، ولا يعرف ثقلها أو خفتها، وإنَّ الله لا يخفى عليه شيء.

قال: فما معنى الميزان؟

قال ﷺ : العدل.

قال: فما معناه في كتابه: ﴿فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ﴾^(١).

قال ﷺ : فمن رجع عمله.

قال: فأخبرني أو ليس في النار مقتنع أن يعذب خلقه بها دون الحيات والعقارب؟

قال ﷺ : إنما يعذب بها قوماً زعموا أنها ليست من خلقه، إنما شريكه الذي يخلقه، فيسلط الله عليهم العقارب والحيات في النار ليذيقهم بها وبال ما كذبوا عليه فجحدوا أن يكون صنعه.

قال: فمن أين قالوا: إن أهل الجنة يأتي الرجل منهم إلى ثمرة يتناولها فإذا أكلها عادت كهيتها؟

قال ﷺ : نعم، ذلك على قياس السراج: يأتي القابس فيقتبس عنه، فلا ينقص من ضوئه شيئاً، وقد امتلأت الدنيا منه سراجاً.

قال: أليسوا يأكلون ويشربون، وتزعم أنه لا يكون لهم الحاجة؟

قال ﷺ : بلى، لأنَّ غذاءهم رقيق لا ثقل له، بل يخرج من أجسادهم بالعرق.

قال: فكيف تكون الحوراء في جميع ما أتاها زوجها عذراء؟

(١) سورة الاعراف، الآية ٨.

قال عليه السلام: لأنها خلقت من الطيب لا يعتريها عاهة، ولا يخالط جسمها آفة ولا يجري في ثقبها شيء، ولا يدنسها حيض، فالرحم ملتزقة ملدم، إذ ليس فيها لسوى الإحليل مجرى.

قال: فهي تلبس سبعين حلة، ويرى زوجها مخ ساقها من وراء حللها وبدنها؟

قال عليه السلام: نعم، كما يرى أحدكم الدراهم إذا ألقيت في ماء صاف قدره قدر رمح.

قال: فكيف تنعم أهل الجنة بما فيه من النعيم، وما منهم أحد إلا وقد فقد ابنه وأباه أو حميمه أو أمه، فإذا افتقدوهم في الجنة لم يشكوا في مصيرهم إلى النار، فما يصنع بالنعيم من يعلم أن حميمه في النار ويعذب؟

قال عليه السلام: إن أهل العلم قالوا: إنهم ينسون ذكرهم. وقال بعضهم: انتظروا قدومهم، ورجوا أن يكونوا بين الجنة والنار في أصحاب الأعراف.

قال: فأخبرني عن الشمس أين تغيب؟

قال عليه السلام: إن بعض العلماء قال: إذا انحدرت أسفل القبة دار بها الفلك إلى بطن السماء صاعدة أبداً، إلى أن تنحط إلى موضع مطلعها يعني: أنها تغيب في عين حامية ثم تخرق الأرض راجعة إلى موضع مطلعها، فتحير تحت العرش حتى يؤذن لها بالطلوع، ويسلب نورها كل يوم، وتجلل نوراً آخر.

قال: فالكرسي أكبر أم العرش؟

قال عليه السلام: كل شيء خلقه الله في جوف الكرسي، ما خلا عرشه فإنه أعظم من أن يحيط به الكرسي.

قال: فخلق النهار قبل الليل؟

قال عليه السلام: خلق النهار قبل الليل والشمس قبل القمر، والأرض قبل السماء ووضع الأرض على الحوت والحوت في الماء والماء في صخرة مجوفة، والصخرة على عاتق ملك، والملك على الثرى، والثرى على الريح العقيم والريح على الهواء والهواء تمسكه القدرة، وليس تحت الريح العقيم إلا الهواء والظلمات، ولا وراء ذلك سعة ولا ضيق، ولا شيء يتوهم، ثم خلق الكرسي فحشاه السماوات والأرض والكرسي أكبر من كل شيء خلقه الله، ثم خلق العرش فجعله أكبر من الكرسي.

احتجابه عليه السلام على العالم بالنجوم

عن أبان بن تغلب^(١) أنه قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، إذ دخل عليه رجل من أهل اليمن، فسلم عليه فرد عليه أبو عبد الله عليه السلام، فقال له: مرحباً يا سعد؟ فقال الرجل: بهذا الاسم سمعتني أمي، وما أقل من يعرفني به، فقال له أبو عبد الله: صدقت يا سعد المولى! فقال الرجل: جعلت فداك بهذا اللقب كنت ألقب. فقال أبو عبد الله عليه السلام: لا خير في اللقب، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَلَا تَكْبَرُوا بِالْأَلْقَابِ يَسُّ الْأَنَامُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾^(٢).

ما صناعتك يا سعد؟ قال: جعلت فداك! إنا أهل بيت ننظر في النجوم، لا يقال إن باليمن أحداً أعلم بالنجوم منا.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: كم يزيد ضوء الشمس على ضوء القمر درجة؟

(١) أبان بن تغلب: ثقة جليل القدر لقي علي بن الحسين وأبا جعفر وأبا عبد الله عليهم السلام وروى عنهم وكانت له عندهم حظوة، ومات في حياة الإمام الصادق عليه السلام. وكان فارقاً فقيهاً لغوياً، صنف كتاب «الغريب في القرآن» و«الفصائل» قال له الإمام الصادق: اجلس في مجلس المدينة وافت الناس فإني أحب أن يرى في شيعتي مثلك.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١١.

فقال اليماني: لا أدري.

فقال عليه السلام: صدقت.

فقال: فكم ضوء القمر يزيد على ضوء المشتري درجة؟

قال اليماني: لا أدري!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: صدقت!

قال: فكم يزيد ضوء المشتري على ضوء العطاردة درجة؟

فقال اليماني: لا أدري!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: صدقت!

قال: فكم ضوء عطاردة يزيد درجة على ضوء الزهرة؟

قال اليماني: لا أدري!

قال أبو عبد الله: صدقت!

قال: فما اسم النجم الذي إذا طلع هاجت الإبل؟

فقال اليماني: لا أدري!

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: صدقت!

قال: فما اسم النجم الذي إذا طلع هاجت البقر؟

فقال اليماني: لا أدري!

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: صدقت!

قال: فما اسم النجم الذي إذا طلع هاجت الكلاب؟

فقال اليماني: لا أدري!

فقال له أبو عبد الله عليه السلام : صدقت في قولك لا أدري! فما زحل عندكم في النجوم؟

فقال اليماني : نجم نجس .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : لا تقل هذا فإنه نجم أمير المؤمنين صلوات الله عليه وهو نجم الأوصياء عليهم السلام ، وهو النجم الثاقب الذي قال الله تعالى في كتابه ^(١) .

فقال اليماني : فما معنى الثاقب؟

فقال : إنَّ مطلعته في السماء السابعة ، فإنه ثقب بضوئه حتى أضاء في السماء الدنيا ، فمن ثم سماه الله النجم الثاقب . ثم قال : يا أخا العرب أعندكم عالم؟

فقال اليماني : جعلت فداك إنَّ باليمن قوماً ليسوا كأحد من الناس في علمهم .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : وما يبلغ من علم عالمهم؟

فقال اليماني : إنَّ عالمهم ليزجر الطير . ويقفوا الأثر في ساعة واحدة مسيرة شهر للراكب المحث .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : فإنَّ عالم المدينة أعلم من عالم اليمن .

قال اليماني : وما يبلغ علم عالم المدينة؟

قال : إنَّ علم عالم المدينة ينتهي إلى أن لا يقفوا الأثر ، ولا يزجر الطير ويعلم ما في اللحظة الواحدة مسيرة الشمس ، تقطع اثني عشر برجاً ، واثني عشر برأ ، واثني عشر بحرأ ، واثني عشر عالماً .

(١) في سورة الطارق ، الآية ٣ ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .

فقال له اليماني: ما ظننت أن أحداً يعلم هذا، وما يدري ما كنهه!

قال: ثم قام اليماني وخرج.

احتجاجه عليه السلام على ابن أبي العوجاء في مناسك الحج

عن عيسى بن يونس قال: كان ابن أبي العوجاء من تلامذة الحسن البصري، فأنحرف عن التوحيد، ف قيل له: تركت مذهب صاحبك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة!؟

قال: إن صاحبي كان مخلطاً، يقول طوراً بالقدر وطوراً بالجبر، فما أعلمه اعتقد مذهباً دام عليه، فقدم مكة متمرداً، وإنكاراً على من يحججه، وكان تكره العلماء مجالسته لخبث لسانه، وفساد ضميره، فأتى أبا عبد الله عليه السلام فجلس إليه في جماعة من نظرائه، فقال:

يا أبا عبد الله! إن المجالس بالأمانات، ولا بد لكل من به سعال أن يسعل أفتأذن لي في الكلام؟ فقال: تكلم.

فقال: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهولون حوله كهرولة البعير إذا نفر، إن من فكر في هذا وقدر، علم أن هذا فعل أسسه غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبو أسه ونظامه!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن من أضله الله وأعمى قلبه، استوخم الحق ولم يستعذبه وصار الشيطان وليه، يورده مناهل الهلكة ثم لا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به عباده ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحشهم على تعظيمه وزيارته، جعله محل أنبيائه وقبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أطيع فيما أمر وانتهى عما نهى عنه وزجر، الله المنشئ للأرواح والصور.

فقال ابن أبي العوجاء: ذكرت الله فأحلت على الغائب.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويلك!! كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم ويرى أشخاصهم، ويعلم أسرارهم؟!

فقال ابن أبي العوجاء: فهو في كل مكان، أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض وإذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟

فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان، وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه، فأما الله العظيم الشأن، الملك الديان، فلا يخلو منه مكان ولا يشغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان.

وروي أنَّ الصادق عليه السلام قال لابن أبي العوجاء: إن يكن الأمر كما تقول - وليس كما تقول - نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما تقول - وهو كما تقول - نجونا وهلكنا.

محاولة الزنادقة الطعن بالقرآن

عن هشام بن الحكم قال: اجتمع ابن أبي العوجاء وأبو شاعر الديصاني الزنديق وعبد الملك البصري وابن المقفع عند بيت الله الحرام، يستهزئون بالحاج ويطعنون بالقرآن.

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض كل واحد منا ربع القرآن وميعادنا من قابل في هذا الموضع، نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كله، فإنَّ في نقض القرآن إبطال نبوة محمد، وفي إبطال نبوته إبطال الإسلام وإثبات ما نحن فيه، فاتفقوا على ذلك وافترقوا، فلما كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام فقال ابن أبي العوجاء:

أما أنا فمفكر منذ افترقنا في هذه الآية ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسِرُوا مِنْهُ خَلَصُوا مِنْهَا﴾^(١) فما أقدر أن أضم إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً، فشغلتنى هذه الآية عن التفكير فيما سواها.

فقال عبد الملك: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَجِمْعُوا لَهُمْ إِنَّكَ الْذِيكَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَلْتَلِبُ﴾^(٢) ولم أقدر على الإتيان بمثلاً.

فقال أبو شاعر: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٣) لم أقدر على الإتيان بمثلاً.

فقال ابن المقفع: يا قوم إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿وَقِيلَ يَتَازَنُ أَهْلُ مَاءٍ وَنَسَمَاءُ أَقْلِي وَبَعْضَ الْمَاءِ وَبَعْضَ الْأَثَرِ وَأَسْوَتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾^(٤) لم أبلغ غاية المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلاً.

قال هشام بن الحكم: فبينما هم في ذلك، إذ مر بهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقال: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٥) فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهت أمر وصية محمد إلا إلى جعفر بن محمد، والله ما رأينا قط إلا هبناه واقشعرت جلودنا لهيبته، ثم تفرقوا مقرين بالعجز.



(١) سورة يوسف، الآية ٨٠.

(٢) سورة الحج، الآية ٧٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٢٤.

(٤) سورة هود، الآية ٤٤.

(٥) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

روي أنه لما سأل رجل من الزنادقة أبا جعفر الأحول فقال: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَثَلُثَ وَرَبُّعٌ فَإِنَّ خِفَتُمْ أَلَّا تَمْلِكُوا فَوَاحِدَةً﴾^(١) وقال تعالى في آخر السورة: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدُلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾^(٢) فبين القولين فرق، فقال أبو جعفر الأحول: فلم يكن في ذلك عندي جواب، فقدمت المدينة فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فسألته عن الآيتين فقال: أما قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَمْلِكُوا فَوَاحِدَةً﴾ فإنما عني في النفقة، وقوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدُلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فإنما عني في المودة، فإنه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين في

المودة؛ فرجع أبو جعفر الأحول إلى الرجل فأخبره، فقال: هذا حملته من الحجاز.



ونحن أقرب إليه من حبل الوريد

عن محمد بن عبيد، عن حماد، عن محمد بن مسلم قال: دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عليه السلام فقال: إني رأيت ابنك موسى يصلي والناس يمرون بين يديه فلا ينهاهم وفيه ما فيه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ادع فلما جاءه قال: يا بني إن أبا حنيفة يذكر أنك تصلي والناس يمرون بين يديك فلا تنهاهم قال: نعم يا أبا، إن الذي كنت أصلي له كان أقرب إليّ منهم، يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٣) قال: فضمه أبو عبد الله عليه السلام إلى نفسه وقال: بأبي أنت وأمي يا مودع الأسرار.

(١) سورة النساء، الآية ٣.

(٢) سورة النساء، الآية ١٢٩.

(٣) سورة ق، الآية ١٦.

هل تكذب الأنبياء؟!

روي أنه سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾^(١) قال: ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم عليه السلام. قيل: وكيف ذلك؟

فقال عليه السلام: إنما قال إبراهيم: فاسألوهم إن كانوا ينطقون. فإن نطقوا فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فكبيرهم لم يفعل شيئاً، فما نطقوا، وما كذب إبراهيم عليه السلام.

فسئل عن قوله في سورة يوسف: ﴿إِنْتَهَا أَلْعُرْ إِنَّا كُنْتُمْ لَسَرِقُونَ﴾^(٢).

قال: إنهم سرقوا يوسف من أبيه. ألا ترى أنه قال لهم: ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَقْوَدُونَ * قَالُوا نَقْوَذُ صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾^(٣)، ولم يقل سرقتم صواع الملك. إنما سرقوا يوسف من أبيه.

فسئل عن قول إبراهيم: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي التُّجْرِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾^(٤) قال: ما كان إبراهيم سقيماً، وما كذب إنما عنى سقيماً في دينه أي مرتاداً.

جوابه عليه السلام عن قوله تعالى ﴿كُلَّمَا نَبَّهْتُمْ جُلُودَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾

عن حفص بن غياث قال: شهدت المسجد الحرام وابن أبي العوجاء يسأل أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَبَّهْتُمْ جُلُودَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾^(٥) ما ذنب الغير؟

قال عليه السلام: ويحك هي هي وهي غيرها!

(١) سورة الأنبياء، الآية ٦٣.

(٢) سورة يوسف، الآية ٧٠.

(٣) سورة يوسف، الآية ٧١ - ٧٢.

(٤) سورة الصافات، الآية ٨٨ - ٨٩.

(٥) سورة النساء، الآية ٥٦.

قال: فَمَثَلُ لي ذلك شيئاً من أمر الدنيا! قال: نعم أرايت لو أنَّ رجلاً أخذ لبنة فكسرها، ثم ردها في ملبنها، فهي هي وهي غيرها.

أقضاكم علي

عن سعيد بن أبي الخضيب قال: دخلت أنا وابن أبي ليلى^(١) المدينة، فبينما نحن في مسجد الرسول ﷺ إذ دخل جعفر بن محمد عليه السلام، فقمنا إليه فسألني عن نفسي وأهلي ثم قال: من هذا معك؟

فقلت: ابن أبي ليلى قاضي المسلمين!

فقال: نعم.

ثم قال له: أناخذ مال هذا فتعطيه هذا، وتفرق بين المرء وزوجه، ولا تخاف في هذا أحداً؟

قال: نعم.

قال: فبأي شيء تقضي؟

قال: بما بلغني عن رسول الله ﷺ، وعن أبي بكر، وعمر.

قال: فبلغك أن رسول الله ﷺ قال: «أقضاكم علي بعدي»؟

قال: نعم.

قال: فكيف تقضي بغير قضاء علي عليه السلام، وقد بلغك هذا؟

قال: فاصفر وجه ابن أبي ليلى ثم قال: الشمس مثلاً لنفسك، فوالله لا أكلمك من رأسي كلمة أبداً.

(١) ابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمن الفاضي الكوفي من أصحاب الصادق عليه السلام ولي ابن أبي ليلى القضاء لبني أمية وولد العباس وكان يفتي بالرأي قبل أبي حنيفة.

اختلاف أمتي رحمة

عن عبد المؤمن الأنصاري قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن قوماً رَوَوْا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اِخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ؟» فَقَالَ: صَدَقُوا.

قلت: إن كان اختلافهم رحمة، فاجتماعهم عذاب؟

قال: ليس حيث تذهب وذهبوا، إنما أراد قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١) أمرهم أن ينفروا إلى رسول الله ﷺ، ويختلفوا إليه، ويتعلموا، ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلموهم، إنما أراد اختلافهم في البلدان لا اختلافاً في الدين، إنما الدين واحد.

أصحابي أهل بيتي

روي عنه صلوات الله عليه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ما وجدتم في كتاب الله عز وجل فالعمل لكم به ولا عذر لكم في تركه، وما لم يكن في كتاب الله عز وجل وكانت في سنة مني فلا عذر لكم في ترك سنتي، وما لم يكن فيه سنة مني فما قال أصحابي فقولوا، إنما مثل أصحابي فيكم كمثّل النجوم، بأبيها أخذ اهتدي وبأي أقاويل أصحابي أخذتم اهتديتم، واختلاف أصحابي لكم رحمة.

قيل: يا رسول الله من أصحابك؟ قال: أهل بيتي.

التقية رحمة

قال محمد بن الحسين بن بابويه القمي (رض): إِنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَا يَخْتَلِفُونَ وَلَكِنْ يَفْتَنُونَ الشَّيْعَةَ بِمَرِّ الْحَقِّ، وَرَبِّمَا أَفْتَوْهُمْ بِالتَّقِيَّةِ فَمَا يَخْتَلِفُ

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

من قولهم فهو للتقية، والتقية رحمة للشيعة، ويؤيد تأويله رضي الله عنه أخبار كثيرة.

منها: ما رواه محمد بن سنان، عن نصر الخثعمي قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من عرف من أمرنا أن لا نقول إلا حقاً، فليكتف بما يعلم منا، فإن سمع منا خلاف ما يعلم، فليعلم أن ذلك منا دفاع واختيار له.

جوابه عليه السلام في اختلاف الحكم والحديث

عن عمر بن حنظلة: قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام: عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة أيحل ذلك؟

قال عليه السلام: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الجبت والطاغوت المنهي عنه، وما حكم له به فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً له لأنه أخذه بحكم الطاغوت، ومن أمر الله عز وجل أن يكفر به، قال الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾^(١).

قلت: فكيف يصنعان وقد اختلفا؟

قال: ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا، فليرضيا به حكماً، فإنني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكم ولم يقبله منه، فإنما بحكم الله استخف وعلينا رد، والراد علينا كافر وراد على الله، وهو على حد من الشرك بالله.

قلت: فإن كان كل واحد منهما اختار رجلاً من أصحابنا، فرضيا أن يكونا الناظرين في حقهما فيما حكما، فإن الحكمين اختلفا في حديثكم؟

(١) سورة النساء، الآية ٦٠.

قال: إِنَّ الحكم ما حكم به أعدلها وأفقهها وأصدقهما في الحديث وأورعهما، ولا يلتفت إلى ما حكم به الآخر.

قلت: فإنهما عدلان مرضيان، عرفا بذلك لا يفضل أحدهما صاحبه؟

قال: ينظر الآن إلى ما كان من روايتهما عنا في ذلك الذي حكما، المجمع عليه بين أصحابك، فيؤخذ به من حكمهما ويترك الشاذ الذي ليس بمشهور عند أصحابك، فإن المجمع عليه لا ريب فيه، وإنما الأمور ثلاث: أمر بيّن رشده فيُتَّبَع، وأمر بيّن غيه فيُجْتَنَّب، وأمر مشكل يرد حكمه إلى الله عز وجل وإلى رسوله، حلال بيّن، وحرام بيّن، وشبهات تتردد بين ذلك، فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات وهلك من حيث لا يعلم.

قلت: فإن كان الخبران عنكما مشهورين قد رواهما الثقة عنكم؟

قال: ينظر ما وافق حكمه حكم الكتاب والسنة وخالف العامة فيؤخذ به، ويترك ما خالف حكمه حكم الكتاب والسنة ووافق العامة.

قلت: جعلت فداك أرايت إن كان الفقيهان عرفا حكمه من الكتاب والسنة، ثم وجدنا أحد الخبرين يوافق العامة. والآخر يخالف، بأيهما نأخذ من الخبرين؟

قال: ينظر إلى ما هم إليه يميلون، فإن ما خالف العامة ففيه الرشاد.

قلت: جعلت فداك! فإن وافقهم الخبران جميعاً؟

قال: انظروا إلى ما تميل إليه حكاهم وقضاتهم، فاتركوا جانباً وخذوا بغيره.

قلت: فإن وافق حكاهم الخبرين جميعاً؟

قال: إذا كان كذلك فارجعه وقف عنده، حتى تلقى إمامك، فإن الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات، والله هو المرشد.

جاء هذا الخبر على سبيل التقدير، لأنه قلماً يتفق في الأثر أن يرد خبران مختلفان في حكم من الأحكام، موافقين للكتاب والسنة، وذلك مثل غسل الوجه واليدين في الوضوء لأن الأخبار جاءت بغسلهما مرة مرة، وغسلهما مرتين مرتين فظاهر القرآن لا يقتضي خلاف ذلك، بل يحتمل كلتا الروايتين، ومثل ذلك يؤخذ في أحكام الشرع.

وأما قوله عليه السلام - للسائل - : أرحه وقف عنده حتى تلقى إمامك، أمره بذلك عند تمكنه من الوصول إلى الإمام، فأما إذا كان غائباً ولا يتمكن من الوصول إليه، والأصحاب كلهم مجمعون على الخبرين، لو لم يكن هناك رجحان لرواة أحدهما على الآخر بالكثرة والعدالة، كان الحكم بهما من باب التخيير.

يدل على ما قلنا: ما روي عن الحسن بن الجهم^(١) عن الرضا عليه السلام : قال: قلت للرضا عليه السلام : تجيئنا الأحاديث عنكم مختلفة؟

قال: ما جاءك عنا فقهه على كتاب الله عز وجل وأحاديثنا، فإن كان يشبههما فهو منا وإن لم يشبههما فليس منا.

قلت: يجيئنا الرجال، وكلاهما ثقة، بحديثين مختلفين، فلا نعلم أيهما الحق.

فقال: إذا لم تعلم فموسع عليك بأيهما أخذت.

(١) الحسن بن الجهم بن بكير بن أهين أبو محمد الشيباني من أكابر أصحاب الإمام الرضا عليه السلام، ثقة روى عن الإمام الرضا عليه السلام.

ما رواه الحرث بن المغيرة^(١) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا سمعت من أصحابك الحديث وكلهم ثقة، فموسع عليك حتى ترى القائم فترده عليه.

وروى سماعة من مهران^(٢) قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام قلت: يرد علينا حديثان، واحد يأمرنا بالأخذ به، والآخر به ينهانا عنه؟

قال: لا تعلم بواحد منهما حتى تلقى صاحبك فتسأله عنه.

قال: قلت: لا بد من أن نعمل بأحدهما.

قال: خذ بما فيه خلاف العامة، فقد أمر عليه السلام بترك ما وافق العامة، لأن أن يكون قد ورد مورد التقية، وما خالفهم لا يحتمل ذلك.

وروي عنهم عليه السلام أيضاً أنهم قالوا: إذا اختلفت أحاديثنا عليكم فخذوا بما اجتمعت عليه شيعتنا، فإنه لا ريب فيه، وأمثال هذه الأخبار كثيرة لا يحتمل ذكرها هنا، وما أوردناه عارض ليس هنا موضعه.

(١) الحرث بن المغيرة روى عن أبي جعفر الباقر والصادق والكاظم عليه السلام وعن زيد بن علي وهو ثقة.

(٢) سماعة بن مهران بن عبد الرحمن الحضرمي مولى عبد بن وائل بن حجر الحضرمي يكنى: أبا ناضرة. كان يتجر في القز ويخرج به إلى حران، ونزل من الكوفة كندة، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليه السلام ومات بالمدينة. وهو ثقة. له بالكوفة مسجد بعفروموت وهو مسجد زرعة بن محمد الحضرمي. مات في حياة الإمام الصادق عليه السلام عن عمر يناهز الستين سنة.





الفصل السادس

توحيد المفضل

إملاء أبي عبد الله الصادق عليه السلام

على المفضل بن عمر الجعفي

- أحد تلاميذه المشهورين -





كلام ابن أبي العوجاء مع صاحبه

روى محمد بن سنان^(١)، قال: حدثني المفضل بن عمر^(٢) قال؛ كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في الروضة بين القبر والمنبر، وأنا مفكر فيما خص الله تعالى به سيدنا محمداً ﷺ، من الشرف والفضائل، وما منحه وأعطاه وشرفه وحباه، مما لا يعرفه الجمهور من الأمة وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته، وخطير مرتبته، فإني لكذلك إذ أقبل (ابن أبي العوجاء)^(٣) فجلس بحيث اسمع كلامه فلما استقر به المجلس إذ رجل من أصحابه قد جاء فجلس إليه، فتكلم (ابن أبي العوجاء) فقال: لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بكماله، وحاز الشرف بجميع خصاله، ونال الحظوة في كل أحواله،

(١) هو أبو جعفر الزاهري. ذكر الكشي في شأنه ما يدل على مدح عظيم وعلى قدح أيضاً، وذكر أنه روى عنه جماعة من العدو والنخاة من أهل العلم والإنصاف، وجميع الروايات المجرحة له واهية ساقطة، فقد أشار الكثير إلى قوته والذب عنه، وتفنيد ما قيل فيه من الضعف. وأن اجتماع الأعيان على الرواية عنه أدل شيء على كمال قوته عده الشيخ المفيد من خاصة الإمام الكاظم وبقائه وأهل الورع والعلم والفقه من شيعته كما عده الشيخ في الغيبة من الوكلاء المرضيين الذين لم يخيروا ولم يبدلوا، بل مضوا على منهاج الأئمة، وفي الخلافة كان مكفوف البصر أعمى توفي عام ٢٢٠هـ.

(٢) اختلف العلماء فيه فقال النجاشي: فاسد المذهب مضطرب الرواية. وروى الكشي أحاديث في ذمه والبراءة منه، وعده الشيخ المفيد في «الإرشاد» من شيوخ أصحاب الإمام الصادق ﷺ، وقال السيد صدر الدين العاملي في حواشي رجال أبي علي: «وبالجملة من نظر إلى حديث المفضل المشهور عن الصادق ﷺ علم أن ذلك الخطاب البليغ والمعاني العجيبة والألفاظ الغريبة لا يخاطب الإمام بها إلا رجلاً عظيماً جليلاً كثير العلم ذكي الحسن أهلاً لتحمل الأسرار الرفيعة والدقائق البديعة والرجل عندي من عظم الشأن وجلالة القدر بمكان».

(٣) مضت ترجمته.

فقال له صاحبه: إنه كان فيلسوفاً ادعى المرتبة العظمى، والمنزلة الكبرى، وأتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول، وضلّت فيها الأحلام، وغاصت الأبواب على طلب علمها في بحار الفكر، فرجعت خاسطات، وهنّ حاسرات، فلما استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء، دخل الناس في دينه أفواجا، فقرن اسمه باسم ناموس^(١)، فصار يهتف به على رؤوس الصوامع، في جميع البلدان والمواضع، التي انتهت إليها دعوته، وعلتها كلمته، وظهرت فيها حجته برأ وبحراً، سهلاً وجبلاً، في كل يوم وليلة خمس مرات مردداً في الأذان والإقامة، ليتجدد في كل ساعة ذكره، ولئلا يخمل أمره.

فقال ابن أبي العوجاء: دع ذكر محمد ﷺ فقد تحير فيه عقلي، وضلّ في أمره فكري. وحدثنا في ذكر الأصل الذي نمشي له... ثم ذكر ابتداء الأشياء، وزعم أن ذلك بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، ولا صانع ولا مدبر، بل الأشياء تتكون من ذاتها بلا مدبر، وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال!

محاولة المفضل مع ابن أبي العوجاء

قال المفضل: فلم أملك نفسي غضباً وغيظاً وحنقاً، فقلت: يا عدو الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري جل قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم، وصورك في أتم صورة، ونقلك في أحوالك حتى بلغ إلى حيث انتهيت.

فلو تفكرت في نفسك وصدقك^(٢) لطيف حسك، لوجدت دلائل

(١) الناموس: الشريعة.

(٢) صدقك: أي قال لك صدقاً.

الرؤية وآثار الصنعة فيك قائمة، وشواهدة جل وتقدس في خلقك واضحة، وبراهينه لك لائحة، فقال: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلمناك، فإن ثبتت لك حجة تبعنناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا تخاطبنا، ولا بمثل دليلك تجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدى في جوابنا وإنه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتره خرق^(١)، ولا طيش ولا نزق^(٢) يسمع كلامنا، ويصفي إلينا ويتعرف حجتنا، حتى إذا استفرغنا^(٣) ما عندنا، وظننا أننا قطعناه، دحض حجتنا بكلام يسير، وخطاب قصير، يلزمنا به الحجة، ويقطع العذر، ولا نستطيع العذر، ولا نستطيع لجوابه رداً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه.

سبب إملاء الكتاب على المفضل

قال المفضل: فخرجت من المسجد محزوناً مفكراً فيما يلي به الإسلام وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها^(٤) فدخلت على مولاي عليه السلام فرأني منكسراً فقال: ما لك؟ فأخبرته بما سمعت من الدهريين^(٥) وبما رددت عليهما. فقال: يا مفضل لألقين عليك من حكمة الباري جل وعلا وتقدس اسمه في خلق العالم، والسباع، والبهائم، والطيور، والهوام، وكل ذي روح من النعات والنبات^(٦)، والشجرة المثمرة، وغير ذات الشمر

(١) الخرق: ضعف الرأي وسوء التصرف والحق.

(٢) النزق: هو الطيش والخفة عند الغضب.

(٣) لعله من الإفراغ بمعنى الصب. يقال: استفرغ مجهوده، أي بذل طاقته.

(٤) التعطيل: مصدر، وفي الاصطلاح الديني هو إنكار صفات الخالق الباري، والمعطلة: هم أصحاب مذهب التعطيل.

(٥) واحده الدهرين وهو الملحد الذي يزعم بأن العالم موجود أزلاً وأبداً.

(٦) العطف التشريكي هنا يكشف عن رأي الإمام الصادق في النبات وأن له روحاً، وبعبارة أخرى أن لديه حساً وحركة، ولم تكشف هذه النظرية العلمية إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وأول من قال بأن في النبات حساً تشله السموم وتميته الكهربائية هو «بيشا» العالم الفسيولوجي الفرنسي المتوفى عام ١٨٠٢ م.

والحبيب، والبقول، المأكول من ذلك وغير المأكول، ما يعتبر به
المعتبرون ويسكن إلى معرفته المؤمنون، ويتحير فيه الملحدون فبكر عليّ
غداً.

المجلس الأول

قال المفضل: فانصرفت من عنده فرحاً مسروراً، وطالت عليّ تلك
الليلة انتظاراً لما وعدني به، فلما أصبحت غدوت فاستؤذن لي فدخلت،
وقمت بين يديه، فأمرني بالجلوس فجلست، ثم نهض إلى حجرة كان يخلو
فيها، ونهضت بنهوضه، فقال: اتبعني، فتبعته، فدخل ودخلت خلفه،
فجلس وجلست بين يديه، فقال: يا مفضل كأنني بك وقد طالت عليك هذه
الليلة انتظاراً لما وعدتك، فقلت: أجل يا مولاي، فقال: يا مفضل إن الله
تعالى كان ولا شيء قبله، وهو باقي ولا نهاية له، فله الحمد على ما
ألهمنا، والشكر على ما منحنا، فقد خصنا من العلوم بأعلاها ومن المعالي
بأسناها، واصطفانا على جميع الخلق بعلمه، وجعلنا مهيمين^(١) عليهم
بحكمه، فقلت: يا مولاي أتأذن لي أن أكتب ما تشرحه - وكنت أعددت
معي ما أكتب فيه - فقال لي: افعل يا مفضل.

جهل الشكاك بأسباب الخلقة

إن الشكاك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة، وقصرت أفهامهم
عن تأمل الصواب، والحكمة فيما ذرأ^(٢) الباري جل قدسه، وبرأ^(٣) من
صنوف خلقه في البر، والبحر، والسهل، والوعر، فخرجوا بقصر علومهم
إلى الجحود، وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود، حتى أنكروا خلق

(١) جمع مهيم، وهو الأمين والمؤتمن والشاهد.

(٢) ذرأ الله الخلق: خلقهم.

(٣) برأه: خلقه من العدم.

الأشياء، وادعوا أن تكونها بالإهمال، لا صنعة فيها ولا تقدير ولا حكمة من مدبر، ولا صانع، تعالى الله عما يصفون، وقاتلهم الله أنى يؤفكون^(١) فهم في ضلالهم وغيهم وتجبرهم بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء وأحسنه، وفُرشت بأحسن الفرش وأفخره، وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب التي يحتاج إليها ولا يستغنى عنها، ووضع كل شيء من ذلك موضعه على صواب من التقدير، وحكمة من التدبير، فجعلوا يترددون فيها يميناً وشمالاً، ويطوفون بيوتها إداراً وإقبالاً، محجوبة أبصارهم عنها، لا يبصرون بنية الدار، وما أعد فيها وربما عثر بعضهم بالشئ الذي قد وضع موضعه، وأعد للحاجة إليه، وهو جاهل للمعنى فيه ولما أعد ولماذا جعل كذلك؟ فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها. فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلق وثبات الصنعة. فإنهم لما غربت^(٢) أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء، صاروا يجولون في هذا العالم حيارى، فلا يفهمون ما هو عليه من إتقان خلقته، وحسن صنعته، وصواب هيئته. وربما وقف بعضهم على الشئ يجهل سببه، والإرب^(٣) فيه، فيسرع على ذمه ووصفه بالإحالة والخطأ، كالذي أقدمت عليه المنانية الكفرة، وجاهرت به الملحدة المارقة الفجرة، وأشباههم من أهل الضلال المعلنين أنفسهم بالمحال^(٤) فيحق على من أنعم الله عليه بمعرفته، وهده لدينه، ووفقه لتأمل التدبير في صنعة الخلائق، والوقوف على ما خلقوا له من لطيف التدبير وصواب التقدير، بالدلالة القائمة الدالة على صانعها. أن يكثر حمد الله مولاه على ذلك ويرغب إليه في الثبات

(١) أي ينصرفون عن الحق.

(٢) أي غابت.

(٣) الإرب: بالفتح - المهارة أو الحاجة.

(٤) أي الشاغلين أنفسهم عن طاعة ربهم بأمور يحكم العقل السليم باستحالتها.

عليه والزيادة منه جل اسمه يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(١).

تهيئة العالم وتأليف أجزائه

يا مفضل أول العبر والدلالة على الباري جل قدسه، تهيئة هذا العالم، وتأليف أجزائه ونظمها، على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وخبرته بعقلك، وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسمااء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم مضيئة، كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء فيه لشأنه معد، والإنسان كالمالك ذلك البيت، والمخول جميع ما فيه. وضروب النبات مهياة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه. ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملاءمة، وأن الخالق له واحد، وهو الذي ألفه ونظمه بعضاً إلى بعض جل قدسه وتعالى جده وكرم وجهه ولا إله غيره تعالى عما يقول الجاحدون، وجل وعظم عما يتحمله الملحدون.

خلق الإنسان وتبوير الجنين في الرحم

نبأ يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعبر به... فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة^(٢)، حيث لا يحلة عنده في طلب غذاء، ولا دفع أذى. ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة، فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه، الماء والنبات، فلا يزال ذلك غذاؤه.

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.

(٢) المشيمة: غشاء ولد الإنسان يخرج معه عند الولادة، جمعه مشيم ومشاميم.

كيفية ولادة الجنين وغذائه وطلوع أسنانه وبلوغه

حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوي أديمه^(١) على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاته الضياء هاج الطلق بأمه فأزعجه أشد إزعاج وأعنفه حتى يولد. فإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها وانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء وهو أشد موافقة للمولود من الدم فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد قد تلمظ^(٢) وحرك شفثيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثدي أمه كالأدواتين^(٣) المعلقتين لحاجته فلا يزال يتغذى باللبن، ما دام رطب البدن رقيق الأمعاء لين الأعضاء. حتى إذا تحرك، واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه، طلعت له الطواحن^(٤) من الأسنان والأضراس ليمضغ^(٥) بها الطعام، فيلين عليه. ويسهل له إساعته، فلا يزال كذلك حتى يدرك، فإذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه، فكان ذلك علامة الذكر، وعز الرجل الذي يخرج به من جدة الصبا وشبه النساء. وإن كانت أنثى يبقى وجهها نقياً من الشعر، لتبقى لها البهجة، والنضارة التي تحرك الرجل لما فيه دوام النسل وبقاؤه.

اعتبر يا مفضل فيما يدبر به الإنسان في هذه الأحوال المختلفة، هل ترى مثله يمكن أن يكون بالإهمال؟ أفرأيت لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في الرحم، ألم يكن سيذوي ويجف كما يجف النبات إذا فقد الماء، ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن سيبقى في الرحم كالمؤود^(٦)

(١) الأديم: الجلد المدبوغ.

(٢) تلمظ: إذا أخرج لسانه فمسح به شفثيه.

(٣) الإداوة: بكسر ففتح - إنا صغير من جلد يتخذ للماء، جمعه أدوي.

(٤) الطواحن: الأضراس.

(٥) مضغ الطعام: لأكه بلسانه.

(٦) الواد: الدفن وهو حي.

في الأرض؟ ولو لم يوافق اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً أو يغتذي بغذاء لا يلائمه، ولا يصلح عليه بدنه، ولو لم تطلع له الأسنان في وقتها ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام وإساغته. أو يقيمه على الرضاع فلا يشتد بدنه ولا يصلح لعمل؟ ثم كان يشغل أمه بنفسه عن تربية غيره من الأولاد.

حال من لا ينبت في وجهه الشعر وعلة ذلك

ولو لم يخرج الشعر في وجهه في وقته ألم يكن سيبقى في هيئته الصبيان والنساء، فلا ترى له جلالة ولا وقاراً؟

قال المفضل فقلت له: يا مولاي فقد رأيت من يبقى على حالته ولا ينبت الشعر في وجهه وإن بلغ الكبر، فقال عليه السلام: ﴿ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لَّغَفِيرٍ﴾^(١) فمن هذا الذي يرصده^(٢) حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب إلا الذي أنشأه خلقاً، بعد أن لم يكن، ثم توكل له بمصلحته بعد أن كان، فإن كان الإهمال يأتي بمثل هذا التدبير، فقد يجب أن يكون العمد والتقدير يأتيان بالخطأ والمحال، لأنهما ضد الإهمال وهذا فظيع من القول وجهل من قائله. لأن الإهمال لا يأتي بالصواب والتضاد لا يأتي بالنظام تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً.

حال المولود لو ولد فهماً عاقلاً وتعليل ذلك

ولو كان المولود يولد فهماً^(٣) عاقلاً، لأنكر العالم عند ولادته ولبقي حيراناً تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، وورد عليه ما لم ير مثله من

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٢.

(٢) الفهم: السريع الفهم.

(٣) الفهم: السريع الفهم.

اختلاف صور العالم من البهائم والطير، إلى غير ذلك مما يشاهده ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم.

واعتبر ذلك بأن من سبي من بلد وهو عاقل، يكون كالواله الحيران فلا يسرع إلى تعلم الكلام، وقبول الأدب، كما يسرع الذي سبي صغيراً غير عاقل، ثم لو ولد عاقلاً كان يجد غضاضة^(١) إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً معصباً بالخرق مسجى^(٢) في المهد لأنه لا يستغني عن هذا كله. لركة بدنه ورطوبته حين يولد ثم كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد للطفل فصار يخرج إلى الدنيا غيباً غافلاً عما فيه أهله، فيلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة. ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً، وشيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، حتى يألف الأشياء، ويتمرن ويستمر عليها، فيخرج من حد التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرف، والاضطرار إلى المعاش بعقله وحيلته، وإلى الاعتبار والطاعة والسهو والغفلة والمعصية، وفي هذا أيضاً وجوه أخرى، فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أن يكون للوالدين في الاشتغال بالولد من المصلحة وما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبر، والعطف عليهم، عند حاجتهم إلى ذلك منهم ثم كان الأولاد لا يألّفون آباءهم ولا يألف الآباء أبناءهم، لأن الأولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم، فيتفرقون عنهم حين يولدون، فلا يعرف الرجل أباه وأمه، ولا يمتنع عن نكاح أمه وأخته، وذوات المحارم منه، إذا كان لا يعرفهن. وأقل ما في ذلك من القباحة، بل هو أشنع وأعظم وأفظع وأقبح وأبشع، لو خرج المولود من بطن أمه وهو يعقل، أن يرى منها ما لا يحل

(١) الغضاضة: هي الذلة والمنقصة.

(٢) التسجية: هي التغطية بثوب يمد على الجسم.

له، ولا يحسن به أن يراه، أفلا ترى كيف أقيم كل شيء من الخلقة على غاية الصواب؟ وخلا من الخطأ دقيقه وجليله.

منفعة الأطفال في البكاء

اعرف يا مفضل ما للأطفال في البكاء من المنفعة. واعلم أن في أدمغة الأطفال رطوبة، إن بقيت فيها أحدثت عليهم أحداثاً جليلة وعللاً عظيمة، من ذهاب البصر وغيره، والبكاء يسيل تلك الرطوبة من رؤوسهم فيعقبهم ذلك الصحة في أبدانهم والسلامة في أبصارهم. أفليس قد جاء أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء والداء لا يعرفان ذلك فهما دائبان^(١) ليسكتانه ويتوخيان^(٢) في الأمور مرضاته لئلا يبكي، وهما لا يعلمان أن البكاء أصلح له وأجمل عاقبة. فهكذا يجوز أن يكون في كثير من الأشياء منافع لا يعرفها القائلون بالإهمال ولو عرفوا ذلك لم يقضوا على الشيء أنه لا منفعة فيه، من أجل أنهم لا يعرفونه ولا يعلمون السبب فيه، فإن كل ما لا يعرفه المنكرون يعلمه العارفون وكثيراً ما يقصر عنه على المخلوقين محيط به علم الخالق جل قدسه وعلت كلمته.

فأما ما يسيل من أفواه الأطفال من الريق، ففي ذلك خروج الرطوبة التي لو بقيت في أبدانهم لأحدثت عليهم الأمور العظيمة، كمن تراه قد غلبت عليه الرطوبة، فأخرجته إلى حد البله والجنون والتخليط إلى غير ذلك من الأمراض المتلفة كالفالج^(٣)... واللقوة^(٤) وما أشبههما، فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من أفواههم في صغرهم، لما لهم في ذلك من

(١) الدأب: الجد والتعب.

(٢) التوخي: التحري والقصد.

(٣) الفالج: داء يحدث في أحد شقي البدني، فيبطل إحساسه وحركته.

(٤) اللقوة: - بفتح فسكون - داء يصيب الوجه، يعرج منه الشدق إلى أحد جانبي العنق، جمعه لقاء وإلقاء.

الصحة في كبرهم، فتفضل على خلقه بما جهلوه ونظر بما لم يعرفوه، ولو عرفوا نعمه عليهم لشغلهم ذلك من التماذي في معصيته، فسبحانه ما أجل نعمته وأسبغها على المستحقين وغيرهم من خلقه، تعالى عما يقول المبطلون علواً كبيراً.

آلاف الجماع وهيئتها

انظر الآن يا مفضل كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعاً على ما يشاكل ذلك عليه، فجعل للذكر آلة ناشرة تمتد حتى تصل النطفة إلى الرحم، إذ كان محتاجاً إلى أن يقذف ماءه في غيره، وخلق للأنثى وعاءً قعرًا^(١) ليشتمل على المائين جميعاً. ويحتمل الولد ويتسع له ويصونه حتى يستحكم، أليس ذلك من تدبير حكيم لطيف سبحانه وتعالى عما يشركون؟!.

أعضاء البدن وفوائد كل منها

فكر يا مفضل في أعضاء البدن أجمع، وتدبير كل منها للأرب فاليدان للعلاج، والرجلان للسعي، والعينان للاهتمام، والفم للاغتذاء والمعدة للهضم، والكبد للتخليص، والمنافذ^(٢) لتنفيذ الفضول، والأوعية لحملها، والفرج لإقامة النسل، وكذلك جميع الأعضاء، إذا ما تأملتها وأعملت فكرك فيها ونظرك، وجدت كل شيء منها قد قدر لشيء على صواب وحكمة.

زعم الطبيعيين وجوابه

قال المفضل فقلت: يا مولاي إن قوماً يزعمون أن هذا من فعل

(١) القعر من كل شيء: عمقه ونهاية أسفله.

(٢) المنافذ هنا بمعنى النوافذ من الإنسان، أي كل سم أو خرق فيه كالفهم والأنف، والظاهر أن المراد بها هنا محل خروج البول والغائط.

الطبيعة، فقال عليه السلام: سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال، أم ليست كذلك؟؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة فما يمنهم من إثبات الخالق، فإن هذه صنعة!!^(١)، وإن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد، وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم، فإن الذي سموه طبيعة هو سته في خلقه، الجارية على ما أجزاها عليه.

عملية الهضم وتكون الدم وجريانه في الشرايين والأوردة

فكر يا مفضل في وصول الغذاء إلى البدن، وما فيه من التدبير، فإن الطعام يصير إلى المعدة فتطبخه، وتبعث بصفوه إلى الكبد، في عروق دقاق واشجة^(٢) بينهما، وقد جعلت كالمصفاى للغذاء، لكيلا يصل على الكبد منه شيء فينكأها^(٣) وذلك أن الكبد رقيقة لا تحتمل العنف، ثم أن الكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دماً، وينفذه إلى البدن كله في مجاري مهينة لذلك، بمنزلة المجاري التي تهياً للماء ليترد في الأرض وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول إلى مفاوض^(٤) قد أعدت لذلك فما كان منه من جنس المرة^(٥) الصفراء جرى إلى المرارة وما كان من جنس السوداء جرى إلى الطحال، وما كان من البلة والرطوبة جرى إلى المثانة^(٦).

فتأمل حكمة التدبير في تركيب البدن، ووضع هذه الأعضاء منه

(١) لعل المراد أنهم إذا قالوا بذلك فقد أثبتوا الصانع، فلم يسمونه بالطبيعة، وهي ليست بذات علم ولا إرادة ولا قدرة؟

(٢) الواشجة: مؤنث الواشح اسم فاعل بمعنى المشتبك، والمراد بالواشجة هنا الموصلة أو الواصلة.

(٣) نكأ القرحة قشرها قبل أن تبرأ فتدبت.

(٤) المفاوض: المجاري، مأخوذة من فاض الماء.

(٥) المرة: بكسر ففتح - خلط من أخلاط البدن وهو الصفراء أو السوداء، جمعه مرار.

(٦) في كلام الإمام عليه السلام هنا معانٍ صريحة عن الدورة الدموية - التي اكتشفها العالم الإنكليزي وليم هارفي (١٥٧٨ - ١٧٥٦).

مواضعها، وإعداد هذه الأوعية فيه، لتحمل تلك الفضول، لثلاثا تنتشر في البدن فتسقمه وتنهكه، فتبارك من أحسن التقدير، وأحكم التدبير، وله الحمد كما هو أهله ومستحقه.

أول نشوء الأبدان: تصوير الجنين في الرحم

قال المفضل فقلت: صف نشوء الأبدان ونموها حالاً بعد حال حتى تبلغ التمام والكمال، قال عليه السلام: أول ذلك تصوير الجنين في الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد، ويدبره حتى يخرج سوياً مستوفياً جميع ما فيه قوامه وصلاحه من الأحشاء والجوارح والعوامل، إلى ما في تركيب أعضائه من العظام، واللحم، والشحم، والعصب، إلخ، والعروق والغضاريف^(١). فإذا خرج إلى العالم تراه كيف ينمو بجميع أعضائه وهو ثابت على شكل وهيئة لا تتزايد ولا تنقص إلى أن يبلغ أشده إن مد في عمره أو يستوفي مدته قبل ذلك، هل هذا إلا من لطيف التدبير والحكمة.

اختصاص الإنسان بالانتصاب والجلوس دون البهائم

انظر يا مفضل ما خص به الإنسان في خلقه تشرفاً، وتفضلاً على البهائم، فإنه خلق ينتصب قائماً، ويستوي جالساً، ليستقبل الأشياء بيديه وجوارحه، ويمكنه العلاج والعمل بهما فلو كان مكبواً على وجهه كذوات الأربع، لما استطاع أن يعمل شيئاً من الأعمال.

تخصيص الإنسان بالحواس وتشربها دون غيره

انظر الآن يا مفضل إلى هذه الحواس التي خص بها الإنسان في خلقه وشرف بها على غيره، كيف جعلت العينان في الرأس، كالمصايح

(١) الغضاريف: جمع غضروف وهو كل عظم رخص لين.

فوق المنارة؟ ليمكن من مطالعة الأشياء، ولم تجعل في الأعضاء التي تحتها، كاليد والرجل، فتعرضها الآفات ويصيبها من مباشرة العمل والحركة، ما يعللها ويؤثر فيها وينقص منها، ولا في الأعضاء التي وسط البدن، كالبطن، والظهر، فيعسر قلبها، وإطلاعها نحو الأشياء.

الحواس الخمس وأعمالها وما في ذلك من الأسرار

فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع، كان الرأس أسنى المواضع للحواس، وهو بمنزلة الصومعة لها. فجعل الحواس خمساً تلقي خمساً لكي لا يفوتها شيء من المحسوسات. فخلق البصر ليدرك الألوان فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها، لم تكن فيها منفعة. وخلق السمع ليدرك الأصوات، فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها، لم يكن فيها إرب، وكذلك سائر الحواس، ثم هذا يرجع متكافياً، فلو كان بصر ولم تكن الألوان، لما كان للبصر معنى، ولو كان سمع ولم تكن أصوات، لم يكن للسمع موضع.

تقدير الحواس بعضها يلقي بعضاً

فانظر كيف قدر بعضها يلقي بعضاً، فجعل لكل حاسة محسوساً يعمل فيه. ولكل محسوس حاسة تدركه، ومع هذا فقد جعلت أشياء متوسطة بين الحواس والمحسوسات، لا تتم الحواس إلا بها، كمثل الضياء والهواء، فإنه لو لم يكن ضياء يظهر اللون للبصر، لم يكن البصر يدرك اللون، ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع، لم يكن السمع يدرك الصوت. فهل يخفى عليه من صح نظره وأعمل فكره، أن مثل هذا الذي وصفت من تهيئة الحواس والمحسوسات بعضها يلقي بعضاً، وتهيئة أشياء أخر بها تتم الحواس، لا يكون إلا بعمل وتقدير من لطيف خبير.

فيمن عدم البصر والسمع والعقل وما في ذلك من الموعظة

فكر يا مفضل فيمن عدم البصر من الناس . وما يناله من الخلل في أموره، فإنه لا يعرف موضع قدميه، ولا يبصر ما بين يديه، فلا يفرق بين الألوان، وبين المنظر الحسن والقبيح، ولا يرى حفرة إن هجم عليها ولا عدواً إن أهوى إليه بسيف، ولا يكون له سبيل إلى أن يعمل شيئاً من هذه الصناعات مثل الكتابة والتجارة والصياغة . حتى أنه لولا نفاذ ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقى .

وكذلك من عدم السمع، يختل في أمور كثيرة، فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاوره، ويعدم لذة الأصوات واللحون المشجية والمطربة، وتعظم المؤنة على الناس في محاورته . حتى يتبرموا به، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم، حتى يكون كالغائب وهو شاهد، أو كالمت وهو حي .

فأما من عدم العقل، فإنه يلحق بمنزلة البهائم، بل يجهل كثيراً مما تهتدي إليه البهائم، أفلا ترى كيف صارت الجوارح والعقل، وسائر الخلل التي بها صلاح الإنسان، والتي لو فقد منها شيئاً لعظم ما يناله في ذلك من الخلل، يوافي خلقه على التمام حتى لا يفقد شيئاً منها، فلم كان كذلك؟ إلا أنه خلق بعلم وتقدير .

قال المفضل: فقلت: فلم صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح فيناله من ذلك مثل ما وصفته يا مولاي؟ قال عليه السلام: ذلك للتأديب والموعظة لمن يحل ذلك به ولغيره بسببه كما يؤدب الملوك الناس للتنكيل والموعظة، فلا ينكر ذلك عليهم، بل يحمد من رأيهم، ويتصوب من تدبيرهم . ثم إن للذين تنزل بهم هذه البلايا من الثواب بعد الموت - إن شكروا وأنابوا - ما يستصغرون معه ما ينالهم منها، حتى أنهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا أن يردوا إلى البلايا ليزدادوا من الثواب .

الأعضاء المخلوقة أفراداً وأزواجاً وكيفية ذلك

فكر يا مفضل في الأعضاء التي خلقت أفراداً وأزواجاً، وما في ذلك من الحكمة والتقدير، والصواب في التدبير.

فالرأس مما خلق فرداً، ولم يكن للإنسان صلاح في أن يكون له أكثر من واحد. ألا ترى أنه لو أضيف على رأس الإنسان رأس آخر لكان ثقلًا عليه، من غير حاجة إليه، لأن الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد. ثم كان الإنسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان، فإن تكلم من أحدهما كان الآخر معطلاً لا إرب فيه ولا حاجة إليه، وإن تكلم منهما جميعاً بكلام واحد كان أحدهما فضلاً لا يحتاج إليه، وإن تكلم بأحدهما بغير الذي تكلم به من الآخر، لم يدر السامع بأي ذلك يأخذ وأشباه هذا من الأخلاط.

والبدان مما خلق أزواجاً، ولم يكن للإنسان خير في أن يكون له يد واحدة لأن ذلك كان يخل به^(١) فيما يحتاج على معالجته من الأشياء ألا ترى أن النجار والبناء لو شلت إحدى يديه لا يستطيع أن يعالج صناعته، وإن تكلف ذلك لم يحكمه، ولم يبلغ منه ما يبلغه إذا كانت يدها تتعاونان على العمل.

الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الإنسان وعمل كل منها

أطل الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الإنسان فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت، واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغم، ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم السين، ومن سقطت شفته لم يصحح الفاء، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء، وأشبه شيء بذلك

(١) يقال: أخل بالشيء إذا قصر فيه.

المزمار الأعظم، فالحنجرة تشبه قصبة المزمار، والرئة تشبه الزق^(١) الذي ينفخ فيه لتدخل الريح، والعضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت كالأصابع التي تقبض على الزق حتى تجري الريح في المزمار والشفستان والأسنان التي تصوغ الصوت حروفاً ونغمات كالأصابع التي تختلف في فم المزمار فتصوغ صفيره ألحاناً غير أنه وإن كان مخرج الصوت يشبه المزمار بالآلة والتعريف فإن المزمار - في الحقيقة - هو المشبه بمخرج الصوت.

ما في الأعضاء من المآرب الأخرى

قد أنباتك بما في الأعضاء من الغناء في صنعة الكلام وإقامة الحروف وفيها مع الذي ذكرت لك مآرب أخرى. فالحنجرة ليسلك فيها هذا النسيم إلى الرئة، فتروح على الفؤاد بالنفَس الدائم المتتابع الذي لو حبس شيئاً يسيراً لهلك الإنسان، وباللسان تذاق الطعوم، فيميز بينها، ويعرف كل واحد منها حلوها من مرها وحامضها من مرها ومالحها من عذبتها وطيبها من خبيثها، وفيه مع ذلك معونة على إساعة الطعام والشراب والإنسان لمضغ الطعام حتى يلين وتسهل إساغته، وهي مع ذلك كالسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما من داخل الفم واعتبر ذلك فإنك ترى من سقطت أسنانه مسترخي الشفة ومضطربها، وبالشفتين يترشف^(٢) الشراب، حتى يكون الذي يصل إلى الجوف منه بقصد وقدر، لا يشج^(٣) ثجاً، فيغص به الشارب، أو ينكأ^(٤) في الجوف، ثم همى^(٥) بعد ذلك كالباب المطبق على الفم يفتحها الإنسان إذا شاء ويطبقها إذا شاء. وفيما وصفنا من هذا البيان.

(١) المراد بالزق هنا الجلد الذي يستعمل في المزمار.

(٢) ترشف الشراب أي بالغ في معه.

(٣) شج يشج ثجاً: أساله.

(٤) لعله أراد أنه يقع في غير ما حاجة.

(٥) همى الماء سال لا يتنهي شيء.

إن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف، وينقسم إلى وجوه من المنافع كما تتصرف الأداة الواحدة في أعمال شتى، وذلك كالفأس تستعمل في النجارة والحفر وغيرهما من الأعمال.

الدماغ وأغشيته والجمجمة وفائدتها

ولو رأيت الدماغ إذا كشف عنه لرأيت أنه قد لُف بحجب بعضها فوق بعض لتصونه من الأعراض، وتمسكه فلا يضطرب. ولرأيت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة، كيما تقيه هذه الصدمة، والصكة التي ربما وقعت في الرأس ثم قد جللت الجمجمة بالشعر، حتى صارت بمنزلة الفرو للرأس يستره من شدة الحر والبرد، فمن حصن الدماغ هذا التحصين، إلا الذي خلقه وجعله ينبوع الحس، والمستحق للحبطة والصيانة، بعلو منزلته من البدن، وارتفاع درجته، وخطير مرتبته.

الجفن وأشفاره

تأمل يا مفضل: الجفن على الحين كيف جعل كالغشاء والأشعار^(١) كالأشراح^(٢) وأولجها^(٣) في هذا الغار، وأظلمها بالحجاب. وما عليه من الشعر.

الفؤاد ومدرعته

يا مفضل: من غيب الفؤاد في جوف الصدر، وكساه المدرعة^(٤) التي

(١) الأشعار جمع شعر وهو أصل منبت الشعر في الجفن.

(٢) الأشراح: العرى.

(٣) أولجها: أدخلها.

(٤) كان المراد بالمدرعة هنا ثوب الحديد فالمدرعة في الأصل جبة مشقوقة المقدم أو كما عند اليهود ثوب من كتان يلبسه عظيم أجبارهم ولكن الذي يريده الإمام من حد قولهم درع، إذ لبس درع الحديد.

غشاؤه، وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب، لئلا يصل إليه ما ينكأه^(١).

الحلق والمريء

من جعل في الحلق منفذين أحدهما لمخرج الصوت وهو الحلقوم المتصل بالرئة، والآخر منفذاً للغذاء، وهو المريء^(٢) المتصل بالمعدة الموصل للغذاء إليها، وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل إلى الرئة فيقتل.

الرئة وعملها... أشراج منافذ البول والغائط

من جعل الرئة مروحة الفؤاد لا تفتت ولا تختل لكيلا تتحير^(٣) الحرارة في الفؤاد، فتؤدي إلى التلف؟ من جعل لمنافذ البول والغائط أشراجاً^(٤). تضبطهما، لئلا يجريا جرياناً دائماً، فيفسد على الإنسان عيشه فكم عسى أن يحصى المحصي من هذا، بل الذي لا يحصى منه ولا يعملها الناس أكثر.

المعدة عصبانية والكبد

من جعل المعدة عصبانية شديدة وقدرها لهضم الطعام الغليظ؟ ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة لقبول الصفو^(٥) اللطيف من الغذاء، ولتهضم وتعم

(١) نكأ: جرحه وآذاه.

(٢) المريء: هو العرق الذي يتلى ويدبر باللين جمعه مرايا، وقد أبان الإمام وظيفة المريء وعمله بتعبير لطيف.

(٣) تحيرت الحرارة: ترددت كأنها لا تدري كيف تجري فتجمعت وفي نسخة تحيز وليس لهام عنى مستقيم.

(٤) الأشراج جمع شرج وهو في الأصل الشقاق في القوس، وقد استعار الإمام منها معنى لمنافذ البول والغائط.

(٥) الصفو من كل شيء: خالصه وخياره.

ما هو أطف من عمل المعدة إلا الله القادر؟ أترى الإهمال يأتي بشيء من ذلك؟ كلا! بل هو تدبير مدبر حكيم قادر، عليم بالأشياء قبل خلقه إياها، لا يعجزه شيء وهو اللطيف الخبير.

المخ الدم والأظفار والأذن ولحم الإليتين والفخذين

فكر يا مفضل لم صار المخ الرقيق محصناً في أنابيب العظام؟ وهل ذلك إلا ليحفظه ويصونه؟ لم صار الدم السائل محصوراً في العروق بمنزلة الماء في الظروف^(١). إلا لتضبطه فلا يفيض؟. لم صارت الأظفار على أطراف الأصابع إلا وقاية لها ومعونة على العمل؟ لم صار داخل الأذن ملتوياً كهياة اللولب^(٢) إلا ليترد فيه الصوت، حتى ينتهي إلى السمع، وليكسر حمة الريح، فلا ينكأ في السمع؟ لم حمل الإنسان على فخذه وإليته هذا اللحم، إلا ليقيه من الأرض، فلا يتألم من الجلوس عليها، كما يألم من نحل جسمه وقل لحمه، إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل يقيه صلابتها.

الإنسان ذكر وأنثى وتناسله وآلاف العمل وحاجته وحيلته وإلزامه بالحجة

من جعل الإنسان ذكراً وأنثى إلا من خلقه متناسلاً؟ ومن خلقه متناسلاً إلا من خلقه مؤملاً؟ ومن أعطاه آلات العمل إلا من خلقه عاملاً؟ ومن خلقه عاملاً إلا من جعله محتاجاً؟ ومن جعله محتاجاً إلا من ضربه بالحاجة^(٣)؟. ومن ضربه بالحاجة إلا من توكل بتقويمه^(٤)؟ ومن خصه

(١) الظروف جمع ظرف وهو كل ما يستقر فيه غيره ويقلب استعماله للقرية والسقاء.

(٢) اللولب: آلة من خشب أو حديد ذات محور ذي دوائر ناتئة وهو الذكر أو داخله وهو الأنثى جمعه لولب.

(٣) أي سبب له أسباب الاحتياج أو خلقه بحيث يحتاج.

(٤) أي تكفل برفع حاجته وتقويم أوده.

بالفهم إلا من أوجب الجزاء؟ ومن وهب له الحيلة إلا من ملكه الحول^(١) ومن ملكه الحول إلا من ألزمه الحجة؟ ومن يكفيه ما لا تبلغه حيلته إلا من لم يبلغ مدى شكره.

فكر وتدبر ما وصفته. هل تجد الإهمال يأتي على مثل هذا النظام والترتيب تبارك الله تعالى عما يصفون.

الفؤاد وثقبه المتصلة بالرئة

أصف لك الآن يا مفضل الفؤاد... اعلم أن فيه ثقباً موجهة نحو الثقب التي في الرئة تروح عن الفؤاد، حتى لو اختلفت تلك الثقب وتزابل بعضها عن بعض، لما وصل الروح إلى الفؤاد، ولهلك الإنسان أفستجيز ذو فكرة وروية أن يزعم أن مثل هذا يكون بالإهمال، ولا يجد شاهداً من نفسه يزعه^(٢) عن هذا القول؟ لو رأيت فرداً من مصراعين فيه كلوب^(٣) أكنت تتوهم أنه جعل كذلك بلا معنى؟ بل كنت تعلم ضرورة أنه مصنوع يلقي فرداً آخر، فيبرزه ليكون في اجتماعهما ضرب من المصلحة. وهكذا تجد الذكر من الحيوان، كأنه فرد من زوج مهياً من فرد أنثى، فيلتقيان لما فيه من دوام النسل وبقائه، فتباً^(٤) وخيبة وتعساً لمنتحلي الفلسفة كيف عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى أنكروا التدبير والعمد فيها؟.

فرج الرجل والحكمة فيه

لو كان فرج الرجل مسترخياً، كيف كان يصل إلى قعر الرحم، حتى

(١) الحول مصدر بمعنى القدرة والقوة على التصرف وجودة النظر والحدق.

(٢) يزعه: يكفه ويمنعه.

(٣) الكلوب - بفتح الأول - وتشديد الثاني - المهاز أو حديدة معطوفة الرأس يجربها الجمر أو خشبة في رأسها عقافة منها أو من حديد والجمع كلاليب.

(٤) التّب: الهلاك والخسران.

يفرغ النطفة فيه؟ ولو كان منعصاً^(١) أبداً كيف كان الرجل يتقلب في الفراش، أو يمشي بين الناس وشيء شاخص أمامه، ثم يكون في ذلك مع قبح المنظر. تحريك الشهوة في كل وقت من الرجال والنساء جميعاً، فقدّر الله جل اسمه أن يكون أكثر ذلك لا يبدو للبصر في كل وقت، ولا يكون على الرجال منه مؤنة، بل جعل فيه قوة الانتصاب وقت الحاجة إلى ذلك، لما قدر أن يكون فيه من دوام النسل وبقائه.

منفذ الغائط ووصفه

اعتبر الآن يا مفضل بعظم النعمة على الإنسان في مطعمه ومشربه وتسهيل خروج الأذى. ليس من حسن التقدير في بناء الدار أن يكون الخلاء في أستر موضع منها، فكذا جعل الله سبحانه المنفذ المهيأ للخلاء من الإنسان في أستر موضع منه، فلم يجعله بارزاً من خلفه، ولا ناشزاً من يديه، بل هو منيب في موضع غامض من البدن، مستور محجوب، يلتقي عليه الفخذان، وتحجبه الإليتان عليهما من اللحم فتواريانه، فإذا احتاج الإنسان إلى الخلاء، وجلس تلك الجلسة ألقى ذلك من المنفذ منه منصباً، مهياً لانحدار الثفل^(٢). فتبارك من تظاهرت آلاؤه ولا تحصى نعمائوه.

الطواحن من أسنان الإنسان

فكر يا مفضل في هذه الطواحن، التي جعلت للإنسان، فبعضها حداد^(٣) لقطع الطعام وقرضه، وبعضها عراض^(٤) لمضغه ورضه، فلم ينقص واحد من الصفتين، إذ كان محتاجاً إليهما جميعاً.

(١) المنعص كأنه مأخوذ من العض وهو القرن يريد أنه صلب شديد.

(٢) الثفل - بالضم - ما يستقر في أسفل الشيء من كدرة.

(٣) حداد أي قاطعة.

(٤) عراض جمع عريض ضد طويل.

الشعر والأظفار وفائدة قصهما

تأمل واعتبر بحسن التدبير في خلق الشعر والأظفار، فإنهما لما كانا مما يطول ويكثر، حتى يحتاج إلى تخفيفه أولاً فأولاً، جعلاً عديماً الحس، لئلا يؤلم الإنسان الأخذ منهما. ولو كان قص الشعر وتقليم الأظفار مما يوجد له ألم، وقع من ذلك بين مكروهين، إما أن يدع كل واحد منهما حتى يطول فيثقل عليه. وأما أن يخففه بوجع وألم يتألم منه.

قال المفضل فقلت: فلم لم يجعل ذلك خلقة لا تزيد فيحتاج الإنسان إلى النقصان منه، فقال عليه السلام: إن لله تبارك اسمه في ذلك على العبد نعماً لا يعرفها، فيحمده عليها. . اعلم أن آلام البدن وأدواءه^(١) تخرج بخروج الشعر في مسامه^(٢) وبخروج الأظفار من أناملها، ولذلك أمر الإنسان بالنورة، وخلق الرأس، وقص الأظفار، في كل أسبوع ليسرع الشعر والأظفار في النبات، فتخرج الآلام والأدواء بخروجهما. . وإذا طالا تحيراً، وقل خروجهما، فاحتبست الآلام والأدواء في البدن فأحدثت عللاً وأوجاعاً، ومنع - مع ذلك - الشعر من المواضع التي تضر بالإنسان، وتحدث عليه الفساد والضرر لو نبت الشعر في العين، ألم يكن سيعمي البصر؟ ولو نبت في الفم، ألم يكن سينغص على الإنسان طعامه وشرابه؟ ولو نبت في باطن الكفن ألم يكن سيعوقه عن صحة اللمس وبعض الأعمال؟ ولو نبت في فرج المرأة وعلى ذكر الرجل، ألم يكن سيفسد عليهما لذة الجماع؟ . . . فانظر كيف تنكب^(٣) الشعر عن هذه المواضع، لما في ذلك من المصلحة، ثم ليس هذا في الإنسان فقط، بل تجده في البهائم

(١) الدواء جمع داء وهو المرض والعلّة.

(٢) المسام من الجلد ثقبه ومنافذه كمنابت الشعر.

(٣) تنكب عليه: عدل عنه وتجنبه.

والسباع وسائر المتناسلات، فإنك ترى أجسامها مجللة بالشعر وترى هذه المواضع خالية منه لهذا السبب بعينه. فتأمل الخلقة كيف تتحرز^(١) وجوه الخطأ والمضرة، وتأتي بالصواب والمنفعة.

شعر الركب والإبطين

إن المنانية^(٢) وأشباههم، حين أجهدوا في عيب الخلقة والعمد عابوا الشعر النابت على الركب والإبطين، ولم يعلموا أن ذلك من رطوبة تنصب إلى هذه المواضع، فنبت فيها الشعر كما ينبت العشب في مستنقع المياه أفلا ترى إلى هذه المواضع أستر وأهياً لقبول تلك الفضلة من غيرها؟... ثم إن هذه تعد مما يحمل الإنسان من مؤنة هذا البدن وتكاليفه، لما له في ذلك من المصلحة، فإن اهتمامه بتنظيف بدنه. وأخذ ما يعلوه من الشعر، مما يكسر به شيرته^(٣) ويكف عاديته^(٤) ويشغله عن بعض ما يخرج به إليه الفراغ من الأشر^(٥) والبطالة.

الريق وما فيه من المنفعة

تأمل الريق وما فيه من المنفعة، فإنه جعل يجري جرياناً دائماً إلى الفم، ليبل الحق واللّهوات^(٦) فلا يجف، فإن هذه المواضيع لو جعلت كذلك، كان فيه هلاك الأسنان ثم كان لا يستطيع أن يسبح^(٧) طعاماً، إذا لم يكن في الفم بلة تنفذه، تشهد بذلك المشاهدة، واعلم أن الرطوبة مطية

(١) احترز منه وتحرز أي تحفظه وتوقاه كأنه جعل نفسه في حرز منه.

(٢) المنانية هي المانوية.

(٣) الشرة - بكسر فتشديد الحدة والنشاط أو الشر.

(٤) العادية: الحدة والغضب أو الشغل أو الظلم والشر.

(٥) الأشر - بفتحين - البطر وشدة.

(٦) اللّهوات جمع لهاء وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.

(٧) سهل مطعمه.

الغذاء وقد تجري من هذه البلة إلى مواضع آخر من المرة فيكون في ذلك صلاح تام للإنسان، ولو ييسر المرة لهلك الإنسان.

محاذير كون بطن الإنسان كهيئة القباء

ولقد قال قوم من جهلة المتكلمين وضعفة المتفلسفين بقلة التمييز وقصور العلم: لو كان بطن الإنسان كهيئة القباء^(١) يفتحها الطبيب إذا شاء فيعائنه ما فيه، ويدخل يده فيعالج ما أراد علاجه ألم يكن أصلح من أن يكون مُصمتاً^(٢) محجوباً عن البصر واليد، لا يعرف ما فيه إلا بدلالات غامضة، كمطل النظر إلى البول، وجس العرق، وما أشبه ذلك مما يكثر فيه الغلط والشبهة، حتى ربما كان ذلك سبباً للموت، فلو علم هؤلاء الجهلة أن هذا لو كان هكذا، كان أول ما فيه أن كان يسقط عن الإنسان الوجل من الأمراض والموت وكان يستشعر البقاء ويفتر بالسلامة فيخرجه ذلك إلى العتو^(٣) والأشر. ثم كانت الرطوبات التي في البطن تترشح وتتحلب^(٤) فيفسد على الإنسان مقعده ومرقده وثيابه بدلته وزينته، بل كان يفسد عليه عيشه، ثم أن المعدة والكبد والفؤاد إنما تفعل أفعالها بالحرارة الغريزية التي جعلها الله محتبسة في الجوف، فلو كان في البطن فرج ينفث حتى يصل البصر إلى رؤيته، واليد إلى علاجه، لوصل برد الهواء إلى الجوف، فمازج الحرارة الغريزية، وبطل عمل الأحشاء، فكان في ذلك هلاك الإنسان، أفلا ترى أن كل ما تذهب إليه الأوهام - سوى ما جاءت به الخلقه - خطأ وخطل^(٥).

(١) القباء - بالفتح - ثوب يلبس فوق الثياب جمعه أقبية.

(٢) مصمت اسم مفعول الذي لا جوف له.

(٣) العتو: الاستكبار وتجاوز الحد.

(٤) ترشح وتحلب بمعنى واحد وهو السيلان.

(٥) الخطل: المنطق الفاسد المضطرب.

أفعال الإنسان في الطعم والنوم والجماع وشرح ذلك

فكر يا مفضل في الأفعال التي جعلت في الإنسان من الطعم والنوم والجماع وما دبر فيها... فإنه جعل لكل واحد منها في الطباع نفسه محرك يقتضيه ويستحث به، فالجوع يقتضي الطعم الذي فيه راحة البدن وقوامه والكرى^(١) يقتضي النوم الذي فيه راحة البدن وإجمام^(٢) قواه، والشيق^(٣) يقتضي الجماع الذي فيه دوام النسل وبقاؤه... ولو كان الإنسان إنما يصير إلى أكل الطعام، لمعرفة به حاجة بدنه إليه، ولم يجد من طباعه شيئاً يضطره إلى ذلك، كان خليقاً أن يتوانى^(٤) عنه أحياناً بالثقل والكسل، حتى ينتهي بدنه فيهلك، كما يحتاج الواحد إلى الدواء لشيء مما يصلح به بدنه فيدافع به حتى يؤديه ذلك إلى المرض والموت، وكذلك لو كان إنما يصير إلى النوم بالفكر في حاجته إلى راحة البدن وإجمام قواه كان عسى أن يتأقل عن ذلك، فيدفعه حتى ينهك بدنه. ولو كان إنما يتحرك للجماع بالرغبة في الولد كان غير بعيد أن يفتر عنه، حتى يقل النسل أو ينقطع فإن من الناس من لا يرغب في الولد، ولا يحفل به.

فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التي بها قوام الإنسان وصلاحه، محركاً من نفس الطبع يحركه لذلك، ويحدوه عليه.

واعلم أن في الإنسان قوى أربعاً قوة جاذبة تقبل الغذاء وتورده على المعدة. وقوة ماسكة تحبس الطعام، حتى تفعل فيه الطبيعة فعلها، وقوة هاضمة، وهي التي تطبخه، وتستخرج صفوه، وتبثه في البدن، وقوة دافعة تدفعه وتحذر الثقل^(٥) الفاضل، بعد أخذ الهاضمة حاجتها... ففكر في

(١) الكرى: النعاس.

(٢) الإجمام من الجمام وهو الراحة.

(٣) الشيق بفتحين شدة الشهوة.

(٤) يتوانى: يقصر.

(٥) الثقل هو ما يستقر في أسفل الشيء من كثرة.

تقدير هذه القوى الأربع التي في البدن وأفعالها وتقديرها للحاجة إليها والإرب فيها، وما في ذلك من التدبير والحكمة، فلولا الجاذبة كيف كان يتحرك الإنسان لطلب الغذاء الذي به قوام البدن؟ ولولا الماسكة كيف كان يلبث الطعام في الجوف حتى تهضمه المعدة؟ ولولا الهاضمة كيف كان ينطبخ^(١) حتى يخلص منه الصفو الذي يغذو البدن ويسد خلله^(٢) ولولا الدافعة كيف كان الثفل الذي تخلفه الهاضمة يندفع ويخرج أولاً فاولاً؟ أفلا ترى كيف وكل الله سبحانه - بلطف صنعه وحسن تقديره - هذه القوى بالبدن، والقيام بما فيه صلاحه... وسأمثل لك في ذلك مثلاً: أن ذلك بمنزلة دار الملك، له فيها حشم^(٣) وصبية وقوام^(٤) موكلون بالدار، فواحد لقضاء حوائج الحشم وإيرادها^(٥) عليهم، وآخر لقبض ما يرد وخزنهن إلى أن يعالج ويهيأ، وآخر لعلاج ذلك وتهيته وتفريقه، وآخر لتنظيف ما في الدار من الأقدار وإخراجه منها، فالملك في هذا هو الخلاق الحكيم ملك العالمين، والدار هي البدن، والحشم هم الأعضاء، والقوام هم هذه القوى الأربع. ولعلك ترى ذكرنا هذه القوى الأربع وأفعالها - بعد الذي وصفت - فضلاً وتزداداً وليس ما ذكرته من هذه القوى على الجهة التي ذكرت في كتب الأطباء ولا قولنا فيه كقولهم، لأنهم ذكروها على ما يحتاج إليه في صناعة الطب وتصحيح الأبدان، وذكرناها على ما يحتاج في صلاح الدين وشفاء النفوس من الغي^(٦) كالذي أوضحته بالوصف الشافي والمثل المضروب من التدبير والحكمة فيها.

(١) انطبخ أي أنضج.

(٢) الخلل جمع خلّة - بالفتح - وهي القبة.

(٣) الحشم: الخدم والعيال أو من يفيضون له أو يفيض لهم من أهل وعبيد وجيرة.

(٤) لعل القوام جمع قيم إذ القيم على الأمر هو المتولي عليه.

(٥) أورده لإيراد أي أحضره المورد.

(٦) الغي: الضلال والهلاك والخيبة.

قوى النفس وموقعها من الإنسان

تأمل يا مفضل هذه القوى التي في النفس، وموقعها من الإنسان، أعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك، أفرأيت لو نقص الإنسان من هذه الخلال^(١) الحفظ وحده، كيف كانت تكون حاله، وكم من خلل كان يدخل عليه في أموره ومعاشه وتجاربه، إذا لم يحفظ ما له وما عليه وما أخذه وما أعطى وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ممن أساء به، وما نفعه مما ضره ثم كان لا يهتدي لطريق لو سلكه ما لا يحصى، ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره ولا يعتقد ديناً، ولا ينتفع بتجربة، ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان حقيقاً أن ينسلخ من الإنسانية.

النعمة على الإنسان في الحفظ والنسيان

فانظر إلى النعمة على الإنسان في هذه الخلال، وكيف موقع الواحدة منها دون الجميع، وأعظم من النعمة على الإنسان، في الحفظ النعمة في النسيان، فإنه لولا النسيان لما سلا^(٢) أحد عن مصيبة، ولا انقضت له حسرة، ولا مات له حقد، ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات، ولا رجاء غفلة من سلطان، ولا فترة من حاسد، أفلا ترى كيف جعل في الإنسان الحفظ والنسيان وهما مختلفان متضادان، وجعل له في كل منهما ضرباً من المصلحة. وما عسى أن يقول الذين قسموا الأشياء بين خالقين متضادين في هذه الأشياء المتضادة المتباينة، وقد تراها تجتمع على ما فيه الصلاح والمنفعة.

(١) الخلال: جمع خلة بالفتح - وهي الخصلة والصفة.

(٢) سلا الشيء وسلا عنه: نسيه وهجره وطابت نفسه عنه وذهل عن ذكره.

اختصاص الإنسان بالحياة دون بقية الحيوانات

انظر يا مفضل إلى ما خص به الإنسان دون جميع الحيوان من هذا الخلق، الجليل قدره العظيم غناؤه، أعني: الحياة. فلولا لم يُقر ضيف^(١) ولم يوف بالعدة، ولم تقض الحوائج، ولم يتحر الجميل، ولم يتنكب^(٢) القبيح في شيء من الأشياء، حتى أن كثيراً من الأمور المفترضة أيضاً إنما يفعل للحياة فإن من الناس من لولا الحياة لم يرع حق والديه ولم يصل ذا رحم، ولم يؤد أمانة، ولم يعف عن فاحشة... أفلا ترى كيف وفى الإنسان جميع الخلال التي فيها صلاحه وتمام أمره.

اختصاص الإنسان بالمنطق والكتابة

تأمل يا مفضل ما أنعم الله - تقدرت أسماؤه - به على الإنسان، من هذا المنطق الذي يعبر به عما في ضميره، وما يخطر بقلبه، وينتجه فكره وبه يفهم عن غيره ما في نفسه، ولولا ذلك كان بمنزلة البهائم المهملة، التي لا تخبر عن نفسها بشيء، ولا تفهم عن مخبر شيئاً، وكذلك الكتابة التي بها تقيد أخبار الماضين للباقيين وأخبار الباقي للآتين، وبها تخلص الكتب في العلوم والآداب وغيرها، وبها يحفظ الإنسان ذكر ما يجري بينه وبين غيره من المعاملات والحساب ولولا لانقطع أخبار بعض الأزمنة عن بعض، وأخبار الغائبين عن أوطانهم، ودرست العلوم، وضاعت الآداب وعظم ما يدخل على الناس من الخلل في أمورهم ومعاملاتهم، وما يحتاجون إلى النظر فيه من أمر دينهم، وما روي لهم، مما لا يسعهم جهله، ولعلك تظن أنها مما يخلص إليه بالحيلة والفتنة، وليست مما أعطيه الإنسان من خلقه وطباعه.

(١) قرى الضيف: أضافه.

(٢) يتنكب: يتجنب.

وكذلك الكلام، إنما هو شيء يصطلح عليه الناس، فيجري بينهم ولهذا صار يختلف في الأمم المختلفة، وكذلك لكتابة العربي والسرياني والعبراني والرومي، وغيرها من سائر الكتابة، التي هي متفرقة في الأمم إنما اصطلمحوا عليها، كما اصطلمحوا على الكلام، فيقال لمن ادعى ذلك: إن الإنسان وإن كان له في الأمرين جميعاً فعل أو حيلة، فإن الشيء الذي يبلغ به ذلك الفعل والحيلة، عطية وهبة من الله عز وجل له في خلقه، فإنه لو لم يكن له لسان مهياً للكلام، وذهن يهتدي به للأمر، لم يكن ليتكلم أبداً ولو لم تكن له كف مهيئة وأصابع للكتابة، لم يكن ليكتب أبداً.

واعتبر ذلك من البهائم التي لا كلام لها ولا كتابة، فأصل ذلك فطرة الباري جلّ وعزّ، وما تفضل به على خلقه، فمن شكر أثيب، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

إعطاء الإنسان ما يصلح دينه ودنياه ومنعه مما سوى ذلك

فكر يا مفضل فيما أعطي الإنسان علمه وما منع، فإنه أعطي جميع علم ما فيه صلاح دينه ودنياه فمما فيه صلاح دينه معرفة الخالق تبارك وتعالى بالدلائل والشواهد القائمة في الخلق، ومعرفة الواجب عليه، من العدل على الناس كافة. وبر الوالدين، وأداء الأمانة، ومواساة أهل الخلة، وأشباه ذلك، مما قد توجد معرفته، والإقرار، والاعتراف به في الطبع والفطرة، من كل أمة موافقة أو مخالفة، وكذلك أعطي علم ما فيه صلاح دنياه، كالزراعة والغراس، واستخراج الأرضين، واقتناء الأغنام والأنعام، واستنباط المياه، ومعرفة العقاقير التي يستشفى بها من ضروب الأسقام، والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر، وركوب السفن، والغوص في البحر، وضروب الحيل في صيد الوحش والطير والحيتان، والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب، وغير ذلك مما يطول شرحه ويكثر

تعداده، مما فيه صلاح أمره في هذه الدار. فأعطي علم ما يصلح به دينه ودنياه، ومنع ما سوى ذلك، مما ليس في شأنه ولا طاقته أن يعلم. كعلم الغيب وما هو كائن. وبعض ما قد كان أيضاً، كعلم ما فوق السماء وما تحت الأرض. وما في لجج البحار وأقطار العالم، وما في قلوب الناس وما في الأرحام وأشباه هذا مما حجب عن الناس علمه.

وقد ادعت طائفة من الناس هذه الأمور، فأبطل دعواهم ما يبين من خطئهم، فيما يقصون عليه ويحكمون به فيما ادعوا عليه.

فانظر كيف أعطي الإنسان علم جميع ما يحتاج إليه لدينه ودنياه، وحجب عنه ما سوى ذلك، ليعرف قدره ونقصه وكلا الأمرين فيها صلاحه.

ما ستر عن الإنسان علمه من مدة حياته

تأمل الآن يا مفضل ما ستر عن الإنسان علمه من مدة حياته، فإنه لو عرف مقدار عمره - وكان قصير العمر - لم يتهنأ بالعيش، مع ترقب الموت وتوقعه، لوقت قد عرفه، بل كان يكون بمنزلة من قد فني ماله، أو قارب الفناء، فقد استشعر الفقر، والوجل من فناء ماله وخوف الفقر على أن الذي يدخل على الإنسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال، لأن من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه، فيسكن إلى ذلك، ومن أيقن بفناء العمر استحکم عليه اليأس وإن كان طويل العمر، ثم عرف ذلك، وثق بالبقاء، وانهمك في اللذات والمعاصي، وعمل على أنه يبلغ من ذلك شهوته، ثم يتوب في آخر عمره، وهذا مذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله، ألا ترى لو أن عبداً لك عمل على أنه يسخطك سنة ويرضيك يوماً أو شهراً، لم تقبل ذلك منه، ولم يحل عندك محل العبد الصالح دون أن يضم طاعتك ونصحك في كل الأمور؟ وفي كل الأوقات، على تصرف الحالات فإن قلت: أو ليس قد يقيم الإنسان على المعصية حيناً ثم يتوب

فتقبل توبته؟ قلنا: إن ذلك شيء يكون من الإنسان لغلبة الشهوات له وتركه مخالفتها. من غير أن يقدرها في نفسه، ويبني عليه أمره، فيصفح الله عنه، ويتفضل عليه بالمغفرة. فأما من قدر أمره على أن يعصي ما بدا له، ثم يتوب آخر ذلك، فإنما يحاول خديعة من لا يخادع، بأن يتسلف^(١) التلذذ في العاجل، ويعد ويمني نفسه التوبة في الآجل، ولأنه لا يفي بما يعد من ذلك، فإن النزوع من الترفه والتلذذ ومعاناة^(٢) التوبة، ولا سيما عند الكبر وضعف البدن، أمر صعب، ولا يؤمن على الإنسان، مع مدافعته بالتوبة أن يرهقه الموت، فيخرج من الدنيا غير تائب، كما قد يكون على الواحد ذين إلى أجل، وقد يقدر على قضائه، فلا يزال يدافع بذلك حتى يحل الأجل، وقد نفذ المال، فيبقى الدّين قائماً عليه. فكان خير الأشياء للإنسان أن يستر عنه مبلغ عمره، فيكون طول عمره يترقب الموت، فيترك المعاصي، ويؤثر العمل الصالح فإن قلت: وما هو الآن قد ستر عنه مقدار حياته، وصار يترقب الموت في كل ساعة يقارف الفواحش ويتتهك المحارم قلنا: إن وجه التدبير في هذا الباب، هو الذي جرى عليه الأمر فيه فإن كان الإنسان مع ذلك لا يرعوي^(٣) ولا ينصرف عن المساوي، فإنما ذلك من مرحه ومن قساوة قلبه، لا من خطأ في التدبير، كما أن الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به، فإن كان المريض مخالفاً لقول الطبيب، لا يعمل بما يأمره ولا ينتهي عما ينهاه عنه، لم ينتفع بصفته، ولم تكن الإساءة في ذلك للطبيب بل للمريض، حيث لم يقبل منه. ولئن كان الإنسان مع ترقبه للموت كل ساعة لا يمتنع عن المعاصي، فإنه لو وثق بطول البقاء كان أخرى بأن يخرج

(١) التسلف: الاقتراض كأنه يجري معاملة مع ربه، بأن تنصرف في اللذات عاجلاً ويعد ربه في عوضها التوبة ليؤدي إليه آجلاً.

(٢) المعاناة: مقاساة العناء والمشقة.

(٣) الارعواء: الكف عن الشيء، أو الندم على الشيء والانصراف عنه وتركه.

إلى الكبائر الفظيعة... فتقرب الموت على كل حال خير له من الثقة بالبقاء ثم أن تقرب الموت وإن كان صنف من الناس يلهون عنه، ولا يتعظون به فقد يتعظ به صنف آخر منهم، وينزعون عن المعاصي، ويؤثرون العمل الصالح، ويوجدون بالأموال والعقائل^(١) النفيسة في الصدقة على الفقراء والمساكين فلم يكن من العدل أني حرم هؤلاء الانتفاع بهذه الخصلة لتضييع أولئك حظهم منها.

الأحلام وامتزاج صادقها بكاذبها وسر ذلك

فكر يا مفضل في الأحلام كيف دبر الأمر فيها فمزج صادقها بكاذبها، فإنها لو كانت كلها تصدق لكان الناس كلهم أنبياء، ولو كانت كلها تكذب، لم يكن فيها منفعة، بل كانت فضلاً لا معنى له، فصارت تصدق أحياناً، فينتفع بها الناس في مصلحة يهتدي لها، أو مضرة يتحذر منها، وتكذب كثيراً لتلا يعتمد عليها كل الاعتماد.

الأشياء المخلوقة لمآرب الإنسان وإيضاح ذلك

فكر يا مفضل في هذه الأشياء التي تراها موجودة معدة في العالم من مآربهم، فالتراب للبناء، والحديد للصناعات، والخشب للسفن وغيرها والحجارة للأرحاء^(٢) وغيرها، والنحاس للأواني. والذهب والفضة للمعاملة والذخيرة، والحبوب للغذاء، والثمار للتفكه، واللحم للمأكل، والطيب للتلذذ، والأدوية للتصحيح^(٣) والدواب للحمولة. والحطب للتوقد والرماد للكلس^(٤)، والرمل للأرض، وكم عسى أن يحصي المحصي من هذا

(١) العقائل جمع عقيلة والعقيلة من كل شيء هي الكريمة.

(٢) الأرحاء جمع رحي وهي الطاحونة.

(٣) التصحيح من صبح المريض: أزال مرضه.

(٤) الكلس: - بالكسر - ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها بإحراقها.

وشبهه... أرأيت لو أن داخلاً دخل داراً، فنظر إلى خزان مملوءة من كل ما يحتاج إليه الناس، ورأى كل ما فيها مجموعاً معداً لأسباب معروفة أكان يتوهم أن مثل هذا يكون بالإهمال، ومن غير عمد؟ فكيف يستجيز قائل أن يقول هذا من صنع الطبيعة في العالم، وما أعد فيه من هذه الأشياء.

اعتبر يا مفضل بأشياء خلقت لمأرب الإنسان، وما فيها من التدبير فإنه خلق له الحب لطعامه، وكلف طحنه وعجنه وخبزه، وخلق له الوبر لكسوته، فكلف ندفه وغزله ونسجه، وخلق له الشجر، فكلف غرسها وسقيها والقيام عليها، وخلقت له العقاقير لأدويته، فكلف لقطها^(١) وخلطها وصنعها، وكذلك تجد سائر الأشياء على هذا المثال.

فانظر كيف كفى الخلقة التي لم يكن عنده فيها حيلة. وترك عليه في كل شيء من الأشياء موضع عمل وحركة، لما له في ذلك من الصلاح، لأنه لو كفى هذا كله، حتى لا يكون له في الأشياء موضع شغل وعمل، لما حملته الأرض أثراً وبطراً وبلغ به ذلك إلى أن يتعاطى أموراً فيها تلف نفسه، ولو كفى الناس كل ما يحتاجون إليه لما تهنأوا بالعيش ولا وجدوا له لذة... ألا ترى لو أن أمراً نزل بقوم، فأقام حيناً بلغ جميع ما يحتاج إليه من مطعم ومشرب وخدمة، لتبرم بالفراغ ونازعت نفسه إلى التشاغل بشيء، فكيف لو كان طول عمره مكفياً لا يحتاج إلى شيء؟ فكان من صواب التدبير في هذه الأشياء التي خلقت للإنسان: أن جعل له فيها موضع شغل، لكيلا تبرمه البطالة، ولتكفه عن تعاطي ما لا يناله، ولا خير فيه إن ناله.

الخبز والماء رأس معاش الإنسان وحياته

واعلم يا مفضل أن رأس معاش الإنسان وحياته: الخبز والماء...

(١) اللقط مصدر من لقط الشيء: أخذه من الأرض بلا تعب. ولقط الطائر الحب: أخذه بمنقاره.

فانظر كيف دبر الأمر فيهما، فإن حاجة الإنسان إلى الماء أشد من حاجته إلى الخبز، وذلك أن صبره على الجوع أكثر من صبره على العطش، والذي يحتاج إليه من الماء أكثر مما يحتاج إليه من الخبز، لأنه يحتاج إليه لشربه ووضوئه وغسله وغسل ثيابه وسقي أنعامه وزرعه فجعل الماء مبدولاً لا يشتري لتسقط عن الإنسان المؤنة في طلبه وتكلفه، وجعل الخبز متعذراً لا ينال إلا بالحيلة والحركة، ليكون للإنسان في ذلك شغل يكفه عما يخرج به إليه الفراغ من الأشر والعبث... ألا ترى أن الصبي يُدفع إلى المؤدب، وهو طفل لم تكمل ذاته للتعليم، كل ذلك ليشغل عن اللعب واللعب الذين ربما جنيا عليه وعلى أهله المكروه العظيم. وهكذا الإنسان لو خلا من الشغل، لخرج من الأشر والعبث والبطر، إلى ما يعظم ضرره عليه وعلى من قرب منه. واعتبر ذلك بمن نشأ في الجدة^(١) ورفاهية العيش والترفة والكفاية، وما يخرج به ذلك إليه.

اختلاف صور الناس وتشابه الوحوش والطيور وغيرها من الحكمة في ذلك

اعتبر لِمَ لا يتشابه الناس واحد بالآخر، كما تشابه الوحوش والطيور وغير ذلك، فإنك ترى السرب من الطباء والقطا تشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الأخرى، وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم، حتى لا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة. والعلة في ذلك أن الناس محتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم، لما يجري بينهم من المعاملات وليس يجري بين البهائم مثل ذلك، فيحتاج إلى معرفة كل واحد منها بعينه وحليته. ألا ترى أن التشابه في الطيور والوحش لا يضرها شيئاً، وليس كذلك الإنسان، فإنه ربما تشابه التوأم تشابهاً شديداً فتعظم المؤنة

(١) الجدة - بالتخفيف - الغنى.

على الناس في معاملتهما، حتى يعطي أحدهما بالآخر، ويؤخذ أحدهما بذنب الآخر، وقد يحدث مثل هذا في تشابه الأشياء. فضلاً عن تشابه الصور، فمن لطف بعباده بهذه الدقائق التي لا تكاد تخطر بالبال، حتى وقف بها على الصواب، إلا من وسعت رحمته كل شيء.

لو رأيت تمثال الإنسان مصوراً على حائط، وقال لك قائل: إن هذا ظهر هنا من تلقاء نفسه لم يصنعه صانع!... أكنت تقبل ذلك، بل كنت تستهزئ به، فكيف تنكر هذا في تمثال مصور جماد، ولا تنكر في الإنسان الحي الناطق.

نمو أبدان الحيوان وتوقفها وسبب ذلك

لَمْ صارت أبدان الحيوان - وهي تغتذي أبداً - لا تنمي، بل تنتهي إلى غاية من النمو، ثم تقف ولا تتجاوزها، لولا التدبير، في ذلك، فإن تدبير الحكيم فيها أن تكون أبدان كل صنف منها على مقدار معلوم غير متفاوت في الكبير والصغير، وصارت تنمي حتى تصل إلى غايتها، ثم تقف ثم لا تزيد، والغذاء مع ذلك دائم لا ينقطع ولو تنمي نمواً دائماً لعظمت أبدانها، واشتبهت مقاديرها^(١) حتى لا يكون لشيء منها حد يعرف.

ما يعترى أجسام الإنس من ثقل الحركة والمشى لو لم يصبها ألم

لَمْ صارت أجسام الإنس خاصة تثقل عن الحركة والمشى، وتجنو عن الصناعات اللطيفة^(٢)، إلا لتعظيم المؤنة فيما يحتاج إليه الناس للملبس والمضجع والتكفين وغير ذلك، لو كان الإنسان لا يصيبه ألم ولا وجع، بم

(١) أي لم يعرف غاية ما ينتهي إليه مقداره، فيشته الأمر عليه، فيما يريد أن يهتبه لنفسه من دار وثياب وزوجة.

(٢) أي يتعمد ويجتنب ولا يداوم على الصناعات اللطيفة أي التي فيها دقة ولطافة. والمراد أن الله تعالى جعل أجسام الإنسان بحيث تثقل عن الحركة والمشى قبل سائر الحيوانات، وتكل عن الأعمال الدقيقة لتعظم عليه مؤنة تحصيل ما يحتاج إليه، فلا يطر ولا يطعم، أو ليكون لهذه الأعمال أجر، فيصير سبباً لمعاش أقوام يزاولونها.

كان يرتدع عن الفواحش، ويتواضع لله، ويتعطف على الناس... أما ترى الإنسان إذا عرض له وجع خضع واستكان ورغب إلى ربه في العافية، وبسط يده بالصدقة، ولو كان لا يألم من الضرب بم كان السلطان يعاقب الدعار^(١) ويذل العصاة المردة، وبم كان الصبيان يتعلمون العلوم والصناعات، وبم كان العبيد يذلون لأربابهم، ويدعون لطاعتهم. أفليس هذا تويخ (ابن أبي العوجاء) وذويه الذين جحدوا التدبير. (والمأنوية) الذين أنكروا الوجع والألم.

انقراض الحيوان لو لم يلد ذكوراً وإناثاً

ولو لم يولد من الحيوان إلا ذكر فقط أو أنثى فقط ألم يكن النسل منقطعاً وباد مع أجناس الحيوان، فصار بعض الأولاد يأتي ذكوراً وبعضها يأتي إناثاً ليدوم التناسل ولا ينقطع.

ظهور شعر العانة عند البلوغ ونبات اللحية للرجل دون المرأة وما في ذلك من التدبير

لِمَ صار الرجل والمرأة إذا أدركا تنبت لهما العانة، ثم تنبت اللحية للرجل، وتتخلف عن المرأة. لولا التدبير في ذلك، فإنه لما جعل الله تبارك وتعالى الرجل قيماً وربيماً على المرأة، وجعل المرأة عرساً وخولاً^(٢) للرجل، أعطى الرجل اللحية، لما له من العز والجلالة والهيبة، ومنعها المرأة، لتبقى لها نضارة الوجه والبهجة التي تشاكل المفاكهة^(٣) والمضاجعة أفلا ترى الخلقة وكيف تأتني بالصواب في الأشياء، وتتخلل مواضع الخطأ فتعطي وتمنع على قدر الإرب والمصلحة بتدبير الحكيم عز وجل.

(١) الدعار جمع داهر وهو الخيث.

(٢) الخول - بفتحين - العبيد والإماء وغيرهم من العاشية.

(٣) المفاكهة: هي الممازحة والمضاحكة.

قال المفضل: ثم حان وقت الزوال، فقام مولاي إلى الصلاة، وقال: بَكَرَ إِلَيَّ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. فانصرفت من عنده مسروراً بما عرفته، مبتهجاً بما أوتيته، حامداً الله تعالى عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيَّ شَاكِراً لِأَنْعَمِهِ عَلَيَّ مَا مَنَحَنِي بِمَا عَرَفَنِيهِ مُوَلَايَ، وَتَفَضَّلَ بِهِ عَلَيَّ، فَبِتَ فِي لَيْلَتِي مُسْرُوراً بِمَا مَنَحَنِي، مُجْبوراً بِمَا عَلَّمَنِي.

المجلس الثاني

قال المفضل: فلما كان اليوم الثاني بَكَرْتُ إِلَى مُوَلَايَ فَاسْتَوْذَنْ لِي فَدَخَلْتُ، فَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ فَجَلَسْتُ فَقَالَ:

الحمد لله مدبِّرُ الْأَدْوَارِ^(١)، ومعيد الأكوار^(٢)، طبقاً عن طبق^(٣)، وعالمًا بعد عالم، ليجزي الذين أسأؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسن، عدلاً منه، تقدست أسماؤه، وجلت آلاؤه، لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، يشهد بذلك قوله جل قدمه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٤)، في نظائر لها في كتابه الذي فيه تبيان كل شيء ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ولذلك قال سيدنا محمد صلوات الله عليه وعلى آله: «إنما هي أعمالكم ترد إليكم».

ثم أطارق الإمام هنيئة وقال: يا مفضل الخلق حيارى عمهون^(٥) سكارى في طغيانهم يترددون، وبشياطينهم وطواغيتهم يقتدون، بصراء عمي

(١) الأدوار جمع دور مصدر بمعنى الحركة.

(٢) الأكوار جمع كور - بالفتح - مصدر بمعنى الجماعة الكثيرة أو القطيع من الإبل والبقر ويقال كل دور كور والمراد إما استئناف قرن بعد قرن وزمان بعد زمان.

(٣) الطبق: وجه الأرض ولعل المراد به معنى الحال يقال: الدهر أطباق - أي أحوال تختلف.

(٤) سورة الزلزلة، الآية ٧ - ٨.

(٥) عمهون: جمع عمه - بفتح فكسر - وهو المتردد في الضلال والمتحير في أمره أو طريقه.

لا يبصرون، نطقاء بكم^(١) لا يعقلون، سمعاء^(٢) صم^(٣) لا يسمعون، رضوا بالدون^(٤)، وحسبوا، أنهم مهتدون، حادوا^(٥) عن مدرجة^(٦) الأكياس^(٧) ورتعوا في مرعى الأرجاس^(٨) الأنجاس، كأنهم من مفاجآت الموت آمنون، وعن المجازات مزحزحون، يا ويلهم ما أشقاهم، وأطول عناءهم وأشدّ بلاءهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ * إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ^(٩).

قال المفضل: فبكيت لما سمعت منه!... فقال: لا تبك تخلصت إذ قبلت، ونجوت إذ عرفت.

أبنية أبدان الحيوان وتهيتها وإيضاح ذلك

ثم قال: أبتدئ لك بذكر الحيوان ليتضح لك من أمره ما وضع لك من غيره. فكر في أبنية أبدان الحيوان، وتهيتها على ما هي عليه فلا هي صلاب كالحجارة. ولو كانت كذلك لا تنثني^(١٠)، ولا تنصرف في الأعمال، ولا هي على غاية اللين والرخاوة، فكانت لا تتحمل، ولا تستقل بأنفسها، فجعلت من لحم رخو ينثني، تتداخله عظام صلاب يمسكه عصب وعروق تشده، وتضم بعضه إلى بعض، وغلفت فوق ذلك بجلد يشتمل

(١) بكم: جمع أبكم وهو الأخرس.

(٢) سمعاء: جمع سميع بمعنى السامع والمسمع وهو للمبالغة.

(٣) الصم: جمع أصم وهو الذي انسدت أذنه وثقل سمعه أو ذهب عنه بتماماً.

(٤) الدون: أريد به هنا معنى الخسيس الحقير السافل.

(٥) حادوا: مالوا.

(٦) مدرجة جمع مدارج، ما يساعد على التوصل إلى ما هو أفضل أو أعلى منه.

(٧) الأكياس: جمع كيس بتشديد الياء - أي الفطن الحسن الفهم والأدب.

(٨) الأرجاس لعله جمع رجس - بالكسر - القذر والمائم أو كل ما استقذر من العمل والعمل المؤدي إلى العذاب.

(٩) سورة الدخان، الآية ٤١ - ٤٢.

(١٠) لا تنثني: لا تنعطف ولا تميل.

على البدن كله وأشبه ذلك، هذه التماثيل التي تعمل من العيدان، وتلف بالخرق وتشد بالخياط، وتطلى فوق ذلك بالصمغ فتكون العيدان بمنزلة العظام، والخرق بمنزلة اللحم، والخياط بمنزلة العصب والعروق، والطلاء بمنزلة الجلد، فإن جاز أن يكون الحيوان المتحرك حدث بالإهمال من غير صانع جاز أن يكون ذلك في هذه التماثيل الميتة، فإن كان هذا غير جائز في التماثيل فحري أن لا يجوز في الحيوان.

أجساد الأنعام وما أعطيت وما منعت وسبب ذلك

وفكر يا مفضل - بعد هذا - في أجساد الأنعام^(١) فإنها حين خلقت على أبدان الإنس من اللحم والعظم والعصب، أعطيت أيضاً السمع والبصر ليبليغ الإنسان حاجته، فإنها لو كانت عمياً صماً لما انتفع بها الإنسان ولا تصرفت في شيء من مآربه، ثم منعت الذهن والعقل لتدل للإنسان، فلا تمتنع عليه، إذا كدها الكد الشديد، وحملها الحمل الثقيل. فإن قال قائل إنه قد يكون للإنسان عبيد من الإنس، يذلون ويذعنون بالكد الشديد، وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن. فيقال في جواب ذلك أن هذا الصنف من الناس قليل، فأما أكثر الناس فلا يذعنون بما تدعن به الدواب من الحمل والطحن وما أشبه ذلك، ولا يفرون^(٢) بما يحتاج إليه منه . . . ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذه الأعمال بأبدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الأعمال، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد والبغل الواحد إلى عدة أناسي، فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون فيهم عنه فضل شيء من الصناعات مع ما يلحقه من التعب الفادح في أبدانهم والضيق والكد في معاشهم.

(١) الأنعام: جمع نعام - بفنتحين - الإبل وتطلق على البقر والغنم.

(٢) لا يفرون - بالفين على بناء المفعول - أي لا يؤثر فيهم الإغراء والتعريض على جميع الأعمال التي يحتاج إليها الخلق من ذلك العمل الذي تأتي به الدواب.

خلق الأصناف الثلاثة من الحيوان

فكر يا مفضل في هذه الأصناف الثلاثة من الحيوان وفي خلقها، على ما هي عليه مما فيه صلاح كل واحد منها. فالإنس لما قدروا أن يكونوا ذوي ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات من البناء والتجارة والصياغة والخياطة، وغير ذلك خلقت لهم أكف كبار ذوات أصابع غلاظ ليتمكنوا من القبض على الأشياء، وأوكدها هذه الصناعات.

آكلات اللحم من الحيوان والتدبير في خلقها

وآكلات اللحم لما قدر أن تكون معاشها من الصيد، خلقت لهم أكف لطاف مدمجة^(١) ذوات برائن^(٢) ومخالب^(٣) تصلح لأخذ الصيد ولا تصلح للصناعات، وآكلات النبات لما قدر أن يكونوا، لا ذوات صنعة ولا ذات صيد خلقت لبعضها أظلاف تقيها خشونة الأرض إذا حاولت طلب المرعى، ولبعضها حوافر ململمة^(٤) ذوات قعر كأخمص القدم تنطبق على الأرض عند تهيئها للركوب والحمولة.

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان، حين خلقت ذوات أسنان حداد، وبرائن شداد، وأشداق^(٥) وأفواه واسعة، فإنه لما قدر أن يكون طعمها^(٦) اللحم خلقت خلقة تشاكل ذلك وأعينت بسلاح، وأدوات تصلح للصيد، وكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخالب مهيئة لفعالها، ولو كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قد أعطيت ما لا تحتاج إليه، لأنها

(١) مدمجة أي مستقيمة محكمة متداخلة.

(٢) البرائن جمع برثن بالضم - من السباع والطير بمنزلة الأصبع من الإنسان.

(٣) المخالب جمع مخلب - بالكسر - وهو الظفر خصوصاً من السباع.

(٤) ململمة أي مجموعة بعضها إلى بعض.

(٥) الأشداق جمع شدق - بالفتح أو الكسرة - زاوية من الفم من باطن الخدين.

(٦) الطعم - بالضم - الطعام.

لا تصيد ولا تأكل اللحم، ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه، أعني السلاح الذي تصيد به وتتعيش. أفلا ترى كيف أعطي كل واحد من الصنفين ما يشاكل صنفه وطبقته. بل ما فيه بقاؤه وصلاحه.

ذوات الأربع واستقلال أولادها

انظر الآن إلى ذوات الأربع كيف تراها تتبع أماتها^(١) مستقلة بأنفسها لا تحتاج إلى الحمل والتربية كما تحتاج أولاد الإنس، فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من الرفق والعلم والتربية، والقوة عليها بالأكف والأصابع المهيأة لذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها وكذلك ترى كثيراً من الطير كمثّل الدجاج والدراج^(٢) والقيج^(٣)، تدرج وتلقط حين تنقاب عنها البيضة. فأمّا ما كان منها ضعيفاً لا نهوض فيه، كمثّل فراخ الحمام واليمام^(٤) والحمز^(٥) فقد جعل في الأمهات فضل عطف عليها، فصارت تمج^(٦) الطعام في أفواهها بعد ما توعيه^(٧) حواصلها^(٨) فلا تزال تغذوها حتى تستقل بأنفسها، ولذلك لم ترزق الحمام فراخاً كثيرة مثل ما ترزق الدجاج، لتقوى الأم على تربية فراخها فلا تفسد ولا تموت فكلّا أعطى بقسط من تدبير الحكيم اللطيف الخبير.

(١) الأمات جمع أم وقيل إنها تستعمل في البهائم، وأما في الناس فهي أمهات.

(٢) الدراج - بضم فتشديد - طائر شبيه بالحجل وأكبر منه أرقط بسواد وياض قصير المقار يطلق على الذكر والأنثى، جمعه دراريح وواحدته دراجة والناء للوحدة لا للتأنيث.

(٣) القيح - بفتحيتين - طائر يشبه الحجل وفي القاموس هو الحجل والواحدة قيحة تقع على الذكر والأنثى.

(٤) اليمام: الحمام الوحشي.

(٥) الحمز - بضم فتشديد - طائر أحمر اللون والواحدة حمزة.

(٦) تمج الطعام أي ترمي به.

(٧) توعيه من أوعى الزاد ونحوه - أي جعله في الوعاء.

(٨) الحواصل جمع حوصلة وهي من الطير بمنزلة المعدة من الإنسان.

قوائم الحيوان وكيفية حركتها

انظر إلى قوائم الحيوان كيف تأتي أزواجاً، لتتهدأ للمشين ولو كانت أفراداً لم تصلح لذلك، لأن الماشي ينقل قوائمه يعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على واحدة، وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف، لأن ذا الأربع لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه، ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر، لم يثبت على الأرض، كما يثبت السرير وما أشبهه، فصار ينقل اليمنى من مقاديمه مع اليسرى من مآخيره، وينقل الآخرين أيضاً من خلاف، فيثبت على الأرض، ولا يسقط إذا مشى.

انقياد الحيوانات المسخرة للإنسان وسببه

أما ترى الحمار كيف يذل للطحن والحمولة وهو يرى الفرس مودعاً منعماً، والبعير لا يطيقه عدة رجال لو استعصى كيف كان ينقاد للمصبي؟ والثور الشديد كيف كان يذعن لصاحبه، حتى يضع النير^(١) على عنقه، ويحترث به؟ والفرس الكريم يركب^(٢) السيوف والأسنة بالمواتاة لفارسه والقطيع من الغنم يرعاه واحد، ولو تفرقت الغنم فأخذ كل واحد منها في ناحية لم يلحقها. وكذلك جميع الأصناف المسخرة للإنسان. . كانت كذلك؟ إلا بأنها عدت العقل والروية، فإنها لو كانت تعقل وتروى في الأمور كانت خليفة أن تلتوي على الإنسان في كثير من مآربه حتى يمتنع الجمال على قائده والثور على صاحبه، وتفرق الغنم عن راعيها وأشباه هذا من الأمور.

(١) النير - بالكسر - الخشبة الممتدة في عنقي الثورين بأدائها.

(٢) يركب السيوف والأسنة أي يلقي نفسه عليها.

افتقاد السباع للعقل والروية وفائدة ذلك

وكذلك هذه السباع لو كانت ذات عقل وروية فتوازرت^(١) على الناس، كانت خليقة أن تجتاحهم، فمن كان يقوم للأسد والذئب والنمر والدببة، لو تعاونت وتظاهرت على الناس؟... أفلا ترى كيف حجر^(٢) ذلك عليها وصارت مكان ما كان يخاف من أقدامها ونكايتها، تهاب مساكن الناس وتحجم عنها، ثم لا تظهر ولا تنتشر لطلب قوتها إلا بالليل، فهي مع صولتها كالخائف من الإنس بل مقموعة^(٣) ممنوعة منهم، إلا ولو كان ذلك لساورتهم في مساكنهم وضيق عليهم.

عطف الكلب على الإنسان ومحاماته عنه

ثم جعل الكلب من بين هذه السباع عطف على مالكه ومحاماة عنه، وحافظ له، ينتقل على الحيطان والسطوح في ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه وذب الذعار عنه، ويبلغ من محبته لصاحبه أن يبذل نفسه للموت دونه ودون ماشيته وماله ويألفه غاية الألف حتى يصبر معه على الجوع والجفوة... فلم طُبع الكلب على هذه الألفة والمحبة؟ إلا ليكون حارساً للإنسان له عين^(٤) بأنياب^(٥) ومخالب، ونباح هائل، ليذعر منه السارق، ويتجنب المواضع التي يحميها ويخفها^(٦).

وجه الدابة وفهما وذنبها وشرح ذلك

يا مفضل تأمل وجه الدابة كيف هو...؟ فإنك ترى العينين شاخصتين

(١) توازرت أي اجتمعت واتحدت.

(٢) حجر عليه الأمر: حزمه ومنعه.

(٣) مقموعة: مقهورة ذليلة.

(٤) العين - بالفتح - الغلظة في الجسم والخشونة.

(٥) الأنياب جمع ناب وهو السن خلف الرباعية مؤنث.

(٦) يخفها: يجيرها ويؤمنها.

أمامها لتبصر ما بين يديها، لثلا تصدم حائطاً، أو تتردى حفرة وترى الفم مشقوقاً شقاً في أسفل الخطم^(١) ولو شق كمكان الفم من الإنسان في مقدم الذقن، لما استطاع أن يتناول به شيئاً من الأرض ألا ترى أن الإنسان لا يتناول الطعام بفيه ولكن بيده، تكرمة له على سائر الآكلات، فلما لم يكن للدابة يد تتناول بها العلف جعل خرطومها^(٢) مشقوقاً من أسفله، لتقبض على العلف ثم تقضمه، وأعينت بالجحفلة^(٣) لتتناول بها ما قرب وما بعد... اعتبر بذنبها والمنفعة لها فيه، فإنه بمنزلة الطبق^(٤) على الدبر والحياء جميعاً، يواريهما ويسترهما، ومن منافعها فيه أن ما يبين الدبر ومراقي البطن منها وضر^(٥) يجتمع عليها الذباب والبعوض فجعل لها الذنب كالمذبة^(٦) تذب بها عن تلك المواضع، ومنها أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة، فإنها لما كان قيامها على الأربع بأسرها، وشغلت المقدمتان بحمل البدن عن التصرف والتقلب، كان لها في تحريك الذنب راحة، وفيه منافع أخرى يقصر عنها الوهم، فيعرف موقعها في وقت الحاجة إليها، فمن ذلك أن الدابة ترتطم في الوحل^(٧)، فلا يكون شيء أعون على نهوضها، من الأخذ بذنبها، وفي شعر الذنب منافع للناس كثيرة يستعملونها في مآربهم، ثم جعل ظهرها مسطحاً مبطوحاً على قوائم أربع ليتمكن من ركوبها، وجعل حياها بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضربها، ولو كان أسفل البطن كما كان الفرج من المرأة لم يتمكن الفحل منها... ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحاً^(٨) كما يأتي الرجل المرأة.

(١) خطم الدابة: مقدم أنفها وفمها.

(٢) الخرطوم: الأنف أو مقدمة أو ما ضمت عليه الحنكين.

(٣) الجحفلة هي لذات الحافر كالشفة للإنسان.

(٤) الطبق - بفتحين - مصدر الغطاء جمعه أطباق.

(٥) الضر - بفتحين - مصدر الوسخ.

(٦) المذبة - بالكسر - ما يذب به الذباب.

(٧) الوحل - بفتحين - الطين الرقيق جمعه وحول وأوحال.

(٨) الكفاح - بالكسر - الملاقاء وجهاً لوجه.

الفيل ومشفره

تأمل مشفر^(١) الفيل وما فيه من لطيف التدبير، فإنه يقوم مقام اليد في تناول العلف والماء، وازدرادهما إلى جوفه، ولولا ذلك لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض، لأنه ليست له رقبة يمدّها كسائر الأنعام، فلما عدم العنق أُعِين مكان ذلك بالخرطوم الطويل ليسد له، فيتناول به حاجته... فمن ذا الذي عوضه مكان العضو الذي عدم ما يقوم مقامه إلا الرؤوف بخلقه؟ وكيف يكون هذا بالإهمال - كما قالت الظلمة - ؟ فإن قال قائل: فما باله لم يُخلق ذا عنق كسائر الأنعام؟ قيل: إن رأس الفيل وأذنيه أمر عظيم، وثقل ثقيل، فلو كان ذلك على عنق عظيم، لهدا وأوهنها، فجعل رأسه ملصقاً بجسمه لكيلا يناله منه ما وصفناه، وخلق له مكان العنق هذا المشفر ليتناول غذاؤه، فصار مع عدم العنق - مستوفياً ما فيه بلوغ حاجته.

حياء الأنثى من الفيلة

انظر الآن كيف جعل حياء الأنثى من الفيلة في أسفل بطنها؟ فإذا هاجت للضراب ارتفع وبرز، حتى يتمكن الفحل من ضربها... فاعتبر كيف جعل حياء الأنثى من الفيلة على خلاف ما عليه في غيرها من الأنعام ثم جعلت فيه هذه الخلعة ليتها للأمر الذي فيه قوام النسل ودوامه.

الزرافة وخلقتها وكونها ليست من لقاح أصناف شتى

فكر في خلق الزرافة، واختلاف أعضائها، وشبهها بأعضاء أصناف من الحيوان، فرأسها رأس فرس، وعنقها عنق جمل، وأظلافها أظلاف بقرة، وجلدها جلد نمر.

(١) المشفر - بكسر فسكون ففتح - الشفة وتستعمل للبعير إلا أن الإمام الصادق عدل المعنى إلى خرطوم الفيل.

وزعم ناس من الجهال بالله عز وجل: أن نتاجها من فحول شتى، قالوا: وسبب ذلك أن أصنافاً من حيوان البر إذا وردت الماء تنزو على بعض السائمة، وينتج مثل هذا الشخص الذي هو كالملتقط من أصناف شتى وهذا جهل من قائله، وقلة معرفة بالباري جل قدسه، وليس كل صنف من الحيوان يلقيح كل صنف، فلا الفرس يلقيح الجمل، ولا الجمل يلقيح البقر، وإنما يكون التلقيح من بعض الحيوان فيما يشاكله ويقرب من خلقه، كما يلقيح الفرس الحمار، فيخرج بينهما البغل، ويلقيح الذئب الضبع، فيخرج من بينهما السبع^(١). على أنه ليس يكون في الذي يخرج من بينهما عضو كل واحد منهما، كما في الزرافة، عضو من الفرس وعضو من الجمل، وأظلاف من البقرة، بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما، كالذي تراه في البغل، فإنك ترى رأسه وأذنيه وكفله^(٢)، وذنبه وحوافره وسطاً بين هذه الأجزاء من الفرس والحمار وشحيحة^(٣)، كالممتزج من سهيل الفرس ونهيق الحمار، فهذا دليل على أنه ليست الزرافة من لقاح أصناف شتى من الحيوان، كما زعم الجاهلون، بل هي خلق عجيب من خلق الله للدلالة على قدرته التي لا يعجزها شيء، وليعلم أنه خالق أصناف الحيوان كلها، يجمع بين ما يشاء من أعضائها، في أيها شاء ويفرق ما شاء منها في أيها شاء، ويزيد في الخلقة ما شاء. وينقص منها ما شاء، دلالة على قدرته على الأشياء، وأنه لا يعجز شيء أراده جل وتعالى... فأما طول عنقها والمنفعة لها في ذلك فإن منشأها ومرعاها في غاطل^(٤) ذوات أشجار شاهقة، ذاهبة طولاً في الهواء. فهي تحتاج إلى طول العنق لتتناول بفيها أطراف تلك الأشجار فتوق من ثمارها.

(١) السمع - بكسر فسكون - ولد الذئب من الضبع والأنثى سمعة.

(٢) الكفل - بفتحين - من الدابة: المعجز أو الردف والجمع أكفال.

(٣) الشحيح من شحج البغل: صوت وغلظ صوته.

(٤) النياطل جمع غيطل وهو الشجر الكثير الملتف.

القرد وخلقته والفرق بينه وبين الإنسان

تأمل خلقة القرد وشبهه بالإنسان في كثير من أعضائه أعني الرأس والوجه والمنكبين والصدر، وكذلك أحشاؤه شبيهة أيضاً بأحشاء الإنسان وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التي بها يفهم عن سائسه ما يومية إليه ويحكي كثيراً مما يرى الإنسان يفعله، حتى أنه يقرب من خلق الإنسان وشمائله في التدبير في خلقته على ما هي عليه. أن يكون عبرة للإنسان في نفسه فيعلم أنه من طينة البهائم وسنخها^(١) إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب. وأنه لولا فضيلة فضله بها في الذهن والعقل والنطق كان كبعوض البهائم على أن في جسم القرد فضولاً أخرى تفرق بينه وبين الإنسان كالخطم^(٢) والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله. وهذا لم يكن مانعاً للقرد أن يلحق بالإنسان لو أعطي مثل ذهن الإنسان وعقله ونطقه والفصل الفاصل بينه وبين الإنسان - في الحقيقة - هو النقص في العقل والذهن والنطق.

أكساء أجسام الحيوانات وخلق أقدامها بعكس الإنسان وأسباب ذلك

انظر يا مفضل إلى لطف الله جل اسمه بالبهائم كيف كُسي أجسامها هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف لتقيها من البرد وكثرة الآفات البست الأظلاف والحافر والأخفاف لتقيها من الحفاء^(٣) إذ كانت لا أيدي لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للغزل والنسج فكفوا بأن جعل كسوتهم في خلقهم باقية عليهم ما بقوا لا يحتاجون إلى تجديدها واستبدال بها.

فأما الإنسان فإنه ذو حيلة وكف مهيأة للعمل. فهو ينسج ويغزل

(١) السنخ - بالكسر - الأصل والجمع أسناخ وسنوخ.

(٢) الخطم من الدابة: مقدم أنفها وفمها.

(٣) الحفاء هو المشي بلا خف ولا نعل.

ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال. وله في ذلك صلاح من جهات. من ذلك أنه يشتغل بصناعة اللباس عن العبث وما تخرجه إليه الكفاية. ومنها أنه يستريح إلى خلع كسوته إذ شاء ولبسها إذا شاء منها أن يتخذ لنفسه من الكسوة ضروباً لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها وكذلك يتخذ بالرفق من الصناعة ضرورياً من الخفاف^(١) والنعال يقي بها قدميه. وفي ذلك معاش لمن يعمل من الناس ومكاسب يكون فيها معاشهم ومنها أقواتهم وأقوات عيالهم. فصار الشعر والوبر والصوف يقوم للبهائم مقام الكسوة والأطلاف^(٢) والحواضر والأخفاف مقام الحذاء.

مؤارة البهائم عند إحساسها بالموت

فكر يا مفضل في خلقة عجيبة جعلت في البهائم، فإنهم يوارون^(٣) أنفسهم إذا ماتوا، كما يوارى الناس موتاهم، وإلا فأين جيف هذه الوحوش والسباع وغيرها، لا يرى منها شيء، وليست قليلة فتخفى لقلتها؟ بل لو قال قائل: إنها أكثر من الناس لصدق.

فاعتبر في ذلك بما تراه في الصحاري والجبال من أسراب الطباء^(٤) والمها^(٥) والحمير الوحش والوعول^(٦) والأيائل^(٧) وغير ذلك من الوحوش وأصناف السباع من الأسد والضباع والذئاب والتمور وغيرها، وضروب الهوام والحشرات ودواب الأرض، وكذلك أسراب الطير من الغربان والقطا

(١) الخفاف جمع خف - بالضم - وهو ما يلبس بالرجل.

(٢) الأطلاف - بالكسر - وهو لما اجتر من الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر للفرس.

(٣) يوارون أنفسهم: يخفونها.

(٤) الطباء جمع ظبية وهي أنثى الغزال.

(٥) المها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية.

(٦) الوعول جمع وعل وهو تيس الجبل له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدين.

(٧) الأيائل جمع أيل - بفتح فثديد - حيوان من ذوات الظلف للذكور منه قرون متشعبة لا تجويف فيها، أما الإناث فلا قرون لها.

والأوز والكرابي^(١) والحمام وسباع الطير جميعاً، وكلها لا يرى منها إذا ماتت إلا الواحد بعد الواحد يصيده قانص أو يفتسه سبيع، فإذا أحسوا بالموت كمنوا في مواضع خفية فيموتون فيها، ولولا ذلك لامتلات الصحاري منها حتى تفسد رائحة الهواء وتحدث الأمراض والوباء.

فانظر إلى هذا الذي يخلص إليه الناس، وعملوه بالتمثيل^(٢) الأول الذي مثل لهم كيف جعل طبعاً وأذكراً في البهائم وغيرها، ليسلم الناس من معرة^(٣) ما يحدث عليهم من الأمراض والفساد.

الفطن التي جعلت في البهائم: الأيل والثعلب والدلفين

فكر يا مفضل في الفطن التي جعلت في البهائم لمصلحتها، بالطبع والخلقة، لطفاً من الله عز وجلّ لهم، لئلا يخلو من نعمة جل وعز أحد من خلقه لا بعقل وروية، فإن الأيل يأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً فيمتنع عن شرب الماء، خوفاً من أن يدب السم في جسمه فيقتله، ويقف على الغدير وهو مجهود عطشاً فيعج عجيجاً عالياً، ولا يشرب منه، ولو شرب لمات من ساعته.

فانظر إلى ما جعل من طباع هذه البهيمة، من تحمل الظم الغالب الشديد خوفاً من المضرة في الشرب، وذلك مما لا يكاد الإنسان العاقل المميز يضبطه من نفسه.

والثعلب إذا أعوزه الطعم، تماوت ونفخ بطنه، حتى يحسبه الطير ميتاً، فإذا وقعت عليه لتنهشه، وثب عليها فأخذها. فمن أعان الثعلب

(١) الكراكي جمع كركي - بضم فسكون فكسر - طائر كبير أغبر اللون طويل المنق والرجلين أتر الذنب قليل اللحم.

(٢) المراد بالتمثيل ما ذكره الله تعالى في قصة قابيل.

(٣) المعرة: الأمر القبيح والمساءة.

العديم النطق والروية بهذه الحيلة، إلا من توكل بتوجيه الرزق له من هذه وشبهه. فإنه لما كان الثعلب يضعف عن كثير مما تقوى عليه السباع من مساورة الصيد، أعين بالدعاء والفطنة والاحتياال لمعاشه.

والدلفين^(١) يلتمس صيد الطير، فيكون حيلته في ذلك أن يأخذ السمك فيقتله ويسرحه حتى يطفوا على الماء ثم يكمن تحته ويثور الماء الذي عليه حتى لا يتبين شخصه، فإذا وقع الطير على السمك الطافي وثب إليها فاصطادها.

فانظر إلى هذه الحيلة كيف جعلت طبعاً في هذه البهيمة لبعض المصلحة.

التنين والسحاب

قال المفضل فقلت: أخبرني يا مولاي عن التنين^(٢) والسحاب، فقال ~~عنه~~، إن السحاب كالموكل به، يختطفه حيثما ثقفه^(٣)، كما يختطف حجر المغناطيس الحديد، فهو لا يطلع رأسه في الأرض خوفاً من السحاب، ولا يخرج إلا في القيظ^(٤) مرة إذا صحت السماء فلم يكن فيها نكتة^(٥) من غيمة قلت فلم وكل السحاب بالتنين يرصده ويختطفه إذا وجده؟ قال: ليدفع عن الناس مضرته.

في الذرة والنمل وأسد الذباب والعنكبوت وطبائع كل منهما

قال المفضل فقلت: قد وصفت لي يا مولاي من أمر البهائم ما فيه

(١) الدلفين - بضم فسكون دابة بحرية كبيرة والجمع دلافين.

(٢) التنين - بالكسر - الحية العظيمة.

(٣) ثقفه: أدركه وظفر به.

(٤) القيظ: حميم الصيف وشدة الحر.

(٥) النكتة: النقطة السوداء في الأبيض أو البيضاء في الأسود والجمع نكت ونكات.

معتبر لمن اعتبر، فصف لي الذرة والنملة والطير، فقال عليه السلام: يا مفضل تأمل وجه الذرة الحقيرة الصغيرة هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها، فمن أين هذا التقدير والصواب في خلق الذرة؟ إلا من التدبير القائم في صغير الخلق وكبيره.

انظر إلى النمل واحتشاده في جمع القوت وإعداده، فإنك ترى الجماعة منها إذا نقلت الحب إلى زيتها^(١) بمنزلة جماعة من الناس ينقلون الطعام أو غيره، بل للنمل في ذلك من الجهد والتشمير ما ليس للناس مثله.. أما تراهم يتعاونون على النقل كما يتعاون الناس على العمل، ثم يعمدون إلى الحب فيضمونه قطعاً. لكيلا ينبت فيفسد عليهم، فإن أصابه ندى أخرجوه فنشروه حتى يجف، ثم لا يتخذ النمل الزبية إلا في نشز^(٢) من الأرض كيلا يفيض السيل فيغرقها، ولك هذا منه بلا عقل ولا روية، بل خلقة خلق عليها لمصلحة من الله عز وجل.

انظر إلى هذا الذي يقال له الليث^(٣) وتسميه العامة (أسد الذباب) وما أعطي من الحيلة والرفق في معاشه، فإنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريباً منه. تركه ملياً حتى كأنه موات لا حراك به، فإذا رأى الذباب قد اطمأن وغفل عنه، دب دبيباً دقيقاً، حتى يكون منه بحيث تناله وثبته، ثم يشب عليه فيأخذه، فإذا أخذه اشتمل عليه بجسمه كله، مخافة أن ينجو منه، فلا يزال قابضاً عليهن حتى يحس بأنه قد ضعف واسترخى ثم يقبل عليه فيفترسه، ويحيى بذلك منه.

فأما العنكبوت فإنه ينسج ذلك النسج، فيتخذه - شركاً ومصيدة

(١) الزبية - بضم فسكون - : الراية لا يعلوها ماء جمعها زبي.

(٢) النشز - بفتح ن - المكان المرتفع جمعه نشاز وأنشاز.

(٣) الليث: ضرب من العناكب والجمع ليوث ومليثة.

للذباب، ثم يكمن في جوفه، فإذا نشب فيه الذباب أحوال^(١) عليه يلدغه ساعة بعد ساعة، ليعيش بذلك منه.

فذلك^(٢) يحكي صيد الكلاب والفهود، وهذا^(٣) يحكي صيد الأشراك والجبائل.

فانظر إلى هذه الدويبة الضعيفة، كيف جعل في طبعها ما لا يبلغه الإنسان إلا بالحيلة واستعمال الآلات فيها، فلا تزدرى بالشئ إذا كانت العبرة فيه واضحة كالذرة والنملة وما أشبه ذلك فإن المعنى النفيس قد يمثل بالشئ الحقير، فلا يضع منه ذلك^(٤) كما لا يضع من الدينار - وهو من ذهب أن يوزن بمقال من حديد.

جسم الطائر وخلقته

تأمل يا مفضل جسم الطائر وخلقته، فإنه حين قدر أن يكون طائراً في الجو، خفف جسمه وأدمج^(٥) خلقه، واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين، ومن الأصابع الخمس على أربع، ومن منفذين المزبل والبول على واحد يجمعهما، ثم خلق ذا جؤجؤ^(٦) محدد، ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه، كما جعلت السفينة بهذه الهيئة، لتشق الماء وتنفذ فيه، وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان، لينهض بها للطيران، وكسا كله الريش، ليتداخله الهواء فيقله^(٧)، ولما قدر أن يكون طعمه الحب واللحم

(١) أحوال: أقبل ووثب.

(٢) يعني به أسد الذباب.

(٣) يعني به العنكبوت.

(٤) أي لا ينقص من قدر المعنى النفيس تمثله بالشئ الحقير.

(٥) أدمج خلقه: لفه وأحسنه.

(٦) الجؤجؤ من الطائر والسفينة: الصدر والجمع جآجيء.

(٧) يقله: يحمله ويرفقه.

يبلمه بلعاً بلا مضغ، نقص من خلقة الإنسان وخلق له منقار صلب قاسي يتناول به طعمه، فلا ينسجج^(١) من لفظ الحب، ولا يتقصف^(٢) من نهش اللحم، ولما عدم الأسنان، وصار يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضاً^(٣) أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعم طحناً يستغني به عن المضغ، واعتبر ذلك بأن عجم العنب^(٤) وغيره، يخرج من أجواف الإنس صحيحاً، ويطحن في أجواف الطير لا يرى له أثر، ثم جعل مما يبيض بيضاً، ولا يلد ولادة، لكيلا يثقل عن الطيران، فإنه لو كانت الفراخ في جوفه تمكث حتى تستحكم، لأثقلته وعاقته عن النهوض والطيران، فجعل كل شيء من خلقه مشاكلاً للأمر الذي قدر أن يكون عليه ثم صار الطائر السائح في هذا الجو يقعد على بيضه فيحضنه أسبوعاً وبعضها أسبوعين وبعضها ثلاثة أسابيع، حتى يخرج الفرخ من البيضة، ثم يقبل عليه فيزقه الريح لتتسع حوصلته للغذاء، ثم يربيه ويغذيه بما يعيش به. فمن كلفه أن يلقط الطعم والحب يستخرجه، بعد أن يستقر في حوصلته، ويغذو به فراخه. .؟ ولأي معنى يحتمل هذه المشقة. وليس بذى روية ولا تفكر، ولا يأمل في فراخه ما يؤمل الإنسان في ولده من العز والرغد^(٥) وبقاء الذكر. .؟ فهذا من فعله يشهد أنه معطوف على فراخه، لعله لا يعرفها ولا يفكر فيها، وهي دوام النسل وبقاؤه لطفاً من الله تعالى ذكره.

الدجاجة وتهيجها لحضن البيض والتفريخ

انظر إلى الدجاجة كيف تهيج لحضن البيض والتفريخ، وليس لها

(١) ينسجج: أي يتشر.

(٢) يتقصف: أي يتكر.

(٣) الغريض: كل أبيض طري.

(٤) عجم العنب: النوى الصغير في جوف العنب.

(٥) الرغد - بالكسر - المعونة والمطاء والجمع أرفاد ورغود.

بيض مجتمع ولا وكر موطى، بل تنبعث وتنتفخ وتقوى^(١) وتمتنع من الطعام، حتى يجمع لها البيض، فتحضنه وتفرخ.. فلم كان ذلك منها إلا لإقامة النسل؟ ومن أخذها بإقامة النسل ولا روية لها ولا تفكير، لولا أنها مجبولة على ذلك؟.

خلق البيضة والتدبير في ذلك

اعتبر بخلق البيضة، وما فيها من المح^(٢) الأصفر الخائر^(٣) والماء الأبيض الرقيق، فبعضه ينشئ منه الفرخ، وبعضه ليفتدي به، إلى أن تنقاب عنه البيضة، وما في ذلك من التدبير، فإنه لو كان نشوء الفرخ في تلك القشرة المستحفظة^(٤) التي لا مساغ لشيء إليها، جعل معه في جوفها من الغذاء ما يكتفي به إلى وقت خروجه منها، كمن يحبس في حبس حصين لا يوصل إلى من فيه، فيجعل معه من القوت ما يكتفي به إلى وقت خروجه منه.

حوصلة الطائر

فكر يا مفضل في حوصلة الطائر، وما قدر له، فإن مسلك الطعام إلى القانصة^(٥) ضيق، لا ينفذ فيه الطعام إلا قليلاً قليلاً، فلو كان الطائر لا يلقط حبة ثانية، حتى تصل الأولى إلى القانصة، لطلال عليه، ومتى كان يستوفي طعمه؟. فإنما يختلسه اختلاساً، لشدة الحذر، فجعلت له الحوصلة كالمخلاة^(٦) المعلقة أمامه، ليوعى فيها ما أدرك من الطعام بسرعة، ثم تنفذه

(١) تقوى من القوى أي الجوع فكان الدجاجة تبيت جائعة.

(٢) المح - بالضم - صفر البيض.

(٣) خثر اللين: ثخن واشتد فهو خائر.

(٤) المستحفظة من استحفظه السر أو المال: سألته أن يحفظه.

(٥) القانصة للطير كالمعدة للإنسان جمعها قوائص.

(٦) المخلأة: ما يجعل فيه الملف ويعلق في عنق الدابة والجمع مخال.

إلى القانصة على مهل، وفي الحوصلة أيضاً خلة أخرى، فإن من الطائر ما يحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده للطعم من قرب أسهل عليه.

اختلاف ألوان الطير وعلة ذلك

قال المفضل فقلت: إن قوماً من المعطلة يزعمون أن اختلاف الألوان والأشكال في الطير إنما يكون من قبل امتزاج الأخلاط، واختلاف مقاديرها المرج^(١) والإهمال.

قال: يا مفضل هذا الوشي الذي تراه في الطواويس والدراج والتدراج على استواء ومقابلة، كنعوما يخط بالأقلام، كيف يأتي به الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف، ولو كان بالإهمال لعدم الاستواء ولكان مختلفاً.

ريش الطائر ووصفه

تأمل ريش الطير وكيف هو...؟ فإنك تراه منسوجاً كنسج الثوب من سلوك^(٢) دقاق، قد ألّف بعضه إلى بعض، كتأليف الخيط إلى الخيط والشعرة إلى الشعرة، ثم ترى ذلك النسج إذا مددته يفتح قليلاً ولا ينشق لتداخله الريح، فيقل الطائر إذا طار، وترى في وسط الريشة عموداً غليظاً متيناً قد نسج عليه الذي هو مثل الشعر ليمسكه بصلابته، وهو القصبه التي في وسط الريشة، وهو مع ذلك أجوف، ليخف على الطائر ولا يعوقه عن الطيران.

(١) المرج - بالتحريك - الاضطراب واللبس والفساد والاختلاط.

(٢) السلوك جمع سلك وهو الخيط ينظم فيه الخرز ونحوه.

الطائر الطويل الساقين والتدبير في ذلك

هل رأيت يا مفضل هذا الطائر الطويل الساقين^(١) وعرفت ما له من المنفعة في طول ساقيه، فإنه أكثر ذلك في ضحضاح^(٢) من الماء فتراه بساقين طويلين، كأنه ربيثة^(٣) فوق مرقب^(٤) وهو يتأمل ما يدب في الماء، فإذا رأى شيئاً مما يتقوت به، خطا خطوات رقيقاً حتى يتناوله، ولو كان قصير الساقين وكان يخطو نحو الصيد ليأخذه، يصيب بطنه الماء، فيثور ويذعر منه، فيفرق عنه، فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه.

تأمل ضروب التدبير في خلق الطائر، فإنك تجد كل طائر طويل الساقين طويل العنق، وذلك ليتمكن من تناول طعمه من الأرض ولو كان طويل الساقين قصير العنق، لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض وربما أعين مع العنق بطول المناقير، ليزداد الأمر عليه سهولة وإمكاناً أفلا ترى أنك لا تفتش شيئاً من الخلقة إلا وجدته على غاية الصواب والحكمة.

العصافير وطلبها للأكل

انظر إلى العصافير، كيف تطلب أكلها بالنهار فهي لا تفقده ولا تجده مجموعاً معداً، بل تناله بالحركة والطلب، وكذلك الخلق كله فسبحان من قدر الرزق كيف فرقه. فلم يجعل مما لا يقدر عليه، إذ جعل بالخلق حاجة إليه، ولم يجعل مبذولاً ينال بالهوين^(٥) إذ كان لا صلاح في ذلك فإنه لو

(١) ينطبق الوصف الذي ذكره الإمام الصادق للطائر الطويل الساقين على بعض الطيور المائية كالنحام والأنيس.

(٢) الضحضاح: الماء اليسير أو القريب القمر.

(٣) الربيثة: العين التي ترقب، أو الطليعة الذي ينظر للقوم لتلا يدهمهم عدو، ولا يكون إلا على جبل.

(٤) المرقب: الموضع المرتفع يعلوه الرقيب جمعه مراقب.

(٥) الهوين: التؤدة والرفق.

كان يوجد مجموعاً معداً كانت البهائم تنقلب عليه، ولا تنقطع عنه حتى تبشم^(١) فتهلك. وكان الناس أيضاً يصيرون بالفراغ إلى غاية الأشر والبطر، حتى يكثر الفساد وتظهر الفواحش.

معاش اليوم والهام والخفاش

أعلمت ما طعم هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج إلا بالليل، كمثّل اليوم والهام^(٢) والخفاش؟..
قلت: لا يا مولاي.

قال: إن معاشها من ضروب تنتشر في الجو من البعوض والفراس وأشباه الجراد واليعاسيب^(٣). وذلك أن هذه الضروب مبنوثة في الجو لا يخلو منها موضع.. واعتبر ذلك بأنك إذا وضعت سراجاً بالليل في سطح أو عرصة دار، اجتمع عليه من هذه الضروب شيء كثير.. فمن أين يأتي ذلك كله، إلا من القرب؟ فإن قال قائل: إنه يأتي من الصحاري والبراري، قيل له: كيف يوافي تلك الساعة من موضع بعيد، وكيف يبصر من ذلك البعد سراجاً في دار محفوفة بالدور فيقصد إليه، مع أن هذه عياناً تنهافت على السراج من قرب، فيدل ذلك على أنها منتشرة في كل موضع من الجو، فهذه الأصناف من الطير تلتمسها إذا خرجت فتفتقوت بها.

فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطيور التي لا تخرج إلا بالليل من هذه الضروب المنتشرة في الجو، واعرف ذلك المعنى في خلق هذه الضروب المنتشرة، التي عسى أن يظن ظان أنها فضل لا معنى له.

(١) تبشم أي تتخم من الطعام.

(٢) الهام جمع هامة: نوع من البوم الصغير تألف القبور والأماكن الخربة وتنتظر من كل مكان أينما درت أدارت رأسها، وتسمى أيضاً الصدى.

(٣) اليعاسيب جمع يعسوب وهو ذكر النحل وأميرها.

خلقة الخفاش

خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة الطير وذوات الأربع، هو إلى ذوات الأربع أقرب، وذلك أنه ذو أذنين ناشزتين^(١) وأسنان ووبر وهو يلد ولادةً ويرضع ويبول، ويمشي إذا مشى على أربع، وكل هذا خلاف صفة للطير، ثم هو أيضاً مما يخرج بالليل، ويتقوت بما يسري^(٢) في الجو من الفراش وما أشبهه، وقد قال قائلون أنه لا طعم للخفاش وأن غذاؤه من النسيم وحده، وذلك يفسد ويبطل من جهتين: أحدهما خروج الثفل والبول منه، فإن هذا لا يكون من غير طعم، والأخرى أنه ذو أسنان، ولو كان لا يطعم شيئاً لم يكن للأسنان فيه معنى، وليس في الخلقة شيء لا معنى له، وأما المآرب فيه فمعروفة، حتى أن زبله يدخل في بعض الأعمال، ومن أعظم الأرب فيه خلخته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناؤه، وتصرفها فيما شاء كيف شاء لضرب من المصلحة.

حيلة الطائر أبو نمرة بالحسكة ومنفعتها

فأما الطائر الصغير الذي يقال له (ابن نَمْرَة) فقد عشن في بعض الأوقات في بعض الشجر، فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه فاعرة فاها، تبغيه لتبتله، فبينما هو يتقلب ويضطرب في طلب حيلة منها إذ وجد حسكة، فحملها فآلقها في فم الحية فلم تزل الحية تلتوي وتتقلب حتى ماتت. أفرأيت لو لم أخبرك بذلك، كان يخطر ببالك أو ببال غيرك أنه يكون من حسكة مثل هذه المنفعة، أو يكون من طائر صغير أو كبير مثل هذه الحيلة. . اعتبر بهذا وكثير من الأشياء يكون فيها منافع لا تعرف بحادث يحدث أو خبر يسمع به.

(١) الناشز: ما كان ناتئاً مرتفعاً عن مكانه.

(٢) يسري: يسير في الليل.

النحل: عسله وبيوته

انظر إلى النحل واحشاده في صنعة العسل، وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى في ذلك من دقائق الفطنة، فإنك إذا تأملت العمل رأيت عجباً لطيفاً، وإذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفاً موقعه من الناس، وإذا رجعت إلى الفاعل ألفيته غيباً جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوى ذلك، ففي هذا أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها، وسخره فيها لمصلحة الناس.

الجراد وبلاؤه

انظر إلى هذا الجراد ما أضعفه وأقواه! . فإنك إذا تأملت خلقه رأيت كأضعف الأشياء وإن دلفت^(١) عساكره نحو بلد من بلدان لم يستطع أحد أن يحميه منه... ألا ترى أن ملكاً من ملوك الأرض لو جمع خيله ورجله^(٢) ليحمي بلاده من الجراد لم يقدر على ذلك. أفليس من الدلائل على قدرة الخالق أن يبعث أضعف خلقه إلى أقوى خلقه، فلا يستطيع دفعه.

كثرة الجراد

انظر إليه كيف ينساب على وجه الأرض مثل السيل، فيفشى السهل والجبل والبدو والحضر، حتى يستر نور الشمس بكثرته، فلو كان هذا مما يصنع بالأيدي، متى كان تجتمع منه هذه الكثرة؟ وفي كم سنة كان يرتفع؟ فاستدل بذلك على القدرة التي لا يؤدها شيء، ولا يكثر عليها.

وصف السمك

تأمل خلق السمك ومشاكلته للأمر الذي قدر أن يكون عليه، فإنه خلق

(١) دلف دلفاً ودلفاناً: مشى كالمقيد وقارب الخطو في مشيه.

(٢) الرجل - بالفتح - جمع راجل وهو من يمشي على رجله لا راكباً.

غير ذي قوائم، لأنه لا يحتاج إلى المشي، إذ كان مسكنه الماء وخلق غير ذي رية، لأنه لا يستطيع أن يتنفس وهو منغمس في اللجة، وجعلت له مكان القوائم أجنحة شداد يضرب بها في جانبيه، كما يضرب الملاح بالمجاديف من جانبي السفينة، وكسا جسمه قشوراً متاناً متداخلة كتداخل الدروع والجواشن^(١) لتقيه الآفات، فأعين بفضل حس في الشم، لأن بصره ضعيف، والماء يحجبه، فصار يشم الطعم من البعد البعيد، فينتجعه^(٢) فيتبعه، وإلا فكيف يعلم به وبموضعه؟ واعلم أن من فيه إلى صماخه^(٣) منافذ، فهو يحب الماء بفيه، ويرسله من صماخيه فيتروح إلى ذلك، كما يتروح غيره من الحيوان إلى تنسم هذا النسيم.

كثرة نسل السمك وعلة ذلك

فكر الآن في كثرة نسله وما حُصّ به من ذلك، فإنك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة، والعلة في ذلك أن يتسع لما يغتذي به من أصناف الحيوان، فإن أكثرها يأكل السمك، حتى أن السباع أيضاً في حافات الآجام^(٤) عاكفة على الماء أيضاً كي ترصد السمك، فإذا مر بها خطفته، فلما كانت السباع تأكل السمك، والطير يأكل السمك، والناس يأكلون السمك، والسمك يأكل السمك كان من التدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة.

المجلس الثالث

فلما كان اليوم الثالث بكرت إلى مولاي فاستؤذن لي فدخلت فأذن لي بالجلوس فجلست، فقال ﷺ :

(١) الجواشن جمع جوشن وهو الدرع أو الصدر.

(٢) يتجمع: يطلب الكلا في موضعه.

(٣) الصماخ - بالكسر - خرق الأذن الباطن الماضي إلى الرأس، والجمع صمخ وأصمخه.

(٤) الآجام جمع الجمع للأجمة: الشجر الكثير الملفف.

الحمد لله الذي اصطفانا ولم يصطفَ علينا، اصطفانا بعلمه^(١)، وأيدنا بحلمه^(٢) من شَذَّ عنا^(٣) فالنار مأواه، ومن تفيأ بظل دوحتنا فالجنة مثواه. . . قد شرحت لك يا مفضل خلق الإنسان، وما دبر به، وتنقله في أحواله، وما فيه من الاعتبار، وشرحت لك أمر الحيوان. . . وأنا أبتدئ الآن بذكر السماء والشمس والقمر والنجوم والفلك والليل والنهار، والحر والبرد، والرياح والجواهر الأربعة الأرض والماء والهواء والنار والمطر والصخر والجبال والطين والحجارة والنخل والشجر وما في ذلك من الأدلة والعبر.

لون السماء وما فيه من صواب التدبير

فكر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير، فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة وتقوية للبصر، حتى أن من صفات الأطباء لمن أصابه شيء أضر ببصره إدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد وقد وصف الحذاق منهم لمن كلَّ بصره الاطلاع في إجابة^(٤) خضراء مملوءة ماء، فانظر كيف جعل الله جل وتعالى أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد ليمسك الأبصار المتقلبة عليه، فلا ينكأ فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذي أدركه الناس بالفكر والروية والتجارب، يوجد مفروغاً منه في الخلقة حكمة بالغة ليعتبر بها المعتبرون، ويفكر فيها الملحدون، قاتلهم الله أنى يؤفكون^(٥).

طلوع الشمس وغروبها والمنافع في ذلك

فكر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها، لإقامة دولتي النهار

(١) اصطفانا أي اختارنا وفضلنا على الخلق، بأن أعطانا من علمه ما لم يعطه أحداً.

(٢) أيدنا بحلمه أي قوانا على تبليغ الرسالة بما حلانا به من حلمه لنصير على ما يلقانا من أذى الناس وتكذيبهم.

(٣) شَذَّ عنا: نذر عنا وانفرد.

(٤) الإجابة - بكسر وتشديد - إزاء تغفل فيه الثياب.

(٥) يؤفكون: يكذبون.

والليل، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فلم يكن الناس يسعون في معائشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم، ولم يكونوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه... والأرب في طلوعها ظاهر مستغنى بظهوره عن الأطناب في ذكره، والزيادة في شرحه... بل تأمل المنفعة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة لسكون أبدانهم، وجموم^(١) حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل، ومطاولته على ما يعظم نكايته في أبدانهم، فإن كثيراً من الناس لولا جثوم^(٢) هذا الليل بظلمته عليهم، لم يكن لهم هدوء ولا قرار، حرصاً على الكسب والجمع الادخار، ثم كانت الأرض تستحمي بدوام الشمس بضياؤها، ويحمي كل ما عليها من حيوان ونبات فقدرها الله بحكمته وتدبيره، تطلع وقتاً وتغرب وقتاً، بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤا ويقروا، فصار النور والظلمة، مع تضادهما متقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه.

التدبير والمصلحة في الفصول الأربعة من السنة

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة^(٣) من السنة وما في ذلك من التدبير والمصلحة، ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيهما مواد الثمار، ويتكشف^(٤) الهواء فينشأ منه السحاب والمطر، وتشتد أبدان الحيوان وتقوى، وفي الربيع

(١) الجموم مصدر جم تقول جم القول: استراحوا وكثروا.

(٢) الجثوم مصدر من قولهم: جثم الليل.

(٣) يريد بذلك الإمام عليه السلام الفصول الأربعة.

(٤) يتكشف الهواء - أي يغلظ ويكثر.

تتحرك وتظهر المواد المتولدة في الشتاء، فيطلع النبات، وتنور^(١) الأشجار ويهيج الحيوان للسفاد، وفي الصيف يحتدم الهواء فتضج الثمار، وتحلل فضول الأبدان، ويجف وجه الأرض، فتها للبناء والأعمال، وفي الخريف يصفو الهواء، وترتفع الأمراض، وتصح الأبدان، ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الأعمال لطوله، ويطيب الهواء فيه إلى مصالح أخرى لو نقصت لذكرها لطال فيها الكلام.

معرفة الأزمنة والفصول الأربعة عن طريق حركة الشمس

فكر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر^(٢) لإقامة دور السنة وما في ذلك من التدبير. فهو الدور الذي تصح به الأزمنة الأربعة من السنة (الشتاء والربيع والصيف والخريف) تستوفيها على التمام، وفي هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار، وتنتهي إلى غاياتهم ثم تعود فيستأنف النشوء والنمو. ألا ترى أن السنة مقدار مسير الشمس من الحمل إلى الحمل. فبالسنة وأخواتها يكال الزمان من لدن خلق الله تعالى العالم، إلى كل وقت وعصر من غابر الأيام، وبها يحسب الناس الأعمار والأوقات المؤقتة للديون والإجازات والمعاملات، وغير ذلك من أمورهم، وبمسير الشمس تكمل السنة، ويقوم حساب الزمان على الصحة.

انظر إلى شروقها على العالم كيف دبر أن يكون؟ فإنها لو كانت تبرز في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتا إلى كثير من الجهات، لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها، فجعلت تطلع أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من وجه المغرب، ثم لا تزال تدور

(١) تنور الأشجار أي تخرج نورها - بفتح فسكون - أي زهرها أو الأبيض منه.

(٢) بروج السماء الاثني عشر هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

وتغشى جهة بعد جهة، حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسطه من المنفعة منها، والأرب التي قدرت له. ولو تخلفت مقدار عام أو بعض عام كيف كان يكون حالهم؟ بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء؟ أفلا ترى كيف كان يكون للناس هذه الأمور الجليلة التي لم يكن عندهم فيها حيلة، فصارت تجري على مجاريها لا تفتل^(١) ولا تتخلف عن مواقيتها لصالح العالم وما فيه بقاءه.

الاستدلال بالقمر في معرفة الشهور

استدل بالقمر ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة في معرفة الشهور، ولا يقوم عليه حساب السنة، لأن دوره لا يستوفي الأزمنة الأربعة ونشوء الشمار وتصرفها، ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها، وصار الشهر من شهور القمر ينتقلن فيكون مرة بالشتاء ومرة بالصيف.

ضوء القمر وما فيه من المنافع

فكر في إنارته في ظلمة الليل والإرب في ذلك فإنه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيه شيء من العمل، لأنه ربما احتاج الناس على العمل بالليل، لضيق الوقت عليهم في بعض الأعمال في النهار، ولشدة الحر وإفراطه، فيعمل في ضوء القمر أعمالاً شتى، محراث الأرض، وضرب اللبن، وقطع الخشب، وما أشبه ذلك، فجعل ضوء القمر معونة للناس على معاشهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وأنساً للسائرين وجعل

(١) لا تفتل - أي لا تنصرف ولا تزول.

طلوعه في بعض الليل دون بعض . ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضياؤها، لكيلا ينسبط الناس في العمل انبساطهم بالنهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار، فيهلكهم ذلك، وفي تصرف القمر خاصة في مهله^(١) ومحاقه^(٢) وزيادته ونقصانه وكسوفه، من التنبيه على قدرة الله تعالى خالقه المصروف له هذا التصريف لصالح العالم ما يعتبر به المعتبرون.

النجوم واختلاف مسيرها والسبب في أن بعضها راتبة والأخرى متنقلة

فكر يا مفضل في النجوم واختلاف مسيرها، فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلك^(٣) ولا تسير إلا مجتمعة، وبعضها مطلقة تنتقل في البروج وتفترق في مسيرها، فكل واحد منها يسير سيرين مختلفين، أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق كالنملة التي تدور على الرحى، فالرحى تدور ذات اليمين، والنملة تدور ذات الشمال والنملة في ذلك تتحرك حركتين مختلفتين: إحداهما بنفسها فتتوجه أمامها، والأخرى مستكرهة مع الرحى تجذبها إلى خلفها . فاسأل الزاعمين أن النجوم صارت على ما هي عليه بالإهمال، من غير عمد ولا صانع لها ما منعها أن تكون كلها راتبة أو تكون كلها متنقلة، فإن الإهمال معنى واحد فكيف صار يأتي بحركتين مختلفتين على وزن وتقدير؟ ففي هذا بيان أن مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير وحكمة وتقدير، وليس بإهمال كما يزعم المعطلة، فإن قال قائل: ولم صار بعض النجوم راتباً وبعضها متنقلاً؟ قلنا: إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالات التي يستدل بها من تنقل المتنقلة، ومسيرها في كل برج من البروج، كما يستدل بها على أشياء مما يحدث في

(١) مهله: أي ظهوره.

(٢) المحاق: - بكسر الأول أو ضمه أو فتحه - هو آخر الشهر القمري وتقبل ثلاث ليالي من آخره.

(٣) لعل المراد أنه ليس لها حركة بينة ظاهرة كما في النجوم السيارة.

العالم، بتنقل الشمس والنجوم في منازلها، ولو كانت كلها منتقلة، لم يكن لمسيرها منازل تعرف، ولا رسم يوقف عليه، لأنه يوقف عليه بمسير المنتقلة منها بتنقلها في البروج الراتبية^(١) كما يستدل على سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها أو لو كان تنقلها بحال واحد لاختلاط نظامها، وبطلت المآرب فيها، ولساغ القائل أن يقول أن كينونتها على حال واحدة توجب عليها الإهمال من الجهة التي وصفنا، ففي اختلاف سيرها وتصرفها وما في ذلك من المآرب والمصلحة، أبين دليل على العمد والتدبير فيها.

فوائد بعض النجوم

فكر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها كمثل الثريا^(٢) والجوزاء^(٣) والشعريين^(٤) وسهيل^(٥)، فإنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد لم يكن لواحد فيها على حياله دلالات يعرفها الناس، ويهتدون بها لبعض أمورهم، كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثور^(٦) والجوزاء إذا طلعت، واحتجابها إذا احتجبت، فصار ظهور كل واحد واحتجابه في وقت غير الوقت الآخر، ليتنفع الناس بما يدل عليه كل واحد منها على حده، وما جعلت الثريا وأشباهاها تظهر حيناً وتحتجب حيناً إلا لضرب من المصلحة، وكذلك جعلت بنات نعش^(٧) ظاهرة لا تغيب لضرب آخر من المصلحة، فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في البر

(١) راتبية أي ثابتة غير متحركة.

(٢) الثريا: مجموع كواكب في عنق الثور.

(٣) الجوزاء: برج في السماء، سميت بذلك لاعتراضها في جوز السماء أي وسطه.

(٤) الشعريان: ثنية الشعري - بالكسر - وهو الكوكب الذي يطلع في الجوزاء وطلوعه من شدة الحر.

(٥) سهيل - بالصغير - نجم بهي طلوعه على بلاد العرب في أواخر القبط.

(٦) الثور: برج في السماء من البروج الاثني عشر.

(٧) بنات نعش الكبرى: سبعة كواكب تشاهد من جهة القطب الشمالي، ويقربها سبعة أخرى تسمى بنات نعش الصغرى، والنجمة التي رسمت كبيرة هي النجمة التي يستدل بها على نقطة القطب الشمالي.

والبحر للطرق المجهولة، وكذلك أنها لا تغيب ولا تتوارى فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهتدوا بها إلى حيث شاؤوا، وصار الأمران جميعاً على اختلافهما موجّهين نحو الأرب والمصلحة، وفيهما مآرب أخرى علامات ودلالات على أوقات كثيرة من الأعمال، كالزراعة والغراس والسفر في البر والبحر، وأشياء مم يحدث في الأزمنة من الأمطار والرياح والحر والبرد، وبها يهتدي السائرون في ظلمة الليل، لقطع القفار الموحشة واللجج^(١) الهائلة، مع ما في تردها في كبد السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من العبر، فإنها تسير أسرع وأحثة^(٢). أرأيت لو كانت الشمس والقمر والنجوم بالقرب منا، حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه، ألم تكن تستخطف الأبصار بوهجها وشعاعها كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالى واضطربت في الجوّ؟ وكذلك أيضاً لو أن أناساً كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دوراناً حثيثاً لحارت أبصارهم حتى يخوروا لوجوهم.

فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها في البعد البعيد، لكيلا تضر في الأبصار، وتنكأ فيها، وبأسرع السرعة. لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة في مسيرها، وجعل فيها جزءاً يسيراً من الضوء، ليسد مسد الأضواء إذا لم يكن قمر، ويمكن فيه الحركة إذا حدثت ضرورة، كما قد يحدث الحادث على المرء فيحتاج إلى التجافي^(٣) في جوف الليل، فإن لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع أن يبرح مكانه.

فتأمل اللطف والحكمة في هذا التقدير، حين جعل للظلمة دولة ومدة لحاجة إليها، وجعل خلالها شيء من الضوء للمآرب التي وصفنا.

(١) اللجج جمع لجة: معظم الماء.

(٢) أسرع السير وأحثة كلامها بمعنى واحد.

(٣) التجافي من تجافى أي لم يلزم مكانه.

الشمس والقمر والنجوم والبروج تدل على الخالق

فكر في هذا الفلك بشمس وقمر ونجوم وبروحه تدور على العالم هذا الدوران الدائم، بهذا التقدير والوزن لما في اختلاف الليل والنهار وهذه الأزمان الأربعة المتوالية من التنبيه على الأرض وما عليها من أصناف الحيوان والنبات من ضرور المصلحة، كالذي بينت وشخصت لك آنفاً وهل يخفى على ذي لب أن هذا تقدير مقدر وصواب وحكمة من مقدر حكيم، فإن قال قائل: إن هذا شيء اتفق أن يكون هكذا؟ فما منعه أن يقول مثل هذا في دولاب^(١) يراه يدور ويسقي حديقة فيها شجر ونبات فيرى كل شيء من آلاته مقدراً بعضه يلقي بعضاً على ما فيه صلاح تلك الحديقة وما فيها. وبم كان يثبت هذا القول لو قاله. وما ترى الناس كانوا قائلين له لو سمعوه منه؟ أفينكر أن يقول في دولاب خشب مصنوع بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الأرض، إنه كان بلا صانع ومقدر، ويقدر أن يقول في هذا الدولاب الأعظم، المخلوق بحكمة تقصر عنها أذهان البشر، لصلاح جميع الأرض وما عليها إنه شيء اتفق أن يكون بلا صنعة ولا تقدير لو اعتل هذا الفلك، كما تعتل الآلات التي تتخذ للصناعات وغيرها، أي شيء كان عند الناس من الحيلة في إصلاحه.

مقادير الليل والنهار

فكر يا مفضل في مقادير النهار والليل، كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق، فصار ينتهي كل واحد منهما إذا امتد إلى خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك أفرأيت لو كان النهار يكون مقداره مائة ساعة أو مائتي ساعة؟ ألم يكن في ذلك بوار كل ما في الأرض من حيوان ونبات؟ أما

(١) الدولاب - بالفتح - كل آلة تدور على محور والجمع دواليب، والكلمة من الدخيل.

الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة، ولا البهائم كانت تمسك عن الرعي لو دام لها ضوء النهار، ولا الإنسان كان يفتر عن العمل والحركة، وكان ذلك ينهكها أجمع، ويؤذيها على التلف، وأما النبات فكان يطول عليه حر النهار ووهج الشمس حتى يجف ويحترق كذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش، حتى تموت جوعاً، وتخمد الحرارة الطبيعية عن النبات، حتى يعفن ويفسد، كالذي تراه يحدث على النبات إذا كان في موضع لا تطلع عليه الشمس.

الحر والبرد وفوائدهما

اعتبر بهذا الحر والبرد كيف يتعاوران^(١) العالم، ويتصرفان هذا التصرف في الزيادة والنقصان والاعتدال، لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فيهما من المصالح، ثم هما بعد دباغ الأبدان التي عليها بقاؤها وفيهما صلاحها، فإنه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت وأخوت^(٢) وانتكثت^(٣).

فكر في دخول أحدهما^(٤) على الآخر بهذا التدريج والترسل، فإنك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذلك، حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان، ولو كان دخول أحدهما على الآخر مفاجأة، لأضر ذلك بالأبدان وأسقمها. كما أن أحدكم لو خرج من حمار حار إلى موضع البرودة، لضره ذلك وأسقم بدنه فلم يجعل الله عزَّ

(١) يتعاوران: يتداولان.

(٢) أخوت: جاءت.

(٣) انتكثت: انتفضت وانتبذت.

(٤) أحدهما أي الحر والبرد.

وجلّ هذا الترسل في الحر والبرد، إلا للسلامة من ضرر المفاجأة ولما جرى الأمر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجأة لولا التدبير في ذلك؟ فإن زعم زاعم: أن هذا الترسل في دخول الحر والبرد إنما يكون لإبطاء مسير الشمس في ارتفاعها وانحطاطها، سئل عن العلة في إبطاء مسير الشمس في ارتفاعها وانحطاطها، فإن اعتل في الإبطاء ببعد ما بين المشرقين^(١) سئل عن العلة في ذلك، فلا تزال هذه المسألة ترقى معه إلى حيث رقي من هذا القول، حتى استقر عن العمد والتدبير... لولا الحر لما كانت الثمار الجاسية^(٢) المرة تنضج فتلين وتعذب، حتى يتفكه بها رطبة ويابس... ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ^(٣) هكذا، ويريع الريع^(٤) الكثير الذي يتسع للقوت، وما يرد في الأرض للبذر... أفلا ترى ما في الحر والبرد، من عظيم الغناء والمنفعة، وكلاهما مع غناؤه والمنفعة فيه يؤلم الأبدان ويمضها^(٥) وفي ذلك عبرة لمن فكر، ودلالة على أنه من تدبير الحكيم، في مصلحة العالم وما فيه.

الريح وما فيها

وأنبهك يا مفضل على الريح وما فيها، ألست ترى ركودها إذا ركدت كيف يحدث الكرب، الذي يكاد أن يأتي على النفوس، ويمرض الأصحاء، وينهك المرضى، ويفسد الثمار، ويعفن البقول، ويعقب الوباء في الأبدان، والآفة في الغلات. ففي هذا بيان أن هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق.

(١) المراد بالمشرقين هنا هما المشرق والمغرب من باب تغليب أحدهما على الآخر.

(٢) الجاسية: أي الصلبة.

(٣) يفرخ الزرع: أي تثبت أفرأخه وهي ما يخرج في أصوله من صفاره.

(٤) يريع الريع أي تنمو الغلة وتزداد.

(٥) يمضها: يوجعها ويؤلمها.

الهواء والأصوات

وأنبتك عن الهواء بخلة أخرى، فإن الصوت أثر يؤثره اصطكاك الأجسام في الهواء، والهواء يؤديه إلى المسامع والناس يتكلمون في حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم، فلو كان أثر هذا الكلام يبقى في الهواء. كما يبقى الكتاب في القُرطاس، لامتلا العالم منه، فكان يكرههم ويفدحهم، وكانوا يحتاجون في تجديده والاستبدال به، إلى أكثر مما يحتاج إليه في تجديد القراطيس، لأن ما يلفظ من الكلام أكثر مما يكتب، فجعل الخلاق الحكيم جل قدسه هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكلام ريثما يبلغ العالم حاجتهم، ثم يمحي فيعود جديداً نقياً، ويحمل ما حمل أبداً بلا انقطاع، وحسبك بهذا النسيم المسمى هواء عبدة، وما فيه من المصالح، فإنه حياة هذه الأبدان، والممسك لها من داخل، بما يستنشق منه من خارج بما يباشر من روحه، وفيه تطرد هذه الأصوات فيؤدي البعد البعيد... وهو الحامل لهذه الأرواح ينقلها من موضع إلى موضع... ألا ترى كيف تأتيك الرائحة من حيث تهب الريح، فكذلك الصوت، وهو القابل لهذا الحر والبرد، اللذين يتعاقبان على العالم لصلاحه، ومنه هذه الريح الهابة فالريح تروح عن الأجسام وترجي السحاب من موضع إلى موضع، ليعم نفعه، حتى يستكثف فيمطر، وتفضه حتى يستخف فيتفشى وتلقح الشجر، وتسير السفن، وترخى الأطعمة، وتبرد الماء، وتشب النار، وتجفف الأشياء الندية، وبالجمله أنها تحيي كل ما في الأرض... فلولا الريح لذوى النبات، ولعات الحيوان، وحمت الأشياء وفسدت.

هيئة الأرض

فكر يا مفضل فيما خلق الله عز وجل عليه هذه الجواهر الأربعة^(١)

(١) المراد بالجواهر الأربعة هي التراب والماء والهواء والنار.

ليتسع ما يحتاج إليه منها. . فمن ذلك سعة هذه الأرض وامتدادها، فلولا ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الناس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت أخشابهم وأحطابهم والعقاير العظيمة والمعادن الجسيم غناؤها. ولعل من ينكر هذه الفلوات^(١) الخاوية والقفار الموحشة. فيقول: ما المنفعة فيها؟ فهي مأوى هذه الوحوش ومحالها ومراعيها، ثم فيها بعد تنفس، ومضطرب للناس إذا احتاجوا إلى الاستبدال بأوطانهم، فكم بيداء وكم فدق^(٢) حالت قصوراً وجناناً، بانتقال الناس إليها وحلولهم فيها، ولولا سعة الأرض وفسحتها لكان الناس كمن هو في حصار ضيق لا يجد مندوحة عن وطنه إذا أحزنه أمر يضطره إلى الانتقال عنه.

ثم فكر في خلق هذه الأرض على ما هي عليه حين خلقت راتبة راكنة، فتكون موطناً مستقراً للأشياء، فيتمكن الناس من السعي عليها من مآربهم، والجلوس عليها لراحتهم، والنوم لهدوئهم، والإتقان لأعمالهم فإنها لو كانت رجراجة منكفئة، لم يكونوا يستطيعون أن يتقنوا البناء والنجارة والصناعة وما أشبه ذلك، بل كانوا لا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم، واعتبر ذلك بما يصيب الناس حين الزلازل - على قلة مكثها - حتى يصيروا إلى ترك منازلهم، والهرب عنها. . فإن قال قائل: فلم صارت هذه الأرض تزلزل؟ قيل له: إن الزلزلة وما أشبهها موعظة وترهيب يرهب لها الناس ليرعوا، ويتزوعوا عن المعاصي، وكذلك ما ينزل بهم من البلاء في أبدانهم وأموالهم، يجري في التدبير على ما فيه صلاحهم واستقامتهم، ويدخر لهم إن صلحوا من الثواب والعوض في الآخرة ما لا يعد له شيء من أمور الدنيا، وربما عجل ذلك في الدنيا إذا كان ذلك في

(١) الفلوات جمع فلات وهي الصحراء الواسعة.

(٢) الفدق: الفلاة والجمع فدافد.

الدنيا صلاحاً للعامة والخاصة، ... ثم أن الأرض في طباعها الذي طبعها الله عليه باردة يابسة، وكذلك الحجارة، أفرأيت لو أن اليبس أفرط على الأرض قليلاً، حتى تكون حجراً صلداً، أكانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوان، وكان يمكن بها حرث أو بناء؟؟ أفلا ترى كيف نقصت من يبس الحجارة وجعلت على ما هي عليه من اللين والرخاوة لتتھيا للاعتماد.

فوائد الماء والسبب في كثرتھ

ومن تدبير الحكيم جل وعلا في خلقه الأرض أن مھب الشمال أرفع من مھب الجنوب^(١) فلم جعل الله عز وجل كذلك إلا لتتھدر المياه على وجه الأرض فتسقيھا وترويھا، ثم تفيض آخر ذلك إلى البحر، فكما يرفع أحد جانبي السطح، ويخفض الآخر لينتھدر الماء عنه ولا يقوم عليه كذلك جعل مھب الشمال أرفع من مھب الجنوب لهذه العلة بعينھا، ولولا ذلك لبقى الماء متحيراً على وجه الأرض، فكان يمنع الناس من أعمالھا، ويقطع الطرق والمسالك، ثم الماء لولا كثرتھ، وتدفقه في العيون والأودية والأنھار، لضاق عما يحتاج إليه الناس، لشربھم وشرب أنعامھم ومواشيھم، وسقي زروعھم وأشجارھم وأصناف غلاتھم، وشرب ما يردھ من الوحوش والطير والسباع، وتتقلب فيه الحيتان ودواب الماء، وفيه منافع أخر أنت بها عارف وعن عظیم موقعھا غافل فإنه^(٢) سوى الأمر الجليل لمعروف من عظیم غنائه في إحياء جميع ما على الأرض من الحيوان والنبات يمزج

(١) أي بعدما خرجت الأرض من الكروية الحقيقية، صار ما يلي الشمال منها في أكثر المعمورة أرفع مما يلي الجنوب، ولذا ترى أكثر الأنھار كدجلة والفرات وغيرھما تجري من الشمال على الجنوب، لأن الماء الساكن في جوف الأرض تابع للأرض في ارتفاعه وانخفاضه، ولذا - أيضاً - صارت العيون المتفجرة تجري هكذا من الشمال إلى الجنوب. ... ومن أجل ذلك حكموا بفوقية الشمال على الجنوب. ويظهر لك مما بينه الإمام عليه السلام أنه لا ينافي كروية الأرض (من تعليقات البحار).

(٢) المضير راجع إلى الماء وهو اسم أن يمزج خبرھا. أي الماء سوى النفع الجليل المعروف وهو كونه مبياً لحياة كل شيء ومنافع أخرى منها أنه يمزج مع الأشربة.

الأشربة فتلذ وتطيب لشاربها، وبه تنظف الأبدان والأمتعة من الدرن^(١) الذي يغشاها، وبه يبل^(٢) التراب فيصلح للأعمال وبه يكف عادية النار إذا اضطربت، وأشرف الناس على المكروه، وبه يستحم المتعب الكال^(٣) فيجد الراحة من أوصابه، إلى أشباه هذا من المآرب التي تعرف عظم موقعها في وقت الحاجة إليها، فإن شككت في منفعة هذا الماء الكثير المتراكم في البحار، وقتلك ما الأرب فيه؟ فعلم أنه مكتنف ومضطرب ما لا يحصى من أصناف السمك ودواب البحر ومعدن اللؤلؤ والياقوت والعنبر^(٤) وأصناف شتى تستخرج من البحر، وفي سواحله منابت العود البلنجوج^(٥) وضروب من الطيب والعقاقير، ثم هو بعد مركب للناس، ومحمل لهذه التجارات التي تجلب من البلدان البعيدة، كمثل ما يجلب من الصين إلى العراق، ومن العراق على الصين فإن هذه التجارات، لو لم يكن لها محمل إلا على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وأيدي أهلها، لأن أجر حملها يجاوز أثمانها، فلا يتعرض أحد لحملها وكان يجتمع في ذلك أمران: أحدهما فقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها والآخر انقطاع معاش من يحملها ويتعيش بفضلها.

فوائد الهواء والسبب في كثرتة

وهكذا الهواء لولا كثرتة وسعته لاختنق هذا الأنام من الدخان والبخار الذي يتحير فيه، ويعجز عما يحول إلى السحاب والضباب أولاً، أولاً، فقد تقدم من صفته ما فيه كفاية.

(١) الدرن - بفتحين - هو الوسخ جمعه أدران.

(٢) بله الماء: نداء.

(٣) الكال اسم فاعل من كل: تمب واعياً.

(٤) العنبر هو الطيب والزعفران، أو حوت قد يبلغ طوله نحواً من ٦٠ قدماً ضخماً الرأس وله أسنان بخلاف البال والجمع عنابر.

(٥) البلنجوج: العود الطيب الرائحة.

منافع النار وجعلها كالمخزونة في الأجسام

والنار أيضاً كذلك، فإنها لو كانت مبنوثة كالنسيم والماء كانت تحرق العالم وما فيه، ولما لم يكن بد من ظهورها في الأحياء، لغنائها في كثير من المصالح، جعلت كالمخزونة في الأجسام، فتلتصق عند الحاجة إليها، وتمسك بالمادة والحطب ما احتيج إلى بقائها لئلا تخبو فلا هي تمسك بالمادة والحطب، فتعظم المؤونة في ذلك، ولا هي تظهر مبنوثة، فتحرق كل ما هي فيه، بل هي على تهيئة وتقدير، اجتمع فيها الاستمتاع لمنافعها والسلامة من ضررها.

ثم فيها خلة أخرى وهي أنها مما خُصَّ بها الإنسان دون جميع الحيوان لما له فيها من المصلحة، فإنه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الضرر في معاشه، فأما البهائم فلا تستعمل النار، ولا تستمتع بها، ولما قدر الله عز وجل أن يكون هذا هكذا، خلق للإنسان كفاً وأصابع مهينة لقدح النار واستعمالها، ولم يعط البهائم مثل ذلك، لكنها أعينت بالصبر على الجفاء والخلل في المعاش لكيلا ينالها في فقد النار ما ينال الإنسان عند فقدانها.

وأنبئك من منافع النار على خلقة صغيرة عظيم موقعها، وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس، فيقضون به حوائجهم ما شاؤوا في ليلهم ولولا هذه الخلقة لكان الناس تصرف أعمارهم بمنزلة من في القبور، فمن كان يستطيع أن يكتب أو يحفظ، أو ينسج في ظلمة الليل، وكيف كان حال من عرض له وجع في وقت من أوقات الليل، فاحتاج إلى أن يعالج ضماداً أو سفوفاً^(١) أو شيئاً يستشفى به... فأما منافعها في نضج الأطعمة ودفاء

(١) السفوف - بالفتح - : ما تسفه من دواء ونحوه. وسف الدواء ونحوه: أخذه غير ملترت.

الأبداء وتجفيف أشياء وتحليل أشياء وأشياء ذلك، فأكثر من أن تحصي وأظهر من أن تخفى.

الصحو والمطر وتعاقبهما على العالم وفوائد ذلك

فكر يا مفضل في الصحو والمطر كيف يتعاقبان على هذا العالم لما فيه صلاحه، ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساد.. ألا ترى أن الأمطار إذا توالى عنت البقول والخضر، واسترخت أبدان الحيوان وحصر الهواء فأحدث ضرراً من الأمراض. وفسدت الطرق والمسالك وأن الصحو إذا دام جفت الأرض، واحترق النبات، وغيض ماء العيون والأودية، فأضر ذلك بالناس، وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً أخرى من الأمراض... فإذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر، فصلحت الأشياء واستقامت.. فإن قال قائل: ولم لا يكون في شيء من ذلك مضرّة البتة؟ قيل له؟ ليمض ذلك الإنسان ويؤلمه بعض الألم، فيرعوي عن المعاصي، فكما أن الإنسان إذا سقم بدنه احتاج إلى الأدوية المرة البشعة ليقوم طباعه، ويصلح ما فسد منه، كذلك إذا طغى واشتد، احتاج إلى ما يمضه ويؤلمه، ليرعوي ويقصر عن مساويه، ويثبت على ما فيه حظه ورشده.. ولو أن ملكاً من الملوك قسم في أهل مملكته قناطر^(١) من ذهب وفضة، ألم يكن سيعظم عندهم ويذهب له به الصوت، فأين هذا من مطرة رواء يعم به البلاد، ويزيد في الغلات أكثر من قناطر الذهب والفضة في أقاليم الأرض كلها... ألا ترى المطرة الواحدة ما أكبر قدرها، وأعظم النعمة على الناس فيها وهم عنها ساهون، وربما عاقت عن أحدهم حاجة لا قدر لها، فيتذمر ويسخط إيثراً للخسيس قدره على العظيم نفعه، جميلاً محموداً لعاقبته وقلة معرفته لعظيم الغناء والمنفعة فيها.

(١) القناطر جمع قنطار وهو المال الكثير أو وزن اختلف مقدار موزونه مع الأهام.

مصالح نزول المطر على الأرض واثـر التدبير فيه

تأمل نزوله على الأرض والتدبير في ذلك، فإنه جعل ينحدر عليها من علو ليغشى ما غلظ وارتفع منها فيرويه، ولو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها، ويقل ما يزرع في الأرض... ألا ترى أن الذي يزرع سيحاً^(١) أقل من ذلك، فالأمطار هي التي تطبق الأرض، وربما تزرع هذه البراري الواسعة وسفوح الجبال وذراها فتغل الغلة الكثيرة. وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدان مؤنة سباق الماء من موضع إلى موضع، وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العز والقوة، ويحرمه الضعفاء، ثم أنه حين قدر أن ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطعاً شبيهاً بالرش، ليغور في قعر الأرض فيرويه، ولو كان يسكبه انسكاباً كان ينزل على وجه الأرض فلا يغور فيها، ثم كان يحطم الزروع القائمة إذا اندفع عليها، فصار ينزل نزولاً رقيقاً، فينبت الحب المزروع. ويحيي الأرض والزرع القائم.

وفي نزوله أيضاً مصالح أخرى، فإنه يلين الأبدان، ويجلو كدر الهواء، فيرتفع الوباء الحادث من ذلك، ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الدماء المسمى باليرقان^(٢) إلى أشباه هذا من المنافع، فإن قال قائل: أوليس قد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم الكثير، لشدة ما يقع منه، أو برد^(٣) يكون فيه تحطم الغلات، وبخوره يحدثها في الهواء، فيولد كثيراً من الأمراض في الأبدان، والآفات في الغلات؟ قيل: بلى قد يكون ذلك الفرط، لما فيه من صلاح الإنسان، وكفه عن ركوب المعاصي

(١) زراعة السبح هي الزراعة التي تحصل عن طريق الأنهر والمياه الجارية.

(٢) اليرقان - بفتحين أو فتح فسكون - آفة للزرع أو دوه يسطو على الزرع.

(٣) البرد - بفتحين: ماء الغمام يتجمد في الهواء البارد ويسقط على الأرض حبواً.

والتماذي فيها. فيكون المنفعة فيما يصلح له من دينه، أرجح مما عسى أن يبرزاً في ماله^(١).

منافع الجبال

انظر يا مفضل إلى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة، التي يحسبها الغافلون فضلاً لا حاجة إليها. والمنافع فيها كثيرة، فمن ذلك أن تسقط عليها الثلوج، فتبقى في قلالها^(٢) لمن يحتاج إليه، ويزدوب ما ذاب منه، فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الأنهار العظم، وينبت فيها ضروب من النبات والعقاير التي لا ينبت مثلها في السهل، ويكون فيها كهوف ومعاقل للوحوش من السباع العادية^(٣) ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرز من الأعداء وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء^(٤) ويوجد فيها معادن لضرب من الجواهر، وما فيها خلال آخر لا يعرفها إلا المقدر لها في سابق علمه.

أنواع المعادن واستفادة الإنسان منها

فكر يا مفضل: في هذه المعادن وما يخرج منها من الجواهر المختلفة مثل الجص والكلس والجبس والزرنين^(٥) والمرتك^(٦) والتوتيا^(٧) والزئبق^(٨)

(١) القلال - بالكسر - جمع قلة - بضم فتشديد - أعلى الرأس والجبل وكل شيء.

(٢) العادية: المعتدية.

(٣) الأرحاء: جمع رحي وهي الطاحون.

(٤) الزرنين عنصر معروف يوجد منفرداً وعلى حالة كبريتور الزرنين وهو جسم صلب لونه سنجابي لامع متبلور بتأثير الحرارة من غير أن يصهر ولا يذوب في الماء، وإذا خلط الزرنين مع الكلس حلق الشعر.

(٥) المرتك وتضاف إليه غالباً كلمة الذهبي وهو أكسيد الرصاص عبارة عن بلورات صغيرة مسحوقة يدخل في تركيب مرهم للبواسير.

(٦) التوتيا هي أكسيد الزنك غير النقي مخلوطاً مع الزرنين لا يستعمل في الطب.

(٧) الزئبق سيال معدني لامع يتجمد على درجة ٤٠ تحت الصفر ويغلي على درجة ٣٦٠ فوق الصفر، ويستعمل لاستخراج الذهب والفضة بالتلمغ وفي البارومتر والترومومتر وفي عمل المرايا وفي الطب دهاناً على الجلد في معالجة الزهري.

والنحاس والرصاص والفضة والذهب والزبرجد والياقوت والزمرد وضروب الحجارة، وكذلك ما يخرج منها من القار والموميا والكبريت والنفط وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم فهل يخفى على ذي عقل أن هذه كلها ذخائر ذخرت للإنسان في هذه الأرض، ليستخرجها فيستعملها عند الحاجة إليها، ثم قصرت حيلة الناس عما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم في ذلك فإنهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم كان لا محالة سيظهر، ويستفيض في العالم، حتى تكثر الفضة والذهب، ويسقطا عند الناس. فلا تكون لهما قيمته. ويبطل الانتفاع بهما في الشراء والبيع والمعاملات، ولا كان يجبي السلطان الأموال ولا يدخرهما أحد للأعقاب، وقد أعطى الناس - مع هذا - صنعة الشبه^(١) من النحاس، والزجاج من الرمل. والفضة من الرصاص، والذهب من الفضة، وأشباه ذلك مما لا مضرة فيه.

فانظر كيف أعطوا إرادتهم في ما لا ضرر فيه، ومنعوا ذلك فيما كان ضاراً لهم لو نالوه، ومن أوغل في المعادن انتهى إلى وإٍ عظيم يجري منصلاً بماء غزير، لا يدرك غوره، ولا حيلة في عبوره، ومن ورائه أمثال الجبال من الفضة.

تفكر الآن في هذا، من تدبير الخالق الحكيم، فإنه أراد جل ثناؤه أن يري العباد قدرته، وسعة خزائنه، ليعلموا أنه لو شاء أن يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل، لكن لا صلاح لهم في ذلك، لأنه لو كان فيكون فيها - كما ذكرنا - سقوط هذا الجوهر عند الناس، وقلة انتفاعهم به. واعتبر ذلك بأنه قد يظهر الشيء الظريف مما يحدثه الناس من الأواني والأمتعة، فما دام عزيزاً قليلاً، فهو نفيس جليل.

(١) الشبه - بكسر ففتح - هو النحاس الأصفر.

خذ الثمن، فإذا فشا وكثر في أيدي الناس، سقط عندهم وخست قيمته. . ونفاسة الأشياء من عزتها.

النبات وما فيه من ضروب المآرب

فكر يا مفضل في هذا النبات وما فيه من ضروب المآرب، فالثمار للغذاء، والأتبان للعلف، والحطب للوقود، والخشب لكل شيء من أنواع التجارة وغيرها، واللحاء^(١) والورق والأصول والعروق والصمغ لضروب من المنافع. أرايت لو كنا نجد الثمار التي نغتذي بها مجموعة على وجه الأرض، ولم تكن تنبت على هذه الأغصان الحاملة لها، كم كان يدخل علينا من الخلل في معاشنا، وإن كان الغذاء موجوداً فإن المنافع بالخشب والحطب والأتبان وسائر ما عددها كثيرة عظيم قدرها، جليل موقعها، هذا مع ما في النبات من التلذذ بحسن منظره، ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر العالم وملاهي.

الريـع في النبات وسببه

فكر يا مفضل في هذا الريع الذي جعل في الزرع، فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر وأقل، وكان يجوز للحبة أن تأتي بمثلها فلم صارت تريع هذا الريع إلا ليكون في الغلة^(٢) متسع، لما يرد في الأرض من البذر، وما يتقوت الزراع إلى إدراك زرعها المستقبل، ألا ترى أن الملك لو أراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل في ذلك أن يعطي أهله ما يبذرونه في أرضهم وما يقوتهم إلى إدراك زرعهم.

فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم في تدبير الحكيم، فصار الزرع

(١) اللحاء: قشر العود أو الشجر.

(٢) الثغلة - بالفتح - : الدخل من كراء دار وفائدة أرض ونحو ذلك والجمع غلات وغلالات.

يربع هذا الربيع ليفي بما يحتاج إليه للقوت والزراعة، وكذلك الشجر والنبت والنخل يربع الربيع الكثير، فإنك ترى الأصل الواحد حوله من فراخه أمراً عظيماً، فلم كان كذلك إلا ليكون فيه ما يقطعه الناس، ويستعملونه في مآربهم، وما برد فيغرس في الأرض، ولو كان الأصل منه يبقى منفرداً لا يفرخ ولا يربع لما أمكن أن يقطع منه شيء لعمل ولا لغرس، ثم كان إن أصابته آفة انقطع أصله، فلم يكن منه خلف.

بعض النباتات وكيف تصان

تأمل نبات هذه الحبوب من العدس والماش والباقلاء وما أشبه ذلك فإنها تخرج في أوعية مثل الخرائط^(١) لتصونها وتحجبها من الآفات إلى أن تشتد وتستحكم، كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه وأما البر^(٢) وما أشبه فإنه يخرج مدرجاً في قشور صلاب على رؤوسها أمثال الأسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوفر على الزراع فإن قال قائل: أو ليس قد ينال الطير من البرّ والحبوب؟ قيل له: بلى على هذا قدر الأمر فيها، لأن الطير خلق من خلق الله تعالى وقد جعل الله تبارك وتعالى له في ما تخرج الأرض حظاً ولكن حصنت الحبوب بهذه الحجب لئلا يتمكن الطير منها كل التمكن فيعيب بها ويفسد الفساد الفاحش. فإن الطير لو صادف الحب بارزاً ليس عليه شيء يحول دونه لأكب عليه حتى ينسفه أصلاً، فكان يعرض من ذلك أن يبشم^(٣) الطير فيموت، ويخرج الزراع من زرعه صفراً، فجعلت عليه هذه الوقايات لتصونه، فينال الطائر منه شيئاً يسيراً يتقوت به، ويبقى أكثره للإنسان، فإنه أولى به، إذ كان هو الذي كدح فيه وشقى به، وكان الذي يحتاج إليه أكثر مما يحتاج إليه الطير.

(١) لعل مراد الإمام عليه السلام الشكل المخروطي.

(٢) البر - بضم فتشديد - هو القمح، الواحدة بُرة.

(٣) يبشم الطعام: أي يتخم من الطعام.

الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات، فإنها لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان، ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء، جعلت أصولها مركوزة في الأرض لتنزع منها الغذاء فتؤديه إلى الأغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم العربية لها، وصارت أصولها التي هي كالأفواه ملتقمة للأرض لتنزع منها الغذاء، كما ترضع أصناع الحيوان أمهاتها، ألم ترى إلى عمد الفساطيط^(١) والخيم كيف تمد بالأطناب^(٢) من كل جانب لتثبت منتصبه فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه، ولولا ذلك كيف كان يثبت هذا النخل الطوال والدوح العظام في الريح العاصف؟.

فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة فصارت الحيلة التي تستعملها الصناع في ثبات الفساطيط والخيم، متقدمة في خلق الشجر، لأن خلق الشجر قبل صنعة الفساطيط والخيم... ألا ترى عمدها وعيدانها من الشجر، فالصناعة مأخوذة من الخلقة.

خلق الورق ووصفه

تأمل يا مفضل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجماً، لو كان مما يصنع بالأيدي كصناعة البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة في عامل كامل، ولاحتيج إلى آلات

(١) الفساطيط جمع فسطاط وهو الخيمة.

(٢) الأطناب جمع طناب - بضمين - حبل طويل يشد به سرادق البيت.

وحركة وعلاج وكلام، فصار يأتي منه في أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل وقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام، إلا بالإرادة النافذة في كل شيء والأمر المطاع... واعرف مع ذلك العلة في تلك العروق الدقاق، فإنها جعلت تتخلل الورقة بأسرها، لتسقيها وتوصل الماء إليها، بمنزلة العروق المباشرة في البدن، لتوصل الغذاء إلى كل جزء منه، وفي الغلاظ منها معنى آخر، فإنها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها، لئلا تنتهك وتمزق، فترى الورقة شبيهاً بورقة معمولة بالصنعة من خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة في طولها وعرضها لتتماسك فلا تضطرب... فالصناعة تحكي الخلقة وإن كانت لا تدركها على الحقيقة.

العجم والنوى والعلة في خلقه

فكر في هذا العجم والنوى والعلة فيه، فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقام الغرس إن عاق دون الغرس عائق، كما يحرز الشيء النفيس الذي تعظم الحاجة إليه في مواضع أخرى، فإن حدث على الذي في بعض المواضع منه حادث وجد في موضع آخر، ثم هو بعد يمسك بصلابته رخاوة الشمار وورقتها، ولولا ذلك لتشدخت^(١) وتفسخت، وأسرع إليها الفساد وبعضه يؤكل ويستخرج دهنه، فيستعمل منه ضروب من المصالح، وقد تبين لك موضع الإرب في العجم والنوى.

فكر الآن في هذا الذي تجده فوق النواة من الرطبة، وفوق العجم من العنبة، فما العلة فيه؟ ولماذا يخرج في هذه الهيئة؟ وقد كان يمكن أن يكون مكان ذلك ما ليس فيه مأكّل كمثّل ما يكون في السدر^(٢) والدلب^(٣) وما

(١) تشدخت: تكسرت.

(٢) السدر - بالكسر - شجر النبق جمعه سدور.

(٣) الدلب - بالغيم - شجر عظيم عريض الورق لا زهر له ولا ثمر والواحدة دلبة.

أشبه ذلك. فليَم صار يخرج فوقه هذه المطاعم اللذيذة، إلا ليستمتع بها الإنسان؟.

موت الشجر وتجدد حياته وما في ذلك من ضروب التدبير

فكّر في ضروب من التدبير في الشجر، فإنك تراه يموت في كل سنة موة، فتحبّس الحرارة الغريزية في عوده، ويتولد فيه مواد الشمار ثم يحيى ويتشتر، فيأتيك بهذه الفواكه نوعاً بعد نوع، كما تعد نوع، كما تقدم إليك أنواع الأطبخة التي تعالج بالأيدي واحداً بعد واحد، فترى الأغصان في الشجر تتلّاقك بشمارها حتى كأنها تناولك عن يد، وترى الرياحين تتلّاقك في أفنانها^(١) كأنها تجثك بأنفسها، فلمن هذا التقدير إلا لمقدر حكيم وما العلة فيه إلا تفكيه الإنسان بهذه الشمار والأنوار؟... والعجب من أناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها.

خلق الرمانة واثّر العمد فيه

واعتبر بخلق الرمانة وما ترى فيها من أثر العمد والتدبير، فإنك ترى فيها كأمثال التلال، من شحم مركوم في نواحيها، وحب مرصوف صفّاً كنحو ما ينضد بالأيدي، وترى الحب مقسوماً أقساماً، وكل قسم منها ملفوفاً بلفائف من حجب منسوجة أعجب النسج والطفه وقشره يضم ذلك كله.

فمن التدبير في هذه الصنعة أنه لم يكن يجوز أن يكون حشو الرمانة من الحب وحده، وذلك أن الحب لا يمد بعضه بعضاً، فجعل ذلك الشحم خلال الحب ليّمده بالغذاء. ألا ترى أن اصول الحب مركوزة في ذلك الشحم، ثم لف بتلك اللفائف لتضمه وتمسكه فلا يضطرب، وغشي فوق

(١) الأفنان جمع فتن وهو الفصن المستقيم.

ذلك بالقشرة المستحصفة لصتونه وتحصنه من الآفات، فهذا قليل من كثير من وصف الرمانة، وفيه أكثر من هذا لمن أراد الإطناب^(١) والتذرع^(٢) في الكلام، ولكن فيما ذكرت لك كفاية في الدلالة والاعتبار.

حمل اليقطين وما فيه من التدبير والحكمة

فكر يا مفضل في حمل اليقطين الضعيف مثل هذه الثمار الثقيلة من الدباء^(٣) والقثاء^(٤) والبطيخ وما في ذلك من التدبير والحكمة، فإنه حين قدر أن يحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسطاً على الأرض، ولو كان ينتصب قائماً كما ينتصب الزرع والشجر، لما استطاع أن يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة، ولتقص قبل إدراكها وانتهائها إلى غاياتها. فانظر كيف صار يمتد على وجه الأرض ليلقي عليها ثماره فتحملها عنه فترى الأصل من القرع^(٥) والبطيخ مفترشاً للأرض، وثماره مبنوثة عليها وحواليه كأنه هرة ممتدة، وقد اكتنتفتها جراؤها^(٦) لترضع منها.

موافاة أصناف النبات في الوقت المشاكل لها

وانظر كيف صارت الأصناف توافي في الوقت المشاكل لها، من حمارة^(٧) الصيف ووقدة الحر فتلقاها النفوس بانسراح وتشوق إليها، ولو كانت توافي الشتاء لوافقت من الناس كراهة لها واقشعراراً^(٨) منها مع ما

(١) يقال: أطنب في الوصف أو القول، أي بالغ.

(٢) التذرع في الكلام هو الإكثار منه والإفراط فيه.

(٣)

(٤) القثاء - بالضم - نوع من النبات ثمره يشبه ثمر الخيار الواحدة قثاء.

(٥) القرع - بالفتح - نوع من اليقطين، الواحدة قرعة.

(٦) الجراء جمع جرو - بثلاث الجيم - صغير كل شيء والمراد هنا بالجراء أولاد الهرة.

(٧) الحمارة: شدة الحر والجمع حمار.

(٨) اقشعر: تغير لونه.

يكون فيها من المصرة للأبدان . ألا ترى أنه ربما أدرك شيء من الخيار في الشتاء ، فيمتنع الناس من أكله إلا الشره الذي لا يمتنع من أكل ما يضره ويسقم معدته .

في النخل وخلقة الجذع والخشب وفوائد ذلك

فكر يا مفضل في النخل ، فإنها لما صار فيه إناث تحتاج إلى التلقيح جعلت فيه ذكورة اللقاح من غير غراس ، فصار الذكر من النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذي يلقيح الإناث لتحمل وهو لا يحمل . تأمل خلقة الجذع كيف هو؟ فإنك تراه كالمنسوج نسجاً من خيوط معدودة كالسدى وأخرى معه معترضة كاللحمة^(١) كنعو ما ينسج بالأيدي ، وذلك ليشتد ويصلب ولا يتقصف من حمل القنوات^(٢) الثقيلة وهز الرياح العواصف إذا صار نخلة وليتهدأ للسقوف والجسور وغير ذلك مما يتخذ منه إذا صار جذعاً .

وكذلك ترى الخشب مثل النسج فإنك ترى بعضه مداخلأ بعضه بعضاً طولاً وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم ، وفيه مع ذلك متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فإنه لو كان مستحسفاً^(٣) كالحجارة لم يمكن أن يستعمل في السقوف وغير ذلك مما يستعمل فيه الخشبة كالأبواب والأسرة والتواييت وما أشبه ذلك . . . ومن جسيم المصالح في الخشب أنه يطفو على الماء ، فكل الناس يعرف هذا منه ، وليس كلهم يعرف جلالة الأمر فيه ، فلولا هذه الخلقة كيف كانت هذه السفن والأطراف^(٤) تحمل أمثال الجبال من

(١) اللحمة - بالضم - ما سدي الثوب أي ما نسج عرضاً وهو خلاف سواء والجمع لحم .

(٢) في الأصل المطبوع - قنوات - ولا معنى لها هنا . والقنوات جمع قناة وهي المعصا الغليظة وقد أراد بها الإمام عليه السلام هنا هي سفن النخل الغليظة .

(٣) أراد بالمستحسف : الشديد المحكم كأنه الحجارة .

(٤) كذا في النسخ ، والظرف لا يجمع على لفظ أطراف وإنما يقال للجمع ظروف .

الحمولة، وأنى كان ينال الناس هذا الرفق وخفة المؤنة في حمل التجارات من بلد إلى بلد، وكانت تعظم المؤنة عليهم في حملها حتى يلقي كثير مما يحتاج إليه في بعض البلدان مفقوداً أصلاً أو عسر وجوده.

العقاقير واختصاص كل منها

فكر في هذه العقاقير وما خص بها كل واحد منها من العمل في بعض الأدواء، فهذا يغور في المفاسل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج^(١) وهذا ينزف المرّة السوداء^(٢) مثل الأفيميون^(٣) وهذا ينفي الرياح مثل السكينج^(٤) وهذا يحلل الأورام، وأشياء من أفعالها فمن جعل هذه القوى فيها إلا من خلقها للمنفعة؟ ومن فطن الناس لها إلا من جعل هذا فيها؟ ومتى كان يوقف على هذا منها بالعرض والاتفاق كما قال القائلون؟ وهب الإنسان فطن لهذه الأشياء بذهنه ولطيف رويته وتجاربه، فالبهائم كيف فطنت لها حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه إن أصابته ببعض العقاقير فيبرأ، وبعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه بماء البحر فيسلم، وأشياء هذا كثير، ولعلك تشكك في هذا النبات النابت في الصحاري والبراري حيث لا أنس ولا أنيس، فتظن أنه فضل لا حاجة إليه، وليس كذلك، بل هو طعم لهذه الوحوش، وحبه علف للطير، وعوده وأفنانه حطب، فيستعمله الناس، وفيه بعد أشياء تعالج بهذا الأبدان، وأخرى تدبغ

(١) جاء في تذكرة الأنطاكي: شيطرج هندي هو الخامشة وهو نبت يوجد بالقبور الخراب له ورق عريض ودقيق يتر أعلاه إذا برد الجو وزهره أحمر إلى بياض، يخلف بزر أسود أصغر من الخردل ورائحته ثقيلة حادة وطعمه إلى مرارة.

(٢) المرّة السوداء: خلط من أخلاط البدن والجمع مرار.

(٣) أفيميون لفظ يوناني معناه دواء الجنون وهو نبات له أصل كالجزر شديد الحمرة وفروع كالخيوط اللبنة تحف بأوراق دقاق خضر وزهرة إلى حمرة وغبرة وبزر دون الخردل أحمر إلى صفرة يلف بما يليه.

(٤) سكينج أو سكينج هو شجرة بفارس، ويورد الأطباء الأقدمون أوصافاً طيبة كثيرة السكينج ويذكرون أنه يذهب عدة أمراض.

بها الجلود، وأخرى تصبغ الأمتعة، وأشباه هذا من المصالح.. ألسنت تعلم أن من أخس النبات وأحقره هذا البردى وما أشبهها، ففيها مع هذا من ضروب المنافع، فقد يتخذ من البردي القراطيس التي يحتاج إليها الملوك والسوقة، والحصر التي يستعملها كل صنف من الناس، ويعمل منه الغلف التي يوقها بها الأواني، ويجعل حشواً بين الظروف وفي الأسفاط، لكيلا تعيب وتنكسر، وأشباه هذا من المنافع.

فاعتبر بما ترى من ضروب المآرب في صغير الخلق وكبيره وبما له قيمة وما لا قيمة له، وأخس من هذا وأحقره الزبل، والعذرة التي اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة معاً، وموقعها من الزروع والبقول والخضر أجمع الموقع الذي لا يعدله شيء، حتى أن كل شيء من الخضر لا يصلح ولا يزكو إلا بالزبل والسماد الذي يستقذره الناس، ويكرهون الدنو منه.

واعلم أنه ليس منزلة الشيء على حسب قيمته، بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين، وربما كان الخسيس في سوق المكتسب نفيساً في سوق العلم، فلا تستصغر العبرة في الشيء لصغر قيمته، فلو فطن طالبو الكيمياء لما في العذرة، لاشتروها بأنفس الأثمان وغالوا بها.

قال المفضل: وحن وقت الزوال، فقام مولاي إلى الصلاة وقال: بَكَرَ إِلَيَّ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. فانصرفت وقد تضاعف سروري بما عرفنيه، مبهجاً بما آتانيه، حامداً لله على ما منحنيه. فبت ليلتي مسروراً.

المجلس الرابع

قال المفضل: فلما كان اليوم الرابع بكرت إلى مولاي فاستؤذن لي، فأمرني بالجلوس فجلست، فقال عليه السلام: منا التحميد والتسبيح والتعظيم والتقدیس، للاسم الأقدم، والنور الأعظم، العليّ العلام، ذي الجلال

والإكرام، ومنشئ الأنام، ومفني العوالم والدهور، وصاحب السر المستور، والغيب المحظور، والاسم المخزون، والعلم المكنون، وصلواته وبركاته على مبلغ وحيه، ومؤدي رسالته، الذي بعثه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، فعليه وعلى آله من بارئته الصلوات الطيبات، والتحيات الزاكيات الناميات، وعليه وعليهم السلام والرحمة والبركات في الماضين والغابرين، أبد الآبدين، ودهر الدهارين، وهم أهله ومستحقوه.

الموت والفناء وانتقاد الجاهل وجواب ذلك

قد شرحت لك يا مفضل من الأدلة على الخلق، والشواهد على صواب التدبير والعمد في الإنسان والحيوان والنبات والشجر وغير ذلك. ما فيه عبرة لمن اعتبر، وأنا أشرح لك الآن الآفات الحادثة في بعض الأزمان التي اتخذها أناس من الجاهل ذريعة إلى جمود الخلق والخالق والعمد والتدبير، وما أنكرت المعطلة والمنانية من المكاره والمصائب، وما أنكروه من الموت والفناء، وما قاله أصحاب الطباع، ومن زعم أن كون الأشياء بالعرض والاتفاق، ليتسع ذلك القول في الرد عليهم قاتلهم الله أنى يؤفكون.

الآفات ونظر الجاهل إليها والجواب على ذلك

اتخذ أناس من الجاهل هذه الآفات الحادثة في بعض الأزمان - كمثل الوباء واليرقان والبرد والجراد - ذريعة إلى جمود الخالق والتدبير والخلق، فيقال في جواب ذلك: أنه إن لم يكن خالق ومدبر فلم لا يكون ما هو أكثر من هذا وأفظع؟ فمن ذلك أن تسقط السماء على الأرض، وتهوي الأرض فتذهب سفلاً، وتتخلف الشمس عن الطلوع أصلاً، وتجف الأنهار والعيون حتى لا يوجد ماء للشفة، وتركذ الريح، حتى تخم الأشياء وتفسد، ويفيض

ماء البحر على الأرض فيغرقها، ثم هذه الآفات التي ذكرناها من الوباء والجراد وما أشبه ذلك ما بالها لا تدوم وتمتد، حتى تجتاح كل ما في العالم، بل تحدث في الأحياء، ثم لا تلبث أن ترفع. أفلا ترى أن العالم يصاب ويحفظ من تلك الأحداث الجليلة التي لو حدث عليه شيء منها كان فيه بواره ويلذع^(١) أحياناً بهذه الآفات البسيرة، لتأديب الناس وتقويمهم، ثم لا تدوم هذه الآفات، بل تكشف عنهم عند القنوط منهم، فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة.

وقد أنكرت المنانية من المكاره والمصائب التي تصيب الناس فكلاهما يقول: إن كان للعالم خالق رؤوف رحيم، فلم تحدث فيه هذه الأمور المكروهة. . والقائل بهذا القول يذهب إلى إنه ينبغي أن يكون عيش الإنسان في هذه الدنيا صافياً من كل كدر، ولو كان هكذا كان الإنسان يخرج من الأشر والعتو^(٢) إلى ما لا يصلح في دين ولا دنيا، كالذي ترى كثيراً من المترفين ومن نشأ في الجدة والأمن، يخرجون إليه حتى أن أحدهم ينسى أنه بشر، وأنه مربوب أو أن ضرراً يمسّه، أو أن مكروهاً ينزل به، أو أنه يجب عليه أن يرحم ضعيفاً، أو يواسي فقيراً، أو يرثي المبتلي، أو يتحنن على ضعيف، أو يعطف على مكروب، فإذا عضته المكاره ووجد منها، اتعظ وأبصر كثيراً مما كان جهله وغفل عنه، ورجع إلى كثير مما كان يجب عليه.

والمنكرون لهذه الأمور المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الأدوية المرة البشعة، ويتسخطون من المنع من الأطعمة الضارة، ويتكروهن الأدب والعمل، ويحبون أن يتفرغوا للهو والبطالة، وينالوا كل مطعم ومشرب، ولا

(١) يقال لذعته النار أي أحرقته ولذعه بلسانه أي أوجعه بكلام.

(٢) العتو - بالفهم - الاستكبار وتجاوز الحد.

يعرفون ما تؤديهم إليه البطالة من سوء النشو والعادة، وما تعقبهم الأطعمة اللذيذة الضارة من الأدواء والأسقام، وما لهم في الأدب من الصلاح، وفي الأدوية من المنفعة، وإن شاب ذلك بعض الكراهة، فإن قالوا: فلم لم يكن الإنسان معصوماً من المساوي، حتى لا يحتاج إلى أن تلذعه هذه المكارة، قيل: إذا كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها، ولا مستحقاً للثواب عليها. فإن قالوا: وما كان يضره أن لا يكون محموداً على الحسنات مستحقاً للثواب، بعد أن يصير إلى غاية النعيم واللذات؟ قيل لهم: عرضوا على امرئ صحيح الجسم والعقل، أن يجلس منعماً، ويكفي كلما يحتاج إليه بلا سعي ولا استحقاق، فانظروا هل تقبل نفسه ذلك، بل ستجدونه بالقليل مما يناله بالسعي والحركة أشد اغتباطاً وسروراً منه بالكثير مما يناله بغير الاستحقاق، وكذلك نعيم الآخرة أيضاً يكمل لأهله بأن ينالوه بالسعي فيه والاستحقاق له فالنعمة على الإنسان في هذا الباب مضاعفة، فإن أعد له الثواب الجزيل على سعيه في هذه الدنيا وجعل له السبيل إلى أن ينال ذلك بسعي واستحقاق، فيكمل له السرور والاغتباط بما يناله منه... فإن قالوا: أوليس قد يكون من الناس من يركن إلى ما نال من خير، وإن كان لا يستحقه، فما الحجة في منع من رضي أن ينال نعيم الآخرة على هذه الجملة؟ قيل لهم: إن هذا باب لو صح للناس لخرجوا إلى غاية الكلب^(١) والضرارة على الفواحش، وانتهاك المحارم، فمن كان يكف نفسه عن فاحشة أو يتحمل المشقة في باب من أبواب البر لوثق بأنه صائر إلى النعيم لا محالة، أو من كان يأمن على نفسه وأهله وماله من الناس لو لم يخاف الحساب والعقاب، فكان ضرر هذا الباب سينال الناس في هذه الدنيا قبل

(١) الكلب - فنتحين - هو داء يشبه الجنون يأخذ الكلاب فتعض الناس فتكلب الناس أيضاً إذا تمنعوا عن استعمال لقاح الطيب الفرنسي المعروف باستور.

الآخرة. فيكون في ذلك تعطيل العدل والحكمة معاً، وموضع للطعن على التدبير بخلاف الصواب ووضع الأمور في غير مواضعها.

لماذا تصيب الآفات جميع الناس وما الحجة في ذلك

وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التي تصيب الناس، فتعم البر والفاجر أو يتبلي بها البر ويسلم الفاجر منها، فقالوا: كيف يجوز هذا في تدبير الحكيم وما الحجة فيه؟ فيقال لهم: إن هذه الآفات وإن كانت تنال الصالح والطالح جميعاً. فإن الله عز وجل جعل ذلك صلاحاً للصنفين كليهما، أما الصالحون فإن الذي يصيبهم من هذا يزددهم نعم ربهم عندهم في سالف أيامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر، وأما الطالحون فإن مثل هذا إذا نالهم كسر شرتهم وردعهم عن المعاصي والفواحش، وكذلك يجعل لمن سلم منهم من الصنفين صلاحاً في ذلك، أما الأبرار فإنهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح ويزدادون فيه رغبة وبصيرة وأما الفجار فإنهم يعرفون رافة ربهم، وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق. فيحضهم ذلك على الرافة بالناس، والصفح عمن أساء إليهم.. ولعل قائلًا يقول: إن هذه الآفات التي تصيب الناس في أموالهم، فما قولك فيما يبتلون به في أبدانهم، فيكون فيه تلفهم كمثل الحرق والغرق والسيل والخسف؟ فيقال له أن الله جعل في هذا أيضاً صلاحاً للصنفين جميعاً، أما الأبرار فلما لهم في مفارقة هذه الدنيا من الراحة من تكاليفها، والتجاة من مكارهها، وأما الفجار فلما لهم في ذلك من تمحيص أوزارهم، وحبسهم عن الازدياد منها، وجملة القول أن الخالق تعالى ذكره بحكمته وقدرته قد يصرف هذه الأمور كلها إلى الخير والمنفعة، فكما أنه إذا قطعت الريح شجرة أو قطعت نخلة، أخذها الصانع الرفيق واستعملها في ضروب من المنافع، فكذلك يفعل المدبر الحكيم في الآفات التي تنزل بالناس في أبدانهم وأموالهم، فيصيرها

جميعاً إلى الخير والمنفعة . . فإن قال: ولم تحدث على الناس؟ قيل له: لكيلا يركنوا إلى المعاصي من طول السلامة، فيبالغ الفاجر في ركوب المعاصي، ويفتر الصالح عن الاجتهاد في البر فإن هذين الأمرين جميعاً يغلبان على الناس في حال الخفض والدعة وهذه الحوادث التي تحدث عليهم تردعهم وتنبههم على ما فيه رشدهم، فلو خلوا منها لفلوا في الطغيان والمعصية، كما غلا الناس في أول الزمان. حتى وجب عليهم البوار بالطوفان وتطهير الأرض منهم.

الموت والفناء وانتقاد الجاهل وجواب ذلك

ومما ينتقده الجاحدون للعمد والتقدير الموت والفناء. فإنهم يذهبون إلى أنه ينبغي أن يكون الناس مخلدين في هذه الدنيا. مبرئين من هذه الآفات، فينبغي أن يساق هذا الأمر إلى غايته، فينظر ما محصله.

أفرايت لو كان كل من دخل العالم ويدخله يبقون، ولا يموت أحد منهم، ألم تكن الأرض تضيق بهم، حتى تعوزهم المساكن والمزارع والمعاش، فإنهم - والموت يفنيهم أولاً فأولاً - يتنافسون في المساكن والمزارع، حتى تنشب بينهم في ذلك الحروب، وتسفك فيهم الدماء، فكيف كانت تكون حالهم لو كانوا يولدون ولا يموتون، وكان يغلب عليهم الحرص والشره، وقساوة القلوب، فلو وثقوا بأنهم لا يموتون لما قنع الواحد منهم بشيء يناله، ولا أفرج لأحد عن شيء يسأله، ولا سلا عن شيء مما يحدث عليه، ثم كانوا يملون الحياة وكل شيء من أمور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره، حتى يتمنى الموت والراحة من الدنيا. . . فإن قالوا: إنه كان ينبغي أنه يرفع عنهم المكاره والأوصاب حتى لا يتمنوا الموت ولا يشاقوا إليه. فقد وصفنا ما كان يخرجهم إليه من العتو والأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدنيا والدين. وإن قالوا: إنه كان ينبغي أن لا

يتوالدوا كيلا تضيق عنهم المساكن والمعاش. قيل لهم: إذا كان يحرم أكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله تعالى ومواهبه في الدارين جميعاً إذا لم يدخل العالم إلا قرن^(١) واحد، لا يتوالدون ولا يتناسلون... فإن قالوا: إنه كان ينبغي أن يخلق في ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق إلى انقضاء العالم، يقال لهم: رجع الأمر إلى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعاش عنهم، ثم لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون لذهب موضع الأنس بالقربات وذوي الأرحام والانتصار بهم عند الشدائد، وموضع تربية الأولاد والسرور بهم، ففي هذا دليل على أن كلما تذهب إليه الأوهام - سوى ما جرى به التدبير - خطأ وسفه من الرأي والقول.

الطعن على التدبير من جهة أخرى والجواب عليه

ولعل طاعناً يطعن على التدبير من جهة أخرى فيقول كيف يكون ها هنا تدبير، ونحن نرى الناس في هذه الدنيا من عزيز، والقوي يظلم وينصب، والضعيف يظلم ويسالم الخسف، والصالح فقير مبتلى، والفاسق معافى موسع عليه، ومن ركب فاحشة أو انتهك محرماً لم يعاجل بالعقوبة. فلو كان في العالم تدبير لجرت الأمور على القياس القائم، فكان الصالح هو المرزوق، والظالم هو المحروم، وكان القوي يمنع من ظلم الضعيف. والمنتك للمحارم يعاجل بالعقوبة.. فيقال في جواب ذلك: أن هذا لو كان هكذا لذهب موضع الإحسان الذي فضل به الإنسان على غيره من الخلق، وحمل النفس على البر والعمل الصالح احتساباً للثواب، وثقة بما وعد الله عنه، ولصار الناس بمنزلة الدواب التي تساس بالعصا والعلف، ويلمع لها بكل واحد منهما ساعة فساعة فتستقيم على ذلك، ولم يكن أحد يعمل على يقين بثواب أو عقاب، حتى كان هذا يخرجهم عن حد الإنسية

(١) المراد بالقرن هنا أهل زمان واحد والجمع قرون.

إلى حد البهائم، ثم لا يعرف ما غاب، ولا يعمل إلا على الحاضر من نعيم الدنيا، وكان يحدث من هذا أيضاً أن يكون الصالح إنما يعمل للرزق والسعة في هذه الدنيا، ويكون الممتنع من الظلم والفواحش إنما يكف عن ذلك لترقب عقوبة تنزل به من ساعته، حتى تكون أفعال الناس كلها تجري على الحاضر لا يشوبه شيء من اليقين بما عند الله، ولا يستحقون ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها، مع أن هذه الأمور التي ذكرها الطاعن من الغنى والفقر والعافية والبلاء ليست بجارية على خلاف قياسه، بل قد تجري على ذلك أحياناً والأمر المفهوم.

فقد ترى كثيراً من الصالحين، يرزقون المال لضروب من التدبير وكلا يسبق إلى قلوب الناس أن الكفار هم المرزوقون، والأبرار هم المحرومون، فيؤثرون الفسق على الصلاح، وترى كثيراً من الفساق يعاجلون بالعقوبة إذا تفاقم طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى أنفسهم كما عوجل فرعون بالغرق وبختنصر بالتيه وإبليس بالقتل وإن أمهل بعض الأشرار بالعقوبة، وآخر بعض الأخيار بالثواب إلى الدار الآخرة، لأسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما يبطل التدبير، فإن مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض ولا يبطل تدبيرهم، بل يكون تأخيرهم ما أخروه، وتعجيلهم ما عجلوه داخلًا في صواب الرأي والتدبير وإذا كانت الشواهد تشهد، وقياسهم يوجب أن للأشياء خالقاً حكيماً قادراً فما يمنعه أن يدبر خلقه، فإنه لا يصلح في قياسهم أن يكون الصانع يهمل صنعه إلا بإحدى ثلاث خلال إما عجز وإما جهل وإما شرارة، وكل هذا محال في صنعه عز وجل، وتعالى ذكره، وذلك أن العاجز لا يستطيع أن يأتي بهذه الخلائق الجليلة العجيبة، والجاهل لا يهتدي لما فيها من الصواب والحكمة والشرير لا يتناول لخلقها وإنشائها، وإذا كان هذا هكذا وجب أن يكون الخالق لهذه الخلائق يدبرها لا محالة، وإن كان لا يدرك كنه ذلك التدبير ومخارجه، فإن كثيراً

من تدبير الملوك لا تفهمه العامة ولا تعرف أسبابه، لأنها لا تعرف دخيلة أمر الملوك وأسرارهم فإذا عرف سببه وحد قائماً على الصواب والشاهد المحنة. ولو شككت في بعض الأدوية والأطعمة فيتبين لك من جهتين أو ثلاث أنه حار أو بارد، ألم تكن ستقضي عليه بذلك وتنفي الشك فيه عن نفسك؟ فما بال هؤلاء الجهلة لا يقضون على العالم بالخلق والتدبير مع هذه الشواهد الكثيرة وأكثر منها ما لا يحصى كثرة ولو كان نصف العالم وما فيه مشكلاً صوابه، لما كان من حزم الرأي وسمت^(١) الأدب أن يقضي على العالم بالإهمال لأنه كان في النصف الآخر وما يظهر فيه من الصواب، وإتقان ما يردع الوهم عن التسرع إلى هذه القضية، فكيف وكلما فيه إذا فتش وجد على غاية الصواب حتى لا يخطر بالبال شيء إلا وجد ما عليه الخلقة أصح وأصوب منه.

اسم هذا العالم بلسان اليونانية

واعلم يا مفضل أن اسم هذا العالم بلسان اليونانية الجاري المعروف عندهم «قوسموس» وتفسيره الزينة، وكذلك سمته الفلاسفة ومن ادعى الحكمة، أفكانوا يسمونه بهذا الاسم إلا لما رأوا فيه من التقدير والنظام فلم يرضوا أن يسموه تقديراً ونظاماً حتى سموه زينة، ليخبروا أنه مع ما هو عليه من الصواب والإتقان، على غاية الحسن والبهاء.

عمى ماني عن دلائل الحكمة وادعاؤه علم الأسرار

أعجب يا مفضل من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطأ، وهم يرون الطبيب يخطئ، ويقضون على العالم بالإهمال. ولا يرون شيئاً منه مهملاً، بل أعجب من أخلاق من ادعى الحكمة، حتى جهلوا مواضعها في

(١) السم - بالفتح - الطريق والمحبة والجمع سموت.

الخلق، فأرسلوا ألسنتهم بالذم للخالق جل وعلا... بل العجب من المخذول (ماني) حين ادعى علم الأسرار وعمي عن دلائل الحكمة في الخلق حتى نسبته على الخطأ ونسب خالقه إلى الجهل تبارك الحكيم الكريم.

انتقال المعطلة فيما راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل

وأعجب منهم جميعاً (المعطلة) الذين راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل، فلما أعوزهم ذلك، خرجوا إلى الجحود والتكذيب، فقالوا: ولم لا يدرك بالعقل؟ قيل: لأنه فوق مرتبة العقل، كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته.. فإنك لو رأيت حجراً يرتفع في الهواء علمت أن رامياً رمى به، فليس هذا العلم من قبل البصر، بل من قبل العقل، لأن العقل هو الذي يميزه، فيعلم أن الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه.. أفلا ترى كيف وقف البصر على حده، فلم يتجاوزه، فكذلك يقف العقل على حده من معرفة الخالق فلا يعدوه، ولكن يعقله بعقل أقرّ فيه نفساً ولم يعاينها، ولم يدركها بحاسة من الحواس.

معرفة العقل للخالق معرفة إقرار لا معرفة إحاطة

وعلى حسب هذا أيضاً نقول: إن العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار، ولا يعرفه بما يوجب له الإحاطة بصفته.. فإن قالوا: فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته بالعقل اللطيف، ولا يحيط به؟ قيل لهم: إنما كلف العباد من ذلك ما في طاقتهم أن يبلغوه، وهو أن يوقنوا به ويقفوا عند أمره ونهيه، ولم يكلفوا الإحاطة بصفته، كما أن الملك لا يكلف رعيته أن يعلموا أطويل هو أم قصير، وأبيض هو أم أسمر، وإنما يكلفهم الإذعان لسلطانه، والانتهاه إلى أمره. ألا ترى أن رجلاً لو أتى باب الملك، فقال: اعرض عليّ نفسك حتى أتقصي معرفتك، وإلا لم أسمع لك كان قد أحل

نفسه بالعقوبة . . . فكذا القائل أنه لا يقر بالخالق سبحانه، حتى يحيط بكنهه متعرضاً لسخصه . . . فإن قالوا: أوليس قد نصفه؟ فنقول: هو العزيز الحكيم الجواد الكريم؟ قيل لهم: كل هذه صفات إقرار، وليست صفات إحاطة، فإننا نعلم أنه حكيم، ولا نعلم بكنه ذلك منه، وكذلك قدير وجواد وسائر صفاته، كما قد نرى السماء فلا ندري ما جوهرها، ونرى البحر ولا ندري أين منتهاه، بل فوق هذا المثال بما لا نهاية له، ولأن الأمثال كلها تقصر عنه، ولكنها تقود العقل إلى معرفته . . . فإن قالوا: ولم يختلف فيه؟ قيل لهم: لقصر الأوهام عن مدى عظمته، وتعديها أقدارها في طلب معرفته، وأنها تروم الإحاطة به، وهي تعجز عن ذلك وما دونه.

الشمس واختلاف الفلاسفة في وضعها وشكلها ومقدارها

فمن ذلك هذه الشمس التي تراها تطلع على العالم ولا يوقف على حقيقة أمرها. ولذلك كثرت الأقاويل فيها، واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها، فقال بعضهم: هو فلك أجوف مملوء ناراً، له فم يجيش بهذا الوهج والشعاع . . . وقال آخرون: هو سحابة . . . وقال آخرون: هو جسم زجاجي، يقل نارية في العالم، ويرسل عليه شعاعها . . . وقال آخرون: هو صفو لطيف ينمقد ماء البحر . . . وقال آخرون: هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار . . . وقال آخرون: هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربعة. ثم اختلفوا في شكلها . . . فقال بعضهم: هي بمنزلة عريضة . . . وقال آخرون: هي كالكرة المدحرجة . . . وكذلك اختلفوا في مقدارها . . . فزعم بعضهم أنها مثل الأرض سواء . . . وقال آخرون: بل هي أقل من ذلك. وقال آخرون: بل هي أعظم من الجزيرة العظيمة. وقال أصحاب الهندسة: هي أضعاف الأرض مائة وسبعين مرة . . . ففي اختلاف هذه الأقاويل منهم في الشمس، دليل على أنهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها، فإذا كانت هذه الشمس

التي يقع عليها البصر، ويدركها الحس، قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها، فكيف ما لطف عن الحس واستتر عن الوهم؟ . . فإن قالوا: ولم استتر؟ قيل لهم: لم يستتر بحيلة يخلص إليها، كمن يحتجب من الناس بالأبواب والستور. وإنما معنى قولنا استتر، أنه لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام، كما لطفت النفس. وهي خلق من خلقه. وارتفعت عن إدراكها بالنظر. . فإن قالوا: ولم لطف تعالى عن ذلك علواً كبيراً؟ كان ذلك خطأ من القول، لأنه لا يليق بالذي هو خالق كل شيء إلا أن يكون مبانياً لكل شيء، متعالياً عن كل شيء سبحانه وتعالى.

الفصل السابع

الإنسان والكون
في رأي الإمام الصادق عليه السلام





الإنسان وخلقّه في رأي الإمام الصادق عليه السلام

كان من رأي الإمام جعفر الصادق عليه السلام كغيره من المسلمين أن الإنسان خُلِقَ من تراب، ولكن التوضيح الذي أتى به لم يقل به غيره من المسلمين لا قبله ولا بعده في العصور المتعاقبة، ولم يَقم أحدٌ بشرح أفكار الإمام الصادق عليه السلام بشأن الكيان البشري ومصدر كل حاسة وخواصها. فإنّ وجدنا شرحاً في العصور التالية للإمام، فهو من صُنِع تلاميذه أو رَوّاد مدرسته .

يقول الإمام الصادق عليه السلام: إن جسم الإنسان يتألف من نفس العناصر الموجودة في الأرض، ولكن بنسب متفاوتة، فهناك عنصر يوجد في جسم الإنسان بنسبة أكبر من نسبة وجودها في الأرض، وهناك عناصر أخرى توجد بنسبة أقل منها. كما كان يقول إن هناك أربعة أشياء توجد في جسم الإنسان بصورة أكبر من سواها، كما أن هناك ثمانية أشياء تأتي في مرحلة ثانية، وثمانية أشياء هي أقل مما في القسمين الأولين.

ولا ريب في أن هذه النظرية غريبة وبعيدة عن فهم الإنسان في عصرنا الحاضر، وإن المرء ليتساءل تلقاءها: هل كان للإمام الصادق علم باطني (غيتي)^(١) كما تقول الشيعة؟ وهل استنبط هذه النظرية بعلم الإمامة دون العلم البشري؟

(١) علم لدني.

وفي رأينا أن من العسير التوصل إلى مثل هذه الحقائق العلمية دون مختبرات علمية عصرية، ولكن هذا هو ما تنأهى إليه علم الصادق قبل اثني عشر قرناً. ولا غرو، فالعابرة أقدر من سواهم على استنباط ما تعجز عنه العقول، لأن عيونهم تخترق الظلمات وترى ما لا يراه غيرهم من المبصرين.

وثمة نظرية مؤداها أن المعارف والمعلومات كامنة في الشعور الباطني للناس جميعاً، ولكن هناك حجاباً يحول دون إدراك الشعور الظاهري لما هو كامن في الشعور الباطني غير المحدود، فإن استعصى على الإنسان العادي أن يتتبع بهذه الذخيرة المدخرة في باطنه فإن العابرة قادرون على النفاذ إلى الباطن واستنباط ما هو مدخر فيه من معلومات ومعارف كامنة.

وقد ذهب الفيلسوف هنري برجسون^(١) إلى القول بأنه كما أن الذرة وجدت منذ بدء الخليقة واجتمعت فيها جميع المعلومات المختلفة، فإن خلايا الجسم الموجودة في الكائن الحي، أخرى بها أن تنطوي على جميع المعلومات الخاصة بهذا العالم منذ بداية الخليقة وإلى يومنا هذا.

(١) هنري برجسون Henry Bergson (١٨٥٩ - ١٩٤١م) فيلسوف فرنسي دافع عن نظريتين في الفلسفة أولاهما نظرية élan Vital أي اندفاع الحياة، وثانيتها أن الزمان يمكن معرفته واستنباطه من خلال توالي الأحداث، ومن مودى النظرية الأولى أن الإنسان يكشف كل مجهول بفهمه الخاص إذا كانت لديه اندفاع حياة، وأن حظ العابرة من هذه الاندفاع أكبر من حظوظ سواهم. ومن مودى النظرية الثانية أن الزمان لا يدرك أو يقاس أو يُحصَر إلا بتسلسل الوقائع والأحداث، ولولا هذا التسلسل لما أدركنا الزمان. وعندما تنتهي الحياة بالموت، يفقد الإنسان قدرته على متابعة توالي الأحداث، وتساوى عنده الثانية والملايين من السنين (هذا طبعاً إن كان ذا شعور).

والقول بعدم إدراك حقيقة الزمان لولا توالي الأحداث وتسلسلها قد انتهى إليه آخرون غير برجسون. فأينشتاين وميغوسكي يقولان بأنه ليست هناك حقيقة للزمان والمكان كما كان يفهمه فلاسفة القرن الماضي، ومن رأي الفلاسفة أن الوجود الخارجي هو الباقي والاستمرار في الزمان والمكان، وأن كل وجود خارجي هو وجود في الزمان والمكان.

ودافع برجسون عن الروحية ضد المذهب الوضعية المادية، فكان بآرائه بعيد الأثر. ومن مؤلفاته: (محاولة دراسة أوضاع الوجدان) (والمادة والذاكرة) (والتطور الخلف). (راجع دائرة المعارف العالمية).

وإذا كان العلماء قد أطلقوا على الإحساس الداخلي اسم (الشعور الباطني أو الغيبي)، فإن الفيلسوف برجسون قد سمّاه (اندفاع الحياة)، وكان يقول إن النوايا يتميزون عن غيرهم بأن لهم حظاً من اندفاع الحياة تزيد على حظوظ غيرهم وأنهم أقدر من سواهم على الاستفادة من ذاكرة خلايا أجسامهم.

ففي رأي الشيعة إذاً أن الإمام الصادق عليه السلام كان يرى بعلم الإمامة، أما القائلون بالشعور الباطني غير المحدود فيقولون إنه انتفع بهذا الشعور، في حين أن برجسون يرى أن الصادق عليه السلام كان يتمتع باندفاع قوية للحياة.

ولا ريب في أن ما قاله الإمام الصادق عليه السلام عن تشريح جسم الإنسان، يكتب له بين المعاصرين له من المشتغلين بعلم الأحياء منزلة النبوغ، لا سيما وقد برهن التمهيص العلمي الدقيق لنظرية الإمام الصادق عليه السلام بعد اثني عشر قرناً ونصف قرن على أنها نظرية صحيحة، حتى وإن كان الإمام لم يعطَ أسماء معينة لأجزاء الجسم والمواد التي يحتوي عليها.

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام إن العناصر الموجودة في الأرض، وعددها مائة واثنان، موجودة في جسم الإنسان بدرجات متفاوتة، وإن بعضها يذهب من القلة مذهباً يحول دون تعيين مقداره وحجمه بالدقة المطلوبة.

ربما قيل إن الصادق عليه السلام لم يأت بإعجاز فكري، لأن الإسلام يقول إن الإنسان قد خلق من تراب^(١)، وقد ثبتت عقيدة المسلم على هذا منذ ما

(١) من هذه الآيات ما جاء في سورة طه، الآية ٥٥: ﴿وَبَيْنَا خَلَقْتَكُمْ وَبَيْنَا تُبَدِّلُكُمْ وَبَيْنَا تُفَرِّقُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، وما جاء في سورة نوح، الآيتين ١٧ - ١٨: ﴿وَاللَّهُ أَنشَأَ مِنَ الْأَرْضِ نَاسًا ثُمَّ يُبَدِّلُهَا وَنَحْنُ مُعْرِضُونَ﴾.

جاء القرآن، فأين هو الجديد الذي أتى به الصادق عليه السلام حين قال إن المواد الموجودة في التراب موجودة أيضاً في جسم الإنسان؟

نعم، ولكن نبوغ الصادق عليه السلام يتجلى في أنه قسّم هذه المواد والعناصر على ثلاثة أقسام، يتضمن القسم الأول منها العناصر الأربعة التي توجد بوفرة، ويتضمن الثاني ثمانية عناصر توجد في جسم الإنسان بدرجة أقل، ويتضمن الثالث ثمانية عناصر أخرى هي أقلها توافراً.

والعلم الحديث في عصرنا اليوم يثبت ما قاله الإمام الصادق عليه السلام، إذ أن العناصر الثمانية التي توجد في جسم الإنسان بمقدار ضئيل هي: (المولبدنوم والسليسيوم والفلور والكوبلت والمنغنيز واليود والنحاس والرصاص الخالصين).

وأما العناصر الثمانية التي توجد في جسم الإنسان بكمية أكبر قليلاً، فهي (المغنيسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والكلسيوم والفوسفور والكلور والكبريت والحديد).

أما العناصر الأربعة التي توجد في جسم الإنسان بوفرة فهي (الأوكسجين والكربون والهيدروجين والأزوت) (الترجين).

صحيح أن الإمام الصادق لم يُسَم هذه العناصر بأسمائها العلمية المعروفة اليوم، ولكنه استطاع تمييزها بعقله المستنير. في حين أن العلماء المحدثين لم يتسن لهم الاهتمام إليها إلا بعد بحث وتحقيق علميين وتجارب واسعة وعمليات تشريح دقيقة استمرت منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي، وكان لفرنسا والنمسا دور ريادي في أوروبا في علم التشريح.

وبسبب الحظر التام الذي فرضته الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية على تشريح الجثث، وقد سايرتهما في هذا التحريم البلدان الشرقية، اقتصر هذا الكشف العلمي على فرنسا والنمسا دون الدول الأخرى.

وحتى في هاتين الدولتين، كانت عمليات التشريح تجري خفية خوفاً من معارضة الكنيسة، حتى جاء الطبيب الفرنسي «مارا»^(١) وطالب بضرورة التشريح خدمة للإنسانية ولعلم الطب، واشترك مع العلامة الشهير الكيميائي لا فوازييه (الذي أعدم في عام ١٧٩٤م) في تحليل الأنسجة والخلايا في جسم الإنسان للوقوف على أسرارها ومكوناتها.

وبعد وفاة مارا، استمرت التجارب والتحليل على جسم الإنسان يُجرىها تلامذته والمتأثرون به، وظلت هذه التجارب تجري طوال القرن التاسع عشر وإلى مطلع القرن العشرين.

واليوم، أصبح التشريح أمراً مألوفاً في جميع دول أوروبا وسواها من دول العالم، وأصبحت التجارب والتحليل أمراً عادياً في إطار التدريس في كليات الطب في العالم بأسره وفي مراكز العلوم، رغبةً في اكتشاف مزيد من البيانات عن العناصر التي يتألف منها جسم الإنسان وكمياتها وكيفياتها، ولئن تشبهت نتائج هذه الأبحاث فإن الأرقام قد تنطوي على تفاوت جزئي، أما العناصر الهامة في جسم الإنسان فلا خلاف عليها.

والمؤكد أن تقسيم العناصر الموجودة في جسم الإنسان والنسب الخاصة بذلك منها تتفق فيها آراء الإمام الصادق عليه السلام مع التجارب التي أجريت في المراكز العلمية في دول العالم كله.

وعلى سبيل التوضيح، نذكر أن الإنسان الذي يزن ٤٥ كيلو غراماً، يحتوي جسمه على كيلو غرام من الكربون، وهو عنصر من العناصر الأربعة التي توجد في الجسم بوفرة.

(١) مارا Marrat طبيب فرنسي عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي في وقت معاصر للثورة الفرنسية، وكان يصدر مجلة عنوانها (صديق الأمة) طالب فيها بالسماح بتشريح جسم الإنسان خدمة للطب والإنسانية، وقد قتله امرأة اسمها (شارلوت كوردية) بخنجر في حمام بته.

كذلك يوجد في جسم الإنسان ٤٠٥ كيلو غرام من الهيدروجين، متى كان سليماً، فإن اعتلّ، نقصت كمية الهيدروجين. وتتساوى مقادير العناصر الأربعة، وهي الأوكسجين والكربون والهيدروجين والأزوت، في أجسام الناس جميعاً، سواء أكانوا من البيض أم السود أم من الذين اختلطت أنواعهم وجذورهم.

تلي هذه العناصر الأربعة ثمانية عناصر أخرى متوسطة المقدار، تليها العناصر الثمانية الضئيلة القدر، وتتساوى نسب هذه العناصر في جسم الإنسان، سواء أكان يعيش في القطب الشمالي أم في المنطقة الاستوائية ولا فرق بين أي اثنين في هذا إذا ما تساوى في الوزن والعمر.

وهكذا جاءت التجارب العلمية التي أجريت في فترة تربو على مائة وخمسين عاماً مؤكدة النظرية التي أتى بها الإمام الصادق عليه السلام.

نظرية الضوء عند الإمام الصادق عليه السلام

من مبتدعات الإمام جعفر الصادق عليه السلام نظريته الخاصة بالضوء. فمن رآه أن الضوء ينعكس من الأجسام على صفحة العين البشرية، أما الأجسام البعيدة فلا ينعكس منها إلا جزء صغير من الضوء، ولهذا تتعذر رؤيتها بالوضوح الكافي. أما إذا استعنا بجهازٍ أو آلةٍ لتقريب الضوء إلى العين، كالجهاز الكهربائي الضوئي مثلاً فعندئذٍ يمكننا مشاهدة الجسم البعيد بنفس حجمه الحقيقي وبوضوح تام، بمعنى أن الجسم الذي يبعد عنا بثلاثة آلاف ذراع، نراه وكأنه يبعد عنا بستين ذراعاً، فنكون بذلك قد قربناه أكثر من خمسين مرة.

ونتيجة للاتصال الذي تحقق بين أوروبا والشرق في أثناء الحروب الصليبية، انتقلت هذه النظرية من الشرق إلى أوروبا، ودُرست في المعاهد العلمية والجامعات الأوروبية. وكان من جملة المهتمين بها روجر بيكون^(١) الأستاذ بجامعة أكسفورد.

وجاءت نظرية بيكون في الضوء مطابقةً لنظرية الإمام الصادق عليه السلام. فلو استعنا بما يقرب ضوء الأجسام البعيدة إلى عيوننا، لأمكننا مشاهدتها وقد قُرِبت إلينا خمسين مرة عن بُعدها الحقيقي.

(١) روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٤) عالم فرنسيسكاني بريطاني وضع دائرة معارف علمية هامة لُقّب بالدكتور المدّش إعجاباً بعمله (المترجم).

وبفضل هذه النظرية اخترع ليبرشي الفلامندي المجهر في عام ١٦٠٨م، واستعان غاليليو بهذا المجهر في اختراع المرقب الفلكي في عام ١٦١٠م. وفي ليلة السابع من يناير سنة ١٦١٠م، بدأ غاليليو يرصد النجوم مستعيناً بمرقبه، ولا يستبعد بسبب قُرب الفاصل الزمني بين الاختراعين - وهو سنتان لا غير - أن تكون الفكرة تبلورت عند هذين العالمين في وقت واحد، وإن كان غاليليو استفاد من مجهر العالم الفلامندي وحاول قدر المستطاع علاج ما فيه من قصور، مع ما كان متاحاً في ذلك الوقت من إمكانيات تقنية محدودة.

وكان غاليليو من خريجي جامعة (بادوا) الشهيرة في مملكة (باتاويوم) التي سميت في ما بعد (بوني تي) والتي تُسمى عاصمتها اليوم فينيسيا أو البندقية. وبعد تخرّجه أصبح أستاذاً في نفس الجامعة. وعندئذٍ شرع يرصد النجوم في أوّل ليلة، حيره منها أن يرى القمر شبيهاً بالأرض من حيث أن سطحه تغطيه سلاسل من الجبال والوديان، فتتحقق من أن الكون لا ينحصر في الكرة الأرضية، وأن القمر بدوره عالم من عوالم دنيانا الكثيرة.

ولولا فرضية الضوء التي أتى بها الإمام جعفر الصادق عليه السلام، لما تمكن ليبرشي الفلامندي وغاليليو من صنع المجهر الفلكي لرصد انعكاس ضوء الشمس على الكواكب الأخرى، وبالتالي تأكيد نظرية كوبر نيكوس وكبلر القائلة إن الكرة الأرضية تدور حول الشمس وكواكب أخرى.

وكان للمجهر الفلكي الذي صنعه غاليليو صدى بعيد في الأوساط العلمية المختلفة في البندقية، حتى إن رئيس الجمهورية (دوج) وعدداً من نواب مجلس الأعيان استبدّ بهم الشوق لرؤية الأجرام السماوية من خلال هذا المرقب. فاضطر إلى نقله من مدينة بادوا الجامعية إلى العاصمة (البندقية)، وأقامه على برج من أبراج الكنيسة لكي يتسنى لأعضاء مجلس الأعيان التطلع إلى السماء في الليل ورؤية النجوم والكواكب.

ولما سئل غاليليو عن سر رؤية سطح القمر وما عليه بوضوح، ردّ نظرية الإمام الصادق عليه السلام، وهي أن هذا نتيجة لانعكاس الضوء من سطح القمر ووصوله إلى العين. وقال إن هذا المرقب يجمع أشعة الضوء المنعكسة من سطح القمر ويقربها إلى العين، فتراه قريباً منها.

وبمشاهدة غاليليو لكواكب عطارد والزهرة والمشتري في أحوالها المختلفة من الهلال إلى المحاق، تثبت نظرية كوبر نيكوس وكبلر^(١).

ومن الحقائق العلمية المؤسفة أن الشخصية الفذة للفيلسوف الإغريقي أرسطو^(٢) القائل إن الأرض ثابتة ولا تتحرك وإن الشمس والنجوم تدور من حولها، والشخصية العلمية الرصينة للعالم بطليموس الذي جاء بعد أرسطو بخمسة قرون وأكد نظريته هذه، قد حالتا دون تقدّم علم الفلك قرابة ألف وثمانمائة عام، أي من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الخامس عشر الميلادي.

ولا يسع أحداً أن ينكر فضل أرسطو على العلم، ولأهمية مؤلفاته في المنطق كلاورغانون وفي العلوم كالحسن والمحسوس التي تُعدّ من التراث الإنساني الخالد، ولكن نظريته الفلكية عطلت تطور العلوم الفلكية طوال

(١) لاحظ غاليليو وهو يرصد عطارد والزهرة إنهما شبيهان بالقمر من حيث أنهما يظهران في بادئ الأمر كالهلال، ثم يستمان استدارتهما فيصبحان كالبدر التمام. كما تبيّن أن هذين الكوكبين بدوران بدورهما حول الشمس ويستفيضان بنورها.

(٢) أرسطو أو أرسططاليس (نحو ٣٦٧ - ٣٢٢ ق.م) اشتهر بأنه حكيم اليونان. تلقى العلم من أفلاطون، وقضى في ذلك عشرين سنة، وأصبح مؤدب الاسكندر المقدوني الأكبر. إليه يرجع الفضل في تنظيم الفلسفة اليونانية وتفرغ العلوم منها وتدوين فن المنطق، وتقوم فلسفته في جعلتها على «اتفاق العلل المادية في العالم الطبيعي»، من مؤلفاته: «سمع الكيان» ويتناول المبادئ في الوجود، وهو تمهيد لدراسة الفلسفة «والسماء والعالم» و«الكون والفساد» و«الآثار العلوية» و«كتاب الحيوان» و«كتاب النبات» و«كتاب النفس» و«الحسن والمحسوس» و«ما بعد الطبيعة» و«السياسة» و«الأخلاق» و«الأورغانون» في صناعة المنطق. وأرسطو هو من نشأ علم المنطق حتى سموه المعلم الأول وصاحب المنطق. (راجع «تاريخ الفكر العربي» لعمر فروخ - ص ١٠٧ - ١٠٨).

ثمانية عشر قرناً، ولولا ذلك، لما كان من المستبعد أن يتقدم بعصر النهضة فينطلق من القرن السابع الميلادي أو قبل ذلك.

وبدا عصر النهضة بالنظرية التي طلع بها العالم البولوني كوبر نيكوس القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس، وجاء بعده العالم الألماني كبلر ليدعم هذه النظرية ويميط اللثام عن قوانين حركة السيارات حول الشمس، ومنها الأرض. ثم جاء غاليليو من بعدهما، فبث روحاً جديدة في هذه الحركة العلمية وأعطاهم دفعةً قويةً بإثباته حركة السيارات حول الشمس بالرؤية والعيان.

ولولا هؤلاء الثلاثة، وما تمخضت عنه جهودهم وبحوثهم العلمية، لما ظهر فيلسوف مثل ديكارت^(١) بمنهاجه الخاص في التحقيق فهو الذي أرسى للبحوث العلمية أساساً منهجياً سديداً في عصر النهضة والتجديد، ولعله لولا هؤلاء الفلاسفة الثلاثة العظام، لعاش ديكارت بدوره في نفس الظلمات التي عاش فيها قومٌ كثيرون قبل ظهور هؤلاء في متناول القرون.

وعندما صوب غاليليو نظاره الفلكي إلى قبة السماء في عام ١٦١٠م، كان ديكارت ما زال في الرابعة عشرة من عمره، ولولا العلم الذي أتى به كوبر نيكوس وكبلر وغاليليو، لما استطاع ديكارت التخلص من مخلفات التفكير السائد في المجتمع، وإرساء قواعد البحث والتحقيق المنهجي في عصر النهضة. ومعروف أن العلوم سلسلة متصلة الحلقات، وأن كل علم إنما يُعين في كشف علم آخر، وهلمّ جرأً.

(١) رينه ديكارت Rene Decartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) فيلسوف ورياضي فرنسي اشتهر بكتابه (مقال في المنهج) الذي كان بعيد الأثر في الفكر الغربي، وقد ضمن هذا الكتاب نظريته المعروفة «أنا أفكر، فأنا إذن موجود»، وقد توصل إليها بالحدس والاستقراء. له طائفة من الاكتشافات الهندسية والفيزيائية (دائرة المعارف).

ولا ريب في أن جهل الإنسان بحقيقة كون الأرض والسيارات الأخرى تدور حول الشمس، قد قعد به عن متابعة البحث والتحقيق، وقصّ جناحيه حتى لا يحلّق في آفاق العالم الرحيب، وكان المسؤول الأول عن هذا القعود هو الرأي العلمي الخاطئ الذي قاله به المعلم الأول (أرسطو) والذي ساعد على تعزيزه ما كان يتمتع به من نفوذٍ علمي، كما سبق القول، فلم يجرؤ أحدٌ على معارضة رأي أستاذٍ يُعَدُّ في عصره أستاذ الأساتذة.

وجاء العالم الجغرافي المصري بطليموس بعد أرسطو بخمسة قرون، فأكد نظريته الخاصة بدوران الشمس والكواكب حول الأرض، وبأن الأرض نفسها ثابتة لا تتحرك.

ومن العوامل الهامة أيضاً في ترسيخ نظرية أرسطو واستمرارها موقف الكنائس المسيحية التي اعتقدت تأكيداً لهذه النظرية أن الأرض هي قاعدة العالم ومركزها الثابت، وأنه لولا ذلك لما ظهر فيها ابن الله (المسيح)، ومن هنا اعتبرت هذه النظرية عقيدةً ضروريةً لكل مسيحي.

وحتى ندرك أهمية الصنيع الذي قام به العلماء العظماء كوبر نيكوس وكبلر وغاليليو، نستشهد في هذا المقام بما قاله العالم الفيزيائي البريطاني (إدنجتون) المتوفى سنة ١٩٤٤م من أن نظرية أرسطو بشأن ثبات الأرض ودوران الشمس والسيارات من حولها، وهي النظرية التي أيدها بطليموس من بعده، كانت كالكابوس عن الحركة العلمية، لما حدث التقدّم العلمي الذي شهدته البشرية في عصرها الأخير.

فإذا انتقلنا إلى الشرق، وجدنا العالم الهندي تشاندرا تشاترشي^(١)

(١) تشاندرا تشاترشي كاتب ومفكر هندي له طائفة من المؤلفات باللغة البنغالية، وله دور هام في حركة تحرير الهند واستقلالها. وعاش قبل غاندي، وقبل تأسيس حزب المؤتمر الهندي، ومات سنة ١٨٩٤م عن ٥٦ عاماً (من آثاره الأدبية: آنان دات) كما أن النشيد الوطني الهندي مقتبس من مقطوعة أدبية له عنوانها (باندباتر).

Chaterchi يقول: لولا اعتداء الإنسان إلى أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، ولولا كشفه لهذه الحركة لبقى سادراً في جهله، ولما استطاع التوصل إلى ما اهتدى إليه في العصر الحديث.

وقد أقام هؤلاء العلماء العظماء الثلاثة البراهين أمام العالم على أن آراء أرسطو وغيره من الفلاسفة ليست كلها آراء سليمة تتأبى على الطعن أو المعارضة، وأن الكنائس المسيحية التي استندت إلى نظرية أرسطو لتعزيز رأيها بشأن ثبات الأرض كانت مُخطئة بدورها.

وظلت الكنائس المسيحية طوال هذه الفترة تستند إلى نظرية أرسطو الفلكية في دعم رأيها بشأن ثبات الأرض، دون أن تحاول تمحيصها أو نقدها، حتى جاء الكردينال نيقولا دوكوزا في عام ١٤٦٠م فتصدى لهذا الرأي بالمعارضة الجريئة. فقد كان العرف المتبع في ذلك الوقت هو منع صغار رجال الدين من دخول مكتبة الفاتيكان الغنية بالكتب والمراجع، في حين أن القساوسة من ذوي الرتب الدينية الرفيعة كان حقهم التردد على المكتبة والانتفاع بما فيها من ذخائر. ويُعزى الفضل إلى مكتبة الفاتيكان في نقل القسم الأعظم من معارف الأمم الإغريقية والرومانية وثقافتها إلى الأمم الأوروبية والأمريكية.

صحيح أنه كانت في أوروبا مراكز ومكتبات علمية أخرى، ولكن هذه المراكز لم يكن لها أثر إيجابي في حفظ تراث الإغريق والرومان ونقله إلى الأوروبيين، لأنها لم تحظ بما حظيت به مكتبة الفاتيكان من أسباب الرعاية والوقاية من آثار الحروب والدمار التي حلت بأوروبا، ولا عجب والجيوش والأمم المتطاحنة هي جيوش وأمم مسيحية ممن تحاذر إلحاق أي أذى بالفاتيكان الذي يضم المقر البابوي، أو بمكتبة الفاتيكان، تقديساً منها لبابا روما، وهكذا نجت مكتبة الفاتيكان من آثار الحروب. يُضاف إلى ذلك أن

هذه المكتبة كانت على الدوام مسندةً إلى عدد من القساوسة والعلماء المسيحيين، يشرفون عليها ويحرصون على ذخائرها ويصونونها من أيدي العبث والتلف.

بل إن الجامعات الأوروبية القديمة، كجامعات بادوا في إيطاليا وأكسفورد في إنجلترا والسوربون في فرنسا لم يكن لها ما لمكتبة الفاتيكان من دور في حفظ التراث العلمي والأدبي لليونان والرومان ونقله، لأنها جميعاً أسست في الألف الثانية بعد الميلاد، واستفادت بعد تأسيسها من مكتبات الفاتيكان وغيرها من المراكز الدينية التي حرصت على صيانة الكتب.

أما ملوك أوروبا وأمراؤها وأشرافها فكانوا في غالبيتهم من الأميين الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة، فكيف بعامة الناس.

ولم تكن بحفظ الكتب وصيانتها في أوروبا إلا المراكز الدينية الهامة، ولولا سعيها إلى صيانة المؤلفات المدونة باللغات اليونانية واللاتينية والسريانية، لما انتهى تراث اليونان والرومان إلى الأمم الأوروبية اليوم.

كانت مكتبة الفاتيكان، كما سلف القول، أغنى المكتبات بمقتنياتها من كتب اليونان واللاتين القديمة، ولكن الانتفاع بذخائرها كان مقتصرًا على ذوي الرتب المطرانية أو الكردينالية من رجال الدين تتألف منهم المجموعة المشرفة على الكنائس، فكان من حق هؤلاء فقط دخول مكتبة الفاتيكان وتناول ما فيها من كتب قديمة أما اليوم، فقد تغير الوضع، وصار مسموحاً لجميع رجال الدين بالتردد على المكتبة والانتفاع بكتبها بغض النظر عن رتبهم.

وهكذا نرى أن المساواة في البحث العلمي كانت مُنعقدة حتى في الكنائس الكاثوليكية، وأن النظام الطبقي الديني كان يحول دون الانتفاع

بالمكتبة بالنسبة لصغار رجال الدين، إذ كان قادة الكنيسة وأساقفتها يرفضون أن يجلسوا جنباً إلى جنب مع صغار القساوسة في قاعات المكتبة للإطلاع على نفس الكتب والمراجع.

أما الإعارة الخارجية للمكتب من مكتبة الفاتيكان، فكانت محظورة، مما ساعد على حفظ هذه الكتب من الضياع، وما زال هذا التقليد مستمراً على يومنا هذا. فالكاتب لا تُعار وإنما يجوز تصويرها.

وكما سبق القول، فقد أُتيحت للكردينال نيقولا دوكوزا فرصة دخول مكتبة الفاتيكان وتناول ما فيها من كتب، يُضاف إلى ذلك أنه كان يُجيد اللغة اليونانية، فاستطاع بذلك الوقوف على كتب فلاسفة الإغريق، ومنهم أرسطارخوس الذي كانت له نظرية بشأن حركة الأرض ودورانها.

ولما عاد من الفاتيكان إلى مسقط رأسه في ألمانيا، كتب رسالة علمية حول الحركة الوضعية والانتقالية للأرض، ولكن هذه الرسالة ظلت مخطوطة لانعدام وسائل الطباعة وقتذاك، ولكن استنسخت منها نسخ لفائدة المهتمين بهذا الموضوع. كان ذلك في عام ١٤٦٠ أي قبل ميلاد كوبر نيكوس بثلاثة عشر عاماً، ولكن نظرية دوران الأرض حول الشمس اشتهرت باسم العالم الرياضي والمنجم البولوني كوبر نيكوس وليس باسم نيقولا دوكوزا، لأن الثاني كان من رجال الدين المجهولين في الأوساط العلمية، ولأنه نقل نظريته عن فلاسفة اليونان. أما كوبر نيكوس فكان من رجال العلم، كما أنه أثبت نظريته بشأن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس بالمناهج العلمية. مما أثار اهتمام الأوساط العلمية بكشفه.

وقد ظلت رسالة نيقولا دوكوزا غير معروفة أولاً لأنها كُتبت خارج دائرة الفاتيكان، وثانياً لأنه ردد آراء فلاسفة اليونان دون تجريب عملي أو تحليل علمي، فلم يأخذها الناس مأخذ الجد، لا سيما وهي تتعارض مع

رأي الفاتيكان بشأن ثبات الأرض، وهو الرأي الذي أصبح قضية بديهيّة مسلمة لدى الكنائس والمسيحيين.

وها هو ذا أبو الرياضيات الحكيم اليوناني فيثاغورث يقول في مقدمة علم الهندسة إن «القضايا البديهيّة لا يحتاج إثباتها إلى دليل»، وقد اشتهر هذا المبدأ في ما بعد. ودلل على ذلك بقوله إن العشرة أكثر من خمسة، وهي قضية بديهيّة لا تحتاج إلى البرهان أو دليل، وإن الخمسين رطلاً أثقل من الأربعين، وهذه بدورها من البديهيّات التي لا تحتاج إلى برهان، وحركة الشمس والأجرام السماوية لا تحتاج إلى دليل لأن الإنسان منذ خلق وهو يرى بعينه أن الشمس والنجوم تتحرك وتدور. فموضع الشمس عسراً يختلف عن موضعها صباحاً. كذلك كان ثبات الأرض وانعدام الحركة فيها من القضايا البديهيّة الأخرى، لأن الإنسان لم ير حركة الأرض بأَم العينين، وأن العمائر والمباني التي يشيدها بالغاً ما بلغ ارتفاعها أو حجمها، باقية في مكانها إلى أن تزول بسبب عوامل التعريفة من مطر وشمس ورياح، وأن الجبال والتلال راسخة في مكانها على مدى العمر والدهر.

فلو قيل إذن إن الأرض تدور، وإن لها حركتين إحداها حول نفسها والأخرى حول الشمس، لاعتبر هذا القول من قبيل الخرافات والأساطير، ولا تُهمّ قائله بأنه يهزل أو بأن به مسأ من جنون.

وقد قلنا إن نظرية الضوء للإمام جعفر الصادق عليه السلام قد فتحت الطريق أمام الباحثين حتى انتهت بهم إلى صنع المنظار الفلكي ورصد الأجرام السماوية، وقادتهم إلى انطلاقة عصر النهضة والتجديد.

ولولا أن الصنعة لم تكن في عصر الإمام الصادق عليه السلام قد بلغت مرحلة تمكن الإمام من صنع منظار أو مرقب فلكي لرصد الأجرام السماوية وتسجيل حركة السيارات، لكان قد نجح بفكره النافذ في تحقيق ما انتهى

إليه العظماء الثلاثة، ولكن هذا لا يقلل من أهمية نظرية الضوء التي طلع بها الإمام قبل اثني عشر قرناً من هذا التاريخ.

وإذا كان نيوتن قد اكتشف قانون الجاذبية عندما سقطت ثفاحة من شجرة على رأسه، فهل يُعاب عليه أنه لم يقذف ثفاحة لتدور حول الأرض كما هو شأن الأقمار الصناعية في عصرنا هذا؟ بالطبع لا.

وقد بات معروفاً للناس جميعاً أن الأقمار الصناعية التي تطوف حول الأرض، أو التي أطلقت صوب القمر تخضع جميعاً لقانون الجاذبية الذي كشفه نيوتن، فإن كان نيوتن نفسه لم يُوفّق إلى الاستفادة من كشفه العلمي بالكيفية التي تأتت في عصرنا هذا، فذلك لا يُقلل من أهمية قانون الجاذبية، ولا من فضل نيوتن في تحقيق هذا الكشف العلمي. ولن يجترئ أحد فيقول إن عجز نيوتن عن إطلاق قمر صناعي على الفضاء دليل على أن كشفه العلمي كان بلا قيمة، فمثل هذا القول يرتد على صدر صاحبه ويؤكد فساد تفكيره وقلة فهمه.

وهناك نقطة بالغة الأهمية في نظرية الإمام الصادق عليه السلام بشأن الضوء، هي تأكيد، بأن الضوء ينعكس من الأجسام إلى العين^(١)، وهو قول يناقض التفكير الذي كان سائداً في ذلك العصر وكان مؤداه أن الضوء ينعكس من العين على الأجسام المرئية. والإمام الصادق عليه السلام وهو أول عالم في تاريخ الإسلام كله يناقض هذا الرأي السائد. فقد قال إن الضوء لا

(١) جاء في «خبر الربيع»: قرأ هندي عند المنصور كتب الطب، وعند الصادق عليه السلام فجعل ينصت لقراءته فلما فرغ قال: يا أبا عبد الله، أتريد مما معي شيئاً؟ قال: لا، لأن ما معي خير مما هو معك، ثم ينتهي الحوار بإلقاء أسئلة علمية وطبية من الصادق عليه السلام على الطبيب الهندي الذي يعجز عن الرد عليها، منها قول الصادق عليه السلام حول العيون وانعكاس النور إليه: وجُمِلَ الحاجبان من فوق العينين ليردا عليهما من النور قدر الكفاية. ألا ترى يا هندي أن من غلبه النور جعل يده على هيبه ليرد عليهما قدر كفايتهما منه؟ (المناقب، ج ٤، ص ٢٦٠).

ينعكس من العين على الأجسام بل الذي يحدث فعلاً هو نقيض ذلك، أي أن الضوء ينعكس من الأجسام ويصل إلى العين. دليل ذلك أننا لا نرى في الظلمة شيئاً، ولو أن العين كانت تعكس الضوء على الأجسام لشاهدنا الأجسام نهائراً وليلاً.

وللإمام الصادق عليه السلام نظرية أخرى عن الضوء وحركته وسرعته لا تقل أهمية عن نظريته الخاصة بالضوء وانعكاساته.

فمما قاله أن الضوء ينعكس من الأجسام على العين بسرعة «كلمح البصر» أي أن الإمام الصادق عليه السلام عرف أن للضوء حركة «كلمح البصر»، ولو أسعفته الوسائل التقنية الحديثة لاستطاع أن يقيس هذه السرعة بدقة شديدة.

فهو إذن قد اكتشف نظرية الضوء، وقال إن للضوء حركة وإن هذه الحركة سريعة جداً، أفلا يدل هذا كله على أنه كان سابقاً على عصور علمية كثيرة.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله في بعض دروسه إن الضوء القوي الساطع يستطيع تحريك الأجسام الثقيلة، وإن النور الذي ظهر لموسى على جبل الطور لو كانت مشيئة الله، لحرك الجبل.

ومن مؤدى هذه الرواية أن الإمام الصادق عليه السلام تنبأ بأساس نظرية (أشعة الليزر)، وفي رأينا أن آراء الإمام في الضوء وحركته وانعكاس أشعته من الأجسام إلى العين أهم من نظرية (أشعة الليزر)، لأن هذه النظرية قد عُرِفَت مقدماتها قبل الصادق عليه السلام وفي الأزمنة القديمة وعند مختلف الأقوام والشعوب.

ففي مصر القديمة مثلاً، كان الناس يعتقدون بأن الضوء ينفذ من

الأجسام ويحركها ولا تحول دونه حتى الجبال، وأن الضوء الضعيف لا ينفذ في كل شيء ولا يجاوز الأجسام الصلبة أو الجبال، في حين أن الضوء القوي يفعل هذا إن شاء!!

ويبدو أن أمثال هذه النظرية كان شائعاً عند أقوام كثيرة قبل ظهور الأديان السماوية، وكانت هذه الأقوام تعتقد أن القدرة التي يتمتع بها الضوء من فعل السحرة.

وليست لدينا معلومات دقيقة عن مبدأ هذه الفكرة وتاريخها، ولكننا لو تركنا جانباً موضوع الطاقة الكامنة في الضوء، فإن الذي قاله الإمام الصادق عليه السلام عن الضوء وحركته يتفق تماماً مع ما أثبتته البحث العلمي المعاصر. وغاية ما في الأمر أن العلم الحديث قاس سرعة الضوء وهي ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، ولكن هذا المقياس لا يُجدي في قياس المسافات الفلكية الشاسعة في الدراسات الفضائية.

قلنا في ما تقدم إن العلوم والمعارف في مدرسة جعفر الصادق عليه السلام قد أرسيت قواعدها على أربع دعائم أوردنا ذكرها، ولكن أهم خصائص هذه المدرسة والتي ساعدت على انتشارها وذبوع علومها تأكيداً على الابتعاد عن كل تزمن وتعصب وضيق صدر وأفق، ذلك أن الإمام الصادق عليه السلام لم يُعطِ أتباعه ذريعة واحدة لتكفير من يخالفونهم في الرأي، أو اعتبارهم منشقين أو مارقين، ولو حدث هذا لقضي دون ريب على كيان الشيعة الفكري والثقافي.

وكان الصادق عليه السلام عند حديثه عن جده رسول الإسلام ﷺ أو آبائه، يتحدث عنهم باعتبارهم بشراً سوياً، فلا وضع أحداً منهم في مقام الله، ولا عذمهم فوق البشر أو وسطاء يشفعون للناس عند الله^(١)، ولو فاه

(١) الشفاعة كمبدأ موجودة في القرآن الكريم ولكنها لا تعني - كما لا تستلزم ضرورة - كون الشفعاء من جنس آخر فوق البشر...

بشيء من هذا، لأحدث انشقاقاً واسعاً بين الشيعة، كما هو الحال عند المسيحيين.

ومع أن الصادق عليه السلام لم يفه مرة واحدة بما يجعل لجده الرسول صلى الله عليه وآله وآبائه الأئمة عليهم السلام طبيعة تختلف عن طبيعة البشر أو تسمو بأجسامهم على الطبيعة البشرية، ومع أنه لم يُغال في إيراد صفاتهم المعنوية، كل ذلك لم يحل دون ظهور فرق دينية وصوفية بين الشيعة منذ القرن الثالث الهجري، وكل واحدة منها تتعصب لرأيها وتناوئ غيرها من الفرق وكأنها تنتمي إلى مذهب مستقل.

ولئن كان العرفان دعامة من الدعائم الأربع التي تقوم عليها المعارف الجعفرية، فإن عرفان الصادق عليه السلام كان يلتزم حدود الاعتدال، يتوخى معرفة الدين على الوجه الصحيح والمذهب النقي كذلك وتبصير الناس بحدودهم ومهامهم. ولكن الصادق عليه السلام لم يكن يريد للعرفان أن يصبح مذهباً شائعاً مستقلاً عن الدين.

ومع ذلك، أخذت المذاهب والفرق الشيعية تتكاثر وتتشعب منذ القرن الثالث للهجرة، وغالى بعضها غلوّاً شديداً حتى قال بوحدة الوجود، أي وحدة الخالق والمخلوق، وهو ما يُعتبر شركاً وكُفراً في عقيدة الشيعة.

والذي يعنينا من هذه الظاهرة، أن حرية البحث والكتابة كانت منهاجاً مرعياً من أتباع الإمام الصادق عليه السلام، ولم يتعرض أحد لإيذاء أو عقوبة لأنه أبدى رأياً خالف به أيّاً من الآراء والنظريات التي كانت سائدة في هذه المدرسة، سواء أكانت دينية أم علمية أو فلسفية.

لقد كان تلامذة الصادق عليه السلام يطرحون عليه الأسئلة، ويتتقنون هذا الرأي أو ذاك، ويعارضون ما يُساق في المدرسة من حجج، وكان يتقبل ذلك منهم برحابة صدر وبشاشة وجه، وفي كتب الحديث والسيرة يسجل

واف لما جرى بين الإمام الصادق عليه السلام وناقديه ومعارضيه من محاجات ومناقشات ومحاضرات .

وقد توسعت الفرق الكلامية والصوفية في الحديث عن الخالق ووحدة الوجود، وكان من رأي بعض هذه الفرق أن المخلوق لا يختلف عن خالقه في القدرات المقدرة - طبعاً بالقدرة لا بالفعل - بينما رأى بعضها الآخر بأن للرسول صلى الله عليه وآله والأئمة مراتب تعلوا على مراتب المخلوق وإن كانت دون مرتبة الخالق طبعاً.

بل إن فرقاً أخرى من الصوفية وضعت المرشد والقطب في مرتبة عالية، تتحد أحياناً مع وجود الخالق أو تكون مماثلة لهذا الوجود وللقدرة الإلهية . وكانت تعظم هؤلاء الأقطاب وترفع من مقدارهم فوق مراتب الأئمة والأنبياء . وتراعي ذلك في سلوكها وعقائدها دون أن تصرح به، إما استحياء من القول بأن مقام قطبهم أعلى من مقام النبي صلى الله عليه وآله، وإما خوفاً من أن يُرموا بتهمة التكفير .

وعقيدة هذه الفرق الصوفية شبيهة بعقائد المصريين القدامى في أوزيريس وإيزيس، ومعروف أن قدامى المصريين كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة مع تفضيل الإله آمون باعتباره سيد الآلهة، ولئن كان إيزيس - وهي إلهة الموت - في مرتبة دون مرتبة آمون فإن المصريين القدامى كانوا يرون أن سلطانها أكبر من سلطان آمون، لأن إيزيس كانت قادرة على إنزال الموت حتى بآمون وهو سيد الآلهة .

نسبية الزمن عند الإمام جعفر الصادق عليه السلام

من القضايا الهامة التي نُوقِشت في مدرسة الإمام جعفر الصادق عليه السلام قضية الزمن التي تناولها الإمام ضمن ما تناول من مسائل فلسفية مختلفة، وأبدى فيها ما ارتآه من آراء، وقد عُني فلاسفة اليونان من أقدم العصور بهذه القضية الفلسفية الهامة، وما زالت تستأثر بالبحث والتحقيق إلى يومنا هذا.

وكان من رأي بعض فلاسفة اليونان أن الزمن ليست له حقيقة أو وجود خارجي، في حين رأى البعض الآخر أن الزمن حقيقة ثابتة تُقام الدلائل والبراهين على تأكيدها.

والفلاسفة الذين أنكروا حقيقة الزمن قالوا إنه غير موجود، سواء بصورة ذاتية أو بصورة تبعية. وفي رأيهم أن «الزمن فاصل بين حركتين»، وأن الإنسان أو أي كائن حي ذي شعور لا يحسّ بهذه الفاصلة حتى وإن تابع سير الحركة، واستناداً إلى هذا، قطعوا بأن الزمن منعدم الوجود، سواء في صورته الذاتية أو في صورته التبعية.

وتساءل فلاسفة اليونان عما إذا كان الحيوان يدرك الزمن ويعرف مقاطعه. فقال بعضهم إن هناك قسماً من الحيوان يحس بالزمن ويدرك مقاطعه وفواصله، وما هذه المقاطع والفواصل إلا جوع الحيوان أو عطشه أو حلول الظلام بغروب الشمس، أو غير ذلك من الظواهر الطبيعية الأخرى.

أما الذين ينكرون أن للزمن وجوداً ذاتياً، فيقيمون براهين كثيرة على ذلك، منها قولهم إن الإنسان إن فقد وعيه، لم يعد يحس بالزمن أو يشعر بمروره مهما طال، ومتى عاد إلى وعيه، لم يعرف كم انقضى عليه من ساعات أو أيام. ولو كان للزمن وجود ذاتي، لأدرك الإنسان مقدار الفاصل الزمني الذي مر عليه. وهذا نفسه يُقال عن النائم مهما طال رقاذه، إذ يجهل مقدار الوقت الذي مرَّ عليه إلا من الظواهر الشمسية أو آثار الليل.

أما الفريق الآخر الذي يقول أن للزمن وجوداً ذاتياً، فقد صنف الزمن إلى نوعين، أولهما الزمن المتحرك أو السائر، وهو يتألف من ذرات متحركة تنتقل من جانب إلى جانب.

وإذا كنا لا نشعر بمرور هذه الذرات في حد ذاتها، إلا أننا نشعر بمرورها متراثة في الإنسان نفسه، كالتغيرات المتلاحقة التي تطرأ عليه من الطفولة إلى الصبا فالشيخوخة، كما نشعر بانقضاء الزمن من خلال التغيرات الطارئة على النباتات والأشجار من حولنا.

أما النوع الثاني، فهو الزمن الثابت الذي لا تتحرك ذراته وأجزاؤه لأنها كذرات المادة من رمل وتراب، تترسب وتمكث. ومثل هذا الزمن لا ينتقل من مكان إلى مكان، ولا يفصل بين حركة وحركة، ولهذا سُمي بالزمن الثابت غير المتحرك.

وفي رأي فلاسفة الإغريق القدامى أن الأبدية زمن الآلهة، وهو زمن ثابت، في حين أن الزمن المتحرك السائر هو زمن الكائنات الحية، ومنها الإنسان.

ولأنَّ زمن الآلهة ثابت غير متحرك، فلا تغيير يطرأ في وجودها أو وضعها. أما الإنسان والحيوان والنبات، فلأنها تعيش في الزمن المتحرك

السائر، فهي عرضة لتغيرات تطرأ عليها، ولا سبيل إلى وقفها أو الحيلولة دونها ما دام الزمن متحركاً سائراً يتعذر وقفه.

ولو استطعنا وقف حركة الزمن ووقف تغير في شكل الكائنات الحية، لرفعناها إلى مرتبة الآلهة، لأنها تتمتع إذ ذاك بالزمن الثابت، وهو أبدي.

أفيمكن إجراء مثل هذا التغير، أي إدخال أنواع الحيوان والنبات في حيز الزمن الثابت، فتغدوا أبدية الوجود كالآلهة؟

أجاب فلاسفة اليونان على هذا التساؤل بنعم، فمن مؤدى هذا العرفان اليوناني الارتقاء بالإنسان إلى مرتبة الآلهة، وهو ما حاوله كثير من عرفاء الإغريق وفلاسفتهم، كل بأسلوبه الخاص.

فالفيلسوف اليوناني زينون^(١)، الذي أسس المذهب الرواقي نسبة إلى هيكل أثينا الذي كان يعلم فيه الفلسفة، يرى أن الخير هو السعادة، وأن الإنسان يبلغ السعادة عن طريق الفضيلة، وأما الفضيلة نفسها فهي ثمرة الإرادة المعتمدة على العقل، ومن الفضيلة تحمل المشاق في سبيل الوصول إلى الخير وتحقيقه.

ومما قاله زينون إنه لا يسع الإنسان أن يظفر بالحرية الكاملة في الديمقراطية كأثينا بالقانون وحده، وإنما الحرية تكتسب بالجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس، فإذا قُتِلَت النفس الشريرة ارتاح الناس، ولم يعتد أحد من ذوي النفوس المهذبة على حقوق الغير، والكل يتمتع بالحرية.

وكان الفيلسوف أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م) يرى أن الزمن الأبدي

(١) زينون القبرسي من أعلام العصر الهليني في تاريخ الفلسفة الإغريقية، وهو زعيم مذهب الرواقيين الذين كانوا يرون بعبادتهم أن جميع المعارف حية. توفي سنة ٢٦٣ ق.م (راجع «تاريخ الفكر العربي» لعمرو فروخ، ص ١٢٢).

والسعادة المطلقة يتمّ التوصل إليها عندما يتمتع الإنسان بكل ما وُهب في حدود الاعتدال. وكان من رأيه أن دراسة الفلسفة إنما تُراد للحصول على اللذة المصاحبة لمعرفة هذا العلم.

وفي مذهب أبيقور أن النفس إذا عملت خيراً ورد عليها سرور وفرح، وإذا عملت شراً ورد عليها حزن وترح، وإنما يكثر سرور كل نفس بالاجتماع بالأنفس الأخرى.

وهناك فيلسوف يوناني آخر عاصر أبيقور وكان له رأي مخالف لرأي معاصره، وهو ديوجين الفيلسوف ومن مذهبه أن التكامل البشري ووصول الإنسان إلى الزمن الثابت الأبدي، وبالتالي إلى الآلهة، يتطلبان ترك الدنيا وملذاتها والاكتفاء بالقدر والضروري القليل من وسائل العيش. وقد رُوِيَ أنه شاهد طفلاً يشرب الماء بكفيه مُستغنياً عن الكأس الوحيدة المتاحة للشرب، فقال إن زخارف الدنيا تحول دون الالتحاق بالآلهة.

ونلاحظ أنّ هناك وجهاً مشتركاً في العرفان بين فلسفة اليونان والعرفان الشرقي، يتمثل في أن الطريق إلى الله يمرّ بكبح جماع النفس والنهي عن الملذات. ولا فرق من هذه الناحية بين فكر اليونان القديم وفكر الشرق القديم، اللهم إلا في حدود هذا الامتناع ومداه.

وكان من رأي بعض فلاسفة اليونان، ومنهم ديوجين، أن احتفاظ الطالب العارف بأكثر من قميص واحد يستر العورة أمرٌ لا يجوز، وهو يقف حائل بينه وبين الوصول إلى الآلهة. ومثل هذه الفكرة نجدها في الشرق، ينادي بها العرفاء والصوفية. فمن أين جاء هذا التشابه أو اللقاء بين الفكرين؟

معروفٌ أن الشرق لم يلتقِ باليونان قبل قيام دارا ملك الفرس الأخميني (الهخامنشي) في عام ٤٦٠ ق.م. بالهجوم على اليونان. فهل

حدث اللقاء بين الفكرين اليوناني والشرقي منذ هذا التاريخ. وهل انتقلت فكرة الجهاد مع النفس للوصول إلى الآلهة من الشرق إلى اليونان، أو عكس ذلك؟

الواقع أننا لا نجد أثراً لهذه الفكرة لا في التعاليم الأصلية لكونفشيوس في الصين، ولا في تعاليم بوذا في الهند، ولا في تعاليم زردشت في فارس. فلم يدع أحدٌ منهم إلى قتل النفس للوصول إلى مرتبة الآلهة. ولكن هذه الفكرة انتشرت في الشرق وفي اليونان دون أن تكون بينهما علاقات ثقافية أو روابط أخرى. فهل لنا أن نستخلص من هذا أن فكرة الجهاد مع النفس وترك الملذات للوصول إلى الله أو السعادة الأبدية قد وجدت وتبلورت عند الشعوب الفقيرة الكادحة التي لا تجد ما فيها لسد احتياجاتها؟ ولو أن العرفاء والمتفلسفين في مناطق العالم المختلفة كانوا من طبقة الأغنياء أو السراة، فهل كان يشترون بطريق آخر للوصول إلى الله أو الآلهة؟

هذا التساؤل لا يعني طبعاً أن التاريخ قد خلا من أغنياء أو أصحاب جاه تركوا ملذات الدنيا ونبذوا أهواء النفس لكي يصلوا إلى هذه الغاية، ولا هو يعني أن فكرة مجاهدة النفس كانت خاصة بالفقراء والمعدمين وحدهم.

ونعود إلى فكرة الزمن، فنقول إن الدور قد جاء على حكماء أوروبا وفلاسفتها في القرون المتأخرة ليدلوا بأرائهم في هذه القضية، فمنهم من أنكر وجود الزمن إنكاراً باتاً حتى في القرن التاسع عشر الميلادي قائلين إن الموجود هو المكان. ومنهم من أنكر المكان قائلاً إنه يوجد تابعاً للمادة، ولا وجود له في حد ذاته، وحيثما وجدت المادة وجد المكان، وإلا فلا.

وكان الناس في سوادهم يرون في هذا القول إنكاراً للمشاهدات المحسوسة، فهم يشاهدون في حياتهم اليومية الغرفة التي يعيشون فيها أو

ينامون، وهي ذات عرض وطول وارتفاع. فكيف يسوغ إنكار هذه الحقيقة المادية الملموسة المتجلية بأوضح صورها في المأوى اليومي؟.

كما كانت في القرن الماضي مجموعة من العلماء تنكر وجود المكان، ومن مؤدى نظريتهم أن المكان بلا وجود أو حقيقة، وأن ما تحسبه العين مكاناً ذا أبعاد أربعة إن هو إلا المادة، والمادة هي التي تخلق المكان، أي بعبارة أخرى، أن المادة هي المكان، وحيشما وُجدت وُجد المكان، وإلا انعدم.

ولو سئل واحد من هؤلاء العلماء: وماذا تقول في الطائرة التي تُقلع من مكانٍ وتنتقل بسرعة فائقة إلى حيث تحط في مكان آخر؟ وما القول في سفينة الفضاء، وأين هي تطير؟ لجاء الجواب: إنها تطير في المادة!

ويشك البعض في صحة هذه النظرية، لأن المعروف أن الهواء ينتشر في الفضاء بأجزائه وذراته على امتداد مسافة معينة قد لا تتجاوز ثلاثة آلاف كيلو متر، يليها الفضاء الطلق الفسيح الذي لا توجد فيه إلا أمواج الأثير كأشعة الضوء أو الأمواج الكهربائية أو الجاذبية المغنطيسية، ولا أثر للمادة في هذا الفضاء الفسيح حتى تسبح فيه سفن الفضاء.

ولكن المنكرين لهذه النظرية يقولون إن الفضاء الذي تسبح فيه سفن الفضاء هو في حقيقته الحد الفاصل بين نواة الذرة والإلكتروناتها، وأن الحد الفاصل بين نواة الذرة وأجزائها من الإلكترونات هو في حقيقته كالحد الفاصل بين قرص الشمس والسيارات، وهذه الفاصلة (سواء أكانت في الوحدة الذرية أم وجدت بين الشمس وبين الأرض أو الزهرة وغيرها من الأجرام) هي جزء من المادة، والدليل على ذلك أن الجاذبية تمر فيها، وقوة الجاذبية لا تنفصل عن المادة، ولا تنفصل المادة عنها.

ولسنا نرى في هذه النظرية فرقاً بين الطاقة والمادة، وكلتاها تعتبران

أمراً واحداً، ولكنهم كانوا يقولون إن للمادة خواص تختلف عن خواص الطاقة، والواقع المؤكد هو أن العلماء منذ القرن الثامن عشر انتهوا في أبحاثهم إلى أن المادة والطاقة وجهان لشيء واحد، في حين أن تعريف المادة والطاقة في علم الفيزياء الحديث يتخذ أبعاداً أخرى. وإلى بداية القرن العشرين، كان من الجائز تعريف المادة بأنها طاقة متراكمة أو مكثفة، وأن الطاقة مادة موجبة، ولكن هذا التعريف لكل من المادة والطاقة لا يفي بمطالب العلم الحديث وما انتهى إليه من نتائج.

ولو قلنا إن قوة الجاذبية هي المادة، لأصبحت المادة التي عرفناها بأنها طاقة متراكمة، مادةً مواجهة غير متناهية، ولاضطررنا إلى الاعتراف بأن الوجود ليس فيه سوى المادة، ولسلمنا بالرأي القائل أن الطائرات وسفن الفضاء تطير في المادة.

ومما لا ريب فيه أن سرعة أشعة قوة الجاذبية تجعل الجرم لا متناهياً، وتصبح المادة بناءً على هذه النظرية لا متناهيةً بدورها.

ومنذ مطلع القرن الحالي، وبعد رحلات الفضاء التي قام بها الإنسان، تجمعت لدى علماء الفيزياء معلومات هامة أخرى عن المادة، منها أن جميع العناصر الموجودة في الكرة الأرضية تنبعث منها الأشعة فوق البنفسجية بصورة مستمرة، وفي حين أن العلماء قبل هذه الرحلات كانوا يعتقدون أن الأشعة لا تنبعث إلا من الأجسام الدافعة وحدها. فإن سفن الفضاء والأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض بصورة مستمرة أثبتت أن الأشعة فوق البنفسجية لا تنبعث من الجسم الدافئ وحده، بل تنبعث حتى من الثلوج في القطبين الشمالي والجنوبي^(١).

(١) تبين للعلماء من رحلات الفضاء والتجارب العلمية أن الفضاء الخارجي مشحون بقوى وطاقات هائلة من=

وقد أجريت تجارب دقيقة في مختبرات علمية على أجسام بُردت إلى درجة متناهية في البرودة، فتبين أن الأشعة لا تنقطع بسبب البرد الشديد، وأدت هذه التجارب إلى ظهور قانون فيزيائي هو أن الأجسام والعناصر الموجودة في الكرة الأرضية لا تكف عن الإشعاع إلا إذا هبطت درجة الحرارة إلى الصفر. ودرجة الصفر هي الدرجة التي عندها تتوقف حركة الجزيء في المادة.

وبفضل هذه الأشعة يستطيع الإنسان رؤية كل شيء في الظلام مستعيناً بالمنظار المجهز بالأشعة فوق البنفسجية، وهو منظار لا يحتجب عنه شيء. وقد دلت التجارب على أن الأشعة التي تنبعث من النباتات النضرة والأجسام الحية للإنسان والحيوان تفوق في مقدارها الأشعة المنبعثة من النباتات أو الحيوانات الميتة. (ومما يُذكر أن هذا المنظار يُستخدم في جبهات القتال ليلاً لمعرفة تحركات العدو وآلياته).

وعند علماء الفيزياء أو المقصود بدرجة الصفر في البرودة هو هبوط درجة البرودة إلى ١،٢٧٣ درجة سنتيغراد أو ٢٧٣،٤٥٨ فهرنهيت. غير أن هؤلاء العلماء لم يستطيعوا الوصول إلى هذه الدرجة من البرودة في المعامل الضخمة التي أقيمت للأغراض العلمية، وإنما استطاعوا الوصول بدرجة البرودة إلى ٢٢٠ درجة تحت الصفر مقايسة بميزان الحرارة المثوي (سنتيغراد). وبعد وصولهم إلى هذا الحد الهائل من البرودة، يواجهون عقبات كثيرة في سبيل الهبوط بدرجة البرودة إلى ما بعد ذلك. وصفوة

=الذرات المؤينة (المعروفة علمياً باسم البلازما) واعتدوا إلى حزام هائل من الأشعة الرهية يحيط بالكرة الأرضية على طبقتين، وقد عرف علمياً باسم (حزام فان آلن)، وتتألف هذه الأشعة من (الكترونات) و(بوزيترونات) مشحونة، وهي تتحرك بسرعة هائلة بالإضافة إلى أشعة (غاما) و(الأشعة الكونية) التي تخترق الأجسام مهما يكن سمكها أو طبيعتها. (راجع «العلوم الطبيعية في القرآن» ليوسف مروة، ص ١٧٠ - ١٧١).

القول إنهم لم يستطيعوا الوصول إلى درجة البرودة المطلقة، أي الصفر، لكي يبينوا آثار التوقف الكامل لحركة الجزيء في الأجسام، وهل يؤثر هذا التوقف في الذرة أو لا.

وفي حين تتواصل التجارب العلمية على المادة وتستمر وتُحيط اللثام عن كل جديد وغريب في هذا الكون، يبدو أن النظرية القائلة بأن الوجود هو المادة اللامتناهية، وأن ما يبدو في أعيننا كالفناء هو مجال إشعاع المادة، هي نظرية غير بعيدة عن الواقع، وخليق بالعلماء أن يتأملوا ويتابعوها.

وللعالم الفيزيائي المعاصر إسحاق أزيروف^(١) الذي ولد في روسيا وهاجر إلى الولايات المتحدة، نظرية علمية عن المكان تجدر الإشارة إليها.

يقول أزيروف إن «المكان هو المادة وإشعاعها»، وإن المادة الأصلية هي نواة الذرة أو النواة المجتمعة، وإن الأمواج المشعة الصادرة من هذه النواة يزيد ضغطها ووزنها باقترابها من النواة، وينقص بابتعادها عنها، دون أن يقلل ذلك من سرعتها.

ويمكن تشبيه النواة بمصباح ينشر الضوء في ما حواليه. فإذا ابتعدنا عنه، قل الضوء دون أن تقل سرعته (وسرعة الضوء هي ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية الواحدة). بل إننا إذا ابتعدنا عن المصباح حتى لم نعد نرى ضوءه، ظل الضوء موجوداً ومحفوظاً بسرعه المعتادة بتحريك وينتشر حول المصباح. وهو لا يصل إلينا لأننا لأعيننا وأذاننا وحاسة اللمس عند الإنسان قدرات معينة لاستقبال الموجات لا تتعداها، فإن ابتعدنا عن المصباح المضئ في الدار حتى غاب نوره عن أعيننا، فنوره باقٍ، وهو ينطلق بسرعة

(١) الواقع أن اسم هذا العالم اسم عربي فهو اسحق عظيم أوف وهو من المسلمين الروس (المترجم).

٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية، كما قلنا قبلاً، وإن كانت عيوننا لا تدركه حتى ولو انحنى في أثناء سيره .

وكان الاعتقاد السائد في الماضي أن موجات الضوء تسير في اتجاهٍ مستقيم، غير أن التجارب الحديثة برهنت على أن هذه الموجات قد تنحني إذا ما اعترضتها أجرام ذات قوة جاذبية شديدة، كما برهنت على أن نور المصباح متى ابتعد عن الكرة الأرضية انحنى أمامها الضوء الساطع، تجذب الضوء إليها؟ لأن الرد في علم الفيزياء هو: لا، وهو ردٌ يحير العلماء الذين يتساءلون قائلين: كيف تعجز الشمس بقوة جاذبيتها الفائقة عن اجتذاب ضوء المصباح إليها في حين أن الضوء ينحني عندها؟

نعم، إن لكل نجم قوة جاذبية تتناسب مع جرم هذا النجم، وأجرام الشمس هي على درجة من الكثرة تقل تلقاءها أجراء المنظومة الشمسية بأسرها، إذ أن مجموع أجرام المنظومة الشمسية يعادل أربعة عشر بالمائة من احد من المائة من جرم الشمس. أي إننا إذا قسمنا أجرام الشمس على مائة وحدة، ثم جمعنا أجرام النجوم والسيارات الأخرى في المنظومة الشمسية، لوجدنا أنها تساوي ١٤ پ من كل وحدة من وحدات جرم الشمس المائة .

وينبغي ألا يكون هناك لبسٌ في فهم الجرم، إذ هو يختلف عن الحجم، فجرم الجسم يقاس بالوزن أو بالحس، وكلما ثقل وزن جسم كبر جرمه، وكلما كبر جرم جسم ما، ازدادت قوة جاذبيته، ولأن أجرام الشمس كثيرة ومتكاثفة، فجاذبيتها أقوى وأشد .

ومع ذلك، فالشمس لا تجذب موجات الضوء المنبعث من مصابيحنا، ولكنها تجعلها تنحرف عن مسارها. وسبب ذلك أن للضوء سرعة قدرها ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية - كما سبق أن ذكرنا - وبهذه السرعة الفائقة

ينطلق الضوء قاطعاً مسافات شاسعة، ماراً من الشمس على كرة شمسية أخرى، حتى يصل إلى مجموعة النيازك التي يطلق عليها اسم «كوتوليه».

وقد أطلق الفلكيون هذا الاسم على مجموعة من الشهب والنجوم التي تراكمت أجرامها وتزايدت قدرة جاذبيتها بحيث أن الضوء لا يستطيع تجاوزها، فيصل إليها وينجذب نحوها على الفور. والأجرام التي تضمها مجموعة «كوتوليه» متراكمة بكثرة يتعذر تصورها.

وسبب تراكم الأجرام في هذه المجموعات النيزكية هو أن لذراتها نواة، ولكن ليس لها إلكترون. ومعروف أن الذرة هي أصغر جزء في المادة، وأنها تشبه فضاء خالياً كالمنظومة الشمسية تماماً، وهناك نواة، وهي الجزء الجوهري في الذرة، والباقي فضاء خالٍ تدور فيه الإلكترونات حول النواة، تماماً كما تدور السيارات حول الشمس في منظومتنا.

ولو أزيل الفاصل بين الإلكترون والنواة بحيث تبقى النواة وحدها، لأصبح جرم الكرة الأرضية ككرة اللعب، أما وزنها فيساوي وزن الكرة الأرضية.

فالذرات في المجموعات المسماة «كوتوليه» فقدت فضاءها الخالي، وفقدت الإلكترونات أيضاً، ولم تبق فيها إلا النوى المتراكمة المندمج بعضها في البعض الآخر بحيث يتألف منها جرم متراكم واحد، ولو حدث هذا في الكرة الأرضية مثلاً، لكان وزنها معادلاً لوزن كرة اللعب، ولأن قوة الجاذبية تتناسب مع الجرم، فلهذه المجموعات جاذبية كبيرة لا تسمح لشعاع الضوء بتجاوزها، وهذا هو سر إظلام هذه المجموعة، ذلك أن الضوء يفقد موجاته حولها بسبب انجذابها نحوها.

ويقول إسحق أزيমوف أن الطريق - أي المكان - لا وجود له، وإن الضوء هو الذي يوجد المكان، وإن أشعة الضوء وموجاته هي المكان.

فمن رأي هذا العالم الفيزيائي الروسي الأصل أن المكان ليس له وجود أو حقيقة، إلى أن ينطلق فيه الضوء، وعندئذٍ يتسبب الضوء نفسه وبأواجهه في إيجاد المكان، ولو سألنا عن مقدار المسافات التي يقطعها الضوء، أو عن مقدار المسافات التي يُوجدُها، لأجاب علماء الفيزياء قائلين: لا نهاية لذلك. ولأضافوا أن موجات الضوء تظل تتذبذب وتقطع المسافات إلى أن تتحول إلى مادة.

وثمة سؤال آخر يعلن للباحث هو: كيف يُستطاع تحويل الضوء (ضوء المصباح مثلاً) من طاقة إلى مادة؟ إلى هذا اليوم، لم يُوفق علم الفيزياء للاهتمام إلى جواب عن هذا السؤال، ولو حدث في أية لحظة أن اهتدى العلم إلى جوابٍ عن هذا السؤال، لقطع بذلك مائة ألف سنة من التقدم في غمضة عين.

ففي هذا السؤال يتمثل سر الأسرار في الفيزياء، بل سر الخليقة وسر الوجود، فكيف السبيل على تحوي الطاقة إلى مادة؟

لقد نجح العلم في تحويل المادة إلى طاقة، وأصبح هذا أمراً مألوفاً نرى منه ألواناً شتى ليلاً ونهاراً في المصانع والطائرات والسفن والسيارات والمنازل، وحتى في الجسم البشري الذي تتحول فيه المادة إلى طاقة. أما تحويل الطاقة إلى مادة، فهو أمر ما زال متعذراً حتى الآن، ولا نعرف تعليلاً لحدوثه في الكون.

والشمس ظاهرة من أبرز ظواهر الخليقة الماثلة أمام أعيننا. وما يحدث في الشمس نفسها هو أن الطاقة لا تنقلب إلى مادة، وإنما المادة تنقلب إلى مادة أخرى، ذلك بأن عنصر الهيدروجين في الشمس ينقلب إلى عنصر الهيليوم، فيتسبب ذلك في توليد حرارة شديدة.

وإلى هذا اليوم لا يعرف العلماء كيف وُجدت الشمس، وقُصارى ما

قبل في هذا الباب لا يعدو النظريات الافتراضية التي تفتقر إلى البرهان والإثبات.

وصفوة القول إن إسحق أزيমوف وهو كما قلنا عالم فيزيائي معاصر يعمل أستاذاً في جامعات أميركا - يُنكر وجود المادة ولا يرى حقيقة له، ويقول إن ما نراه ونحس به هو المادة أو أمواجها وأشعتها، وإن إحساس البشر بالمكان سببه الأشعة المنبعثة من المادة.

فإن كنت جالساً في غرفة أو في مكتب وشعرت بأنك جالس في مكان، فسبب ذلك أن هناك أمواجاً وأشعة تحيط بك وتكتنفك، وإن انعدمت انعدم شعورك بالمكان.

فإن عرفنا بعد ذلك أن رجلاً جاء قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن وتبنى مثل هذه النظرية بشأن المكان والزمان، أفلا يستحق منا تقديراً وإجلالاً؟ أوليس هذا دليلاً على أنه ذا عقلية سبق بها عصره وعصوراً أخرى كثيرة، وأنه كان فذاً في تفكيره الكاشف؟

إن هذا الرجل هو جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الذي عاش في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، وساق نظريات حول الزمان والمكان تتفق مع نظريات العلماء المعاصرين، ناهيك عن أن تعريف الزمان والمكان لدى الصادق عليه السلام كان جُلُوءاً من المصطلحات والمعادلات العلمية الحديثة، وكان مصوغاً في قالب سهل المأثى، واضح المعنى.

ففي رأي الصادق عليه السلام أنَّ الزمان غير موجود بذاته، ولكنه يكتسب واقعيته وأثره من شعورنا وإحساسنا، كما أن الزمان هو حدٌ فاصلٌ بين واقعيتين أو وحدتين.

وهو يرى أنَّ الليل والنهار ليسا من أسباب تشخيص الزمان ومعرفته،

وإنما هما حقيقتان مستقلتان عن الزمان، يضاف إلى ذلك أن الليل والنهار ليس لهما طول ثابت، فالليل يقصر في الصيف ويطول في الشتاء، والنهار على عكسه، وهما يتعادلان أحياناً.

وفي رأي الصادق عليه السلام أيضاً أن للمكان وجوداً تابعياً لا ذاتياً وهو يتراءى لنا بالطول والعرض والارتفاع، ولكن وجوده التبعية يختلف باختلاف مراحل العمر، ومن ذلك مثلاً أن الطفل الذي يعيش في بيت صغير، يرى بخیاله وأحلامه أن فضاء البيت ساحة كبرى. ومتى بلغ هذا الطفل العشرين من عمره، رأى هذه الدار مكاناً صغيراً جداً، وأدهشته أنه كان يراها واسعة رحبة في طفولته.

فللمكان، بناء على ذلك، وجودٌ تبعي لا حقيقي، وفي هذا اتفقت آراء علماء الفيزياء في القرن العشرين مع رأي الإمام الصادق في القرن السابع الميلادي.

نظرية الصادق عليه السلام حول أسباب بعض الأمراض

ومن النظريات التي قال بها الإمام الصادق عليه السلام وكشفت عن نبوغه العلمي وإحاطته الواسعة بدقائق العلوم، نظريته المتعلقة بانتقال بعض الأمراض عن طريق الضوء من المريض إلى السليم.

ومؤدّي هذه النظرية أن هناك أمراضاً ينبعث منها ضوء، فإذا أصاب الضوء أحداً، انتابته العلة.

ولا بد من ملاحظة أنّ هذا القول لا ينسحب على العدوى بطريق الهواء أو الميكروب، لأن هذه الحقيقة لم تكن قد كُشفت بعد أيام الصادق عليه السلام، وإنما ينصب هذا القول على الضوء - وليس كل ضوء - بل الضوء الذي يشعه المريض، فإذا أصاب سليماً أمرضه.

وقد ذهب علماء الأحياء إلى أن هذه النظرية ضربٌ من الخرافة، اعتقاداً منهم بأن العامل الرئيسي في انتقال المرض هو الميكروب أو الفيروس الذي ينتقل بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق الحشرات أو الماء أو الهواء الملوث.

وكان الاعتقاد السائد بين المطبّين قبل اكتشاف الميكروب أن الرائحة هي السبب الفعّال في انتقال المرض، ولهذا صرفوا اهتمامهم إلى الحيلولة دون انتقال الرائحة من المريض إلى السليم. أما ما ذهب إليه الصادق عليه السلام من أنّ الضوء المشع المنبعث من المريض هو الذي يتسبب في نقل

العدوى، فهو نظرية لم يقل بها أحد في أي مرحلة من مراحل تاريخ الطب الطويل.

وظلت هذه النظرية معدودة من الخرافات في رأي العلماء والباحثين إلى أن جاءت التجارب العلمية المعاصرة معززة لها ومثبتة لصدق آراء الصادق عليه السلام هذه.

ففي مدينة «نوو - وو - سيبيرسك»^(١) الواقعة في الاتحاد السوفياتي مركز من أهم مراكز البحوث في العلوم الكيميائية والطبية. وقد استطاع هذا المركز أن يثبت للمرة الأولى بأن هناك من الأمراض ما يُشعُّ ضوءاً، وأن هذا الضوء قادر في حد ذاته، ودون ميكروب أو فيروس، على إصابة الخلايا السليمة وإيقاع المرض بها.

أما الأسلوب الذي اتبعه علماء مركز «نوو - وو - سيبيرسك» في إجراء تجاربهم فكان على النحو التالي:

تخير العلماء مجموعتين من الخلايا الموجودة في كائن حي، وراعوا فيها أن تكونا من نفس العضو، كخلايا القلب أو الكلى مثلاً، ثم أجروا عليهما عملية تجزئة أو تحليل، وتابعوا نتيجة ذلك. وقد تبينوا أن الخلية تشع أنواعاً من «الفوتون»، (ومعروف أن ذرة الضوء تسمى بالفوتون، وهو أصغر جزء منه) وبفضل التقدم العلمي استطاعت المختبرات العلمية تجزئة الفوتون وإجراء تجارب علمية عليه.

وبعد إجراء البحوث الدقيقة على هاتين المجموعتين من الخلايا

(١) عرفت هذه المدينة قديماً باسم «نوو - وو - نيكله يوفسك»، ثم غُيِّرَ اسمها في عام ١٩٢٥ على «نوو - وو - سيبيرسك»، وهي تُعد من المراكز العلمية والصناعية الهامة في مقاطعة سيبيريا الروسية. ويؤخذ من آخر إحصاء ورد في دائرة المعارف الجغرافية البريطانية أنَّ عدد سكانها كان في عام ١٩٦٣ حوالي مليون نسمة (٩٩٠،٠٠٠ على وجه التحديد).

المتشابهة والمختلفة في الكائن الحيّ أدخلوا المرض على مجموعة منها ليتابعوا تأثير إشعاعه، فوجدوا أن الفوتون يشع من الخلية المريضة أيضاً، وأن المرض يمنع الخلية من الإشعاع.

ثم انتقل العلماء إلى المرحلة الثانية من التجارب، فوضعوا الخلايا السليمة في حافظتين إحداهما من الكوارتز^(١) والأخرى من الزجاج.

ومعروف أن من خواص الكوارتز مقاومته للأشعة، فلا تخترقه إلا الأشعة البنفسجية، في حين أن من خواص الزجاج العادي أن فوتون أنواع الأشعة يخترقه ما عدا الأشعة فوق البنفسجية.

وقد تبين العلماء بعد انقضاء ساعاتٍ على الخلايا الموجودة في الحافظتين أمام الخلية المريضة أنّ ما كان منها في حافظة الكوارتز أصيب بالمرض، أما الخلايا التي كانت في الحافظة الزجاجية فقد بقيت سالمة.

وما دام الكوارتز يقاوم جميع أنواع الأشعة ما عدا الأشعة فوق البنفسجية، وما دام الزجاج يقاوم الأشعة فوق البنفسجية وحدها، فقد تحقق من هذه التجربة أن الخلية المريضة التي تصدر منها أشعة فوق بنفسجية قادرة على نقل المرض إلى الخلايا السليمة من خلال هذه الأشعة. أما الخلايا السليمة الموضوعة في الحافظة الزجاجية، فلم تصل إليها الأشعة فوق البنفسجية الصادرة عن الخلية المريضة، وبقيت محتفظةً بسلامتها، في حين أن الخلايا السليمة الموجودة في حافظة الكوارتز أصابها العلة لأن الكوارتز لا يقاوم الأشعة فوق البنفسجية الصادرة من الخلايا المريضة.

وقد أعيدت هذه التجارب على أمراضٍ مختلفة وعلى خلايا متشابهة

(١) الكوارتز، ويسمى أيضاً السليكا، حجر معدني متبلور يكثر في جبال الأورال السوفيتية، ويسمى النوع الأبيض منه بالماس الأورال.

ومختلفة طوال ربع قرن، وبلغ عدد التجارب التي أجريت خمسة آلاف، وذلك للتوصل إلى رأي علمي ثابت بالبرهان العلمي المتكرر.

وقد تشابهت نتائج هذه التجارب، ودلت بصورة قاطعة على أن الخلية المريضة تنبعث منها أشعة مختلفة، منها الأشعة فوق البنفسجية، وأن الخلية السليمة إذا ما أصابتها أشعة فوق بنفسجية صادرة عن خلية مريضة، انتقلت إليها نفس علة الخلية المريضة.

ولم يحدث في جميع التجارب التي استمرت خمساً وعشرين سنة أن تجاوزت الخلايا السليمة والخلايا المريضة بحيث يقال إن عدوى الميكروب أو الفيروس انتقلت من هذه إلى تلك بالاحتكاك، فثبت للباحثين أن سبب انتقال العدوى هو الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الخلية المريضة.

وإذا منعنا هذه الأشعة من الوصول من الخلايا المريضة إلى الخلايا السليمة، منعنا المرض من الانتقال من هذه إلى تلك.

ومن خواص المضادات الحيوية أنها تقلل من حدة هذه الأشعة، فتشل قدرتها على نقل العدوى من الخلايا المريضة إلى الخلايا السليمة.

ويؤخذ من البحوث التي أجريت في هذا المركز العلمي السوفيتي أن خلايا جسم الإنسان تصدر عن كل منها أشعة فوق بنفسجية، كما أنها تستقبل هذه الأشعة، أي أنها ترسلها وتستقبلها وتنقل العدوى بسببها إذا ما انتقلت من خلية مريضة إلى خلية سليمة. أما إذا كانت الخلية سليمة، فلا يترتب على انتقال الأشعة ضرر.

كذلك ثبت أن الخلايا السليمة، إذا ما مرضت بفعل التوكسين (السم)، أصبحت بدورها ناقلة للعدوى بفعل الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة منها.

والتوكسين سم تولده عناصر وخلايا موجودة في جسم الإنسان، ولكن مفعوله في الجسم يختلف عن مفعول الميكروبات والفيروسات. والإكثار من الطعام هو من العوامل الهامة في توليد التوكسين بكميات زائدة في جسم الإنسان عند التقدم في العمر.

وقد ثبت من التجارب العلمية التي أجريت، وعددها خمسة آلاف تجربة، أن الخلايا المريضة تنتقل منها العدوى إلى الخلايا السليمة بفعل الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الأولى، كما ثبت أن الخلايا المريضة بالتوكسين تنقل المرض بدورها بفعل هذه الأشعة عينها، دون انتقال لأي ميكروب أو فيروس من الخلايا المريضة إلى الخلايا السليمة.

ولا ريب في أن النتائج التي أسفرت عنها هذه التجارب قد فتحت أمام علماء الأحياء والطب ميداناً جديداً يطرقونه لمعالجة الأمراض، يتمثل في اللجوء إلى إحدى طريقتين: إما الاهتداء إلى وسيلة تمنع انتقال الأشعة البنفسجية من الخلية المريضة إلى الخلية السليمة (كما هو الحال في انتقال الخلية المصابة بالسرطان إلى غيرها من الخلايا السليمة من طريق الأشعة فوق البنفسجية)، وإما باكتساب الجسم مناعة، بحيث تستطيع خلاياه السليمة مقاومة هذه الأشعة الناقلة للعدوى.

وقد أنعش هذا الكشف العلمي العظيم آمالاً عريضة في إمكان التوصل بهذا الأسلوب في معالجة الأمراض المستعصية كالسرطان وغيره. ومع أن العلماء يتفاءلون دائماً بقرب تحقيق المعجزات، إلا أننا نفضل دائماً انتظار ما تُسفر عنه التجارب العلمية المتصلة، فهي وحدها التي تقطع بالنجاح أو بالفشل.

وثمة حقيقة لا ريب فيها، عززتها طائفة كبيرة من العلماء والباحثين في المراكز العلمية الأخرى، مؤداها أن الخلايا المصابة بأمراض مختلفة

يضع كل مرضٍ منها نوعاً خاصاً من الفوتون يختلف عن غيره من فوتونات الأمراض الأخرى. والعلماء عاكفون على إعداد جدولٍ علمي يضم جميع أنواع الفوتونات والرقم الرمزي الخاص بكل نوع منها، ولكن إعدادة يحتاج إلى وقت طويل بالنظر إلى كثرة عدد الميكروبات والفيروسات وأنواع التوكسين (السم)، ومع ذلك فقد استطاعوا قبل الفراغ من هذا الحصر والإحصاء أن يشخصوا كثيراً من الأمراض والفوتونات التي تشعها وطرق علاجها.

وعلى سبيل المثال نذكر أن العلماء استطاعوا بعد كشف أسباب العدوى بميكروب الأنفلونزا ونوع الفوتون الذي يشعه وكذلك أشعته فوق البنفسجية، أن يحددوا العلاج الكفيل بمنع سريان هذا المرض إلى الخلايا السليمة الأخرى.

وقد أجريت تجارب علمية مماثلة في الولايات المتحدة الأمريكية، فجاءت نتائجها متفقة مع ما انتهى إليه مركز الأبحاث السوفيتية، كما وضع الدكتور جون أوت كتاباً في هذا الموضوع ونشرت المجلات الطبية والعلمية نتائج هذه البحوث.

سُقنا هذا العرض لندلل على أن العلم الحديث قد جاء مؤكداً للنظرية التي دعا إليها الإمام الصادق عليه السلام في منتصف القرن الثاني للهجرة ومؤداها أن الضوء المنبعث من مرضٍ ما يتسبب في إصابة الغير بالمرض، وهي النظرية التي اعتبرت يومها من الخرافات البعيدة عن الواقع، فقد أقام العلم الحديث البرهان على أن الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الخلايا المريضة تسبب في نقل الأمراض إلى الخلايا السليمة. أما الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الشمس فهي لا تصيب الإنسان والحيوان دون أن تمر من الهواء، أي دون أن

يفصل بينها وبين الكائن الحي عائق مثل طبقة الهواء، ولولا هذه الطبقة الهوائية العازلة، لهلكت الكائنات الحية. وصفوة القول، إن التجارب العلمية قد جاءت مؤكدة لنظرية الإمام الصادق عليه السلام بعد ألف ومائتين وخمسين سنة.

على أن موضوع انتقال عدوى بعض الأمراض من الجسم المريض إلى الجسم السليم قد اهتمت إليه الإنسانية من قديم، فقد جاء في ورقة من أوراق البردي المصرية القديمة، التي يرجع تاريخها إلى ١٥ قرناً قبل الميلاد والتي يحتفظ بها المتحف الفرنسي، أن رجال فراعنة مصر منعوا المسافرين في سفينة من النزول إلى الساحل لأنهم كانوا مرضى، وخيف من نقلهم العدوى إلى الأصحاء.

وتثبت هذه الوثيقة التاريخية حقيقتين، أولهما أن النقل البحري كان مزدهراً في مصر القديمة بين المدن المتناثرة على ضفتي النيل والبحرين الأحمر والأبيض، وثانيتها أن الطب كان متقدماً في مصر القديمة في هذه الفترة السحيقة التي ترجع إلى ٣٥٠٠ سنة مضت.

فقد ثبت عند الناس من قديم أن بعض الأمراض ينتقل من الممثل إلى السليم، أي أن هناك طائفة من الميكروبات التي تنقل العدوى.

أما وقد نجح التجريب العلمي في إثبات نظرية الإمام الصادق عليه السلام من أن الأشعة فوق البنفسجية التي تنبعث من الخلية المريضة تسبب في اعتلال الخلايا السليمة، فهل يمكن قياس فعالية هذه الأشعة؟ وهل يجوز القول بأن الأمراض التي تظهر في ناحية دون أخرى، أو الأمراض التي تقع مرة واحدة أو مصادفةً، إنما هي أمراض انتقلت من خلايا مريضة بفعل الأشعة فوق البنفسجية؟ إن الرد على هذه التساؤلات، بما فيها قياس مفعول الأشعة الناقلة للعدوى، ما زال أمراً غير مقطوع به.

صحيح أن العلم الحديث عرف أن الفيروس لا يكاد يتخذ مكانه في الخلية حتى يشرع في التكاثر والانتشار بسرعة فائقة، وأن المضادات الحيوية أو غيرها من العقاقير تساعد على قتل الجراثيم والفيروسات في جسم الإنسان، ولكن العلم الحديث ما زال يجهل أشياء كثيرة، منها مثلاً سبب إصابة الخلايا بالشيخوخة. ولو عُرفت علة هذه الشيخوخة وعُولجت في الخلايا، لانتفت الشيخوخة من حياة الإنسان.

ومن الثابت والمقطوع به لدى العلماء الأمريكيين والروس أن الفوتون الموجود في الخلية المريضة - وهو جزء صغير من الضوء - إذا انبعثت منه أشعة فوق بنفسجية وقعت على خلية أخرى سليمة، لتسبب في إصابتها بالمرض.

وللإيضاح نقول إنه إذا تصورنا أن الجرثومة (الميكروب) هي في حجم البالون، كان الفيروس في حجم حبة السمسم بالنسبة إليه. ولكن هذه الحبة الصغيرة بالنسبة للميكروب تحمل معها عدوى المرض إلى الخلايا السليمة.

وربما كان تعليل ذلك أن الفوتون يحمل معه جرثومة صغيرة جداً من المرض، وأن هذه الجرثومة تسبب في اعتلال الخلية السليمة، وربما نجح العلم في القريب في تبيان كيفية انتقال المرض من الخلية المريضة إلى الخلايا السليمة من خلال الأشعة فوق البنفسجية، والعلم الحديث كفيل بكشف الغوامض جميعاً.

ولا تقتصر النظريات العلمية الكاشفة للإمام الصادق عليه السلام، ولا سيما في الفيزياء، على ما أوردناه في هذا البحث حتى الآن، بل إن له نظريات هامة أخرى أكدتها التجارب العلمية الحديثة.

ومن هذه النظريات مثلاً قوله إن لكل كائن موجود وجوداً ذاتياً كائناً

مضاداً له، ما عدا الله، ولكن الضدين لا يتصادمان ولا يجتمعان، ولو اجتمعا أو تصادما لكانت في ذلك نهاية العالم.

وهذه النظرية هي بعينها النظرية الحديثة القائلة إن للمادة نقيضاً أو مضاداً (anti - body) وقد قطعت هذه النظرية شوطاً بعيداً في سبيل إثباتها بالتجريب العلمي.

والعلماء في البلدان المتقدمة عاكفون اليوم على البحث في مضادات العناصر المختلفة ونقائضها رغبة في التحقق منها^(١).

والفرق بين المادة ومضاد المادة أو نقيضها يتحصل في أن المادة في العناصر المادية تتركب ذراتها من نواة مركزية موجبة تدور في فلكها إلكترونات سالبة، في حين أن ذرات المادة المضادة تتألف من نواة سالبة تدور في فلكها إلكترونات موجبة، أي أنها تماثلها ولكن بصورة عكسية تماماً.

ولم تجر حتى الآن تجربة يُراد منها تحقيق مواجهة بين ذرات المادة وذرات مضادها، ولا تُعرف بالتالي نتيجة مثل هذه المواجهة، وفي يسفر التصادم بينهما عن انفجارٍ أو عن أي عواقب أخرى ما زال أمرها في طي الغيب.

والحديث عن وقوع انفجارٍ نتيجةً لهذا التصادم لا يعدو أن يكون رأياً شبيهاً إلى حد كبير بالرأي النظري الذي كان يقول به العلماء حول شطر نواة

(١) من مؤدى هذه النظرية أن لكل مادة نقيضاً أو مضاداً، وأن المواجهة بين المادة ونقيضها تنتهي بفناء المادة. ويبدو من البحوث التي أجراها العلماء في مختبرات كالهام في انكلترا وبروكهاغن في الولايات المتحدة وكارلسروه في ألمانيا الغربية أن هذه النظرية صحيحة. وهناك اعتقاد بأن المادة ونقيضها قد خلقهما الله معاً عندما أوجد هذا الكون، وأن للاثنتين أصلاً واحداً وأنهما يتطوران تطوراً واحداً راجع «العلوم الطبيعية في القرآن» لحسين مروة، ص ٢٢٢.

ذرة عنصر الأورانيوم قبل صيف عام ١٩٤٤ عندما فجرت أمريكا نواة الذرة للمرة الأولى، وحسنت بالقنبلة الذرية الحرب العالمية الثانية، إذ كان العلماء في ذلك الوقت يتحدثون عن إمكان حدوث سلسلة من الانفجارات المتصلة والمتعاقبة في عناصر الأرض إذا ما أمكن تفجير نواة الذرة، أي إحداث تفجير نووي، ولكن التفجير الذي أحدثته أمريكا انتهى دون أن ينتقل إلى بقية العناصر في الكرة الأرضية.

صحيح أنه قد أجريت تفجيرات أخرى كثيرة حتى الآن، سواء في الولايات المتحدة أو في غيرها، ولكن هذه التفجيرات كانت محدودة، ولم تنتقل إلى سائر العناصر في الكرة الأرضية، ولكن التفجير النووي شيء، والتفجير الذي يحدث نتيجة لتصادم المادة ومضادها شيء آخر.

فالتفجير النووي أو الهيدروجيني يحول جزءاً صغيراً من المادة إلى طاقة، ويبقى الجزء الأكبر عاطلاً فلا يتحول إلى طاقة^(١).

ويؤخذ من معادلة أينشتاين الذرية أن الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع إلى فناء العالم، فقد استولى القلق والخوف الكبيران على علماء الفيزياء الذين صنعوا القنبلة الذرية الأمريكية وفجروها لأول مرة في عام ١٩٤٤ خشية أن تحل بالعالم كارثة ماحقة.

(١) وفقاً لقانون تحويل المادة إلى طاقة، تحسب الكتلة بالغرام، ويُقاس مربع سرعة الضوء بالسنتيمتر، أي السرعة التي بها يقطع الضوء مسافة سنتيمتر واحد. وبعد تحديد هذا القياس يضرب في مربعه، ثم يضرب حاصل الضرب في وزن الكتلة مقيسة بالغرام، والناتج هو مقدار الطاقة. وتقاس الطاقة بمقياس آخر يطلق عليه اسم «إيرك»، والإيرك هو القوة التي تحصل من كتلة غرام واحد في سنتيمتر واحد من سرعة الضوء في ثانية واحدة. ولو أردنا معرفة الطاقة التي تنبعث من كيلو غرام، أي ألف غرام من مادة معينة، لضربنا النتيجة السابقة في ألف - هنا طبعاً إذا تحول الكيلو غرام كله إلى طاقة. (المترجم).

وحتى نعرف مقدار ذرة الهيدروجين وحجمها، تكفي الإشارة إلى أن وحدات الكتلة الذرية تقاس بوحدة الهيدروجين، وتعتبر ذرة الهيدروجين وحدة للقياس ووزنها ١.٦٦ جزء من مليون مليار مليار جزء من الغرام، وكثافة نواة الذرة تبلغ مائة مليون طن لكل سنتيمتر مكعب. (راجع كتاب الدكتور يوسف مروة، ص ١٦٥).

واليوم يقول علماء الفيزياء الذين يدرسون احتمالات اصطدام المادة بمضادها إن هذا التصادم سينتهي بتحول الاثنين إلى طاقة خالصة. ويذهب هؤلاء العلماء إلى أن اصطدام كيلو غرام من المادة بكيلو غرام من مضادها كفيل بتوليد طاقة تفني الكرة الأرضية إفناء تاماً وتحولها إلى غاز شديد الحرارة ينتشر في المنظومة الشمسية بأسرها.

ولكن البروفسور ألفون، وهو أستاذ للفيزياء بجامعة «لوند» السويدية، عارض هذه النظرية قائلاً إن الأمر سينتهي بالإنسان إلى استغلال الطاقة المتحصلة من اصطدام المادة بمضادها وتسخيرها في أغراضه الصناعية باعتبارها طاقة لا تنفذ. في حين أن الطاقة التي يمكن توليدها من البرق ومن شطر نواة اليورانيوم ومن الهيدروجين ومن مساقط المياه وحركات البحار هي طاقة لا تحل مشكلة الإنسان، ويعزز هذا العالم رأيه بقوله إن الطاقة المتولدة من اصطدام مائة كيلو غرام من المادة ومضادها، تكفي حاجات البشر من الطاقة في الكرة الأرضية بأسرها في سنة كاملة.

ولكن كان كل ما يُقال عن عواقب اصطدام المادة ومضادها رجماً بالغيب، لأن هذا لم يتحقق بالتجريب العملي، فإن البروفسور ألفون يرى أن مثل هذا التصادم - إن تحقق - لن يولد إلا طاقة خالصة من جميع عناصر التلوث التي تفسد البيئة.

وقد أطلق البروفسور ألفون على الطاقة الحاصلة من اصطدام العنصرين اسم «ماترجي» Materji في مقابل «إنرجي» Energy وهي الطاقة المولدة من المادة.

ويؤخذ من الفروض النظرية لهذا العالم أنه لو حدث اصطدام بين ٥٠٠ غرام من المادة و ٥٠٠ غرام من مضاد المادة لتولدت من ذلك حرارة قدرها مائة مليار درجة (أي مائة ألف مليون درجة)، وليس في العالم مصدر

يمكنه إعطاء البشرية هذا القدر من الحرارة، علماً بأن حرارة مركز قرص الشمس لا تزيد عن عشرة ملايين درجة.

ويقول البروفسور آلفون في الرد على التساؤل: أفيستطيع الإنسان إخضاع هذا القدر الهائل من الحرارة وتسخيـره في قضاء مطالبه؟ إن هذا ممكن إذا ما استطعنا إحداث تفجير جزئي في عملية تصادم العنصرين، تماماً كما أن التفجير الذي يحدث في نواة الذرة هو تفجير جزئي أو ناقص. وقد تقدم أن جزءاً فقط من المادة هو الذي يتناوله التفجير الذري ويحوـله إلى طاقة، أما القدر الأكبر من المادة فيبقى دون تفجير ويذهب هباء.

ويذهب البروفسور آلفون على أن المانع من إحداث تفجير بين المادة ومضاد المادة هو مانع اقتصادي، لأن التجربة الأولى ستكلف ما يتفاوت بين عشرة مليارات وخمسة عشر ملياراً من الدولارات، وهو مبلغ طائل تنوء به ميزانيات الحكومات والمؤسسات.

ولو تمت هذه التجربة، لأمكن بسهولة توليد الطاقة من هذا المصدر، وإذا كان العلماء اختاروا اليورانيوم من دون العناصر الأخرى في التجارب التي قاموا بها لتفتيت نواة الذرة، فأرجح الآراء أن عنصر الهليوم هو الذي سيختار دون سائر العناصر لإجراء تجارب اصطدام المادة بمضادها، وسبب ذلك أن علماء الفيزياء في الاتحاد السوفيتي قد اكتشفوا مضاد الهليوم، ولعلمهم يعدون لإحداث مواجهة بين الهليوم وهذا المضاد.

نظرية الصادق عليه السلام بشأن أشعة النجوم

ذكرنا - في ما سبق - أنه لو قلَّ أن يكون هناك موضوع علمي وليس للصادق عليه السلام رأي ذو وزن فيه .

وقد درسنا حتى الآن بعض النظريات التي طلع بها والتي تشهد له بأنه كان ذا عقلية علمية مرتبة، ولا تتوافر أمثال هذه العقليات إلا لأفذاذ العباقرة .

وللصادق كذلك نظرية تتعلق بضوء النجوم من مؤداها أن بين النجوم التي نراها في الليل ما هو أضحى من الشمس، وأن شمسنا تعتبر بالقياس إليها صغيرة الحجم ضئيلة الضياء .

واليوم، وبعد مضي اثني عشر قرناً ونصف قرن، أثبت العلم صحة نظرية الإمام الصادق عليه السلام، إذ تبين للعلماء أن هناك مجموعات من النجوم السواطع تتضاءل تلقاء حجمها وضيائها الشمس نفسها .

ويطلق على هذه النجوم (المجرات) اسم (الكوزرز) الواحدة منها كوزار Quasars^(١)، وبعضها يبعد عن الأرض بمقدار تسعة آلاف مليون (أي تسعة مليارات) سنة ضوئية . وما يصل إلى المراقب الفلكية اليوم من الأمواج الضوئية الصادرة عن هذه المجموعات يقطع المسافة الشاسعة بين هذه المجموعات وبيننا في تسعة آلاف مليون سنة ضوئية .

(١) اختصرت لفظة الكوزار Quasars من عبارة إنجليزية طويلة هي Quasi Stellar radio sources ومعناها مصادر راديوية شبيهة بالنجوم . (راجع كتاب «أوراق علمية» للدكتور فؤاد صروف، ص ٣٥٩) .

وهناك مراقب راديو تلسكوبية ضخمة ترصد هذه النجوم والأنوار الساطعة المنبعثة منها حتى في النهار، منها مرقب (آرسي بوته) في جزيرة (بورتوريكو) والذي يبلغ قطره ثلاثمائة متراً.

ويساوي الضوء المنبعث من بعض هذه الكوازر ضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرة، (أي ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) وهو رقم ليس فيه خطأ أو شطط.

ووحدة قياس الضوء التي يستند إليها علماء الفلك في قياس ضوء النجوم هي ضوء الشمس، وللمرء أن يتصور الضخامة المتناهية لبعض المجموعات من الكوازر إذا كان ضوءها يعادل ضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرة، كما ذكرنا، فينحط ضوء الشمس أمامها ويصبح كضوء شمعة صغيرة.

ورغبة في رصد هذه المجرات الضوئية الضخمة التي اكتشفت المجرة الأولى منها في سنة ١٩٦٣م (وهناك أكثر من مائتي مجرة قد اكتشفت حتى الآن) فكّر العلماء في صنع مرقب فلكي سعة دائرته ثلاثون ألف متر (ثلاثون كيلو متراً).

وبالنظر إلى استحالة صنع مرقب (راديو تلسكوب) له هذه السعة، بدأ العلماء يفكرون في صنع مرقب كهربى له هوائيات قوية ترتفع على شكل حروف بحيث تكون المسافة بين كل رأس من رؤوس هذا الحرف واحداً وعشرين كيلو متراً. أما الهوائي فيتنقل بين المحاور الثلاثة ويتم التحكم فيه إلكترونياً، ويبلغ طول الهوائيات الثلاثة ٢١ كيلو متراً، ولها قدرة على الرصد كما لو كانت سعة المرصد ثلاثين ألف متر، ويتم توجيه هذا الجهاز إلى الكوازر لمشاهدتها بمزيد من الدقة.

وقد اعتاد الفلكيون منذ القرن الثامن عشر الميلادي على اكتشاف كتل

ضوئية في السماء، وكانت المسافة السحيقة التي تفصل هذه الأجرام المضيئة عنا من الأمور المألوفة التي لا تثير دهشة العلماء آنذاك.

ولكن، لما رأى علماء الفلك مجموعة الكوازر البعيدة في عام ١٩٦٣م مستعينين بمرقب (راديو تلسكوب) أرسى بوئه في بورتوريكو، استولت عليهم الدهشة لأنها تبعد عنا بمقدار ٩ مليارات سنة ضوئية، في حين أن العالم أينشتاين كان يعتقد بأن قطر العالم ثلاث مليارات سنة ضوئية.

ولكي تستطيع الأذهان إدراك مدى ضخامة هذه المسافة الشاسعة، نذكر أن الضوء يحتاج إلى سنة كاملة لكي يقطع بسرعه الفائقة مسافة ٩٥٠٠ مليار كيلومتر. فإن أردنا أن نعرف مقدار المسافة الحقيقية بين مجرات الكوازر والأرض، ضربنا ٩٥٠٠ مليار سنة في ٩٥٠٠ مليار كيلو متر.

ويغض النظر عن ضخامة هذه المسافة التي يتعذر على العقل تصورها، فإن مما يزيد في حيرة علماء الفلك أن مجرات الكوازر تطلق ضوءاً ساطعاً يساوي ضوء الشمس ١٠ آلاف مليار مرة، وحتى الآن لم يكتشف العلماء كنه هذه الكوازر والعناصر التي تتركب منها والتي تمكنها من توليد كل هذه الحرارة والطاقة العجيبة.

ويقول البروفسور ألفون الذي مر ذكره إن المصدر الوحيد في الكون الذي يمكنه توليد مثل هذه الطاقة هو المادة إذ تنفجر بعد اصطدامها بمضادها، ولو نجح علماء الذرة في الاتحاد السوفيتي مثلاً في تفجير عنصر الهليوم بعد اصطدامه بمضاد الهليوم، لاهتدى العالم إلى مصدر للطاقة لا نفاذ له، ولهان على العلماء معرفة سر الحرارة والطاقة المنبعثة من مجرات الكوازر.

ومع انقضاء ٢٩ عاماً^(١) على التفجير النووي الأول الذي تم في الولايات المتحدة الأمريكية، لم يستطع علماء الذرة تفجير نوى ذرات العناصر والأجرام الأخرى، ما عدا اليورانيوم والبلوتونيوم (والبلوتونيوم يُستخرج من اليورانيوم)، فهم لم يستطيعوا تفجير نواة ذرة الهيدروجين، أما الطاقة التي أمكن توليدها من الهيدروجين، فقد ولدت لا من شطر نواة ذرته كما هو الحال في اليورانيوم والبلوتونيوم، بل من إدغام عناصرها بعضها ببعض.

وإذا كان العلماء الذريون قد توصلوا إلى كشف مضاد الهليوم، فإنهم لم يوفقوا حتى الآن إلى كشف مضاد لعناصر أخرى كالأكسجين أو الأوزون (التروجين) مثلاً.

ومعروف أن الحديد هو من العناصر المتوافرة في كل مكان، ولكن علماء الذرة لم ينجحوا حتى الآن في أحداث تفجير نووي في ذرات الحديد، مع أن نظرية تفجير نواة الذرة التي قد طبقت بنجاح على اليورانيوم والبلوتونيوم مفروض أنها تنطبق كذلك على الحديد والنحاس والرصاص والزنك (الخالصين) وغيرها من العناصر، لأن تركيب ذرات هذه العناصر شبيه من حيث قابليته للشطر بتركيب ذرات اليورانيوم، ومع ذلك لم تستطع الدول الحائزة للطاقة الذرية إحداث هذا التفجير حتى الآن.

ثم إن المرقب الفلكي (الراديو تلسكوب) لم يرصد أشعة النجوم وحدها، وإنما رصد كذلك الجزيئات المتناثرة في الفضاء الرحيب حتى بلغت الأنواع التي كشفت منها حتى الآن أكثر من ثلاثين جزيئاً. وتتكون الأحماض الأمينية أو البروتينية من قسم من هذه الجزيئات، بمعنى أن عناصر خلايا الكائن الحي موجودة في الجزيئات المتناثرة في الفضاء.

(١) عند صدور هذا الكتاب بالفرنسية.

ويؤخذ من وجود هذه الجزئيات في الفضاء أن وجود الإنسان على الكرة الأرضية لم يكن أمراً عارضاً، وإنما هو مرتبط بالوجود الشامل العام.

ويسوغ لنا اليوم أن نقول باطمئنان وثقة إن الأرض كانت في بادئ الأمر عارية من كل أثر للحياة لأنها كانت جرمًا منصهرًا ذا حرارة شديدة تستحيل معها الحياة، فلما مالت الأرض إلى البرودة، انتقلت إليها الجراثيم الحيوية المبعثرة في الفضاء اللامتناهي، وأوجدت الخلية الحية، وخاصة الجزئيات الخمسة التي أطلقت عليها أسماء (أوراسيل، كوانين، أوهين، سيتورين) وهذه بدورها أوجدت الأحماض الأمينية والبروتينية في الأرض، ومن جملة الخلايا الحية للحيوان والإنسان. ويُعزى الفضل في هذا الكشف العلمي الضخم إلى المراقب الفلكية (الراديو تلسكوب).

وإلى وقت قريب، كانت المراقب الفلكية ترصد النجوم، وتقف من خلال طيفها على العناصر المكونة لها، وتستنتج درجة حرارة كل نجم، ولكنها لم تكن قادرة على رصد الجزئيات الموجودة في الفضاء، ولكن الراديو تلسكوب الفلكي قد نجح في كشف هذه الجزئيات التي فيها جرثومة الحياة، فكان هذا انجازاً كبيراً منه.

وإذا كانت الحياة قد وجدت على الكرة الأرضية لا بمحض الصدفة، ولا باعتبارها أمراً عارضاً، ففي الوسع القول بأن هناك حياة وكائنات تعيش في الكواكب الأخرى الشبيهة بالكرة الأرضية، ولعلها سبقت الكرة الأرضية في نشأة الحياة عليها بآلاف الملايين من السنين، لأن هذه الكواكب سبقت الكرة الأرضية إلى الوجود بآلاف الملايين من السنين.

ولا يُستبعد أن تكون الكائنات الحية التي تعيش في هذه الكواكب قد نجحت من آلاف السنين في حل المشكلات المعقدة التي ما زالت تنوء بالبشر، وإن كان القدم لا يُعد في حد ذاته مقياساً للكفاءة والعلم. وهناك

اعتقاد بأن البشر عاشوا على الكرة الأرضية قرابة مليوني سنة، ولكنهم لم ينطلقوا في النشاط العلمي إلا من عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف سنة.

ويقول العلماء في يومنا الحاضر إن البشر ليسوا الكائنات الوحيدة التي تعيش في هذا الكون، لأن هناك كائنات حية تعيش في ملايين من السيارات الأخرى، وربما كانت أكبر ذكاء وأنبه عقلاً وأنشط عملاً من الكائنات البشرية. وسيظل الأمل يداعب الإنسان في إمكان تحقيق اتصال بهذه الكائنات ذات يوم والاستفادة مما قد يكون لديها من علوم وتجارب. وخير وسيلة متاحة حتى الآن لتحقيق هذا الاتصال هي الأجهزة الراديو تلسكوبية الشديدة الحساسية.

وتعود إلى الإمام الصادق عليه السلام وإلى نظريته القائلة إن لبعض النجوم ضوءاً هو من الشدة بحيث يتضاءل أمامه ضوء الشمس. وها هو العلم الحديث قد برهن على صدق نظرية الإمام الصادق عليه السلام، ودل على أن لبعض النجوم من الأشعة ما تضيئ أمامه الشمس وأشعتها، أفلا يستخلص من ذلك أن الإمام الصادق عليه السلام الذي عاش في النصف الأول من القرن الثاني الهجري كان عبقرياً في المباحث العلمية؟

وثمة سؤال قد يعنّ للباحث هو: أين تقع مجرّات (الكوازر) التي يبعد بعضها عن الكرة الأرضية بمسافة ٩ آلاف مليون سنة ضوئية؟ هل تقع في مركز الكون أو في أوله أو في نهايته؟

ثم لننأمل في قرص الشمس الذي يقوم كل أربع وعشرين ساعة بتحويل أربعمئة مليار طن من الهيدروجين إلى الهليوم لنشر الضياء والدفع في الكرة الأرضية والسيارات الأخرى التي تدور حولها، والذي لن يتوقف عن نشر الضياء والدفع على ١٠ مليارات من السنين الأخرى. أليس عجيباً أن تكون هذه الشمس ضئيلة جداً أمام مجرّات (الكوازر) الساطعة الضوء؟

فإن كان لشمسنا هذا القدر الهائل من الطاقة والقدرة، وإن كان ينتظرها عمر ممتد هذا مقداره، فكم يكون عمر مجرات الكوازر التي تبعد عن الكرة الأرضية مسافة ٩ آلاف مليون سنة ضوئية؟ أغلب الظن أن عمرها يزيد عن ألف مليار سنة.

وما دامت في العالم شمس أخرى كمظومتنا الشمسية، فمن مؤدى ذلك القول عقلاً بأننا لا نعيش في عالم واحد، وإنما هناك عوالم كثيرة يتألف من مجموعها الكون الأكبر.

وقد ثبت لعلماء الفلك أن بعض النجوم ينطفئ ضوءه وتنتهي حياته، حتى ولو لم يستطع الفلكيون حصر هذه النجوم. وثبت لهم أيضاً أن للأجرام السماوية والمنظومات الشمسية أعماراً، وأن عمر بعضها يزيد على ١٥ مليار سنة، وأن ضوء الشمس مثلاً ما زال باقياً في عمرها ١٠ مليارات سنة، وأن مجرات الكوازر عمرها ألف مليار سنة أو أكثر، وهذا كله يقطع بأن هناك عوالم كثيرة أخرى في هذا الكون.

وقد سبق للإمام الصادق عليه السلام أن قال إن الكون لا ينحصر في عالمنا وحده، وإنما هناك عوالم أخرى، وها قد جاء العلم الحديث مبرهنناً على هذه النظرية، وأقام الأدلة على أن هناك آلافاً من العوالم والمنظومات الشمسية الشبيهة بعالمنا ومنظومتنا الشمسية، وأنها تفتنى وتزول ما عدا مجرات الكوازر، فهي باقية على الدوام.

وقد قسم الإمام الصادق عليه السلام العالم على قسمين هما: العالم الأكبر والعالم الأصغر، ومعروف أن هناك عالم أوسط لم يذكرها الصادق عليه السلام اعتقاداً منه بأن ذلك من نوافل القول. فالأمر كله نسبي، وفي الوسع اعتبار هذه العوالم الوسطى عوالم كبرى أو صغرى، وكل عالم يعتبر أكبر بالقياس

على العوالم الأصغر منه، أو يعتبر أصغر بالقياس على العوالم التي تكبره .
فتقسيم الصادق هو إذن تقسيم شامل لعوالم الكون كلها .

وعندما سئل الصادق عليه السلام عن عدد العوالم في كل قسم، قال إنها كثيرة، ولا يعلم ذلك إلا الله، وهي حقيقة أثبتها العلم الحديث .

فالذي لا ريب فيه أن هناك أعداداً كبيرة من المنظومات الشمسية والنجوم والنيازك والمجرات في الكون، وهي تعزّ على الحصر ولا يُعبر عنها بأرقام حتى ولو كانت أرقاماً فلكية .

ويقول العالم اليوناني أرشميدس الذي عاش قبل الميلاد بثلاثة قرون أن عدد الذرات المبعثرة في العالم هو عشرة مضروبة في نفسها ٦٣ مرة، وإن الذرة هي أصغر أجزاء المادة ولا تقبل التجزئة، ولهذا سميت بالجزء الذي لا يتجزأ .

وفي مطلع القرن العشرين جاء إدنجتون (العالم الفيزيائي البريطاني المتوفى سنة ١٩٤٤م) فقال إن مجموع الذرات في العالم ١٠ مضروبة في نفسها ٨٠ مرة .

وعندما طلع إدنجتون بهذه المعادلة الرياضية لحساب عدد الذرات، كان علماء الفلك يعتقدون أن عدد الأجرام الضوئية والنيازك والشهب في السماء يصل على مليون .

وعندئذٍ لم يكن مرصد (بالومر) الأمريكي قد شيد بعد، وهو المرصد الذي قرّب ضوء المجرات بمقدار ألف مليون سنة ضوئية، فأصبحت رؤيتها بالعين البشرية ممكنة، ولا كانت المراقب الراديو تلسكوبية الشديدة الحساسية قد اخترعت .

ولو أن العمر امتد بإدنجتون إلى يومنا هذا، ورأى بأعينه المجرات الضوئية والكوازر، لأعاد النظر قطعاً في معادلته بأرقامها الشديدة التواضع .

والكون الذي عرفه علماء الفلك والفيزياء في عام ١٩٠٠م يعتبر صغيراً، بل ضئيلاً بالنسبة للكون الذي يعرفه علماء اليوم. وليس من المبالغة في شيء القول بأن الكون في عام ١٩٠٠ كان بمثابة فنجان ماء بالنسبة لمحيطات المياه التي عرفناها عن الكون في يومنا هذا.

وبعد كشف المجرات الضخمة المسماة بالكوازر، ظهرت نظرية أخرى مؤداها أن هذه الكوازر تمثل التخوم الخارجية للكون، وأن عالمنا هذا الذي يحتاج إلى ٩ آلاف مليون سنة ضوئية ليصل على الكوازر هو البداية لفضاء أوسع تعجز الأجهزة الراديو تلسكوبية المتاحة لنا الآن عن الوصول إليه، فلا قَبْلَ لها باستقبال أشعة النجوم أو العناصر الموجودة في ما وراء الكوازر. وإلى هذا اليوم، لم يتسَّنْ لنا رصد المجرات التي تلي الكوازر في موقعها منا.

وبناء على هذه النظرية، فهناك ما مجموعة مائة ألف مليون من الأجسام الضوئية والمجرات والشهب، ولكل منها عشرات الآلاف من ملايين الشمس، وهذه جميعاً ترسل أشعتها إلى المراقب الكهربائية ذوات العدسات الكاسرة والمرايا العاكسة.

وليست هذه الأجرام من عالمنا الحقيقي، لأن حدود عالمها يبدأ من مجرات الكوازر وما وراءها، وطبيعي إذن أن يكون ضوء مجرات الكوازر مساوياً لضوء الشمس عشرة آلاف مليار مرة.

وحتى يُستطاع توليد كمية الضوء والأشعة التي تنبعث من الشمس كل أربع وعشرين ساعة، فلا بد من توافر مائة مليار طن من الهيدروجين المركز أو المتجزأ. فما هي يا ترى كمية الهيدروجين المجزأ والمركز التي تحتاج إليها مجرات الكوازر كل أربع وعشرين ساعة لكي تولد هذا القدر الأسطوري من الضوء؟ وكم يكون مقدار الأشعة التي تصدر عن اصطدام النقيضين: المادة ومضاد المادة؟

ونستطيع بحسبة بسيطة أن نصل إلى الأرقام الفلكية الخيالية التالية: فإذا ضربنا أربعمائة مليار طن في عشرة آلاف مليار، كان حاصل الضرب رقم ٤ وأمامه ٢٧ صفراً، وهو رقم لا يمكن لفظه أو عده بسهولة.

فإذا كانت مجرات الكوازر تولد من الطاقة المشعة عشرة آلاف مليار ضعف لما تولده الشمس في كل أربع وعشرين ساعة، جاز إذن اعتبارها مركز العالم، وحق أن يُقال إن العالم يبدأ من هذا المركز. ولكن لأن علماء الفلك والفيزياء لا يستطيعون رصد المجرات التي تقع خلف مجرات الكوازر بأجهزة الراديو - تلسكوب المتاحة حالياً، فلا سبيل إلى إحصاء عدد المجرات أو المجموعات الشمسية الموجودة في العالم، ناهيك بالمجرات والأجسام المبعثرة في جميع العوالم المحيطة بنا. ومن هنا تتضح صعوبة المحاولات التي قام بها العالمان أرشميدس وإدنجتون لإحصاء الأجرام، كما تتضح خطورة الاعتماد على هذه الإحصاءات.

وهذا يؤكد ما قاله الإمام الصادق عليه السلام من أن العوالم الصغيرة والكبيرة لا يعرف عددها إلا الله، والفرق بين العالم الكبير والعالم الصغير عند الصادق هو (فرق في الحجم لا في الكتلة)، وهذه أيضاً نظرية أثبتها علم الفيزياء الحديث.

وقد مرّ بنا أننا لو ملأنا الفضاء الخالي الموجود بين الإلكترونات ونواة الذرة، لكان حجم الكرة الأرضية مساوياً لحجم بالونة اللعب، أما وزن هذه البالونة فيساوي وزن الكرة الأرضية، وقد ضربنا المثل بالبالونة لقربها إلى الأذهان، وربما كان الحجم أصغر حتى من البالونة. ولا بد من التذكير بأن الكرة الأرضية موجودة في الفضاء في حالة عدم وزن بفعل الجاذبية، بل ليس من المبالغة في شيء القول بأن وزن الكرة الأرضية في الفضاء مماثل لوزن ريشة النعام. وهذا القول ينطبق لا على الكرة الأرضية وحدها، بل

على جميع السيارات التي تدور حول الشمس، وجميع الأجرام الأخرى التي يدور بعضها حول البعض الآخر في الفضاء الفسيح، فقانون الجاذبية يجعل هذه الأجرام جميعاً في حالة عدم وزن.

وتذهب نظرية الصادق عليه السلام على أن لكل ما في العالم الأصغر شبيهاً في العالم الأكبر، ولكن على ضخامة في الحجم وسعة، وأن لكل ما في العالم الأكبر شبيهاً في العالم الأصغر، ولكن على قلة في الحجم. ومن هنا يستطيع تحويل العالم الأصغر إلى عالم كبير، والعالم الأكبر إلى عالم صغير.

ونحن حين نستمع إلى هذا الكلام منقولاً من ملفات القرون الماضية، نحس وكأننا نصغي على حديث عالم فيزيائي في عصرنا الحاضر، أو كأننا نقرأ كتاباً في علم الفيزياء الحديث، مع أن هذه النظريات سبقت قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن.

ولقد سئل الصادق عليه السلام: متى خلق العالم؟

فكان رده: إن العالم خلقه الله، ولا سبيل إلى تحديد زمانه أو وقته.

ولأن الشيعة تعتقد بإعجاز الأئمة، فهي تؤمن بأن إمامها الصادق عليه السلام لو أراد أن يُميط اللثام عن هذه الحقيقة، لكشف السرّ بفضل علم الإمامة^(١)، وهو العلم المطلق بالمفهوم الأوسع، كما سبق أن أوضحنا.

(١) ذكرنا في ما مرّ رأي الشيعة في الأئمة ومصدر علمهم، وقد أورد الشيخ المفيد (قد) فصلاً في كتابه «أوائل المقالات» حول هذا الموضوع سماه: القول في معرفة الأئمة بجميع الصنائع ومسائر اللغات جاء فيه: أقول غنه ليس يمتنع ذلك منهم، ولا واجب من جهة العقل والقياس، وقد جاءت أخبارهم يجب تصديقه بأن أئمة آل محمد عليه السلام قد كانوا يعلمون ذلك، فإن ثبت وجب القطع به من جهتها أي من جهة هذه الأخبار على الثبات، ولي في القطع به منها أي من هذه الجهة نظر، والله الموفق للصواب، وعلى قولي»

وتعلل الشيعة امتناع الصادق عليه السلام عن كشف أسرار الخليفة وغيرها من الأسرار المجهولة، بأنه لم ير في ذلك مصلحة للناس، أما البعض الآخر فيقول إن الصادق عليه السلام لم يبخل بعلمه على الناس، ولكن هذه الموضوعات تخرج عن نطاق علم الإمام، لأنها من علم الله، وهو يستأثر بها دون العباد جميعاً، بما فيهم الإمام الصادق نفسه.

وللإمام الصادق عليه السلام نظرية علمية هامة أخرى، هي نظرية (انقباض العالم وامتداده) فهو يقول إن العوالم الموجودة لا تبقى على حالٍ دائمٍ من الأحوال، فهي تتسع تارةً وتنقبض أخرى. وفي بادئ الأمر، اعتبر علماء الفلك هذه النظرية كغيرها من نظريات الصادق عليه السلام، ضرباً من الخيال غير الواقعي، فلما وافى القرن الثامن عشر الميلادي، أُقيمت المراصد ونُصبت المراقب الفلكية الضخمة، وشاهد العلماء أجرام المنظومة الشمسية بل وسواها من الأجرام خارج المنظومة الشمسية. وجاء من بعده القرن التاسع عشر الذي تمكن العلماء في منتصفه من رصد أشعة النجوم ومعرفة العناصر التي تتألف منها هذه الأجرام، ثم جاء القرن العشرون وتحقق في مطلعته أن الأجسام الضوئية القريبة من منظومتنا الشمسية يمكن رصدها بعزيد من الدقة، وإنها تبتعد عنا ثم تنتشر في الفضاء، وهو الكشف الذي توصل إليه الأب (إيه ليمتر) الأستاذ اليسوعي في جامعة بروكسل البلجيكية والعالم الفلكي الكبير، والذي ضمنه تقريراً علمياً أرسله إلى مراكز الرصد الأخرى طالباً من الفلكيين مساعدته في تعزيز هذا الكشف أو تصحيحه، فأكدته

= هذا جماعة من الإمامية، وقد خالف بنو نوبخت رحمهم الله، وأوجروا ذلك عقلاً وقياساً، ووافقهم فيه المفوضة(*) وسانر الغلاة... (ص ٣٨ - أوائل المقالات).

(*) المفوضة فرقة من غلاة الشيعة تفردت عن الشيعة عامةً بقولها في محمد صلى الله عليه وآله والأئمة من آل بيته عليه السلام أن الله تفرد بخلقهم خاصة ثم فوض إليهم خلق العالم بما فيه، وجعل إليهم أمر الخلق والرزق وجميع الأعمال الواقعة في الكون.

بعض المراصد الأوروبية والأمريكية وقالت إن بعض المجرات والأجسام الضوئية القريبة من الشمس تبعد عنها وتنتشر في الفضاء .

ولكن قبل أن يتوصل (إيه لمتر) وزميله البريطاني (إدنجتون) إلى نظرية محققة، قامت الحرب العالمية الثانية، وتقطعت أسباب الاتصال بين المراكز العلمية وشعوب العالم، فتعثر البحث في موضوع المجرات والأجسام الضوئية إلى عام ١٩٦٠ عندما تأكد أن المجرات والأجسام الضوئية المحيطة بالمنظومة الشمسية تتحرك وتناوى عنها .

وما زال البحث جارياً لمعرفة الحال بالنسبة للمجرات والأجسام الأخرى، كمجموعات الكوازر وهل تتحرك بدورها وتبتعد عن مدارها أم لا، وتُعزى صعوبة التوصل إلى نتائج قاطعة في هذا الشأن إلى أن هناك مسافات ضوئية شاسعة تفصلنا عن هذه المجرات فأى تغيير يحدث في الكوازر من حيث انعدام أشعتها أو غيابها، إنما يصل خبره إلى الكرة الأرضية بعد ٩ آلاف مليون سنة ضوئية، وهي المسافة التي تفصل عالماً عن هذه الكوازر، كما سبق القول .

ولكن الأمر الذي تحقق منه العلم الحديث هو أن الكتل الضوئية المحيطة بمنظومتنا الشمسية تتحرك وتبتعد عنها، وهو ما يؤكد نظرية الإمام الصادق عليه السلام القائلة إن العالم المحيط بمنظومتنا الشمسية يتمدد ويتسع، وإن كنا لا نعرف بعد منذ متى بدأ هذا التمدد والانتساع بسبب ابتعاد الأجسام الضوئية عن منظومتنا الشمسية .

وقد أكد العالم الفلكي (إيه لمتر) المذكور آنفاً من رصده للأجسام والمجرات الضوئية أكد حدوث هذا الانتساع والتمدّد، كما أكدته الأبحاث التي أجريت عن مقدار ابتعاد هذه الأجسام عن منظومتنا الشمسية إلى يومنا

المحيطة بمنظومتنا الشمسية والتي تصل أشعتها على أجهزة مراصدنا، ولكن ليس لدينا أي معلومات دقيقة عن المجرات والأجسام الضوئية الأخرى التي تُحيط بغيرها من المنظومات والتي يستعصي على أجهزتها الحالية رصدها.

وقد سبق الحديث عن الأجسام المظلمة التي تمتص أشعة الضوء عند سقوطها عليها فتنبض وتنقلص، وهذه تؤكد بدورها نظرية الإمام الصادق عليه السلام بشأن انقباض أطراف العوالم الأخرى^(١).

ولكن الاتساع والانقباض يحدثان شيئاً فشيئاً، ويستغرقان زمناً مديداً جداً، ومعروف أن الأجسام المظلمة (كوتولي) هي أجسام تكونت بعد أن أخذت ذراتها تفقد إلكتروناتها شيئاً فشيئاً، ثم تراكمت الثوى بكثافة وانقبضت مكونة هذه الأجسام.

ففي حين تتباعد الأجرام في جانب من العالم، تتقارب في جانب آخر مكونة هذه الكتل الكثيفة.

(١) ذكرنا في ما سبق أن الضوء يتألف من فوتونات (ضويات) مادية ناتجة عن تفاعل إلكترون سالب ببيزيترون موجب، فيتأثر بالتالي بالمجال المغنطيسي وينحرف فيه، كما أنه ينكسر وينحرف إذا ما انتقل من وسط على آخر، وإذا ما خرج من مجال غير مغنطيسي إلى مجال مغنطيسي. وقد استطاع علماء الفيزياء في أوائل هذا القرن إثبات أن للضوء ضغطاً ووزناً، وأن له طبيعة ثنائية (جسمية موجية) في آن واحد. وهذه حقائق علمية أثبتتها الأرصاد الفلكية والتجارب الدقيقة التي أجريت في المختبرات الذرية والبصرية، فضوء النجم الذي يمر بالقرب من الشمس ينحرف بمقدار ٧٤،١ ثالثة من قوس الدائرة. وقد سبق القول بأن هناك أنجماً لها مجال مغنطيسي كبير بحيث تستطيع جعل شعاع الضوء ينحرف بمقدار ٩٠ درجة. فإذا مرّ الضوء بهذا المجال المغنطيسي اختفى، أي انجذب بفعل الجاذبية ولم يستطع الإفلات أو الانعكاس، ومن ثم يتابع سيره. ومعنى أن هذا هناك أنجماً وكواكب لا قَبْلَ لنا برصدها، حتى ولو كانت قريبة منا، بسبب أن الضوء الذي نستطيع رؤيتها بواسطته، لا ينعكس منها متى سقط عليها، ولا يفلت منها إذا مر إلى جانبها. ويقول العلماء إن هناك أجساماً لها كثافة ضخمة تصل إلى ١٠٠ مليون طن في كل سنتيمتر مكعب - أي كثافة المادة النووية فيها - ومع ذلك تستحيل رؤيتها أو رصدها لأن هناك قوة جاذبية شديدة تمتص أشعة الضوء الساقطة عليها، فلا تنعكس على العين أو على أجهزة الرصد والقياس.

فمن المعقول إذن أن تكون هناك شمس وكواكب ونجوم قريبة منا وفي متناول مراصدنا ومراقبتنا الفلكية، ولكننا لا نراها ولا نشعر بها، لأن حجمها وكتلتها وكثافتها هي من النوع الحرج الذي يمتص الضوء ولا ينعكس. ولو فرضنا مثلاً أن هناك نجماً حجمه كحجم الشمس، أي ١٣٧،١ ط ١٠ أس ١٨ كيلومتراً مكعباً، أي ٤٣٧،١ مليار كيلومتر مكعب، وله كثافة تزيد ٤٠٠،٠٠٠ مرة عن كثافة الشمس، فإننا برغم هذا لا نستطيع رؤيته. (راجع العلوم الطبيعية في القرآن: ليوسف مروة، ص ١٩٥).

وتنتهي المادة إلى موت حقيقي عندما تصطدم بالأجسام المظلمة الكثيفة، وتفقد إلكتروناتها وتغدو جزءاً منها فتنتهي حركتها، أي أن المادة تنتهي من حيث الظاهر عندما يحدث التقاء بينها وبين الأجسام المظلمة، وتبقى نواتها بعد اندماجها بغيرها مفتقرة إلى إلكتروناتها.

وتتراكم هذه الأجسام المظلمة وتتكاثر بدرجة تزيد بمئات آلاف المليارات عن المواد المتراكمة المعروفة لنا والموجودة في الأرض.

وصفوة القول إن علمي الفيزياء والفلك المعاصرين يؤكدان نظرية الإمام الصادق عليه السلام المتعلقة بانقباض العوالم واتساعها (تمدها).

التفكير الهندي:

حتى القرن الثامن عشر الميلادي، لم يكون الأوروبيون يعرفون شيئاً عن الفكر الديني والفلسفي في نصف القارة الهندي إلا ما تعلق منه بالمسلمين لاحتكاكهم بهم في الحروب الصليبية، وقبل ذلك في فتوحات المسلمين لشرقي أوروبا وغربها.

وشهد القرن الثامن عشر، وبعده القرن التاسع عشر، بداية حركة الترجمة في أوروبا، فنقلت على لغاتها الكتب الدينية والفلسفية الهندية القديمة، وبذلك عرف الأوروبيون معالم الفكر الديني والفلسفي للهند القديمة. ومن جملة أصول المعتقدات الدينية والفلسفية الهندية أن العالم

يعيش مرحلة نشاط وبقظة ثم ينتقل منها إلى مرحلة ركود وسبات. وفي فترة البقظة تتسع الدنيا إلى آفاق لا تخطر على بال إنسان ولا تُعرف لها حدود أو بداية أو نهاية، وفي هذه الفترة يعم العالم الرخاء فتكثر فيه جميع المواد من نباتات وأشجار وحيوانات من جميع الألوان والأنواع، وتستمر فترة الاتساع مئاة من آلاف السنين، وفي أثنائها تزداد العناصر والمواد والكائنات الحية من نبات وحيوان تكاثراً وتوالداً وتضاعفاً.

وبعد انقضاء فترة لا يُعرف مداها ولا يتكهن أحد بزمانها، تبدأ حركة الانبساط والتوسع في الكون في الخمود، وتكف المواد والنباتات والحيوانات عن التكاثر، ويبدأ ما هو موجود منها فعلاً في التناقص والفناء، وينقبض العالم حول مركزه. وتستمر هذه الفترة (أي فترة الانقباض) مئات من آلاف السنين أيضاً، هي بدورها، فلا يُعرف مداها، ولا يرجح أحد بموعدها انتهائها.

وعندئذ، ينتهي العالم إلى فترة من الركود التام، فيمحي كل أثر من آثار الحياة أو المواد أو العناصر، ويعيش العالم في سُبات لا يعرف أحد مداه، فقد يمتد إلى مئات الآلاف من السنين.

وبعد انقضاء هذه الفترة، يعاود العالم نهوضه من سُباته، ويبدأ من جديد في التمدد والاتساع، وتنبّ فيه الحركة والحياة، وتكثر المواد، وتتوالد الحيوانات والنباتات، ويعود العالم إلى ما كان عليه من سعة في أول الأمر.

ولكن كل ما يظهر في الیقظة الثانية للعالم يختلف عما كان فيه من قبل، تستوي في ذلك المواد والنباتات والحيوانات. فمن الطبيعي أن يختلف إنسان العالم السابق، ومن الطبيعي أيضاً أن يكون أرقى منه وأفضل، لأن كل یقظة تحمل معها قفزة جديدة إلى الأمام فتتحسن جميع العناصر في العالم. فالیقظة تعني التجديد والتحسين، ولولا ذلك لبقى العالم في انحطاطه وفساده وانتهى بفناؤه، بحسب هذه العقيدة الهندية القديمة.

وهكذا يزداد الإنسان تكاملاً وسمواً وارتقاءً مع كل یقظة جديدة وميلاد جديد للعالم، لأن الإنسان - حسب هذه العقيدة الهندية - لا يموت في فترة الانقباض والركود، شأن المواد والعناصر الأخرى في الكون، بل تذهب

روحه في رحلة عامرة بالسعادة الأبدية. ومتى استرد العالم نشاطه ويقظته بعد فترة الركود والسبات، عاد الإنسان إلى الظهور وقد ازداد تكاملاً وارتقاءً وسمواً.

ذلك بأن من أركان العقيدة الهندية القديمة أن روح الإنسان حيّة ولا تخضع لقانون الركود الذي يسري على العالم، فالمواد والعناصر الأخرى تموت وتنتهي متى حلت بالعالم فترة السبات، أما روح الإنسان فتبقى حيّة في جنة الأرواح.

ويلوح أن حُب النفس أو الذات هو مصدر هذه العقيدة، ولكن لو دققنا النظر ألفينا أن القائلين بهذا الرأي قد وضعوا الروح في منزلة تختلف عن منزلة المواد والعناصر الأخرى. لأن الروح ليست مادة من المواد في رأيهم، فهي بالتالي لا تخضع لقانون العدم والفناء، وتبقى خالدةً بعد موت الإنسان عندما ينتقل إلى العيش في ما وراء هذا العالم المنظور.

تلك كانت عقيدة الأمم القائلة بالحياة الأخرى أو القيامة، ابتداءً من قبائل الزنج في قلب أفريقيا وانتهاءً بالشعوب والأمم التي تعتنق الأديان السماوية، فالروح باقية لأنها شيء غير المادة والمادة تفتنى، أما الروح فخالدة كونها عنصراً غير مادي.

مما تقدم، يتضح لك أن عقيدة انبساط الكون وانقباضه كانت سائدة في الهند القديمة، وهناك صور دينية هندية تمثلها.

وسواء أكان الإمام الصادق عليه السلام هو المبدع لهذه النظرية أم أنها كانت موجودة قبله في الهند القديمة، فإن الكشف الحديث في علمي الفيزياء والفلك تثبتها.

وربما تعرض جزء من العالم - وليس العالم بأسره - للانقباض

والتمدد، وهذا يؤكد ما قاله الإمام الصادق عليه السلام من أن في الكون عوالم كثيرة، منها ما يجنح إلى الانقباض، ومنها ما يميل على التمدد والانبساط، أما العالم الذي ينقبض فليس فيه للمادة أثر.

وقد عرفنا أن المادة تتكون من ذرات، ولكل ذرة فلك تدور فيه الإلكترونات حول النواة، فإن فقدت الذرة عامل الحركة داخل فلكها، لم تعد تعتبر من المواد.

إن الأجسام المظلمة (كوتوليه) التي تتراكم فيها نواة الذرة قد تفسر لنا عقيدة قدماء الهنود القائلة بأن العالم تعثره حالة ركود وسبات، فهل تدب الحياة في هذه الأجسام كما يقوله الهنود؟

إن الرد على هذا التساؤل يجيء من جانب علم الفيزياء الذي يؤكد أن هناك استحالة في عودة الحياة إلى الكتل التي تراكمت فيها النوى بكثافة حتى لم يعد هناك فضاء بين ذراتها، وحتى إن الذرات قد فقدت حركتها نهائياً.

نظرية الصادق عليه السلام بشأن البيئة

لم يعرف عصر الإمام الصادق عليه السلام من الصناعات إلا ما كان يدوياً تقليدياً، ولم تكن الصناعة الحديثة قد عُرفت في ذلك الحين، وكانت عملية صهر الحديد والفولاذ تتم داخل أوان كروية صغيرة على نار الحطب، وهذا لا يخلق مشكلة خاصة بتلوث البيئة.

وحتى لو استخدمت في صهر الحديد والفولاذ كميات من الفحم الحجري بدلاً من الحطب فإن حجم هذه العملية لم يكن بالقدر الذي يؤثر في تلويث البيئة.

وعندما شرعت ألمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا في إنتاج الحديد والفولاذ في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، ثم تلتها دول أوروبية أخرى، لم تكن هناك شكوى من تلوث البيئة بفعل هذه المصانع التي كانت تستخدم الفحم الحجري في صهر المعادن، والتي كان دخانها يتصاعد من المداخل طوال العام دون توقف.

فإذا كانت هذه الدول لم تشك من التلوث، ولديها صناعة ضخمة للحديد والفولاذ وقودها الفحم الحجري، فكيف وعصر الصادق عليه السلام الذي لم يعرف هذه المصانع الضخمة أصلاً ولا عرف حتى الفحم الحجري؟ ومع ذلك، فقد كان الإمام بعيد النظر نافذ الفكر، فقال - وكأنه يرى العالم في القرن العشرين وقد ضج بالشكوى من تلوث البيئة - إن على الإنسان ألا يلوث ما حوله لكي لا يجعل الحياة شاقة له ولغيره.

ولم يُعن العالم بموضوع البيئة إلا من نحو ٣٠ سنة عندما أُلقيت القنبلة الذرية الأولى على اليابان ولوَّث إشعاعها المنطقة المحيطة بمكان الانفجار، وصارت أرواح الناس مهددة بأشد المخاطر، ولم يكن هذا الانفجار هو الانفجار الوحيد الذي حدث في العالم، بل إن الدول الصناعية الأخرى اللاهثة وراء حيازة السلاح النووي، قامت بدورها بإجراء انفجارات ذرية في الجو والبحر والبر، وما زالت تجري التجارب على هذا السلاح وغيره من أسلحة التدمير الشاملة. ومع انتشار مصانع الطاقة الذرية، وما يتخلف عنها من نفايات سامة، تلوثت البيئة تلوثاً بعيد المخاطر بفعل المواد المصنعة.

ولعبت المصانع الضخمة في أوروبا وأمريكا دوراً كبيراً آخر في تلويث مياه الأنهار والبيئة، لأنها كانت تلقي بنفاياتها في الأنهار الجارية، مثل نهر الرون في أوروبا الغربية، فقتلت الأسماك وغيرها من الحيوانات التي كانت تعيش في مياهه، وتعرضت بحيرات المياه العذبة في أمريكا الشمالية لمصير مماثل، والمحيطات نفسها باتت متعرضة لمخاطر هذا التلوث، سواء بفعل المواد المشعة التي تدفن نفاياتها فيها، أو بفعل النفط الذي تقذفه السفن أو يتدفق من ناقلات النفط الفارقة، وصارت العوالق البحرية (البلانكتون) التي تعيش في المحيطات معرضة للفتاء، لا سيما وهي تعيش قريباً من اليابسة.

ومن فوائد هذه العوالق البحرية أنها تولد حوالي ٩٠ في المائة من الأوكسجين المنتشر في الأرض، وإن فتك بها التلوث، هبطت نسبة الأوكسجين على ١٠٪، وهو ما لا يفي بحاجات التنفس للإنسان والحيوان والنبات، مما يهدد الحياة نفسها، وينذر بانقراض نسل الحيوان والنبات.

وهذه النتيجة ليست مجرد نظرية علمية تحتاج إلى الإثبات، وإنما هي واقع فعلي فبسبب تلوث المحيطات يتناقص عدد العوالق البحرية في كل

سنة، وسينخفض عددها إلى النصف بعد خمسين عاماً، مع ما يترتب على ذلك من انخفاض الأوكسجين في الأرض بنسبة ماثلة.

ومعنى هذا، أن الطفل الذي يولد اليوم، والذي تكتب له الحياة إلى أن يبلغ الخمسين من عمره، سيتنفس وقتذاك وكأنه يتسلق جبال الهملايا دون الاستعانة بجهاز أوكسجين أو كأنه يعاني من اختناق أو ذبحة صدرية، وهذا ينطبق أيضاً على الحيوانات.

وإذا رغب امرؤ بعد خمسين سنة في إشعال عود ثقاب أو موقد الطهي، لوجد صعوبة في ذلك لعدم توافر القدر الكافي من الأوكسجين في الهواء، هذه حقيقة مرة وليست بخرافة.

ويقول العالم الفيزيائي إسحق أزيمواف (اسحق عظيم أوف) إن أمراض الذبحة الصدرية تضاعفت في أمريكا ثلاثمائة مرة منذ عام ١٩٥٠، وهو يعزو ذلك إلى انخفاض كمية الأوكسجين في جو الأرض نتيجة لتناقص العوالق البحرية في المحيطات.

ويتكهن هذا العالم الفيزيائي بانقراض الأرض بعد مائة عام إذا استمر هذا الوضع، ويومئذ، تنقرض أيضاً الحيوانات التي تعيش في البحار والمحيطات، لأنها تحتاج بدورها إلى الأوكسجين ولو عاشت في عمق الأعماق.

ومما يذكر أن السفن المبحرة من غرب أفريقيا متجهة إلى أمريكا الجنوبية تمر بمنطقة واسعة تقدر بحوالي ألفي كيلومتر مربع (٢٠٠٠)، تتجمع فيها النفايات ومواد النفط، وتظل طافية، فلا يبتلعها الماء، ولا تجذبها اليابسة. وقد تكونت هذه «المزبلة» البحرية - وما هي بالوحيدة في العالم - بفعل تيارات الماء والرياح. وهناك «مزبلة» أخرى بالقرب من جزيرة غوام في المحيط الهندي، حيث تحتفظ أمريكا بقاعدة بحرية جوية

كبيرة. وتشمل هذه «المزيلة» مساحة عريضة تقدر بآلاف الكيلومترات المربعة، وبسببها تم الفتك بحياة جميع العوائل البحرية (البلانكتون) في هذه المنطقة.

ومعنى هذا أن تلوث المحيطات والبحار يعرض الإنسان لخطر أشد من الخطر الناشئ عن تلوث اليابسة وعن الغبار النووي. ومعروف أن هناك ما يسمى بـ«ميزان الرعب»، وبمقتضاه ينشأ نوع من التعادل أو التوازن بين الدول الحائزة للسلاح النووي، فتمتنع دولة ما عن استخدامه خوفاً من أن تستخدمه ضدها دولة أخرى، ولكن إلى متى يستمر هذا التوازن، وهل يظل قائماً إلى قرن آخر من الزمان؟ وهناك قذائف أخرى للتدمير الشامل لم تستخدم في الحرب العالمية الثانية من جانب الدول المتحاربة مثل الغازات السامة وقذائف «دم دم» التي تنفجر في جسم الإنسان وفي الهدف معاً، وهناك غيرها من الأسلحة الكيميائية.

والمؤكد أن تلوث المحيطات بهذه السرعة يهدد حياة البشر، بل يقضي عليها وعلى حياة الكائنات البحرية الأخرى. فإن استمر هذا الوضع خمسين سنة، واجه الإنسان مشقة كبرى في استنشاق الهواء نظراً لعدم توافر القدر الكافي من الأوكسجين، وأصبح حاله كحال من وقع في قبضة شرير يتغنى إزهاق روحه بكلتا يديه خنقاً.

وطبيعي أن الإنسان الذي يشق عليه التنفس لن يستطيع إنجاز أي عمل أو القيام بشيء نافع، كما هو شأن إنساننا اليوم، فيقل إنتاجه وتضيق دائرة معارفه، ويتصرف ببطء نتيجة للقصور الذي يعتري خلايا المخ، ولنا أن نتصور معلماً أو طالباً في قاعة الدرس يعانيان ضيقاً في التنفس، فكيف للأول أن يشرح دروسه وللثاني أن يستوعبها؟ وتكرر هذه المشكلة عينها مع المزارع في حقله والعامل في مصنع، وهلم جرا.

وقد أجرى علماء جامعة (هارفارد) الأمريكية تجارب على الأرانب لمعرفة التطورات التي تطرأ عليها متى قلت كمية الأوكسجين في الجو الذي تعيش فيه، فبينوا أن عجز الأوكسجين عن الوصول إلى خلايا المخ بالقدر الكافي يقلل من كفاءته ونشاطه الطبيعيين، ويجعله يقصر في أداء وظيفته المعتادة وهي إصدار الأوامر إلى سائر أعضاء الجسم، لتستجيب له على الفور.

ولكي ندرك إلى أي مدى يتأثر الإنسان في حياته اليومية بعدم استنشاق القدر الكافي من الأوكسجين - وهو الأمر الذي سيحدث بعد خمسين عاماً إذا ما انقضى قسم كبير من العوالم البحرية التي تعيش في المحيطات، كما قدمنا - فلنتصور حالة عامل فني في مصنع للسيارات يريد استخدام مفك، وهي عملية تتم اليوم بتلقائية سريعة لتنبه خلايا الذهن. ولكن الذي يقل حظه من الأوكسجين يصاب بخمول في الذهن، فيتأخر العقل في إصدار أوامره إلى اليد لتناول المفك، وتأخر اليد في أداء الوظيفة المطلوبة منها، وهكذا تستغرق هذه العملية وقتاً أطول مما تستغرقه في الوقت الحالي. فإن أراد سائق سيارة الحد من سرعتها لتلافي حادثة في الطريق، أدى ببطء العقل في إصدار أوامره إلى القدم للضغط على الفرملة إلى الإجهاز على حياة الشخص الذي رغب السائق في تفادي إصابته.

ونفس الشيء ينطبق على الطيار الذي يهجم بالإقلاع من مطار قاصداً مدينة بعيدة. فإذا تأخر المخ في إصدار أوامره على الأعصاب لتحرك الآلات الخاصة بالإقلاع، ولو للحظات، لأدى ذلك إلى خلل في عملية قيادة الطائرة، ينجم عنه أخطر العواقب، كأنفجار الطائرة أو ارتطامها ومقتل كل من عليها، بما فيهم قائدها.

وكذلك فإن قلة وصول الأوكسجين على جسم الإنسان من شأنها

التأثير لا في كفاءة خلايا المخ وحدها، بل في سائر الأعصاب أو الأعضاء أيضاً، وكلها تتلقى أوامرهما من المخ، فتعجز الأذن والعين وسائر الحواس عن القيام بوظائفها بالكفاءة السابقة، كما تفقد الذاكرة قدرتها على تسجيل الأحداث واختزانها، وقل نفس الشيء عن الوظائف الحيوية جميعاً.

ومن عوامل تلوث البيئة المواد المشعة التي تتخلف عن محطات توليد الطاقة النووية، وقوامها نفايات ناتجة عن عملية شطر نوى ذرات اليورانيوم والبلوتونيوم، وعن توليد الطاقة النووية بصورة مستمرة، ناهيك عن أن هذه المحطات النووية هي في حد ذاتها خطر داهم يهدد البيئة بالتلوث.

ومع أن المتبع عادة عند بناء محطات الطاقة النووية مراعاة اتخاذ جميع التدابير الكفيلة بمنع تسرب المواد النووية الخطرة أو انفجار المستودعات التي يحتفظ فيها بهذه المواد، فإن الخطر ماثل دائماً في احتمال انفجار مستودع الركام النووي (وهو المستودع الذي يحتفظ فيه باليورانيوم والبلوتونيوم بالإضافة إلى الجرافيت) والذي يمد محطات توليد الطاقة والحرارة بالوقود النووي اللازم لهذه العملية.

ولو حدث مثلاً أن انفجر مستودع الركام النووي لمحطة توليد الكهرباء بالطاقة النووية الواقعة في جنوب بريطانيا، لتلوث البيئة بالإشعاع المميت على مسافة مائة ميل (١٦٠ كيلو متراً)، ولانعدمت الحياة تماماً في هذه المنطقة ومات كل ما فيها من البشر والحيوان والنبات، وجفت الأنهر والبحيرات، ولأدت الحرارة الشديدة الناتجة عن هذا الانفجار إلى هدم العمارات والمباني الواقعة في دائرة قطرها ٥٠ ميلاً حول المحطة.

هذا مجرد احتمال، ولم يحدث شيء منه حتى الآن في محطات توليد الكهرباء بالطاقة النووية، ولكن هذا الانفجار يصبح حتماً إذا ما وقع خلل في «الفرامل» المتحركة في انطلاق الطاقة النووية (وتتمثل هذه الفرامل في الوقت الحالي في مادة الجرافيت) أو إذا ما أشرفت هذه المادة على النفاذ.

والمأمول ألا تتعرض أي دولة من الدول الحائزة للطاقة النووية لمثل هذا الحادث المهلك.

وثمة مشكلة هامة تواجهها الدول الحائزة للطاقة النووية تتمثل في كيفية التخلص من النفايات الذرية المشعة الشديدة الخطورة. وعلماء الذرة والفيزياء مشغولون بالتفكير في اختيار مناطق مأمونة يدفنون فيها هذه المواد دفعاً لشرورها وحماية للبيئة من التلوث.

وقد اتجه تفكيرهم في بادئ الأمر إلى دفن هذه النفايات في أعماق المحيطات بعد وضعها في أوان محكمة آمنة، ولكنهم تبينوا أن الضغط الشديد لمياه المحيطات على النفايات المدفونة في القاع قد ينتهي به الأمر إلى تحطيم هذه الأواني، فنتشر المواد المشعة في الماء، وتهدد كل مظهر من مظاهر الحياة في المحيطات، من أسماك وحيوانات أخرى وعوالق بحرية (بلانكتون).

واضطر العلماء، تلقاء هذا الاحتمال المنذر بأشد المخاطر، إلى البحث عن مدافن أخرى مأمونة للنفايات الذرية، واتجه التفكير بعد رحلة الإنسان إلى القمر إلى دفن هذه النفايات على سطحه، ولكن هذا الأمر لم يتحقق لاعتبارات ثلاثة هي:

أولاً: أن المحطات النووية المولدة للطاقة الكهربائية مملوكة في دول أوروبا وأميركا لمؤسسات أهلية غير حكومية، وهي مؤسسات تفتقر إلى الإمكانيات المالية الهائلة اللازمة لنقل هذه النفايات إلى القمر والتخلص منها بدفنها هناك، (وتستثنى من ذلك المراكز النووية في الاتحاد السوفيتي، والدول الشيوعية الأخرى لأنها مملوكة للدولة).

ثانياً: أنه ليس ثمة سبيل للاطمئنان إلى أن الصواريخ الحاملة للنفايات ستصل سالمة إلى سطح القمر، دون أن تتعرض لحادث يفجرها في الهواء

أو يسقطها على الأرض قبل انفلاتها من نطاق الجاذبية الأرضية، وهو ما يؤدي إلى تلوث الجو والأرض بصورة مباشرة.

ثالثاً: إن من شأن هذا الأمر نقل التلوث إلى القمر نفسه، ولئن لم تعرف عواقب هذا التلوث على سكان أرضنا، فالمؤكد أن تلوث القمر من شأنه إقفال الباب أمام الإنسان في ما لو حاول استثمار القمر في المستقبل، لأن ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعاً شديداً في القمر في خلال النهار مع ضعف الجاذبية فيه يؤديان إلى انتشار المواد المشعة السامة وتلوث سطح القمر بأسره فلا يغدو صالحاً لأي حياة، دع عنك أن عدم وجود هواء في القمر يجعله غير صالح لحياة البشر عليه.

وهكذا انصرف الإنسان عن التفكير في دفن هذه النفايات الذرية الخطرة في مكان مأمون ناء عن البشر دفناً لشرورها المؤكدة المتمثلة في إشعاعاتها الخطرة.

الم يكن الإمام الصادق عليه السلام بصيراً بالعواقب عندما نصح الإنسان بعدم تلوث بيته دفناً للأضرار والمشكلات التي يتعرض لها؟ ولنتنظر إلى مثل اليابان، لنرى فيه صدق نظرية الصادق.

ومعروف إن اليابان خسرت الحرب العالمية الثانية مع دول المحور، وخرجت منها مهينة الجناح كسيرة الاقتصاد حتى أن معدل دخل الفرد لم يكن يزيد في السنة (أي في ١٢ شهراً) عن ثلاثين دولاراً، ولكن اليابان استطاعت بإنهاض أوضاعها الاقتصادية أن ترفع دخل الفرد حتى وصل معدله في عام ١٩٧٢ إلى خمسة آلاف وخمسمائة دولار أميركي في السنة.

ولم تلبث اليابان أن أخذت تغزو العالم بإنتاجها الصناعي الذي توسعت فيه توسعاً كبيراً، حتى استطاعت أن تنافس الصناعة الأميركية، في

عُقر دارها. ولنذكر مثلاً واحداً، هو إن الولايات المتحدة التي تصدر الدول الصناعية في إنتاج الدراجات البخارية قد صارت تشتري ٩٠٠٠ من جميع عدد الدراجات المستخدمة فيها من اليابان، فبين كل عشرين ألف دراجة بخارية مباعة في أميركا ١٨ ألف دراجة صنعت في اليابان.

ولنذكر مثلاً ثانياً وهو أن ألمانيا الغربية التي تتقدم دول العالم الصناعي في صنع أجهزة الراديو والتلفزيون قد أصبحت بدورها هدفاً لغزو الصناعة اليابانية حتى أصبح ٩٩٠٠ من أجهزة الترانزيستور المباعة في ألمانيا يابانية الصنع.

وها نحن نرى اليابان متقدمة في صناعات السيارات والكمبيوتر والأقمشة المصنوعة من الألياف الصناعية (السليولوز) وفي صنع السفن وأجهزة الراديو والتلفزيون وأجهزة التصوير والدراجات النارية وهلم جرا، ولعلها تحتل المنزلة الثانية بعد أميركا في هذه الصناعات.

وبرغم كل هذا، وبرغم تقدم اليابان الصناعي وارتفاع دخل الفرد فيها ارتفاعاً كبيراً، فقد أهملت أسباب الوقاية من تلوث البيئة، وأصبحت اليوم تعاني من مشكلات التلوث ما يهدد سلامة أهلها، وما لا مثيل له في البلدان الصناعية الأخرى التي وقت نفسها من أسباب التلوث.

وأدى تلوث البيئة في اليابان إلى أمراض خطيرة لم يعرفها الطب منذ أيام أبي الطب (الحكيم أبقراط اليوناني) وإلى هذا اليوم، ومعروف أن أبقراط أعد إحصاءاً للأمراض والأوبئة التي تصيب البشر سمى فيه أربعين ألف مرض، وأوضح آثارها وطرق علاجها، ولكن الأمراض التي ظهرت في اليابان نتيجة لتلوث البيئة لم يرد لها ذكر ضمن الأمراض التي عرفتها البشرية من قبل.

ومن جملة هذه الأمراض النادرة مرض يسميه اليابانيون (إيتائي إيتائي)^(١) لأن المصاب به يتألم ويئن مردداً هذه التأوهات.

ويُعزى سبب هذا المرض إلى انتقال كمية كبيرة من مادة (الكادميوم إلى الجسم البشري، وهي مادة تنتشر حول المصانع وتلوث الأرض والماء والهواء).

ومن إمارات هذا المرض الإحساس بألم شديد في جميع عظام الجسم، ومن عواقبه إصابة العظم بالضعف العام الذي يجعله هشاً قابلاً للكسر بسهولة، ولا وجود لهذا المرض النادر من أمراض العظام إلا في اليابان، صحيح أن الطب في تاريخه القديم وإلى يومنا هذا قد عرف أنواعاً من أمراض تحجر العظام في الإنسان، فتغدو هشة قابلة للكسر، إلا أن النوع الياباني الذي يسمونه «إيتائي إيتائي» هو نوع فريد من هذه المجموعة من الأمراض.

وقد ظهر مرض آخر أشد خطورة من «إيتائي إيتائي» في جزيرة كيوشو، وهي إحدى الجزر الكبيرة في اليابان (البالغ عددها ٤٠٠ جزيرة) فأودى بحياة عدد كبير من سكان هذه الجزيرة، وما زال خطره ماثلاً يهدد غيرهم من السكان.

ومن آثار هذا المرض إضعاف البصر إلى درجة العمى، وإضعاف الأعصاب والعضلات إلى درجة تحليلها وإفقادها لكل قدرة. ويُعزى السبب في ظهور هذا المرض إلى انتشار المواد الزئبقية في الماء والهواء بالقرب من المصانع التي تستخدم عنصر الزئبق، وانتقالها إلى الإنسان عن طريق الماء والهواء.

(١) عبارة «إيتائي إيتائي» يقابلها عندنا تأوه المريض بقوله «آه آه».

ويعرف الطب القديم أن الزئبق يؤدي إلى العمى، وكان الأطباء في القرنين السابع عشر والثامن عشر يستخدمونه في علاج مرض الزهري، فلما تبينوا أن لاستخدامه موضعياً آثاراً جانبية أخرى، كفوا التوسل به في العلاج، باستثناء بعض حالات الأمراض الجلدية أو الاحتراق، ومع مراعاة قدر كبير من الاحتياط.

وإلى جانب هذين المرضين الجديدين اللذين عرفتتهما اليابان، تزايدت أمراض ضيق التنفس والاختناق نتيجة لتلوث البيئة أيضاً.

وإذا كان العالم الفيزيائي إسحق إزيموف قد عزا أسباب مرض ضيق التنفس في أمريكا إلى قلة الأوكسجين المتوافر في الهواء - كما سبق أن ذكرنا - فإن هذا المرض نفسه قد انتشر في اليابان نتيجة لتلوث الجو بفعل الغازات والأدخنة المتصاعدة من المصانع.

واليابانيون شعب معروف بحبه لجمال الطبيعة وتفننه في تنسيق الزهور والحدائق، وباعتقاده بأن المناظر الطبيعية في اليابان هي أجمل المناظر في العالم، ولكنه يعترف اليوم بأن تلوث البيئة قد أضر بالطبيعة ضرراً شديداً وأفقدتها مظاهرها وجمالها وحسنها.

وقد أشرنا في ما سبق إلى أن الشعب الياباني قد استطاع في الثلاثين سنة الأخيرة (أي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وإلى عام ١٩٧٣) أن ينهض بحياته الصناعية والاقتصادية على الرغم من افتقاره إلى الثروات الطبيعية ومنايع الطاقة المتوافرة في الدول الأخرى، وإنه استطاع بهذا الجهد أن يصبح ثالث شعوب العالم غنى بعد الولايات المتحدة وروسيا دون أن يعتمد في ذلك على نفط أو حديد أو فحم حجري. ولكن الصناعة اليابانية التي نجحت في غزو العالم، تسببت في اليابان نفسها في تلوث البيئة وفي قيام مشكلات كثيرة، مما جعل اليابانيين يفكرون في عزل المجمعات

الصناعية عن المدن والمناطق الآهلة بالسكان، وقد وضعوا فعلاً الخطط اللازمة لتحقيق ذلك في موعد غايته عام ٢٠٠٠م.

وتتحصل الخطة اليابانية في إنشاء مدن ومجتمعات حديثة لا يزيد عدد سكانها عن مئتي ألف نسمة، وتزويدها بجميع المرافق والتسهيلات العصرية، وتقام إلى جانب هذه المدن وحدات صناعية تتخذ فيها جميع الاحتياطات اللازمة لوقاية البيئة من آثار التلوث بالغاز أو بالنفايات المتخلفة عن المصانع، وذلك بتجهيز مداخنها ومنافذ نفاياتها بمصاف معدة خصيصاً لهذا الغرض.

لقد انتبه إنسان اليوم إلى خطورة التلوث على البيئة، سواء أكان موضعه الأرض أو الهواء أو المياه في البحار أو الأنهار، ولكن عبقرية الإمام الصادق عليه السلام هدته قبل ألف ومائتي عام إلى خطورة هذا التلوث، فنصح القوم بالآي يعمدوا إلى تلويث الوسط الذي يعيش فيه الناس، أي تلويث البيئة بلغة هذا العصر. ومن عجب أن الآريين القدماء فطنوا إلى أهمية اجتناب تلويث الأرض والماء في وقت لم تكن لديهم فيه مصانع أو معامل، فكيف تنبهوا إلى هذا الأمر، ومن أين جاءتهم الفكرة؟

يذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن الثقافة التي تحصلت للبشرية هي تراث لمدينة عظيمة قديمة كانت على وجه الأرض ثم تدهورت لأسباب شتى، وإن الإنسان قد اكتسب الشيء الكثير من هذا التراث الحضاري، ومن جملة اهتمامه بالأرض والهواء وحرصه على عدم تلويثهما.

وقد اهتمت الشعوب الآرية، التي يسميها الأوروبيون بالشعوب الهندية - الأوروبية، بالمحافظة على البيئة واجتناب كل ما يلوثها منذ زمن بعيد.

ويقول الباحث الفرنسي «ماريجان موله» أن الشعوب الهندية الأوروبية هي أول الشعوب التي قامت بمد مجاري الفضلات تحت الأرض حرصاً

على عدم تلويث سطحها، وحدا بهم وسواسهم من تلويث الأرض إلى الامتناع عن دفن الموتى فيها، وإحراق جثثهم في مكان ناء عن العمران، أو وضع موتاهم في مكان مرتفع على الجبال أو التلال أو فوق جذران بينونها، وتركها إلى أن تجف فلا يبقى منها إلا العظام التي توضع بعد ذلك في كهف أو في غرفة.

ولم يعرف دفن الموتى عند الشعوب الآرية إلا في فترات تاريخية متأخرة محاكاة لأقوام أخرى^(١)، وبصورة خاصة في أزمنة الحروب أو عند ظهور الأوبئة المعدية.

وعندما غزا الاسكندر المقدوني الهند، رأى أن الهنود يحرقون أجساد القتلى، فدهش من هذا التصرف واستفسر منهم عن أسبابه، ثم كتب بذلك تقريراً إلى أستاذه أرسطو، فأصبحت رسالته وثيقة تاريخية هامة تصور عادات الهند وتقاليدها في الحرص على طهارة الأرض ونقاها. ومما جاء في هذه الرسالة قوله: «سألت الهنود: لم تحرقون جثث الموتى ولا تدفنونها؟

فأجابوا: إذا دفناها، تلوثت الأرض، وهو ما يتعارض مع تقاليد ديننا.

ثم سألتهم: إذا كان الموتى يلوثون الأرض، فلم دفتهم جثث الجنود وأحرقتم جثث الضباط.

(١) يقول المستشرق الأمريكي أولم ستيد أستاذ تاريخ الشرق بجامعة شيكاغو (المتوفى عام ١٩٤٥م) إن ملوك الدولة الاكمينية في إيران دفنوا جميعاً في مقابر من الرخام والأحجار المزدانة بالنقوش، منها قبر قورش وقبر داريوش الكبير، في حين أننا لا نجد مقبرة واحدة لملوك الدولة الساسانية، مع أنها أقرب إلينا من دولة الاكمينين، وذلك لأن الموتى في عهد الدولة الساسانية كانوا يوضعون على مرتفعات إلى أن تجفها الشمس.

وفي هذا المقام نذكر أن المستشرق (جورج كامرون) هو أول من كشف أبجدية الكتابات الاكمينية وترجم آلافاً منها، وبفضل الجهود التي بذلها في هذا الشأن، أصبحنا نعرف الكثير عن تاريخ إيران القديم.

فأجابوا: إن أجساد الجنود لا تنجس الأرض، على النقيض من جثث الضباط والأمراء التي تنجسها بشدة».

وأضاف الاسكندر إلى هذا قوله في الوثيقة عينها: «أحسست بأنهم إن دفنوا الضباط والأمراء، لم يؤدوا لهم واجب التكريم والاحترام بالقدر الكافي والمناسب».

وقد اهتم أرسطو بهذه الرسالة اهتماماً جعله يدرجها في كتابه (الاورغانون)، وهو الكتاب الذي تناول فيه مسائل المنطق، والذي تساءل فيه في معرض الحديث عن الموت عما إذا كان من الأفضل إحراق جثث الموتى كما يفعل الهنود.

ولقد كان من ديدن الشعوب الهندية الأوروبية أن تحرص على عدم تلويث البيئة في وقت لم تكن قضية البيئة قد أصبحت الشغل الشاغل لدول العالم جميعاً، ولم يكن تعداد سكان أي مدينة في العالم يزيد على مائة ألف نسمة. ولئن لم تتوافر لدينا معلومات وافية عن عدد سكان مدن فارس والهند في القديم، فقد سجلت لنا كتب التاريخ أن مدينة منف وهي العاصمة المصرية القديمة قبل الميلاد بألفي عام كان عدد سكانها مائة ألف، وكان عمر هذه المدينة وقتئذ ألف سنة.

ويقول الصينيون إن مدينة بكين كان يسكنها في عام (٢٠٠٠ ق.م.) ألفين قبل الميلاد خمسمائة ألف نسمة، ولكن هذا القول يفتقر إلى أي سند تاريخي، وليس في تاريخ الصين آثار تدل على صحته، وطبيعي أن هذا الرقم على فرض صحته لا يُعد شيئاً بالقياس إلى عدد السكان في عواصم العالم ومدنه الكبيرة اليوم.

وأياً كان الأمر، فإن الفيلسوف الأخلاقي الصيني الشهير (كونفوشيوس) قد أمر إتباعه بالنظافة وعدم تلويث البيئة، وكنفوشيوس قد

ولد في عام ٥٥١ وتوفي عام ٤٧٩ قبل الميلاد، وكانت الشعوب الهندية - الأوروبية قد عاشت قبله بمئات من الحقب، بل بآلاف منها. وليس من المعروف على وجه اليقين متى بدأت هجرة الشعوب الآرية إلى الشرق، فمن المؤرخين من يقول إن هجرتهم بدأت قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، ومنهم من يقول إنها بدأت قبله بألفين من السنين، ولكن هذه التقديرات هي ضرب من الحدس والتخمين، والفرق بينها لا يتجاوز خمسين سنة أو مائة.

ومهما يكن الأمر، فعندما أسدى كونفوشيوس نصائحه ومواعظه تلك لاتباعه، كان قد مرّ على استيطان الشعوب الهندية - الأوروبية في هذه الهضبة وقت طويل، ولا يُستبعد أن يكون الزعيم الديني، الذي عاش عمره بين الشعوب الآرية، قد تعلم منها ونقل من تقاليدها احترامها للأرض والبيئة وحرصها على العيش في وسط طاهر غير نجس.

ولم تصبح قضية منع التلوث - كما ذكرنا - قضية عالمية إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وهي اليوم قضية تستأثر بعناية الدول والهيئات الدولية باعتبارها قضية ملحة لا تقبل الإرجاء والتأجيل.



الفصل الثامن

من خطب ورسائل
الإمام جعفر الصادق عليه السلام



في رأي الصادق عليه السلام أن الإنسان يعمل على تقصير عمره

من النظريات البارعة الكبيرة الأهمية التي ساقها الإمام جعفر الصادق عليه السلام نظرية تدور حول عُمر الإنسان. فمن رأيه أن الإنسان خُلِق لكي يعمر طويلاً، ولكنه يتسبب في تقصير عمره بنفسه، ولو أن كل إنسان اتقى ربه وأذى الفرائض وعف عن المحرمات ولم يسرف في المأكَل والمشرب وذلك كما أمر به القرآن الكريم، لاستمتع بحياة أطول.

ولا ريب في أن عُمر الإنسان يتوقف، بعد مشيئة الله، على أمرين، هما: العناية بالصحة والاعتدال في الطعام.

وفي القرن الأول الميلادي، كان معدّل عُمر الإنسان في روما ٢٢ سنة لا غير، وذلك بسبب نقص أسباب الرعاية الصحية^(١). ولأن طبقة الأشراف

(١) صوّر المؤرخ الفرنسي المعاصر «جيروم دو كاركوبي توف» المتخصص في تاريخ روما القديمة عاصمة الروم وشوارعها الممتدة وعماراتها الفخمة وأقواس النصر فيها (وعدها ٣٧) وحمّاماتها العامة، وما فيها من دور للعرض والمسرح والخفارات والفنادق؛ وقال إن المراحيض والمباول لم تكن تقام في هذه المدينة العظيمة.

ولم تكن المدن الأوروبية الأخرى أحسن حالاً من روما، ولا أنظف منها، فإلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، لم تكن تجد في بيروت باريس مراحيض، وكانت النفايات تنقل في أوعية إلى خارج الدار. وقصر فرساي العظيم، الذي كان يعيش فيه إلى جانب الأسرة المالكة الفرنسية عشرة آلاف من الموظفين والخدم، لا يحتوي على مراحيض أو دورات مياه. ولكن بلدية باريس أرغمت السكان بعد الحرب العالمية الثانية على بناء مراحيض ودورات مياه في المنازل، ومدّت شبكة المجاري المعروفة باسم «باجو».

راجع مجلة «مرآة التاريخ» الفرنسية: Miroir de l'Histoire, Tom 101, Anné 25.

وسراه القوام كانوا يفرطون في المأكّل إلى درجة التقيؤ، وكان عامة الناس يقلّدون الأشراف في ذلك.

وكانت تُلحق بقاعات الطعام قاعة خاصة بالتقيؤ يُطلق عليها اسم (ووميتوريو) ليستطيع الآكلون في قصور الأشراف إفراغ ما أكلوه فيها، سواء بوضع الأصابع في الفم أو بتناول دواء مسهّل، وذلك لإفراطهم في تناول الطعام إلى حدّ قاتل.

وفي أوائل القرن العشرين الميلاديّ، كان معدّل العُمُر في بريطانيا وفرنسا خمسين سنة، لأنّ الأوضاع الصحيّة وأساليب التغذية تحسّنت تحسّناً كبيراً عمّا كانت عليه. أمّا اليوم، فقد أصبح معدّل العُمُر في أوروبا ثمانياً وستين سنة للذكور وثمانياً وسبعين للإناث.

والسؤال الذي يفرض نفسه اليوم هو: لو استطاع الإنسان التغلّب على مرض السرطان والسكتة القلبية والجلطة والأمراض الأخرى التي تنتاب القلب، فهل يرتفع معدّل عمره فوق المعدّل الحاليّ؟

مما يؤسف له أنّ الرّد على هذا السؤال ليس بالإيجاب، لأنّ من أهم أسباب إطالة العمر مراعاة القواعد الصحيّة في كل شيء، ولا سيّما في المأكّل والمشرب، في حين أنّ التغلّب على هذه الأمراض المستعصية لن يزيد المعدل الحاليّ لعمر الإنسان بأكثر من ستين. ولو استطاع الإنسان أن يتغلّب على هذه الأمراض جميعاً، لبقيت له أمراض الشيخوخة والهزم التي عزّ على الإنسان حتى اليوم أن يعالجها على بساطتها. فإن أصيب الشيخ بمرضٍ بسيط كالبرد والالتهاب الداخليّ والحصبة وأمراض الرئة، لكانت كفيلة بالقضاء عليه.

وتلوث البيئة هو من العوامل التي تؤيد نظرية الإمام الصادق عليه السلام، وهو ظاهرة خطيرة في بعض المناطق، قليلة الشأن في مناطق أخرى. وقد

قامت منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة بدراسة أوضاع بعض المدن الأمريكية والمكسيكية من حيث التلوث، وانتهت في تقريرها إلى أنَّ التلوث في بعض هذه المدن يفسد الهواء بحيث أن سكان هذه المدن إذ يتنفسون هواءها، فكأن الواحد منهم قد دَخَنَ كميةً من السجائر تملأ علبتين في كل منهما ٢٠ سيجارة، ولم يكفُوا عن التدخين ليلاً أو نهاراً، وكما أن لتدخين أربعين سيجارة في اليوم أثراً غير صحيٍّ في جسم الإنسان، فكذلك استنشاقه للهواء الملوَّث يُفسد صحته بنفس القدر.

ومن العوامل التي تضر بالصحة الضوضاء والأصوات المزعجة، وقد ثبت من الناحية العلميّة بأن للضوضاء المزعجة أو الضوضاء أثراً سيئاً في سلامة الإنسان وهدوء أعصابه.

ومنذ فترة والمهندس الفرنسي (كامي روجرون) الذي صمَّم بناء السفينتين الفرنسيتين البحريتين «ريشيليو» و«جان بار» قبل الحرب العالمية الثانية، عاكف على دراسة آثار الأصوات المزعجة والضوضاء في صحة الإنسان، وفي رأيه أنَّ لهذه الأصوات تأثيراً في جسم الإنسان يساوي تأثير الأكسجين في الحديد، فكما أنَّ الأكسجين يصيب الحديد بالصدأ والتآكل، فكذلك الضوضاء تصيب الجسم بالعلّة والمرض ممّا يختزل من عُمر الإنسان، وهو يرى أنَّ أفضل البيوت التي تُقام في المدن هي البيوت التي تركَّب فيها عوازل تحول دون وصول الضوضاء إلى داخلها، مع مراعاة خفض أصوات الراديو والتلفزيون داخل البيوت منعاً لإزعاج السكان.

ويضيف (كامي روجرون) إلى ذلك أنّه بالنظر إلى أنَّ الضوضاء في المدن آخذة في التزايد، ولا سبيل يحول دون تزايدها، فلا بد من إنشاء منازل من الأبرق (الخرسانة المسلّحة) تحتوي على عوازل تمنع نفاذ الصوت إلى داخلها، وقد توافرت هذه الخرسانة العازلة في أسواق الولايات

المتحدة، وفي رأي هذا الخبير أننا إذا ما استطعنا بناء البيوت بكاملها من هذه المواد، فلا بُدَّ من إنشاء غرفة واحدة أو اثنتين بعد تجهيزهما بالعوازل ليستطيع المرء الإخلاد إلى الراحة فيهما والبُعد بأعصابه عن كل ضجيج وعجيج.

ومرض العُصاب - وهو ضربٌ من الجنون - يُعزى في بعض أسبابه إلى الآثار السيئة للضوضاء، فمن خصائص الضوضاء أن تُتلف الأعصاب وتتسبب في انهيار عصبيّ أو جنونٍ مفاجئٍ حتّى لمن رأينا فيه بشاشة وجه وهدوء أعصاب.

ومن الآثار السيئة للضوضاء إحساس المرء بالتعب والإرهاق، ثمّ جنوحه إلى الكسل، والعزوف عن العمل دون أن تكون هناك أسباب عضوية أخرى أدت إلى هذه الظواهر، والمصاب بالملل والإرهاق لا يدري لهما سبباً، ويعجز الطبيب عن تشخيص أي علة عضوية أدت إليهما.

وفي رأي روجرون أنّ الضوضاء تؤدّي، فضلاً عن الإجهاد والإرهاق العصبي، إلى تقصير العمر ما بين خمس سنين وعشر.

كما ومن المؤكد أيضاً - أنّ للتغذية السليمة دوراً فعالاً في إطالة العمر، في حين أنّ سوء التغذية - أو الأنيميا - يتسبب في تقصير عُمر الإنسان، والأنيميا هي عارضٌ من عوارض الحياة الميكانيكية العصرية.

ننتهي من كلّ ما تقدم إلى أن العلماء المعاصرين قد أثبتوا بصورة علمية صدق نظرية الإمام جعفر الصادق عليه السلام القائلة بأنّ في وسع الإنسان أن يعمر طويلاً لولا أنه يعمل بنفسه على تقصير عُمره، ففي ظلّ الحياة الميكانيكية العصرية التي فشت في أوروبا وأمريكا، حلّت المواد الصناعية محلّ المواد الغذائية الطبيعية، وأصبح الإنسان يتناول أطعمةً مجهزة من مواد كيميائية ومركبة، ممّا أضّر بالصحة، وأدّى إلى تقصير العمر.

فرعاة البقر والفلاحون في أمريكا كانوا يعيشون في الماضي على تناول الطعام الطازج كاللبن ومنتجاته واللحوم، آخذين هذه المواد الغذائية مباشرة من الماشية التي يرعونها، فاشتهروا بأعلى معدل للعمر، حتى لقد كانوا يعيشون في المعدل إلى ثمانين عاماً أو خمسة وثمانين، ولكن المعلبات والمياه الغازية والمشروبات المصنوعة التي تتألف من الحلوى والمواد الكيميائية، أصبح رعاة البقر والفلاحون ومرتبو المواشي يتناولون هذه الأطعمة والمشروبات كغيرهم في الولايات المتحدة.

وبعدما كان رعاة البقر يصارعون الشيران ويقومون على رعي الماشية وهم على ظهور الخيل ساعات طويلة مهما طعنوا في السن، أصبحوا اليوم بل اعتباراً من الخمسينات من العمر، يشكون من سوء التغذية وأمراض المعدة والقلب وترسب حامض اليوريا وآلام المفاصل والعضلات وما إلى ذلك من الأمراض المُقعدة عن العمل والمبذدة للحياة السعيدة، في حين أن راعي البقر البالغ من العمر خمسين عاماً كان يعتبر في مطلع هذا القرن من الشباب ويزاول حياة كلها نشاط وحيوية وحركة وإلى أوائل هذا القرن لم يكن يعرف سكان ولاية ألاسكا في شمال أمريكا الأمراض والأوبئة التي كانت فاشية في مناطق أخرى وكان أهل ألاسكا يحتفظون بأسنانهم كاملة إلى أن يبلغوا السبعين أو الثمانين من العمر، لأنهم كانوا يتناولون الغذاء الطبيعي ويؤدون عملهم اليومي بكل نشاط دون اعتماد على الآلة.

وكان الطعام المألوف في ألاسكا اللبن والحليب ولحم الوعل^(١) وكميات كبيرة من السمك الذي يصيده السكان في الأنهر وعند السواحل، وكان منهم من يقوم برعي حيوان الوعل مع غيره من الحيوانات.

(١) الوعل: نيس الجبال، وله قرنان مُحْدَبَان كالسيف.

وهناك كتابٌ عن تربية الوعل القطبي وضعه المؤلف الأمريكي ألن رويس أوتس (الذي تخصص في حياة شعوب ألاسكا وتاريخها وتوفي في عام ١٩٦٠) وقد قال في كتابه هذا إنه رأى بنفسه في خريف عام ١٩٣٥ م. قُطعاً من الوعل تهاجر من المناطق الشمالية، واستمرت هذه الهجرة خمسة أيام، وكان اصطكاك قرون القطيع بعضها ببعض الآخر يحدث صوتاً كهزيم الرعد، ومع ذلك فإن الإنسان القطبي كان قادراً على استئناس هذا الحيوان القوي البنية وتربيته والاستفادة بلبنه ولحمه.

ويقول هذا الكاتب إنه ليس في منطقة ألاسكا طبيب، ولو أم الأطباء هذه الولاية لما وجدوا فيها عملاً مريحاً لأن الناس عموماً أقوياء قليلو المرض، وعُمر الرجل والمرأة يصل في المعدل إلى تسعين سنة للرجل ومائة للمرأة.

وقد نشر هذا الكتاب في عام ١٩٣٥.

الرضاعة السليمة في رأي الإمام الصادق عليه السلام

من مظاهر عبقرية الإمام الصادق عليه السلام رأيه في الرضاعة السليمة، وتوجيه الأمهات على إرضاع الطفل وهو راقد إلى الناحية اليسرى من أمه. وطوال قرون ممتدة ظلت الحكمة من هذه النصيحة خافيةً على الكثيرين، الذين كانوا يعتبرونها تدخلاً في ما لا يعنيه، وتزييداً لا لزوم له.

وعندما سُئل الإمام محمد بن إدريس الشافعي، الذي ولد بعد وفاة الصادق عليه السلام بعامين (أي في سنة ١٥٠ للهجرة في مدينة غزة وتوفي في القاهرة في عام ١٩٩ هـ). عن رضاعة الطفل، وهل الأسلم أن يرضع الطفل وهو راقد إلى الجانب الأيمن من أمه أو إلى جانبها الأيسر، ردّ قائلاً: لا فرق بين الأيمن والأيسر، وللأم أن تُرضع طفلها كما تشاء وبالأسلوب الذي يُشعره بالراحة.

ورأى البعض أنّ الإمام جعفر عليه السلام قد خالف ما جرت عليه الأمهات من وضع الطفل في الناحية اليمنى عند إرضاعه، وأنّ من الأكرم للأم، وللطفل أن يكون في ناحية الميمنة عند الرضاع.

وهكذا خفيت الحكمة من هذه النظرية في الشرق وفي الغرب، حتى في عصر النهضة والتجديد، ولم يقع أحدٌ على الفوائد المرتجاة من تطبيقها عملياً عن الرضاعة.

وفي القرن الثامن عشر الميلادي وهو عصر النهضة والتجديد، أنشئت جامعة كورنيل^(١) في ولاية نيويورك (والتي يُعزى الفضل في تأسيسها إلى عزرا كورنيل الذي عانى في صغره عناء شديداً من مشكلات الرضاعة ومتاعبها) ومن هنا اعتزم أن يلحق بالجامعة مستشفى، وأن يلحق بالمستشفى معهداً لدراسة مشكلات الرضاعة والطفولة.

ولما استكملت الجامعة مرافقها، بدأ هذا المعهد في دراسة كل ما يتعلق بالطفولة والرضاعة، حتى أصبح من أهم المؤسسات العلمية المتخصصة في شؤون الطفل في العالم.

وقل أن تجد موضوعاً يتعلق بالطفل أو بالرضاعة إلا وقد وفّاه هذا المعهد دراسةً وبحثاً وخرج فيه بأسلم النتائج العلمية. وقد يندهش المرء إذا عرف أن هذا المعهد عُني كذلك بدراسة اللوحات الزيتية التي رسمها كبار الفنانين للأطفال والتي تقتنيها متاحف الرئيسية، ولوحظ أن معظم هذه الصور كانت تمثل الأم حاملةً طفلها من الناحية اليسرى. ذلك أن عدد الصور التي دُرست كان ٤٦٦ صورة، تبين أن ٣٧٣ صورة منها تمثل أمهات يحضن أطفالهن إلى الناحية اليسرى، في حين أن ٩٣ صورة كان الطفل فيها محمولاً من الناحية اليمينية، أي أن ٨٠٪ من الصور الموجودة في متاحف، والتي تمثل الأمومة، قد أظهرت الطفل محمولاً من الناحية اليسرى.

وفي ولاية نيويورك عدد من مراكز الولادة ورعاية الطفل التابعة لمؤسسة كورنيل الجامعية للأطفال، وكلها توافي المعهد العلمي للجامعة بالتقارير والملفات الطبية الخاصة بالأطفال والأمهات لدراستها.

(١) تأسست جامعة كورنيل المشهورة في ولاية نيويورك في عام ١٨٦٥ م. بفضل أريحية الميثري عزرا كورنيل الذي وقف جميع ممتلكاته واثرواته على هذه الجامعة، ومات معدماً.

ويؤخذ من التقارير التي أرسلت إلى هذا المعهد العلمي في فترة غير قصيرة أن الطفل في أيامه الأولى يكون أهدأ وأقل بكاءً لو نام إلى الجانب الأيسر لأمه، أما إن نام إلى الناحية اليمنى، فهو يستيقظ في فترات قصيرة متقطعة وينخرط في البكاء.

ويُلاحظ أن هذه الدراسة تتناول الأطفال البيض والسود دون تفرقة، وقد برهنت في جميع الحالات على أن الطفل، سواء أكان أبيض أو أسود أو هندياً أحمر، يجد مزيداً من الراحة والهدوء إذا رقد إلى الجانب الأيسر لأمه.

وقد أنفقت جامعة كورنيل وقتاً طويلاً في بحث هذا الموضوع إلى أن تم اكتشاف الأشعة التي يسرّت على الأطباء رؤية الجنين في رحم أمه وتصويره، وتعرف باسم (هولوجرافي) وقد تبين من استخدام جهاز (هولوجرافي) أن ضربات قلب الأم تحدث أمواجاً تنتشر في جسمها وتصل إلى سمع الطفل. وبعد أن عرف الأطباء هذه الحقيقة، رغبوا في معرفة الآثار التي تظهر في الطفل عند توقف ضربات قلب الأم، ولا سيما لأن توقف نبض قلب الأم كان معناه الموت للام والطفل معاً، ومن ثم أجري الأطباء تجارب على الحيوانات المَرْضعة، فتبين لهم أن إيقاف نبضات قلب الحيوان الحامل ينعكس على جنينه على الفور، وهي نتيجة تحققت من التجارب التي أجريت على فصائل شتى من الحيوانات، وقطع الأطباء بأن توقف قلب الأم يؤثر تأثيراً مباشراً في الجنين، وبوفاة الأم، يموت الجنين بدوره، لأن الجنين يتغذى من الشريان الأورطي المتصل بقلب الأم ويتأثر بنبضات قلبها، ولو توقف هذا النبض لانقطع الغذاء عن الجنين ولمات في بطن أمه.

وقد استنتج الأطباء من هذه التجارب أنَّ الجنين لا يعتاد سماع ضربات قلب أمه وحسب، بل إنَّ حياته ترتبط أيضاً بهذه الضربات وبالدفء الذي تُشيعه، فإن توقفت الضربات انقطع الغذاء عن الجنين ومات.

ولأنَّ الطفل قد اعتاد على سماع ضربات قلب أمه منذ ما كان جنيناً في الرحم، فهو يرتبط بأمه ويتعلّق بها ويشعر بهدوءٍ وراحةٍ بالقرب من نبضات قلبها، وهذا هو السرّ في أنَّ حمل الطفل من ناحية الأم اليسرى يجعله أكثر اطمئناناً وهدوءاً، وهو ما يفتقر إليه الجانب الأيمن للام.

ولولا جهود المعهد العلمي الجامعي الذي أسسته جامعة كورنيل في دراسة أوضاع الطفل ومشكلاته الصحية والنفسية وأسباب الرعاية السليمة التي تُتاح له في أيامه الأولى، لما عرفنا أهمية النظرية التي ساقها الإمام جعفر الصادق عليه السلام في هذا المقام، ومؤداها أنَّ الرضاعة السليمة تقتضي من الأم توسيد طفلها إلى جانبها الأيسر لا إلى الأيمن.

وقد ارتأى مركز الولادة ورعاية الطفل التابع لجامعة كورنيل تجهيز جميع فروعه ووحداته بجهازٍ يُوضع في غرفة الأطفال الحديثي العهد بالولادة، ومهمته بثّ صوتٍ شبيهٍ بنبضات قلب الأم، وزوّدت أيسرة الأطفال بجهازٍ مهمته نقل صوت هذه الضربات إليهم.

ومعروف أنَّ قلب الشخص البالغ السليم يدق عادةً ٧٢ مرة في الدقيقة، ومن التجارب التي أجريت على الأطفال زيادة عدد نبضات القلب إلى ١٢٠ نبضة في الدقيقة، فكان من أثر ذلك انزعاج الأطفال وارتفاع عقائثرهم بالبكاء، فإن أعيدت النبضات إلى وضعها الطبيعي، وهو ٧٢ دقة في الدقيقة، كفّ الأطفال عن البكاء. وقد جُربت هذه التجربة وأعيدت في مراكز الرضاعة مرّاتٍ كثيرة، فكانت نتيجتها واحدة.

وهناك تجربة أخرى أجريت على الأطفال الرضع، فقد وُضعت مجموعة منهم في غرفة بها جهاز يقلّد ضربات قلب الأم بحيث يسمعه الأطفال، ووضعت مجموعة أخرى في غرفة يخيم عليها الهدوء، وليس فيها جهاز كهذا. فأتضح للأطباء أن الأطفال الذين تضمّنهم المجموعة الأولى، وهم الذين يسمعون صوت النبضات، يزيد وزنهم بسرعة تفوق سرعة الوزن لدى أطفال المجموعة الثانية.

وقد قام الدكتور (لي سولك) وهو طبيب متخصص في طب الأطفال في معهد كورنيل الجامعي بجولة حول العالم لدراسة التقاليد التي تجري عليها الشعوب والأمم في إرضاع الطفل ورعاية الطفولة، وكتب في تقريره يقول إنه رأى في مناطق شتى من العالم أمهات يحتضن أطفالهنّ في الجانب الأيسر، وذلك أثناء نهوضهن بأعمالهن أو عند عبور الطرق.

كما لاحظ أنّ معظم الأمهات اللاتي يحتضن أطفالهنّ من الناحية اليمنى هن عسراء (أي يستخدمن من أيديهن اليسرى).

وما قاله الدكتور (لي سولك) في تقريره إنه سأل عدداً من الأمهات عن سبب حملهنّ لأطفالهنّ من الناحية اليسرى وإرضاعهنّ لهم في هذا الوضع، فلم تستطع الأمهات تعليل ذلك ولا خطر ببال إحداهن أن تقول للدكتور سولك بأنّ الطفل يأنس بسماع صوت القلب عندما تحمله أمه من الناحية اليسرى، وهو الصوت الذي ألفه منذ أن كان جنيناً في الرحم.

وروى الدكتور سولك أنّ بعضاً من الأمهات قلنّ له إنّ أطفالهنّ يستيقظون في جُحج الليل ويبكون طلباً للطعام، ولا يجدون مشقة في الاهتداء في الظلام على الثدي الأيسر دون مساعدة من الأم، ولم تستطع الأمهات تعليل هذه الظاهرة، فقام الدكتور سولك من ناحيته بتعليلها، قائلاً

لهنَّ إنّ الطفل يهتدي على الشدي الأيسر بسماعه ضربات قلب الأم، ولا
تعليل سوى ذلك لهذه الظاهرة.

حركة الموجودات في رأي الصادق عليه السلام

للإمام جعفر الصادق عليه السلام نظرية باهرة أخرى تتعلق بحركة الأجسام، مؤداها أن لكل شيء حركة، وإن كان من الجماد، ولكن أعيننا لا ترى هذه الحركة.

وإذا كان هذا الرأي قد بدا غير معقول في أيام الصادق عليه السلام فهو قد أصبح اليوم حقيقة علمية مقررة لا سبيل إلى الشك فيها، إذ قد ثبت علمياً بأنه لا يوجد جسم أو عنصر في العالم إلا وله حركة، وإن من المستحيل تصوّر جسم معدوم الحركة.

وهذا الرأي الذي ساقه الإمام الصادق عليه السلام قبل اثني عشر قرناً ونصف قرن، هو من مبتدعاته التي سبق بها عصره، وقد أضاف إليه قوله إن توقف الحركة معناه موت بني البشر، وقال أيضاً أن الحركة تستمر حتى بعد الموت، ولكنها تتخذ شكلاً آخر. ولولا الحركة، لما بليت الأجسام وصارت رميمًا.

ولا يحس الإنسان بمرور الزمن ولا يدرك كنهه إلا من خلال الحركة، فإن توقفت الحركة في الكون فقدنا الإحساس بمرور الزمن.

ومن هذا القبيل عينه إحساسنا بالمكان، إذ أننا نستمدّ هذا الإحساس من الحركة ولولاها لما استطعنا معرفة الأبعاد الثلاثة وتعيين المكان.

وهناك نوعان من الحركة المستمرة داخل كل جسم جامد، هما الحركة داخل الذرة، وقد سبق الحديث عنها في الفصول المتقدمة حيث أوضحنا أن الإلكترون يدور في فلك نواة الذرة ثلاثة كاتربليون مرة في كل ثانية، والحركة المتعلقة ببذبات واهتزازات الجزيئات، فالجزيء في كل مادة يهتز اهتزازات متفاوت عددها بين الصفر وعشرة تريليون مرة في كل ثانية تبعاً للبرودة أو الحرارة أو عند انتقال من حالة إلى أخرى^(١).

يصف الكاتب المسرحي الفرنسي مولر الذي أسس «الكوميدي فرانسيز» بطل إحدى مسرحياته بقوله «إنه بلا حركة، ولكنه حي»، أي أن الدهشة عرته إذ وجد شخصاً حياً ولكنه منعدم الحركة، ولكن هذه الملاحظة الساخرة من جانب مولر لا تثير السخرية في يومنا هذا، لأن الحركة موجودة ومستمرة في الإنسان وفي الأشياء حتى بعد الموت، كما أثبت ذلك العلم الحديث، وهو هو نفسه الذي قال به الإمام جعفر الصادق عليه السلام عندما أكد أن الحركة باقية وأن الإنسان وكل الأشياء سائرة على الخالق الفاطر وأن الإنسان باقٍ ما بقي الدهر، وإن كانت ذرات جسمه تتغير وتحول على طاقةٍ دون أن تفقد الحركة التي تلازمها وتحرك معها.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن كل شيء يرجع إلى الله وينجذب على خالقه».

كانت هذه النظرية تُعتبر إلى عهد قريب فكرة عرفانية ونظرية فلسفية لا نظرية علمية، فقد فسر العرفاء المسلمون الغاية من مصير الإنسان بأنها الرجوع إلى الله.

(١) ينبغي عدم الخلط بين الجزيء والذرة، فالجزيء هو أصغر جزء في المادة، وله جميع خواصها الفيزيائية والكيميائية، بحيث أن تقسم الجزيء يفقده هذه الخواص، ويتألف الجزيء من عدد من الذرات، وعند اهتزاز الجزيئات يتحول جامدها إلى سائل ثم إلى غاز، وكلما زادت الأجسام دفئاً أو حرارة زاد عدد اهتزازات الجزيئات في الجسم. (المترجم).

وبمرور الزمن، ووقوف العرفاء المسلمين على آراء الملل الأخرى، طرأت لهم فكرة جريئة أخرى بشأن يوم المعاد أو الرجوع إلى الله مؤذاها - كما سبق أن أوضحنا - أن المخلوق يرجع على الخالق ويتحد به، وقد عُرفت هذه الفكرة باسم «وحدة الوجود» وشاعت لدى العرفاء في الشرق والغرب، فلما جاء الفيلسوف الهولندي البرتغالي الأصل اسبينوزا^(١)، أرسى نظريته الفلسفية على أساس وحدة الوجود.

ومحصل فكرة وحدة الوجود أن جميع ما في الكون من عناصر وكائنات، ومنها الإنسان، إنما هي مظهر من مظاهر وجود الله. وبانتشار مؤلفات اسبينوزا في منتصف القرن السابع عشر الميلادي، انتشرت هذه الفكرة في الغرب بعدما كانت منتشرة كفكرة عرفانية في الشرق.

وقد تعرّض اسبينوزا للتكفير واتّهامه بالهرطقة، فجُمعت كتبه من المكتبات والمطابع، وانصرفت عنها دور الطباعة خوفاً من سطوة السلطات الدينية وبطشها.

ومع أن حرية الرأي والبحث التي دعت إليها مدرسة الإمام جعفر الصادق عليه السلام قد أخذت تنتشر في ربوع الشرق، فإن دُعاة نظرية وحدة الوجود لم يجروا على المجاهرة برأيهم السافر، لأن الخلفاء والحكام كانوا في بعض الأحيان يوقعون عقوبات صارمة على الداعين إلى هذه الفكرة، فمن نجا منهم من مصير القتل لم ينج من تكفير العلماء ورجال الدين، وصار شأنه كالمصاب بالجذام الذي يفرّ منه الناس، بل شراً من ذلك، لأن

(١) اسبينوزا Spinoza فيلسوف يهودي هولندي من أصل برتغالي ولد عام ١٦٣٣م. وتوفي عن أربعة وخمسين عاماً سنة ١٦٧٧م. ولما شاعت نظريته حول وحدة الوجود، فهجرته أسرته، وأصبح وحيداً وهو في حوالي الأربعين من عمره، فاضطر إلى الاشتغال ببيع الخضار والفاكهة ليقوم أوده، وقد نصح بالتوبة والرجوع عن عقيدته الفلسفية لكي يعود إلى منصبه العملي في الجامعة فرفض وعاش في خصاصة إلى أن مات.

المصابين بالجذام كانوا يودعون في دار للرعاية خارج المدينة بعيداً عن المجتمع، وكانت تخصص لهم في بعض الأحيان مزارع يعيشون فيها بمنأى عن الناس، حيث يزاولون حياتهم الطبيعية.

أما الذين يُحكم عليهم بالتكفير، فهؤلاء لم يكونوا يجدون شفقة من أحد، ولا كانوا يُؤمنون على عمل يرتزقون منه، فإن كان الكافر تاجراً قاطعه الناس، وإن كان ذا حرفة لم يجد من يستعين به في أي مهمة، فإن خرج من بيته ضايقه الناس حتى يضطر في آخر الأمر على الاعتزال أو ترك الدار أو الهجرة إلى حيث لا يعرفه أحد.

وتلقاء ذلك، كان من الطبيعي لدعاء فكرة وحدة الوجود أن يتحدثوا عنها لا تصريحاً بل تلميحاً وبرموز وإشارات وعبارات ملتوية لئلا يُفتضح أمرهم ويكون جزاؤهم التكفير على أيدي رجال الدين.

ومن هنا توسلوا إلى التعبير عن المعاني العرفانية والصوفية باستخدام مصطلحات مادية مثل الخمر والخمار والساقى والكأس والحبيب والمُدّامة والشراب وما إلى ذلك، وانتقلت هذه المصطلحات إلى الشعر الذي نظمته الصوفيون، فأصبح لهذا الشعر من المعاني الظاهرة ما يختلف عن معانيه الباطنة التي يدركها الصوفيون والعرفاء وحدهم، وبهذه الكيفية استطاعوا أن يجتنبوا توجيه تهمة الكفر إليهم، وأن ينجوا من عقاب الحكّام.

والمعروف أن التفكير الصوفي أخذ ينمو وينتشر في المجتمع الإسلامي منذ القرن الثالث للهجرة، وكان الصوفيون والعرفاء في هذه الفترة يؤولون كلام الصادق عليه السلام ومؤذاه أن كل شيء منجذب إلى ربه وخالقه، بأن المقصود منه هو اندماج الوجودين في وحدة، في حين أن جعفرأ الصادق عليه السلام لم يؤمن بوحدة الوجود، ولا قال بها، وكان من رأيه أن الإنسان هو صنيع الخالق ومخلوقه طبعاً للعقيدة الإسلامية، لأن الله هو خالق كل شيء، وكل شيء راجع إليه.

وعندما وُضعت للعلوم تعريفات خاصة بكل منها في عصور متأخرة، اعتبرت الفلسفة والعرفان من جملة هذه العلوم، وُعت نظرية الإمام الصادق عليه السلام القائلة بأن كل شيء منجذب على ربه بأنها نظرية عرفانية لا علمية.

وقد أثبتت العلوم في يومنا هذا أن نظرية الصادق عليه السلام قريبة من الحقيقة العلمية الملموسة، وإن كان من السابق لأوانه أن نقطع بأن جميع الأشياء منجذبة إلى شيء واحد (أو بعبارة الصادق: كل الأشياء منجذبة إلى الله).

ومن الثابت أن الموجات التي تنطلق من الإلكترون تتجه إلى ناحية واحدة، ولا تتبثر في كل اتجاه إلا إذا كانت للموجات خاصية مغناطيسية فعندئذ تكون الموجات كهروطيسية وتنتشر في كل اتجاه وهذه الموجات الكهروطيسية هي التي تستخدم في البث الإذاعي والتلفزيوني. والمثال الحي على أن الإلكترون ينطلق في اتجاه واحد، هو عقرب البوصلة الذي نراه إلا متجهاً ناحية الشمال حيث يوجد المجال المغناطيسي للقطب الشمالي.

والبوصلة اختراع اهتدى إليه المسلمون^(١) وانتفع به في الرحلات البحرية انتفاعاً عظيماً، ولولاه لما استطاع البحار البرتغالي فاسكو دو غاما أن يتجه من رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا إلى الهند، ولما استطاع كريستوف كولمبوس الإيطالي أن يكتشف أمريكا في هذه الفترة عينها، ولما استطاع ماجلان البرتغالي أن يطوف بسفينته حول العالم ويثبت كروية الأرض بطريقة علمية.

(١) يُعزى اختراع البوصلة إلى الصينيين في عام ٢٦٣٦ ق.م.، ولكن المسلمين نقلوها من الصين وأدخلوها عليها تحسينات واستخدموها، ثم أخذها الأوروبيون من البحارة المسلمين، ولهذا اشتهر هذا الجهاز في أوروبا بأنه من صنع المسلمين. (دائرة المعارف البريطانية).

وما زالت البوصلة إلى هذا اليوم جهازاً من أهم الأجهزة في السفن والطائرات والنفاثات الجوية، صحيح أنّ الطائرات تظلّ على اتصال دائمٍ بأبراج المراقبة في المطارات، ولكنها مع ذلك لا تستطيع الاستغناء عن البوصلة.

والبروفيسور (داش) الأستاذ بجامعة واشنطن الأمريكية وهو من أبرز علماء الفيزياء والفلك في الولايات المتحدة الأمريكية، قد وضع نظريةً عمليةً بشأن الكون لو أقيمت عليها البراهين التجريبية لجاءت معززةً لنظرية الصادق عليه السلام بشأن انجذاب الأشياء أو رجوعها إلى الخالق.

ومعروفٌ أن شُغل العلماء الشاغل منذ القرن التاسع منصرفٌ إلى محاولة تحديد معالم الكون وتحديد الحركة التي تجري فيه، ولكن الأمر حتى الآن لا يعدو كونه نظريات مجرّدة.

وقد استطاع العلم أن يُثبت صحّة بعض النظريات المتعلقة بالكون والكائنات، مثل قانون دوران السيارات حول كرة الشمس وما إلى ذلك، واكتشفت هذه القوانين في معظمها قبل القرن التاسع عشر الميلادي.

ولكن كل ما قيل حتى اليوم عن هيئة الكون وحركاته (باستثناء ما تمّ رصده بالمراقب الفلكية) لا يخرج عن نطاق النظريات المجرّدة.

ومن ذلك مثلاً أنّ نظرية النسبية لأينشتاين لم تثبت بالتجريب العملي إلاّ ما يتعلق بانحراف شعاع الضوء عند اقترابه من كتل الجاذبية أو اصطدامه بها.

ويذهب مؤيدو نظرية النسبية لأينشتاين على أنّ هذه النظرية إنما تستند إلى معادلة رياضية، وأنّ المعادلات الرياضية لا سبيل إلى الشك فيها (كالقول مثلاً بأنّ حاصل ضرب 2×2 هو ٤، أو أنّ حاصل قسمة ٢٠ على

٥ هو ٤)، ولكنّ المعادلات الرياضية شبيهة إلى حدّ كبير بميزان القبانى، فإذا تعادلت كفتا الميزان، ثبت الشاهين في وضع عمودي عند خطّ الوسط، لا يميل يمنة ولا يسرة، دليلاً على أنّ الكفتين متساويتان، ولكنّ وقوف هذا المؤشر عند خط الوسط، وإن دلّ على تساوي الكفتين، لا يدلّ على الوزن الذي تحمله كلّ كفة منهما، ولا على السلعة الموضوعة في هذه الكفة أو تلك، وهل هي من الفحم أو من الذهب.

وقد عاشت النظريّات الرياضية وهي تتمتع بتصديق الناس وثقتها، واعتبرت نظرية أينشتاين حقيقة ثابتة لا تقبل الشكّ. ومع ذلك، فقد تبين بعد اختراع أجهزة الرصد الكهروضوئية أنّ هناك أجراماً سماويةً تبعد عن الكرة الأرضية بمسافة ٩ آلاف مليون سنة ضوئية في حين أنّ أينشتاين حسب قطر العالم بثلاثة آلاف مليون سنة ضوئية.

وكما سبق أن ذكرنا، فإنّ علماء الفلك الأمريكيين عاكفون على صنّع جهاز راديو تلسكوبي جديد قوامه ٢٧ هوائياً راديو تلسكوبياً، على هيئة حرف ه في اللغة الإنكليزية، وبين كل طرف من أطراف هذا الحرف مسافة ٢١ كليومتراً، ولهذا الجهاز مجالّ تعمل فيه الهوائيات الراديو تلسكوبية قطره ٣٠ كيلومتراً.

وعند استكمال هذا الجهاز لا يستبعد أن تتغيّر جميع النظريات الخاصّة بالكون، إذ سيكون في مقدوره رصد عوالم أوسع ممّا أمكن رصده حتّى اليوم.

والأمر الذي لا شك فيه، هو ما ذهب إليه أينشتاين من تحديد قطر الكون ليس صحيحاً، إذ أنّ العلم قد أثبت خلاف ذلك.

ومحصّل نظرية البروفسور (داش) أستاذ الفيزياء والفلك المذكور بجامعة واشنطن، أنّ أجهزة الرصد الراديو تلسكوبية قد غيّرت المعارف

البشرية بشأن النجوم، إذ تبين للعلماء أن هناك أجراماً سماويةً من نوع المجرة تتحرك في اتجاه نقطة ما بسرعة تفوق سرعة الضوء، وأن منها ما تفوق سرعته سرعة الضوء بخمسة وتسعين مرة^(١).

وتتحرك هذه الأجرام كيفما اتفق، مما يؤكد أنها لا بُد أن تلتقي في نقطة الهدف، ويصطدم بعضها ببعض الآخر. وليس من سبيل للتكهّن بما يكن أن يؤدي إليه هذا التصادم، وهل يولد طاقةً أو طوفاناً من الأمواج يضطرد ويمضي إلى نهاية الكون، وهل تنشأ عن هذا التصادم عوالم أخرى تخضع لقوانين خاصة بها.

ولم يحدّد البروفسور (داش) لا زمان تصادم هذه الأجرام التي تنطلق بهذه السرعة الفائقة لا ومكانه، ولا استطاع أن يبين خط سير هذه الأجرام لسبب بسيط هو أنها تنحرف أمام الكتل ذات الجاذبية الشديدة التي تجذبها إليها. ولكنه قال إن المدارات التي تسير فيها هذه الكتل تشع بحيث يصعب على أجهزة الكمبيوتر تحديد اتجاهها أو مقارنة بعضها ببعض الآخر أو تحديد نقطة التقائها.

فإن صحت هذه النظرية، وكانت هناك فعلاً كتل لها قوة جاذبية شديدة تعترض سير المجرات، فمعنى ذلك أن هذه الكتل تتكوّن من مادةٍ تستطيع التمتع بهذه القدرة الفائقة على الجاذبية.

بقيت مشكلةً في هذه النظرية، وهي أن المجرات أجرام وعناصر مادية، فكيف يتأتى للمادة أن تتحرك بهذه السرعة؟

يقول (داش) إن الأجرام السماوية التي تنطلق بهذه السرعة هي من

(١) أن السرعة التي تفوق سرعة الضوء بخمسة وتسعين مرة تساوي ٢٨٥ ألف كيلومتر في الثانية، وهي سرعة لا يسع مادة أو جسم أن ينطلق بها إلا إذا كان ضرباً من ضروب الموجات. (المترجم).

الحالة الرابعة للمادة التي تُعرف باسم (البلازما)، أما الحالات الثلاث الأخرى التي كانت معروفةً من مدة غير قصيرة فهي الحالات الجامدة والسائلة والغازية، وقد أُضيفت إليها هذه الحالة الرابعة وهي (البلازما).

ومع ذلك، يقول علماء الفيزياء إنَّ البلازما لا تستطيع بدورها أن تنطلق بهذه السرعة، وإلاَّ فقدت كيائها، وتحولت إلى موجات.

يؤخذ ممَّا تقدّم وفقاً لنظرية البروفيسور (داش) أنَّ الأجرام السماوية الشديدة البُعد عن منظومتنا تسير بسرعة فائقةً نحو نقطة غير معلومة لنا، وهذا يدل على أنَّ المجرة أو المجموعة التي تضمُّها منظومتنا الشمسية والمجرات الأخرى تسير بدورها في اتجاه تلك النقطة عينها.

فإن أمكن تأكيد هذه النظرية، برهنت بطريقةٍ عمليةٍ على صدق نظرية الإمام جعفر الصادق عليه السلام القائلة إنَّ كلَّ شيءٍ مُنجذب إليه، وكلَّ شيءٍ يرجع إلى الله. بينما البروفيسور (داش) يقول إنَّ كلَّ شيءٍ مُنجذبٍ إلى نقطة واحدةٍ أو مركز واحد.

فلا فرق بين نظرية داش (لو ثبتت علمياً) ونظرية الصادق عليه السلام إلاَّ في العبارات والألفاظ، فالانجذاب في رأي الصادق عليه السلام هو انجذابٌ إلى الله، وهو في رأي داش انجذابٌ إلى مركزٍ واحد^(١).

وتختلف نظرية (داش) عن نظرية (آبه لمتر)^(٢) الأستاذ بجامعة لوون ببلجيكا التي تتعلّق بسعة الكون، وقد سبق عرضها في الفصول المتقدمة، ومؤداها أنَّ الأجرام والمجرات السماوية تنطلق في اتجاه السعة الكونية. ومعروفٌ أن الفترة التي عاش فيها (آبه لمتر) قبيل الحرب العالمية الثانية

(١) الله سبحانه وتعالى في رأي الصادق عليه السلام ليس له مكان محدد فهو في كل مكان ولا يحده حد ولا يوجد في مكان فما من مركز لله سبحانه...

(٢) آبه لمتر عمل قبل الحرب العالمية الثانية أستاذاً للرياضيات والفلك بجامعة لوون في بلجيكا. (المترجم).

كان حظها من المراصد الفلكية، الأجهزة الاعتيادية التقليدية، إذ أن المراقب الراديوتلسكوبية وأجهزة الكمبيوتر لم تكن قد لعبت بعد دورها الضخم في عصر الفضاء، وفي رصد الأجرام البعيدة، وحساب سرعة حركتها، وحل المعادلات الرياضية المعقدة بدقة وسرعة. وكان علماء الفلك والرياضيات في ذلك الوقت يستخدمون عقولهم في إجراء العمليات الحسابية المتعلقة بالفضاء وبسرعة السيارات التي تدور فيه.

ومع أنه أصبح من الميسور الآن متابعة حركة الأجرام السماوية وحساب سرعتها بالأجهزة العصرية المتقدمة، ومع أن بين أيدي العلماء فعلاً نظرية (دأش) المتعلقة بحركة العالم صوب مركز معين، إلا أننا لا نستطيع إنكار نظرية (آب لمتر)، كما أن نظرية (دأش) لم تتحقق علمياً حتى الآن.

وتشمل نظرية (دأش) هذه على نقطتين غامضتين، هما:

أولاً: كيف يتأتى للمادة أن تتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء ٩٥ مرة؟ فالرد أن المجرات التي تسير بهذه السرعة ليست مادة، وإنما هي بلازما كما يقول علماء الفيزياء.

وثانياً: ما هو المركز الذي تتجه صوبه هذه السيارات في سيرها السريع، إن البروفيسور (دأش) لم يورد شيئاً يوضح به هذه النقطة الغامضة.

فإن كانت الجاذبية التي تتحكم في منظومتنا الشمسية تتحكم في العالم الخارجي عن هذه المنظومة، فالذي لا ريب فيه أن المركز الذي تتجه جميع الأجرام والمجرات صوبه هو مركز مادي له جاذبية عظيمة قادرة على اجتذاب المجرات والأجرام السماوية إليه. وإلى يومنا هذا، لم يتسن لأجهزة الرصد الدقيقة اكتشاف هذا المركز المادي الذي تتناهى قوة جاذبيته عن التصور. ومما يزيد الأمر صعوبة أن صاحب النظرية لم يعين هذا المركز الجاذب الذي تتجه إليه الأجرام والمجرات.

في خطبة له عليه السلام يذكر فيها حال الأئمة عليهم السلام وصفاتهم

إنَّ الله عزَّ وجلَّ أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبيِّنا عن دينه، وأبلغ بهم عن سبيل منهاجه، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه، فمن عرف من أئمة محمد عليه السلام وأوجب حقَّ إمامه وجد طعم حلاوة إيمانه، وعلم فضل طلاوة إسلامه^(١)، لأنَّ الله تبارك وتعالى نصب الإمام علماً لخلقه، وجعله حجةً على أهل مواده وعالمه^(٢)، وأبسه الله تاج الوقار، وغشاه من نور الجبار، يمدُّ بسبب إلى السماء، لا ينقطع عنه مواده، ولا ينال ما عند الله إلَّا بجهة أسبابه، ولا يقبل الله أعمال العباد إلَّا بمعرفته. فهو عالم بما يرد عليه من ملابس الدُّجى ومعميات السنن ومشبهات الفتن، فلم يزل الله تبارك وتعالى يختارهم لخلقه من ولد الحسين عليه السلام من عقب كلِّ إمام يصطفيهم لذلك ويجتبيهم ويرضى بهم لخلقه ويرتضيهم، كلَّ ما مضى منهم إمام نصب لخلقه من عقبه إماماً علماً يبتأ، وهادياً نيراً.

أما قيماً وحجةً عالماً، أئمة من الله يهدون وبه يعدلون، حجج الله ودعائه ورعائه على خلقه، يدين بهديهم العباد، وتستهل بنورهم البلاد، وينمو ببركتهم التلاد^(٣)، جعلهم الله حياةً للأنام، ومصاييح الظلام ومفاتيح الكلام ودعائم الإسلام، جرت بذلك فيهم مقادير الله على محتومها.

(١) الطلاوة: الحسن والبهجة والقبول.

(٢) أهل مواده: أي أهل زيادته المتصلة وتكميلاته المتواترة غير المنقطعة.

(٣) التلاد: المال القديم.

فالإمام هو المنتجب المرتضى، والهادي المنتجى^(١) والقائم المرتجى، اصطفاه الله بذلك واصطنعه على عينه في الذر حين ذراه، وفي الرية حين برأه، ظلاً قبل خلق نسمة عن يمين عرشه، محبوباً بالحكمة في علم الغيب عنده، اختاره بعله، وانتجبه لطهره، بقية من آدم عليه السلام وخيرة من ذرية نوح، ومصطفى من آل إبراهيم وسلالة من إسماعيل، وصفوة من عترة محمد عليه السلام لم يزل معرياً بعين الله، يحفظه ويكلؤه بستره، مطروداً عنه حبائل إبليس وجنوده، مدفوعاً عنه وقوب الغواسق ونفوث كل فاسق^(٢)، مصروفاً عنه قوارف السوء^(٣)، مبرزاً من العاهات، محجوباً عن الآفات معصوماً عن الزلات، مصوناً عن الفواحش كلها، معروفاً بالحلم والبر في يفاعه^(٤)، منسوباً إلى العفاف والعلم والفضل عند انتهائه، مسنداً إليه أمر والده، صامتاً عن المنطق في حياته، فإذا انقضت مدة والده إلى أن انتهت به مقادير الله إلى مشيئته، وجاءت الإرادة من الله فيه إلى محبته، وبلغ منتهى مدة والده عليه السلام فمضى وصار أمر الله إليه من بعده، وقلّده دينه، وجعله الحجة على عباد، وقيّمه في بلاده وأيده بروحه، وآتاه علمه، وأنباه فصل بيانه، واستودعه سرّه، وانتدبه لعظيم أمره، وأنباه فضل بيان علمه، ونصبه علماً لخلقه، وجعله حجة على أهل عالمه، وضياء لأهل دينه، والقيّم على عباد، رضي الله به إماماً لهم، استودعه سرّه، واستحفظه علمه واستخبأه حكمته^(٥)، واسترعاه لدينه^(٦) وانتدبه لعظيم خلقه وأحيا به مناهج سبيله وفرائضه وحدوده، فقام بالعدل عند تحيّر أهل الجبر، وتحيير أهل

(١) المنتجى: صاحب السر.

(٢) الوقوب: دخول الظلام، والغاسق الليل المظلم، والنفوث كالنفع.

(٣) القرقة: التهمة.

(٤) في يفاعه: في أوائل سنّه، أبغع الغلام إذا شارف الاحتلام ولم يحتلم.

(٥) استخبأه: أودع عنده وأمره بالكتمان.

(٦) استرعاه: اعتنى بشأنه.

الجدل، بالنور الساطع والشفاء النافع، بالحق الأبلج، والبيان اللائح من كل مخرج على طريق المنهج الذي مضى عليه الصادقون من آبائه عليه السلام، فليس يجهل حقّ هذا العالم إلا شقي ولا يجهدُه إلا غوي ولا يصد عنه إلا جريء على الله جلّ وعلا^(١).

(١) أصول الكافي، ج ١ ص ٢٠٣.



كلامه ﷺ في وصف المحبة «أهل البيت والتوحيد والإيمان والإسلام والكفر والفسق»

دخل عليه رجلٌ فقال ﷺ له: مَنْ الرجل؟ فقال من محبيكم ومواليكم، فقال له جعفر ﷺ: لا يُحِبُّ الله عَبْدٌ حتى يتولاه. ولا يتولاه حتى يُوجِبَ له الجنة. ثم قال له: من أيُّ مُحِبِّينَا أنت؟ فسكت الرجل فقال له سدير^(١): وكم محبوكم يا ابن رسول الله؟ فقال: على ثلاث طبقات: طبقة أحبونا في العلانية ولم يُحبونا في السر. وطبقة يحبونا في السر ولم يحبونا في العلانية. وطبقة يحبونا في السر والعلانية، هم النمط الأعلى^(٢)، شربوا من العذب الفرات وعلموا تأويل الكتاب^(٣) وفصل الخطاب وسبب الأسباب، فهم النمط، الفقر والفاقة وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل^(٤)، مسَّتْهم البأساء والضراء وزلزلوا وفتنوا، فمن بين مجروح ومذبوح متفرقين في كل بلاد قاصية، بهم يشفي الله السقيم ويُعني العديم^(٥) وبهم تُصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون وهم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله

(١) سدير: هو ابن حكيم بن صهيب الصيرفي من أصحاب السجاد والباقر والصادق ﷺ إمامي ممدوح محب لأهل البيت ﷺ - وروي إن سدير وشريد بن عبد الرحمن - كانا في السجن فدعا لهما الإمام الصادق ﷺ فخرجا من السجن - وقال ﷺ: إن سدير عصيدة بكل لون. يعني إنه لا يخاف من المخالفين لالتزامه بالتيقة الواجبة.

(٢) النمط: جماعة من الناس أمرهم واحد.

(٣) تأويل الكتاب: أي تفاسيره وتأويلاته وإشاراته وما المراد به ومصاديق ما جاء فيه من الأوصاف.

(٤) ركض الفرس: أستحثه للعدو.

(٥) العديم: الفقير.

قدرأ وخطرأ. والطبقة الثانية الثمط الأسفل أحبونا في العلانية وساروا بسيرة الملوك، فالستنههم معنا وسيفهم علينا، والطبقة الثالثة الثمط الأوسط أحبونا في السر ولم يحبونا في العلانية ولعمري لئن كانوا أحبونا في السر دون العلانية فهم الصوامون بالنهار القوامون بالليل ترى أثر الرهبانية في وجوههم، أهل سلّم وانقياد.

قال الرجل: فأنا من محبيكم في السر والعلانية. قال جعفر عليه السلام: إن لمحبينا في السر والعلانية علامات يعرفون بها. قال الرجل: وما تلك العلامات؟ قال عليه السلام: تلك خلال أولها أنهم عرفوا التوحيد حق معرفته وأحكموا علم توحيده. والإيمان بعد ذلك بما هو وما وصفته، ثم علموا حدود الإيمان وحقائقه وشروطه وتأويله. قال سدير: يا ابن رسول الله ما سمعتك تصف الإيمان بهذه الصفة؟ قال: نعم يا سدير ليس للمسائل أن يسأل عن الإيمان ما هو حتى يعلم الإيمان بمن. قال سدير: يا ابن رسول الله إن رأيت أن تفسر ما قلت: قال الصادق عليه السلام: من زعم أنه يعرف الله بتوهم القلوب فهو مشرك. ومن زعم أنه يعرف الله بالاسم دون المعنى فقد أقر بالطعن، لأن الاسم محدث. ومن زعم أنه يعبد الاسم والمعنى فقد جعل مع الله شريكاً. ومن زعم أنه يعبد [المعبد] بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب. ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفة غير الموصوف.

ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغر بالكبير ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. قيل له: فكيف سبيل التوحيد؟ قال عليه السلام: باب البحث ممكن وطلب المخرج موجود إن معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفة صفة الغائب قبل عينه. قيل: وكيف نعرف عين الشاهد قبل صفته؟ قال عليه السلام: تعرفه وتعلم علمه وتعرف نفسك به ولا تعرف نفسك بنفسك

من نفسك. وتعلم أن ما فيه له وبه كما قالوا لـيوسف: ﴿أَوَلَمْ نَكْ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾^(١) فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهم القلوب أما ترى الله يقول: ﴿مَا كَانَتْ لَكُمُ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾^(٢) يقول: ليس لكم أن تنصبوا إماماً من قِبَلِ أنفسكم تُسمونه مُحَقّاً بهوى أنفسكم وإرادتكم. ثم قال الصادق عليه السلام: ثلاثة ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُرْكَبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من أنبت شجرة لم يُنبته الله يعني من نصب إماماً لم ينصبه الله، أو جحد من نصبه الله. ومن زعم أن لهذين سهماً في الإسلام. وقد قال الله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَكُمُ الْفِتْنَةُ﴾^(٣) و^(٤).

كلامه في صفة الإيمان

قال عليه السلام: معنى صفة الإيمان. الإقرار والخضوع لله بذل الإقرار والتقرب إليه به والأداء له بعلم كل مفروض من صغير أو كبير من حد التوحيد فما دونه إلى آخر باب من أبواب الطاعة أولاً مَقْرُونٌ ذلك كله بعضه إلى بعض موصول بعضه ببعض، فإذا أدى العبد ما فُرِضَ عليه مما وصل إليه على صفة ما وُصفناه فهو مؤمنٌ مستحقٌ لصفة الإيمان، مُستوجبٌ للثواب وذلك أن معنى جملة الإيمان الإقرار، ومعنى الإقرار التصديق بالطاعة، فلذلك ثَبِتَ أن الطاعة كُلُّهَا صغيرها وكبيرها مقرونة بعضها إلى بعض، فلا يخرج المؤمن من صفة الإيمان إلا بترك ما استحق أن يكون به مؤمناً. وإنما استوجب واستحق اسم الإيمان ومعناه بأداء كبار الفرائض موصولة وترك كبار المعاصي واجتنابها. وإن ترك صغار الطاعة وارتكَب

(١) سورة يوسف، الآية ٩٠.

(٢) سورة النمل، الآية ٦٠.

(٣) سورة القصص، الآية ٦٨.

(٤) تحف العقول، ص ٣٢٥.

صِغَارِ الْمَعَاصِي فَلَيْسَ بِخَارِجٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَلَا تَارِكٌ لَهُ مَا لَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً مِنْ كِبَارِ الطَّاعَةِ وَلَمْ يَرْتَكِبْ شَيْئاً مِنْ كِبَارِ الْمَعَاصِي، فَمَا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهُوَ مُؤْمِنٌ لِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾^(١) يعني المغفرة ما دُونَ الكبائر. فَإِنْ هُوَ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً مِنْ كِبَائِرِ الْمَعَاصِي كَانَ مَأْخُوذاً بِجَمِيعِ الْمَعَاصِي صِغَارِهَا وَكِبَارِهَا مُعَاقَباً عَلَيْهَا مُعَذَّباً بِهَا فَهَذِهِ صِفَةُ الْإِيمَانِ وَصِفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمُسْتَوْجِبِ لِلثَّوَابِ^(٢).

كلامه في (صفة الإسلام)^(٣)

وَأَمَّا مَعْنَى صِفَةِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ الْإِقْرَارُ بِجَمِيعِ الطَّاعَةِ الظَّاهِرِ الْحُكْمِ وَالْأَدَاءِ لَهُ فَإِذَا أَقْرَأَ الْمُقِرُّ بِجَمِيعِ الطَّاعَةِ فِي الظَّاهِرِ مِنْ غَيْرِ الْعَقْدِ عَلَيْهِ بِالْقُلُوبِ فَقَدْ اسْتَحَقَّ اسْمَ الْإِسْلَامِ وَمَعْنَاهُ وَاسْتَوْجَبَ الْوَلَايَةَ الظَّاهِرَةَ وَاجَازَةً شَهَادَتِهِ وَالْمَوَارِيثَ وَصَارَ لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَهَذِهِ صِفَةُ الْإِسْلَامِ، وَفُرَّقَ مَا بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْمُؤْمِنِ أَنَّ الْمُسْلِمَ إِنَّمَا يَكُونُ مُؤْمِناً أَنْ يَكُونَ مُطِيعاً فِي الْبَاطِنِ مَعَ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الظَّاهِرِ. فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ بِالظَّاهِرِ كَانَ مُسْلِماً. وَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ بِالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ بِخُضُوعٍ وَتَقَرُّبٍ يَعْلَمُ كَانَ مُؤْمِناً. فَقَدْ يَكُونُ الْعَبْدُ مُسْلِماً وَلَا يَكُونُ مُؤْمِناً إِلَّا وَهُوَ مُسْلِمٌ.

كلامه في صفة الخروج من الإيمان

وَقَدْ يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ بِخَمْسِ جِهَاتٍ مِنَ الْفِعْلِ كُلِّهَا مُتَشَابِهَاتٍ مَعْرُوفَاتٍ: الْكُفْرُ. وَالشُّرْكُ. وَالضَّلَالُ. وَالْفِسْقُ. وَرُكُوبُ الْكِبَائِرِ.

(١) سورة النساء، الآية ٣١.

(٢) تحف العقول، ص ٣٢٩.

(٣) تحف العقول، ص ٣٢٩.

فمعنى الكُفْر كُلُّ معصية عُصِيَّ الله بِهَا بِجَهَةِ الْجَحْدِ وَالْإِنْكَارِ
وَالِاسْتِخْفَافِ وَالتَّهَؤُنِ فِي كُلِّ مَا دَقَّ وَجَلَّ. وَفَاعِلُهُ كَافِرٌ وَمَعْنَاهُ مَعْنَى كُفْرٍ،
مِنْ أَيْ مِلَّةٍ كَانَ وَمِنْ أَيْ فِرْقَةٍ كَانَ بَعْدَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُ مَعْصِيَةٌ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ،
فَهُوَ كَافِرٌ.

وَمَعْنَى الشَّرْكَ كُلُّ مَعْصِيَةٍ عُصِيَّ الله بِهَا بِالتَّدْيِينِ، فَهُوَ مُشْرِكٌ، صَغِيرَةٌ
كَانَتْ الْمَعْصِيَةُ أَوْ كَبِيرَةً، فَفَاعِلُهَا مُشْرِكٌ^(١).

وَمَعْنَى الضَّلَالِ الْجَهْلُ بِالْمَفْرُوضِ وَهُوَ أَنْ يَتْرَكَ كَبِيرَةً مِنْ كِبَائِرِ الطَّاعَةِ
الَّتِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعَبْدَ الْإِيمَانَ إِلَّا بَعْدَ وَرُودِ الْبَيَانِ فِيهَا وَالِاحْتِجَاجِ بِهَا،
فَيَكُونُ التَّارِكُ لَهَا تَارِكاً بِغَيْرِ جَهَّةٍ الْإِنْكَارِ وَالتَّدْيِينِ بِإِنْكَارِهَا وَجُحُودِهَا وَلَكِنْ
يَكُونُ تَارِكاً عَلَى جَهَّةٍ التَّوَانِي وَالِإِغْفَالِ وَالِاسْتِغْثَالِ بِغَيْرِهَا فَهُوَ ضَالٌّ مُتَنَكِّبٌ
عَنْ طَرِيقِ الْإِيمَانِ، جَاهِلٌ بِهِ خَارِجٌ مِنْهُ مُسْتَوْجِبٌ لِاسْمِ الضَّلَالَةِ وَمَعْنَاهَا مَا
دَامَ بِالصِّفَةِ الَّتِي وَصَفْنَاهُ بِهَا. فَإِنَّ كَانَ هُوَ الَّذِي مَالَ بِهَوَاهُ إِلَى وَجْهِ مِنْ
وَجْهِهِ الْمَعْصِيَةِ بِجَهَةِ الْجُحُودِ وَالِاسْتِخْفَافِ وَالتَّهَؤُنِ كَفَرَ. وَإِنْ هُوَ مَالَ
بِهَوَاهُ إِلَى التَّدْيِينِ بِجَهَةِ التَّأْوِيلِ وَالتَّقْلِيدِ وَالتَّسْلِيمِ وَالرِّضَا بِقَوْلِ الْأَبَاءِ
وَالْأَسْلَافِ فَقَدْ أَشْرَكَ^(٢).

وَقُلَّ مَا يَلْبَثُ الْإِنْسَانُ عَلَى ضَلَالَةٍ حَتَّى يَمِيلَ بِهَوَاهُ إِلَى بَعْضِ مَا
وَصَفْنَاهُ مِنْ صِفَتِهِ.

وَمَعْنَى الْفِسْقِ فَكُلُّ مَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي الْكِبَارِ فَعَلَهَا فَاعِلٌ، أَوْ دَخَلَ
فِيهَا دَاخِلٌ بِجَهَةِ اللَّذَّةِ وَالشَّهْوَةِ وَالشُّوقِ الْغَالِبِ فَهُوَ فِسْقٌ وَفَاعِلُهُ فَاسِقٌ
خَارِجٌ مِنَ الْإِيمَانِ بِجَهَةِ الْفِسْقِ فَإِنْ دَامَ فِي ذَلِكَ حَتَّى يَدْخُلَ فِي حَدِّ التَّهَؤُنِ
وَالِاسْتِخْفَافِ فَقَدْ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ بِتَهَؤُونِهِ وَاسْتِخْفَافِهِ كَافِراً.

(١) هذا نوعٌ مِنَ الشَّرْكِ لَا بِمَعْنَى الْمَصْطَلَحِ الْمَعْرُوفِ.

(٢) كَذَلِكَ هَذَا نَوْعٌ مِنَ الشَّرْكِ.

ومعنى راکبِ الكبائر التي بها يكونُ فسادُ إيمانيه فهو أن يكونَ مُنهماكاً على كبائر المعاصي بغير جحودٍ ولا تدينٍ ولا لذّةٍ ولا شهوةٍ ولكن من جهة الحميّة والغضبِ يكثرُ القَذَفُ والسُّبُّ والقَتْلُ وأخذُ الأموالِ وخَبَسُ الحُقُوقِ وغير ذلك من المعاصي الكبائر التي يأتيها صاحبها بغير جهة اللذّة. ومن ذلك الإيمانُ الكاذبُ وأخذ الرِّبا وغير ذلك التي يأتيها من أتاها بغير استلذاذٍ [و] الخمرُ والزنا واللَّهُوُ ففَاعِلُ هذه الأفعالِ كلها مُفْسِدٌ للإيمانِ خارجٌ منه من جهة رُكُوبِهِ الكبيرة على هذه الجهة، غيرُ مشركٍ ولا كافرٍ ولا ضالٍّ، جاهِلٌ على ما وصفناه من جهة الجهالة. فإن هو مالٌ بهواه إلى أنواعٍ ما وصفناه من حدِّ الفاعلين كان من صنيفه^(١).

كلامه ﷺ في خلق الإنسان وتركيبه

قال ﷺ: عرفان المرء نفسه أن يعرفها بأربع طبائع وأربع دعائم وأربعة أركانٍ. فطبائعه: الدَّمُ والمرّةُ والرَّيْحُ والبلغمُ^(٢)، ودعائمه: العقلُ ومنَ العقلِ الفهمُ والحِفْظُ. وأركائه الثُّورُ والنَّارُ والرُّوحُ والماءُ. وصورته طينته. فأبصرَ بالنُّورِ وأكلَ وشربَ بالنَّارِ وجامعَ وتحركَ بالروح. ووجدَ طعمَ الذُّوقِ والطعامِ بالماءِ فهذا تأسيسُ صورته. فإذا كان تأييدُ عقله من النُّورِ كانَ عالماً حافظاً ذكياً فطيناً فهماً وعرفَ فيما هو ومن أين يأتيه ولأي شيءٍ هو ههنا وإلى ما هو صائراً، بإخلاصِ الوجدانية والإقرارِ بالطاعة وقد تجري فيه النَّفسُ وهي حارةٌ وتجري فيه وهي باردةٌ، فإذا حلت به الحرارةُ أثيرَ وبَطَرَ وارتاح^(٣) وقَتَلَ وسَرَقَ وبَهَجَ واستبَشَرَ وفَجَرَ وزنا وبذخ^(٤). وإذا كانت

(١) تحف العقول، ص ٣٣٠.

(٢) المرّة: خلط من خلط البدن كالصفراء أو السوداء.

(٣) أثير: مريح. بطر: طغى بالنعمة فصرها في غير وجهها؛ وأخذته دهشة عند هجوم النعمة. ارتاح إلى الشيء: أحبه ومال إليه. الارتياح: السرور والنشاط.

(٤) البذخ: الفخر والتناول.

باردة اهتمّ وحزنّ واستكان وذَبَلٌ^(١) ونَسِيٌّ، فهي العوارض التي تكون منها الأسقام ولا يكون أول ذلك إلا بخطيئة عملها فيوافق ذلك من مأكلي أو مشرب في حد ساعات لا تكون تلك الساعة موافقة لذلك المأكلي والمشرب بحال الخطيئة فيستوجب الألم من ألوان الأسقام.

ثم قال عليه السلام بعد ذلك بكلام آخر: إنما صار الإنسان يأكل ويشرب ويعمل بالنار ويسمع ويشم بالريح ويجد لذة الطعام والشراب بالماء ويتحرك بالروح فلولا أن النار في معدته لما هضمت الطعام والشراب في جوفه. ولولا الريح ما التهبت نار المعدة ولا خرج الثقل من بطنه^(٢) ولولا الروح لا جاء ولا ذهب. ولولا برد الماء لأحرقت نار المعدة. ولولا الثور ما أبصر ولا عقل. والطين صورته. والعظم في جسده بمنزلة الشجر في الأرض. والشعر في جسده بمنزلة الحشيش في الأرض. والعصب في جسده بمنزلة اللحاء على الشجر^(٣). والدم في جسده بمنزلة الماء في الأرض. ولا قوام للأرض إلا بالماء ولا قوام لجسد الإنسان إلا بالدم. والمخ دسم الدم وزبده.

فهكذا الإنسان خلق من شأن الدنيا وشأن الآخرة فإذا جمع الله بينهما صارت حياته في الأرض، لأنه نزل من شأن السماء إلى الدنيا، فإذا فرق الله بينهما صارت تلك الفرقة الموت يزد شأن الآخرة إلى السماء. فالحياة في الأرض والموت في السماء وذلك أنه يفرق بين الروح والجسد، فتردت الروح والنور إلى القدرة الأولى وترك الجسد لأنه من شأن الدنيا. وإنما قسد الجسد في الدنيا لأن الريح تنشف الماء^(٤) فييبس الطين فيصير رفاتاً

(١) ذبلت بشرته: قل ماء جلده وذهبت نضارته.

(٢) الثقل: خثالة الشيء وهي ما يستقر في أسفل الشيء من كثرة. المراد هنا النجاسة والعذرة.

(٣) اللحاء: قشر العود أو الشجر.

(٤) نشف الماء: أخذه من مكانه وتنشف الثوب العرق: شربه.

وَيُبْلَى وَيُرَدُّ كُلُّ إِلَى جَوْهَرِهِ الْأَوَّلِ وَتَحَرَّكَ الرُّوحُ بِالنَّفْسِ وَالنَّفْسُ حَرَكَتُهَا مِنَ الرِّيحِ، فَمَا كَانَ مِنَ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ فَهُوَ نَوْرٌ مُؤَيَّدٌ بِالْعَقْلِ. وَمَا كَانَ مِنَ نَفْسِ الْكَافِرِ فَهُوَ نَارٌ مُؤَيَّدٌ بِالنِّكَرَاءِ^(١) فَهَذَا مِنْ صُورَةِ نَارِهِ وَهَذَا مِنْ صُورَةِ نُورِهِ وَالْمَوْتُ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِعَبِيدِهِ الْمُؤْمِنِ وَنِقْمَةٌ عَلَى الْكَافِرِ.

وَلِلَّهِ عَقُوبَتَانِ إِحْدَاهُمَا مِنَ الرُّوحِ وَالْأُخْرَى تَسْلِيْطُ النَّاسِ بَعْضُ عَلَى بَعْضٍ، فَمَا كَانَ مِنْ قِبَلِ الرُّوحِ فَهُوَ السُّقْمُ وَالْفَقْرُ. وَمَا كَانَ مِنْ تَسْلِيْطٍ فَهُوَ الثَّقَمَةُ وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ قَوْلِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢) مِنْ الذُّنُوبِ. فَمَا كَانَ مِنْ ذَنْبِ الرُّوحِ فَعُقُوبَتُهُ بِذَلِكَ السُّقْمُ وَالْفَقْرُ. وَمَا كَانَ مِنْ تَسْلِيْطٍ فَهُوَ الثَّقَمَةُ. وَكُلُّ ذَلِكَ عَقُوبَةٌ لِلْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابٌ لَهُ فِيهَا. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَنِقْمَةٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَسُوءُ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِذَنْبٍ وَالذَّنْبُ مِنَ الشَّهْوَةِ وَهِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِ خَطَأٌ وَنِسْيَانٌ وَأَنْ يَكُونَ مُسْتَرْكَباً وَمَا لَا يُطِيقُ. وَمَا كَانَ مِنَ الْكَافِرِ فَعَمْدٌ وَجُحُودٌ وَاعْتِدَاءٌ وَخَسَدٌ وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾^(٣) وَ^(٤).

فِي كَلَامِ لَهُ ﷺ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ حَسْرَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

قَالَ الصَّادِقُ ﷺ: وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا حَسْرَةُ^(٥) رَجُلٍ جَمَعَ مَالاً عَظِيماً بِكَدٍّ شَدِيدٍ وَمُبَاشَرَةِ الْأَهْوَالِ وَتَعَرُّضِ الْأَخْطَارِ، ثُمَّ أَفْنَى مَالَهُ صَدَقَاتٍ وَمِيرَاثاً، وَأَفْنَى شَبَابَهُ وَقُوَّتَهُ عِبَادَاتٍ وَصَلَوَاتٍ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَرَى لِعَلْمِي ابْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ حَقَّهُ وَلَا يَعْرِفُ لَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ مَحَلَّهُ، وَتَرَى أَنَّ مِنْ لَا

(١) النِّكَرَاءُ: الدَّهَاءُ وَالْفُطْنَةُ بِالنِّكَرِ وَالشَّيْطَانَةِ.

(٢) سُورَةُ الْأَنْعَامِ، آيَةُ ١٢٩.

(٣) سُورَةُ الْبَقَرَةِ، آيَةُ ١٠٩.

(٤) تَحْفُفُ الْعُقُولُ: ص ٣٥٤.

(٥) قَالَ عَلِيٌّ ﷺ بَعْدَ كَلَامٍ طَوِيلٍ: إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ حَسْرَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ رَأَى مَالَهُ فِي مِيزَانٍ غَيْرِهِ أَدْخَلَ اللَّهُ هَذَا فِي الْجَنَّةِ، وَأَدْخَلَ هَذَا فِي النَّارِ. فَقُلِيَ هَذَا الْكَلَامُ قَالَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ ﷺ وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا... إلخ.

بعشرة ولا بعشر عشير معشاره أفضل منه يوافق على الحجج فلا يتأملها ويحتج عليه بالآيات والأخبار فيأبى تمادياً في غيّه، فذلك أعظم من كلّ حسرة، يأتي يوم القيامة وصدقاته ممثلة في مثال الأفاعي تنهشه، وصلاته وعبادته ممثلة له في مثل الزبانية تدفعه حتى تدعّه إلى جهنم دعاً تقول: يا وليّ ألم ألك من المصلّين، ألم ألك من المزكّين، ألم ألك عن أموال الناس ونسائهم من المتعففين، فلماذا ذهبت بما ذهبت فيقال له: يا شقي ما ينفعك ما عملت وقد ضيّعت أعظم الفروض بعد توحيد الله والإيمان بنبوّة محمّد ﷺ، ضيّعت ما لزمك من معرفة حقّ عليّ وليّ الله والتزمت ما حرّمه الله عليك من الإثتمام بعدوّ الله، فلو كان لك بكلّ أموال الدنيا بل بملء الأرض ذهباً لما زادك ذلك من رحمة الله إلّا بُعداً ومن سخط الله إلّا قرباً^(١).

(١) تنبيه الخواطر «مجموعة وزام»، ج ٢ ص ٤١٥.



الفصل التاسع

مكاتيبه ورسائله





رسالته ﷺ إلى جماعة من شيعته وأصحابه

أما بعد فاسألوا الله ربكم العافية وعليكم بالدعة^(١) والوقار والسكينة؛ وعليكم بالحياء والتنزّه عما تنزّه عنه الصالحون قبلكم؛ وعليكم بمجاملة أهل الباطل، تحمّلوا الضيم منهم، إناكم ومماظنتهم^(٢)، دينوا فيما بينكم وبينهم إذا أنتم جالستمهم وخالطتمهم وناعتمهم الكلام فإنه لا بدّ لكم من مجالستهم ومخالطتهم ومنازعتهم الكلام بالتقيّة التي أمركم الله أن تأخذوا بها فيما بينكم وبينهم، فإذا ابتليتم بذلك فهم سيؤذونكم وتعرفون في وجوههم المنكر ولولا أن الله تعالى يدفعهم عنكم لسطوا بكم^(٣)، وما في صدورهم من العداوة والبغضاء أكثر مما يبدون لكم، مجالسكم ومجالسهم واحدة وأرواحكم وأرواحهم مختلفة لا تأتلف لا تحبّونهم أبداً ولا يحبّونكم، غير أن الله تعالى أكرمكم بالحق وبصركموه ولم يجعلهم من أهله فتجاملونهم وتصيرون عليهم ولا مجاملة لهم ولا صبر لهم على شيء من أموركم، تدفعون أنتم السيئة بالتي هي أحسن فيما بينكم وبينهم تلتمسون بذلك وجه ربكم بطاعته وهم لا خير عندهم. لا يحل لكم أن تظهروهم على أصول دين الله، فإنه إن سمعوا منكم فيه شيئاً عادوكم عليه ورفعوه عليكم^(٤). واجاهدوا على هلاكهم واستقبلوكم بما تكرهون، ولم

(١) الدعة: خفض العيش والطمأنينة.

(٢) المجاملة: المعاملة بالجميل. والضميم: الظلم. والمماظة: شدة المنازعة.

(٣) السطو: القهر بالبطش.

(٤) رفعوه عليكم: أي رفعوه إلى ولائهم لينالكم الضرر منهم.

يكن لكم النصف منهم في دولة الفجار، فاعرفوا منزلتكم فيما بينكم وبين أهل الباطل، فإنه لا ينبغي لأهل الحق أن ينزلوا أنفسهم منزلة أهل الباطل، لأن الله لم يجعل أهل الحق عنده بمنزلة أهل الباطل، ألم تعرفوا وجه قول الله تعالى في كتابه إذ يقول: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَلِمَاتُ الْغُلَامِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾^(١). أكرموا انفسكم عن أهل الباطل، فلا تجعلوا الله تعالى - وله المثل الأعلى - وإمامكم ودينكم الذي تدينون به عرضة لأهل الباطل فتغضبوا الله عليكم فتهلكوا فمهلاً مهلاً يا أهل الصلاح لا تتركوا أمر الله وأمر من أمركم بطاعته فيغير الله ما بكم من نعمه. أحبوا في الله من وصف^(٢) صفتكم، وابغضوا في الله من خالفكم وابدلوا مودتكم ونصيحتكم لمن وصف صفتكم، ولا تبذلوها لمن رغب عن صفتكم وعاداتكم عليها وبغا لكم الغوائل^(٣). هذا أدبنا أدب الله فخذوا به وتفهموه واعقلوه ولا تنبذوه وراء ظهوركم، ما وافق هداكم أخذتم به وما وافق هواكم طرحتموه ولم تأخذوا به. إياكم والتجبر^(٤) على الله، واعلموا أن عبداً لم يبتل بالتجبر على الله إلا تجبر على دين الله، فاستقيموا لله ولا ترتدوا على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين؛ أجازنا الله وإياكم من التجبر على الله ولا قوة لنا ولا لكم إلا بالله. وقال: إن العبد إذا كان خلقه الله في الأصل أصل الخلقة مؤمناً لم يمت حتى يكره الله إليه الشر ويباعده منه ومن كرهه الله إليه الشر ويباعده منه عافاه الله من الكبر أن يدخله والجبرية فلانت عريكته^(٥) وحسن خلقه، وطلق وجهه وصار عليه وقار الإسلام وسكينته وتخشعه وورع عن محارم الله، واجتنب مساخطه ورزقه الله مودة الناس

(١) سورة ص، الآية ٢٨.

(٢) وصف صفتكم: أي قال بقولكم ودان بدينكم.

(٣) بغا لكم الغوائل: أي طلب لكم المهالك.

(٤) التجبر: التكبر.

(٥) العريكة: الطبيعة.

ومجاملتهم وترك مقاطعة الناس والخصومات ولم يكن منها ولا من أهلها في شيء، وأن العبد إذا كان خلقه الله في الأصل أصل الخلق كافراً لم يمت حتى يحبب إليه الشر ويقربه منه، فإذا حُبب إليه الشر وقربه منه ابتلى بالكبر والجبرية فقسا قلبه وساء خلقه وغلظ وجهه وظهر فحشه وقلّ حياؤه وكشف الله ستره وركب المحارم فلم ينزع عنها، وركب معاصي الله وأبغض طاعته وأهلها، فبعد ما بين حال المؤمن وحال الكافر سلوا الله العافية واطلبوها إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

صَبَرُوا النفس على البلاء في الدنيا، فإن تتابع البلاء فيها والشدة في طاعة الله وولايته وولاية من أمر بولايته، خير عاقبة عند الله في الآخرة من ملك الدنيا وإن طال تتابع نعيمها وزهرتها وغضارة^(١) عيشها في معصية الله وولاية من نهى الله عن ولايته وطاعته، فإن الله أمر بولاية الأئمة الذين سماهم الله في كتابه في ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وهم الذين أمر الله بولايتهم وطاعتهم والذين نهى الله عن ولايتهم وطاعتهم وهم أئمة الضلال الذين قضى الله أن يكون لهم دول في الدنيا على أولياء الله الأئمة من آل محمد ﷺ يعملون في دولتهم بمعصية الله ومعصية رسوله ﷺ ليحق عليهم كلمة العذاب وليتم أمر الله فيهم الذي خلقهم في الأصل أصل الخلق من الكفر الذي سبق في علم الله أن يخلقهم له في الأصل ومن الذين سماهم الله في كتابه في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ إِلَى الْكَارِ﴾ فتدبروا هذا واعقلوه ولا تجهلوه، فإن من جهل هذا وأشباهه مما افترض الله عليه في كتابه مما أمر به ونهى عنه ترك دين الله وركب معاصيه فاستوجب سخط الله فأكتبه الله على وجهه في النار.

وقال: أيتها العصاة المرحومة المفلحة إن الله تعالى أتم لكم ما أناكم

(١) زهرة الدنيا: حسناتها وبهجتها. والغضارة: العيش الطيب واللذذ.

من الخير، واعلموا أنه ليس من علم الله ولا من أمره أن يأخذ أحد من خلق الله في دينه بهوى ولا رأي ولا مقياس، قد أنزل الله القرآن وجعل فيه تبيان كل شيء وجعل للقرآن وتعلم القرآن أهلاً لا يسع أهل علم القرآن الذين آتاهم الله علمه أن يأخذوا فيه بهوى ولا رأي ولا مقياس أغناهم الله عن ذلك بما آتاهم من علمه وخصهم به ووضعه عندهم وكرامة من الله تعالى أكرمهم بها، وهم أهل الذكر الذين أمر الله هذه الأمة بسؤالهم وهم الذين من سألهم وقد سبق في علم الله أن يصدقهم ويتبع أثرهم، أرشدهم وأعطوه من علم القرآن ما يهتدي به إلى الله بإذنه إلى جميع سبل الحق وهم الذين لا يرغب عنهم وعن مسائلهم وعن علمهم الذي أكرمهم الله به وجعله عندهم إلا من سبق عليه في علم الله الشقاء في أصل الخلق تحت الأظلة^(١) فأولئك الذين يرغبون عن سؤال أهل الذكر والذين آتاهم الله تعالى علم القرآن ووضعه عندهم، وأمر بسؤالهم فأولئك الذين يأخذون بأهوائهم وآرائهم ومقاييسهم حتى دخلهم الشيطان لأنهم جعلوا أهل الإيمان في علم القرآن عند الله كافرين وجعلوا أهل الضلالة في علم القرآن عند الله مؤمنين وحتى جعلوا ما أحل الله في كثير من الأمر حراماً وجعلوا ما حرم الله في كثير من الأمر حلالاً فذلك أصل ثمرة أهوائهم وقد عهد إليهم رسول الله ﷺ^(٢) قبل موته فقالوا: نحن بعد ما قبض الله رسوله يسعنا أن نأخذ بما اجتمع عليه رأي الناس بعد قبض الله تعالى رسوله بعد عهد الذي عهده إلينا وأمرنا به، مخالفة لله تعالى ولرسوله ﷺ فما أحد أجراً على الله ولا أبين ضلالة ممن أخذ بذلك وزعم أن ذلك يسعه والله إن الله على خلقه أن يطيعوه ويتبعوا أمره في حياة محمد ﷺ وبعد موته، هل يستطيع أولئك

(١) أي أظلة العرش يوم الميثاق.

(٢) يعني بالنص على الوصي صلوات الله عليهما.

أعداء الله أن يزعموا أَنَّ أحداً مَنَّ أسلم مع محمد ﷺ أخذ بقوله ورأيه ومقاييسه فإن قال: نعم فقد كذب على الله وضلّ ضلالاً بعيداً وإن قال: لا، لم يكن لأحد أن يأخذ برأيه وهواه ومقاييسه فقد أقرّ بالحجة على نفسه وهو مَنَّ يزعم أن الله يطاع ويتبع أمره بعد قبض الله رسوله ﷺ وقد قال الله تعالى - وقوله الحق - : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وذلك ليعلموا أن الله تعالى يطاع ويتبع أمره في حياة محمد ﷺ وبعد قبض الله محمد ﷺ وكما لم يكن لأحد من الناس مع محمد ﷺ أن يأخذ بهواه ولا رأيه ولا مقاييسه خلافاً لأمر محمد ﷺ فكذلك لم يكن لأحد من الناس من بعد محمد ﷺ أن يأخذ بهواه ولا رأيه ولا مقاييسه .

وقال: دعوا رفع أيديكم في الصلاة إلا مرة واحدة حتى تفتتح الصلاة فإن الناس قد شهروكم بذلك والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال: أكثروا من أن تدعوا الله فإن الله يحب من عباده المؤمنين أن يدعوه وقد وعد عباده المؤمنين بالاستجابة، والله مصير دعاء المؤمنين يوم القيامة لهم عملاً يزيدهم به في الجنة فأكثروا ذكر الله ما استطعتم في كل ساعة من ساعات الليل والنهار فإن الله تعالى أمر بكثرة الذكر له والله ذاكر لمن ذكره من المؤمنين؛ واعلموا أن الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلا ذكره بخير فأعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد في طاعته فإن الله لا يدرك شيء من الخير عنده إلا بطاعته واجتناب محارمه التي حرم الله تعالى في ظاهر القرآن وباطنه، فإن الله تعالى قال في كتابه - وقوله الحق - : ﴿وَذَرُوا ظُلُمَةَ الْإِنْتِمِ وَبَاطِنَهُ﴾ واعلموا أن ما أمر الله أن تجتنبوه فقد حرمه الله واتبعوا آثار رسول الله ﷺ وسنته فخذوا بها ولا تتبعوا أهواءكم وآراءكم

فتفضلوا فإن أضلّ الناس عند الله من اتّبع هواه ورأيه بغير هدى من الله وأحسنوا إلى أنفسكم فإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها! وجاملوا الناس ولا تحملوهم على رقابكم تجمعوا مع ذلك طاعة ربكم وإياكم وسب أعداء الله حيث يسمعونكم فيسبوا الله عدواً بغير علم، وقد ينبغي لكم أن تعلموا حدّ سبّهم لله كيف هو، إنّه من سبّ أولياء الله فقد انتهك سبّ الله ومن أظلم عند الله ممّن استسبّ الله ولأوليائه فمهلاً مهلاً فاتبعوا أمر الله ولا قوة إلا بالله.

وقال: أيتها العصابة الحافظ الله لهم أمرهم عليكم بآثار رسول الله ﷺ وسنته وآثار الأئمة الهداة من أهل بيت رسول الله ﷺ من بعده وسنتهم، فإنه من أخذ بذلك فقد اهتدى، ومن ترك ذلك ورغب عنه ضلّ لأنهم هم الذين أمر الله بطاعتهم وولايته، وقد قال أبونا رسول الله ﷺ: «المدّومة على العمل في إتياع الآثار والسنن وإن قلّ أرضى الله وأنفع عنده في العاقبة من الاجتهاد في البدع وإتياع الأهواء» ألا إنّ أتباع الأهواء وأتباع البدع بغير هدى من الله ضلال وكلّ ضلال بدعة وكلّ بدعة في النار ولن ينال شيء من الخير عند الله إلا بطاعته والصبر والرضا لأنّ الصبر والرضا من طاعة الله.

واعلموا أنّه لن يؤمن عبد من عبّده حتّى يرضى عن الله فيما صنع الله إليه وصنع به على ما أحبّ وكره، ولن يصنع الله بمن صبر ورضي عن الله إلا ما هو أهله وهو خير له مما أحبّ وكره وعليكم بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا الله قانتين كما أمر الله به المؤمنين في كتابه من قبلكم وإياكم. وعليكم بحبّ المساكين المسلمين، فإنه من حقّهم وتكبر عليهم فقد زلّ عن دين الله والله له حاقر وماقت، وقد قال أبونا رسول الله ﷺ: «أمرني ربي بحبّ المساكين المسلمين منهم». واعلموا أنّه من حقّ أحداً من المسلمين ألقى الله عليه المقت منه والمحقرة

حتى يمقته الناس والله له أشد مقتاً، فاتقوا الله في إخوانكم المسلمين المساكين منهم، فإن لهم عليكم حقاً أن تحبّوهم، فإن الله أمر نبيه ﷺ بحبهم، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله ورسوله ومن عصى الله ورسوله ومات على ذلك مات وهو من الغاوين.

وإياكم والعظمة والكبر، فإن الكبر رداء الله تعالى فمن نازع الله رداءه قصمه الله وأذله يوم القيامة.

وإياكم أن يبغى بعضكم على بعض فإنها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغى صير الله بغيه على نفسه وصارت نصرة الله لمن بغى عليه ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله. وإياكم أن يحسد بعضكم بعضاً، فإن الكفر أصله الحسد. وإياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم فيدعو الله عليكم فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: «ليس لمسلم أن يعسر مسلماً ومن أنظر معسراً أظله الله يوم القيامة بظله يوم لا ظل إلا ظله». وإياكم أيتها العصابة المفضلة على من سواها وحبس حقوق الله قبلكم يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة فإنه من عجل حقوق الله قبله كان الله أقدر على التعجيل له إلى مضاعفة الخير في العاجل والآجل، وإنه من أخر حقوق الله قبله كان الله أقدر على تأخير رزقه، ومن حبس الله رزقه لم يقدر أن يرزق نفسه، فأدوا إلى الله حق ما رزقكم يطيب لكم بقيته وينجز لكم ما وعدكم من مضاعفته، لكم الأضعاف الكثيرة التي لا يعلم بعدها ولا بكنه فضلها إلا الله رب العالمين.

وقال: اتقوا الله أيتها العصابة وإن استطعتم أن لا يكون منكم محرّج للإمام، وأن محرّج الإمام هو الذي يسمى^(١) بأهل الصلاح من أتباع الإمام، المسلمين لفضله الصابرين على أداء حقه العارفين بحرمته.

(١) سمي به إلى الوالي: إذا وصى به إليه.

واعلموا أنَّ من نزل بذلك المنزل عند الإمام فهو محرَج للإمام، فإذا فعل ذلك عند الإمام أخرج الإمام إلى أن يعلن أهل الصَّلاح من أتباعه، المسلمَين لفضله الصابرين على أداء حقِّه العارفين بحرمته، فإذا لعنهم لإخراج أعداء الله الإمام صارت لعنته رحمة من الله عليهم، وصارت اللعنة من الله ومن الملائكة ورسوله على أولئك.

واعلموا أيتها العصابة أنَّ السَّنة من الله قد جرت في الصالحين قبل، وقال: من سرَّه أن يلقى الله وهو مؤمن حقاً فيتولَّى الله ورسوله والذين آمنوا وليبرأ إلى الله من عدوكم وليسلم لما انتهى إليه من فضلهم، لأن فضلهم لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي ولا من دون ذلك، ألم تسمعوا ما ذكر الله من فضل إتباع الأئمة الهداة وهم المؤمنون قال: ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْقِدِّيسِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ فهذا وجه من وجوه فضل إتباع الأئمة فكيف بهم وفضلهم، ومن سرَّه أن يتم الله له إيمانه حتى يكون مؤمناً حقاً حقاً فليف الله بشروطه التي اشترطها على المؤمنين، فإنَّه قد اشترط مع ولايته وولاية رسوله وولاية أئمة المؤمنين ﷺ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإقراض الله قرضاً حسناً واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فلم يبق شيء ما فسر ممَّا حرَّم الله إلّا وقد دخل في جملة قوله، فمن دان الله فيما بينه وبين الله مخلصاً لله ولم يرخَّص لنفسه في ترك شيء من هذا فهو عند الله في حزبه الغالبين وهو من المؤمنين حقاً.

وليأكم والإصرار على شيء ممَّا حرَّم الله في ظهر القرآن وقد قال الله: ﴿وَلَمْ يُعْزِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَقْلُبُونَ﴾ إلى هنا رواية القاسم بن الربيع^(١) يعني المؤمنين قبلكم إذا نسوا شيئاً ممَّا اشترط الله في كتاب عرفوا أنَّهم قد

(١) قال المجلسي رحمه الله: أي ما يذكر بعده لم يكن في رواية القاسم بل كان في رواية حفص وإسماعيل.

عصوا الله في تركهم ذلك الشيء، فاستغفروا ولم يعودوا إلى تركه فذلك معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

واعلموا أنه إنما أمر ونهى لبطاع فيما أمر به ولينتهي عما نهى عنه، فمن اتبع أمره فقد أطاعه وقد أدرك كل شيء من الخير عنده، ومن لم يتنه عما نهى الله عنه فقد عصاه، فإن مات على معصيته أكبه الله على وجهه في النار.

واعلموا أنه ليس بين الله وبين أحد من خلقه ملك مقرّب ولا نبي مرسل ولا من دون ذلك من خلقه كلهم إلّا طاعتهم له، فجدّوا في طاعة الله إن سركم أن تكونوا مؤمنين حقّاً حقّاً ولا قوة إلّا بالله.

وقال: عليكم بطاعة ربكم ما استطعتم، فإن الله ربكم واعلموا أن الإسلام هو التسليم والتسليم هو الإسلام، فمن سلّم فقد أسلم، ومن لم يسلم فلا إسلام له، ومن سرّه أن يبلغ إلى نفسه في الإحسان فليطع الله فإنه من أطاع الله فقد أبلغ إلى نفسه في الإحسان.

إياكم ومعاصي الله إن تركبوها، فإنه من انتهك معاصي الله فركبها فقد أبلغ في الإساءة إلى نفسه، وليس بين الإحسان والإساءة منزلة، فلاهل الإحسان عند ربهم الجنة ولأهل الإساءة عند ربهم النار.

فاعملوا بطاعة الله واجتنبوا معاصيه، واعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه شيئاً لا ملك مقرّب ولا نبي مرسل، ولا من دون ذلك، فمن سرّه أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه.

واعلموا أن أحداً من خلق الله لم يصب رضا الله إلّا بطاعته وطاعة رسوله وطاعة ولاة أمره من آل محمد ﷺ، ومعصيتهم من معصية الله ولم ينكر لهم فضلاً عظيماً ولا صغراً. واعلموا أن المنكرين هم المكذبون، وأن

المكذبين هم المنافقون وأن الله تعالى قال للمنافقين - وقوله الحق - : ﴿إِنَّ
 الْمُتَوَكِّلِينَ فِي الذِّكْرِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ولا يفرقن^(١) أحد
 منكم، ألزم الله قلبه طاعته وخشيته من أحد من الناس أخرجه الله من صفة
 الحق ولم يجعله من أهلها، فإن من لم يجعله الله من أهل صفة الحق
 فأولئك هم شياطين الإنس والجن، فإن لشياطين الإنس حيلًا ومكرًا وخدائع
 ووسوسة بعضهم إلى بعض، يريدون إن استطاعوا أن يردوا أهل الحق عما
 أكرمهم الله به من النظر في دين الله الذي لم يجعل الله شياطين الإنس من
 أهله، إرادة أن يستوي أعداء الله وأهل الحق في الشك والإنكار والتكذيب
 فيكونون سواء كما وصف الله في كتابه من قوله سبحانه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ
 كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾. ثم نهى الله أهل النصر بالحق أن يتخذوا من
 أعداء الله وليًا ولا نصيرًا فلا يهولتكم ولا يردنكم عن النصر بالحق الذي
 خصكم الله به من حيلة شياطين الإنس ومكرهم وحيلهم ووساوس بعضهم
 إلى بعض، فإن أعداء الله إن استطاعوا صدوكم عن الحق فيعصمكم الله من
 ذلك فاتقوا الله وكفوا ألسنتكم إلا من خير وإياكم أن تذلقوا ألسنتكم^(٢)
 بقول الزور والبهتان والإثم والعدوان، فإنكم إن كفتم ألسنتكم عما يكره
 الله مما نهاكم عنه كان خيرًا لكم عند ربكم من أن تذلقوا ألسنتكم به، فإن
 ذلق اللسان فيما يكره الله وفيما ينهى عنه لدناءة عند الله ومقت من الله
 وصمم وعمى وبكم يورثه الله إياه يوم القيامة، فيصيروا كما قال الله: ﴿صُمُّ
 بَكْمٌ عُيٌّ قَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (يعني لا ينطقون) ﴿وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ قِمَازُونَ﴾.

وإياكم وما نهاكم الله عنه إن تركبوه، وعليكم بالصمت إلا فيما
 ينفعكم الله به في أمر آخرتكم ويؤجركم عليه.

(١) يفرقن: من الفرق - بالتحريك - بمعنى الخوف.

(٢) ذلق اللسان: حذته.

وأكثرُوا من التهليل والتقديس والتسبيح والثناء على الله والتضرّع إليه والرغبة فيما عنده من الخير الذي لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه أحد، فاشغلُوا ألسنتكم بذلك عما نهى الله عنه من أقاويل الباطل التي تعقّب أهلها خلوداً في النار لمن مات عليها، وعليكم بالدعاء فإن المسلمين لم يدركوا نجاح الحوائج عند ربهم بأفضل من الدعاء والرغبة إليه والتضرّع إلى الله والمسألة له، فارغبوا فيما رغبتكم الله فيه وأجيبوا الله إلى ما دعاكم إليه لتفلحوا وتنجوا من عذاب الله.

وإياكم أن تشره أنفسكم^(١) إلى شيء ممّا حرّم الله عليكم، فإنّه من انتهك ما حرّم الله عليه ههنا في الدنيا حال الله بينه وبين الجنة ونعيمها ولذاتها وكرامتها القائمة الدائمة لأهل الجنة أبد الآبدين.

واعلموا أنه بنس الحظّ الخطر لمن خاطر بترك طاعة الله وركوب معصيته، فاختار أن ينتهك محارم الله في لذات دنيا منقطعة زائلة عن أهلها على خلود نعيم في الجنة ولذاتها وكرامة أهلها، ويل لأولئك ما أخيب حظهم وأخسر كرتهم^(٢) وأسوأ حالهم عند ربهم يوم القيامة، استجيروا الله أن يجريكم في مثالهم أبداً وأن يتليكم بما ابتلاهم به ولا قوّة لنا ولكم إلّا به.

فاتّقوا الله أيتها العصاة الناجية إن اتّم الله لكم ما أعطاكم فإنّه لا يتم الأمر حتّى يدخل عليكم مثل الذي دخل على الصالحين قبلكم، وحتّى تبتلوا في أنفسكم وأموالكم، وحتّى تسمعوا من أعداء الله أدّى كثيراً فتصبروا وتعرّكوا بجنوبيكم، وحتّى يستذلّوكم أو يبغضوكم، وحتّى يحملوا عليكم الضّيم فتحتملوه منهم تلتمسون بذلك وجه الله والدّار الآخرة، وحتّى

(١) الشره: غلبة الحرص.

(٢) يعني رجوعهم إلى الله تعالى.

تكظموا الغيظ الشديد في الأذى في الله يجترمونه إليكم وحتى يكذبوكم بالحق، ويعادوكم فيه ويبغضوكم عليه فتصبروا على ذلك منهم ومصداق ذلك كله في كتاب الله الذي أنزله جبرئيل على نبيكم ﷺ سمعتم قول الله تعالى لنبيكم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ﴾. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا﴾ فقد كذب نبي الله والرسول من قبله وأودوا مع التكذيب بالحق، فإن سركم أن تكونوا مع نبي الله محمد ﷺ من قبله فتدبروا ما قص الله عليكم في كتابه مما ابتلى به أنبياءه وأتباعهم المؤمنين ثم سلوا الله أن يعطيكم الصبر على البلاء في السراء والضراء والشدة والرخاء مثل الذي أعطاهم.

إياكم ومخاطبة أهل الباطل وعليكم بهدي الصالحين ووقارهم وسكينتهم وحلمهم وتخشعهم وورعهم عن محارم الله وصدقهم وفانهم واجتهادهم لله في العمل بطاعته فأئكم إن لم تفعلوا ذلك لم تنزلوا عند ربكم منزلة الصالحين قبلكم، واعلموا أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً شرح صدره للإسلام، فإذا أعطاه ذلك نطق لسانه بالحق وعقد قلبه عليه، فعمل به، فإذا جمع الله له ذلك، تم إسلامه وكان عند الله إن مات على ذلك الحال من المسلمين، وإذا لم يرد الله بعبد خيراً وكله إلى نفسه، وكان صدره ضيقاً حرجاً، فإن جرى على لسانه حق لم يعقد قلبه عليه، لم يحط العمل به، فإذا اجتمع ذلك عليه حتى يموت وهو على تلك الحال، كان عند الله من المنافقين، وصار ما جرى على لسانه من الحق الذي لم يغطه الله أن يعقد قلبه عليه، ولم يعظه العمل به حجة عليه.

فاتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام، وأن يجعل السننكم تنطق بالحق حتى يتوفاكم وأنتم على ذلك، وأن يجعل منقلبكم منقلب الصالحين قبلكم ولا قوة إلا بالله والحمد لله رب العالمين.

ومن سرّه أن يعلم أن الله عزّ وجلّ يحبّه فليعمل بطاعة الله وليتبعنا،
 ألم يسمع قوله الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ
 اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ والله لا يطيع عبد أبداً إلا أدخل الله عليه في طاعته
 إتباعنا، لا والله لا يتبعنا عبد أبداً إلا أحبه الله ولا والله لا يدع أحد أبداً
 بغضنا ولا والله لا يبغضنا أحد أبداً إلا عصى الله، ومن مات عاصياً لله
 أخزاه وأكبّه على وجهه في النار.
 والحمد لله رب العالمين^(١).

(١) روضة الكليني: ج ٨ ص ٣٩٧.



جوابه ﷺ لرسالة عبد الله النجاشي

عبد الله بن السليمان النوفلي قال كنت عند جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فإذا بمولى لعبد الله النجاشي قد ورد عليه وسلم وأوصل إليه كتابه ففضّه وقراه فإذا أول سطر بسم الله الرحمن الرحيم أطال الله تعالى بقاء سيدي وجعلني من كل سوء فداء ولا أتى فيه مكروهاً، فإنه ولي ذلك والقادر عليه .

اعلم سيدي ومولاي إني بليت بولاية الأهواز، فإن رأى سيدي أن يحدّ لي حدّاً أو يمثل لي مثلاً لأستدلّ به على ما يقربني إلى الله عزّ وجلّ وإلى رسوله، ويلخّص في كتابه ما يرى لي للعمل به وفيما تبدله وأبتدله، وأين أضع زكاتي وفيمن أصرفها وبمن آنس، وإلى من أستريح، وبمن أثق وآمن وألجأ إليه في سرّي فعسى أن يخلصني بهدايتك ودلائتك (بولايتك)، فإنك حجة الله على خلقه وأمينه في بلاده لا زالت نعمته عليك كذا بخطّه قال عبد الله بن سليمان فأجابه أبو عبد الله عليه السلام :

بسم الله الرحمن الرحيم

خاملك^(١) الله بصنعه ولطف بمنّه وكلالته برعايته، فإنه ولي ذلك. أما بعد فقد جاء إليّ رسولك بكتابك وأقرّاته وفهمت ما فيه وجميع ما ذكرته وسألت عنه، وزعمت أنك بليت بولاية الأهواز فسرّني ذلك وساءني، وسأخبرك بما ساءني من ذلك وما سرّني إن شاء الله تعالى .

(١) وفي نسخة: عاملك .

فأما سروري بولايتك فقلت عسى أن يغيب الله بك ملهوفاً خائفاً من أولياء آل محمد، ويعزّ بك ذليلاً ويكسو بك عاريهم، ويقوي بك ضعيفهم، ويطفئ بك نار المخالفين عنهم، وأما الذي ساءني من ذلك فإن أدنى ما أخاف عليك أن تعثر بولي لنا فلا تشم رائحة حظيرة القدس، فإني مخلص لك جميع ما سألت عنه إن أنت عملت به ولم تجاوزه رجوت أن تسلم إن شاء الله .

أخبرني يا عبد الله أبي عن آبائه علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: من استشار أخوه المؤمن فلم يمحضه النصيحة سلبه الله لّبه .

واعلم أنني سأشير عليك برأي إن أنت عملت به تخلّصت مما أنت متخوفه .

واعلم أن خلاصك ونجاتك من حقن الدماء وكف الأذى عن أولياء الله والرفق بالرعية، والتأني حسن المعاشرة مع لين في غير ضعف وشدة في غير أنف، ومداراة صاحبك ومن يرد عليك من رُسله وارتق فتق رعيّتك بأن توفّقهم على ما وافق الحق والعدل إن شاء الله وإياك والسعاة وأهل الثمائم، فلا يلتزقن منهم بك أحد منهم، ولا يراك الله يوماً وليلة وأنت تقبل منهم صرفاً ولا عدلاً، فيسخط الله عليك، ويهتك سترك، واحذر مكر خوز الأهواز، فإنّ أبي أخبرني عن آبائه عن أمير المؤمنين أنّه قال: «إنّ الإيمان لا يثبت في قلب يهودي ولا خوزي أبداً» .

فأما من تأنس به وتستريح إليه وتلجأ أمورك إليه فذلك الرجل الممتحن المستبصر الأمين الموافق لك على دينك، وميّز عوامك وجزّب الفريقين، فإن رأيت هناك رشداً فشانك وإياه، وإياك أن تعطي درهماً أو تخلع ثوباً أو تحمل على دابة في غير ذات الله لشاعر أو مضحك أو ممتزح

إِلَّا أُعْطِيتَ مِثْلَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَلَتَكُنْ جَوَائِزُكَ وَعَطَايَاكَ وَخَلْعُكَ لِلْقَوَادِ
وَالرُّسُلِ وَالْأَجْنَادِ وَأَصْحَابِ الرِّسَالِ وَأَصْحَابِ الشَّرْطِ وَالْأَخْمَاسِ. وَمَا
أَرَدْتُ أَنْ تُصَرِّفَهُ فِي وَجْهِهِ الْبَرِّ وَالنَّجَاحِ وَالْفِطْرَةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحِجِّ وَالْمَشْرِبِ
وَالْكِسْوَةِ الَّتِي تُصَلِّي فِيهَا وَتُصَلُّ بِهَا، وَالْهَدِيَّةِ الَّتِي تُهْدِيهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَالِإِلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنْ أَطْيَبِ كِسْبِكَ.

يَا عَبْدَ اللَّهِ إِجْهَدْ أَنْ لَا تَكُنْزَ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً فَتَكُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ
﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وَلَا تَسْتَصْغِرَنَّ مِنْ حُلُوِّ وَلَا مِنْ فَضْلِ طَعَامٍ تُصَرِّفُهُ فِي بَطُونٍ
خَالِيَةٍ تَسْكُنُ بِهَا غَضَبُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاعْلَمْ إِنِّي سَمِعْتُ أَبِي يَحْدُثُ
عَنْ آبَائِهِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا:
مَا أَمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْ بَاتٍ شُبْعَانًا وَجَارِهِ جَائِعٌ، فَقُلْنَا: هَلَكْنَا يَا
رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: فَضْلُ طَعَامِكُمْ، وَمِنْ فَضْلِ تَمَرِكُمْ وَرِزْقِكُمْ وَخَلْقِكُمْ
وَخَرْقِكُمْ تُطْفِنُونَ بِهَا غَضَبَ الرَّبِّ.

وَسَأَنُبَيِّنُكَ بِهَوَانِ الدُّنْيَا، وَهَوَانِ شَرْفِهَا عَلَى مَا مَضَى مِنَ السَّلَفِ
وَالتَّابِعِينَ فَقَدْ حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ قَالَ: لَمَّا تَجَهَّزَ
الْحُسَيْنُ ع إِلَى الْكُوفَةِ أَتَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَنَاشَدَهُ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ هُوَ الْمَقْتُولُ
بِالطُّفِّ فَقَالَ: بِمَصْرَعِي مِنْكَ وَمَا وَكْدِي مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا فِرَاقُهَا، أَلَا أَخْبِرُكَ يَا
ابْنَ عَبَّاسٍ بِحَدِيثِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالدُّنْيَا فَقَالَ لَهُ: بَلَى لِعَمْرِي إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ
تُحَدِّثَنِي بِأَمْرٍ فَقَالَ أَبِي: قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ع سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ
يَقُولُ حَدَّثَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: كُنْتُ بِفَدَكٍ فِي بَعْضِ حَيْطَانِهَا وَقَدْ صَارَتْ
لِفَاطِمَةَ ع قَالَ: فَإِذَا أَنَا بِأَمْرَاءَ فَحَمَتِ عَلَيَّ وَفِي يَدَيَّ مَسْحَاةً وَأَنَا أَعْمَلُ
بِهَا، فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهَا طَارَ قَلْبِي مِمَّا تَدَاخَلَنِي مِنْ جَمَالِهَا فَشَبَّهْتُهَا بِشَيْءٍ بَنَتْ
عَامِرُ الْجَمْحَمِيُّ، وَكَانَتْ مِنْ أَجْمَلِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، فَقَالَتْ لِي: يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ

هل لك أن تتزوج بي فأغنيك عن هذه المسحاة وأدلك على خزائن الأرض
فيكون لك الملك ما بقيت ولعقبك من بعدك؟ فقال لها علي عليه السلام من أنت
حتى أخطبك من أهلك؟ فقالت أنا الدنيا، قال لها فارجعي واطلبي زوجاً
غيري، وأقبلت على مسحاتي وأنشأت أقول:

لقد خاب من غرته دنيا دنية	وما هي إن غرت قروناً بطائل
أتتنا على زي العزيز بثينة	وزينتها في مثل تلك الشمائل
فقلت لها: غري سواي فلأنني	عزوف عن الدنيا ولستُ بجاهل
وما أنا والدنيا فإن محمداً	أحل صريعاً بين تلك الجنادل
وهبها أتتني بالكنوز وردها	وأموال قارون وملك القبائل
أليس جميعاً للفناء مصيرها	ويطلب من خزائنها بالطوائل
فغري سواي إنني غير راغب	بما فيك من ملك عز ونائل
فقد قنعت نفسي بما قدرزقته	فشأنك يا دنيا وأهل الفوائل
فلأنني أخاف الله يوم لقائه	وأخشى عذاباً دائماً غير زائل

فخرج من الدنيا وليس في عنقه تبعة لأحد حتى لقي الله محموداً غير
ملوم ولا مذموم، ثم اقتدت به الأئمة من بعده بما قد بلغكم لم يتلطحوا
بشيء من بوائقها عليه السلام أجمعين وأحسن منوهم.

وقد وجهت إليك بمكارم الدنيا والآخرة عن الصادق المصدق رسول
الله ﷺ، فإن أنت عملت بما نصحت لك في كتابي هذا ثم كانت عليك
من الذنوب والخطايا كمثّل أوزان الجبال وأمواج البحار رجوت الله أن
يتجافى عنك جلّ وعزّ بقدرته.

يا عبد الله إياك أن تُخيف مؤمناً، فإنّ محمداً بن عليّ حدثني عن أبيه
عن جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام أنه كان يقول: من نظر إلى مؤمن نظرة
ليخيفه بها أخافه الله يوم لا ظلّ إلا ظله، وحشره في صورة الذرّ لحمه

وجسده وجميع أعضائه حتى يورده مورده، وحدثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ قال: من أغاث لهفاناً من المؤمنين أغاثه الله يوم لا ظل إلا ظله، وأمنه يوم الفزع الأكبر، وأمنه من سوء المنقلب، ومن قضى لأخيه المؤمن حاجة قضى الله له حوائج كثيرة من إحداها الجنة، ومن كسا أخاه المؤمن من عرى كساه الله من سندس الجنة واستبرقها وحريرها، ولم يزل يخوض في رضوان الله ما دام على المكسو منه سلك، ومن أطعم أخاه من جوع أطعمه الله من طيبات الجنة، ومن سقاها من ظمأ سقاها الله من الحريق المختوم ريته، ومن أخدم أخاه أخدمه الله من الولدان المخلدين، وأسكنه مع أوليائه الطاهرين، ومن حمل أخاه المؤمن من رجلة (حملة) حملهُ الله على ناقة من نوق الجنة، وبأهى به الملائكة المقربين يوم القيامة، ومن زوج أخاه المؤمن امرأة يأنس بها، وتشد عضده، ويستريح إليها زوجهُ الله من الحور العين، وأنسه بمن أحبه من الصديقين من أهل بين نبيه، وإخوانه وأنسهم به، ومن أعاه أخاه المؤمن على سلطان جائر أعانه الله على إجازة الصراط عند زلة الأقدام، ومن زار أخاه إلى منزله لا حاجة إليه كتب من زوّار الله وكان حقيقاً على الله أن يكرم زائره.

يا عبد الله وحدثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لأصحابه يوماً: معاشر الناس إنّه ليس بمؤمن من آمن بلسان ولم يؤمن بقلبه، فلا تتبعوا عثرات المؤمنين، فإنّه من تتبع عشرة مؤمن أتبع الله عثراته يوم القيامة وفضحه في جوف بيته.

وحدثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام أنه قال: أخذ الله ميثاق المؤمن أن لا يصدّق في مقالته، ولا ينتصف من عدوّه، وعلى أن لا يشفى غيظه إلا بفضيحة نفسه، لأنّ كلّ مؤمن ملجم، وذلك لغاية قصيرة، وراحة طويلة وأخذ الله ميثاق المؤمن على أشياء أيسرها عليه مؤمن مثله يقول بمقالته

ببغيه وبحسده، والشيطان يغويه ويضلّه، والسلطان يقفو أثره، ويتبع عثراته، وكافر بالله الذي هو مؤمن به يرى سفك دمه ديناً، وإباحة حريمه غنماً، فما بقاء المؤمن بعد هذا يا عبد الله!!

وحدثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: نزل جبرئيل فقال يا محمد إن الله يقرأ عليك السلام ويقول: اشتقت للمؤمن اسماً من أسمائي، سمّيته مؤمناً، فالمؤمن مني وأنا منه، من استهان مؤمناً فقد استقبلني بالمحاربة.

يا عبد الله وحدثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال يوماً: يا علي لا تناظر رجلاً حتى تنظر في سريره، فإن كانت سريره حسنة، فإن الله عز وجل لم يكن ليخذل وليه، فإن تكن سريره رديّة فقد يكفيه مساوته، فلو جهدت أن تعمل به أكثر ممّا عمل من معاصي الله عز وجل ما قدرت عليه.

يا عبد الله وحدثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: أدنى الكفر أن يسمع الرجل من أخيه الكلمة فيحفظها عليه يريد أن يفضحه بها، أولئك لا خلاق لهم.

يا عبد الله وحدثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام أنه قال: من قال في مؤمن ما رأت عينه، وسمعت أذناه ما يشينه ويهدم مروءته فهو من الذين قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يا عبد الله وحدثني أبي عن آبائه، عن علي عليه السلام قال: من روى عن أخيه المؤمن رواية يريد بها هدم مروءته وثلبه أوبقه الله بخطيئته حتى يأتي بمخرج ممّا قال، ولن يأتي بالمخرج منه أبداً، ومن أدخل على أخيه المؤمن سروراً فقد أدخل على أهل البيت سروراً، ومن أدخل على أهل

البيت سروراً فقد أدخل على رسول الله ﷺ سروراً ومن أدخل على رسول الله ﷺ فقد سرّ الله، ومن سرّ الله فحقيق على الله عزّ وجلّ أن يدخله جنته .

ثم أوصيك بتقوى الله وإيثار طاعته، والاعتصام بحبله، فإنه من اعتصم بحبل الله فقد هُدي إلى صراط مستقيم، فاتقِ الله ولا تؤثر أحداً على رضاه وهواه، فإنه وصية الله عزّ وجلّ إلى خلقه، لا يقبل منهم غيرها، ولا يعظهم سواها .

واعلم أنّ الخلائق لم يוכלوا بشيء أعظم من التقوى، فإنه وصيتنا أهل البيت فإن استطعت أن لا تنال من الدنيا شيئاً تسأل عنه غداً فافعل .

قال عبد الله بن سليمان: فلما وصل كتاب الصادق عليه السلام إلى النجاشي نظر فيه وقال: صدق الله الذي لا إله إلا هو مولاي فما عمل أحد بما في هذا الكتاب إلا نجا، فلم يزل عبد الله يعمل به أيام حياته^(١) .

(١) رسائل الشهيد الثاني: ص ٣٢٧، وسائل الشيعه: ج ١٢ ص ١٥٠ .



جواب الإمام الصادق عليه السلام على كتاب المفضل بن عمر

عن صباح المدائني عن المفضل أنه كتب إلى أبي عبد الله عليه السلام فجاءه هذا الجواب من أبي عبد الله عليه السلام :

أما بعد فإني أوصيك ونفسي بتقوى الله وطاعته فإن من التقوى الطاعة والورع والتواضع لله والطمأنينة والاجتهاد والأخذ بأمره والنصيحة لرسله والمساورة في مرضاته واجتناب ما نهى عنه فإن من يتقى فقد أحرز نفسه من النار بإذن الله وأصاب الخير كله في الدنيا والآخرة ومن أمر بالتقوى فقد أفلح الموعظة جعلنا الله من المتقين برحمته جاءني كتابك فقرأته وفهمت الذي فيه فحمدت الله على سلامتك وعافية الله إياك ألبسنا الله وإياك عافيته في الدنيا والآخرة كتبت تذكر أن قوماً أنا أعرفهم كان أعجبك نحوهم وشأنهم وأنتك أبليت فيهم أموراً يروى عنهم كرهتها لهم ولم تريهم إلا طريقاً حسناً ورعاً وتخشعاً وبلغت أنهم يزعمون أن الدين إنما هو معرفة الرجال ثم بعد ذلك إذا عرفتهم فاعمل ما شئت وذكرت إنك قد عرفت أن أصل الدين معرفة الرجال فوفقك الله وذكرت أنه بلغك أنهم يزعمون أن الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج والعمرة والمسجد الحرام والبيت الحرام والمشعر الحرام والشهر الحرام هو رجل وأن الطهر والاعتسال من الجنابة هو رجل وكل فريضة افترضها الله على عباده هي رجل وأنهم ذكروا ذلك بزعمهم أن من عرف ذلك الرجل فقد اكتفى بعمله به من غير عمل وقد صلى وأتى الزكاة وصام وحج واعتمر واغتسل من الجنابة وتطهر وعظم

حرمات الله والشهر الحرام والمسجد الحرام وأنهم ذكروا من عرف هذا بعينه وتجده وثبت في قلبه جاز له أن يتهاون فليس له أن يجتهد في العمل وزعموا أنهم إذا عرفوا ذلك الرجل فقد قبلت منهم هذه الحدود لوقتها وإن هم لم يعملوا بها وأنه بلغك أنهم يزعمون أن الفواحش التي نهى الله عنها الخمر والميسر والربا والدم والميتة ولحم الخنزير هو رجل وذكروا أن ما حرم الله من نكاح الأمهات والبنات والعَمَّات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت وما حَرَّمَ على المؤمنين من النساء فما حَرَّمَ الله إثمًا عنى بذلك نكاح نساء النبي وما سوى ذلك مباح كله وذكرنا أنه بلغك أنهم يترادفون المرأة الواحدة ويشهدون بعضهم لبعض بالزور ويزعمون أن لهذا ظهراً وبطناً يعرفونه فالظاهر يتناسمون عنه يأخذون به مدافعة عنهم والباطن هو إلي يطلبون وبه أمروا ويزعمهم كتبت تذكر الذي زعم عظيم من ذلك عليك حين بلغك وكتبت تسألني عن قولهم في ذلك أحلال أم حرام وكتبت تسألني عن تفسير ذلك وأنا أبيته حتى لا تكون من ذلك في عمى ولا شبهة وقد كتبت إليك في كتابي هذا تفسير ما سألت عنه فاحفظه كله كما قال الله في كتابه ﴿وَقَبِّهَا أَذُنٌ وَحِمَّةٌ﴾ واصفه لك بحلاله وأنفي عنك حرامه إن شاء الله كما وصفت ومعرفك حتى تعرفه إن شاء الله فلا تنكره إن شاء الله ولا قوة إلا بالله والقوة لله جميعاً أخبرك أنه من كان يدين بهذه الصفة التي كتبت تسألني عنها فهو عندي مشرك بالله تبارك وتعالى بين الشرك لا شك فيه وأخبرك أن هذا القول كان من قوم سمعوا ما لم يعقلوه عن أهله ولم يعطوا فهم ذلك ولم يعرفوا حد ما سمعوا فوضعوا حدود تلك الأشياء مقايسة برأيهم ومنتهى عقولهم ولم يضعوها على حدود ما أمروا كذباً وافتراءً على الله ورسوله ﷺ وجرأة على المعاصي فكفى بهذا لهم جهلاً ولو أنهم وضعوها على حدودها التي حدت لهم وقبلوها لم يكن به بأس ولكنهم حرّفوها وتعذّروا وكذبوا وتهاونوا بأمر الله وطاعته ولكني أخبرك أن الله حدّها

بحدودها لأن لا يتعدى حدوده أحد ولو كان الأمر كما ذكروا لعذر الناس بجهلهم ما لم يصرفوا حد ما حد لهم ولكن المقصر والمتعدي حدود الله معذوراً ولكن جعلها حدوداً محدودة لا يتعداها إلا مشرك كافر ثم قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ فَسَيَمْسَكُمْ الْعَذَابُ وَهُمْ لَا يَحْزَنُونَ﴾^(١) فأخبرك حقائق أن الله تبارك وتعالى اختار الإسلام لنفسه ديناً ورضى من خلقه فلم يقبل من أحد إلا به وبه بعث أنبياءه ورسله ثم قال: ﴿وَيَلْقَىٰ أَنْزِلَهُ وَإِلَيْنَا نَزَّلُ﴾^(٢) فعليه وبه بعث أنبياءه ورسله ونبيه محمداً ﷺ فاختل الذين لم يعرفوا معرفة الرسل ولولايتهم وطاعتهم هو الحلال المحلل ما أحلوا والمحرم ما حرّموا وهم أصله ومنهم الفروع الحلال وذلك سعيهم ومن فروعهم أمرهم الحلال وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت والعمرة وتعظيم حرّمات الله وشعائره ومشاعره وتعظيم البيت الحرام والمسجد الحرام والشهر الحرام والطهور والاعتسال من الجنابة ومكارم الأخلاق ومحاسنها وجميع البرّة ثم ذكر بعد ذلك فقال في كتابه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٣)، فعذّدهم المحرم وأولياؤهم الدخول في أمرهم إلى يوم القيامة فيهم الفواحش وما ظهر منها وما بطن والخمر والميسر والربا والدم ولحم الخنزير فهم الحرام المحرم وأصل كلّ حرام وهم الشر وأصل كلّ شر ومنهم فروع الشر كلّها ومن ذلك الفروع الحرام واستحلّ لهم إياها ومن فروعهم تكذيب الأنبياء وجحود الأوصياء وركوب الفواحش الزنا والسرقه وشرب الخمر والمنكر وأكل مال اليتيم وأكل الربا والخدعة والخيانة وركوب الحرام كلّها وانتهاك المعاصي وإنّما أمر الله بالعدل

(١) سورة البقرة، الآية ٢٢٩.

(٢) بني إسرائيل (الإسراء)، الآية ١٠٥.

(٣) سورة النحل، الآية ٩٠.

والإحسان وإيتاء ذي القربى يعني مودة ذي القربى وابتغاء طاعتهم وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وهم أعداء الأنبياء وأوصياء الأنبياء وهم البغى من مودتهم فطاعتهم يعظكم بهذه لعنكم تذكرون وأخبرك إني لو قلت لك إن الفاحشة والخمر والميسر والزنا والميتة والدم ولحم الخنزير هو رجل وأنت أعلم أن الله قد حرم هذا الأصل وحرم فرعه ونهى عنه وجعل ولايته كمن عبد من دون الله وثناً وشركاً ومن دعا إلى عبادة نفسه فهو كفرعون إذ قال أنا ربكم الأعلى فهذا كله على وجه إن شئت قلت هو رجل وهو إلى جهنم ومن شايعه على ذلك فافهم مثل قول الله ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ ولصدقت ثم لو أتني قلت إنه فلان ذلك كله لصدقت إن فلاناً هو المعبود المتعدّي حدود الله التي نهى عنها أن يتعدى ثم إني أخبرك أن الذين وأصل الذين هو رجل وذلك الرجل هو اليقين وهو الإيمان وهو إمام أمته وأهل زمانه فمن عرفه عرف الله ومن أنكره أنكر الله ودينه ومن جهله جهل الله ودينه وحدوده وشرائعه بغير ذلك الإمام كذلك جرى بأن معرفة الرجال دين الله والمعرفة على وجهه معرفة ثابتة على بصيرة يعرف بها دين الله ويوصل بها إلى معرفة الله فهذه المعرفة الباطنة الثابتة بعينها الموجبة حقها المستوجب أهلها عليها الشكر لله التي من عليهم بها من من الله يمن به على من يشاء مع معرفة الظاهرة ومعرفة في الظاهرة فأهل المعرفة في الظاهر الذين علموا أمرنا بالحق على غير علم لا يلحق بأهل المعرفة في الباطن على بصيرتهم ولا يضلوا بتلك المعرفة المقصورة إلى حق معرفة الله كما قال في كتابه ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾^(١) فمن شهد شهادة الحق لا يقعد عليه قلبه على بصيرة فيه كذلك من تكلم لا يقعد عليه قلبه لا يعاقب عليه عقوبة من عقد عليه

قلبه وثبت على بصيرة فقد عرفت كيف كان حال رجال أهل المعرفة في الظاهر والإقرار بالحق على غير علم في قديم الدهر وحديثه إلى أن انتهى الأمر إلى نبي الله وبعده إلى من صار وإلى من انتهت إليه معرفتهم وإنما عرفوا بمعرفة أعمالهم ودينهم الذي دان الله به المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وقد يُقال أنه من دخل في هذا الأمر بغير يقين ولا بصيرة خرج منه كما دخل فيه رزقنا الله وإياك معرفة ثابتة على بصيرة وأخبرك أنني لو قلت إن الصلاة والزكاة وصوم رمضان والحجَّ والعمرة والمسجد الحرام والبيت الحرام والمشعر الحرام والطهور والاغتسال من الجنابة وكلَّ فريضة كان ذلك هو النبي الذي جاء به عند ربِّه لصدقت أن ذلك كلُّه إنما يعرف بالنبي ولو معرفة ذلك النبي ﷺ والإيمان به والتسليم له ما عرف ذلك فذلك من من الله على من يمتنَّ عليه ولولا ذلك لم يعرف شيئاً من هذا فهذا كله ذلك النبي وأصله وهو فرعه وهو دعائي إليه ودلني عليه وعرفني به وأمرني به وأوجب عليَّ له الطاعة فيما أمرني به لا يسعني جهله وكيف يسعني جهله ومن هو فيما بيني وبين الله وكيف تستقيم لي لولا أنني أصف أن ديني هو الذي أتاني به ذلك النبي ﷺ أن أصف أن الدين غيره وكيف لا يكون ذلك معرفة الرجل وإنما هو الذي جاء به عن الله وإنما أنكر الذي من أنكره بأن قالوا ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١) ثم قالوا ﴿أَبَشَرٌ يَهُدُونَا﴾^(٢) فكفروا بذلك الرجل وكذبوا به ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ فقال ﴿قُلْ مَنْ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾^(٣) ثم قال في آية أخرى ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُتِنَ الْأَنْمَرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾^(٤) تبارك الله تعالى

(١) بني إسرائيل (الإسراء)، الآية ٩٤.

(٢) سورة النفاين، الآية ٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٩١.

(٤) سورة الأنعام، الآيتان ٨ و ٩.

إنما أحب أن يعرف بالرجال وأن يطاع بطاعتهم فجعلهم سبيله ووجهه الذي يؤتى منه لا يقبل الله من العباد غير ذلك ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ فقال فيمن أوجب من محبته لذلك ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾^(١) فمن قال لك إن هذه الفريضة كلها إنما هي رجل وهو يعرف حد ما يتكلم به فقد صدق ومن قال على الصفة التي ذكرت بغير الطاعة لا يعني التمسك في الأصل بترك الفروع لا يعني بشهادة أن لا إله إلا الله وبترك شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ولم يبعث الله نبياً قط إلا بالبر والعدل والمكارم ومحاسن الأعمال والنهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن فالباطن منه ولاية أهل الباطن والظاهر منه فروعهم ولم يبعث الله نبياً قط يدعو إلى معرفة ليس معها طاعة في أمر ونهي فإنما يقبل الله من العباد العمل بالفرائض التي افترضها الله على حدودها مع معرفة من جاءهم من عنده ودعاهم إليه فأول من ذلك معرفة من دعا إليه ثم طاعته فيما يقربه بمن لا طاعة له وأنه من عرف أطاع حزم الحرام ظاهره وباطنه ولا يكون تحريم الباطن واستحلال الظاهر إنما حرم الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر معاً جميعاً ولا يكون الأصل والفروع وباطن الحرام وحرام ظاهره حلال ولا يحرم الباطن ويستحيل الظاهر وكذلك لا يستقيم إلا يعرف صلاة الباطن ولا يعرف صلاة الظاهر ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج ولا العمرة والمسجد الحرام وجميع حرمان الله وشعائره وإن ترك معرفة الباطن لأن باطنه ظهره ولا يستقيم إن ترك واحدة منها إذا كان الباطن حراماً خبيثاً فالظاهر منه إنما يشبه الباطن بالظاهر فمن زعم أن ذلك إنما هي المعرفة أنه إذا عرف اكتفى بغير طاعة فقد كذب وأشرك ذاك لم يعرف ولم يطع وإنما قيل أعرف وأعمل ما شئت من الخير فإنه لا يقبل ذلك منك بغير معرفة،

فإذا عرفت فاعمل لنفسك ما شئت من الطاعة قلّ أو كثر، فإنه مقبول منك، أخبرك أنّ من عرف أطاع إذا عرف وصلى وصام واعتمر وعظم حرّمات الله كلّها ولم يدع منها شيئاً وعمل بالبرّ كلّهُ ومكارم الأخلاق كلّها ويجتنب سيئتها وكل ذلك هو النبي ﷺ والنبي ﷺ أصله وهو أصل هذا كلّهُ لآته جاء ودلّ عليه وأمر به، ولا يقبل من أحد شيئاً منه إلّا به، ومن عرف اجتنب الكبائر وحزّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحزّم المحارم كلّها، لأن بمعرفة النبي ﷺ وبطاعته دخل فيما دخل فيه النبي ﷺ وخرج مما خرج منه النبي ﷺ من زعم أنه يملك الحلال ويحزّم الحرام بغير معرفة النبي ﷺ لم يحلّل الله حلالاً ولم يحزّم له حراماً، وأنه من صلى وزكّى وحجّ واعتمر فعل ذلك كلّهُ بغير معرفة من افترض الله عليه طاعته لم يقبل منه شيئاً من ذلك، ولم يصلّ ولم يصم ولم يزكّ ولم يحجّ ولم يعتمر ولم يغتسل من الجنابة ولم يتطهّر ولم يحزّم الله حراماً ولم يحلّل الله حلالاً ليس له صلاة وإن ركع وسجد، ولا له زكاة وإن أخرج لكل أربعين درهماً، ومن عرفه واحد عنه أطاع الله، وأما ما ذكرت أنّهم يستحلّون نكاح ذوات الأرحام التي حرّم الله في كتابه فإنّهم زعموا أنّه إنّما حرّم علينا بذلك نكاح نساء النبي ﷺ، فإنّ أحق ما بدأ منه تعظيم حقّ الله وكرامة رسوله وتعظيم شأنه وما حرّم الله على تابعيه نكاح نسائه من بعده قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَنْوَاجَهُ مِنْ بَيْنِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كُنْهٌ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾^(١) وقال الله تبارك وتعالى ﴿الَّذِينَ أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُنْفُسُهُمْ﴾^(٢) وهو أب لهم، ثم قال ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ وَهْمًا وَغَفَلَ

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٦.

سَكِيلًا^(١) فمن حرّم نساء النبي لتحريم الله ذلك فقد حرّم الله في كتابه العمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت، وما حرّم الله من إرضاعه لأنّ تحريم ذلك تحريم نساء النبي ﷺ فمن حرّم ما حرّم الله من الأنتهات والبنات والأخوات والعمات من نكاح نساء النبي ﷺ ومن استحلّ ما حرّم الله فقد أشرك إذا اتّخذ ذلك ديناً.

وأما ما ذكرت أنّ الشيعة يترادفون المرأة الواحدة فأعوذ بالله أن يكون ذلك من دين الله ورسوله إنّما دينه أن يحلّ ما أحلّ الله ويحرّم ما حرّم الله سواء أن ما أحلّ الله من النساء في كتاب المتعة في الحجّ أجلهما ثم لم يحرّمهما فإذا أراد الرجل المسلم أن يتمتّع من المرأة فعلى كتاب الله وسنته نكاح غير سفاح تراضياً على ما أحبا من الأجرة والأجل كما قال الله ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَكَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ قَرِيبَةً﴾^(٢) إنّهما أحبا أن يمدا في الأجل على ذلك الأجر فأخر يوم من أجلها قبل أن ينقضي الأجل قبل غروب الشمس ماذا فيه وزادا في الأجل ما أحبا فإن مضى آخر يوم منه لم يصلح إلّا ما أمر مستقبل وليس بينهما عدة من سواء فإنّه اتّحدت سواء اعتدّت خمسة وأربعين يوماً وليس بينهما ميراث ثمّ إن شاءت تمتعت من آخر فهذا حلال لهما إلى يوم القيامة إن هي شاءت من سبعة وإن هي شاءت من عشرين إن ما بقيت في الدنيا كلّ هذا حلال لهما على حدود الله ومن يتعدّى حدود الله فقد ظلم نفسه وإذا أردت المتعة في الحجّ فأحرم من العقيق واجعلها متعة فمتى ما قدمت طفث بالبيت واستلمت الحجر الأسود وفتحت به وختمت سبعة أشواط ثمّ تصلي ركعتين عند مقام إبراهيم ثمّ أخرج من البيت فاسع بين الصفا والمروة سبعة أشواط تفتح بالصفا وتختم بالمروة فإذا فعلت ذلك فصبرت حتى إذا كان يوم التروية صنعت ما صنعت

(١) سورة النساء، الآية ٢٢.

(٢) سورة النساء، الآية ٣٤.

بالعقيق ثم أحرم بين الركن والمقام بالحج فلم تزل محرماً حتى تقف بالموقف ثم ترمي الجمرات وتذبح وتحل وتغتسل ثم تزور البيت فإذا أنت فعلت ذلك فقد أحللت وهو قول الله ﴿مَنْ تَمَعَ بِالْمَرَّةِ إِلَى الْحَجِّ قَا اسْتَسَرَّ مِنْ الْمَدْعَى﴾^(١) أن تذبح وأما ما ذكرت أنهم يستحلون الشهادات بعضهم لبعض على غيرهم فإن ذلك ليس هو إلا قول الله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَمْبَبْتُكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾^(٢) إذا كان مسافراً وحضره الموت اثنان ذوا عدل من دينه فإن لم يجدوا فأخيران ممن يقرأ القرآن من غير أهل ولايته ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقِيمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا تَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا تَكْفُرْ شَهْدَةُ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيُّمِينَ * فَإِنْ عُدَّ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِفْئًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقِيمَانِ بِاللَّهِ لَشَهْدَتَنَا أَحَقُّ مِنْ شَهْدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ أَذَقْنَا أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِنَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْنٌ بَعْدَ آيَتِنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا﴾ وكان رسول الله ﷺ يقضي بشهادة رجل واحد مع يمين المدعي ولا يبطل حق مسلم ولا يرد شهادة مؤمن فإذا أخذ يمين المدعي وشهادة الرجل قضى له بحقه وليس يعمل بهذا فإذا كان لرجل مسلم قبل آخر حق يجحده ولم يكن شاهد غير واحد فإن إذا رفعه إلى ولاية الجور أبطلوا حقه ولم يقضوا فيها بقضاء رسول الله ﷺ كان الحق في الجور أن لا يبطل حق رجل فيستخرج الله على يديه حق رجل مسلم ويأجره الله ويجيء عدلاً كان رسول الله ﷺ يعمل به وأما ما ذكرت في آخر كتابك أنهم يزعمون أن الله رب العالمين هو النبي ﷺ وأنتك شبت قولهم بقول الذين قالوا في علي ﷺ ما قالوا فقد عرفت أن السنن والأمثال كائنة لم يكن شيء

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٦.

(٢) سورة المائدة، الآية ١٠٦.

فيما مضى إلا سيكون مثله حتى لو كانت شاة بشاة وكان هيهنا مثله واعلم أنه سيضل قوم بضلالة من كان قبلهم كتبت فتسألني عن مثل ذلك ما هو وما أرادوا به أخبرك أن الله تبارك وتعالى هو خلق الخلق لا شريك له الخلق والأمر والدنيا والآخرة وهو رب كل شيء وخالقه خلق الخلق وأحب أن يعرفوه بأنبيائه واحتج عليهم بهم فالنبي ﷺ هو الدليل على الله عبد مخلوق مربوب اصطفاه نفسه رسالته وأكرمه بها فجعل خليفته في خلقه ولسانه فيهم وأمينه عليهم وخازنه في السموات والأرضين قوله قول الله لا يقول على الله إلا الحق من أطاعه أطاع الله ومن عصاه عصى الله وهو مولى من كان الله ربه ووليته من أبى أن يقر له بالطاعة فقد أبى أن يقر لربه بالطاعة والعبودية ومن أقر بطاعته أطاع الله وهداه بالنبي ﷺ مولى الخلق جميعاً عرفوا ذلك وأنكروه وهو الوالد المبرور فيمن أحبه وأطاعه وهو الوالد البار ومجانب الكبائر قد كتبت لك ما سألتني عنه وقد علمت أن قوماً سمعوا صنعتنا هذه فلم يقولوا بها بل حرّفوها ووضعوها على غير حدودها على نحوها قد بلغك واحذر من الله ورسوله ومن يتعصبون بنا أعمالهم الخبيثة وقد رمانا الناس بها والله يحكم بيننا وبينهم فإنه يقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُصَدِّقَ أَفْعَلْتِ الْمُؤْمِنَاتِ لِمَتُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١) ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ فِيهِمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٢) وأما ما كتبت ونحوه وتخوفت أن يكون صفتهم من صفته فقد أكرمه الله تعالى عز وجل عما يقولون علواً كبيراً صفتي هذه صفة صاحبنا التي وصفنا له وعندنا أخذنا فجزاء الله عنا أفضل الحق فإن جزاءه على الله فتفهم كتابي هذا واتقوه لله (٣).

(١) سورة النور، الآية ٢٣.

(٢) سورة النور، الآية ٢٥.

(٣) بصائر الدرجات، ص ٥٢٦.

من احتجاجات الإمام الصادق عليه السلام

روي أنه سأل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل في قصة إبراهيم عليه السلام، ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَأْذِنُوا﴾، فقال: ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم عليه السلام.

قيل: وكيف ذلك؟

فقال: إنما قال إبراهيم: ﴿فَسْتَأْذِنُوا إِن كَانُوا يُنْطِقُونَ﴾، فإن نطقوا فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فكبيرهم لم يفعل شيئاً، فما نطقوا، وما كذب إبراهيم عليه السلام فسنل عن قوله في سورة يوسف: ﴿أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾؟

قال: إنهم سرقوا يوسف من أبيه، ألا ترى أنه قال لهم حين قالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ * قالوا: نَقِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ * ولم يقل سرقتم صواع الملك، إنما سرقوا يوسف من أبيه، فسنل عن قول إبراهيم: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي الْفُجُورِ﴾ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ *.

قال: ما كان إبراهيم سقيماً، وما كذب إنما عنى سقيماً في دينه أي مرتاداً.

وعن عبد المؤمن الأنصاري^(١) قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن قوماً رَوَوْا: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «اختلاف أمتي رحمة»؟

(١) عبد المؤمن بن القاسم بن قيس بن قُهد الأنصاري روي عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليه السلام ثقة وهو أخو أبي مريم عبد الغفار بن القاسم، وقيس بن قُهد صحابي.

فقال: صدقوا.

قلت: إن كان اختلافهم رحمة، فاجتماعهم عذاب؟

قال: ليس حيث تذهب وذهبوا، إنما أراد قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أمرهم أن ينفروا إلى رسول الله، ويختلفوا إليه، ويتعلموا ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلموهم، إنما أراد اختلافهم في البلدان، لا اختلافاً في الدين إنما الدين واحد.

وروي عنه صلوات الله عليه: أن رسول الله ﷺ قال: ما وجدتكم في كتاب الله عز وجل فالعمل لكم به، ولا عذر لكم في تركه، وما لم يكن في كتاب الله عز وجل وكانت في سنة مني فلا عذر لكم في ترك سنتي، وما لم يكن فيه سنة مني فما قال أصحابي فقولوا، إنما مثل أصحابي فيكم كمثل النجوم، بأياها أخذ اهتدي، وبأي أقاويل أصحابي أخذتم اهتديتم، واختلاف أصحابي لكم رحمة.

قيل يا رسول الله من أصحابك؟

قال: أهل بيتي^(١).

قال محمد بن الحسين بن بابويه القمي رحمه الله: إن أهل البيت لا يختلفون ولكن يفتون الشيعة بمرّ الحق، وربما أفتوهم بالتقية، فما يختلف من قولهم فهو للتقية، والتقية رحمة للشيعة، ويؤيد تأويله رحمه الله، أخبار كثيرة.

منها ما رواه محمد بن سنان، عن نصر الخثعمي قال: سمعت أبا عبد

الله يقول: من عرف من أمرنا أن لا نقول إلا حقاً فليكتف بما يعلم منا، فإن سمع منا خلاف ما يعلم فليعلم أن ذلك منا دفاع واختيار له.

وعن عمر بن حنظلة^(١) قال: سألت أبا عبد الله ﷺ: عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة أيحل ذلك؟

قال ﷺ: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الجبت والطاغوت المنهي عنه، وما حكم له به فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً له لأنه أخذه بحكم الطاغوت، ومن أمر الله عز وجل أن يكفر به، قال الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾. قلت فكيف صنعان وقد اختلفا؟

قال: ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فيرضيا به حكماً! فإنني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكم ولم يقبله منه فإنما بحكم الله استخف، وعلينا رد، والراد علينا كافر وراد على الله وهو على أحد من الشرك بالله.

قلت: فإن كان كل واحد منهما اختار رجلاً من أصحابنا، فرضيا أن يكونا الناظرين في حقهما فيما حكما، فإن الحكمين اختلفا في حديثكم؟

قال: إن الحكم ما حكم به أحدهما، وأنفقهما، وأصدقهما في الحديث، وأورعهما، ولا يلتفت إلى ما حكم به الآخر.

قلت: فإنهما عدلان مرضيان، عرفا بذلك لا يفضل أحدهما صاحبه؟

قال: ينظر الآن إلى ما كان من روايتهما عنا في ذلك الذي حكما،

(١) عمر بن حنظلة المعجلي البكري الكوفي من أصحاب الصادق ﷺ.

المجمع عليه بين أصحابك، فيؤخذ به من حكمهما ويترك الشاذ الذي ليس بمشهور عند أصحابك، فإن المجمع عليه لا ريب فيه، وإنما الأمور ثلاث: أمر بين رشده فيتبع، وأمر بين غيّه فيجتنب، وأمر مشكل يرد حكمه إلى الله عز وجل وإلى رسوله، حلال بين، وحرام بين، وشبهات تتردد بين ذلك، فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات، وهلك من حيث لا يعلم.

قلت: فإن كان الخبران عنكما مشهورين قد رواهما الثقة عنكم؟

قال: ينظر ما وافق حكمه حكم الكتاب والسنة وخالفت العامة فيؤخذ به، ويترك ما خالف حكمه حكم الكتاب والسنة ووافق العامة.

قلت: جعلت فداك أرايت إن كان الفقيهان عرفا حكمه من الكتاب والسنة، ثم وجدنا أحد الخبرين يوافق العامة، والآخر يخالف بأيهما نأخذ من الخبرين؟

قال: ينظر إلى ما هم إليه يميلون، فإن ما خالف العامة ففيه الرشاد.

قلت: جعلت فداك فإن وافقهم الخبران جميعاً؟

قال: انظروا إلى ما تميل إليه حكاهم وقضاتهم، فاتركوا جانباً وخذوا بغيره.

قلت: فإن وافق حكاهم الخبرين جميعاً؟

قال: إذا كان كذلك فارجه وقف عنده، حتى تلقى أمامك، فإن الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات، والله هو المرشد.

جاء هذا الخبر على سبيل التقدير، لأنه قلّ ما يتفق في الأثر أن يرد خبران مختلفان في حكم من الأحكام، موافقين للكتاب والسنة، وذلك مثل غسل الوجه واليدين في الوضوء لأن الأخبار جاءت بغسلهما مرة مرة

و غسلهما مرتين مرتين، فظاهر القرآن لا يقتضي خلاف ذلك بل يحتمل كلتا الروايتين، ومثل ذلك يؤخذ في أحكام الشرع.

وأما قوله ﷺ للسائل أرجه وقف عنده حتى تلقى إمامك أمره بذلك عند تمكنه من الوصول إلى الإمام، فأما إذا كان الإمام غائباً ولا يتمكن من الوصول إليه، والأصحاب كلهم مجمعون على الخبرين ولم يكن هناك رجحان لرواة أحدهما على الآخر بالكثرة والعدالة، كان الحكم بهما من باب التخيير. يدل على ما قلنا: ما روي عن الحسن بن الجهم^(١) عن الرضا ﷺ: قال: قلت للرضا ﷺ: تجميعنا الأحاديث عنكم مختلفة؟

قال: ما جاءك عنا فقهه على كتاب الله عز وجل أحاديثنا، فإن كان يشبههما فهو منا وإن لم يشبههما فليس منا.

قلت: يجميعنا الرجال وكلاهما ثقة، بحديثين مختلفين، فلا نعلم أيهما الحق.

فقال: إذا لم تعلم فموسع عليك بأيهما أخذت.

وما رواه الحرث بن المغيرة^(٢) عن أبي عبد الله ﷺ قال: إذا سمعت من أصحابك الحديث وكلهم ثقة، فموسع عليك حتى ترى القائم فترده عليه.

وروى سماعة بن مهران^(٣) قال: سألت أبا عبد الله ﷺ قلت: يرد علينا حديثان، واحد يأمرنا بالأخذ به، والآخر به ينهانا عنه؟

(١) الحسن به الجهم بن بكير بن أمين: أبو محمد الشيباني ثقة روى عن أبي الحسن موسى والرضا ﷺ.

(٢) حارث بن المغيرة النصري من بني نصر بن معاوية بصري عربي روى عن أبي جعفر الباقر والصادق والكاظم ﷺ وعن زيد بن علي ﷺ ثقة.

(٣) سماعة بن مهران بن عبد الرحمن الحضرمي مولى عبد بن وائل بن حجر الحضرمي يكنى: أبا ناضرة. وقيل: أبا محمد - روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن ﷺ مات بالمدينة ثقة.

قال: لا تعمل بواحدٍ منهما حتى تلقى صاحبك فتسأله عنه.

قال: قلت: لا بد من أن نعمل بأحدهما.

قال: خذ بما فيه خلاف العامة، فقد أمر عليه السلام بترك ما وافق العامة، لأنه يحتمل أن يكون قد ورد مورد التقية، وما خالفهم لا يحتمل ذلك.

وروي عنهم عليهم السلام أيضاً أنهم قالوا: إذا اختلفت أحاديثنا عليكم فخذوا بما اجتمعت عليه شيعتنا، فإنه لا ريب فيه، وأمثال هذه الأخبار كثيرة^(١).

(١) الاحتجاج، ج ٢ ص ١٠٦.

من مناظرات الصادق عليه السلام مع أي حنيفة النعمان

عن بشير بن يحيى العامري عن ابن أبي ليلى^(١) قال: دخلت أنا والنعمان أبو حنيفة^(٢) على جعفر بن محمد، فرحب بنا فقال: يا ابن أبي ليلى من هذا الرجل؟

فقلت: جعلت فداك من أهل الكوفة له رأي وبصيرة ونفاذ.

قال: فلعله الذي يقيس الأشياء برأيه؟

ثم قال: يا نعمان! هل تحسن أن تقيس رأسك؟

قال: لا.

قال: ما أراك تحسن أن تقيس شيئاً فهل عرفت الملوحة في العينين، والمرارة في الأذنين والبرودة في المنخرين، والعذوبة في الفم؟ قال: لا.

قال: فهل عرفت كلمة أولها كفر وآخرها إيمان؟

قال: لا. قال ابن أبي ليلى: قلت: جعلك فداك لا تدعنا في عمياء مما وصفت.

(١) ابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمن القاضي الكوفي من أصحاب الصادق عليه السلام توفي سنة ١٤٨هـ، أبوه من أكابر تابعي الكوفة وجدّه أبو ليلى من الصحابة.

(٢) أبو حنيفة: واسمه النعمان بن ثابت بن زوطي، وكان زوطي مملوكاً لبني تيم الله بن ثعلبة وأهله من كابل وقبل مولى لبني قتل - وولد وأبوه نصراني وقال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: «ولد أبو حنيفة وأبوه نصراني». إلى أن قال «وكان زوطي مملوكاً لبني تيم الله بن ثعلبة فأعتق فولّاه لبني عبد الله بن ثعلبة ثم لبني قتل».

قال: نعم حدثني أبي عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله قال: إن الله خلق عيني ابن آدم شحمتين، فجعل فيهما الملوحة، فلولا ذلك لذابتا، ولم يقع فيهما شيء من القذى إلا أذابه، والملوحة تلفظ ما يقع في العين من القذى، وجعل المرارة في الأذنين حجاباً للدماغ، وليس من دابة تقع في الأذن إلا التمسست الخروج، ولولا ذلك لوصلت إلى الدماغ فافسدته وجعل الله البرودة في المنخرين حجاباً للدماغ، ولولا ذلك لسال الدماغ. وجعل العذوبة في الفم مثلاً من الله تعالى على ابن آدم ليجد لذة الطعام والشراب، وأما كلمة أولها كفر وآخرها إيمان لا إله إلا الله.

ثم قال: يا نعمان إياك والقياس: فإن أبي حدثني عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله قال: من قاس شيئاً من الدين برأيه قرنه الله تبارك وتعالى مع إبليس، فإنه أول من قاس حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَ مِنْ طِينٍ﴾، فدعوا الرأي والقياس فإن دين الله لم يوضع على القياس.

وفي رواية أخرى أن الصادق عليه السلام قال لأبي حنيفة لما دخل عليه: من أنت؟

قال: أبو حنيفة.

قال عليه السلام: مفتي أهل العراق؟

قال: نعم.

قال: بما تفتيهم؟

قال: بكتاب الله.

قال عليه السلام: وأنت لعالم بكتاب الله، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه؟

قال: نعم.

قال: فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَقَدْزَنَّا فِيهَا السَّبِيحَ سَبِيحًا فِيهَا لِيَالِي وَيَأْمَنًا مَّامِنِينَ﴾^(١) أي موضع هو؟

قال أبو حنيفة: هو ما بين مكة والمدينة، فالتفت أبو عبد الله إلى جلسائه، وقال:

نشدكم بالله هل تسировون بين مكة والمدينة ولا تأمنون على دمائكم من القتل، وعلى أموالكم من السرقة؟ فقالوا: اللهم نعم.

فقال أبو عبد الله: ويحك يا أبا حنيفة! إن الله لا يقول إلا حقاً أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(٢) أي موضع هو؟ قال: ذلك بيت الله الحرام، فالتفت أبو عبد الله إلى جلسائه وقال: نشدكم بالله هل تعلمون: أن عبد الله بن الزبير وسعيد بن جبيرة دخلاه فلم يأمنوا القتل؟

قالوا: اللهم نعم.

فقال أبو عبد الله ﷺ: ويحك يا أبا حنيفة! إن الله لا يقول إلا حقاً.

فقال أبو حنيفة: ليس لي علم بكتاب الله، إنما أنا صاحب قياس.

قال أبو عبد الله: فانظر في قياسك إن كنت مقيساً أيما أعظم عند الله القتل أو الزنا؟

قال: بل القتل.

(١) سورة سبأ، الآية ١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٩٧.

قال: فكيف رضي في القتل بشاهدين، ولم يرض في الزنا إلا بأربعة؟
ثم قال له: الصلاة أفضل أم الصيام؟ قال: بل الصلاة أفضل.

قال عليه السلام: فيجب على قياس قولك على الحائض قضاء ما فاتها من
الصلاة في حال حيضها دون الصيام، وقد أوجب الله تعالى عليها قضاء
الصوم دون الصلاة.

قال له: البول أقدر أم المني؟

قال: البول أقدر.

قال عليه السلام: يجب على قياسك أن يُجب الغسل من البول دون المني،
وقد وجب الله تعالى الغسل من المني دون البول.

قال: إنما أنا صاحب رأي.

قال عليه السلام: فما ترى في رجل كان له عبد فتزوج وزوج عبده في ليلة
واحدة، فدخلوا بامرأتهما في ليلة واحدة ثم سافرا وجعلتا امرأتهما في بيت
واحد وولدتا غلامين فسقط البيت عليهم، فقتل المرأتين وبقي الغلامان
أيهما في رأيك المالك وأيهما المملوك وأيهما الوارث وأيهما الموروث؟

قال: إنما أنا صاحب حدود.

قال: فما ترى في رجل أعمى فقأ عين صحيح وأقطع قطع يد رجل،
كيف يقام عليهما الحد؟

قال: إنما أنا رجل عالم بمباعد الأنبياء.

قال: فأخبرني عن قول الله لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون:
﴿لَمَّا يَنْذَرُكَ آوْ يَحْشَى﴾^(١) ولعل منك شك؟

قال: نعم.

قال: وكذلك من الله شك إذ قال: ﴿لَعَلَّكُمْ؟﴾

قال أبو حنيفة: لا علم لي.

قال ﷺ: تزعم أنك تفتي بكتاب الله ولست ممن ورثه، وتزعم أنك صاحب قياس وأول من قاس إبليس لعنه الله ولم يبين دين الإسلام على القياس وتزعم أنك صاحب رأي وكان الرأي من رسول الله ﷺ صواباً، ومن دونه خطأ، لأن الله تعالى قال: ﴿لَتَعْلَمَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّكَ لَا تَدْرِي حَقَّ يَوْمِكُمْ أَفَ يَكُونُونَ حُكَّامًا﴾ (١) ولم يقل ذلك لغيره، وتزعم أنك صاحب حدود، ومن أنزلت عليه أولى بعلمها منك، وتزعم أنك عالم بمباعد الأنبياء، ولخاتم الأنبياء أعلم بمباعدتهم منك، ولولا أن يقال: دخل على ابن رسول الله فلم يسأله عن شيء ما سألتك عن شيء، فقس إن كنت مقيساً.

قال أبو حنيفة: لا أتكلم بالرأي والقياس في دين الله بعد هذا المجلس.

قال: كلا إن حب الرئاسة غير تاركك كما لم يترك من كان قبلك تمام الخبر.

وعن عيسى بن عبد الله القرشي قال: دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله ﷺ فقال: يا أبا حنيفة قد بلغني أنك تقيس!!

فقال: نعم.

فقال: لا تقس فإن أول من قاس إبليس لعنه الله حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فقياس بين النار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النار وعرف ما بين النورين، وصفاء أحدهما على الآخر.

وعن الحسن بن محبوب^(١) عن سماعة قال: قال أبو حنيفة لأبي عبد الله عليه السلام: كم بين المشرق والمغرب؟

قال: مسيرة يوم للشمس بل أقل من ذلك، قال: فاستعظمه.

قال: يا عاجز لم تنكر هذا إن الشمس تطلع من المشرق، وتغرب في المغرب في أقل من يوم.

عن عبد الكريم بن عتبة الهاشمي^(٢) قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بمكة، إذ دخل عليه أناس من المعتزلة، فيهم عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وحفص بن سالم، وأناس من رؤسائهم، وذلك أنه حين قتل التوليد، واختلف أهل الشام بينهم، فتكلموا فأكثرُوا وخطبوا فأطالوا.

فقال لهم أبو عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: إنكم قد أكثرتم علي فأطلتم فأسندوا أمركم إلى رجل منكم، فليتكلم بحجتكم وليوجز.

فأسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد، فأبلغ وأطال، فكان فيما قال أن قال:

قتل أهل الشام خليفتهم، وضر بالله بعضهم ببعض، وتشئت أمرهم فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروءة، ومعدن للخلافة، وهو محمد بن عبد الله بن الحسن فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه، ثم نظهر أمرنا معه، وندعو الناس إليه فمن بايعه كنا معه وكان منا. ومن اعتزلنا كفننا عنه ومن نصب لنا جاهدناه ونصبنا له على بغيه ونرده إلى الحق وأهله، وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنه لا غنى بنا عن مثلك، لفضلك ولكثرة شيعتك، فلما فرغ قال أبو عبد الله عليه السلام: أكلكم على مثل ما قال عمرو؟

(١) الحسن بن محبوب السراذ ويقال الزراد. يكنى أبا علي مولى بجيلة كوفي ثقة عين روى عن الرضا عليه السلام وكان جليل القدر يعد في الأركان الأربعة في عصره.

(٢) عبد الكريم بن هبة الهاشمي من أصحاب أبي الحسن الكاظم عليه السلام ثقة.

قالوا: نعم. فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ثم قال:

إنما نسخط إذا عصي الله فإذا أطيع الله رضينا أخبرني يا عمرو لو أن الأمة قلدتك أمرها فملكته بغير قتال ولا مؤونة، فقليل لك: «ولها من شئت من كنت تولي؟»

قال: كنت أجعلها شورى بين المسلمين.

قال: بين كلهم؟

قال: نعم.

قال: بين فقهاءهم وخيارهم؟

قال: نعم.

قال: قريش وغيرهم؟

قال: العرب والعجم.

قال: فأخبرني يا عمرو أتتولى أبا بكر وعمر أو تتبرأ منهما؟

قال: أتولاهما.

قال: يا عمرو إن كنت رجلاً تتبرأ منهما فإنه يجوز لك الخلاف عليهما، وإن كنت تتولاهما فقد خالفتهما، قد عهد عمر إلى أبي بكر فبايعه ولم يشاور أحداً، ثم ردها أبو بكر عليه ولم يشاور أحداً، ثم جعلها عمر شورى بين ستة، فأخرج منها الأنصار غير أولئك الستة من قريش، ثم أوصى الناس فيهم بشيء ما أراك ترضى أنت ولا أصحابك.

قال: وما صنع؟

قال: أمر صهيياً أن يصلي بالناس ثلاثة أيام، وأن يتشاور أولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلا ابن عمر ويشاورونه وليس له من الأمر شيء،

وأوصى من كان بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت ثلاثة أيام ولم يفرغوا ويبايعوه أن يضرب أعناق الستة جميعاً وإن اجتمع أربعة قبل أن يمضي ثلاثة أيام وخالف اثنان أن يضرب أعناق الاثنين أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورى في المسلمين؟

قالوا: لا.

قال: يا عمرو دع ذا أرأيت لو بايعت صاحبك هذا الذي تدعو إليه، ثم اجتمعت لكم الأمة ولم يختلف عليكم منها رجلاً، فأفضيتم إلى المشركين الذين لم يسلموا ولم يؤدوا الجزية، كان عندكم وعند صاحبكم من العلم ما تسيرون فيهم بسيرة رسول الله ﷺ في المشركين في الجزية؟ قالوا: نعم.

قال: فتصنعون ماذا؟

قالوا: ندعوهم إلى الإسلام فإن أبوا دعوناهم إلى الجزية.

قال: فإن كانوا مجوساً، وأهل كتاب، وعبداء النيران والبهائم وليسوا بأهل كتاب؟

قالوا: سواء.

قال: فأخبرني عن القرآن أنقرأونه؟

قال: نعم.

قال: إقرأ ﴿قُلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَقًّا يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ قال: فاستثنى الله عز وجل واشترط من الذين أوتوا الكتاب فهم والذين لم يؤتوا الكتاب سواء.

قال: نعم.

قال ﷺ: عمن أخذت هذا؟

قال: سمعت الناس يقولونه.

قال: فدع ذا فإنهم إن أبوا الجزية فقاتلتهم فظهرت عليهم كيف تصنع بالغنيمة؟

قال: أخرج الخمس وأقسم أربعة أخماس بين من قاتل عليها.

قال: تقسمه بين جميع من قاتل عليها؟

قال: نعم.

قال: فقد خالفت رسول الله في فعله وفي سيرته، وبينني وبينك فقهاء أهل المدينة ومشيختهم، فسلهم فإنهم لا يختلفون ولا يتنازعون في أن رسول الله إنما صالح الأعراب على أن يدعهم في ديارهم، وأن لا يهاجروا، على إنه إن داهمه من عدوه دهم فيستفزه فيقاتل بهم، وليس لهم من الغنيمة نصيب وأنت تقول بين جميعهم، فقد خالفت رسول الله ﷺ في سيرته في المشركين، دع ذا ما تقول في الصدقة؟

قال: فقرأ عليه هذه الآية: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ إلى آخرها.

قال: نعم فكيف تقسم بينهم؟

قال: أقسمها على ثمانية أجزاء، فأعطي كل جزء من الثمانية جزءاً.

فقال ﷺ: إن كان صنف منهم عشرة آلاف وصنف رجلاً واحداً أو رجلين أو ثلاثة، جعلت لهذا الواحد مثل ما جعلت للعشرة آلاف.

قال: نعم.

قال: وما تصنع بين صدقات أهل الحضر وأهل البوادي فتجعلهم فيها سواء؟

قال: نعم.

قال: فخالفت رسول الله في كل ما أتى به، كان رسول الله يقسم صدقة البوادي في أهل البوادي، وصدقة الحضر في أهل الحضر، ولا يقسم بينهم بالسوية إنما يقسمه قدر ما يحضر منهم، وعلى قدر ما يحضره فإذا كان في نفسك شيء مما قلت لك فإن فقهاء أهل المدينة، ومشيوخهم كلهم لا يختلفون في أن رسول الله كذا كان يصنع، ثم أقبل على عمرو وقال:

اتق الله يا عمرو وأنتم أيها الرهط! فاتقوا الله، فإن أبي حدثني وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله وستة رسوله أن رسول الله ﷺ قال: «من ضرب الناس بسيفه، ودعاهم إلى نفسه، وفي المسلمين من هو أعلم منه، فهو ضال متكلف»^(١).

وروي عن يونس بن يعقوب^(٢) قال: كنت عند أبي عبد الله ﷺ فورد عليه رجل من أهل الشام فقال: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض، وقد جئت لمناظرة أصحابك.

فقال له أبو عبد الله: كلامك هذا من كلام رسول الله ﷺ أو من عندك؟

فقال: من كلام رسول الله بعضه، ومن عندي بعضه.

فقال أبو عبد الله: فأنت إذا شريك رسول الله ﷺ!

(١) الاحتجاج، ج ٢ ص ١١٨.

(٢) يونس بن يعقوب بن قيس أبو علي الجلاب البجلي الدهني - وقال النجاشي: إنه اختص بأبي عبد الله ﷺ وأبي الحسن ﷺ وكان يترك لأبي الحسن ﷺ ومات في المدينة قريباً من الرضا ﷺ فتولى أمره وكان حفيلاً عندهم موثقاً..

قال: لا.

قال: فسمعت الوحي من الله تعالى؟

قال: لا.

قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله؟

قال: لا.

قال: فالتفت إليّ أبو عبد الله ﷺ فقال: يا يونس هذا خصم نفسه قبل أن يتكلم، ثم قال: يا يونس لو كنت تحسن الكلام كلمته. قال يونس: فيا لها من حسرة. فقلت جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام، وتقول: ويل لأصحاب الكلام، يقولون: هذا ينقاد، وهذا ينساق، وهذا لا ينساق، وهذا نعقله، وهذا لا نعقله!

فقال أبو عبد الله ﷺ: إنما قلت: ويل لقوم تركوا قولي بالكلام، وذهبوا إلى ما يريدون. ثم قال: اخرج إلى الباب فمن ترى من المتكلمين فأدخله!

قال: فخرجت فوجدت حمران بن أعين، وكان يحسن الكلام، ومحمد بن نعمان الأحول، وكان متكلماً، وهشام بن سالم، وقيس الماصر، وكانا متكلمين وكان قيس عندي أحسنهم كلاماً، وكان قد تعلم الكلام من علي بن الحسين، فأدخلتهم، فلما استقر بنا المجلس وكنا في خيمة لأبي عبد الله ﷺ في طرف جبل في طريق الحرم، وذلك قبل الحج بأيام، فأخرج أبو عبد الله ﷺ رأسه من الخيمة فإذا هو ببعير يخب قال: هشام ورب الكعبة. قال: وكنا ظننا أن هشاماً رجل من ولد عقيل، وكان شديد المحبة لأبي عبد الله، فإذا هشام بن الحكم، وهو أول ما اختطت لحيته، وليس فينا إلا من هو أكبر منه سناً، فوسع له أبو عبد الله ﷺ وقال: «ناصرنا بقلبه ولسانه ويده» ثم قال لحمران:

كَلَّمَ الرجل يعني: الشامي فكَلَّمه حمران وظهر عليه ثم قال: يا طاقمي كلمه! فكَلَّمه فظهر عليه محمد بن نعمان. ثم قال لهشام بن سالم: كَلَّمه! فتعارفا، ثم قال لقيس الماصر: كَلَّمه! وأقبل أبو عبد الله عليه السلام يتبسم من كلامهما وقد استخذل الشامي في يده، ثم قال للشامي، كلم هذا الغلام! يعني هشام بن الحكم فقال: نعم ثم قال الشامي لهشام: يا غلام سلني في إمامة هذا يعني: أبا عبد الله عليه السلام؟

فغضب هشام حتى ارتعد ثم قال له: أخبرني يا هذا أربك أنظر لخلقه، أم خلقه لأنفسهم؟

فقال الشامي: بل ربّي أنظر لخلقه!

قال: ففعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟

قال: كلّفهم، وأقام لهم حجة ودليلاً على ما كلّفهم به، وأزاح في ذلك عللهم.

فقال له هشام: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟

قال الشامي: هو رسول الله ﷺ.

قال هشام: فبعد رسول الله ﷺ من؟ قال: الكتاب والسنّة.

فقال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنّة فيما اختلفنا فيه، حتى رفع عنا الاختلاف، ومكثنا من الاتفاق؟

فقال الشامي: نعم.

قال هشام: فلم اختلفنا نحن وأنت، جئتنا من الشام تخالفنا، تزعم أن الرأي طريق الدين، وأنت مقر بأن الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين؟

فسكت الشامي كالمفكر. فقال أبو عبد الله ﷺ :

مالك لا تتكلم؟

قال: إن قلت: إنا ما اختلفنا كابر، وإن قلت إن الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف، أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، ولكن عليه مثل ذلك.

فقال له أبو عبد الله: سله تجده ملياً!

فقال الشامي لهشام: من أنظر للخلق ربهم أم أنفسهم؟

فقال: بل ربهم أنظر لهم.

فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم، ويرفع اختلافهم،

ويبين لهم حقهم من باطلهم؟

فقال هشام: نعم.

قال الشامي: من هو؟

قال هشام: أما في ابتداء الشريعة فرسول الله ﷺ وأما بعد النبي

فعترة.

قال الشامي: من هو عترة النبي القائم مقامه في حجته؟

قال هشام: في وقتنا هذا أم قبله؟

قال الشامي: بل في وقتنا هذا.

قال هشام: هذا الجالس يعني: أبا عبد الله، الذي تشد إليه الرحال

ويخبرنا بأخبار السماء وراثة عن جدّه.

قال الشامي: وكيف لي بعلم ذلك؟

فقال هشام: سله عما بدا لك.

قال الشامي: قطعت عذري، فعلي السؤال.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: أنا أكفيك المسألة يا شامي: أخبرك عن مسيرك وسفرك، خرجت يوم كذا، وكذا طريقك كذا، ومررت على كذا ومرز بك كذا، فأقبل الشامي كلما وصف له شيئاً من أمره يقول: «صدقت والله» فقال الشامي: أسلمت لك الساعة... .

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: بل آمنت بالله الساعة، إن الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون، ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون.

قال: صدقت، فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وأنك وصي الأنبياء.

قال: فأقبل أبو عبد الله عليه السلام على حمران فقال: يا حمران تجري الكلام على الأثر فتصيب فالتفت إلى هشام بن سالم فقال: تريد الأثر ولا تعرف، ثم التفت إلى الأحوال فقال: قياس رواغ، تكسر باطلاً بباطل. إلا أن باطلك أظهر ثم التفت إلى قيس الماصر فقال: تكلم وأقرب ما يكون من الخبر عن الرسول عليه السلام أبعد ما تكون منه، تمزج الحق بالباطل، وقليل الحق يكفي من كثير الباطل أنت والأحوال قفازان حادقان.

قال يونس بن يعقوب: فظننت والله أنه يقول لهشام، قريباً مما قال لهما. فقال: يا هشام لا تكاد تقع تلوي رجليك إذ هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلّم الناس واتق الزلّة، والشفاعة من ورائك^(١).

وعن يونس بن يعقوب قال: كان عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من

أصحابه فيهم حمران بن أعين، ومؤمن الطاق، وهشام بن سالم، والطيّار، وجماعة من أصحابه، فيهم هشام بن الحكم، وهو شاب فقال أبو عبد الله:

يا هشام!

قال: لبيك يا بن رسول الله!

قال: ألا تخبرني كيف صنعت بعمر بن عبيد وكيف سألته؟ قال هشام: جعلت فداك يا بن رسول الله، إنني أجلك وأستحييك، ولا يعمل لساني بين يديك.

فقال أبو عبد الله ﷺ: إذا أمرتكم بشيء فافعلوه!.

قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد، وجلوسه في مسجد البصرة، وعظم ذلك عليّ، فخرجت إليه، ودخلت البصرة يوم الجمعة، وأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحقة كبيرة، وإذا بعمر بن عبيد عليه شملة سوداء مؤتزرة بها من صوف وشملة مرتد بها، والناس يسألونه، فاستفرجت الناس فأفروا لي، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتي، ثم قلت:

أيها العالم أنا رجل غريب، أتأذن لي فأسألك عن مسألة؟

قال: إسال!

قلت له: ألك عين؟

قال: يا بني أي شيء هذا من السؤال، إذا كيف تسأل عنه؟

فقلت: هذه مسألتني.

فقال: يا بني! سل وإن كانت مسألتك حمقى.

قلت: أجبني فيها.

قال: فقال لي: سل!

فقلت : ألك عين؟

قال : نعم .

قال : قلت : فما تصنع بها؟

قال : أرى بها الألوان والأشخاص .

قال : قلت : ألك أنف؟

قال : نعم .

قال : قلت : فما تصنع به؟

قال : أشم به الرائحة .

قال : قلت : ألك لسان؟

قال : نعم .

قال : قلت : فما تصنع به؟

قال : أتكلّم به .

قال : قلت : ألك أذن؟

قال : نعم .

قلت : فما تصنع بها؟

قال : أسمع بها الأصوات .

قال : قلت : ألك يدان؟

قال : نعم .

قلت : فما تصنع بهما؟

قال: أبطش بهما، وأعرف بهما اللين من الخشن.

قال: قلت: ألك رجلان؟

قال: نعم.

قال: قلت: فما تصنع بهما؟

قال: أنقل بهما من مكان إلى مكان.

قال: قلت: ألك قم؟

قال: نعم.

قال: قلت: فما تصنع به؟

قال: أعرف به المطاعم والمشارب على اختلافها؟

قال: قلت: ألك قلب؟

قال: نعم.

قال: قلت: فما تصنع به؟

قال: أميز به كلما ورد على هذه الجوارح.

قال: قلت: أفليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟

قال: لا.

قلت: وكيف ذاك وهي صحيحة سليمة؟

قال: يا بني إن الجوارح إذا شكت من شيء شتمته أو رآته أو ذاقته،

ردته إلى القلب، فيتيقن بها اليقين، وأبطل الشك.

قال: فقلت: فإنما أقام الله عز وجل القلب لشك الجوارح؟

قال: نعم. قلت: لا بد من القلب وإلا لم يستيقن الجوارح.

قال: نعم. قلت: يا أبا مروان! إن الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً، يصحح لها الصحيح، وينفي ما شكت فيه، ويترك هذا الخلق كله في حيرتهم، وشكهم، واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم، وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك، ترد إليه حيرتك وشكك.

قال: فسكت ولم يقل شيئاً.

قال: ثم التفت إليّ فقال لي: أنت هشام؟

قال: قلت: لا.

فقال لي: أجالسته؟

فقلت: لا.

قال: فمن أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة.

قال: فأنت إذاً هو، ثم ضممني إليه، وأقعدني في مجلسه، وما نطق حتى قمت، فضحك أبو عبد الله، ثم قال:

يا هشام من علمك هذا؟ قلت: يا بن رسول الله جرى على لساني.

قال: يا هشام هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى.

وذكر^(١) عن الصادق عليه السلام أنه قال: قوله عز وجل: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يقول أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك والمبلغ إلى جنتك من أن نتبع أهوائنا فنعطب، ونأخذ بآرائنا فنهلك، فإن من اتبع هواه وأعجب برأيه كان كرجل سمعت غناء الناس تعظمه وتصفه، فأحببت لقائه من حيث لا يعرفني لأنظر مقداره ومحلّه فرأيته في موضع قد أهدقوا به

جماعة من غشاء العامة فوقفت منتبذاً عنهم، متغشياً بلثام أنظر إليه وإليهم، فما زال يراوغيهم حتى خالف طريقهم، وفارقهم، ولم يقر. فتفرقت جماعة العامة عنه لحوائجهم، وتبعته أقتفي أثره، فلم يلبث أن مرّ بخباز فتغفله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة، فتعجبت منه، ثم قلت في نفسي: لعلّه معامله، ثم مرّ بعده بصاحب رمان، فما زال به حتى تغفله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة، فتعجبت منه، ثم قلت في نفسي: لعلّه معامله ثم أقول وما حاجته إذاً إلى المسارقة ثم لم أزل أتبعه حتى مرّ بمريض، فوضع الرغيفين والرمانتين بين يديه، ومضى وتبعته، حتى استقرّ في بقعة من صحراء، فقلت له: يا أبا عبد الله لقد سمعت بك وأحببت لقاءك، فلقيتك لكنني رأيت منك ما شغل قلبي، وأني سائلك عنه ليزول به شغل قلبي.

قال: ما هو؟

قلت: رأيتك مررت بخباز وسرقت منه رغيفين، ثم بصاحب الرمان فسرقت منه رمانتين.

فقال لي: قبل كل شيء حدثني من أنت؟

قلت: رجل من ولد آدم من أمة محمد ﷺ.

قال: حدثني ممن أنت؟

قلت: رجل من أهل بيت رسول الله.

قال: أين بلدك؟

قلت: المدينة.

قال: لعلّك جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي

طالب ﷺ.

قلت: بلى.

قال لي: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرفت به، وتركك علم جدك وأبيك، لأنه لا ينكر ما يجب أن يحمد ويمدح فاعله.

قلت: وما هو؟

قال: القرآن كتاب الله.

قلت: وما الذي جهلت؟

قال: قول الله عز وجل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وإني لما سرقت الرغيفين، كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانيتين، كانت سيئتين، فهذه أربع سيئات، فلما تصدقت بكل واحد منها كانت أربعين حسنة، انقص من أربعين حسنة أربع سيئات، بقي ست وثلاثون.

قلت: ثكلتك أمك! أنت الجاهل بكتاب الله! أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١) أنك لما سرقت رغيفين، كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين، ولما دفعتهما إلى غيرها من غير رضا صاحبها، كنت إنما أضفت أربع سيئات إلى أربع سيئات، ولم تضيف أربعين حسنة إلى أربع سيئات، فجعل يلاحيني فانصرفت وتركته.

وعن يونس بن يعقوب: عن أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام أنه قال: قال بعض المخالفين بحضرة الصادق عليه السلام لرجل من الشيعة:

ما تقول في العشرة من الصحابة؟

قال: أقول فيهم القول الجميل الذي يحطّ الله به سيئاتي ويرفع به درجاتي.

قال السائل: الحمد لله على ما أنقذني من بغضك، كنت أظنك رافضياً تبغض الصحابة.

فقال الرجل: ألا من أبغض واحداً من الصحابة فعليه لعنة الله.

قال: لعلك تتأول ما تقول، فمن أبغض العشرة من الصحابة؟

فقال: من أبغض العشرة من الصحابة فعليه لعنة الله، والملائكة والناس أجمعين، فوثب فقبل راسه فقال: اجعلني في حلّ مما قدفتك به من الرفض قبل اليوم.

قال: أنت في حلّ وأنت أخي ثم انصرف السائل فقال له الصادق ﷺ: جودت الله درك! لقد عجبت الملائكة من حسن توريتك، وتلفظك بما خلصك، ولم تلثم دينك، زاد الله في قلوب مخالفينا غمّاً إلى غمّ وحجب عنهم مراد متحلي مودتنا في تقيتهم.

فقال أصحاب الصادق ﷺ: يا بن رسول الله ﷺ ما عقلنا من كلام هذا إلا موافقته لهذا المتعنت الناصب.

فقال الصادق ﷺ: لئن كنتم لم تفهموا ما عنى، فقد فهمناه نحن، فقد شكره الله له، أن ولينا الموالي لأوليائنا المعادي لأعدائنا إذا ابتلاه الله بمن يمتحنه من مخالفيه، وفقه لجواب يسلم معه دينه وعرضه، ويعظم الله بالتقية ثوابه أن صاحبكم هذا قال: من عاب واحداً منهم فعليه لعنة الله أي: من عاب واحداً منهم، هو: أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ﷺ وقال في الثانية: من عابهم وشتمهم فعليه لعنة الله: وقد صدق لأن من عابهم فقد عاب علياً ﷺ لأنه أحدهم، فإذا لم يعب علياً ولم يذمه فلم يعبه

جميعاً، وإنما عاب بعضهم، ولقد كان لحزقيل المؤمن مع قوم فرعون الذين وشوا به إلى فرعون مثل هذه التورية كان حزقيل يدعوهم إلى توحيد الله، ونبوّة موسى، وتفضيل محمد رسول الله ﷺ على جميع رسل الله وخلقه، وتفضيل علي ابن أبي طالب عليه السلام والخيار من الأئمة على سائر أوصياء النبيين، وإلى البراءة من فرعون فوشى به واشتون إلى فرعون، وقالوا إن حزقيل يدعو إلى مخالفتك ويعين أعداءك على مضادتك.

فقال لهم فرعون: ابن عمي، وخليفتي في ملكي، وولي عهدي، إن كان قد فعل ما قلتُم فقد استحق العذاب على كفره نعمتي وإن كنتم عليه كاذبين فقد استحققتُم أشد العذاب لإيثاركم الدخول في مساءته، فجاء بحزقيل وجاء بهم فكاشفوه وقالوا: أنت تجحد ربوبية فرعون الملك، وتكفر نعمائه.

فقال حزقيل: أيها الملك هل جريت عليّ كذباً قط.

قال: لا.

قال: فسلمهم من ربهم؟

قالوا: فرعون.

قال: ومن خلقكم؟

قالوا: فرعون هذا.

قال: ومن رازقكم الكافل لمعايشكم، والدافع عنكم مكارهكم؟

قالوا: فرعون هذا.

قال حزقيل: أيها الملك فأشهدك وكل من حضرك، أن ربهم هو ربي، وخالقهم هو خالقي، ورازقهم هو رازقي، ومصلح معاشهم هو

مصلح معاشي، لا ربّ لي ولا خالق غير ربهم وخالقهم ورازقهم، وأشهدك ومن حضرك: أن كل ربّ وخالق سوى ربهم وخالقهم ورازقهم فأنا بريء منه، ومن ربوبيته، وكافر بالهيته.

يقول حزقيل هذا وهو يعني: أن ربهم هو الله ربي ولم يقل أن الذي قالوا: هم أنه ربهم هو ربي، وخفي هذا المعنى على فرعون ومن حضره، وتوهموا أنه يقول: فرعون ربي وخالقي ورازقي، فقال لهم: يا رجال السوء ويا طلاب الفساد في ملكي: ومريدي الفتنة بيني وبين ابن عمي، وهو عضدي، أنتم المستحقون لعذابي لإرادتكم فساد أمري، وهلاك ابن عمي والفتن في عضدي، ثم أمر بالأوتاد فجعل في ساق كل واحد منهم وتد وفي صدره وتد، وأمر أصحاب أمشاط الحديد فشقوا بها لحومهم من أبدانهم، فذلك ما قال الله تعالى: ﴿فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سِجَّاتٍ مَّامُكُورًا﴾^(١) لما وشوا به إلى فرعون ليهلكوه وحق بآل فرعون سوء العذاب، وهم الذين وشوا بحزقيل إليه لما أوتد فيهم الأوتاد، ومشط عن أبدانهم لحومها بالأمشاط^(٢).

ومثل هذه التورية قد كانت لأبي عبد الله ﷺ في مواضع كثيرة، فمن ذلك ما رواه معاوية بن وهب^(٣) عن سعيد بن سمان^(٤) قال: كنت عند أبي عبد الله إذ دخل عليه رجلان من الزيدية، فقالا له: أفيكم إمام مفترض طاعته؟

(١) سورة غافر، الآية ٤٥.

(٢) الاحتجاج، ج ٢ ص ١٢٥.

(٣) معاوية بن وهب الجلي، أبو الحسن عربي صميم ثقة صحيح، حسن الطريق روى عن أبي عبد الله ﷺ وأبي الحسن ﷺ.

(٤) سعيد بن عبد الرحمن، وقيل: ابن عبد الله الأهرج السمان أبو عبد الله التيمي مولا هم كوفي ثقة روى عن أبي عبد الله ﷺ.

قال: فقال: لا.

فقالا له: قد أخبرنا عنك الثقة أنك تقول به، وسموا أقواماً وقالوا: هم أصحاب ورع وتشمير، وهم ممن لا يكذب فغضب أبو عبد الله عليه السلام وقال: ما أمرتهم بهذا، فلما رأيا الغضب في وجهه خرجا.

فقال لي: أتعرف هذين؟

قلت: هم من أهل سوقنا، وهما من الزيدية، وهما يزعمان: أن سيف رسول الله عند عبد الله بن الحسن.

فقال: كذبا لعنهما الله، وهو ما رآه عبد الله بن الحسن بعينه، ولا بواحدة من عينيه. ولا رآه أبوه، اللهم إلا أن يكون رآه عند علي بن الحسين عليه السلام فإن كانا صادقين فما علامة في مقبضه، وما أثر في موضع مضربه، وأن عندي لسيف رسول الله، وأن عندي لراية رسول الله عليه السلام ودرعه، ولامته ومغفرة، فإن كانا صادقين فما علامة من درع رسول الله عليه السلام؟ وأن عندي لراية رسول الله المغلبة، وأن عندي ألواح موسى وعصاه، وأن عندي لخاتم سليمان بن داود وأن عنيد الطست الذي كان موسى يقرب به القربان، وأن عندي الاسم الذي كان رسول الله إذا وضعه بين المسلمين والمشركين، لم يصل من المشركين إلى المسلمين نشابة، وأن عندي لمثل التابوت الذي جاءت به الملائكة، ومثل السلاح فينا كمثل التابوت في بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل في أي أهل بيت وجد التابوت على أبوابهم أوتوا النبوة، ومن صار إليه السلاح منا أوتي الإمامة، ولقد لبس أبي درع رسول الله عليه السلام فخطت على الأرض خططا، ولبستها أنا وكانت تخط على الأرض - يعني: طويلة - بمثل ما كانت على أبي، وقائمتنا من إذا لبسها ملاها إن شاء الله تعالى.

وكان الصادق عليه السلام يقول: علمنا غابر ومزبور، ونكت في القلوب،

ونقر في الأسماع، وأن عندنا الجفر الأحمر، والجفر الأبيض، ومصحف فاطمة عليها السلام، وعندنا الجامعة، فيها جميع ما يحتاج إليه الناس، فستل عن تفسير هذا الكلام فقال: أما الغابر: فالعلم بما يكون، والمزبور: فالعلم بما كان، وأما النكت في القلوب: فهو الإلهام، والنقر في الأسماع: فحديث الملائكة، نسمع كلامهم، ولا نرى أشخاصهم، وأما الجفر الأحمر: فوعاء فيه توراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود وكتب الله.

وأما مصحف فاطمة: ففيه ما يكون من حادث، وأسماء من يملك إلى أن تقوم الساعة.

وأما الجامعة: فهو: كتاب طوله سبعون ذراعاً، إملأ رسول الله من فلق فيه وخط علي بن أبي طالب عليه السلام بيده. فيه والله جميع ما يحتاج الناس إليه إلى يوم القيامة، حتى أن فيه أرش الخدش، والجلدة ونصف الجلدة^(١).

ولقد كان زيد بن علي بن الحسين^(٢) يطمع أن يوصي إليه أخوه الباقر عليه السلام، ويقيم مقامه في الخلافة بعده، مثل ما كان يطمع في ذلك محمد بن الحنفية بعد وفاة أخيه الحسين عليه السلام، حتى رأى من ابن أخيه زين العابدين عليه السلام من المعجزة الدالة على إمامته ما رأى فكذلك زيد رجا أن يكون القائم مقام أخيه الباقر عليه السلام، حتى سمع ما سمع من أخيه ورأى ما رأى من ابن أخيه، أبي عبد الله الصادق.

(١) الاحتجاج، ج ٢ ص ١٣٣.

(٢) زيد بن علي بن الحسين عليه السلام: قال الشيخ المفيد في الإرشاد، كان زيد بن علي بن الحسين حين أخوته بعد أبي جعفر عليه السلام وأفضلهم، وكان عابداً ورعاً فقيهاً سخيّاً، شجاعاً، وظهر بالسيف بأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأخذ بأمر الحسين - وقال المحدث النوري في رجال مستدرک الوسائل: إن زيد بن علي جليل القدرة عظيم الشأن، كبير المنزلة، وأما ما ورد مما يوهم خلاف ذلك مطروح أو محمول على التقية.

فمن ذلك ما رواه صدقة ابن أبي موسى، عن أبي بصير، قال: لما حضر أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام الوفاة، دعا بابنه الصادق عليه السلام ليعهد إليه عهداً، فقال له أخوه زيد بن علي:

لما امتثلت في مثال الحسن والحسين عليهما السلام رجوت أن لا تكون أتيت منكراً.

فقال له الباقر عليه السلام: يا أبا الحسن إن الأمانات ليست بالمثل، ولا العهود بالرسوم، إنما هي أمور سابقة عن حجج الله تبارك وتعالى، ثم دعا بجابر بن عبد الله الأنصاري فقال:

يا جابر حدثنا بما عاينت من الصحيفة؟

فقال له: نعم يا أبا جعفر، دخلت على مولاتي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله لأهنيها بولادة الحسن عليه السلام، فإذا بيدها صحيفة بيضاء من درة، فقلت يا سيدة النسوان ما هذه الصحيفة التي أراها معك؟

قالت: فيها أسماء الأئمة من ولدي.

قلت لها: ناولينني لأنظر فيها!

قالت: يا جابر لولا النهي لكنت أفعل، ولكنه قد نهى أن يمسه إلا نبي أو وصي نبي، أو أهل بيت نبي، ولكنه مأذون لك أن تنظر إلى باطنها من ظاهرها.

قال جابر: فقرأت فإذا فيها: أبو القاسم محمد بن عبد الله المصطفى ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أمه آمنة.

أبو الحسن علي بن ابن طالب عليه السلام المرتضى، أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

أبو محمد الحسن بن علي البرّ التقي، أبو عبد الله الحسين بن علي
أمهما فاطمة بنت محمد.

أبو محمد علي بن الحسين العدل، أمه شهربانويه بنت يزجرد بن
شهریار.

أبو جعفر محمد بن علي الباقر، أمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي
ابن أبي طالب.

أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق، أمه: «أم فروة» بنت القاسم بن
محمد ابن أبي بكر.

أبو إبراهيم موسى بن جعفر الثقة، أمه جارية اسمها «حميدة»
المصفاة.

أبو الحسن علي بن موسى الرضا، أمه جارية اسمها: «نجمة».

أبو جعفر محمد بن علي الزكي أمه جارية اسمها: «خيزران».

أبو الحسن علي بن محمد الأمين، أمه جارية اسمها: «سوسن».

أبو محمد الحسن بن علي الرضي، أمه جارية اسمها: «سمانة» تكنى
أم الحسن.

أبو القاسم محمد بن الحسن وهو الحجّة القائم، أمه جارية اسمها:
«نرجس» صلوات الله عليهم أجمعين^(١).

وعن زرارة بن أعين قال: قال لي زيد بن علي وأنا عند أبي عبد
الله ﷺ: يا فتى ما تقول في رجل من آل محمد استنصرك؟ قال:

قلت: إن كان مفروض الطاعة، فلي أن أفعل ولي أن لا أفعل.

فلما خرج قال أبو عبد الله: أخذته والله من بين يديه ومن خلفه، وما تركت له مخرجاً.

وقيل للصادق عليه السلام: ما يزال يخرج رجل منكم أهل البيت فيقتل ويقتل معه بشر كثير فأطرق طويلاً ثم قال: إن فيهم الكذابين وفي غيرهم المكذبين.

وروي عنه عليه السلام أنه قال: ليس منا أحد إلا وله عدو من بيته، ف قيل له: بنو الحسن لا يعرفون لمن الحق؟

قال: بلى ولكن يحملهم الحسد^(١).

عن أبي يعقوب^(٢) قال: لقيت أنا ومعلّى بن خنيس^(٣) الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب عليه السلام فقال: يا يهودي فأخبرنا بما قال فينا جعفر بن محمد عليه السلام؟ فقال: هو والله أولى باليهودية منكما إن اليهودي من شرب الخمر.

ويهذا الإسناد قال: سمعت أبا عبد الله يقول لو توفي الحسن بن الحسن على الزنا والربا وشرب الخمر، كان خيراً له مما توفي عليه^(٤).

وعن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٥) قال: أي شيء تقول؟ قلت: إني أقول أنها خاصة لولد فاطمة.

(١) الاحتجاج، ج ٢ ص ١٣٧.

(٢) أبي يعقوب من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.

(٣) معلّى بن خنيس: أبو عبد الله مولى الصادق عليه السلام، ومن قبله كان مولى بني أسد، كوفي. وقال الغضائري: أنه كان أول الأمر مغيراً ثم دعى إلى محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية وفي هذه الظنة أخذه داود بن علي فقتله.

(٤) الاحتجاج، ج ٢ ص ١٣٨.

(٥) سورة فاطر، الآية ٣٢.

فقال ﷺ: أما من سل سيفه ودعا الناس إلى نفسه إلى الضلال من ولد فاطمة وغيرهم، فليس بداخل في الآية، قلت: من يدخل فيها قال: الظالم لنفسه الذي لا يدعو الناس إلى ضلال ولا هدى والمقتصد منا أهل البيت هو العارف حق الإمام والسابق بالخيرات هو الإمام^(١).

عن محمد ابن أبي عمير الكوفي^(٢) عن عبد الله بن الوليد السمان^(٣) قال: قال أبو عبد الله ﷺ: ما يقول الناس في أول العزم وصاحبكم أمير المؤمنين ﷺ؟ قال: قلت: ما يقدمون على أولي العزم أحداً.

قال: فقال أبو عبد الله ﷺ: إن الله تبارك وتعالى قال لموسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾^(٤) ولم يقل كل شيء موعظة. وقال لعيسى: ﴿وَلَا يُبَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾^(٥) ولم يقل كل شيء وقال لصاحبكم أمير المؤمنين ﷺ: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٦) وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُقُ وَلَا يَأْتِي إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٧) وعلم هذا الكتاب عنده^(٨).

وعن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال: سمعت الصادق ﷺ يقول:

(١) الاحتجاج، ج ٢ ص ١٣٨.

(٢) محمد ابن أبي عمير: واسم أبي عمير: زياد بن عيسى، ويكنى: أبا محمد مولى الأزدي من موالى المهلب ابن أبي صفرة، بغدادي الأصل والمقام، لقي أبا الحسن موسى ﷺ وسمع منه أحاديث كناه في بعضها فقال: يا أبا أحمد. وروى عن الرضا ﷺ كان جليل القدر عظيم المنزلة عندنا وعند المخالفين. وقال الشيخ الطوسي أنه كان أوثق الناس عند الخاصة والعامة وأنسكهم نسكاً وأزهدهم وأعبدتهم أدرك من الأئمة ثلاثة: أبا إبراهيم موسى بن جعفر.

(٣) عبد الله بن الوليد السمان النخعي مولى كوفي روى عن أبي عبد الله ﷺ ثقة.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٤٥.

(٥) سورة الزخرف، الآية ٦٣.

(٦) سورة الرعد، الآية ٤٣.

(٧) سورة الأنعام، الآية ٥٩.

(٨) الاحتجاج، ج ٢ ص ١٣٩.

إن لصاحب هذا الأمر غيبة لا بدّ منها، يرتاب فيها كل مبطل، قلت له: ولم جعلت فداك؟

قال: الأمر لا يؤذن في كشفه لكم.

قلت: فما وجه الحكمة في غيبته؟

قال: وجه الحكمة في غيبته، وجه الحكمة في غيبات من تقدمه من حجج الله تعالى ذكره، إن وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلا بعد ظهوره، كما لم ينكشف وجه الحكمة لما أتاه الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار لموسى عليه السلام، إلا وقت افتراقهما. يابن الفضل إن هذا الأمر أمر من الله، وسرّ من سرّ الله، وغيب من غيب الله، ومتى علمنا أنه عز وجل حكيم صدقنا بأن أفعاله كلها حكمة، وإن كان وجهها غير منكشف^(١).

وعن علي بن الحكم^(٢) عن أبان قال: أخبرني الأحول أبو جعفر محمد بن النعمان الملقب بمؤمن الطاق: إن زيد بن علي بن الحسين بعث إليه وهو مختف قال: فأتيته فقال لي: يا أبا جعفر ما تقول إن طرقت طارق منا أخرج معه؟

قال: قلت له: إن كان أبوك أو أخوك خرجت معه.

قال: فقال لي: فأننا أريد أن أخرج وأجاهد هؤلاء القوم فأخرج معي!

قال: قلت: لا أفعل ذلك جعلت فداك!

قال: فقال لي: أترغب بنفسك عني؟

(١) الاحتجاج، ج ٢، ١٤٠.

(٢) علي بن الحكم من أهل الأنبار وهو تلميذ ابن أبي عمير.

قال: فقلت له: إنما هي نفس واحدة، فإن كان الله تعالى في الأرض حجة فالمتخلق عنك ناج، والخارج معك هالك، وإن لم يكن الله في الأرض حجة فالمتخلف عنك والخارج معك سواء.

قال: فقال لي: يا أبا جعفر كنت أجلس مع أبي علي الخوان، فيلقمني اللقمة السمينة، ويرد لي اللقمة الحارة حتى تبرد شفقة علي، ولم يشفق علي من حر النار إذ أخبرك بالدين ولم يخبرني به.

قال: قلت له: من شفقتك عليك من حر النار لم يخبرك، خاف عليك أن لا تقبله فتدخل النار وأخبرني، فإن قبلته نجوت، وإن لم أقبل لم يبال أن أدخل النار ثم قلت له:

جعلت فداك أنتم أفضل أم الأنبياء؟

قال: بل الأنبياء.

قلت: يقول يعقوب ليوسف: ﴿يَبْنَؤُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾^(١) لِمَ لم يخبرهم حتى كانوا لا يكيدونه ولكن كتمه وكذا أبوك كتمك لأنه خاف عليك.

قال: فقال: أما والله لئن قلت ذلك فقد حدثني صاحبك بالمدينة إني أقتل وأصلب بالكناسة، وأن عنده لصحيفة فيها قتلي وصلبي.

قال: فحججت وحدثت أبا عبد الله عليه السلام بمقالة زيد وما قلت له: فقال لي: أخذته من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن يساره، ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه، ولم تترك له مسلكاً يسلكه^(٢).

وعن هشام بن الحكم قال: اجتمع ابن أبي العوجاء، وأبو شاعر

(١) سورة يوسف، الآية ٥.

(٢) الاحتجاج، ج ٢ ص ١٤٠.

الديصاني، الزنديق، وعبد الملك البصري، وابن المقفع، عند بيت الله الحرام، يستهزؤون بالحاج ويطعنون بالقرآن.

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض كل واحد منا ربع القرآن وميعادنا من قابل في هذا الموضع، نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كله، فإن في نقض القرآن إبطال نبوة محمد، وفي إبطال نبوته إبطال الإسلام. وإثبات ما نحن فيه، فاتفقوا على ذلك وافترقوا، فلما كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام فقال ابن أبي العوجاء:

أما أنا فمفكر منذ افترقنا في هذه الآية: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾^(١)، فما أقدر أن أضم إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً، فشغلتنى هذه الآية عن التفكير فيما سواها.

فقال عبد الملك: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾^(٢)، ولم أقدر على الإتيان بمثلاً.

فقال أبو شاعر: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُهَا إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٣)، ولم أقدر على الإتيان بمثلاً.

فقال ابن المقفع: يا قوم إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿وَقِيلَ يَتَاَرْضُ اآلِى مَاءٍ كِ وَتَسْمَاءُ اآلِى وَغِيصَ اآلْمَاءُ وَفِيصَ اآلْمَرْ وَاسْتَوَتْ عَلَى اآلْجُودِي وَقِيلَ بَعْدًا لِّلْقَوْمِ اآلْظَالِمِينَ﴾^(٤) لم أبلغ غاية المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلاً.

قال هشام بن الحكم: فبينما هم في ذلك، إذ مر بهم جعفر بن محمد

الصادق ﷺ فقال: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(١) فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهت أمر وصية محمد إلا إلى جعفر بن محمد، والله ما رأيناه قط إلا هبناه واقشعرت جلودنا لهيبته، ثم تفرقوا مقرّين بالعجز^(٢).

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

(٢) الاحتجاج، ج ٢ ص ١٤٣.



احتجاجه ﷺ مع سفيان الثوري

احتجاجه ﷺ على الصوفية لما دخلوا عليه فيما ينهون عنه من طلب الرزق

دَخَلَ سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى عَلَيْهِ ثِيَاباً بَيْضاً كَأَنَّهَا غِرْقَىءُ الْبَيَاضِ^(١) فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ لِبَاسِكَ. فَقَالَ ﷺ لَهُ: اسْمَعْ مِنِّي وَعَ مَا أَقُولُ لَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ لَكَ عَاجِلاً وَآجِلاً إِنْ كُنْتَ أَنْتَ مُتُّ عَلَى السُّنَّةِ وَالْحَقِّ وَلَمْ تُمِتْ عَلَى بَدْعَةٍ. أَخْبَرَكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِي زَمَانٍ مُقْفَرٍ جَشِبَ^(٢) فَإِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا فَأَحَقُّ أَهْلِهَا بِهَا أَبْرَارُهَا لَا فَجَّارُهَا. وَمُؤْمِنُهَا لَا مُنَافِقُهَا. وَمُسْلِمُهَا لَا كَفَّارُهَا. فَمَا أَنْكَرْتَ يَا ثَوْرِيُّ، فَوَاللَّهِ - إِنِّي لَمَعَ مَا تَرَى - مَا أَتَى عَلَيَّ مُذْ عَقَلْتُ صَبَاحٌ وَلَا مَسَاءٌ وَلِلَّهِ فِي مَالِي حَقٌّ أَمْرُنِي أَنْ أَضَعُهُ مَوْضِعاً إِلَّا وَضَعْتُهُ.

فَقَالَ: ثُمَّ أَتَاهُ قَوْمٌ مِمَّنْ يُظْهِرُ التَّزَهُدَ وَيَدْعُونَ النَّاسَ أَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ عَلَى مِثْلِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّقَشُّفِ^(٣) فَقَالُوا: إِنَّ صَاحِبَنَا حَصَرَ عَنْ كَلَامِكَ^(٤) وَلَمْ تَحْضِرْهُ حُجَّةٌ. فَقَالَ ﷺ لَهُمْ: فَأَدْلُوا بِهَا^(٥) فَإِنَّهَا أَحَقُّ مَا

(١) غِرْقَىءُ الْبَيَاضِ: القشر الرقيقة الملتصقة ببياض البيض.

(٢) الْمُقْفَرُ: خَلُوَ الْأَرْضُ مِنَ الْمَاءِ وَالْكَلاَمِ. الْجَشِبَ مِنَ الطَّعَامِ: الْغَلِيطُ الْخَشَنَ، الْجَدْبُ: انْقِطَاعُ الْمَطَرِ وَبَيْسُ الْأَرْضِ.

(٣) التَّقَشُّفُ: تَرَكَ النِّظَافَةَ. وَالتَّرَفَهُ ضِدُّ التَّعَمُّ.

(٤) أَيُ ضَاقَ صَدْرُهُ مِنْ كَلَامِكَ وَاسْتَحْيَا. الْحَصَرُ: الْعِي فِي الْمُنْطَقِ وَالْعَجْزُ عَنِ الْكَلَامِ.

(٥) الْإِدْلَاءُ بِالْشَيْءِ: إِحْضَارُهُ.

اتَّبِعْ وَعَمِلْ بِهِ. فقالوا: يقول الله تبارك وتعالى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَيُؤْمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١)، فمدح فعلهم. وقال في موضع آخر: ﴿وَيُطِيعُونَ أَلْفَمًا عَلَى حُبِّهِمْ سَبِيكًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٢) فنحن نكتفي بهذا. فقال رجل من الجلوساء: إنا ما رأيناكم تزهدون في الأطعمة الطيبة ومع ذلك تأمرون الناس بالخروج من أموالهم حتى تتمتعوا أنتم بها. فقال أبو عبد الله ﷺ: دعوا عنكم ما لا يُنتفع به، أخبروني أيها التفرُّ الكُم عِلْمٌ يَنَاسِخُ الْقُرْآنَ مِنْ مَنْسُوخِهِ. ومحكمه من متشابهه، الذي في مثله ضَلَّ مَنْ ضَلَّ وهلك من هلك من هذه الأمة؟ فقالوا له: بعضه، فأما كلُّه فلا. فقال ﷺ لهم: من هاهنا أوتيتُم^(٣). وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ وأما ما ذكرتم من أخبار الله إيانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم ليحسن فعالهم فقد كان مُباحًا جائزًا ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منه على الله وذلك أن الله جلَّ وتقدَّس أمرٌ بخلاف ما عملوا به فصار أمره ناسخًا لفعليهم وكان نهى تبارك وتعالى رحمةً للمؤمنين ونظرًا لكيلا يَضُرُّوا بأنفسهم وعيالاتهم، منهم الضَّعْفَةُ الصَّغَارُ والولدانُ والشيخُ الفاني والعجوزُ الكبيرةُ الذين لا يصبرون على الجوع، فإن تصدَّقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً فمن ثم قال رسول الله ﷺ: خمسُ تمراتٍ أو خمسُ قرصٍ أو دنانير، أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقهُ الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه وعياله، ثم الثالثة على القرابة وإخوانه المؤمنين. ثم الرابعة على جيرانه الفقراء. ثم الخامسة في سبيل الله وهو أحسها أجراً. وقال النبي ﷺ: للأنصاري. حيث أعتق عند موته خمسةً أو ستةً من

(١) سورة العشر، الآية ٩.

(٢) سورة الإنسان، الآية ٨.

(٣) أشار إلى نفسه الشريف ﷺ.

الرقيق^(١) ولم يكن يملك غيرهم وله أولادٌ صغارٌ - : «لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفنونه مع المسلمين ترك صبيّةً صغاراً يتكفّفون الناس»^(٢). ثم قال: حدّثني أبي أن النبي ﷺ قال: ابدأ بمن تعول الأدنى فالأدنى.

ثم هذا ما نطق به الكتاب ردّاً لقولكم ونهياً عنه مفروضٌ من الله العزيز الحكيم قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٣) أفلا ترون أن الله تبارك وتعالى عبّر ما أراكم تدعون إليه والمسرّفين، وفي غير آيةٍ من كتاب الله يقول: ﴿إِلكُمْ لَا يُجِبُ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٤). فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتر لكن أمرٌ بين أمرين لا يُعطي جميع ما عنده ثم يدعوا الله أن يرزقه فلا يستجيب له للحدث الذي جاء عن النبي ﷺ: «إِنْ أضعافاً من أمتي لا يُستجاب لهم دعاؤهم: رجلٌ يدعو على والديه. ورجلٌ يدعو على غريمٍ ذهبَ له بمالٍ ولم يُشهد عليه»^(٥). ورجلٌ يدعو على امرأته وقد جعل الله تخليةً سبيلها بيده. ورجلٌ يعقدُ في البيت ويقول: يا ربّ أرزقني ولا يخرجْ يطلب الرزق فيقول الله جلّ وعزّ: عبدي! أو لم أجعل لك السبيل إلى الطلبِ والضربِ في الأرض بجوارحٍ صحيحةٍ فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلبِ لإتباعِ أمري ولكي لا تكون كلاً على أهلك فإن شئت رزقتك وإن شئت قُتِرْتُ عليك وأنت معذورٌ عندي. ورجلٌ رزقه الله مالاً كثيراً فأنفقهُ ثم أقبل يدعو يا ربّ أرزقني، فيقول الله: ألم أرزقك رزقاً واسعاً أفلا اقتصدت فيه كما أمرتُك ولم تُسرف وقد نهيتُك. ورجلٌ يدعو في قطيعةٍ رجمٍ.

(١) الرقيق: المملوك.

(٢) الصية: جمع صبي. وتكفّف الرجل: سأل كفاً من الطعام أو ما يكف به الجوع. أو أخذ الشيء ببطني كفه.

(٣) سورة الفرقان: آية ٦٧. والقتل: القليل من العيش. المقتر: الفقير المقل.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٤١، سورة الأعراف، الآية ٣١.

(٥) الغريم: المديون.

ثم علم الله نبيه ﷺ كيف يُنفق وذلك أنه كانت عنده ﷺ أوقية من ذهب^(١) فكره أن تبیت عنده شيء فتصدق وأصبح ليس عنده شيء. وجاءه من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل واغتم هو ﷺ حيث لم يكن عنده ما يعطيه وكان رحيماً رفيقاً فأدب الله نبيه ﷺ بأمره إياه فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَقُولَةً إِنَّكَ عَنِّيكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾^(٢) يقول: إن الناس قد يسألونك ولا يعذرونك، فإذا أعطيت جميع ما عندك كنت قد خسرت من المال فهذه أحاديث رسول الله ﷺ يُصدقها الكتاب والكتاب يُصدقُه أهله من المؤمنين.

وقال أبو بكر عند موته حيث قيل له: أوصي فقال: أوصي بالخمس والخمس كثير فإن الله قد رضي بالخمس. فأوصى بالخمس وقد جعل الله عز وجل له الثلث عند موته ولو علم أن الثلث خير له أوصى به.

ثم من قد علمتم بعده في فضله وزهده سلمان وأبو ذر ؓ فأما سلمان ؓ فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنته حتى يحضره عطاؤه من قابل. فقيل له: يا أبا عبد الله أنت في زهدك تصنع هذا وإنك لا تدري لعلك تموت اليوم أو غداً. فكان جوابه أن قال: ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتُم عليّ الفناء. أو ما علمتم يا جهلة أن النفس ثلاث على صاحبها^(٣) إذا لم يكن له من العيش ما تعتمد عليهن فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت. فأما أبو ذر ؓ فكانت له ثوبقات وشويهات يحلبها^(٤) ويذبح منها إذا اشتهى أهله اللحم، أو نزل به ضيف أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة نحر لهم الجوزور، أو من الشياه على قدر ما يذهب عنهم

(١) الأوقية: جزء من أجزاء الرطل.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٣١.

(٣) ثلاث: أي تبطل وتحتس من الطاعات وتسترخي وتستضعف.

(٤) الثوبقات: جمع ثوبقة تصغير الناقة والشويهة: جمع شويهة تصغير الشاة.

قَرَمَ اللحم^(١) فيقسمه بينهم ويأخذ كنصيب أحدهم لا يفضل عليهم. ومن أزهّد من هؤلاء؟ وقد قال فيهم رسول الله ﷺ ما قال ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتة كما تأمرون الناس بالقاء أمتعتهم وشيئهم ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم.

واعلموا أيها النفر أني سمعتُ أبي يروي عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله ﷺ قال يوماً: «ما عجبْتُ من شيءٍ كعجبي من المؤمن أنه إن فُرِضَ جسدهُ في دار الدنيا بالمقاريض كان خيراً له فكلُّ ما يصنعُ الله عزَّ وجلَّ به فهو خيرٌ له» فليت شعري هل يحقُّ فيكم اليوم^(٢) ما قد شرحت لكم أم أزيدكم. أو ما علمتم أن الله جلَّ اسمه قد فرض على المؤمنين في أول الأمر أن يُقاتل الرجل منهم عشرةً من المشركين ليس له أن يولي وجهه عنهم ومن ولّاهم يومئذٍ دُبْرُه فقد تبوّأ مقعده من النار ثم حولهم من حالهم رحمةً منه فصار الرجل منهم عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفاً من الله عزَّ وجلَّ عن المؤمنين، فنسخ الرجلان العشرة.

وأخبروني أيضاً عن القضاة أجورٌ منهم حيث يفرضون على الرجل منكم نفقةً امرأته إذا قال: أنا زاهدٌ وإنه لا شيء لي؟ فإن قلت: جورٌ ظلّمت أهل الإسلام وإن قلت: بل عدلٌ خصمتهم أنفسهم. وحيث تريدون صدقة من تصدّق على المساكين عند الموت بأكثر من الثلث؟ أخبروني لو كان الناس كلّهم كما تريدون زُهاداً لا حاجة لهم في متاع غيرهم، فعلى من كان يتصدّق بكفارات الأيمان والتذوّر والصدقات من فرض الزكاة من الإبل والغنم والبقر وغير ذلك من الذهب والفضة والنخل والزبيب وسائر ما قد

(١) أهل الماء هم الذين يسقون له الماء. الجزور: البعير وما ينحر من الإبل والغنم والشاة، والقرم: شدة شهوة اللحم.

(٢) يحقُّ فيه: أثر فيه - وبه: أحاط - وبهم: نزل.

وجبت فيه الزكاة؟ إذا كان الأمر على ما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدنيا إلاّ قذمه وإن كان به خصاصة. فبئس ما ذهبتُم إليه وحملتُم الناس عليه من الجهل بكتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه ﷺ وأحاديثه التي يُصدّقها الكتابُ المنزلُ، أو ردّكم إياها بجهالتكم وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي.

وأخبروني أنتم عن سليمان بن داود ﷺ حيث سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه الله جلّ اسمه ذلك، وكان ﷺ يقول الحق ويعمل به ثم لم نجد الله عاب ذلك عليه ولا أحداً من المؤمنين. وداود ﷺ قبله في ملكه وشدة سلطانه. ثم يوسف النبي ﷺ حيث قال لملك مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾^(١) فكان أمره الذي كان اختار مملكة الملك وما حولها إلى اليمن فكانوا يمتارون الطعام^(٢) من عنده لمجاعة أصابتهم، وكان ﷺ يقول الحق ويعمل به فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه. ثم ذو القرنين عبدٌ أحبّ الله فأحبّه، طوى له الأسباب وملكه مشارق الأرض ومغاربها وكان يقولُ بالحق ويعمل به ثم لم نجد أحداً عاب عليه فتأدّبوا أيّها الثّغرُ بآداب الله عزّ وجلّ للمؤمنين واقتصروا على أمر الله ونهيه ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم مما لا علم لكم به وردّوا [الاعلّم] إلى أهله توجروا وتعذروا عند الله تبارك وتعالى وكونوا في طلب علم الناسخ من القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه وما أحلّ الله فيه ممّا حرّم، فإنّه أقربُ لكم من الله وأبعدُ لكم من الجهل. ودعوا الجهالة لأهلها فإن أهل الجهل كثيرٌ وأهل العلم قليلٌ وقد قال الله: ﴿وَقَوِّ كَلَّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهَا﴾^{(٣)(٤)}.

(١) سورة يوسف، الآية ٥٥.

(٣) سورة يوسف، الآية ٧٦.

(٢) يمتارون: يحملون الطعام.

(٤) تحف العقول، ص ٣٤٨.

الخبر المروي عن المفضل بن عمر في التوحيد المشتهر بالإهليلجة^(١)

كتب المفضل بن عمر الجعفي إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يعلمه أن قوماً ظهوروا من أهل هذه الملة يجحدون الربوبية، ويجادلون على ذلك، ويسأله أن يرّد عليهم قولهم، ويحتجّ عليهم فيما ادّعوا بحسب ما احتجّ به على غيرهم. فكتب أبو عبد الله عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد وفقنا الله وإياك لطاعته، وأوجب لنا بذلك رضوانه وبرحمته، وصل كتابك تذكر فيه ما ظهر في ملتنا، وذلك من قوم من أهل الإلحاد بالربوبية قد كثرت عدّتهم واشتدّت خصومتهم، وتسأل أن أصنع للردّ عليهم والنقص لما في أيديهم كتاباً على نحو ما رددت على غيرهم من أهل البدع والاختلاف، ونحن نحمد الله على النعم السابغو والحجج البالغة والبلاء المحمود عند الخاصة والعامة فكان من نعمه العظام وآلائه الجسام التي أنعم بها تقريره قلوبهم بربوبيته، وأخذة ميثاقهم بمعرفته، وإنزاله عليهم كتاباً فيه شفاء لما في الصدور من أمراض الخواطر وشبهات الأمور، ولم يدع لهم ولا شيء من خلقه حاجة إلى من سواه، واستغنى عنهم، وكان الله غنياً حميداً.

ولعمري ما أتى الجهال من قبل ربّهم وأنهم ليرون الدلالات

الواضحات والعلامات البينات في خلقهم، وما يعاينون من ملكوت السماوات والأرض والصنع العجيب المتقن الدال على الصانع، ولكنهم قوم فتحوا على أنفسهم أبواب المعاصي، وسهلوا لها سبيل الشهوات، فغلبت الأهواء على قلوبهم، واستحوذ الشيطان بظلمهم عليهم، وكذلك يطبع الله على قلوب المعتدين. والعجب من مخلوق يزعم أن الله يخفى على عباده وهو يرى أثر الصنع في نفسه بتركيب يبهر عقله، وتأليف يبطل حجته.

ولعمري لو تفكروا في هذه الأمور العظام لعاينوا من أمر التركيب البين، ولطف التدبير الظاهر، ووجود الأشياء مخلوقة بعد أن لم تكن، ثم تحولها من طبيعة إلى طبيعة، وصنعة بعد صنعة، ما يدلهم ذلك على الصانع فإنه لا يخلو شيء منها من أن يكون فيه أثر تدبير وتركيب يدل على أن له خالقاً مدبراً، وتأليف بتدبير يهدي إلى واحد حكيم.

وقد وافاني كتابك ورسمت لك كتاباً كنت نازعت فيه بعض أهل الأديان من أهل الإنكار، وذلك أنه كان يحضرني طبيب من بلاد الهند، وكان لا يزال ينازعني في رأيه، ويجادلني على ضلالتة، فبينما هو يوماً يدق إهليلجة ليخلطها دواء احتجت إليه من أدويته، إذ عرض له شيء من كلامه الذي لم يزل ينازعني فيه من ادعائه أن الدنيا لم تزل ولا تزال شجرة تنبت وأخرى تسقط، نفس تولد وأخرى تتلف، وزعم أن انتحالي المعرفة لله تعالى دوى لا يبتة لي عليها، ولا حجة لي فيها، وأن ذلك أمر أخذه الآخر عن الأول، والأصغر عن الأكبر، وأن الأشياء المختلفة والمؤتلفة والباطنة والظاهرة إنما تعرف بالحواس الخمس: نظر العين، وسمع الأذن، وشم الأنف، وذوق الفم، ولمس الجوارح، ثم قاد منطقته على الأصل الذي وضعه فقال: لم يقع شيء من حواسي على خالق يؤدي إلى قلبي إنكاراً لله تعالى.

ثم قال: أخبرني بِمَ تحتاج في معرفة ربك الذي تصف قدرته وربوبيته، وإنما يعرف القلب الأشياء كلها بالدلالات الخمس التي وصفت لك؟ قلت: بالعقل الذي في قلبي، والدليل الذي أحتج به في معرفته.

قال: فأنى يكون ما تقول وأنت تعرف أن القلب لا يعرف شيئاً بغير الحواس الخمس؟ فهل عاينت ربك ببصر، أو سمعت صوته بأذن، أو شممته بنسيم، أو ذقته بفم، أو مسسته بيد فأدّى ذلك المعرفة إلى قلبك؟ قلت: أرايت إذ أنكرت الله وجحدته - لأئك لا تحسه بحواسك التي تعرف بها الأشياء - وأقررت أنا بها هل بدُّ من أن يكون أحدنا صادقاً والآخر كاذباً؟ قال: لا.

قلت: رأيت إن كان القول قولك فهل يخاف عليّ شيء مما أخوفك به من عقاب الله؟ قال: لا.

قلت: أفرأيت إن كان كما أقول والحق في يدي ألت قد أخذت فيما كنت أحاذر من عقاب الخالق بالثقة وأنت قد وقعت بجحودك وإنكارك في الهلكة؟ قال: بلى.

قلت: فأينا أولى بالحزم وأقرب إلى النجاة؟ قال: أنت إلا أنك من أمرك على أذعاء وشبهة، وأنا على يقين وثقة، لأنني لا أرى حواسي الخمسة أدركته، وما لم تدركه حواسي فليس عندي بموجود.

قلت: إنه لما عجزت حواسك عن إدراك الله أنكرته، وأنا لما عجزت حواسي عن إدراك الله تعالى صدقت به.

قال: كيف ذلك؟ قلت: لأن كل شيء جرى فيه أثر تركيب لجسم، أو وقع عليه بصر للون فما أدركته الأبصار ونالته الحواس فهو غير الله سبحانه لأنه لا يشبه الخلق، وأن هذا الخلق ينتقل بتغيير وزوال، وكل شيء

أشبه التغيير والزوال فهو مثله، وليس المخلوق كالخالق ولا المحدث كالمحدث.

قال: إن هذا لقول، ولكني لمنكر ما لم تدركه حواسي فتؤذيه إلى قلبي، فلما اعتصم بهذه المقالة ولزم هذه الحجّة قلت: أما إذا أبيت إلا أن تعتصم بالجهالة، وتجعل المحاجزة حجة فقد دخلت في مثل ما عبت وامثلت ما كرهت، حيث قلت: إني اخترت الدعوى لنفسي لأن كل شيء لم تدركه حواسي عندي بلا شيء.

قال: وكيف ذلك؟ قلت: لأنك نعمت^(١) على الإدعاء ودخلت فيه فاذعيت أمراً لم تحط به خُبراً ولم تقله علماً فكيف استجزت لنفسك الدعوى في إنكارك الله، ودفعك أعلام النبوة والحجة والواضحة وعبتها عليّ؟ أخبرني هل أحطت بالجهات كلها وبلغت منتهاها؟ قال: لا. قلت: فهل رقيت إلى السماء التي ترى؟ أو انحدرت إلى الأرض السفلى فجئت في أقطارها؟ أو هل خضت في غمرات البحور واخترقت نواحي الهواء فيما فوق السماء وتحتها إلى الأرض وما أسفل منها فوجدت ذلك خلاء من مدبر حكيم عالم بصير؟ قال: لا. قلت: فما يدريك لعلّ الذي أنكره قلبك هو في بعض ما لم تدركه حواسك ولم يحط به علمك.

قال: لا أدري لعلّ في بعض ما ذكرت مدبراً، وما أدري لعلّه ليس في شيء من ذلك شيء! قلت: أما إذ خرجت من حدّ الإنكار إلى منزلة الشك فإني أرجو أن تخرج إلى المعرفة.

قال: فإنما دخل عليّ الشك لسؤالك إيتاي عما لم يحط به علمي، ولكن من أين يدخل عليّ اليقين بما لم تدركه حواسي؟ قلت من قبل أهليلجتك هذه.

(١) نعمت عليّ: عبت وكرهت.

قال: ذاك إذا أثبت للحجة، لأنها من آداب الطب الذي أذعن بمعرفته. قلت: إنما أردت أن آتيك به من قبلها لأنها أقرب الأشياء إليك، ولو كان شيء أقرب إليك منها لأتيتك من قبله، لأن في كل شيء أثر تركيب وحكمة، وشاهدًا يدل على الصنعة الدالة على من صنعها ولم تكن شيئاً، ويهلكها حتى لا تكون شيئاً. قلت: فأخبرني هل ترى هذه إهليلجة؟ قال: نعم.

قلت: أفترى غيب ما في جوفها؟ قال: لا، قلت: أفتشهد أنها مشتملة على نواة ولا تراها؟ قال: ما يدريني لعل ليس فيها شيء.

قلت: أفترى أن خلف هذا القشر من هذه الإهليلجة غائب لم تره من لحم^(١) أو ذي لون؟ قال: ما أدري لعل ما تم غير ذي لون ولا لحم. قلت: أفترى أن هذه الإهليلجة التي تسميها الناس بالهند موجودة؟ لاجتماع أهل الاختلاف من الأمم على ذكرها. قال: ما أدري لعل ما اجتمعوا عليه من ذلك باطل، قلت: أفترى أن الإهليلجة في أرض تنبت؟ قال: تلك الأرض وهذه واحدة وقد رأيتها؟ قلت: أفما تشهد بحضور هذه الإهليلجة على وجود ما غاب من أشباهها؟ قال: ما أدري لعله ليس في الدنيا إهليلجة غيرها. فلما اعتصم بالجهالة قلت: أخبرني عن هذه الإهليلجة أتقر أنها خرجت من شجرة، أو تقول: أنها هكذا وجدت؟ قال: لا بل من شجرة خرجت. قلت: فهل أدركت حواسك الخمس ما غاب عنك من تلك الشجرة؟ قال: لا. قلت: فما أراك إلا قد أقررت بوجود شجرة لم تدركها حواسك. قال: أجل ولكني أقول: إن الإهليلجة والأشياء المختلفة شيء لم تزل تدرك، فهل عندك في هذا شيء تردّ به قلبي؟ قلت: نعم أخبرني عن هذه الإهليلجة هل كنت عاينت شجرتها وعرفتها قبل أن تكون هذه

(١) من لحم: لحم كل شيء له.

الإهليلجة فيها؟ قال: نعم. قلت: فهل كنت تعاین هذه الإهليلجة، ثم عدت إليها فوجدت فيها الإهليلجة أفما تعلم أنه قد حدث فيها ما لم تكن؟ قال ما أستطيع أن أنكر ذلك ولكني أقول: إنها كانت فيها متفرقة. قلت: فأخبرني هل رأيت تلك الإهليلجة التي تنبت منها شجرة هذه الإهليلجة قبل أن تغرس؟ قال: نعم. قلت: فهل يحتمل عقلك أن الشجرة التي تبلغ أصلها وعروقها وفروعها ولحاؤها وكل ثمرة جنيت^(١) وورقة سقطت ألف ألف رطل كانت كامنة في هذه الإهليلجة؟ قال: ما يحتمل هذا العقل ولا يقبله القلب. قلت: أقررت إنها حدثت في الشجرة؟ قال: نعم ولكني لا أعرف أنها مصنوعة فهل تقدر أن تقرّني بذلك؟ قلت: نعم رأيت أنني إن أريتك تدبيراً تقرّ أن له مدبراً، وتصويراً أن له مصوراً قال: لا بدّ من ذلك.

قلت: أأست تعلم أن هذه الإهليلجة لحم ركب على عظم فوضع في جوف متصل بغصن مركّب على ساق يقوم على أصل فيقوى بعروق من تحتها على جرم متصل ببعض ببعض؟ قال: بلى. قلت: أأست تعلم أن هذه الإهليلجة مصوّرة بتقدير وتخطيط، وتأليف وتركيب وتفصيل متداخل يتألف شيء في بعض شيء، به طبق بعد طبق وجسم على جسم ولون مع لون، أبيض في صفرة، ولين على شديد في طبائع متفرقة، وطرائق مختلفة، وأجزاء مؤتلفة مع لحاء تسقيها، وعروق يجري فيها الماء، وورق يسترها وتقيها من الشمس أن تحرقها، ومن البرد أن يهلكها، والريح أن تذبلها^(٢)؟ قال: أفليس لو كان الورق مطبقاً عليها كان خيراً لها؟ قلت: الله أحسن تقديراً لو كان كما تقول لم يصل إليها ريح يروحها، ولا برد يشدّدها، ولعفت عند ذلك، ولو لم يصل إليها حرّ الشمس لما نضجت، ولكن شمس مرّة وريح مرّة وبرد مرّة قدّر الله ذلك بقوة لطيفة ودبره بحكمة بالغة.

(١) جنى الشمر: تناوله من شجرته.

(٢) ذب النبات: قل ماؤه وذابت نضارته.

قال: حسبي من التصوير فسر لي التدبير الذي زعمت أنك تريه . قلت: أرايت الإهليلجة قبل أن تعقد إذ هي في قمعها^(١) ماء بغير نواة ولا لحم ولا قشر ولا لون ولا طعم ولا شدة؟ قال: نعم. قلت: أرايت لو لم يرفق الخالق ذلك الضعيف الذي هو مثل الخردلة في القلة والذلة ولم يقوّه بقوته ويصوّره بحكمته ويقدّره بقدرته هل كان ذلك الماء يزيد على أن يكون في قمعه غير مجموع بجسم وقمع وتفصيل؟ فإن زاد ماء متراكباً غير مصوّر ولا مخطّط ولا مدبّر بزيادة أجزاء ولا تأليف أطباق قال: قد أريتنى من تصوير شجرتها وتأليف خلقتها وحمل ثمرتها وزيادة أجزائها وتفصيل تركيبها أوضح الدلالات، وأوضح البينة على معرفة الصانع، ولقد صدّقت بأن الأشياء مصنوعة، ولكني لا أدري لعلّ الإهليلجة والأشياء صنعت نفسها؟ قلت: أولست تعلم أن خالق الأشياء والإهليلجة حكيم عالم بما عاينت من قوة تدبيره؟ قال: بلى. قلت: فهل ينبغي للذي هو كذلك أن يكون حدثاً؟ قال: لا. قلت: أفلمست قد رأيت الإهليلجة حين حدثت وعايبتها بعد إن لم تكن شيئاً ثم هلكت كأن لم تكن شيئاً؟ قال: بلى، وإنما أعطيتك أن الإهليلجة حدثت ولم أعطك أن الصانع لا يكون حادثاً لا يخلق نفسه. قلت: ألم تعطني أن الحكيم الخالق لا يكون حادثاً، وزعمت أن الإهليلجة حدثت؟ فقد أعطيتني أن الإهليلجة مصنوعة، فهو عزّ وجلّ صانع الإهليلجة، وإن رجعت إلى أن تقول: إن الإهليلجة صنعت نفسها ودبّرت خلقها فما زادت أن أقررت بما أنكرت، ووصفت صانعاً مدبّراً أصبت صفته، ولكنك لم تعرفه فسمّيته بغير اسمه قال: كيف ذلك؟ قلت: لأنك أقررت بوجود حكيم لطيف مدبر، فلما سألتك من هو؟ قلت: الإهليلجة.

(١) القمع: قال الفيروز آبادي: القمع محرّكة: بثرة تخرج في أصول الأشجار وقال القمع بالفتح والكسر وكنب: ما التزق بأسفل الثمرة والبصرة ونحوهما.

قد أقررت بالله سبحانه، ولكثك سميته بغير اسمه، ولو عقلت وفكرت لعلمت أن الإهليلجة أنقص قوة من أن تخلق نفسها، وأضعف حيلة من أن تدبر خلقها.

قال: هل عندك غير هذا؟ قلت: نعم. أخبرني عن هذه الإهليلجة التي زعمت أنها صنعت نفسها ودبرت أمرها كيف صنعت نفسها صغيرة الخلقة، صغيرة القدرة، ناقصة القوة، لا تمتنع أن تكسر وتعصر وتؤكل؟ وكيف صنعت نفسها مفضولة مأكولة مرة قبيحة المنظر لا بهاء لها ولا ماء؟ قال: لأنها لم تقو إلا على ما صنعت نفسها أو لم تصنع إلا ما هويت. قلت: أما إذا أبيت إلا التمادي في الباطل فأعلمني متى خلقت نفسها بعد ما كانت فإن هذا لمن أبين المحال، كيف تكون موجودة مصنوعة ثم تصنع نفسها مرة أخرى؟ فيصير كلامك إلى أنها مصنوعة مرتين، ولأن قلت: إنها خلقت نفسها ودبرت خلقها قبل أن تكون إن هذا من أوضح الباطل وأبين الكذب لأنها قبل أن تكون ليس بشيء، فكيف يخلق لا شيء شيئاً؟ وكيف تعيب قلبي: إن شيئاً يصنع لا شيئاً، ولا تعيب قولك: إن لا شيء صنع لا شيئاً؟ فانظر أي القولين أولى بالحق؟ قال: قولك. قلت: فما يمنعك منه؟ قال: قد قبلته واستبان لي حقه وصدقه بأن الأشياء المختلفة والإهليلجة لم يصنعن أنفسهن، ولم يدبرن خلقهن، ولكنه تعرض لي أن الشجرة هي التي صنعت الإهليلجة لأنها خرجت منها. قلت: فمن صنع الشجرة؟ قال: الإهليلجة الأخرى! قلت: اجعل كلامك غاية أنتهي إليها فإما أن تقول: هو الله سبحانه فيقبل منك، وإما أن تقول: الإهليلجة فنسألك.

قال: سل. قلت: أخبرني عن الإهليلجة هل تنبت منها الشجرة إلا بعدما ماتت وبليت وبادت؟ قال: لا. قلت: إن الشجرة بقيت بعد هلاك الإهليلجة مائة سنة، فمن كان يحمها ويزيد فيها، ويدبر خلقها ويربها،

وينبت ورقها؟ ما لك بدّ من أن تقول: هو الذي خلقها، ولأن قلت: الإلهيلجة وهي حيّة قبل أن تهلك وتبلى وتصير تراباً، وقد ريّت الشجرة وهي ميتة أن هذا القول مختلف. قال: لا أقول: ذلك. قلت: أفنقر بأنّ الله خلق الخلق أم قد بقي في نفسك شيء من ذلك؟ قال: إني من ذلك على حدّ وقوف ما أتخلّص إلى أمر ينفذ لي فيه الأمر. قلت: أمّا إذا أبيت إلّا الجهالة وزعمت أن الأشياء لا يدرك إلّا بالحواس، فإني أخبرك أنه ليس للحواس دلالة على الأشياء، ولا فيها معرفة إلا بالقلب، فإنّه دليلها ومعرّفها الأشياء التي تدّعي أن القلب لا يعرفها إلّا بها.

فقال: أمّا إذ نطقت بهذا فما أقبل منك إلّا بالتخليص والتفحص منه بإيضاح وبيان وحجّة وبرهان. قلت: فأول ما أبدا به أنك تعلم أنه ربما ذهب الحواس، أو بعضها ودبر القلب الأشياء التي فيها المضرّة والمنفعة من الأمور الفلانية والخفية فأمر بها ومنها فنفذ فيها أمرها وصحّ فيها قضاؤه.

قال: إنك تقول في هذا قولاً يشبه الحجّة، ولكنّي أحبّ أن توضحه لي غير هذا الإيضاح. قلت: أأست تعلم أنّ القلب يبقى بعد ذهاب الحواس؟ قال: نعم ولكن يبقى بغير دليل على الأشياء التي تدلّ عليها الحواس قلت: أفأست تعلم أن الطفل تضعه أمه مضغة ليس تدلّه الحواس على شيء يسمع ولا يبصر ولا يذاق ولا يلمس ولا يشم قال: بلى، قلت فأية الحواس دلّته على طلب اللبن إذا جاع، والضحك بعد البكاء إذا روى من اللبن؟ وأي حواس سباع الطير ولاقط الحبّ منها دلها على أن تلقي بين أفراخها اللحم والحبّ فتتهوي سباعها إلى اللحم، والآخرون إلى الحبّ؟ وأخبرني عن فراخ طير الماء أأست تعلم أن فراخ طير الماء إذا طرحت فيه سبحت وإذا طرحت فيه فراخ طير البرّ غرقت والحواس واحدة، فكيف انتفع بالحواس طير الماء وأعانتة على السباحة ولم تنتفع طير البرّ في الماء بحواسها؟ وما بال طير البرّ إذا

غمستها في الماء ساعة ماتت وإذا أمسكت طير الماء عن الماء ساعة ماتت؟ فلا أرى الحواس في هذا إلا منسكرة عليك، ولا ينبغي ذلك أن يكون إلا من مدبر حكيم جعل للماء خلقاً وللبز خلقاً.

أم أخبرني ما بال الذرة التي لا تعين الماء قط تطرح في الماء فتسبح، وتلقى الإنسان ابن خمسين سنة من أقوى الرجال وأعقلهم لم يتعلم السباحة فيغرق؟ كيف لم يدله عقله ولبه وتجاربه وبصره بالأشياء مع اجتماع حواسه وصحتها أن يدرك ذلك بحواسه كما أدركته الذرة إن كان ذلك إنما يدرك بالحواس؟ أفليس ينبغي لك أن تعلم أن القلب الذي هو معدن العقل في الصبي الذي وصفت وغيره مما سمعت من الحيوان هو الذي يهيج الصبي إلى طلبه الرضاع، والطير اللاقط على لقط الحب، والسباع على ابتلاع اللحم؟ قال: لست أجد القلب يعلم شيئاً إلا بالحواس! قلت: أما إذا أببت إلا النزوع إلى الحواس فلماذا لنقبل نزوعك إليها بعد رفضك لها، ونجيبك في الحواس حتى يتقرر عندك أنها لا تعرف من سائر الأشياء إلا الظاهر مما هو دون الرب الأعلى سبحانه وتعالى، فأما ما يخفى ولا يظهر فلست تعرفه، وذلك أن خالق الحواس جعل لها قلباً احتج به على العباد، وجعل للحواس الدلالات على الظاهر الذي يستدل بها على الخالق سبحانه، فنظرت العين إلى خلق متصل ببعضه ببعض فدلّت القلب على ما عاينت، وتفكر القلب حين دلّته العين على ما عاينت من ملكوت السماء وارتفاعها في الهواء بغير عمد يرى، ولا دعائم تمسكها لا تؤخر مرة فتتكشط، ولا تقدم أخرى فتزول، ولا تهبط مرة فتدنو ولا ترتفع أخرى فتأى^(١)، لا تتغير لطول الأمد ولا تخلق^(٢) لاختلاف الليالي والأيام، ولا

(١) أي فتبعد.

(٢) أي لا تبلى ولا تثر.

تنداعى منها ناحية، ولا ينهار منها طرف، مع ما عاينت من النجوم الجارية السبعة المختلفة بمسيرها لدوران الفلك، وتنقلها في البروج يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة، منها السريع ومنها البطيء، ومنها المعتدل السير، ثم رجوعها واستقامتها وأخذها عرضاً وطولاً، وخنوسها عند الشمس وهي مشرقة وظهورها إذا غربت، وجري الشمس والقمر في البروج دائبين لا يتغيران في أزمنتها وأوقاتها يعرف ذلك من يعرف بحساب موضوع وأمر معلوم وبحكمة يعرف ذوا الأبواب إنها ليست من حكمة الإنس ولا تفتيش الأوهام، ولا تقليب التفكير، فعرف القلب حين دلته العين على ما عاينت أن لذلك الخلق والتدبير والأمر العجيب صانعاً يمسك السماء المنطبقة أن تهوي إلى الأرض، وأن الذي جعل الشمس والنجوم فيها خالق السماء. ثم نظرت العين إلى ما استقلها من الأرض الممتدة أن تزول أو تهوي في الهواء - وهو يرى الريشة يرمي بها فتسقط مكانها وهي في الخفة على ما هي عليه - هو الذي يمسك السماء التي فوقها، وأنه لولا ذلك لخشفت بما عليها من ثقلها وثقل الجبال والأنام والأشجار والبحور والرمال، فعرض القلب بدلالة العين، أن مدبر الأرض هو مدبر السماء. ثم سمعت الأذن صوت الرياح الشديدة العاصفة واللينة الطيبة، وعاينت العين ما يقلع من عظام الشجر ويهدم من وثيق البنيان، وتسفى^(١) من ثقال الرمال، تخلّى منها ناحية وتصبّها في أخرى، بلا سائق تبصره العين، ولا تسمعه الأذن، ولا يدرك بشيء من الحواس، وليست مجسدة تلمس، ولا محددة تعاین، فلم تزد العين والأذن وسائر الحواس، على أن دلّت القلب أن لها صانعاً، وذلك أن القلب يفكر بالعقل الذي فيه، فيعرف أن الريح لم تتحرك من تلقائها وأنها لو كانت هي المتحركة لم تكف عن التحرك، ولم

(١) سفت وأسفت الريح التراب: ذوته أو حملته.

تهدم طائفة وتعفي أخرى^(١)، ولم تقلع شجرة وتدع أخرى إلى جنبها ولم تصب أرضاً وتنصرف عن أخرى فلما تفكر القلب في أمر الريح علم أن لها محركاً هو الذي يسوقها حيث يشاء، ويسكنها إذا شاء، ويصيب بها من يشاء، ويصرفها عن من يشاء، فلما نظر القلب إلى ذلك وجدها متصلة بالسماء، وما فيها من الآيات فعرف أن المدبر القادر على أن يمسك الأرض والسماء هو خالق الريح ومحركها إذا شاء، وممسكها كيف شاء، ومسلطها على من يشاء، وكذلك دلت العين والأذن القلب على هذه الزلزلة، وعرف ذلك بغيرهما من حواسه حين حركته فلما دل الحواس على تحريك هذا الخلق العظيم من الأرض في غلظها وثقلها وطولها، وعرضها، وما عليها من ثقل الجبال والمياه والأنام وغير ذلك، وإنما تتحرك في ناحية ولم تتحرك في ناحية أخرى وهي ملتحمة جسداً واحداً، وخلقاً متصلاً بلا فصل ولا وصل، تهدم ناحية وتخسف بها وتسلم أخرى فعندها عرف القلب أن محركاً ما حرك منها هو ممسك ما أمسك منها، وهو محرك الريح وممسكها، وهو مدبر السماء والأرض ما أمسك منها، وهو محرك الريح وممسكها، وهو مدبر السماء والأرض وما بينهما، وأن الأرض لو كانت هي المزلزلة لنفسها لما تزلزلت ولما تحركت ولكنه الذي دبرها وخلقها حرك منها ما شاء. ثم نظرت العين إلى العظيم من الآيات من السحاب المسخر بين السماء والأرض بمنزلة الدخان لا جسد له يلمس بشيء من الأرض والجبال، يتخلل الشجرة فلا يحرك منها شيئاً، ولا يصهر منها غصناً، ولا يعلق منها شيء يعترض الركبان فيحول بعضهم من بعض من ظلمته وكثافته، ويحتمل من ثقل الماء وكثرته ما لا يقدر على صفته، مع ما فيه من الصواعق الصاعدة والبروق اللامعة، والرعد والثلج والبرد والجليد

(١) عفت الريح المنزل: درسته ومحته.

ما لا تبلغ الأوهام صفته ولا تهتدي القلوب إلى كنه عجائبه، فيخرج مستقلاً في الهواء يجتمع بعد تفرقه ويلتحم بعد تزايله، تفرقه الرياح من الجهات كلها إلى حيث تسوقه بإذن ربّها، يسفل مرة ويعلو أخرى، متمسك بما فيه من الماء الكثير الذي إذا أزجاه^(١) صارت منه البحور، يمرّ على الأراضي الكثيرة والبلدان المتناثية لا تنقص منه نقطة، حتى ينتهي إلى ما لا يحصى من الفراسخ فيرسل ما فيه قطرة بعد قطرة، وسيلاً بعد سيلٍ متتابع على رسله حتى ينقع البرك^(٢) وتمتلئ الفجاج، وتعتلي الأودية بالسيول كأمثال الجبال غاصة بسيولها، مصمخة الآذان لدوتها وهديرها فتحيا بها الأرض الميتة، فتصبح مخضرة بعد أن كانت مغبرة، ومعشبة بعد أن كانت مجدبة، قد كسيت ألواناً من نبات عشب ناضرة زاهرة مزينة معاشاً للناس والأنعام، فإذا أفرغ الغمام ماءه أقلع وتفرّق وذهب حيث لا يعاين ولا يدري أين توارى، فأذت العين إلى القلب فعرف القلب أن ذلك السحاب لو كان بغير مدبّر وكان ما وصفت من تلقاء نفسه ما احتمل نصف ذلك من الثقل من الماء، وإن كان هو الذي يرسله لما احتمله ألفي فرسخ أو أكثر، ولأرسله فيما هو أقرب من ذلك، ولما أرسله قطرة بعد قطرة، بل كان يرسله إرسالاً فكان يهدم البنيان ويفسد النبات ولما جاز إلى بلد وترك آخر دونه، فعرف القلب بالأعلام المنيرة الواضحة أن مدبّر الأمور واحد، وأنه لو كان اثنين أو ثلاثة لكان في طول هذه الأزمنة والأبد والدهر اختلاف في التدبير وتناقض في الأمور، ولتأخر بعض أو تقدم بعض، ولكان تسفل بعض ما قد علا، ولعلا بعض ما قد سفّل، ولطلع شيء وغاب فتأخر عن وقته أو تقدم ما قبله فعرف القلب بذلك أن تدبّر الأشياء ما غاب منها وما ظهر هو الله

(١) أزجاء أي دفعه برفق.

(٢) البرك: جمع بكرة: مستنقع الماء.

الأول، خالق السماء وممسكها وفاراش الأرض وداحيها، وصانع ما بين ذلك مما عدّدتنا. وغير ذلك مما لم يحصى.

وكذلك عاينت العين اختلاف الليل والنهار دائبين جديدين لا يلبان في طول كثرهما، ولا يتغيران لكثرة اختلافهما، ولا ينقصهما عن حالهما، النهار في نوره وضياؤه والليل في سواده وظلمته، يلج أحدهما في الآخر حتى ينتهي كل واحد منهما إلى غاية محدودة معروفة في الطول والقصر على مرتبة واحدة ومجرى واحد، مع سكون من يسكن في الليل وانتشار من ينتشر في الليل، وانتشار من ينتشر في النهار، وسكون من يسكن في النهار، ثم الحرّ والبرد وحلول أحدهما بعقب الآخر حتى يكون الحرّ برداً والبرد حرّاً في وقته وإتانه، فكل هذا مما يستدلّ به القلب على الربّ سبحانه وتعالى، فعرف القلب بعقله أن من دبر هذه الأشياء هو الواحد العزيز الحكيم الذي لم يزل ولا يزال، وأنه لو كان في السموات والأرضين آلهة معه سبحانه لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، ولفسد كل واحد منهم على صاحبه.

وكذلك سمعت الأذن ما أنزل المدبر من الكتب تصديقاً لما أدركته القلوب بعقولها. وتوفيق الله إياها، وما قاله من عرفه كنه معرفته بلا ولد ولا صاحبة ولا شريك فادت الأذن ما سمعت من اللسان بمقالة الأنبياء إلى القلب.

فقال: قد أتيتني من أبواب لطيفة بما لم يأتني به أحد غيرك إلا أنه لا يمنعني من ترك ما في يدي إلا الإيضاح والحنة القوية بما وصفت لي وفسرت. قلت: أمّا إذا حجبت عن الجواب واختلف منك المقال فسيأتيك من الدلالة من قبل نفسك خاصة ما يستبين لك أن الحواس لا تعرف شيئاً إلا بالقلب، فهل رأيت في المنام أنك تأكل وتشرب حتى وصلت لذّة

ذلك إلى قلبك؟ قال: نعم. قلت: فهل رأيت أنك تضحك وتبكي وتجول في البلدان التي لم ترها والتي قد رأيتها حتى تعلم معالم ما رأيت منها؟ قال: نعم ما لا أحصي. قلت: هل رأيت أحد أقاربك من أخ أو أب أو ذي رحم قد مات قبل ذلك حتى تعلمه وتعرفه كمعرفتكم إياه قبل أن يموت؟ قال: أكثر من الكثير. قلت: أخبرني أي حواسك أدرك هذه الأشياء في منامك حتى دلت قلبك على معاينة الموتى وكلامهم، وأكل طعامهم، والجولان في البلدان، والضحك والبكاء وغير ذلك؟ قال: ما أقدر أن أقول لك أي حواسي أدرك ذلك أو شيئاً منه، وكيف تدرك وهي بمنزلة الميت لا تسمع ولا تبصر؟ قلت: فأخبرني حيث استيقظت الست قد ذكرت الذي رأيت في منامك تحفظه وتقضه بعد يقظتك على إخوانك لا تنسى منه حرفاً؟ قال: إنه كما تقول وربما رأيت الشيء في منامي، قلت: فأخبرني أي حواسك قررت علم ذلك في قلبك حتى ذكرته بعدما استيقظت؟ قال: إن هذا الأمر ما دخلت فيه الحواس. قلت: أفليس ينبغي لك أن تعلم حيث بطلت الحواس في هذا أن الذي عاين تلك الأشياء وحفظها في منامك قلبك الذي جعل الله فيه العقل الذي احتج به على العباد؟ قال: إن الذي رأيت في منامي ليس بشيء إنما هو بمنزلة السراب الذي يعاينه صاحبه وينظر إليه لا يشك فيه أنه ماء فإذا انتهى إلى مكانه لم يجده شيئاً فما رأيت في منامي فبهذه المنزلة!

قلت: كيف شبّهت السراب بما رأيت في منامك من أكلك الطعام الحلو والحامض، وما رأيت من الفرح والحزن؟ قال: لأن السراب حيث انتهيت إلى موضعه صار لا شيء، وكذلك صار ما رأيت في منامي حين انتهيت! قلت: فأخبرني إن أثبتك بأمر وجدت لذته في منامك وخفق لذلك قلبك ألسنت تعلم أن الأمر على ما وصفت لك؟ قال: بلى.

قلت: فأخبرني هل احتملت قط حتى قضيت في امرأة نهمةك^(١) عرفت أم لم تعرفها؟ قال: بلى، ما لا أحصيه. قلت: أأست وجدت لذلك لذة على قدر لذتك في يقظتك فتنته وقد أنزلت الشهوة حتى تخرج منك بقدر ما تخرج منك في اليقظة، هذا كسر لحجّتك في السراب. قال: ما يرى المحتلم في منامه شيئاً إلا ما كانت حواسه دلت عليه في اليقظة. قلت: ما زدت على أن قوّيت مقالتي، وزعمت أن القلب يعقل الأشياء ويعرفها بعد ذهاب الحواس وموتها فكيف أنكرت أن القلب لا يعرف الأشياء وهو يقظان مجتمعة له حواسه، وما الذي عزّفه إياها بعد موت الحواس وهو لا يسمع ولا يبصر، ولكنك حقيقة أن لا تنكر له المعرفة وحواسه حيّة مجتمعة إذا أقررت أنه ينظر إلى المرأة بعد ذهاب حواسه حتى نكحها وأصاب لذته منها؛ فينبغي لمن يعقل حيث وصف القلب بما وصفه به من معرفته بالأشياء والحواس ذاهبة أن يعرف أن القلب مدبّر الحواس ومالكها ورائسها^(٢) والقاضي عليها، فإنه ما جهل الإنسان من شيء فما يجهل أن اليد لا تقدر على العين أن تقلمها، ولا على اللسان أن تقطعه، وأنه ليس يقدر شيء من الحواس أن يفعل بشيء من الجسد شيئاً بغير إذن القلب ودلالته وتدبير لأن الله تبارك وتعالى جعل القلب مدبّراً للجسد، به يسمع وبه يبصر وهو القاضي والأمير عليه، لا يتقدم الجسد إن هو تأخر، ولا يتأخر إن هو تقدم، وبه سمعت الحواس وأبصرت، إن أمرها ائتمرت، وإن نهاها انتهت، وبه ينزل الفرح والحزن وبه ينزل الألم، وإن فسد شيء من الحواس بقي على حاله، وإن فسد القلب ذهب جميعاً حتى لا يسمع ولا يبصر.

(١) قضى منه نهمة: أي شهوته.

(٢) الراس: أي مقابلة المرووس للمستولي عليه.

قال: لقد كنت أظنك لا تتخلص من هذه المسألة وقد جئت بشيء لا أقدر على رده قلت: وأنا أعطيك تصاديق ما أنباتك به وما رأيت في منامك في مجلسك الساعة. قال: افعل فإنني قد تحيرت في هذه المسألة. قلت: أخبرني هل تحدث نفسك من تجارة أو صناعة أو بناء أو تقدير شيء وتأمر به إذا أحكمت تقديره في ظنك؟ قال: نعم. قلت: فهل أشركت قلبك في ذلك الفكر شيئاً من حواسك؟ قال: لا. قلت: أفلا تعلم أن الذي أخبرك به قلبك حق؟ قال: اليقين هو؛ فزدني ما يذهب الشك عني ويزيل الشبه من قلبي.

قلت: أخبرني هل يعلم أهل بلادك علم النجوم؟ قال: إنك لغافل عن علم أهل بلادني بالنجوم فليس أحد أعلم بذلك منهم. قلت: أخبرني كيف وقع علمهم بالنجوم وهي مما لا يدرك بالحواس ولا بالفكر؟ قال: حساب وضعته الحكماء وتوارثته الناس فإذا سألت الرجل منهم عن شيء قاس الشمس ونظر في منازل الشمس والقمر وما للطالع من النحوس، وما للباطن من السعود ثم يحسب ولا يخطئ، ويحمل إليه المولود فيحسب له ويخبر بكل علامة فيه بغير معاينة وما هو مصيبة إلى يوم يموت.

قلت: كيف دخل الحساب في مواليد الناس؟ قال: لأن جميع الناس إنما يولدون بهذه النجوم، ولولا ذلك لم يستقم هذا الحساب فمن ثم لا يخطئ إذا علم الساعة واليوم والشهر والسنة التي يولد فيها المولود. قلت: لقد توصفت علماً عجيباً ليس في علم الدنيا أدق منه ولا أعظم إن كان حقاً كما ذكرت، يعرف به المولود الصبي وما فيه من العلامات ومتى أجله وما يصيبه في حياته، أوليس هذا حساباً تولد به جميع أهل الدنيا من كان من الناس؟ قال: لا أشك فيه. قلت: فتعال ننظر بعقولنا كيف علم الناس هذا العلم، وهل يستقيم أن يكون لبعض الناس إذا كان جميع الناس يولدون

بهذه النجوم، وكيف عرفها بسعودها ونحوسها، وساعاتها وأوقاتها، ودقائقها ودرجاتها، وبطينتها وسريعتها، ومواضعها من السماء، ومواضعها تحت الأرض، ودلالاتها على غامض هذه الأشياء التي وصفت في السماء وما تحت الأرض، فقد عرفت أن بعض هذه البروج في السماء وبعضها تحت الأرض ومنها في السماء فما يقبل عقلي أن مخلوقاً من أهل الأرض قدر على هذا. قال: وما أنكرت من هذا؟ قلت: إنك زعمت أن جميع أهل الأرض إنما يتوالدون بهذه النجوم، فأرى الحكيم الذي وضع هذا الحساب بزعمك من أهل الدنيا، ولا شك إن كنت صادقاً أنه ولد ببعض هذه النجوم والساعات والحساب الذي كان قبله، إلا أن تزعم أن ذلك الحكيم لم يولد بهذه النجوم كما ولد سائر الناس. قال: وهل هذا الحكيم إلا كسائر الناس؟ قلت: أليس ينبغي أن يدلك عقلك على أنها خلقت قبل هذا الحكيم الذي زعمت أنه وضع هذا الحساب وقد زعمت أنه ولد ببعض هذه النجوم؟ قال: بلى.

قلت: فكيف اهتدى لوضع هذه النجوم؟ وهل هذا العلم إلا من معلّم كان قبلهما وهو الذي أسس هذا الحساب الذي زعمت أنه أساس المولود، والأساس أقدم من المولود، والحكيم الذي زعمت أنه وضع هذا إنما يتبع أمر معلّم هو أقدم منه وهو الذي خلقه مولوداً ببعض هذه النجوم، وهو الذي أسس هذه البروج التي ولد بها غيره من الناس فواضع الأساس ينبغي أن يكون أقدم منها، هب أن هذا الحكيم عمّر مذ كانت الدنيا عشرة أضعاف، هل كان نظره في هذه النجوم إلا كنظرك إليها معلقة في السماء أو تراه كان قادراً على الدنو منها وهي في السماء حتى يعرف منازلها ومجاريها، ونحوسها وسعودها، ودقائقها، وبأيتها تكسف الشمس والقمر، وبأيتها يولد كل مولود، وأياها السعد وأياها النحس، وأياها البطيء وأياها السريع، ثم يعرف بعد ذلك سعود ساعات النهار ونحوسها وأيتها السعد

وأبها النحس، وكم ساعة يمكث كل نجم منها تحت الأرض، وفي أي ساعة تغيب، وأي ساعة تطلع، وكم ساعة يمكث طالعا، وفي أي ساعة تغيب، وكم استقام لرجل حكيم كما زعمت من أهل الدنيا أن يعلم علم السماء ممّا لا يدرك بالحواس، ولا يقع عليه الفكر، ولا يخطر على علم السماء ممّا لا يدرك بالحواس، ولا يقع عليه الفكر، ولا يخطر على الأوهام؟ وكيف اهتدى أن يقيس الشمس حتى يعرف في أيّ برج، وفي أيّ برج القمر، وفي أيّ برج السماء هذه السبعة السعود والنحوس وما الطالع منها وما الباطن؟ وهي معلقة في السماء وهو من أهل الأرض لا يراها إذا توارت بضوء الشمس إلا أن تزعم أنّ هذا الحكيم الذي وضع هذا العلم قد رقى إلى السماء، وأنا أشهد أنّ هذا العالم لم يقدر على هذا العلم إلا بمن في السماء، لأن هذا ليس من علم أهل الأرض.

قال: ما بلغني أنّ أحداً من أهل الأرض رقى إلى السماء. قلت: فلعلّ هذا الحكيم فعل ذلك ولم يبلغك؟ قال: ولو بلغني ما كنت مصدقاً. قلت: فأنا أقول قولك هبه رقى إلى السماء هل كان له بدّ من أن يجري مع لكّ برج من هذه البروج، ونجم من هذه النجوم من حيث يطلع إلى حيث يغيب، ثم يعود إلى آخر حتى يفعل مثل ذلك حتى يأتي على آخرها؟ فإن منها ما يقطع السماء في ثلاثين سنة، ومنها ما يقطع دون ذلك، وهل كان له بدّ من أن يجول في أقطار السماء حتى يعرف مطالع السعود منها والنحوس، والبطيء والسريع، حتى يحصي ذلك؟ أو هبه قدر على ذلك حتى فرغ ممّا في السماء هل كان يستقيم له حساب ما في السماء حتى يحكم حساب ما في الأرض وما تحتها وأن يعرف ذلك مثل ما قد عاين في السماء؟ لأنّ مجاريها تحت الأرض على غير مجاريها في السماء، فلم يكن يقدر على أحكام حسابها ودقائقها وساعاتها إلا بمعرفة ما غاب عنه تحت الأرض منها، لأنه ينبغي أن يعرف أيّ ساعة من الليل يطلع طالعها، وكم

يمكن تحت الأرض، وأية ساعة من النهار يغيب غائبها لأنه لا يعاينها، ولا ما طلع منها ولا ما غاب، ولا بد من أن يكون العالم بها واحداً وإلا لم ينتفع بالحساب إلا تزعم أن ذلك الحكيم قد دخل في ظلمات الأرضين والبحار فصار مع النجوم والشمس والقمر من مجاريها على قدر ما سار في السماء حتى تعلم الغيب منها، وعلم ما تحت الأرض على قدر ما عاين منها في السماء.

قال: وهل أريتني أجبتك إلى أن أحد من أهل الأرض رقى إلى السماء وقدر على ذلك حتى أقول: إنه دخل في ظلمات الأرضين والبحور؟ قلت: فكيف وقع هذا العلم الذي زعمت أن الحكماء من الناس وضعوه وأن الناس كلهم مولدون بها وكيف عرفوا ذلك الحساب وهو أقدم منهم؟

قال: ما أجد يستقيم أن أقول: إن أحداً من أهل الأرض وضع علم هذه النجوم المعلقة في السماء. قلت: فلا بد لك أن تقول: إنما علمه حكيم عليم بأمر السماء والأرض ومدبرهما. قال: إن قلت هذا فقد أقررت لك بالهك الذي تزعم أنه في السماء. قلت: أما أنك فقد أعطيتني أن حساب هذه النجوم حق، وأن جميع الناس ولدوا بها. قال: الشك في غير هذا.

قلت: وكذلك أعطيتني أن أحداً من أهل الأرض لم يقدر على أن يغيب مع هذه النجوم والشمس والقمر في المغرب حتى يعرف مجاريها ويطلع معها إلى المشرق. قال: الطلوع إلى السماء دون هذا قلت: فلا أراك تجد بداً من أن تزعم أن المعلم لهذا من السماء قال: لئن قلت إن ليس لهذا الحساب معلم لقد قلت إذاً غير الحق. ولئن زعمت أن أحداً من أهل الأرض علم ما في السماء وما تحت الأرض لقد أبطلت لأن أهل الأرض لا يقدر على علم ما وصفت لك من حال هذه النجوم والبروج

بالمعاينة والدنو منها فلا يقدرّون عليه لأن علم أهل الدنيا لا يكون عندنا إلاّ بالحواس وما يدرك علم هذه النجوم

التي وصفت بالحواس لأنّها معلّقة في السماء وما زادت الحواس على النظر إليها حيث تطلع وحيث تغيب، فأما حسابها ودقائقها ونحوها وسعودها وبطيتها وسريعتها وخنوسها ورجوعها فأنتى تدرك بالحواس أو يهتدي إليها بالقياس؟

قلت: فأخبرني لو كنت متعلماً مستوصفاً لهذا الحساب من أهل الأرض أحبّ إليك أن تستوصفه وتتعلمه، أم من أهل السماء؟ قال: من أهل السماء، إذا كانت النجوم معلّقة فيها حيث لا يعلمها أهل الأرض قلت: فافهم وأدقّ النظر وناصح نفسك ألست تعلم أنه حيث كان جميع أهل الدنيا إنّما يولدون بهذه النجوم على ما وصفت في النحوس والسعود أنّهم كنّ قبل الناس؟ قال: ما أمتنع أن أقول هذا. قلت: أفليس ينبغي لك أن تعلم أنّ قولك: إن الناس لم يزلوا ولا يزالون قد انكسر عليك حيث كانت النجوم قبل الناس، فالناس حدث بعدها ولئن كانت النجوم خلقت قبل الناس ما تجد بدأ من أن تزعم أن الأرض خلقت قبلهم.

قال: ولم تزعم أن الأرض خلقت قبلهم؟ قلت: ألست تعلم أنها لو لم تكن الأرض جعل الله لخلقها فراشاً ومهاداً ما استقام الناس ولا غيرهم من الأنام، ولا قدرّوا أن يكونوا في الهواء إلاّ أن يكون لهم أجنحة؟ قال: وماذا يغني عنهم الأجنحة إذا لم تكون لهم معيشة؟ قلت: ففي شك أنت من أنّ الناس حدث بعد الأرض والبروج؟ قال: لا ولكن على اليقين من ذلك.

قلت: آتيك أيضاً بما تبصره. قال: ذلك أنفي للشك عني. قلت: ألست تعلم أنّ الذي تدور عليه هذه النجوم والشمس والقمر هذا الفلك؟

قال: بلى. قلت: أفليس قد كان أساساً لهذه النجوم؟ قال: بلى. قلت: فما أرى هذه النجوم التي زعمت أنها مواليد الناس إلّا وقد وضعت بعد هذا الفلك لأنه به تدور البروج وتسفل مرة وتصعد أخرى.

قال: قد جئت بأمر واضح لا يشكل على ذي عقل أنّ الفلك التي تدور به النجوم هو أساسها الذي وضع لها لأنها إنّما جرت به.

قلت: أقررت أن خالق النجوم التي يولد بها الناس سعودهم ونحوسهم هو خالق الأرض لأنه لو لم يكن خلقها لم يكن ذرة. قال: ما أجد بداً من إجابتك إلى ذلك. قلت: أفليس ينبغي لك أن يدلك عقلك على أنه لا يقدر على خلق السماء إلّا الذي خلق الأرض والذرة والشمس والقمر والنجوم وأنه لولا السماء وما فيها لهلك ذرة الأرض.

قال: أشهد أن الخالق واحد من غير شك لأنه قد أتيتني بحجة ظهرت لعقلي وانقطعت بها حجتي، وما أرى يستقيم أن يكون واضح هذا الحساب ومعلم هذه النجوم واحداً من أهل الأرض لأنها في السماء، ولا مع ذلك يعرف ما تحت الأرض منها الذي هو في السماء حتى اتفق حسابهم على ما رأيت من الدقة والصواب فإني لو لم أعرف من هذا الحساب ما أعرفه لأنكرته ولاخبرتكم أنه باطل في بدء الأمر فكان أهون عليّ.

قلت: فأعطني موثقاً إن أنا أعطيتك من قبل هذه الإهليلجة التي في يدك وما تدعي من الطب الذي هو صناعتك وصناعة آبائك حتى يتصل الإهليلجة وما يشبهها من الأدوية بالسماء لتذعنن بالحق ولتنصفن من نفسك. قال: ذلك لك. قلت: هل كان الناس على حال وهم لا يعرفون الطب ومنافعه من هذه الإهليلجة وأشباهها؟ قال: نعم.

قلت: فمن أين اهتموا له؟ قال: بالتجربة وطول المقايسة. قلت: فكيف خطر على أوهامهم حتى هموا بتجربته؟ وكيف ظنوا أنه مصلحة

للأجساد وهم لا يرون فيه إلاّ المضرة؟ أو كيف عزموا على طلب ما لا يعرفون مما لا تدلّهم عليه الحواس؟ قال: بالتجارب.

قلت: أخبرني عن واضح هذا الطبّ وواصف هذه العقاقير المتفرقة بين المشرق والمغرب، هل كان بدّ من أن يكون الذي وضع ذلك ودلّ على هذه العقاقير رجل حكيم من بعض أهل هذه البلدان؟

قال: لا بدّ أن يكون كذلك، وأن يكون رجلاً حكيماً وضع ذلك وجمع عليه الحكماء فنظروا في ذلك وفكّروا فيه بعقولهم. قلت: كأنك تريد الإنصاف من نفسك والوفاء بما أعطيت من ميثاقك، فاعلمني كيف عرف الحكيم ذلك؟ وهبه قد عرف بما في بلاده من الدواء والزعفران الذي بأرض فارس، أترأه اتّبع جميع نبات الأرض فذاقه شجرة شجرة حتى ظهر على جميع ذلك وهل يدلّك عقلك على أن رجالاً حكماء قدروا على أن يتّبعوا جميع بلاد فارس ونباتها شجرة شجرة حتى عرفوا ذلك بحواسهم وظهروا على تلك الشجرة التي يكون فيها خلط بعض هذه الأدوية التي لم تدرك حواسهم شيئاً منها وهبه أصاب تلك الشجرة بعد بحثه عنها وتتبعه جميع شجر فارس ونباتها كيف عرف أنه لا يكون دواء حتى يضم إليه الإهليلج من الهند والمصطكى من الروم والمسك من التيبث والدار صيني من الصين وخصي بيد ستر من الترك والأفيون من مصر والصبر^(١) من اليمن والبورق^(٢) من أرمينية وغير ذلك من أخلاط الأدوية التي تكون في أطراف الأرض وكيف عرف أن تلك الأدوية وهي عقاقير مختلفة يكون المنفعة باجتماعها ولا يكون منفعتها في الحالات بغير اجتماعها أم كيف اهتدى لمنابت هذه الأدوية وهي ألوان مختلفة وعقاقير متباعدة في بلدان متفرقة

(١) الصبر: وزان كتف عصارة شجر مرّ.

(٢) البورق بالفتح معرب بوره: شيء يتكون مثل الملح في شطوط الأنهار والمياه.

فمنها عروق ومنها لحاء^(١) ومنها ورق ومنها ثمر ومنها عصير ومنها مائع ومنها صمغ ومنها دهن ومنها ما يعصر ويعطخ ومنها ما يعصر ولا يطبخ مما سمي بلغات شتى لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا يصير دواءً إلا باجتماعها ومنها مرائر السباع والدواب البرية والبحرية وأهل هذه البلدان مع ذلك متعادون مختلفون متفرقون متغالبون بالمناصبه ومتحاربون بالقتل والسبي أفترى ذلك الحكيم تتبع هذه البلدان حتى عرف كل لغة وطاف كل وجه، وتتبع هذه العقاقير مشرقاً ومغرباً، آمناً صحيحاً لا يخاف ولا يمرض، سليماً لا يعطب، حياً لا يموت، هادياً لا يضل، قاصداً لا يجور، حافظاً لا ينسى، نشيطاً لا يمل، حتى عرف وقت أزمنتها ومواضع منابتها مع اختلاطها واختلاف صفاتها، وتباين ألوانها وتفرق أسمائها، ثم وضع مثالها على شبهها وصفتها، ثم وصف كل شجرة بنباتها وورقها وثمرها وريحها وطعمها أم هل كان لهذا الحكيم بذ من أن يتبع جميع أشجار الدنيا ويقولها وعروقها شجرة شجرة وورقة ورقة شيئاً شيئاً فهبه وقع على الشجرة التي أراد فكيف دلته حواسه على أنها تصلح لدواء والشجر مختلف منه الحلو والحامض والمر والمالح وإن قلت: يستوصف في هذه البلدان ويعمل بالسؤال فأنتى يسأل عما لم يعاين ولم يدركه بحواسه؟ أم كيف يهتدي إلى من يسأله عن تلك الشجرة وهو يكلمه بغير لسانه وبغير لغته والأشياء كثيرة فهبه فعل كيف عرف منافعها ومضارها، وتسكينها وتهيجها، وباردها وحارها، وحلوها ومرارتها، وحرافتها^(٢) ولينها وشديدها، فتن قلت: بالظن إن ذلك ممّا لا يدرك ولا يعرف بالطبائع والحواس، ولئن قلت: بالتجربة والشرب لقد كان ينبغي له أن يموت في أول ما شرب وجرب تلك الأدوية بجهالته بها وقلة معرفته بمنافعها ومضارها وأكثرها السم القاتل.

(١) اللحاء: قشر العود أو الشجرة.

(٢) الحرافة: طعم يلذع اللسان بحرارته.

ولئن قلت: بل طاف في كل بلد، وأقام في كل أمة يتعلم لغاتهم ويجرب بهم أدويتهم تقتل الأول فالأول منهم ما كان لتبلغ معرفته الدواء الواحد إلا بعد قتل كثير، فما كان أهل تلك البلدان الذين قتل منهم من قتل بتجربته بالذين ينقادونه بالقتل ولا يدعونه أن يجاورهم، وهبه تركوه وسلموا لأمره ولم ينهوه كيف قوي على خلطها، وعرف قدرها ووزنها وأخذ مثاقيلها وقرط قراريطها؟ وهبه تتبع هذا كله، وأكثره سم قاتل، إن زيد على قدرها قتل، وإن نقص عن قدرها بطل، وهبه تتبع هذا كله وجال مشارق الأرض ومغاربها، وطال عمره فيها تتبعه شجرة شجرة وبقعة بقعة كيف كان له تتبع ما لم يدخل في ذلك من مرارة الطير والسباع ودواب البحر؟ هل كان بدو حيث زعمت أن ذلك الحكيم تتبع عقاقير الدنيا شجرة شجرة وثمره ثمرة حتى جمعها كلها فمناها ما لا يصلح ولا يكون دواء إلا بالمرار؟ هل كان بدو من أن يتبع جميع طير الدنيا وسباعها ودوابها دابة دابة وطانراً طائراً يقتلها ويجرب مرارتها، كما بحث عن تلك العقاقير على ما زعمت بالتجارب؟ ولو كان ذلك فكيف بقية الدواب وتناسلت وليست بمنزلة الشجرة إذا قطعت شجرة تنبت أخرى؟ وهبه أتى على طير الدنيا كيف يصنع بما في البحر من الدواب التي كان ينبغي أن يتبعها بحراً بحراً ودابة دابة حتى أحاط بجميع عقاقير الدنيا التي بحث عنها حتى عرفها وطلب ذلك في غمرات الماء، فإنك مهما جهلت شيئاً من هذا فإنك لا تجهل أن دواب البحر كلها تحت الماء فهل يدل العقل والحواس على أن هذا يدرك بالبحث والتجارب.

قال: لقد ضيقت عليّ المذاهب، فما أدري ما أجيبك به! قلت: فإني أتيك بغير ذلك مما هو أوضح وأبين مما اقتضت عليك، ألسنت تعلم أن هذه العقاقير التي منها الأدوية والمرار من الطير والسباع لا يكون دواء إلا بعد الاجتماع؟ قال: هو كذلك.

قلت: فأخبرني كيف حواس هذا الحكيم وضعت هذه الأدوية مثاقيلها وقراريطها؟

فإنك من أعلم الناس بذلك أن صناعتك الطب، وأنت تدخل في الدواء الواحد من اللون الواحد زنة أربعمائة مثقال، ومن الآخر مثاقيل وقراريط فما فوق ذلك ودونه حتى يجيء بقدر واحد معلوم إذا سقيت منه صاحب البطن، وإن سقيت صاحب القولنج أكثر من ذلك استطلق بطنه وألان^(١) فكيف أدركت حواسه على هذا؟

أم كيف عرفت حواسه أن الذي يسقى لوجع الراس لا ينحدر إلى الرجلين، والانحدار أهون عليه من الصعود؟ والذي يسقى لوجع القدمين لا يصعد إلى الرأس، وهو إلى الرأس عند السلوك أقرب منه؟ وكذلك كل دواء يسقى صاحبه لكل عضو لا يأخذ إلا طريقة في العروق التي تسقى له، وكل ذلك يصير إلى المعدة ومنها يتفرق؟ أم كيف لا يسفل منه ما صعد ولا يصعد منه ما انحدر؟ أم كيف عرفت الحواس هذا حتى علم أن الذي ينبغي للأذن لا ينفع العين وما يتنفع العين لا يغني له بعينه؟ فكيف أدركت العقول والحكمة والحواس هذا غائب في الجوف، والعروق في اللحم، وفوقه الجلد لا يدرك بسمع ولا يبصر ولا يشم ولا بلمس ولا بذوق؟

قال: لقد جئت بما أعرفه إلا أننا نقول: إن الحكيم الذي وضع هذه الأدوية وأخلاطها كان إذا سقى أحداً شيئاً من هذه الأدوية فمات شق بطنه وتتبع عروقه ونظر مجاري تلك الأدوية وأتى المواضع التي تلك الأدوية فيها. قلت: فأخبرني ألسنت تعلم أن الدواء كله إذا وقع في العروق اختلط بالدم فصار شيئاً واحداً؟ قال: بلى. قلت: أما تعلم أن الإنسان إذا خرجت

(١) استطلق البطن: مشى. وألان جمعه ليناً.

نفسه برد دمه وجمد؟ قال: بلى. قلت: فكيف عرف ذلك الحكيم دواء الذي سقاه للمريض بعدما صار غليظاً عبيطاً ليس بأمشاج^(١) يستدلّ عليه بلون فيه غير لون الدم؟

قال: لقد حملتني على مطية صعبة ما حملت على مثلها قط، ولقد جئت بأشياء لا أقدر على رذها.

قلت: فأخبرني من أين علم العباد ما وصفت من هذه الأدوية التي فيها المنافع لهم حتى خلطوها وتتبعوا عقايرها في هذه البلدان المتفرقة، وعرفوا مواضعها ومعادنها في الأماكن المتباينة، وما يصلح من عروقها وزنتها من مثاقيلها وقراريطها، وما يدخلها من الحجارة ومرار السباع وغير ذلك؟ قال: قد أعيت^(٢) عن إجابتك لغموض مسائلك وإجائك إياي إلى أمر لا يدرك علمه بالحواس، ولا بالتشبيه والقياس، ولا بد أن يكون وضع هذه الأدوية واضع واحد، لأنها لم تضع هي أنفسها، ولا اجتمعت حتى جمعها غيرها بعد معرفته إياها؛ فأخبرني كيف علم العباد هذه الأدوية التي فيها المنافع حتى خلطوها وطلبوا عقايرها في هذه البلدان المتفرقة؟

قلت: إني ضارب لك مثلاً وناصب لك دليلاً تعرف به واضع هذه الأدوية والبدال على هذه العقاقير المختلفة وباني الجسد وواضع العروق التي يأخذ فيها الدواء إلى الداء. قال: فإن قلت ذلك لم أجد بداً من الانقياد إلى ذلك. قلت: فأخبرني عن رجل أنشأ حديقة عظيمة، وبنى عليها حائطاً وثيقاً، ثم غرس فيها الأشجار والأثمار والرياحين والبقول، وتعاهد سقيها وتربيتها، ووقاها ما يضرها، حتى لا يخفى عليه موضع كل صنف منها فإذا أدركت أشجارها وأينعت أثمارها^(٣)، واهتزت بقولها دفعت إليه فسألته أن

(١) الأمشاج: الأشياء المختلطة المتمايزة.

(٢) أي أعجزت عن إجابتك.

(٣) أينع الثمر: أدرك وطاب وحن قطافه.

يطعمك لونا من الثمار والبقول سمّيته له أترأه كان قادراً على أن ينطلق قاصداً مستمراً لا يرجع، ولا يهوي إلى شيء يمزّ به من الشجرة والبقول حتى يأتي الشجرة التي سألته أن يأتيك بشمرها، والبقلة التي طلبتها حيث كانت من أدنى الحديثة أو أقصاها فيأتيك بها؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت لو قال لك صاحب الحديقة حيث سألته الثمرة: أدخل الحديقة فخذ حاجتك فأني لا أقدر على ذلك، هل كنت تقدر أن تنطلق قاصداً لا تأخذ يميناً ولا شمالاً حتى تنتهي إلى الشجرة فتجتنني منها؟ قال: وكيف أقدر على ذلك، ولا علم لي في أيّ مواضع الحديقة هي؟ قلت: أفليس تعلم أنك لم تكن لتصيبها دون أن تهجم عليها بتعسف وجولان في جميع الحديقة حتى تستدلّ عليها ببعض حواسك بعدما تتصفّح فيها من الشجرة شجرة شجرة وثمره ثمرة حتى تسقط على الشجرة التي تطلب ببعض حواسك إن تأتيها وإن لم ترها انصرفت؟

قال: وكيف أقدر على ذلك ولم أعاين مغرسها حيث غرست ولا منبتها حيث نبتت، ولا ثمرتها حيث طلعت، قلت: فإنه ينبغي لك أن يدلك عقلك حيث عجزت حواسك عن إدراك ذلك إن الذي غرس هذا البستان العظيم فيما بين المشرق والمغرب، وغرس فيه هذه الأشجار والبقول هو الذي دلّ الحكيم الذي زعمت أنه وضع الطبّ على تلك العقاقير ومواضعها في المشرق والمغرب، وكذلك ينبغي لك أن تستدل بعقلك على أنه هو الذي سمّاها وسمّى بلدتها وعرف مواضعها كمعرفة صاحب الدالّ عليها إلا الدالّ على منافعها ومضارها وقراريطها ومثاقيلها.

قال: إن هذا لكما تقول. قلت: أفرأيت لو كان خالق الجسد وما فيه من العصب واللحم والأمعاء والعروق التي يأخذ فيها الأدوية إلى الرأس وإلى القدمين وإلى ما سوى ذلك غير خالق الحديقة وغارس العقاقير، هل

كان يعرف زنتها ومثاقيلها وقراريطها وما يصلح لكل داء منها، وما كان يأخذ في كل عرق.

قال: وكيف يعرف ذلك أو يقدر عليه وهذا لا يدرك بالحواس، ما ينبغي أن يعرف هذا إلا الذي غرس الحديقة وعرف كل شجرة وبقلة وما فيها من المنافع والمضار.

قلت: أفليس كذلك ينبغي أن يكون الخالق واحداً؟ لأنه لو كان اثنين أحدهما خالق الدواء والآخر خالق الجسد والداء لم يهتد غارس العقاقير لإيصال دوائه إلى الداء الذي بالجسد ممّا لا علم له به، ولا اهتدى خالق الجسد إلى علم ما يصلح ذلك الداء من تلك العقاقير، فلما كان الداء والدواء واحداً أمضى الدواء في العروق التي برأ وصوّر إلى الداء الذي عرف ووضع فعلم مزاجها من حرّها وبردها ولينها وشديدها وما يدخل في كل دواء منه من القراريط والمثاقيل، وما يصعد إلى الرأس منها وما يهبط إلى القدمين منها وما يتفرّق منه فيما سوى ذلك.

قال: لا أشكّ في هذا لأنه لو كان خالق الجسد غير خالق العقاقير لم يهتد واحد منهما إلى ما وصفت. قلت: فإنّ الذي دلّ الحكيم الذي وصفت أنه أول من خلط هذه الأدوية ودلّ على عقاقيرها المتفرقة فيما بين المشرق والمغرب، ووضع هذا الطبّ على ما وصفت لك هو صاحب الحديقة فيما بين المشرق والمغرب، وهو باني الجسد، وهو دلّ الحكيم بوحى منه على صفة كل شجرة وبلدها وما يصلح منها من العروق والشمار والدهن والورق والخشب واللحاء، وكذلك دلّ على أوزانها من مثاقيلها وقراريطها وما يصلح كل داء منها، وكذلك هو خالق السباع والطيور والدوابّ التي في مرارها المنافع ممّا يدخل منها في العقاقير؛ فلما كان الخالق سبحانه وتعالى واحداً دلّ على ما فيه من المنافع منها فسمّاه باسمه

حتى عرف وترك ما لا منفعة فيه منها، ثم علم الحكيم أي السباع والدواب والطير فيه المنافع، وأبها لا منفعة فيه، ولولا أن خالق هذه الأشياء دلّه عليها ما اهتدى بها.

قال: إن هذا لكما تقول وقد بطلت الحواس والتجارب عند هذه الصفات. قلت: أما إذا صحت نفسك فتعال ننظر بعقولنا ونستدلّ بحواسنا، هل كان يستقيم لخالق هذه المدينة وغارس هذه الأشجار وخالق هذه الدواب والطير والناس الذي خلق هذه الأشياء لمنافعهم أن يخلق هذا الخلق ويغرس في أرض غيره ممّا إذا شاء منعه ذلك؟

قال: ما ينبغي أن تكون الأرض التي خلقت فيها الحديقة العظيمة وغرست فيه الأشجار إلّا لخالق هذا الخلق وملك يده. قلت: فقد أرى الأرض أيضاً لصاحب الحديقة لاتصال هذه الأشياء بعضها ببعض. قال: ما في هذا شك. قلت: فأخبرني وناصح نفسك ألسنت تعلم أن هذه الحديقة وما فيها من الخلقة العظيمة من الإنس والدواب والطير والشجر والعقاقير والثمار وغيرها لا يصلحها إلّا شربها وريتها من الماء الذي لا يحاة لشيء إلّا به؟ قال: بلى. قلت: أفترى الحديقة وما فيها من الذرة خالقها واحد، وخالق الماء غيره يحبسه عن هذه الحديقة إذا شاء ويرسله إذا شاء فيفسد على خالق الحديقة؟

قال: وما ينبغي أن يكون خالق هذه الحديقة وذاته هذه الذرة الكثير وغارس هذه الأشجار إلّا المدبّر الأوّل وما ينبغي أن يكون ذلك الماء لغيره، وإن اليقين عندي لهو أن الذي يجري هذه المياه من أرضه وبجالة لغارس هذه الحديقة وما فيها من الخلقة، لأنه لو كان الماء لغير صاحب الحديقة لهلك الحديقة وما فيها، ولكنه خلق الماء قبل الغرس والذرة وبه استقامت الأشياء وصلحت. قلت: أفرأيت لو لم يكن لهذه المياه المنفجرة

في الحديقة مغيض^(١) لما يفضل من شربها يحبسه عن الحديقة أن يفيض عليها أليس كان يهلك ما فيها من الخلق على حسب ما كانوا يهلكون لو لم يكن لها ماء؟ قال: بلى ولكني لا أدري لعلّ هذا البحر ليس له حابس وأنه شيء لم يزل. قلت: أما أنت فقد أعطيتني أنه لولا البحر ومغيض المياه إليه لهلكت الحديقة وما فيها من الخليقة، وأنه جعله مغيضاً لمياه الحديقة مع ما جعل فيه من المنافع للناس.

قال: فاجعلني من ذلك على يقين كما جعلتني من غيره. قلت: ألسنت تعلم أن فضول ماء الدنيا يصير في البحر قال: بلى. قلت: فهل رأيته زائداً قط في كثرة الماء وتتابع الأمطار على الحد الذي لم يزل عليه؟ أو هل رأيته ناقصاً في قلة المياه وشدة الحرّ وشدة القحط؟ قال: لا. قلت: أفليس ينبغي أن يدلّك عقلك على أنّ خالقه وخالق الحديقة وما فيها من الخليقة واحد، وأنه هو الذي وضع له حداً لا يجاوزه لكثرة الماء ولا لقلّته، وأن مما يستدلّ على ما أقول أنه يقبل بالأمواج أمثال الجبال يشرف على السهل والجبل، فلم لم تقبض أمواجه ولم تحبس في المواضع التي أمرت بالاحتباس فيها لأطبقت على الدنيا إذا انتهت على تلك المواضع التي لم تزل تنتهي إليها ذلت أمواجه وخضع أشراقه.

قال: إنّ ذلك لكما وصفت ولقد عاينت منه كل الذي ذكرت، ولقد أتيتني ببرهان ودلالات ما أقدر على إنكارها ولا جحودها لبيانها. قلت: وغير ذلك سأتيك به ممّا تعرف اتصال الخلق بضعه ببعض، وأنّ ذلك من مدبر حكيم عالم قدير، ألسنت تعلم أن عامة الحديقة ليس شربها من الأنهار والعيون وأن أعظم ما ينبت فيها من العقاقير والبقول التي في الحديقة ومعاش فيها من الدواب والوحش والطير من البراري التي لا عيون لها ولا

(١) المغيض: مجتمع الماء.

أنهار إنما يسقيه السحاب؟ قال: بلى. قلت: أفليس ينبغي أن يدلك عقلك وما أدركت بالحواس التي زعمت أن الأشياء لا تعرف إلا بها أنه لو كان السحاب الذي يحتمل من المياه والبلدان والمواضع التي لا تنالها ماء العيون والأنهار وفيها العقاقير والبقول والشجر والأنام لغير صاحب الحديقة لأمسكه عن الحديقة إذا شاء، ولكان خالق الحديقة من بقاء خليفه التي ذراً وبرأ على غرور ووجل، خائفاً على خليفه أن يحبس صاحب المطر الماء الذي لا حياة للخليفة إلا به؟

قال: إن الذي جئت به لوضح متصل بعضه ببعض، وما ينبغي أن يكون الذي هذه الحديقة وهذه الأرض، وجعل فيها الخليفة وخلق لها هذا المغيض، وأنبت فيها هذه الثمار المختلفة إلا خالق السماء والسحاب، ويرسل منها ما شاء من الماء إذا شاء أن يسقي الحديقة ويحيي ما في الحديقة من الخليفة والأشجار والدواب والبقول وغير ذلك، إلا أنني أحب أن تأتيني بحجة أزداد بها يقيناً وأخرج بها من الشك. قلت: فإني آتيك بها إن شاء الله من قبل إلهيلجتك واتصالها بالحديقة وما فيها من الأشياء المتصلة بأسباب السماء لتعلم أن ذلك بتدبير عليم حكيم.

قال: وكيف تأتيني بما يذهب عني الشك من قبل الإلهيلجة؟ قلت: فيما أريك فيها من إتقان الصنع، وأثر التركيب المؤلف، واتصال ما بين عروقها إلى فروعها، واحتياج بعض ذلك إلى بعض حتى يتصل بالسماء. قال: إن أريتني ذلك لم أشك. قلت: ألسنت تعلم أن الإلهيلجة نابتة في الأرض وأن عروقها مؤلفة إلى أصل، وأن الأصل متعلق بساق متصل بالغصون، والغصون متصلة بالفروع، والفروع منظومة بالأكمام والورق، وملبس ذلك كله الورق، ويتصل جميعه بظل يقيه حرّ الزمان وبرده؟

قال: أما الإلهيلجة فقد تبين لي اتصال لحائها وما بين عروقها وبين

ورقمها ومنبتها من الأرض، فأشهد أن خالقها واحد لا يشركه في خلقها غيره لإتقان الصنع واتصال الخلق واتلاف التدبير وإحكام التقدير. قلت: إن أريتك التدبير مؤتلفاً بالحكمة والإتقان معتدلاً بالصنعة، محتاجاً بعضه إلى بعض، متصلاً بالأرض التي خرجت منه الإهليلجة في الحالات كلها أنقرّ بخالق ذلك؟ قال: إذن لا أشك في الوحدانية. قلت: فافهم وافقه ما أصف لك: ألسنت تعلم أن الأرض متصلة بإهليلجتك وإهليلجتك متصلة بالتراب، والتراب متصل بالحرّ والبرد، والحرّ والبرد متصلان بالهواء، والهواء متصل بالرياح، والرياح متصلة بالسحاب، والسحاب متصل بالمطر، والمطر متصل بالأزمنة، والأزمنة متصلة بالشمس والقمر، والشمس والقمر متصلتان بدوران الفلك، والفلك متصل بما بين السماء والأرض صنعة ظاهرة، وحكمة بالغة، وتأليف متقن، وتدبير محكم، متصل كل هذا ما بين السماء والأرض، لا يقوم بعضه إلا ببعض، ولا يتأخر واحد منهما عن وقته، ولو تأخر عن وقته لهلك جميع من في الأرض من الأنام والنباتات؟ قال: إن هذه لهي العلامات البيّانات، والدلالات الواضحات لكني لست أدري لعلّ ما تركت غير متصل بما ذكرت. قلت: وما تركت؟ قال: الناس. قلت: ألسنت تعلم أن هذا كلّهُ متصل بالناس، سخّره لها المدبّر الذي أعلمتك أنّه إن تأخر شيء مما عددت عليك هلكت الخليقة، وباد جميع ما في الحديقة، وذهبت الإهليلجة التي تزعم أنّ فيها منافع الناس؟

قال: فهل تقدر أن تفسّر لي هذا الباب على ما لخصت لي غيره؟ قلت: نعم أبين لك ذلك من قبل إهليلجتك، حتى تشهد أنّ ذلك كله مسخّر لبني آدم. قال: وكيف ذلك؟ قلت: خلق الله السماء سقفاً مرفوعاً، ولولا ذلك اغتم خلقه لقربها، وأحرقتهم الشمس لدنوها، وخلق لهم شهياً ونجوماً يهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر لمنافع الناس، ونجوماً يعرف بها أصل السحاب، فيها الدلالات على إبطال الحواس، ووجود معلّمها الذي

عَلَّمَهَا عِبَادَهُ، مِمَّا لَا يَدْرِكُ عِلْمُهَا بِالْعُقُولِ فَضْلاً عَنِ الْحَوَاسِ، وَلَا يَقَعُ عَلَيْهَا الْأَوْهَامُ وَلَا يَبْلُغُهَا الْعُقُولُ إِلَّا بِهِ لِأَنَّهُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الَّذِي دَبَّرَهَا وَجَعَلَ فِيهَا سَرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً يَسْبَحَانُ^(١) فِي فَلَكَ يَدُورُ بِهِمَا دَائِبِينَ^(٢)، يَطْلُعُهُمَا تَارَةً وَيُؤَلِّقُهُمَا أُخْرَى، فَبَنَى عَلَيْهِ الْأَيَّامَ وَالشُّهُورَ وَالسِّنِينَ الَّتِي هِيَ مِنْ سَبَبِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ وَالرَّبِيعِ وَالخَرِيفِ، أَزْمَنَةً مُخْتَلِفَةً الْأَعْمَالِ، أَصْلَهَا اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اللَّذِينَ لَوْ كَانَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا سَرْمَداً عَلَى الْعِبَادِ لَمَا قَامَتْ لَهُمْ مَعَاشٌ أَبَداً، فَجَعَلَ مَدَبَّرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَخَالَقَهَا النَّهَارَ مُبْصِراً وَاللَّيْلَ سَكْناً، وَأَهْبَطَ فِيهِمَا الْحَرَّ وَالْبَرْدَ مُتَبَايِنِينَ لَوْ دَامَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا بِغَيْرِ صَاحِبِهِ مَا نَبَتَتْ شَجَرَةٌ وَلَا طَلَعَتْ ثَمَرَةٌ، وَلَهْلَكَتِ الْخَلِيقَةُ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَّصِلٌ بِالرِّيحِ الْمَصْرِفَةِ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ، بَارِدَةٌ تَبْرُدُ أَنْفَاسَهُمْ، وَحَارَةٌ تُلْقِحُ أَجْسَادَهُمْ وَتُدْفِعُ الْأَذَى عَنْ أَبْدَانِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَرَطُوبَةٌ تَرْطُبُ طِبَائِعَهُمْ، وَبِبُوسَةٍ تَنْشِفُ رَطُوبَاتِهِمْ وَبِهَا يَأْتَلِفُ الْمُفْتَرَقُ وَبِهَا يَتَفَرَّقُ الْغَمَامُ الْمَطْبُوقُ حَتَّى يَتَبَسِّطَ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ مَدَبَّرَةٌ فَيَجْعَلُهُ كَسَفاً فَتَرْدُ الْوُدُقُ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ بِقَدَرِ مَعْلُومٍ لِمَعَاشٍ مَفْهُومٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ وَأَجَالٍ مَكْتُوبَةٍ وَلَوْ احْتَبَسَ عَنْ أَزْمَنَتِهِ وَوَقْتِهِ هَلَكَتِ الْخَلِيقَةُ وَبِيسَتْ الْحَدِيقَةُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْمَطَرَ فِي أَيَّامِهِ وَوَقْتِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي خَلَقَهَا لِبَنِي آدَمَ، وَجَعَلَهَا فَرْشاً وَمَهَاداً، وَجَسَّهَا أَنْ تَزُولَ بِهِمْ، وَجَعَلَ الْجِبَالَ لَهَا أَوْتَاداً، وَجَعَلَ فِيهَا يَنْابِيعَ تَجْرِي فِي الْأَرْضِ بِمَا تَنْبَتُ فِيهَا لَا تَقُومُ الْحَدِيقَةُ وَالْخَلِيقَةُ إِلَّا بِهَا، وَلَا يَصْلُحُونَ إِلَّا عَلَيْهَا مَعَ الْبَحَارِ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حَلِيَةً يَلْبَسُونَهَا وَلَحْماً طَرِيّاً وَغَيْرَهُ يَأْكُلُونَهُ، فَعَلِمَ أَنَّ إِلَهَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَاحِدٌ حَيٌّ قَيُّومٌ مَدَبَّرٌ حَكِيمٌ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرُهُ لَاخْتَلَفَتْ الْأَشْيَاءُ.

(١) سَبَحَ فِي الْمَاءِ وَبِالْمَاءِ: عَامٌّ وَابْتَسَطَ فِيهِ وَاسْتَمَارَ لِمَزِجِ النُّجُومِ وَجَرِي الْفَرَسِ.

(٢) أَيُّ مُسْتَمَرِّينَ.

وكذلك السماء نظير الأرض التي أخرج الله منها حباً وعبئاً وقضباً، وزيتوناً ونخلأً، وحدائق غلباً وفاكهة وأبأً، بتدبير مؤلف مبين، بتصوير الزهرة والشمرة حياة لبني آدم، ومعاشاً يقوم به أجسادهم، وتعيش بها أنعامهم التي جعل الله في أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، والانتفاع بها والبلاغ على ظهورها معاشاً لهم لا يحيون إلا به، وصلاحاً لا يقومون إلا عليه وكذلك ما جهلت من الأشياء فلا تجهل أن جميع ما في الأرض شيثان: شيء يولد، وشيء ينبت، أحدهما آكل، والآخر مأكول، وما يدلك عقلك إنهم خالقهم ما ترى من خلق الإنسان وتهيته جسده لشهوة الطعام، والمعدة لتطحن المأكول، ومجاري العروق لصفوة الطعام، وهياً لها الأمعاء، ولو كان خالق المأكول غيره لما خلق الأجساد مشتهية للمأكول وليس له قدرة عليه.

قال: لقد وصفت أعلم أنها من مدبر حكيم لطيف قدير عليم، قد آمنت وصدقت أن الخالق واحد سبحانه وبعمده، غير أنني أشك في هذه السمائم القائلة أن يكون هو الذي خلقها لأنها ضارة غير نافعة! قلت: أليس قد صار عندك أنها من غير خلق الله؟ قال: نعم لأن الخالق عبيده ولم يكن ليخلق ما يضرهم. قلت: سأبصرك، قلت: هل تعرف شيئاً من النبات ليس فيه مضرّة للخلق؟ قال: نعم. قلت: ما هو؟ قال: حتى يكون منها الجذام والبرص والسلال^(١) والماء الأصفر، وغير ذلك من الأوجاع؟ قال: هو كذلك؟ قلت: أما هذا الباب فقد انكسر عليك. قال: أجل. قلت: هل تعرف شيئاً من النبات ليس فيه منفعة؟ قال: نعم.

قلت: أليس يدخل في الأدوية التي يدفع بها الأوجاع من الجذام

(١) السّل بالكسر في اللغة الهزال، وفي الطب القديم قرحة في الرية، وإنما سمي المرض به، لأن من لوازمه هزال البدن، ولأن الحنّى الدقية لازمة لهذه القرحة.

والبرص والسلال وغير ذلك، ويدفع الداء ويذهب السقم ممّا أنت أعلم به لطول معالجتك قال: إنه كذلك.

قلت: فأخبرني أي الأدوية عندكم أعظم في السمائم القاتلة؟ أليس الترياق؟

قال: نعم هو رأسها وأول ما يفرغ إليه عند نهش الحيات^(١) ولسع الهوام وشرب السمائم.

قلت: أليس تعلم أنه لا بد للأدوية المرتفعة والأدوية المحرقة في أخلاط الترياق إلا أن تطبخ بالأفاعي القاتلة؟ قال: نعم هو كذلك ولا يكون الترياق المنتفع به الدافع للسمائم القاتلة إلا بذلك، ولقد انكسر عليّ هذا الباب، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه خالق السمائم القاتلة والهوام العادية، وجميع النبات والأشجار، وغارسها ومنبتها، وبارئ الأجساد، وسائق الرياح، ومسخر السحاب، وأنه خالق الأدوية التي تهيج بالإنسان كالسمائم القاتلة التي تجري في أعضائه وعظامه، ومستقر الأدوية وما يصلحها من الدواء، العارف بالروح ومجرى الدم وأقسامه في العروق واتصاله بالعصب والأعضاء والعصب والجسد، وأنه عارف بما يصلحه من الحرّ والبرد، عالم بكل عضو بما فيه وأنه هو الذي وضع هذه النجوم وحسابها والعالم بها، والدالّ على نحوسها وسعودها وما يكون من المواليد، وأن التدبير واحد لم يختلف متصل فيما بين السماء والأرض وما فيها، فبين لي كيف قلت: هو الأوّل والآخر وهو اللطيف الخبير وأشباه ذلك؟ قلت: هو الأوّل بلا كيف، وهو الآخر بلا نهاية، ليس له مثل، خلق الخلق والأشياء لا من ولا كيف بلا علاج ولا معاناة ولا فكر ولا كيف له،

(١) نهش الحية: تناوله بفمه ليعضه فيؤثر فيه ولا يجرحه.

وإنما كيف بكيفية المخلوق لأنه الأول لا بدء له ولا شبه ولا مثل ولا ضد ولا نذ، لا يدرك ببصر ولا يحس بلمس، ولا يعرف إلا بخلقه تبارك وتعالى.

قال: فصف لي قوته. قلت: إنما سمي ربنا جلّ جلاله قوياً للمخلوق العظيم القوي الذي خلق مثل الأرض وما عليها من جبالها وبحارها ورمالها وأشجارها وما عليها من الخلق المتحرك من الإنس ومن الحيوان، وتصريف الرياح والسحاب المسخر المثلث بالماء الكثير، والشمس والقمر وعظهما وعظم نورهما الذي لا تدركه الأبصار بلوغاً ومنتهاً، والنجوم الجارية، ودوران الفلك، وغلظ السماء، وعظم الخلق العظيم، والسماء المسقفة فوقنا راكدة في الهواء، وما دونها من الأرض المبسوطة، وما عليها من الخلق الثقيل، وهي راكدة لا تتحرك، غير أنه ربما حرك فيها ناحية، والناحية الأخرى ثابتة، وربما خسف منها ناحية والناحية الأخرى قائمة؛ يرينا قدرته ويدلنا بفعله على معرفته، فلهذا سمي قوياً لا قوة البطش المعروفة من الخلق، ولو كانت قوته تشبه قوة الخلق لوقع عليه التشبيه، وكان محتملاً للزيادة، وما احتمل الزيادة كان ناقصاً وما كان ناقصاً لم يكن تاماً، وما لم يكن تاماً كان عاجزاً ضعيفاً، والله عز وجل لا يشبه بشيء، وإنما قلنا: إنه قوي للمخلوق القوي؛ وكذلك قولنا: العظيم والكبير، ولا يشبه بهذه الأسماء الله تبارك وتعالى.

قال: أفرايت قوله: سميع بصير عالم؟ قلت: إنما يسمى تبارك وتعالى بهذه الأسماء لأنه لا يخفى عليه شيء مما لا تدركه الأبصار من شخص صغير أو كبير، أو دقيق أو جليل، ولا نصفه بصيراً بلحظ عين المخلوق، وإنما سمي سميعاً لأنه ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِمُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ يسمع

النجوى، وديبب النمل على الصفا^(١) وخفقان الطير في الهواء^(٢)، لا تخفى عليه خافية ولا شيء مما أدركته الأسماع والأبصار وما لا تدركه الأسماع والأبصار، ما جلّ من ذلك وما دقّ، وما صغر وما كبر؛ ولم نقل سميعاً بصيراً كالسمع المعقول من الخلق، وكذلك إنّما سميّ عليمّاً لأنّه لا يجهل شيئاً من الأشياء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، علم ما يكون وما لا يكون، وما لو كان كيف يكون، ولم نصف عليمّاً بمعنى غريزة يعلم بها، كما أنّ للخلق غريزة يعلمون بها، فهذا ما أراد من قوله: عليم؛ فعزّ من جلّ عن الصفات ومن نزّه نفسه عن أفعال خلقه فهذا هو المعنى، ولولا ذلك ما فصل بينه وبين خلقه فسبحانه وتقدّست أسماؤه.

قال: إنّ هذا لكما تقول ولقد علمت أنّما غرضي أن أسأل عن ردّ الجواب فيه عند مصرف يسبح عني، فأخبرني لعلّي أحكمه فيكون الحجّة قد انشروحت للمتعمّات المخالف، أو السائل المرتاب، أو الطالب المرتاد، مع ما فيه لأهل الموافقة من الازدياد. فأخبرني عن قوله: لطيف، وقد عرفت أنّه للفعل، ولكن قد رجوت أن تشرح لي ذلك بوصفك. قلت: إنّما سميّناه لطيفاً للخلق اللطيف، ولعلمه بالشيء اللطيف ممّا خلق من البعوض والذرة^(٣)، وممّا هو أصغر منهما لا يكاد تدركه الأبصار والعقول، لصغر خلقه من عينه وسمعه وصورته، لا يعرف من ذلك لصغر الذكر من الأنثى، ولا الحديث المولود من القديم الوالد، فلمّا رأينا لطف ذلك في صغره وموضع العقل فيه والشهوة للفساد والهرب من الموت، والحدب على نسله من ولده، ومعرفة بعضها بعضاً، وما كان منها في لجج البحار وأعنان السماء والمفاوز والقفار، وما هو معنا في منزلنا، ويفهم بعضهم بعضاً من

(١) الصفا: الحجر الصلد الضخم.

(٢) خفق الطير: ضرب بجناحيه.

(٣) الذر: صغار النمل.

منطقهم، وما يفهم من أولادها، ونقلها الطعام إليها والماء، علمنا أنّ خالقها لطيف وأنّه لطيف بخلق اللطيف، كما سمّيناه قوياً بخلق القويّ.

قال: إنّ الذي جئت به لواضح، فكيف جاز للخلق أن تسمّوا بأسماء الله تعالى؟

قلت: إنّ الله جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه أباح للناس الأسماء، ووهبها لهم، وقد قال القائل من الناس للواحد: واحد، ويقول لله: واحد، ويقول: قويّ والله تعالى قويّ، ويقول: صانع والله صانع، ويقول: رازق والله رازق، ويقول سميع بصير والله سميع بصير، وما أشبه ذلك، فمن قال للإنسان: واحد فهذا له اسم وله شبيه، والله واحد وهو له اسم ولا شيء له شبيه وليس المعنى واحداً؛ وأمّا الأسماء فهي دلالتنا على المسمّى لأنّنا قد نرى الإنسان واحداً وإنّما نخبر واحداً إذا كان مفرداً فعلم أنّ الإنسان في نفسه ليس بواحد في المعنى لأن أعضائه مختلفة وأجزائه ليس سواء، ولحمه غير دمه، وعظمه غير عصبه وشعره غير ظفره، وسواده غير بياضه، وكذلك سائر الخلق، فإذا قيل لله فهو الواحد الذي لا واحد غيره لأنّه لا اختلاف فيه، وهو تبارك وتعالى سميع وبصير وقويّ وعزيز وحكيم وعليم فتعالى الله أحسن الخالقين.

قال: فأخبرني عن قوله: رؤوف رحيم، وعن رضاه ومحبّته وغضبه وسخطه. قلت: إنّ الرحمة وما يحدث لنا منها شفقه ومنها جود، وإنّ رحمة الله ثوابه لخلقه، والرحمة من العباد شيّتان: أحدهما يحدث في القلب الرأفة والرقّة لما يرى بالمرحوم من الضّرّ والحاجة وضروب البلاء، والآخر ما يحدث منّا بعد الرأفة واللفظ على المرحوم والرحمة منّا ما نزل به، وقد يقول القائل: أنظر إلى رحمة فلان وإنّما يريد الفعل الذي حدث عن الرقّة في قلب فلان، وإنّما يضاف إلى الله عزّ وجلّ من فعل ما حدث

عنا من هذه الأشياء؛ وأما المعنى الذي هو في القلب فهو منفى عن الله كما وصف عن نفسه فهو رحيم لا رحمة رقة؛ وأما الغضب فهو منا إذا غضبنا تغيرت طباعنا وترتعد أحياناً مفاصلنا وحالت ألواننا، ثم نجىء من بعد ذلك بالعقوبات فسمي غضباً، فهذا كلام الناس المعروف؛ والغضب شيان: أحدهما في القلب، وأما المعنى الذي هو في القلب فهو منفى عن الله جلّ جلاله، وكذلك رضاه وسخطه ورحمته على هذه الصفة جلّ وعزّ لا شبيه له ولا مثيل في شيء من الأشياء.

قال: فأخبرني عن إرادته. قلت: إنّ الإرادة من العباد الضمير وما يبدو بعد ذلك من الفعل، وأما من الله عزّ وجلّ فالإرادة للفعل إحداثه إنّما يقول له كن فيكون، بلا تعب ولا كيف.

قال: قد بلغت حسبك فهذه كافية لمن عقل؛ والحمد لله رب العالمين، الذي هدانا من الضلال وعصمنا من أن نشبهه بشيء من خلقه، وأنّ نشكّ في عظمته وقدرته ولطيف صنعه وجبروته، جلّ عن الأشباه والأضداد، وتكبر عن الشركاء والأنداد^(١).

الفصل العاشر

من حكم ومواعظ
الإمام جعفر الصادق عليه السلام



حكم ومواعظ للإمام الصادق عليه السلام

وروي عنه عليه السلام في قصار هذه المعاني^(١)

قال عليه السلام : مَنْ أَنْصَفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ رُضِيَ بِهِ حَكَمًا لغيرِهِ .

وقال عليه السلام : إِذَا كَانَ الزَّمَانُ زَمَانَ جَوْرِ وَأَهْلُهُ أَهْلُ غَدْرِ فَالطَّمَانِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ عَجَزٌ .

وقال عليه السلام : إِذَا أَضِيفَ الْبَلَاءُ إِلَى الْبَلَاءِ كَانَ مِنَ الْبَلَاءِ عَافِيَةٌ .

وقال عليه السلام : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ صِحَّةَ مَا عِنْدَ أَخِيكَ فَأَغْضِبْهُ فَإِنْ ثَبَتَ لَكَ عَلَى الْمَوَدَّةِ فَهُوَ أَخُوكَ وَإِلَّا فَلَا .

وقال عليه السلام : لَا تَعْتَدُ بِمَوَدَّةٍ أَحَدٍ حَتَّى تُغْضِبَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

وقال عليه السلام : لَا تَثِقَنَّ بِأَخِيكَ كُلَّ الثَّقَةِ، فَإِنَّ صَرْعَةَ الْاِسْتِرْسَالِ لَا تَسْتَقَالُ^(٢) .

وقال عليه السلام : الْإِسْلَامُ دَرَجَةٌ . وَالْإِيمَانُ عَلَى الْإِسْلَامِ دَرَجَةٌ . وَالْيَقِينُ عَلَى الْإِيمَانِ دَرَجَةٌ . وَمَا أَوْتِيَ النَّاسُ أَقْلٌ مِنَ الْيَقِينِ .

وقال عليه السلام : إِزَالَةُ الْجِبَالِ أَهْوَنُ مِنْ إِزَالَةِ قَلْبٍ عَنْ مَوْضِعِهِ .

(١) تحف العقول: ص ٣٥٧ .

(٢) الصرعة: المدة من الصرع . والاسترسال: الطمانينة والاستئناس إلى الغير والثقة فيما يحدثه . وأصل الاسترسال: السكون والثبات .

وقال عليه السلام: الإيمان في القلب واليقين خطرات.

وقال عليه السلام: الرغبة في الدنيا تُورث النعم والحزن. والزهد في الدنيا راحة القلب والبدن.

وقال عليه السلام: من العيش دار يُكرى وخُبر يُشرى.

وقال عليه السلام: لِرَجُلَيْنِ تَخَاصُمَا بِحَضْرَتِهِ: أَمَّا إِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِغَيْرِ مَنْ ظَفَرَ بِالظُّلَمِ. وَمَنْ يَفْعَلِ السُّوءَ بِالنَّاسِ فَلَا يُنْكِرِ السُّوءَ إِذَا فَعَلَ بِهِ.

وقال عليه السلام: التَّوَاصُلُ بَيْنَ الْإِخْوَانِ فِي الْحَضَرِ التَّزَاوُرَ وَالتَّوَاصُلُ فِي السَّفَرِ الْمَكَاتِبَةُ.

وقال عليه السلام: لَا يَصْلُحُ الْمُؤْمِنُ إِلَّا عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ وَحُسْنُ التَّقْدِيرِ فِي الْمَعِيشَةِ وَالصَّبْرُ عَلَى النَّائِبَةِ.

وقال عليه السلام: الْمُؤْمِنُ لَا يَغْلِبُهُ فَرْجُهُ. وَلَا يَفْضَحُهُ بَطْنُهُ.

وقال عليه السلام: ضُحْبَةُ عَشْرِينَ سَنَةً قَرَابَةٌ.

وقال عليه السلام: لَا تَصْلُحُ الصَّنِيعَةُ إِلَّا عِنْدَ ذِي حَسَبٍ أَوْ دِينٍ. وَمَا أَقْلُ مَنْ يَشْكُرُ الْمَعْرُوفَ.

وقال عليه السلام: إِنَّمَا يُؤْمَرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ مُؤْمِنٌ فَيَتَعَطَّ، أَوْ جَاهِلٌ فَيَتَعَلَّمُ. فَأَمَّا صَاحِبُ سَوِطٍ وَسَيْفٍ فَلَا^(١).

وقال عليه السلام: إِنَّمَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ مَنْ كَانَتْ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ: عَالِمٌ بِمَا يَأْمُرُ، عَالِمٌ بِمَا يَنْهَى. عَادِلٌ فِيمَا يَأْمُرُ، عَادِلٌ فِيمَا يَنْهَى. رَفِيقٌ بِمَا يَأْمُرُ، رَفِيقٌ يَنْهَى.

(١) لأنه كثيراً ما لا يؤمر فيهم وكل صاحب قدرة وسلطنة مفرور إلا من ألزم الحق واتباعه .

وقال عليه السلام: مَنْ تعرَّضَ لِسلْطَانٍ^(١) جَائِرٍ فَأَصَابَتْهُ مِنْهُ بَلِيَّةٌ لَمْ يُوَجَّرْ عَلَيْهَا وَلَمْ يُرْزَقِ الصَّبْرَ عَلَيْهَا.

وقال عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ أَنْعَمَ عَلَى قَوْمٍ بِالْمَوَاهِبِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ فَصَارَتْ عَلَيْهِمْ وَبَالاً وَابْتَلَى قَوْماً بِالْمَصَائِبِ فَصَبَرُوا فَكَانَتْ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً.

وقال عليه السلام: صَلَاحُ حَالِ التَّعَائِشِ وَالتَّعَاشِرِ مِلْءُ مِكْيَالٍ^(٢) ثَلَاثَةٌ فِطْنَةٌ وَثَلَاثَةٌ تَغَافُلٌ.

وقال عليه السلام: مَا أَقْبَحَ الْإِنْتِقَامَ بِأَهْلِ الْأَقْدَارِ^(٣).

وقيل لَهُ: مَا الْمَرْوَةُ؟ فَقَالَ عليه السلام: لَا يَرَاكَ اللَّهُ حَيْثُ نَهَاكَ وَلَا يَفْقِدُكَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكَ.

وقال عليه السلام: أَشْكُرُ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيَّ. وَأَنْعِمُ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ، فَإِنَّهُ لَا إِزَالَهَ لِلنَّعْمِ إِذَا شُكِرَتْ وَلَا إِقَامَةً لِهَذَا إِذَا كُفِرَتْ. وَالشُّكْرُ زِيَادَةٌ فِي النَّعْمِ وَأَمَانٌ مِنَ الْفَقْرِ.

وقال عليه السلام: قَوْتُ الْحَاجَةِ خَيْرٌ مِنْ طَلَبِهَا مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا. وَأَشَدُّ مِنَ الْمَصِيبَةِ سُوءُ الْخُلُقِ مِنْهَا.

وسأله رَجُلٌ: أَنْ يُعَلِّمَهُ مَا يَنَالُ بِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَا يَطُولُ عَلَيْهِ^(٤)؟ فَقَالَ عليه السلام: لَا تَكْذِبْ.

وقيل لَهُ: مَا الْبَلَاغَةُ؟ فَقَالَ عليه السلام: مَنْ عَرَفَ شَيْئاً قَلَّ كَلَامُهُ فِيهِ. وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْبَلِغُ لِأَنَّهُ يُبْلِغُ حَاجَتَهُ بِأَهْوَنِ سَعْيِهِ.

(١) أي تصدى لطلب فضله وإحسانه.

(٢) تعايش القوم: عاشوا مجتمعين على ألفة ومودة. وتعاشر القوم: تخالطوا وتصاحبوا.

(٣) الظاهر أن المراد من يقدر عليهم الرزق والمعيشة أي الضملاء. الأقدار: جمع قدر.

(٤) ولا يطول: بالتخفيف أي لا يجعله طويلاً بل مختصراً وموجزاً.

وقال عليه السلام: الدُّيْنُ غَمٌّ بِاللَّيْلِ وَدُلٌّ بِالنَّهَارِ.

وقال عليه السلام: إِذَا صَلَّحَ أَمْرُ دُنْيَاكَ فَاتَّهَمَ دِينُكَ.

وقال عليه السلام: بَرُّوا آبَائَكُمْ يَبْرُكُمُ أَبْنَاؤُكُمْ. وَعِفُّوا عَنِ نِسَاءِ النَّاسِ تَعِفُّ نِسَاؤُكُمْ.

وقال عليه السلام: مَنْ اِئْتَمَنَ خَائِنًا عَلَى أَمَانَةٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَى اللَّهِ ضَمَانٌ^(١).

وقال عليه السلام: لِحُمْرَانَ بْنِ أَعْيَنَ: يَا حُمْرَانُ انْظُرْ مَنْ هُوَ دُونَكَ فِي الْمَقْدَرَةِ^(٢) وَلَا تَنْتَظِرْ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ: فَإِنَّ ذَلِكَ أَفْنَعُ لَكَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ وَأُخْرَى أَنْ تَسْتَوْجِبَ الزِّيَادَةَ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَمَلَ الدَّائِمَ الْقَلِيلَ عَلَى الْيَقِينِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَمَلِ الْكَثِيرِ عَلَى غَيْرِ يَقِينٍ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا وَرَعَ أَنْفَعُ مِنْ تَجَنُّبِ مَحَارِمِ اللَّهِ وَالْكَفِّ عَنْ أَذَى الْمُؤْمِنِينَ وَاعْتِيَابِهِمْ. وَلَا عَيْشَ أَمَنًا مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ. وَلَا مَالَ أَنْفَعُ مِنَ الْقَنَاعَةِ بِالسَّيْرِ الْمُجْزِئِ وَلَا جَهْلَ أَضَرُّ مِنَ الْعُجْبِ.

وقال عليه السلام: الْحَيَاءُ عَلَى وَجْهَيْنِ فَمِنْهُ ضَعْفٌ وَمِنْهُ قُوَّةٌ وَإِسْلَامٌ وَإِيمَانٌ.

وقال عليه السلام: تَرَكَ الْحُقُوقَ مَذَلَّةً وَإِنَّ الرَّجُلَ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَتَعَرَّضَ فِيهَا لِلْكَذِبِ.

وقال عليه السلام: إِذَا سَلَّمَ الرَّجُلُ مِنَ الْجَمَاعَةِ أَجْزَأَ عَنْهُمْ. وَإِذَا رَدَّ وَاحِدٌ مِنَ الْقَوْمِ أَجْزَأَ عَنْهُمْ.

(١) الضمان: ما يلتزم بالرد.

(٢) المقدره: القوة والغنى. وحمران بن أعين الشيباني الكوفي تابعي مشكور يكنى أبا الحسن وقيل: أبا حمزة من أصحاب الصادقين بل من حواريهما عليه السلام كان من أكابر مشايخ الشيعة المفضلين الذين لا يُشك فيهم وكان أحد حملة القرآن. وقيل أنه أحد القراء السبعة وكان عالماً بالنحو اللغة.

وقال عليه السلام: السَّلامُ تطوُّعٌ والرُّدُّ فَرِيضَةٌ.

وقال عليه السلام: مَنْ بَدَأَ بِكَلَامٍ قَبْلَ سَلامٍ فَلَا تُجِيبُوهُ.

وقال عليه السلام: إِنَّ تَمامَ التَّحِيَّةِ لِلْمُقِيمِ الْمُصَافِحَةِ. وَتَمامَ التَّسْلِيمِ عَلَى الْمَسافِرِ الْمَعانِقَةُ.

وقال عليه السلام: تَصافَحُوا، فَإِنَّها تَذْهَبُ بِالسَّخِيمَةِ^(١).

وقال عليه السلام: اتَّقِ اللَّهَ بَعْضَ الثَّقَى وَإِنْ قُلَّ. وَدَعْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ سِتْراً وَإِنْ رَقَّ.

وقال عليه السلام: مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ إِذَا غَضِبَ وَإِذَا رَغِبَ وَإِذَا رَهَبَ وَإِذَا اشْتَهَى حَرَّمَ اللَّهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ.

وقال عليه السلام: الْعَافِيَةُ نِعْمَةٌ خَفِيفَةٌ إِذَا وُجِدَتْ نُسِيتَ وَإِذَا عُدِمَتْ ذُكِرَتْ.

وقال عليه السلام: اللَّهُ فِي السَّرَّاءِ نِعْمَةُ التَّفَضُّلِ، وَفِي الضَّرَّاءِ نِعْمَةُ التَّطَهُّرِ^(٢).

وقال عليه السلام: كَمْ مِنْ نِعْمَةٍ لِلَّهِ عَلَى عَبْدِهِ فِي غَيْرِ أَمَلِهِ. وَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ أَمَلًا الْخِيَارُ فِي غَيْرِهِ. وَكَمْ مِنْ سَاحٍ إِلَى حَتْفِهِ وَهُوَ مُبْطِئٌ عَنْ حِفْظِهِ.

وقال عليه السلام: قَدْ عَجَزَ مَنْ لَمْ يَعُدَّ لِكُلِّ بَلاءٍ صَبْراً. وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ شُكْراً. وَلِكُلِّ عُسْرٍ يُسْراً. أَصْبِرْ نَفْسَكَ عِنْدَ كُلِّ بَلِيَّةٍ وَرِزْيَةٍ فِي وَلَدٍ. أَوْ فِي مَالٍ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يَقْبِضُ عَارِيَتَهُ وَهَبَتُهُ لِيَبْلُوَ شُكْرَكَ وَصَبْرَكَ.

وقال عليه السلام: مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَلَهُ حَدٌّ. قِيلَ: فَمَا حَدُّ الْيَقِينِ؟ قَالَ عليه السلام: أَنْ لَا تَخَافَ شَيْئاً.

(١) السخيمة: الضئيلة والحقد في النفس.

(٢) الفضل: النيل من الفضل. التطهر: التنزه عن الأدناس أي المعاصي.

وقال عليه السلام: ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال: وقور عند الهزاهز^(١)، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء، ولا يتحمل الأصدقاء^(٢)، بدنه منه في تعب والناس منه في راحة.

وقال عليه السلام: إن العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والصبر أمير جنوده والرفق أخوه واللن والبدء.

وقال أبو عبيدة^(٣): ادع الله لي أن لا يجعل رزقي على أيدي العباد. فقال عليه السلام: أبى الله عليك ذلك إلا أن يجعل أرزاق العباد بعضهم من بعض. ولكن ادع الله أن يجعل رزقك على أيدي خيار خلقه، فإنه من السعادة ولا يجعله على أيدي شرار خلقه، فإنه من الشقاوة.

وقال عليه السلام: العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق، فلا تزيده سرعة السير إلا بعداً.

وقال عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾^(٤)، قال: يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر.

وقال عليه السلام: من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سحت نفسه عن الدنيا^(٥).

وقال عليه السلام: الخائف من لم تدع له الرهبة لساناً ينطق به.

وقيل له عليه السلام: قوم يعملون بالمعاصي ويقولون: نرجو فلا يزالون

(١) الوقور: ذو الوقار. الهزاز: الفتن التي تهز الناس وتطلق على الشدائد والحروب.

(٢) «يتحمل» أي ولا يحمل على الأصدقاء ولا يتكلف عليهم.

(٣) الظاهر أنه أبو عبيدة الحذاء زياد بن عيسى الكوفي من أصحاب الباقر والصادق عليه السلام.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

(٥) سخيت نفسه عنه أي تركته ولم تنازعني إليه نفسي.

كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ يَتَرَجَّوْنَ فِي الْأَمَانِي كَذِبُوا لَيْسَ يَرْجُونَ، إِنْ مِنْ رَجَا شَيْئاً طَلَبَهُ. وَمَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ هَرَبَ مِنْهُ.

وقال عليه السلام: إِنَّا لَنُحِبُّ مَنْ كَانَ عَاقِلًا عَالِمًا فَهَمًّا حَلِيمًا مُدَارِيًّا صَبُورًا صَدُوقًا وَفِيًّا^(١)، إِنْ اللَّهُ خَصَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَمَنْ كَانَتْ فِيهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ فَلْيَتَضَرَّعْ إِلَى اللَّهِ وَلْيَسْأَلْهُ إِيَّاهَا قِيلَ لَهُ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْوَرَعُ وَالْقَنَاعَةُ وَالصَّبْرُ وَالشُّكْرُ وَالْحِلْمُ وَالْحَيَاءُ وَالسَّخَاءُ وَالشَّجَاعَةُ وَالْغِيَرَةُ وَصِدْقُ الْحَدِيثِ وَالْبِرُّ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ وَالْيَقِينُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَالْمُرُوءَةُ.

وقال عليه السلام: مِنْ أَوْثَقِ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ وَتُعْطِيَ فِي اللَّهِ وَتَمْنَعَ فِي اللَّهِ.

وقال عليه السلام: لَا يَتَّبِعُ الرَّجُلُ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلَّا ثَلَاثَ خِصَالٍ: صَدَقَةٌ أَجْرَاهَا اللَّهُ لَهُ فِي حَيَاتِهِ فَهِيَ تَجْرِي لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَسُنَّةٌ هَدَى يَعْمَلُ بِهَا. وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ.

وقال عليه السلام: إِنْ الْكَذِبَةُ لَتَنْقُضَ الْوُضُوءَ إِذَا تَوَضَّأَ الرَّجُلُ لِلصَّلَاةِ. وَتُفْطِرُ الصَّيَامَ. فَقِيلَ لَهُ: إِنَّا نَكْذِبُ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَيْسَ هُوَ بِاللَّغْوِ وَلَكِنَّهُ الْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَمَةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ قَالَ: إِنْ الصَّيَامُ لَيْسَ مِنَ الطَّعَامِ وَلَا مِنَ الشَّرَابِ وَخَذَهُ، إِنْ مَرِمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَتْ: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا^(٢) أَيِ صِمْتًا، فَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَكُمْ وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَازَعُوا، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ.

وقال عليه السلام: مَنْ أَعْلَمَ اللَّهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ إِمْتَرَزَ لَهُ عَرْشُهُ.

(١) الوفي: الكثير الوفاء. وأيضاً الذي يعطي الحق ويأخذ الحق.

(٢) سورة مريم، الآية ٢٦.

وقال عليه السلام : إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ أَنَّ الذَّنْبَ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْعُجْبِ وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا ابْتَلَى اللَّهُ مُؤْمِنًا بِذَنْبٍ أَبَدًا.

وقال عليه السلام : مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ.

وقال عليه السلام : المعروف كاسمه وليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه. والمعروف هديّة من الله إلى عبده. وليس كلُّ مَنْ يُحِبُّ أَنْ يَصْنَعَ المعروف إلى النَّاسِ يَصْنَعُهُ. وَلَا كُلُّ مَنْ رَغِبَ فِيهِ يَقْدُرُ عَلَيْهِ. وَلَا كُلُّ مَنْ يَقْدُرُ عَلَيْهِ يُوْذُنُ لَهُ فِيهِ. فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ جَمَعَ لَهُ الرَّغْبَةَ فِي الْمَعْرُوفِ وَالْقُدْرَةَ وَالْإِذْنَ فَهَنَّاكَ تَمَّتِ السَّعَادَةُ وَالْكَرَامَةُ لِلطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ إِلَيْهِ.

وقال عليه السلام : لَمْ يُسْتَزَدْ فِي مَحْبُوبٍ بِمِثْلِ الشُّكْرِ. وَلَمْ يُسْتَنْقَصْ مِنْ مَكْرُوهٍ بِمِثْلِ الصَّبْرِ.

وقال عليه السلام : لَيْسَ لِإِبْلِيسَ جُنْدٌ أَشَدُّ مِنْ النِّسَاءِ وَالْغَضَبِ.

وقال عليه السلام : الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ وَالصَّبْرُ حِصْنُهُ. وَالْجَنَّةُ مَأْوَاهُ. وَالدُّنْيَا جَنَّةُ الْكَافِرِ. وَالْقَبْرُ سِجْنُهُ. وَالنَّارُ مَأْوَاهُ.

وقال عليه السلام : وَلَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ أَشْبَهُ بِشَكِّ لَا يَقِينٍ فِيهِ مِنْ الْمَوْتِ.

وقال عليه السلام : إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ يَتَفَقَّدُ الذُّنُوبَ مِنَ النَّاسِ، نَاسِيًا لَذَنْبِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ مُكِرَ بِهِ.

وقال عليه السلام : الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الصَّائِمِ الْمُحْتَسِبِ. وَالْمُعَافَى الشَّاكِرُ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الْمُبْتَلَى الصَّابِرِ.

وقال عليه السلام : لَا يَنْبَغِي لِمَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا أَنْ يُعَدَّ سَعِيدًا. وَلَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ وَدُودًا أَنْ يُعَدَّ حَمِيدًا. وَلَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ صَبُورًا أَنْ يُعَدَّ كَامِلًا. وَلَا لِمَنْ لَا يَتَّقِي مَلَامَةَ الْعُلَمَاءِ وَدَمَهُمْ أَنْ يُرْجَى لَهُ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ صَدُوقًا لِيُؤْمِنَ عَلَى حَدِيثِهِ وَشُكُورًا لِيَسْتَوْجِبَ الزُّيَادَةَ.

وقال عليه السلام: لَيْسَ لَكَ أَنْ تَأْتِمِنَ الْخَائِنَ وَقَدْ جَرَّبْتَهُ وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَنْتَهَمَ مَنْ إِيْتَمَنْتَ.

وقيلَ لَهُ: مَنْ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ عليه السلام: أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلَّهِ وَأَعَمَلَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ. قُلْتُ: فَمَنْ أَبْغَضَ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ عليه السلام: مَنْ يَتَّهِمُ اللَّهَ. قُلْتُ: أَحَدٌ يَتَّهِمُ اللَّهَ؟ قَالَ عليه السلام: نَعَمْ مَنْ اسْتَخَارَ اللَّهَ فَجَاءَتْهُ الْخَيْرَةُ بِمَا يَكْرَهُ فَيَسْخَطُ فَذَلِكَ يَتَّهِمُ اللَّهَ. قُلْتُ: وَمَنْ؟ قَالَ: يَشْكُو اللَّهَ؟ قُلْتُ: وَأَحَدٌ يَشْكُو اللَّهَ؟ قَالَ عليه السلام: نَعَمْ، مَنْ إِذَا ابْتَلَيْ شَكِيَ بِأَكْثَرِ مِمَّا أَصَابَهُ. قُلْتُ: وَمَنْ؟ قَالَ عليه السلام: إِذَا أُعْطِيَ لَمْ يَشْكُرْ وَإِذَا ابْتُلِيَ لَمْ يَصْبِر. قُلْتُ، فَمَنْ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ؟ قَالَ عليه السلام: مَنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ.

وقال عليه السلام: لَيْسَ لِمَلُولٍ^(١) صَدِيقٌ. وَلَا لِحَسَدٍ غَنَى. وَكَثْرَةُ النَّظَرِ فِي الْحِكْمَةِ تَلْفَحُ الْعَقْلَ.

وقال عليه السلام: كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا. وَكَفَى بِالْإِغْتِرَارِ بِهِ جَهْلًا.

وقال عليه السلام: أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَالتَّوَاضُّعُ لَهُ.

وقال عليه السلام: عَالَمٌ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ وَأَلْفِ زَاهِدٍ وَأَلْفِ مُجْتَهِدٍ^(٢).

وقال عليه السلام: وَإِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ وَزَكَاةُ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمَهُ أَهْلُهُ.

وقال عليه السلام: الْقُضَاءُ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ: رَجُلٌ قَضَى بِجَوْرِ وَهُوَ يَعْلَمُ فَهُوَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ قَضَى بِجَوْرِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ فَهُوَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ قَضَى بِحَقٍّ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ فَهُوَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ قَضَى بِحَقٍّ وَهُوَ يَعْلَمُ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ.

(١) الملول: ذو الملل.

(٢) أي مجتهد في العبادة.

وسئِلَ: عن صفة العدل من الرجل؟ فقال عليه السلام: إذا غَضَّ طرفه عن المحارم ولسانه عن المآثم وكفَّه عن المظالم.

وقال عليه السلام: كلُّ ما حَجَبَ الله عن العباد فموضوع عنهم حتى يُعرفَهُمُوه.

وقال عليه السلام: لِدَاوُدَ الرَّقِيّ^(١): تُدْخِلُ يَدَكَ فِي فَمِ الثَّيْنِ^(٢) إِلَى المَرْفَقِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ طَلَبِ الحَوَائِجِ إِلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَكَانَ.

وقال عليه السلام: قضاء الحوائج إلى الله وأسبابها - بعد الله - العباد تجري على أيديهم، فما قضى الله مِنْ ذَلِكَ فاقبلوا مِنْ الله بالشُّكْرِ، وما زوى عنكم^(٣) مِنْهَا فاقبلوه عن الله بِالرِّضَا والتَّسْلِيمِ والصَّبْرِ فسعى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خَيْراً لَكُمْ، فَإِنَّ الله أَعْلَمُ بِمَا يُصْلِحُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

وقال عليه السلام: مَسْأَلَةُ ابْنِ آدَمَ لِابْنِ آدَمَ فِتْنَةٌ، إِنْ أَعْطَاهُ حَمْدَ مَنْ لَمْ يُعْطِهِ وَإِنْ رَدَّهُ ذَمٌّ مِنْ لَمْ يَمْنَعُهُ.

وقال عليه السلام: إِنَّ الله قَدْ جَعَلَ كُلَّ خَيْرٍ فِي التَّرَجُّجَةِ^(٤).

وقال عليه السلام: إِيَّاكَ وَمُخَالَطَةُ السُّفَلَةِ، فَإِنَّ مُخَالَطَةَ السُّفَلَةِ لَا تُوْدِي إِلَى خَيْرٍ.

وقال عليه السلام: الرَّجُلُ يَجْزَعُ مِنَ الذِّلِّ الصَّغِيرِ فَيُدْخِلُهُ ذَلِكَ فِي الذِّلِّ الْكَبِيرِ.

(١) الرَّقِيّ: نسبة إلى الرقة اسم لمواضع بلدة بهوستان وأخريان من بساتين بغداد صغرى وكبرى وبلدة أخرى في غربي بغداد. داود الرقي، وهو داود بن كثير ابن أبي خالد الرقي مولى بني أسد من أصحاب الصادق والكاظم عليه السلام ثقة وله أصل وكتاب، عاش إلى زمان الرضا عليه السلام.

(٢) الثَّيْن: الحوت، والحية العظيمة.

(٣) زواه: نجاه ومنعه. وعنه طواه وصرفه. والشئ: جمعه وقبضه.

(٤) التَّرجية: ساقه، دفعه برفق. ويقال زجى فلان حاجتي، أي سهل تحصيلها.

وقال عليه السلام: أَنْفَعُ الْأَشْيَاءِ لِلْمَرْءِ لِمَرَّةٍ سَبَقَهُ النَّاسُ إِلَى عَيْبِ نَفْسِهِ. وَأَشَدُّ شَيْءٍ مُؤَوَّنَةً إِخْفَاءُ الْفَاقَةِ. وَأَقْلُ الْأَشْيَاءِ غَنَاءُ النَّصِيحَةِ لِمَنْ لَا يَقْبَلُهَا وَمُجَاوَرَةُ الْحَرِيصِ. وَأَرْوَحُ الرُّوحِ الْيَأْسُ مِنَ النَّاسِ. لَا تَكُنْ ضَجْرًا وَلَا غَلِقًا. وَذَلَّلْ نَفْسَكَ بِاحْتِمَالٍ مَنْ خَالَفَكَ بِمَنْ هُوَ فَوْقَكَ وَمِثْلَهُ الْفَضْلُ عَلَيْكَ، إِنَّمَا أَقَرَرْتُ لَهُ بِفَضْلِهِ^(١) لِئَلَّا تُخَالِفَهُ. وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِأَحَدٍ الْفَضْلَ فَهُوَ الْمُعْجَبُ بِرَأْيِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا عِزَّ لِمَنْ لَا يَتَذَلَّلُ لِلَّهِ. وَلَا رَفْعَةَ لِمَنْ لَا يَتَوَاضَعُ لِلَّهِ.

وقال عليه السلام: إِنْ مِنْ السُّنَةِ لُبَسَ الْخَاتَمِ.

وقال عليه السلام: أَحَبُّ أَخَوَانِي إِلَيَّ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي.

وقال عليه السلام: لَا تَكُونِ الصَّدَاقَةَ إِلَّا بِحُدُودِهَا فَمَنْ كَانَتْ فِيهِ هَذِهِ الْحُدُودُ أَوْ شَيْءٌ مِنْهُ. وَإِلَّا فَلَا تَنْسِبُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الصَّدَاقَةِ: فَأَوَّلُهَا أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُهُ وَعَلَانِيَتُهُ لَكَ وَاحِدَةً. وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَرَى زِينَتَكَ زِينَةً وَشِينَتَكَ وَشِينَةً. وَالثَّالِثَةُ أَنْ لَا تُغَيِّرَهُ عَلَيْكَ وَلا يَةً وَلا مَالًا. وَالرَّابِعَةُ لَا يَمْنَعُكَ شَيْئًا تَنَالَهُ مَقْدَرَتُهُ^(٢) وَالخَامِسَةُ وَهِيَ تَجْمَعُ هَذِهِ الْخِصَالَ أَنْ لَا يُسْلِمَكَ عِنْدَ التَّكْبَاتِ.

وقال عليه السلام: مُجَامَلَةُ النَّاسِ ثُلُثُ الْعَقْلِ^(٣).

وقال عليه السلام: ضِحْكُ الْمُؤْمِنِ تَبَسُّمٌ.

وقال عليه السلام: مَا أَبَالِي إِلَى مَنْ ائْتَمَنْتُ خَائِنًا أَوْ مُضِيْعًا^(٤).

(١) أي ذلل نفسك فلعل من خالفك كان له الفضل عليك.

(٢) المقدرة: القوة والغنى.

(٣) المجاملة: حسن الضميمة مع الناس والمعاملة بالجميل.

(٤) إن المراد أن الرجل الخائن والمضيع عندي سيان.

وقال عليه السلام للمفضل^(١): أوصيك بستِ خصالٍ تُبلغهنَّ شيعتي. قلتُ وما هنَّ يا سيدي؟ قال عليه السلام: أداء الأمانةِ إلى مَنْ ائتمنَكَ. وأن ترضى لأخيك ما ترضى لنفسك. واعلم أن الأمور أواخِرُ فاحذرِ العواقبَ. وأنَّ الأمورَ بَغَاتٍ^(٢) فكنْ على حذرٍ. وإياك ومُرتقى جبلٍ سهلٍ إذا كانَ المنحدرُ وعراً^(٣). ولا تَعِدَنَّ أخاك وعداً ليسَ في يَدِكَ وفاؤه.

وقال عليه السلام: ثلاثٌ لم يجعلِ الله لأحدٍ مِنَ الناسِ فيهنَّ رُخصةً: برُّ الوالدينِ بَرٍّينَ كانا أو فاجرينِ. ووفاءٌ بالعهدِ للبرِّ والفاجرِ. وأداءُ الأمانةِ إلى البرِّ والفاجرِ.

وقال عليه السلام: إني لأرحمُ ثلاثةَ وحقُّ لهم أن يُرحموا. عزيزٌ أصابتهُ مَذَلَّةٌ بعدَ العزِّ. وغنيٌ أصابتهُ حاجةٌ بعدَ الغنى. وعالمٌ يستخِفُّ أهلهُ والجَهْلَةَ.

وقال عليه السلام: من تَعَلَّقَ قلبُهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا تَعَلَّقَ مِنْ ضَرَرِهَا بثلاثِ خِصالٍ: هَمٌّ لا يَفْنَى وأملٌ لا يَدْرُكُ وَرَجاءٌ لا يَنَالُ.

وقال عليه السلام: الْمُؤْمِنُ لا يُخَلِّقُ على الكِذْبِ ولا على الخِيَانَةِ. وَخَصْلَتَانِ لا يَجْتَمِعَانِ في الْمُنَافِقِ: سَمْتُ حَسَنٌ^(٤) وَفَقَّةٌ في سُنَّةٍ.

وقال عليه السلام: النَّاسُ سِوَاءٌ كَأَسنانِ الْمُشْطِ. والمرءُ كثيرٌ بأخيه^(٥) ولا خَيْرَ في صُحْبَةٍ من لَمْ يَرَ لَكَ مِثْلَ الَّذِي يَرى لِنَفْسِهِ.

(١) هو أبو عبد الله مفضل بن عمر الجعفي الكوفي من أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام صاحب الرسالة المعروفة بتوحيد المفضل المروى عن الصادق عليه السلام.

(٢) البغات: أي الفجأة.

(٣) المنحدر: مكان الانحدار أي الهبوط والنزول. الوعر: المكان الصلب وهو الذي يخيف الوحش.

(٤) السم: الطريق والمحبة. وأيضاً هيئة أهل الخير وحسن المذهب والسيرة والهيئة والطريقة واستقامة المنظر.

(٥) أي ليس هو وحده بل هو كثير.

وقال عليه السلام: من زين الإيمان الفقه. ومن زين الفقه الحلم. ومن زين الحلم الرفق. ومن زين الرفق اللين. ومن زين اللين السهولة.

وقال عليه السلام: من غضب عليك من إخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك مكروهاً فأعده لنفسك.

وقال عليه السلام: يأتي على الناس زمان ليس فيه شيء أعز من أخ أنيس وكسب درهم حلال.

وقال عليه السلام: من وقف نفسه موقف التهمة فلا يلومن من أساء به الظن. ومن كتم سره كانت الخيرة في يده^(١). وكل حديث جاوز اثنين فاش. وضع أمر أخيك على أحسنه ولا تطلبن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً. وعليك بإخوان الصديق. فإنهم عدة عند الرخاء^(٢). وجئة عند البلاء. وشاور في حديثك الذين يخافون الله. وأحب الإخوان على قدر التقوى. واتق شرار النساء وكُن من خيارهن على حذر وإن أمرنكم بالمعروف فخالفوهن حتى لا يطمعن منكم في المنكر.

وقال عليه السلام: المنافق إذا حدث عن الله وعن رسوله كذب. وإذا وعد الله ورسوله أخلف. وإذا ملك خان الله ورسوله في ماله. وذلك قول الله عز وجل: ﴿فَاعْتَبِهِمْ إِنَّمَا فِي قُلُوبِهِمْ لَأَن يُؤَيَّرَ يَلْقَوْنَ إِيَّكَ أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبَئْسَ كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(٣). وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُوا جِبَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٤).

(١) الخيرة: الاختيار.

(٢) العدة: الاستعداد - بالضم - وبالفتح الجماعة.

(٣) سورة التوبة، الآية ٧٧.

(٤) سورة الأنفال، الآية ٧١.

وقال عليه السلام: كفى بالمرء خزيًا أن يلبس ثوبًا يشهره^(١)، أو يركب دابة مشهورة. قلت: وما الدابة المشهورة؟ قال عليه السلام: البلقاء^(٢).

وقال عليه السلام: لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب أبعاد الخلق منه في الله ويُبغض أقرب الخلق منه في الله.

وقال عليه السلام: من أنعم الله عليه نعمة فعرفها بقلبه وعلم أن المنعم عليه الله فقد أدى شكرها وإن لم يحرك لسانه ومن علم أن المعاقب على الذنوب الله فقد استغفر وإن لم يحرك لسانه. وقرأ: ﴿وَلَنْ تُبَدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾^(٣).

وقال عليه السلام: خصلتين مهلكتين: تفتي الناس برأيك أو تدين بما لا تعلم.

وقال عليه السلام: لأبي بصير^(٤): يا أبا محمد لا تفتش الناس عن أديانهم فتبقى بلا صديق.

وقال عليه السلام: الصفح الجميل أن لا تُعاقب على الذنب. والصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى.

وقال عليه السلام: أربع من كن فيه كان مؤمناً وإن كان من قرنيه إلى قدميه ذنوب الصدق. والحياء. وحسن الخلق. والشكر.

وقال عليه السلام: لا تكون مؤمناً حتى تكون خائفاً راجياً. ولا تكون خائفاً راجياً حتى تكون عابلاً لِمَا تخاف وترجو.

(١) في بعض النسخ بالشهرة.

(٢) البلقاء: الذي كان في لونه سواد وبياض.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٨٤.

(٤) هو يحيى ابن أبي القاسم إسحاق الأسدي الكوفي المكنى بأبي بصير وأبي محمد المتوفى سنة ١٥٠ إمامي ثقة عدل من أصحاب الإجماع ومن خواص أصحاب الباقرين عليه السلام.

وقال عليه السلام: لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّيِ^(١) وَلَا بِالتَّمَنِّيِ وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ مَا خَلَصَ فِي الْقُلُوبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ.

وقال عليه السلام: إِذَا زَادَ الرَّجُلُ عَلَى الثَّلَاثِينَ فَهُوَ كَهْلٌ. وَإِذَا زَادَ عَلَى الْأَرْبَعِينَ فَهُوَ شَيْخٌ.

وقال عليه السلام: النَّاسُ فِي التَّوْحِيدِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: مُثَبِّتٌ وَنَافٍ وَمُثَبِّةٌ، فَالْثَّانِي مُبْطِلٌ. وَالْمُثَبِّتُ مُؤْمِنٌ. وَالْمُثَبِّةُ مُشْرِكٌ.

وقال عليه السلام: الْإِيمَانُ إِقْرَارٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ. وَالْإِسْلَامُ إِقْرَارٌ وَعَمَلٌ^(٢).

وقال عليه السلام: لَا تُذْهِبِ الْحِشْمَةَ^(٣) بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَخِيكَ وَأَبْقِ مِنْهَا، فَإِنَّ ذَهَابَ الْحِشْمَةِ ذَهَابُ الْحَيَاءِ وَبَقَاءُ الْحِشْمَةِ بَقَاءُ الْمَوْدَةِ.

وقال عليه السلام: مَنْ احْتَشَمَ أَخَاهُ حَرَمَتْ وَصَلَتُهُ. وَمَنْ اغْتَمَّهُ سَقَطَتْ حُرْمَتُهُ.

وقيل له: خَلَوْتَ بِالْعَقِيقِ^(٤) وَتُعَجِّبُكَ الْوَحْدَةُ. فَقَالَ عليه السلام: لَوْ دُقَّتْ حُلَاوَةُ الْوَحْدَةِ لَاسْتَوْحِشْتَ مِنْ نَفْسِكَ. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: أَقْلُ مَا يَجِدُ الْعَبْدُ فِي الْوَحْدَةِ أَمِنْ مُدَارَاةِ النَّاسِ.

وقال عليه السلام: مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بَاباً مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا فَتَحَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَرَصِ مِثْلَهُ^(٥).

وقال عليه السلام: الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا غَرِيبٌ، لَا يَجْزَعُ مِنْ ذُلِّهَا وَلَا يَتَنَافَسُ أَهْلُهَا فِي عِزِّهَا.

(١) التحلي: أي التزين به ظاهراً بدون يقين القلب.

(٢) النية: الإقرار والإخلاص بالقلب.

(٣) الحشمة: الحياء. الانقباض: الغضب.

(٤) خلوت: اعتزلت وحدك. العقيق: حرز أحمر.

(٥) حرصاً لما ناله ولما لا يناله.

وقيل له: أين طريق الراحة؟ فقال ﷺ: في خلاف الهوى. قيل: فمتى يجد عبد الراحة؟ فقال ﷺ: عند أول يوم يصير في الجنة.

وقال ﷺ: لا يجمع الله لمُنافِقٍ ولا فاسِقٍ حُسْنَ السَّمتِ والفقهِ وحُسْنَ الخُلُقِ أبداً.

وقال ﷺ: طعمُ الماءِ الحياءِ. وطعمُ الخُبْرِ القُوَّةُ. وضعفُ البدنِ وقوَّتُهُ من شحمِ الكلبيتين^(١). وموضعُ العقلِ الدَّمَاعُ. والقسوةُ والرُّقَّةُ في القلبِ.

وقال ﷺ: الحَسَدُ حَسَدَانِ: حَسَدٌ فَتَنَةٌ وحَسَدٌ غَفَلَةٌ، فاما حَسَدُ الغفلةِ فكما قالت الملائكةُ حين قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي اجعل ذلك الخليفة مِنّا ولم يقولوا، حَسَداً لآدم مِن جهة الفتنَةِ والرَّدِّ والجُحودِ والحسدِ الثاني الذي يصيرُ به العبدُ إلى الكُفْرِ والشُّركِ فهو حَسَدُ إبليس في رُدِّهِ على الله وإبائه عن السجود لآدم ﷺ.

وقال ﷺ: الناسُ في القُدرةِ على ثلاثة أوجوه: رَجُلٌ يزعمُ أنَّ الأمرَ مفوضٌ إليه فقد وهن الله في سلطانه فهو هالكٌ. ورجلٌ يزعمُ أنَّ الله أجبر العباد على المعاصي وكلفهم ما لا يطيقون، فقد ظلم الله في حُكمه فهو هالكٌ. ورجلي يزعمُ أنَّ الله كلف العباد ما يطيقوه ولم يُكلفهم ما لا يطيقونه فإذا أحسنَ حمد الله وإذا أساء استغفر الله فهذا مُسلمٌ بالغٌ.

وقال ﷺ: إنَّ الله يُبغِضُ الغنيَّ الظُّلومَ.

وقال ﷺ: الغَضَبُ ممحقةُ القلبِ الحكيمِ. ومن لم يملك غَضَبَهُ لم يملك عَقْلَهُ.

وقال الفضيل بن عياض^(١): قال لي أبو عبد الله عليه السلام: أندري من الشحيح؟ قلت: هو البخل، فقال عليه السلام: الشح أشد من البخل، إن البخل يبخل بما في يده والشحيح يشح على ما في أيدي الناس وعلى ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئاً إلا تمنى أن يكون له بالجل والحرام، لا يشبع ولا يتنفع بما رزقه الله.

وقال عليه السلام: إن البخل من كسب مالا من غير حله وأنفقه في غير حقه.

وقال عليه السلام لبعض شيعته: ما بال أخيك يشكوك؟ فقال: يشكوني إن استقصيت عليه حقي. فجلس عليه السلام مغضباً ثم قال: كأنك إذا استقصيت عليه حقك لم تسيء أرايتك ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب، أخافوا أن يجور الله عليهم؟ لا. ولكن خافوا الاستقصاء فسمأه سوء الحساب، فمن استقصى فقد أساء.

وقال عليه السلام: كثرة السحت يمحق الرزق^(٢).

وقال عليه السلام: سوء الخلق نكد^(٣).

وقال عليه السلام: إن الإيمان فوق الإسلام بدرجة. والتقوى فوق الإيمان بدرجة وبعضه من بعض^(٤) فقد يكون المؤمن في لسانه بعض الشيء الذي لم يعد الله عليه النار وقال الله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ

(١) هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي الفدني ولد ببايورد من بلاد خراسان وهو من أصحاب الصادق عليه السلام.

(٢) السحت: المال الحرام وكل ما لا يحل كبه.

(٣) نكد العيش: اشتد وعسر. والرجل: ضاق خلعه وضد يسر وسهل فهو نكد. يسكون الكاف وفتحها وكسرها - أي شؤم عسر - وبالضم - : قليل الخير والعطاء.

(٤) الإيمان ذو مراتب.

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا^(١) ويكون الآخر الفهم لساناً^(٢) وهو أشد لقاء للذنوب وكلاهما مؤمن واليقين فوق التقوى بدرجة. ولم يقسم بين الناس شيء أشد من اليقين. إن بعض الناس أشد يقيناً من بعض وهم مؤمنون وبعضهم أصبر من بعض على المصيبة وعلى الفقر وعلى المرض وعلى الخوف وذلك من اليقين.

وقال عليه السلام: إن الغنى والعز يجولان، فإذا أظفرا بموضع التوكل أوطناه^(٣).

وقال عليه السلام: حسن الخلق من الدين وهو يزيد في الرزق.

وقال عليه السلام: الخلق خلقان أحدهما نية والآخر سجية. قيل: فأيهما أفضل؟ قال عليه السلام: النية، لأن صاحب السجية مجبور على أمر لا يستطيع غيره، وصاحب النية يتصبر على الطاعة تصبراً فهذا أفضل.

وقال عليه السلام: إن سرعة ائتلاف قلوب الأبرار إذا التقوا وإن لم يُظهروا التودد بالسنتهم كسرعة اختلاط ماء السماء بماء الأنهار. وإن بعد ائتلاف قلوب الفجار إذا التقوا وإن أظهروا التودد بالسنتهم كبعد البهائم من التعاطف وإن طال اعتلافها على مذبذب واحد^(٤).

وقال عليه السلام: السخي الكريم الذي يُنفق ماله في حق الله.

وقال عليه السلام: يا أهل الإيمان ومحل الكتمان تفكروا وتذكروا عند غفلة الساهين.

(١) سورة النساء، الآية ٣١.

(٢) الفهم: السريع الفهم.

(٣) أوطناه أي اتخذناه وطناً وإقاماً.

(٤) المذبذب: معتلف الدواب.

قال المفضل بن عمر: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحسب؟ فقال عليه السلام: المال. قلت: فالكرم؟ قال عليه السلام: التقوى. قلت: فالسودد^(١). قال عليه السلام: السخاء ويحك أما رأيت حاتم طي^(٢) كيف ساد قومه وما كان بأجودهم موضعاً^(٣).

وقال عليه السلام: المروءة مروءتان مروءة الحضر ومروءة السفر فأما مروءة الحضر فتلاوة القرآن، وحضور المساجد، وصحبة أهل الخير، والنظر في التفقه. وأما مروءة السفر فبذل الزاد، والمزاح في غير ما يسخط الله، وقلة الخلاف على من صحبك وترك الزواجة عليهم إذا أنت فارقتهم.

وقال عليه السلام: اعلم أن ضارب علي عليه السلام بالسيف وقاتله لو ائتممني واستصحبني واستشارني ثم قبلت ذلك منه لأذيت إليه الأمانة.

وقال سفيان^(٤): قلت لأبي عبد الله عليه السلام: يجوز أن يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم إذا اضطر إليه، أما سمعت قول يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾^(٥) وقول العبد الصالح: ﴿وَأَنَا لَكَ نَائِمٌ أَيْمِنٌ﴾^(٦).

وقال عليه السلام: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود تريد وأريد، فإن اكتفيت بما أريد مما تريد كفيتك ما تريد. وإن أبيت إلا ما تريد أتعبتك فيما تريد وكان ما أريد.

(١) السودد: الشرف والمجد.

(٢) هو حاتم بن عبد الله الطائي كان جواداً يضرب به المثل في الجود وكان شجاعاً شاعراً.

(٣) أي لا يكون موضعه جيداً من جهة الحسب والنسب.

(٤) سفيان الثوري.

(٥) سورة يوسف، الآية ٥٥.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٦٨.

قال محمد بن قيس^(١): سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الفتنين يلتقيان من أهل الباطل أبيعهما السلاح؟ فقال عليه السلام: بعهما ما يكتئهما: الدرع والخفتان^(٢) والبيضة ونحو ذلك.

وقال عليه السلام: أربع لا تجزي في أربع الخيانة والغلول والسرقة والزبا لا تجزي في حج. ولا عمره. ولا جهاد. ولا صدقة.

وقال عليه السلام: إن الله يعطي الدنيا من يحب ويُبغض ولا يعطي الإيمان إلا أهل صفوته من خلقه.

وقال عليه السلام: من دعا الناس إلى نفسه وفيهم من هو أعلم من فهو مبتدع ضال.

قيل له: ما كان في وصية لقمان؟ فقال عليه السلام: كان فيها الأعاجيب وكان من أعجب ما فيها أن قال لابنه: خف الله خيفة لو جثته ببر الثقلين لعذبك وأرج الله رجاء لو جثته بذنوب الثقلين لرحمك. ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من مؤمن إلا وفي قلبه ثوران: نور خيفة ونور رجاء، لو ورن هذا لم يزد على هذا ولو ورن هذا لم يزد على هذا.

قال أبو بصير^(٣): سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الإيمان؟ فقال عليه السلام: الإيمان بالله أن لا يعصى، قلت: فما الإسلام؟ فقال عليه السلام: من نسك نسكنا وذبح ذبيحتنا.

وقال عليه السلام: لا يتكلم أحد بكلمة هدى فيؤخذ بها إلا كان له مثل

(١) محمد بن قيس من أصحاب الصادق عليه السلام مشترك بين محمد بن قيس البجلي الثقة صاحب كتاب قضايا أمير المؤمنين عليه السلام ومحمد بن قيس الأسدي من فقهاء الصادقين عليه السلام ومحمد بن قيس أبي نصر الأسدي وجه من وجوه العرب بالكوفة.

(٢) الخفتان: ضرب من الثياب.

(٣) هو يحيى بن أبي القاسم الذي مر ترجمته آنفاً.

أَجْرٍ مِّنْ أَخَذَ بِهَا. وَلَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ ضَلَالَةٍ فَيُؤْخَذَ بِهَا إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مِّنْ أَخَذَ بِهَا.

وقيل له: إِنَّ النَّصَارَى يَقُولُونَ: إِنَّ لَيْلَةَ الْمِيلَادِ فِي أَرْبَعَةِ وَعَشْرِينَ مِنْ كَانُونٍ فَقَالَ عليه السلام: كَذَبُوا، بَلْ فِي النُّصُفِ مِنْ حَزِيرَانَ وَيَسْتَوِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي النُّصُفِ مِنْ آذَار.

وقال عليه السلام: كَانَ إِسْمَاعِيلُ أَكْبَرَ مِنْ إِسْحَاقَ بِخَمْسِ سِنِينَ. وَكَانَ الذَّبِيحُ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ﴾^(١) إِنَّمَا سَأَلَ رَبُّهُ أَنْ يَرْزُقَهُ غُلَامًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَقَالَ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ^(٢): ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِقُلُوبٍ حَلِيمَةٍ﴾ يَعْنِي إِسْمَاعِيلَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِالْحَقِّ نَبَأًا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣) فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ إِسْحَاقَ أَكْبَرُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ فَقَدْ كَذَبَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ.

وقال عليه السلام: أَرْبَعَةٌ مِنْ أَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ عليه السلام: الْبِرُّ وَالسَّخَاءُ وَالصَّبْرُ عَلَى النَّائِبَةِ وَالْقِيَامُ بِحَقِّ الْمُؤْمَنِ.

وقال عليه السلام: لَا تَغْدُنْ مُصِيبَةً أُعْطِيَتْ عَلَيْهَا الصَّبْرُ وَاسْتَوْجِبَتْ عَلَيْهَا مِنْ اللَّهِ ثَوَابًا بِمُصِيبَةٍ، إِنَّمَا الْمُصِيبَةُ أَنْ يُحْرَمَ صَاحِبُهَا أَجْرَهَا وَثَوَابُهَا إِذَا لَمْ يَصْبِرْ عِنْدَ تَزْوِيلِهَا.

وقال عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا مِنْ خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ يَفْزَعُ عَلَيْهِمْ فِي حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَوْلَتْكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، آمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَلَا وَإِنَّ أَحَبَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَعَانَ الْمُؤْمِنَ الْفَقِيرَ مِنَ الْفَقْرِ فِي دُنْيَاهُ وَمَعَاثِيهِ. وَمَنْ أَعَانَ وَنَفَعَ وَدَفَعَ الْمَكْرُوهَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ.

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٠.

(٢) سورة الصافات، الآية ١٠١.

(٣) سورة الصافات، الآية ١١٢.

وقال عليه السلام: إِنَّ صَلَاةَ الرَّحْمِ وَالْبِرِّ لِيَهْوَنَانِ الْحَسَابَ وَبِعَصْمَانٍ مِنَ الذُّنُوبِ، فَصَلُّوا إِخْوَانَكُمْ وَلَوْ بِحُسْنِ السَّلَامِ وَرَدَّ الْجَوَابِ.

قال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: دَخَلْتُ عَلَى الصَّادِقِ عليه السلام فَقُلْتُ لَهُ: أَوْصِنِي بِوَصِيَّةٍ أَحْفَظُهَا مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ عليه السلام: وَتَحْفَظُ يَا سُفْيَانُ؟ قُلْتُ: أَجَلْ يَا ابْنَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ عليه السلام: يَا سُفْيَانُ لَا مَرْوَةَ لِكَذُوبٍ. وَلَا رَاحَةَ لِحَسُودٍ. وَلَا إِخَاءَ لِمَلُوكٍ. وَلَا خَلَّةَ لِمُخْتَالٍ. وَلَا سُوْدَدَ لِسَيِّءِ الْخُلُقِ^(١). ثُمَّ أَمَسَكَ عليه السلام فَقُلْتُ: يَا ابْنَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ زِدْنِي؟ فَقَالَ عليه السلام: يَا سُفْيَانُ يُقَى بِاللَّهِ تَكُنْ عَارِفًا. وَإِرْضَ بِمَا قَسَمَهُ لَكَ تَكُنْ غَنِيًّا. صَاحِبْ بِمِثْلِ مَا يُصَاحِبُونَكَ بِهِ تَزِدْ إِيمَانًا، وَلَا تُصَاحِبِ الْفَاجِرَ فَيُعَلِّمَكَ مِنْ فُجُورِهِ. وَشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ عِزَّ وَجَلًّا. ثُمَّ أَمَسَكَ عليه السلام فَقُلْتُ: يَا ابْنَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ زِدْنِي؟ فَقَالَ عليه السلام: يَا سُفْيَانُ مَنْ أَرَادَ عِزًّا بِلَا سُلْطَانٍ وَكَثْرَةً بِلَا إِخْوَانٍ وَهَيْبَةً بِلَا مَالٍ فَلْيَتَنَقَّلْ مِنْ ذَلِكَ مُعَاصِي اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ. ثُمَّ أَمَسَكَ عليه السلام فَقُلْتُ: يَا ابْنَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ زِدْنِي؟ فَقَالَ عليه السلام: يَا سُفْيَانُ أَذْنِبِي أَبِي عليه السلام ثَلَاثَ وَنَهَانِي عَنْ ثَلَاثٍ: فَأَمَّا اللَّوَاتِي أَذْنِبِي بِهِنَّ فَإِنَّهُ قَالَ لِي: يَا بُنَيَّ مَنْ يَصْحَبُ صَاحِبَ السُّوءِ لَا يَسْلَمُ. وَمَنْ لَا يَقْبِدُ الْفَاطَةَ يَنْدَمُ. وَمَنْ يَدْخُلُ مَدَاجِلَ السُّوءِ يُتْهَمُ. قُلْتُ: يَا ابْنَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ فَمَا الثَّلَاثُ اللَّوَاتِي نَهَاكَ عَنْهُنَّ؟ قَالَ عليه السلام: نَهَانِي أَنْ أَصَاحِبَ حَاسِدَ نِعْمَةٍ وَشَامِتًا بِمُصِيبَةٍ أَوْ حَامِلَ نَمِيمَةٍ.

وقال عليه السلام: سِتَّةٌ لَا تَكُونُ فِي مُؤْمِنٍ: الْعُسْرُ. وَالنَّكَدُ^(٢). وَالْحَسَدُ. وَاللَّجَاجَةُ. وَالْكَذِبُ. وَالْبَغْيُ.

وقال عليه السلام: الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: ذَنْبٌ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا يَصْنَعُ

(١) السُّودُ وَالسُّودُ: الشَّرُّ وَالْمَجْدُ.

(٢) عِسر الرجل: ضَاقَ خَلْفُهُ. النَّكَدُ: قَلِيلُ الْخَيْرِ وَالْمُعْطَاءِ.

الله فيه . وعمرٌ قد بقي لا يدري ما يكتسبُ فيه من المهالك ، فهو لا يُصِحِّحُ إلاَّ خائفاً ولا يُصلِّحُهُ إلاَّ الخوفُ .

وقال عليه السلام : مَنْ رَضِيَ بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ قَبِلَ اللهُ مِنْهُ الْيَسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ . وَمَنْ رَضِيَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْيَسِيرِ مِنَ الْحَلَالِ خَفَّتْ مِوَنَتُهُ وَزَكَتْ مَكْسَبَتُهُ خَرَجَ مِنْ حُدِّ الْعَجْزِ .

وقال سفيان الثوري: دخلتُ على أبي عبد الله عليه السلام فقلت: كيف أصبحت يا ابن رسول الله؟ فقال عليه السلام: والله إني لمحزونٌ وإنِّي لمشتغلُ القلبِ فقلتُ له: وما أحزَنَكَ؟ وما أشغلَ قلبك؟ فقال عليه السلام لي: يا ثوريُّ إنَّه من داخلَ قلبه صافي خالص دين الله شغلُهُ عَمَّا سِوَاهُ . يا ثوريُّ ما الدُّنيا؟ وما عسى أن تكون؟ هل الدُّنيا إلاَّ أَكَلٌ أَكَلْتَهُ ، أو ثوبٌ لبستُهُ ، أو مركبٌ ركبته ، إنَّ المؤمنين لم يطمثوا في الدنيا ولم يأمنوا قُدُومَ الآخرة ، دارُ الدُّنيا دارُ زوالٍ ودارُ الآخرة دارُ قرارٍ ، أَهْلُ الدُّنيا أَهْلُ غَفْلَةٍ . إنَّ أَهْلَ الثَّقَوِيَّ أَخْفُ أَهْلِ الدُّنيا مِوَنَةٌ وَأَكْثَرُهُمْ مَعُونَةٌ ، إن نسيْتَ ذِكْرَكَ وإنْ ذَكَرَكَ أَعْلَمُونَ فَأَنْزَلَ الدُّنيا كَمَنْزِلِ نَزْلَتِهِ فَأَرْتَحَلَتْ عَنْهُ ، أو كَمَالِ أَصْبَتِهِ فِي مَنَامِكَ فَاسْتَبَقَظْتَ وَلَيْسَ فِي يَدَيْكَ شَيْءٌ مِنْهُ . فكم من حريصٍ على أمرٍ قد شَقِيَ بِهِ حِينَ أَتَاهُ . وكم من تاركٍ لأمرٍ قد سَعِدَ بِهِ حِينَ أَتَاهُ .

وقيل له: ما الدليلُ على الواحدِ؟ فقال عليه السلام: ما بالخلقِ مِنْ الْحَاجَةِ .

وقال عليه السلام: لَنْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ حَتَّى تَعْدُوا الْبَلَاءَ نِعْمَةً وَالرِّخَاءَ مُصِيبَةً .

وقال عليه السلام: الْمَالُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَاثْنَا عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ كَنْزٌ . وَلَمْ يَجْتَمِعْ عَشْرُونَ أَلْفًا مِنْ حَلَالٍ . وَصَاحِبُ الثَّلَاثِينَ أَلْفًا هَالِكٌ . وَلَيْسَ مِنْ شِيعَتِنَا مَنْ يَمْلِكُ مِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ .

وقال عليه السلام: مِنْ صَحَّةِ يَقِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ لَا يُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ. وَلَا يَحْمَدُهُمْ عَلَى مَا رَزَقَ اللَّهُ. وَلَا يَلُومُهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ، فَإِنْ رَزَقَهُ لَا يَسُوقُهُ جَرَحُ حَرِيصٍ وَلَا يَرُدُّهُ كَرُهُ كَارٍ. وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ فَرَ مِنْ رَزَقِهِ كَمَا يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ لَأَدْرَكَهُ رَزَقُهُ قَبْلَ مَوْتِهِ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ.

وقال عليه السلام: مِنْ شَيْعَتِنَا مَنْ لَا يَعْدُو صَوْتَهُ سَمْعَهُ وَلَا شَحْنَهُ أَذَنَهُ وَلَا يَمْتَدِّحُ بِنَا مُعَلَّنًا. وَلَا يُوَاصِلُ لَنَا مَبْغَضًا. وَلَا يُخَاصِمُ لَنَا وَلِيًّا وَلَا يُجَالِسُ لَنَا عَائِبًا. قَالَ لَهُ مَهْزَمٌ^(١): فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِهَؤُلَاءِ الْمَتَشِيعَةِ؟ قَالَ عليه السلام: فِيهِمُ التَّمَحِيصُ^(٢) وَفِيهِمُ التَّعْيِيزُ وَفِيهِمُ التَّنْزِيلُ، تَأْتِي عَلَيْهِمْ سَيِّئُونَ تُفْنِيهِمْ وَطَاعُونَ يَقْتُلُهُمْ. وَاخْتِلَافٌ يَبْذُفُهُمْ. شَيْعَتُنَا مَنْ لَا يَهْرُ هَرِيرُ الْكَلْبِ^(٣) وَلَا يَطْمَعُ طَمَعُ الْغُرَابِ وَلَا يَسَالُ وَإِنْ مَاتَ جُوعًا. قُلْتُ: فَأَيْنَ أَطْلُبُ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ عليه السلام: أَطْلُبُهُمْ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ أَوْلَئِكَ الْخَفِيفُ عَيْشُهُمْ^(٤). الْمُنْتَقِلَةُ دَارُهُمْ، الَّذِينَ إِنْ شَهِدُوا لَمْ يَعْرِفُوا وَإِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقِدُوا. وَإِنْ مَرَضُوا لَمْ يُعَادُوا. وَإِنْ خَطَبُوا لَمْ يُزَوِّجُوا. وَإِنْ رَأَوْا مُنْكَرًا. وَإِنْ خَاطَبَهُمْ جَاهِلٌ سَلَّمُوا. وَإِنْ لَجَأَ إِلَيْهِمْ ذُو الْحَاجَةِ مِنْهُمْ رَجِمُوا. وَعِنْدَ الْمَوْتِ هُمْ لَا يَحْزَنُونَ. لَمْ تَخْتَلَفْ قُلُوبُهُمْ وَإِنْ رَأَيْتُمْ اخْتَلَفَتْ بِهِمُ الْبُلْدَانُ.

وقال عليه السلام: مَنْ أَرَادَ أَنْ يُطَوِّلَ اللَّهُ عُمَرَهُ فَلْيَقِمِ أَمْرَهُ. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَحُطَّ وَزَرَهُ فَلْيُرِخْ سِتْرَهُ^(٥). وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْفَعَ ذِكْرَهُ فَلْيُخْمِلِ أَمْرَهُ^(٦).

وقال عليه السلام: ثَلَاثُ خِصَالٍ هُنَّ أَشَدُّ مَا عُجِّلَ بِهِ الْعَبْدُ: إِنْصَافُ الْمُؤْمِنِ

(١) هو مهزم بن أبي برزة الأسدي الكوفي من أصحاب الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام.

(٢) التمهيص: الاختبار والامتحان. وفيهم التنزيل أي نزول البلية والعذاب. السنون: جمع سنة أي القحط والجذب.

(٣) الهرير: صوت الكلب دون نباحه من قلة صبره على البرد.

(٤) خفض العيش: دناءته.

(٥) أرخى الستر: أرسله وأسدله. والمراد بالستر الحياء والخوف.

(٦) وأخمله: جعله خاملاً أي خفياً ومستوراً.

من نفسه ومواساة المرء لأخيه. وذكرُ الله على كُلِّ حالٍ. قيل له: فما معنى ذكر الله على كُلِّ حالٍ؟ قال عليه السلام: يذكرُ الله عِنْدَ كُلِّ معصية يَهْمُ بها فيحُولُ بينه وبين المعصية.

وقال عليه السلام: الهمز^(١) زيادة في القرآن.

وقال عليه السلام: إِيَّاكُمْ والمزاح، فإنه يَجْرُ السَّخِيمَةُ وَيُورِثُ الضَّغِينَةُ وهو السَّبُّ الأصغر.

وقال الحسن بن راشد^(٢) قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا نزلت بِكَ نازِلَةٌ فلا تشكُّها إلى أحدٍ من أهل الخلاف ولكن أذكرها لبعض إخوانك، فإنَّكَ لن تُعَدِّمْ خَصْلَةً مِنْ أربع خصالٍ: إما كفايةً وإما معونةً بجاءٍ أو دعوةً مستجابةً أو مسورةً برأي.

وقال عليه السلام: لا تَكُونَنَّ ذَوَّاراً في الأسواق ولا تَكُنْ شَرَاءَ دقائق الأشياء بنفسك فإنه يُكره للمرء ذي الحسب والدين أن يلي دقائق الأشياء بنفسه إلا في ثلاثة أشياء شراء العقار والرقيق والإبل^(٣).

وقال عليه السلام: لا تَكَلِّمْ بما لا يُعْنِيكَ ودع كثيراً من الكلام فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً فربَّ متكلِّمٍ بالحقِّ بما يعنيه في غير موضعه فَتَعَبَ. ولا تُمارِئْ سفيهاً ولا حليماً، فإنَّ الحليم يغلبُك والسفيه يُردِّيك. واذكر أخاك إذا تَغَيَّبَ بأحسنٍ ما تُحِبُّ أن يذكرك به إذا تَغَيَّبَ عنه، فإنَّ هذا هو العمل. واعمل عَمَلٌ من يَعْلَمُ أَنَّهُ مُجْزِيٌ بالإحسانِ مأخوذةً بالإجرام.

(١) أي نبرها.

(٢) هو الحسن بن راشد مولى بني العباس بغدادي كوفي من أصحاب الصادق عليه السلام وأدرك الكاظم عليه السلام.

(٣) دقائق الأشياء: محفرتها. والعقار: الضيقة، المتاع، وكل ما له أصل وقرار. والعقار في الأحاديث كل ملك ثابت له أصل كالأرض والضياع والنخل. والرقيق: المملوك للذكر والأنثى.

وقال له يونس^(١): لَوْلَا نِي لَكُمْ وَمَا عَرَفَنِي اللَّهُ مِنْ حَقِّكُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا. قَالَ يونس: فَتَبَيَّنْتُ الْغَضَبَ فِيهِ. ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا يونسُ قِسْتَنَا بِغَيْرِ قِيَاسٍ مَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا هَلْ هِيَ إِلَّا سَدُّ فُورَةٍ أَوْ سِتْرُ عَوْرَةٍ وَأَنْتَ لَكَ بِمَحَبَّتِنَا الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ.

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا شِيعَةَ آلِ مُحَمَّدٍ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ. وَلَمْ يُحَسِّنْ صُحْبَةً مِنْ صَحْبِهِ وَمُرَافَقَةً مِنْ رَافِقِهِ وَمُصَالَحَةً مِنْ صَالِحِهِ وَمُخَالَفَةً مِنْ خَالِفِهِ. يَا شِيعَةَ آلِ مُحَمَّدٍ اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وقال عبد الأعلى^(٢): كُنْتُ فِي حَلَقَةٍ بِالْمَدِينَةِ فَذَكَرُوا الْجُودَ، فَأَكْثَرُوا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُكْنَى أَبَا ذَلِيلٍ: إِنَّ جَعْفَرًا وَإِنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ - ضَمَّ يَدَهُ - فَقَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تُجَالِسُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَمَا حَدَّثْتَ بَلْغَنِي؟ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْحَدِيثَ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيْحَ أَبَا ذَلِيلٍ إِنَّمَا مِثْلُهُ مِثْلُ الرِّيشَةِ تَمُرُّ بِهَا الرِّيحُ فَتَطِيرُهَا^(٣).

ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَأَفْضَلُ الصَّدَقَةِ صَدَقَةٌ عَنْ ظَهْرِ غَنِيٍّ. وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ. وَالْيَدُ الْعَلِيَا خَيْرٌ مِنَ السُّفْلَى^(٤). وَيَلُومُ اللَّهُ عَلَى الْكَفَافِ، أَنْظِلُّونَ أَنَّ اللَّهَ بِخَيْلٍ وَتَرَوْنَ أَنَّ شَيْئًا أَجُودُ مِنَ اللَّهِ.

(١) أبو علي يونس بن يعقوب بن قيس البجلي الكوفي من أصحاب الصادق والكاظم والرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثقة معتمد عليه من أصحاب الأصول المدونة ومن أعلام الرؤساء المأخوذ عنهم الحلال والحرام والأحكام والفن، مات في أيام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْمَدِينَةِ وَبَعَثَ إِلَيْهِ الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحَنَوطِهِ وَكَفَنَهُ وَجَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

(٢) عبد الأعلى مولى آل سام من أصحاب الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُ أَذِنَ لَهُ بِالْكَلَامِ لِأَنَّهُ يَقَعُ وَبَطِيرُ وَقَدْ تَضَمَّنَ عِدَّةَ أَخْبَارٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَاهُ إِلَى الْأَكْلِ مَعَهُ مِنْ طَعَامِهِ الْمَعْتَادِ وَمِنْ طَعَامٍ أَهْدَى لَهُ.

(٣) الريشة: واحدة الريش وهو للظافر بمنزلة الشعر للغير. أبو ذليل: هو فضل بن دليل المكنى بأبي نعيم كان من أكابر محدثي قديم الإسلام.

(٤) خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى أي ما كان عفواً قد قد فضل عن غنى. وقيل: أراد ما فضل عن العيال والظاهر قد يزداد في مثل هذا إشباعاً للكلام وتمكيناً كان صدقته مستندة إلى ظهر قوي من المال. اليد العليا: المعطية المتعفة، اليد السفلى: المانعة أو السائلة.

إِنَّ الجَوَادَ السَّيِّدَ مَنْ وَضَعَ حَقَّ اللَّهِ مَوْضِعَهُ . وَلَيْسَ الْجَوَادُ مَنْ يَأْخُذُ الْمَالَ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ وَيَضَعُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَلَمْ أَتَنَاوَلَ مَا لَا يَحِلُّ بِي وَمَا وَرَدَ عَلَيَّ حَقُّ اللَّهِ إِلَّا أَمْضَيْتُهُ وَمَا بَثُّ لَيْلَةٍ قَطُّ وَلِلَّهِ فِي مَالِي حَقٌّ لَمْ أَوْدِهِ .

وقال عليه السلام : لَا رِضَاعَ بَعْدَ فَطَامٍ . وَلَا وَصَالَ فِي صِيَامٍ وَلَا يُنْتَمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ . وَلَا صَمْتُ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ . وَلَا تَعْرُبُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ^(١) . وَلَا هَجْرَةٌ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَا طَلَاقٌ قَبْلَ النِّكَاحِ . وَلَا عِتْقٌ قَبْلَ مِلْكٍ . وَلَا يَمِينٌ لَوْلَدٍ مَعَ الْوَالِدَةِ . وَلَا الْمَمْلُوكُ مَعَ مَوْلَاهُ وَلَا لِلْمَرْأَةِ مَعَ زَوْجِهَا وَلَا نَذَرٌ فِي مَعْصِيَةٍ . وَلَا يَمِينٌ فِي قَطِيعَةٍ .

وقال عليه السلام : لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ - وَإِنْ سَاعَدْتَهُ الْأُمُورُ - بِمُسْتَخْلَصٍ غَضَارَةٍ عَيْشٍ^(٢) . إِلَّا مِنْ خِلَالِ مَكْرُوهِ . وَمَنْ انتَظَرَ بِمُعَاجَلَةِ الْفُرْصَةِ مُوَاجِلَةَ الْإِسْتِقْصَاءِ سَلَبَتْهُ الْأَيَّامُ فُرْصَتَهُ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْأَيَّامِ السَّلْبَ وَسَبِيلَ الزَّمَنِ الْقَوْتُ .

وقال عليه السلام : الْمَعْرُوفُ زَكَاةُ النَّعْمِ . وَالشَّفَاعَةُ زَكَاةُ الْجَاوِ . وَالْعِلَلُ زَكَاةُ الْأَبْدَانِ . وَالْعَفْوُ زَكَاةُ الظُّفْرِ . وَمَا أَذْيَبَتْ زَكَاةُ قَهْوٍ مَأْمُونُ السَّلْبِ .

وكان عليه السلام يقولُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ مُصِيبَتِي فِي دِينِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْ شَاءَ أَنْ تَكُونَ مُصِيبَتِي أَعْظَمَ مِمَّا كَانَ كَانَتْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي شَاءَ أَنْ يَكُونَ وَكَانَ » .

(١) فالمراد أن شرب اللبن بعد الفطام من امرأة أخرى لم يحرم ذلك الرضاع . لأنه رضاع بعد فطام ولا وصال في صيام : أي يحرم ذلك الصوم ، ولا يتم بعد احتلام ، أي لا يطلق اليتم على الصبي الذي فقد أباه إذا احتلم وبلغ ، ولا صمت يوم إلى الليل : أي ليس صومه صوماً ولا يكون مشروعاً فلا فضيله له .
لا تعرب عبد الهجرة : أي يحرم الالتحاق ببلاد الكفر .
(٢) الغضارة : طيب العيش .

وقال عليه السلام : يقول الله : من استنقذَ حيراناً من خَيْرَتِهِ سَمَّيْتُهُ حميداً ،
وأسكنتُهُ جَنَّتِي .

وقال عليه السلام : إذا أقبلت دُنْيَا قومٍ كُتِبُوا محاسِنَ غيرِهِمْ وإذا أدبرت
سُلبُوا مَحاسِنَ أَنْفُسِهِمْ .

وقال عليه السلام : البناتُ حسناتُ والبنوتُ نِعَمٌ ، فالحسناتُ تُثابُّ عليهنَّ
والنعمَةُ تُسألُ عنها .

الفصل العادي عشر

من عرفان الإمام جعفر الصادق عليه السلام





في العبودية

قال الصادق عليه السلام: أصول المعاملات تقع على أربعة أوجه: معاملة الله، ومعاملة النفس، ومعاملة الخلق، ومعاملة الدنيا، وكل وجه منها منقسم على سبعة أركان.

أما أصول معاملة الله تعالى فسبعة أشياء: أداء حقه، وحفظ حده، وشكر عطائه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، وتعظيم حرمة، والشوق إليه.

وأصول معاملة النفس سبعة: الخوف، والجهد، وحمل الأذى، والرياضة، وطلب الصدق والإخلاص، وإخراجها من محبوبيها، وربطها في الفقر.

وأول معاملة الخلق سبعة: الحلم، والعفو، والتواضع، والسخاء، والشفقة، والنصح، والعدل والإنصاف.

وأصول معاملة الدنيا سبعة: الرضا بالدون، والإيثار بالموجود، وترك طلب المفقود، وبغض الكثرة، واختيار الزهد، ومعرفة آفاتها، ورفض شهواتها مع رفض الرياسة.

فإذا حصلت هذه الخصال في نفس واحدة، فهو من خاصة الله وعباده المقربين وأوليائه حقاً.

قال الصادق عليه السلام: العبودية جوهر كنهها الربوبية، فما فقد من العبودية وجد في الربوبية، وما خفي عن الربوبية أصيب في العبودية.

قال الله تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَاتَيْنَا فِي الْأَقَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمَ يَكُونِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي موجود في غيبتك وفي حضرتك.

وتفسير العبودية بذلك الكل، وسبب ذلك منع النفس عما تهوى، وحملها على ما تكره، ومفتاح ذلك ترك الراحة وحب العزلة، وطريقة الافتقار إلى الله تعالى.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وحروف العبد ثلاثة: (ع ب د) فالعين علمه بالله، والباء بونه عمن سواه، والدال دنوه من الله تعالى بلا كيف ولا حجاب، وأصول المعاملات تقع على أربعة أوجه كما ذكر في أول الباب الأول.

في غرض البصر

قال الصادق عليه السلام: ما اغتنم أحد بمثل ما اغتنم بغض البصر، لأن البصر لا يغض عن محارم الله تعالى، ألا وقد سبق إلى قلبه مشاهدة العظمة والجلال.

سُئل أمير المؤمنين عليه السلام بماذا يستعان على غرض البصر؟ فقال عليه السلام: بالخمود تحت السلطان المطلع على سرّك، والعين جاسوس القلوب وبريد العقل، فغض بصرك عما لا يليق بدينك ويكرهه قلبك وينكره عقلك.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: غضوا أبصاركم ترون العجايب.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾.

وقال عيسى بن مريم عليه السلام للحواريين: إياكم والنظر إلى المحذورات فإنها بذر الشهوات وبنات الفسق.

قال يحيى عليه السلام: الموت أحب إلي من نظرة بغير واجب.

وقال عبد الله بن مسعود لرجل نظر إلى امرأة قد عادها في مرضها: لو ذهب عيناك لكان خيراً لك من عيادة مريضك، ولا تتوفر عين يصيبها من نظر إلى محذور ألا وقد انعقد عقدة على قلبه من المنية، ولا تنحل بإحدى الحالين: إما ببكاء الحسرة والندامة بتوبة صادقة، وإما بأخذ نصيبه مما تمنى ونظر إليه، فأخذ الحظ من غير توبة فيصيره إلى النار، وأما التائب الباقي بالحسرة والندامة عن ذلك فمأواه الجنة ومنقلبه الرضوان.

في المشي

قال الصادق عليه السلام: إن كنت عاقلاً فقدم العزيمة الصحيحة والنية الصادقة، في حين قصدك إلى أي مكان أردت، فإن النفس من التخطي إلى محذور وكن متفكراً في مشيك ومعبراً بعجائب صنع الله تعالى أينما بلغت، ولا تكن مستهزئاً ولا متبختراً في مشيك. قال تعالى: ولا تمش في الأرض مرحاً أَلَمْ تَكُنْ مَسْتَهْزِئاً. وغلض بصرك عما لا يليق بالدين، واذكر الله كثيراً فإنه قد جاء في الخبر أن المواضع التي يذكر الله فيها وعليها تشهد بذلك عند الله يوم القيامة وتستغفر لهم إلى أن يدخلهم الله الجنة، ولا تكثرن الكلام مع الناس في الطريق فإن فيه سوء الأدب، وأكثر الطرق مراصد الشيطان ومتجرته فلا تأمن كيده، واجعل ذهابك ومجيئك في طاعة الله والسعي في رضاه، فإن حركاتك كلها مكتوبة في صحيفة.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَسْمَلُونَ﴾. وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَبَعُهُ فِي عُقُوْبِهِ﴾.

في العلم

قال الصادق عليه السلام: العلم أصل كل حال سني ومنتهى كل منزلة رفيعة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، أي علم التقوى واليقين.

وقال علي عليه السلام: اطلبوا العلم ولو بالصين، فهو علم معرفة النفس وفيه معرفة الرب عز وجل.

قال النبي صلى الله عليه وآله: من عرف نفسه فقد عرف ربه، ثم عليك من العلم بما لا يصح العمل إلا به وهو الإخلاص.

قال النبي صلى الله عليه وآله: نعوذ بالله من علم لا ينفع وهو العلم الذي يضاد العمل بالإخلاص، واعلم أن قليل العلم يحتاج إلى كثير العمل لأن علم الساعة يلزم صاحبه استعمال طول دهره.

قال عيسى بن مريم عليه السلام: رأيت حجراً عليه مكتوب ألقبني فقلبت، فإذا على باطنه مكتوب: من لا يعمل بما يعلم مشؤم عليه طلب ما لا يعلم ومردود عليه ما علم.

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إن أهون ما أنا صانع بعالم غير عامل بعلمه أشد من سبعين عقوبة باطنة إن أخرج من قلبه حلاوة ذكرى، وليس إلى الله سبحانه طريق يسلك إلا بعلم، والعلم زين المرء في الدنيا والآخرة، وسائقه إلى الجنة وبه يصل إلى رضوان الله تعالى، والعالم حقاً هو الذي ينطق فيه أعماله الصالحة وأوراده الزاكية وصدقه وتقواه، لا لسانه ومناظرته ومعادلته وتساوله ودعواه، ولقد كان يطلب هذا العلم فيغير هذا الزمان، من كان فيه عقل ونسك وحكمة وحياء وخشية، وإننا نرى طالبه اليوم من ليس فيه من ذلك شيء، والعالم يحتاج إلى عقل ورفق وشفقة

ونصح وحلم وصبر وقناعة وبذل، والمتعلم يحتاج إلى رغبة وإرادة وفراغ ونسك وخشية وحفظ وحزم.

في الفتية

قال الصادق عليه السلام: لا يحل الفتية لمن لا يصطفى من الله تعالى بصفاء سرّه وإخلاص عمله وعلايته وبرهان من ربه في كل حال، لأن من أفتى فقد حكم، والحكم لا يصح إلا بإذن من الله عزّ وجلّ وبرهانه، ومن حكم بالخير بلا معاينة فهو جاهل مأخوذ بجهله ومأثوم بحكمه كما دلّ الخبر، العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء.

قال النبي صلى الله عليه وآله: أجراكم على الفتية أجراكم على الله عزّ وجلّ، أو لا يعلم المفتي أنه هو الذي يدخل بين الله تعالى وبين عباده وهو الحائر بين الجنة والنار.

قال سفيان بن عُيينة: كيف ينتفع بعلمي غيري وأنا قد حرمت نفسي نفعها، ولا يحل الفتية في الحلال والحرام بين الخلق، إلا لمن اتبع الحق من أهل زمانه وناحيته وبلده بالنبي صلى الله عليه وآله وعرف ما يصلح من فتياه.

قال النبي صلى الله عليه وآله: وذلك لربما ولعل ولعسى لأن الفتية عظيمة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام لقاض: هل تعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. قال: فهل أشرفت على مراد الله عزّ وجلّ في أمثال القرآن؟ قال: لا. قال عليه السلام: إذا هلك وأهلك، والمفتي يحتاج إلى معرفة معاني القرآن وحقائق السنن وبواطن الإشارات والآداب والإجماع والاختلاف والإطلاع على أصول ما اجتمعوا عليه وما اختلفوا فيه، ثم إلى حسن الاختيار ثم إلى العمل الصالح ثم الحكمة ثم التقوى ثم حيثنّ إن قدر.

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الصادق عليه السلام: من لم ينسلخ عن هواجسه ولم يتخلص من آفات نفسه وشهواتها ولم يهزم الشيطان، ولم يدخل في كنف الله تعالى وأمان عصمته لا يصلح له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه إذا لم يكن بهذه الصفة لكما أظهر أمراً يكون حجة عليه ولا ينتفع الناس به.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾. ويقال له: يا خائن أطلب خلقي بما خنت به نفسك وأرخت عنه عنائك.

روي أن ثعلبة الأسدي سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَعِزُّكُمْ مَن صَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ» حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وأعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك أمر العامة وصاحب الأمر بالمعروف يحتاج أن يكون عالماً بالحلال والحرام فارغاً من خاصة نفسه، مما يأمرهم به وينهاهم عنه ناصحاً للخلق رحيماً لهم رفيقاً بهم داعياً لهم باللطف وحسن البيان عارفاً بتفاوت أخلاقهم، لينزل كلاً بمنزلته بصيراً بمكر النفس ومكائد الشيطان صابراً على ما يلحقه، لا يكافيهم بها ولا يشكو منهم ولا يستعمل الحمية، ولا يفتاظ لنفسه مجرداً نيته الله مستعيناً به تعالى ومبتغياً لوجهه، فإن خالفوه وجفوه صبر وإن وافقوه وقبلوا منه شكر مفوضاً أمره إلى الله ناظراً إلى عيبه.

في آفة العلماء

قال الصادق عليه السلام: الخشية ميراث العلم وميزانه، والعلم شعاع المعرفة وقلب الإيمان، ومن حرم الخشية لا يكون عالماً وأن يشق الشعر بمتشابهات العلم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلُوكُ﴾.

وآفة العلماء ثمانية: الطمع والبخل، والرياء والعصبية، وحب المدح، والخوض فيما لم يصلوا إلى حقيقته، والتكلف في تزيين الكلام بزوائد الألفاظ، وقلة الحياء من الله، والإفتخار، وترك العمل بما علموا.

قال عيسى عليه السلام: أشقى الناس من هو معروف بعلمه مجهول بعمله.

وقال النبي صلى الله عليه وآله: لا تجلسوا عند كل داع مدع يدعوكم من اليقين إلى الشك، ومن الإخلاص إلى الرياء، ومن التواضع إلى الكبر، ومن النصيحة إلى العداوة، ومن الزهد إلى الرغبة، وتقرّبوا إلى عالم يدعوكم إلى التواضع من الكبر، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الشك إلى اليقين، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن العداوة إلى النصيحة، ولا يصلح لموعظة الخلق إلا من جاوز هذه الآفات بصدقه وأشرف على عيوب الكلام، وعرف الصحيح من السقيم وعلل الخواطر وفتن النفس والهوى.

قال علي عليه السلام: كن كالطبيب الرفيق الشفيق الذي يضع الدواء بحيث ينفع في الخبر.

سألوا عيسى بن مريم عليه السلام: يا روح الله مع من نجالس؟ قال عليه السلام: من يذكركم الله رؤيته ويزيد في علمكم منطقته ويرغبكم في الآخرة عمله.

في الرعاية

قال الصادق عليه السلام: من رعى قلبه عن الغفلة ونفسه عن الشهوة وعقله عن الجهل فقد دخل في ديوان المتنبيين، ثم من رعى علمه عن الهوى ودينه عن البدعة وماله عن الحرام، فهو من جملة الصالحين.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وهو علم الأنفس، فيجب أن يكون نفس المؤمن على كل حال في شكر أو عذر على معنى، إن قبل ففضل وإن رد فعدل، وتطالع الحركات في الطاعات

بالتوفيق وتطالع السكون عن المعاصي بالعصمة، وقوام ذلك كله الافتقار إلى الله تعالى والاضطرار إليه والخشوع والخضوع ومفاتهاها الإنابة إلى الله تعالى مع قصر الأمل بدوام ذرك الموت وعيان الموقوف بين يدي الجبار، لأن ذلك راحة من الحبس ونجاة من العدو وسلامة النفس، وسبب الإخلاص في الطاعات التوفيق، وأصل ذلك أن يرّد العمر إلى يوم واحد.

قال رسول الله ﷺ: الدنيا ساعة فاجعلها طاعة، وباب ذلك كله ملازمة الخلوة بمداومة الفكر، وسبب الخلوة القناعة وترك الفضول من المعاش، وسبب الفكر الفراغ، وعماد الفراغ الزهد، وتمام الزهد التقوى، وباب التقوى الخشية، ودليل الخشية التعظيم لله تعالى والتمسك بخالص طاعة في أوامره، والخوف والحذر مع الوقوف عن محارمه ودليلها العلم، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

في الشكر

قال الصادق عليه السلام: في كل نفس من أنفاسك شكر لازم لك بل ألف أو أكثر، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله تعالى من غير علة يتعلق القلب بها دون الله عز وجل والرضا بما أعطى، وأن لا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته، فكن لله عبداً شاكراً على كل حال، تجد الله رباً كريماً على كل حال، ولو كان عند الله تعالى عبادة تعبد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل لأطلق لفظة فيهم من جميع الخلق بها، فلما لم يكن أفضل منها خصّها من بين العبادات وخصّ أربابها فقال: ﴿وَقِيلَ مَنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾، وتمام الشكر الاعتراف بلسان العزّ خالصاً لله عز وجل بالعجز عن بلوغ أدنى شكره، لأن التوفيق في الشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها وهي أعظم قدراً وأعز وجوداً من النعمة التي من أجلها وفق له، فيلزمك على كل شكر شكراً أعظم منه إلى ما لا نهاية له،

مستغرقاً في نعمه عاجزاً قاصراً عن درك غاية شكره، فأنى يلحق العبد شكر
نعمة الله ومتى يلحق صنيعه بصنيعه، والعبد ضعيف لا قوة له أبداً إلا بالله
تعالى عز وجل، والله تعالى غني عن طاعة العبد فهو تعالى قوي على مزيد
النعم على الأبد، فكن لله عبداً شاكراً على هذا الوجه ترى العجب.

في الخروج من المنزل

قال الصادق عليه السلام: إذا خرجت من منزلك فاخرج خروج من لا
يعود، ولا يكن خروجك إلا لطاعة أو سبب من أسباب الدين، والزم
السكينة والوقار واذكر الله سرّاً وجهراً.

سأل بعض أصحاب أبي ذر رضي الله عنه أهل داره عنه، فقالت خرج، فقال:
متى يرجع، فقالت: متى يرجع من روحه بيد غيره، ولا يملك لنفسه شيئاً
واعتبر بخلق الله تعالى برّهم وفاجرهم أينما مضيت، فاسأل الله تعالى أن
يجعلك من خلص عباد الصادقين ويلحقك بالماضين منهم ويحشرهم في
زمرتهم، واحمده واشكره على ما جئتك من الشهوات وعصمك من قبيح
أفعال المجرمين وغيض بصرك من الشهوات ومواضع النهي، واقصد في
مشيك وراقب الله في كل خلوة كأنك على الصراط جائر، ولا تكن لفاتاً
وافش السلام لأهله مبتدئاً ومجيباً، وأعن من استعان بك في حق وارشد
الضال واعرض عن الجاهلين، وإذا رجعت منزلك فادخل دخول الميت في
القبر حيث ليس همته إلا رحمة الله تعالى وعفوه.

في اللباس

قال الصادق عليه السلام: زين اللباس للمؤمن التقوى وأنعمه الإيمان، قال
الله تعالى: ﴿رِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، وأما اللباس الظاهر فنعمة من الله
تعالى تستر بها عورات بني آدم، هي كرامة أكرم الله بها ذرية آدم ما لم

يكرم بها غيرهم، وهي للمؤمنين من إله لأداء ما افترض عليهم، وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عز وجل بل يقربك من ذكره وشكره وطاقته، ولا يحملك على العجب والرياء والتزيين والتفاخر والخيلاء، فإنها من آفات الدين ومورثه القسوة في القلب، فإذا لبست ثوبك فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته، والبس باطنك كما ألبست ظاهرك بثوبك، وليكن باطنك من الصدق في ستر الهيبة وظاهرك في ستر الطاعة، واعتبر بفضل الله عز وجل حيث خلق أسباب اللباس ليستر العورات الظاهرة وفتح أبواب التوبة والإنابة والإغاثة ليستر بها العورات الباطنة من الذنوب وأخلاق السوء، ولا تفضح أحداً حيث ستر الله عليك ما أعظم منه، واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لا يعينك حاله وأمره، واحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك ويتجر برأس مالك غيرك فتهلك نفسك، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله تعالى في العاجل، وأوفر أسباب العقوبة في الآجل، وما دام العبد مشغولاً بطاعة الله تعالى ومعرفة عيوب نفسه وترك ما يشين في دين الله عز وجل، فهو بمعزل عن الآفات غائص في بحر رحمة الله تعالى، يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان، وما دام ناسياً لذنوبه جاهلاً لعيوبه راجعاً إلى حوله وقوته لا يفلح إذا أبداً.

في الرياء

قال الصادق عليه السلام: لا تراني بعملك من لا يحيي ويميت ولا يغني عنك شيئاً، والرياء شجرة لا تثمر إلا الشرك الخفي وأصلها النفاق. يقال للمرائي عند الميزان خذ ثواباً تعدّ ثواب عملك ممن أشركته معي، فانظر من تعبد وتدعو ومن ترجو ومن تخاف، واعلم أنك لا تقدر على إخفاء شيء من باطنك عليه تعالى وتصير مخدوعاً بنفسك.

قال الله تعالى: ﴿يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا

يَشْمُرُونَ، وأكثر ما يقع الرياء في البصر، والكلام، والأكل، والشرب، والمجيء والمجالسة، واللباس، والفحك، والصلاة، والحج، والجهاد، وقراءة القرآن، وسائر العبادات الظاهرة. فمن أخلص باطنه لله تعالى وخشع له بقلبه ورأى نفسه مقصراً بعد بذل كل مجهود وجد الشكر عليه حاصلًا، ويكون من يرجو له الخلاص من الرياء والنفاق إذا استقام على ذلك في كل حال.

في الصدق

قال الصادق عليه السلام: الصدق نور متشعشع في عالمه، كالشمس يستضيء بها كل شيء بمعناها من غير نقصن يقع على معناها، والصادق حقاً هو الذي يصدق كل كاذب بحقيقة صدق ما لديه وهو المعنى الذي لا يسع معه سواه أو ضده مثل آدم على نبينا وآله وعلينا صدق إبليس في كذبه حين أقسم له كاذباً لعدم ما به من الكذب في آدم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ لأن إبليس أبدع شيئاً كان أول سن أبدعه، وهو غير معهود ظاهراً وباطناً فحشر هو بكذبه على معنى لم ينتفع به من صدق آدم عليه السلام على بقاء الأبد، وأفاد آدم عليه السلام بتصديقه كذبه بشهادة الله عز وجل له ينفي عزمه عما يضاد عهده في الحقيقة على معنى لم ينتقص من اصطفاؤه بكذبه شيئاً، فالصدق صفة الصادق حقيقة الصدق يقتضي تزكية الله تعالى لعبده كما ذكر عن صدق عيسى عليه السلام في القيمة بسبب ما أشار إليه من صدقه وهو براءة الصادقين من رجال أمة محمد صلى الله عليه وآله، فقال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: الصدق سيف الله في أرضه وسمائه أينما هوى به يقده، فإذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فانظر في صدق معنك وعقد دعواك وغيرهما بقسطاس من الله تعالى كأنك في القيامة، قال

الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾، فإذا اعتدل معنك يفوز دعواك ثبت لك الصدق، وأدنى حد الصدق أن لا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان، ومثل الصادق الموصوف بما ذكرناه كمثل النازع لروحه إن لم ينزع فماذا يصنع.

في الإخلاص

قال الصادق عليه السلام: الإخلاص بجميع فواصل الأعمال وهو معنى افتتاحه القبول وتوقيعه الرضاء، فمن تقبل الله منه ويرضى عنه فهو المخلص، وإن قل عمله ومن لم يتقبل منه فليس بمخلص وإن كثر عمله اعتباراً بآدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة، وعلامة القبول وجود الاستقامة ببذل كل محاب مع إصابة علم كل حركة وسكون، والمخلص ذائب روحه باذل مهجته في تقويم ما به، العلم والأعمال والعامل والمعمول بالعمل لأنه إذا أدرك ذلك فقد أدرك الكل، وإذا فات ذلك فاته الكل وهو تصفية معاني التنزيه في التوحيد كما قال الأول، هلك العاملون إلا العابدون وهلك العابدون إلا العالمون وهلك العالمون إلا الصادقون وهلك الصادقون إلا المخلصون وهلك المخلصون إلا المتقون وهلك المتقون إلا الموقنون وإن الموقنين على خلق عظيم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِزِّدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْنِكَ أَلَيْسَ﴾ وأدنى حد الإخلاص بذل العبد طاقته، ثم لا يجعل لعمله عند الله قدراً فيوجب به على ربه مكافأة لعلمه بعمله أنه لو طالبه بوفاء حق العبودية لعجز، وأدنى مقام المخلص في الدنيا السلامة من جميع الآثام وفي الآخرة النجاة من النار والفوز بالجنة.

في التقوى

قال الصادق عليه السلام: التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى بالله وهو ترك

الخلاف فضلاً عن الشبهة وهو تقوى خاص الخاص، وتقوى من الله تعالى وهو ترك الشبهات فضلاً عن الحرام وهو تقوى الخاص، وتقوى من خوف النار والعقاب وهو ترك الحرام وهو تقوى العام، ومثل التقوى كماء يجري في النهر، ومثل هذه الطبقات الثلاث في معنى التقوى كأشجار مغروسة على حافة ذلك النهر من كل لون وجنس وكل شجرة تمتص منها الماء من ذلك النهر على قدر جوهره وطعمه ولطافته وكثافته ثم منافع الخلق من ذلك الأشجار والثمار على قدرها وقيمتها.

قال الله تعالى: ﴿مِثْوَانٌ وَعَبِيرٌ مِثْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاجِدٍ وَتُفَيْضُ بِقَصَبٍ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾. فالتقوى للطاعات كالماء للأشجار، ومثل طبائع الأشجار والأثمار في لونها وطعمها مثل مقادير الإيمان، فمن كان أعلى درجة في الإيمان وأصفى جوهره بالروح كان أتقى، ومن كان التقى كانت عبادته أخلص وأطهر، ومن كان كذلك كان من الله أقرب، وكل عبادة مؤسسة على غير التقوى فهي هباء منثوراً.

قال الله تعالى: ﴿أَتَمَنَ أَتَمَسَ بِيَسْكَنُهُ عَلَى تَقْوَى مِنْكَ اللَّهُ وَرِضْوَانٍ حَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَمَسَ بِيَسْكَنُهُ عَلَى شَقَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا يَوْمَ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾، وتفسير التقوى ترك ما ليس بأخذه بأس حذراً مما به البأس، وهو في الحقيقة طاعة بلا عصيان وذكر بلا نسيان وعلم بلا جهل مقبول غير مردود.

في الورع

قال الصادق (عليه السلام): أغلق أبواب جوارحك عما يقع ضرره إلى قلبك ويذهب بوجاهتك عند الله تعالى ويعقب الحسرة والندامة يوم القيامة، والحياء عما اجترحت من السيئات.

والمتنور يحتاج إلى ثلاثة أصول: الصفح عن عثرات الخلق أجمع،

وترك خطيته فيهم، واستواء المدح والذم، وأصل الورع دوام محاسبة النفس وصدق المقابلة وصفاء المعاملة، والخروج من كل شبهة، ورفض كل عيبة وريبة ومفارقة جميع ما لا يعنيه، وترك فتح أبواب لا يدري كيف يغلقها، ولا يجالس من يشكل عليه الواضح، ولا يصاحب مستخفاً الدين، ولا يعارض من العلم ما لا يحتمل قلبه، ولا يتفهمه من قائله ويقطعه عمن يقطعه عن الله عز وجل تعالى شأنه.

في المعاشرة

قال الصادق عليه السلام: حسن المعاشرة مع خلق الله تعالى في غير معصيته من مزيد فضل الله تعالى عند عبده، ومن كان مخلصاً خاضعاً لله في السر كان حسن المعاشرة في العلانية، فعاشر الخلق لله تعالى ولا تعاشرهم لنصيبك لأمر الدنيا ولطلب الجاه والرياء والسمعة، ولا تسقطن لسيبها عن حدود الشريعة من باب المماثلة والشهرة، فإنهم لا يغنون عنك شيئاً وتفوتك الآخرة بلا فائدة، فاجعل من هو الأكبر منك بمنزلة الأب والأصغر بمنزلة الولد والمثل بمنزلة الأخ، ولا تدع ما تعلمه يقيناً من نفسك بما تشك فيه من غيرك، وكن رفيقاً في أمرك بالمعروف وشفيقاً في نهيك عن المنكر، ولا تدع النصيحة في كل حال.

قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، واقطع عما ينسبك وصله ذكر الله تعالى، وتشغلك عن طاعة الله الفتنة، فإن ذلك من أولياء الشيطان وأعدائه، ولا يحملنك رؤيتهم إلى المداينة عند الحق، فإن في ذلك خسراناً عظيماً نعوذ بالله تعالى.

في النوم

قال الصادق عليه السلام: من نوم المعتبرين ولا تنم نوم الغافلين، فإن المعتبرين من الأكياس ينامون استراحة ولا ينامون استبطاراً استبصاراً.

قال النبي ﷺ: تنام عيناى ولا ينام قلبي، وانور بنومك تخفيف مؤنتك على الملائكة واعتزل النفس عن شهواتها واختبر بها نفسك، وكن ذا معرفة بأنك عاجز ضعيف لا تقدر على شيء من حركاتك وسكونك إلا بحكم الله وتقديره، وأن النوم آخر الموت واستدل بها على الموت الذي لا تجد السبيل إلى الانتباه فيه والرجوع إلى صلاح ما فات عنك، ومن نام عن فريضة أو ستة أو نافلة فإنه بسببها شيء فذلك نوم الغافلين وسيرة الخاسرين وصاحبه مغبون، ومن نام بعد فراغه من أداء الفرائض والسنن والواجبات من الحقوق فذلك نوم محمود، وأني لا أعلم لأهل زماننا هذا شيئاً إذا أتوا بهذه الخصال أسلم من النوم، لأن الخلق تركوا مراعاة دينهم ومراقبة أحوالهم وأخذوا شمال الطريق، والعبد أن اجتهد أن لا يتكلم كيف يمكنه أن لا يستمتع إلا ما هو مانع له من ذلك، وإن النوم من إحدى تلك الآلات.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ وإن في كثرة آفات، وإن كان على سبيل ما ذكرنا، وكثرة النوم يتولد من كثرة الشرب، وكثرة الشرب يتولد من كثرة الشبع وهما يثقلان النفس عن الطاعة، ويقسيان القلب عن التفكير والخشوع واجعل كل نومك آخر عهدك من الدنيا، واذكر الله تعالى بقلبك ولسانك وحف طاعتك على شرك مستعينا به في الصيام إلى الصلاة، إذا انتبهت فإن الشيطان يقول لك: من فإن لك بعد ليلاً طويلاً يريد تفويت وقت مناجاتك، وعرض حالك على ربك ولا تغفل عن الاستغفار بالأسحار فإن للقانتين فيه أشواقاً.

في الحج

قال الصادق عليه السلام: إذا أردت الحج فجرد قلبك لله عز وجل من قبل عزمك من كل شاغل وحجب عن كل حاجب، وفوض أمورك كلها إلى

خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكونك وسلم لقضائه وحكمه وقدره وتدع الدنيا والراحة والخلق، واخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك ومالك، مخافة أن تصير ذلك أعداء ووبالاً ليعلم أنه ليس قوة ولا حيلة ولا حد إلا بعصمة الله تعالى وتوفيقه، واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع وأحسن الصحبة وراع أوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه ﷺ وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاء وإيثار الراد على دوام الأوقات، ثم اغتسل بماء التوبة الخالصة من الذنوب، واللبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع، واحرم عن كل شيء يمنعك عن ذكر الله عز وجل ويحببك عن طاعته.

ولبي بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل في دعوتك له متمسكاً بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت، وهرول هرولة فرأى من هواك وتبرأ من جميع حولك وقوتك، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك إلى منى، ولا تمن ما لا يحل لك ولا تستحقه، واعترف بالخطأ بالعرفات، وحدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته وتقرب إليه، واتقه بمزدلفة واصعد بروحك إلى الملا الأعلى بصعودك إلى الجبل، واذبح حنجرة الهوى والطمع عن الذبيحة، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمي الجمرات، واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك، وادخل في أمان الله تعالى وكنفه وستره وحفظه وكلائه من متابعة مرادك بدخول الحرم، وزر البيت متحفظاً لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله وسلطانه واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعاً لعظمته، ودع ما سواه بطواف الوداع، وصف روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفاء، وكن ذا مروءة من الله بفناء أوصافك عند المروءة، واستقم على شروط حجك ووفاء عهدك الذي

عاهدت ربك وأوجبت له يوم القيامة، واعلم بأن الله لم يفترض الحج ولم يخصه من جميع الطاعات بالإضافة إلى نفسه بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

ولا شرع نبيّه ﷺ في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه للاستعداد والإشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة، وفصل بيان السبق من دخول الجنة أهلها، ودخول النار أهلها بمشاهدة مناسك الحج من أولها إلى آخرها لأولي الأبواب وأولي النهي.

في الزكاة

قال الصادق عليه السلام: على كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله تعالى، بل على كل منبت شعر من شعرك، بل على كل لحظة من لحظاتك زكاة.

فزكاة العين النظرة بالعبرة والغض عن الشهوات وما يضاهاها، وزكاة الأذن استماع العين والحكمة والقرآن وفوائد الدين من الموعظة والنصيحة وما فيه نجاتك، وبالإعراض عما هو ضده من الكذب والغيبة وأشباههما، وزكاة اللسان النصيح للمسلمين والتيقظ للغافلين وكثرة التسبيح والذكر وغيرها، وزكاة اليد البذل والعطاء والسخاء بما أنعم الله عليك به، وتحريكها بكتابة العلم ومنافع ينتفع بها المسلمون في طاعة الله تعالى والقبض عن الشر، وزكاة الرجل السعي في حقوق الله تعالى من زيارة الصالحين ومجالس الذكر وإصلاح الناس وصلة الأرحام والجهاد، وما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك هذا مما تحمل القلوب فهمه والنفوس استعمله وما لا يشرف عليه إلا عباده المخلصون المقربون، أكثر من أن تحصى وهم أربابه وهو شعارهم دون غيرهم، اللهم وفقني بما تحب وترضى.

في النية

قال الصادق عليه السلام: صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأن

سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله تعالى في الأمور كلها. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ مَلِيمٍ﴾.

وقال النبي ﷺ: نية المؤمن خير من عمله. وقال ﷺ: إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فلا بد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون، لأنه إذا لم يكن بهذا المعنى يكون غافلاً، والغافلون قد ذمهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وقال ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ﴾.

ثم النية يبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة، وتختلف على حساب اختلاف الأوقات الإيمان في معنى قوته وضعفه، وصاحب النية الخالصة نفسه وهواه معه مقهورتان تحت سلطان تعظيم الله تعالى والحياء منه وهو من طبعه وشهوته ومنية نفسه منه في تعب والناس منه في راحة.

في الذكر

قال الصادق عليه السلام: من كان ذاكرًا لله تعالى على الحقيقة فهو مطيع ومن كان غافلاً عنه فهو عاصٍ، والطاعة علامة الهداية والمعصية علامة الضلالة وأصلهما من الذكر والغفلة، فاجعل قلبك قبله للسانك لا تحركه إلا بإشارة القلب وموافقة العقل ورضى الإيمان، فإن الله تعالى عالم بسرك وجهرك، وكن كالنازع روحه أو كالواقف في العرض الأكبر غير شاغل نفسك عما عنك بما كلفك به ربك في أمره ونهيه ووعدته ووعيده، ولا تشغلها بدون ما كلف به ربك واغسل قلبك بماء الحزن والخوف، واجعل ذكر الله تعالى من أجل ذكره إياك فإنهذكرك وهو غني عنك، فذكره لك أجل وأشهى وأثنى وأتم منذكرك له وأسبق، ومعرفتك بذكره لك تورثك الخضوع والاستحياء والإنكسار، ويتولد من ذلك رؤية كرمه وفضله السابق،

وتصغر عند ذلك طاعتك وإن كثرت في جنب منته، وتخلص لوجهه ورؤيتك ذكرك له، ثورتك الرياء ولاعجب والسفه والغلظة في خلقه وهو استكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه، ولا تزداد بذلك إلا بعداً ولا تستجلب به على معنى الأيام إلا وحشة.

والذكر ذكران: ذكر خالص بموافقة القلب، وذكر صادم لك بنفي ذكر غيره كما قال رسول الله ﷺ أنا لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فرسول الله ﷺ لم يجعل للذكر الله تعالى مقداراً عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره له، ومن دونه أولى فمن أراد أن يذكر الله تعالى فليعلم أنه ما لم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره لا يقدر العبد على ذكره.

في آفة القراء

قال الصادق عليه السلام: المتقري بلا علم كالمعجب بلا مال، ولا ملك يبغض الناس لفقره ويبغضونه لعجبه، فهو أبداً مخاصم للخلق في غير واجب، ومن خاصم الخلق في غير ما يؤمر به فقد نازع الخالقية والربوبية.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ﴾، وليس أحد أشد عقاباً ممن لبس قميص الدعوى بلا حقيقة ولا معنى.

قال زيد بن ثابت لابنه: يا بني لا يرى الله اسمك في ديوان القراء.

قال النبي ﷺ: وسيأتي على أمتي زمان تسمع فيه باسم الرجل خير من أن تلقي وأن تلقي خير من أن تجرب.

وقال النبي ﷺ: أكثر منافقي أمتي قراءها، وكن حيث ندبت إليه وأمرت به واخف سرك في الخلق ما استطعت واجعل طاعتك لله تعالى

بمنزلة روحك من جسدك ولتكن معبراً حالك ما تحققه بينك وبين بارئك واستعن بالله في جميع أمورك متضرعاً إلى الله في آناء ليلك وأطراف نهارك قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، والاعتداء من صفة قراء زماننا هذا وعلامتهم، فكن لله في جميع أمورك على وجل لئلا تقع في ميدان التمني فتهلك.

في بيان الحق والباطل

قال الصادق عليه السلام: اتق الله وكن حيث شئت ومن أي قوم شئت فإنه لا خلاف لأحد في التقوى، والتقوى محبوب عند كل فريق وفيه اجتماع كل خير ورشد وهو ميزان كل علم وحكمة وأساس كل طاعة مقبولة، والتوقى ماء ينفجر من عين المعرفة بالله تعالى يحتاج إليه كل فن من العلم، وهو لا يحتاج إلى تصحيح المعرفة بالخمود تحت هبة الله تعالى وسلطانه، ومزيد التقوى يكون من أصل اطلاع الله عز وجل على سر العبد بلطفه، فهذا أصل كل حق. وأما الباطل فهو ما يقطعك عن الله تعالى، متفق عليه أيضاً كل فريق فاجتنب عنه وافرد سرّك الله تعالى بلا علاقة.

قال رسول الله ﷺ: اصدق كلمة قالتها العرب كلمة ليبيد، حيث

قال:

ألا كل شيء ما سوى الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل فالزم ما اجتمع عليه أهل الصفاء والتقوى والتقوى من أصول الدين وحقائق اليقين والرضا والتسليم، ولا تدخل في اختلاف الخلق ومقالاتهم فيصعب عليك وقد اجتمعت الأمة المختارة بأن الله واحد ليس كمثله شيء، وأنه عدل في حكمه ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا يقال في شيء من صنع لم ولا كان ولا يكون شيء إلا بمشيئته وإرادته، وأنه قادر على ما يشاء وصادق في وعده ووعيده وأن القرآن كلامه وأنه كان قبل الكوت والمكان والزمان،

وأن أحداث الكون وفنائه عنده سواء ما ازداد بأحداثه علماً، ولا ينقص بفنائه ملكه عزّ سلطانه وجلّ سبحانه، فمن أورد عليك ما ينقص هذا الأصل فلا تقبله وجزد باطنه لذلك ترى بركاته عن قريب وتفوز مع الفائزين.

في معرفة الأنبياء

قال الصادق عليه السلام: إن الله عزّ وجلّ مكن أنبيائه من خزائن لطفه وكرمه ورحمته، وعلمهم من مخزون علمه وأفردهم من جميع الخلائق لنفسه فلا يشبه أحوالهم وأخلاقهم أحداً من الخلائق أجمعين، إذ جعلهم وسائل سائر الخلق إليه وجعل حبهم وإطاعتهم سبب رضائه، وخلافهم وإنكارهم سبب سخطه وأمر كل قوم وفئة باتباع ملّة رسولهم، ثم أبى أن يقبل طاعة إلا بطاعتهم وتمجيدهم ومعرفة حبهم وتبجيلهم وحرمتهم ووقارهم وتعظيمهم وجاههم عند الله تعالى، فعظم جميع أنبياء الله ولا تنزلهم منزلة أحد من دونهم، ولا تتصرف بعقلك في مقاماتهم وأحوالهم وأخلاقهم إلا ببيان محكم من عند الله وإجماع أهل البصائر بدلائل يتحقق بها فضائلهم ومراتبهم وآتى بالوصول إلى حقيقة ما لهم عند الله تعالى، فإن قابلت أقوالهم وأفعالهم بمن دونهم من الناس أجمعين، فقد أسأت صحبتهم وأنكرت معرفتهم وجهلت خصوصيتهم بالله، وسقطت عن درجة حقائق الإيمان والمعرفة فإياك ثم إياك.

في معرفة الأئمة عليه السلام

قال الصادق عليه السلام: روي بإسناد صحيح عن سلمان الفارسي رحمه الله قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فلما نظر إلي فقال صلى الله عليه وآله: يا سلمان إن الله عزّ وجلّ لن يبعث نبياً ولا رسولاً إلا وله إثنا عشر نقيباً، قال قلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله عرفت هذا من أهل الكتابين. قال: يا سلمان هل عرفت نقبائي الإثنا عشر الذين اختارهم الله تعالى للإمامة من بعدي، فقلت الله

ورسوله أعلم، فقال: يا سلمان خلقتني الله تعالى من صفوة نوره ودعاني فأطعته، فخلق من نوري علياً ودعاه فأطاعه فخلق من نوري ونور علي فاطمة، ودعاها فأطاعته فخلق مني ومن علي وفاطمة الحسن والحسين، فدعاهما فأطاعاه فسمانا الله تعالى بخمسة أسماء من أسمائه، فالله تعالى المحمود وأنا محمد والله العلي وهذا علي والله الفاطر وهذه فاطمة والله ذو الإحسان وهذا الحسن والله المحسن وهذا الحسين وخلق من نور الحسين تسعة أئمة فدعاهم فأطاعوه من قبل أن يخلق الله تعالى سماء مبنية وأرضاً مدحية أو هواء أو ملكاً أو بشراً وكنا أنواراً نسبحه ونسمع له ونطيع، قال فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما لمن عرف هؤلاء حق معرفتهم فقال يا سلمان من عرفهم حق معرفتهم واقتدى بهم فوالاهم وتبرأ من عدوهم كان والله منا يرد حيث نرد ويكن حيث نكن، فقلت يا رسول الله ﷺ فهل إيمان بغير معرفتهم بأسمائهم وأنسابهم، فقال لا يا سلمان، قلت يا رسول الله ﷺ فأنتى لي بهم، فقال ﷺ قد عرفت إلى الحسين عليه السلام قلت نعم، قال رسول الله ﷺ ثم سيد العابدين علي بن الحسين، ثم ابنه محمد بن علي باقر علم الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين، ثم جعفر بن محمد لسان الله الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم غيظه صبراً في الله تعالى، ثم علي بن موسى الرضا بسر الله تعالى، ثم محمد بن علي المختار من خلق الله، ثم علي بن محمد الهادي إلى الله، ثم الحسن بن علي الصامت الأمين على سر الله، ثم م ح م د سماه بابن الحسن الناطق القائم بحق الله تعالى، قال سلمان فبكيت ثم قلت يا رسول الله ﷺ أني مؤجل إلى عهدهم قال يا سلمان اقرأ:

﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَشَأًا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ شَدِيدٍ فَأَجَاسُوا خَلَائِلَ
الَّذِيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ
وَنِيَّتٍ وَجَمَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نُفُورًا﴾.

قال عليه السلام: فاشتد بكائي وشوقي قلت يا رسول الله ﷺ: أبعهد منك، فقال اي والذي بعثني وأرسلني لبعهد مني وبعلي وفاطمة والحسن والحسين وتسعة أئمة من ولد الحسين عليه السلام وبك ومن هو منا ومظلوم فينا، وكل من محض الإيمان محضاً، أي والله يا سلمان ثم ليحضرن إبليس وجنوده وكل من محض الكفر محضاً حتى يؤخذ بالقصاص والأوتاد والترات ولا يظلم ربك أحداً ونحن تأويل هذه الآية: ﴿وَتُكَيِّنُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي يُرِزُّهُمْ فَزَعَاتٍ وَهُمْ لَا يَتَوَكَّنُونَ وَمَنْ يَتَوَكَّنْ فَإِنَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ لَا يُحِيطُ بِشَيْءٍ وَلَا يَتَذَكَّرُ فِي نَفْسِهِ﴾.

قال سلمان فقممت من بين يدي رسول الله ﷺ وما يبالي سلمان كيف لقي الموت أو لقاءه.

في معرفة الصحابة

قال الصادق عليه السلام: لا تدع اليقين بالشك والمكشوف بالخفي، ولا تحكم ما لم تره بما تروى عنه قد عظم الله أمر الغيبة وسوء الظن بإخوانك من المؤمنين، فكيف بالجرأة على إطلاق قول واعتقاد زور وبهتان في أصحاب رسول الله ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿إِذْ نَقَّوْنَهُ بِالْأَسْنَةِ وَنَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

وما دمت تجد إلى تحسين القول والفعل في غيبتك وحضرتك سبيلاً فلا تتخذ غيره. قال الله ﷻ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، واعلم أن الله تعالى اختار لنبية عن أصحابه طائفة أكرمهم بأجل الكرامة وحلاهم بحلية التأيد والنصر والاستقامة لصحبته على المحبوب والمكروه، وأنطق لسان نبية محمد ﷺ بفضائلهم ومناقبهم وكراماتهم واعتقد محبتهم واذكر فضلهم واحذر مجالسة أهل البدع، فإنها تنبت في القلب كفراً وضلالاً مبيناً، وإن اشتبه عليك

ففضيلة بعضهم فكلهم إلى عالم الغيب وقل اللهم أني محب لمن أحببته أنت ورسولك وبمغض لمن أبغضته أنت ورسولك فإنه لم يكلف فوق ذلك.

في حرمة المؤمنين

قال الصادق عليه السلام: لا يعظم حرمة المؤمنين إلا من قد عظم الله حرمة على المؤمنين، ومن كان أبلغ حرمة لله ورسوله كان أشد تعظيماً لحرمة المؤمنين، ومن استهان لحرمة المؤمنين فقد هتك ستر إيمانه.

قال النبي صلى الله عليه وآله: إن من إجلال الله إعظام ذوي القربى في الإيمان.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من لم يرحم صغيراً ولا يوقر كبيراً فليس منا ولا تكفر مسلماً تكفرة التوبة إلا من ذكر الله في كتابه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾. واشتغل بشأنك الذي أنت به مطالب.

في برّ الوالدين

قال الصادق عليه السلام: برّ الوالدين من حسن معرفة العبد بالله، إذ لا عبادة أسرع بلوغاً لصاحبها إلى رضا الله من برّ الوالدين المؤمنين لوجه الله تعالى، لأن حق الوالدين مشتق من حق الله تعالى إذا كانا على منهاج الدين والستة، ولا يكونان ينمعان الولد من طاعة الله إلى طاعتهما ومن اليقين إلى الشك ومن الزهد إلى الدنيا، ولا يدعوانه إلى خلاف ذلك فإذا كان كذلك فمعصيتهما طاعة وطاعتهما معصية.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ جَهْدَكَ عَلَيَّ أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

وأما في باب المصاحبة فقاربهما وأرفق بهما واحتمل أذاهما بحق ما احتملا عنك في حال صغرك ولا تضيق عنهما في ما قد وسع الله تعالى عليك من المأكول والملبوس، ولا تحول وجهك عنهما ولا ترفع صوتك فوق صوتهما، فإن تعظيمهما من أمر الله، وقل لهما بأحسن القول والطف بهما فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

في التواضع

قال الصادق عليه السلام: التواضع كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنتق عن حقائق ما في مخفيات العواقب، والتواضع ما يكون لله وفي الله وما سواه مكر، ومن تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده ولأهل التواضع سيماء، سئل بعضهم عن التواضع؟ قال هو أن يخضع للحق وينقاد له ولو سمعه من صبي وكثير من أنواع الكبير يمنع من استفادة العلم وقبوله والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم المتكبرين، ولأهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرضين من العارفين.

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّ الْأَعْرَافُ رِجَالًا يَعْرِفُونَ كَلًّا يَسْمَعُونَ﴾.

وقال تعالى أيضاً: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

وأصل التواضع من جلال الله وهيبته وعظمته وليس لله عز وجل عبادة يرضاها ويقبلها إلا وبأبه التواضع ولا يعرف ما في معنى حقيقة التواضع إلا المقربون من عباده المتصلين بوحدانيته.

قال الله عز وجل: ﴿وَيَعَاذُ الرَّحْمَنُ الَّذِيكَ يَتَشَوَّنُ عَلَى الْأَرْضِ هَونًا وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجِنُّونَ قَالُوا سَلَمًا﴾.

وقد أمر الله تعالى أعز خلقه وسيد بريته محمداً بالتواضع فقال عز وجل:

﴿وَلَا تَخْضِعْ وُجُوهَكَ لِلْعَالَمِ إِنِّكَ أَعْيُنُ الْمَوْدُونِ﴾.

والتواضع مزرعة الخشوع والخضوع والخشية والحياء، وأنهن لا يتبين إلا منها فوبها ولا يسلم الشرف التام الحقيقي إلا للمتواضع في ذات الله تعالى.

في الجهل

قال الصادق عليه السلام: الجهل صورة ركببت في الدنيا إقبالها ظلمة وإدبارها نور، والعبد متقلب معها كتقلب الظل مع الشمس، ألا ترى إلى الإنسان تارة تجده جاهلاً بخصال نفسه حامداً لها عارفاً بعيبيها في غيره ساخطاً لها، وتارة تجده عالماً بطباعه ساخطاً لها حامداً لها في غيره، وهو متقلب بين العصمة والخذلان، فإن قابلته العصمة أصاب وإن قابلته الخذلان أخطأ، ومفتاح الجهل الرضا والاعتقاد به، ومفتاح العلم الاستبدال مع إصابة مرافقة التوفيق، وأدنى صفة الجاهل دعواه بالعلم بلا استحقاق، وأوسطه جهله بالجهل وأقصاه جحوده بالعلم، وليس شيء إثباته حقيقة نفيه إلا الجهل في الدنيا والحرص، فالكل منهم كواحد والواحد منهم كالكل.

في الأكل

قال الصادق عليه السلام: قلّة الأكل محمود في كل حال وعند كل قوم لأن فيه مصلحة للظاهر والباطن والمحمود من المأكولات أربعة: ضرورة، وعدة، وفتوح، وقوت، فالأكل الضروري للأصفياء، والعدة لقوام الأنقياء،

والفتوح للمتوكلين، والقوت للمؤمنين، وليس شيء أضر للقلب المؤمن من كثرتة فيورث شيئين: قسوة القلب، وهيجان الشهوة، والجوع أدام للمؤمنين وغذاء للروح، وطعام للقلب، وصحة للبدن.

قال النبي ﷺ: ما ملأ ابن آدم وعاء أشر من بطنه.

وقال داود عليه السلام: ترك لقمة مع الضرورة إليها، أحب إلي من قيام عشرين ليلة.

قال رسول الله ﷺ: المؤمن يأكل في معاء واحد، والمنافق في سبعة أمعاء.

وقال النبي ﷺ: ويل للناس من القبيبين، قيل وما هما يا رسول الله، قال ﷺ البطن والفرج.

قال عيسى بن مريم عليه السلام: ما أمرض قلب بأشد من القسوة وما اعتلت نفس بأصعب من نقص الجوع وهما زامان للطرد والخذلان.

في الوسوسة

قال الصادق عليه السلام: لا يتمكن الشيطان بالوسوسة من العبد إلا وقد أعرض عن ذكر الله تعالى واستهان وسكن إلى نهيه ونسي اطلاعه على سره، فالوسوسة ما تكون من خارج القلب بإشارة معرفة العقل ومجاورة الطبع، وأما إذا تمكن في القلب فذلك غي وضلالة وكفر والله عز وجل دعا عباده بلطف دعوته وعرفهم عداوة إبليس، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، فكن معه كالقريب مع كل الراعي يفرع إلى صاحبه من صرفه عنه، كذلك إذا أتاك الشيطان موسوساً ليضلحك عن سبيل الحق وينسبك ذكر الله تعالى، فاستعذ منه بربك وبربه فإنه يؤيد الحق على الباطل وينصر المظلوم بقول عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، ولن يقدر على هذا ومعرفة إتيانه ومذاهب وسوسته، إلا بدوام المراقبة والاستقامة على بساط الخدمة وهيبة المطلع وكثرة الذكر، وأما المهمل لأوقاته فهو صيد الشيطان لا محالة، واعتبر بما فعل بنفسه من الإغواء والاغترار والاستكبار حيث غره وأعجبه عمله وعبادته وبصيرته وجرأته عليه قد أورثه علمه ومعرفة واستدلاله بعقله اللعنة إلى الأبد، فما ظنك بنصحته ودعوته غيره فاعتصم بحبل الله الأوثق وهو الالتجاء إلى الله تعالى، والاضطرار بصحة الافتقار إلى الله في كل نفس ولا يغرّك تزيينه للطاعة عليك، فإنه يفتح عليك تسعة وتسعين باباً من الخير ليظفر بك عند تمام المائة فقابله بالخلاف والضد عن سبيله والمضادة باستهوائه.

في العجب

قال الصادق عليه السلام: العجب كل العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يدري بمَ يختم له، فمن أعجب بنفسه وفعله فقد ضلّ عن منهج الرشاد وادعى ما ليس له، والمدّعي من غير حق كاذب وإن خفي دعواه وطال دهره، فإن أول ما يفعل بالمعجب نزع ما أعجب به ليعلم أنه عاجز حقير ويشهد على نفسه لتكون الحجة أوكد عليه كما فعل إبليس والعجب نبات حبه الكفر وأرضه النفاق ومائه البغي وأغصانه الجهل وورثه الضلال وثمرته اللعنة والخلود في النار فمن اختار العجب، فقد بذر الكفر وزرع النفاق فلا بدّ من أن يثمر ويصير إلى النار.

في السخاء

قال الصادق عليه السلام: السخاء من أخلاق الأنبياء وهو عماد الإيمان ولا يكون مؤمناً إلا سخيّاً ولا يكون سخيّاً إلا ذو يقين وهمة عالية، لأن السخاء شعاع نور اليقين من عرف ما قصد هان عليه ما بذل.

قال النبي ﷺ: ما جبل ولي الله إلا على السخاء، والسخاء ما يقع على كل محبوب أقله الدنيا، ومن علامة السخاء أن لا يبالي من أكل الدنيا، ومنملكها مؤمن أو كافر، ومطيع أو عاص، وشريف أو ضيع، يطعم غيره ويجوع، ويكسو غيره ويعرى، ويعطي غيره ويمتنع من قبول عطاء غيره ويؤمن بذلك ولا يمتن ولو ملك الدنيا بأجمعها، لم ير نفسه فيها إلا أجنبياً ولو بذلها في ذات الله عز وجل في ساعة واحدة ما ملأ.

قال رسول الله ﷺ: السخي قريب من الله وقريب من الناس وقريب من الجنة بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة وقريب من النار ولا يسمى سخياً إلا الباذل في طاعة الله ولوجهه ولو كان برغيف أو شربة ماء.

قال النبي ﷺ: السخي بما ملك وأراد به وجه الله تعالى، وأما المتسخي في معصية الله تعالى، فمحال سخط الله وغضبه، وهو أبخل الناس لنفسه فكيف لغيره حيث اتبع هواه وخالف أمر الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَخْلُجْ أَتْقَاهُمْ وَأَتَقَالَا مَعَ أَتْقَاهُمْ﴾.

وقال النبي ﷺ: يقول ابن آدم ملكي ملكي ومالي مالي، يا مسكين أين كنت حيث كان الملك ولم تكن، وهل لك إلا ما أكلت فأفانيت أو لبست فألبيت أو تصدقت فأبقيت، إما مرحوم به أو معاقب عليه فاعقل أن لا يكون مال غيرك أحب إليك من مالك، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما قذمت فهو للمالكين وما أخرت فهو للوارثين، وما معك ليس لك عليه سبيل سوى الغرور به كم تسعى في طلب الدنيا وكم تدعي، أفتريد أن تفقر نفسك وتغني غيرك؟



الفصل الثاني عشر

من مناظرات واحتجاجات بهلول
تلميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام





بهلول وأبو حنيفة

كانت دار لأبي حنيفة في إحدى محالّ بغداد القديمة، وكان جماعة من طلاب العلوم الإسلامية يقصدون هذه الدار يومياً للحضور في درس أبي حنيفة الذي كان يعقده فيها، وفي أحد الأيام دخل بهلول دار أبي حنيفة وجلس في غرفة الدرس.

فَسَحَ الحاضرون المكان لبهلول عندما رأوه يدخل لكنه جلس عند الباب، ثم مدد إحدى رجليه وثنى الأخرى وأخذ يستمع إلى أبي حنيفة. كان لأبي حنيفة طلاب كثيرون، وكانوا يعدون أستاذهم من أعلم علماء بغداد.

تكلم أبو حنيفة وقال:

«اعلموا أن جماعة من المسلمين يعتقدون أن إبليس يُعذب يوم القيامة بالنار، وإنني أخالف ذلك».

قال أحد التلاميذ وقد أسند ظهره إلى جدار الدار:

«أيها الشيخ، ما هو دليلك على ما تقول؟».

قال أبو حنيفة - بعدما سعل قليلاً - :

«نعم إن إبليس مخلوق من النار، وجهنم هي النار، فكيف تحرق النار نفسها؟».

أخذ الجالسون ينظر أحدهم بوجه الآخر لكن لم يجروا أحد على التفوه بشيء.

أخذ أبو حنيفة ينظر إلى الحاضرين نظرة عجب وغرور، لكنه لم يغفل عن بهلول الذي كان واضعاً يديه تحت إبطيه وينظر إلى أبي حنيفة نظرة هادئة.

استأنف أبو حنيفة الكلام - بعد فاصل قليل - فقال:

«الامر الآخر الذي لا أرتضيه، هو ما تعتقده هذه الطائفة بأن الله تعالى لا تمكن رؤيته، إذ كيف يكون الشيء موجوداً ولا يكن رؤيته؟».

قطع أبو حنيفة كلامه هنيئة ليرى مدى تأثير ما ذكره على الحاضرين، لكن هذه المرة كان السكوت مخيماً على المجلس أكثر من السابق.

قال أبو حنيفة بصوت أعلى:

«أيها الناس، إنهم يقولون بأن الله تعالى خالق كل شيء، ومع ذلك يعتقدون بأن الإنسان فاعل مختار في فعله، وهذا يعني الجمع بين الجبر والاختيار وهما مستحيلان عقلاً...».

ثم قال:

«اعلموا أن كل شيء - في رأيي - هو من الله تعالى، وأن الإنسان غير مختار في أفعاله».

عرف أبو حنيفة أن كلامه أثر في قلوب الحاضرين، وأنه تمكن من إقناعهم وكان يحب أن يفصح عن عقائده أكثر لولا ما حدث له في مجلس الدرس، فإنه فوجيء بحجر أصاب جبينه فأدماه، وبذلك زالت أفكاره واضطرب المجلس، التفت الحاضرون إلى بهلول وهم يتساءلون:

«لماذا فعل بهلول ذلك؟!» .

دار جماعة من المقربين لأبي حنيفة ببهلول والغضب يتطاير من أعينهم من دون أن يجراً أحد منهم على إهانته لقربته من الخليفة، فإنه لو كان أحد غير بهلول فعل بأبي حنيفة ذلك لم يكن يخرج من المجلس سالماً بل كان ينهك ضرباً من قبل أتباع أبي حنيفة .

نظر أبو حنيفة إلى بهلول وهو - أبي حنيفة - واضع يده على الجرح، والغضب قد استولى عليه . فقال :

«لأشكونك إلى الخليفة» .

فأجابه بهلول بهدوء :

«وأنا أذهب معك أيضاً» .

قال أبو حنيفة - وهو متعجب من كلام بهلول - لمن حوله :

«إذن اشهدوا لي عند الخليفة بذلك» .

خرج بهلول من دار أبي حنيفة وكأنه لم يفعل شيئاً، ودخل أبو حنيفة بعد ساعة مجلس الخليفة وهو معتصب الرأس، فلما رآه الخليفة تعجب من ذلك لعلمه بمكانة أبي حنيفة في بغداد وما له من أتباع .

أخذ أبو حنيفة يشرح للخليفة ما حدث، امتعض الخليفة من فعل بهلول، فأصدر أمراً بإحضاره على الفور .

أسرع الشرطة في البحث عن بهلول لكنه بعد بحث يسير عثروا عليه وهو في طريقه إلى القصر .

ولما حضر بهلول المجلس صاح به الخليفة :

«لِمَ شذخت رأس هذا العالم الجليل؟!» .

سوى بهلول رداءه، على كتفيه ثم قال :

«لم أفعل ذلك».

قال أبو حنيفة - وهو يتلکأ في الكلام - وقد وضع يده على رأسه - :

«كيف . . تدعي ذلك؟! أيها الظالم إن لي شهوداً».

قال بهلول :

«قل لي لو سمحت ما هو الظلم الذي صدر مني؟».

قال أبو حنيفة :

«شدخت رأسي بحجر، وهذا الألم في رأسي لم يكذبك عني» ثم

التفت إلى جملة من تلامذته وقال : أتشهدون بذلك؟».

قالوا : «نعم».

قال بهلول :

«أتدعي الألم في رأسك، أين هو إذن أرنيه؟!».

هزأ أبو حنيفة به وقال :

«وهل يرى الألم لكي أريكه؟!».

قال بهلول :

«إذن ليس للألم وجود، وأنت كاذب في دعواك، لأنك تعتقد أن

الشيء ما لم تمكن من رؤيته فهو غير موجود».

وضع أبو حنيفة يديه على رأسه متحيراً من جواب بهلول وقد التفت

إلى تلامذة أبي حنيفة قائلاً :

«إن الحجر لا يمكن أن يؤذي أستاذكم».

أخذ تلامذة أبي حنيفة ينظرون مبهورين ماذا سيفعل أبو حنيفة، وما سيقول؟! لكن بهلول لم يُعهل أبا حنيفة في الجواب، فقال:

«إن الإنسان من تراب، والحجر من تراب، فكيف يمكن أن يؤدي التراب التراب؟!».

أدرك أبو حنيفة أن بهلول يريد بذلك حرباً في العقيدة شعواء لا هوادة فيها، فأخذت ترتجف جميع أعضاؤه وفرائصه كمن يرتجف من شدة البرد.

سوى بهلول رداءه مرة أخرى وقال لهارون:

«يعتقد أبو حنيفة بأن الإنسان غير مختار في أفعاله، فلا ذنب لي لأنني في نظره غير مختار في ما فعلت».

بُهِت هارون من جواب بهلول ولم ينطق بشيء.

بقي أبو حنيفة وهو يلوم نفسه خجلاً، وقد نكس رأسه إلى الأرض، ولسان حاله، يقول: «أن كل ما نزل بي هو مما جنيته على نفسي».

بهللول وبعض أئمة المذاهب برواية أخرى

حكى أن بهلولاً اجتاز^(١) يوماً على مسجد أبي حنيفة وهو يعظ الناس على المنبر فوقف على باب المسجد فإذا أبو حنيفة يقول: إن جعفر بن محمد يزعم أن أفعالا تصدر منهم بالاختيار وهذا كذب، (والعياذ بالله) لأنه لا فعل في أفعال العباد إلا من الله.

وزعم أيضاً أن الشيطان يعذب في النار، وهذا كذب أيضاً لأنه مخلوق من النار! والجنس لا يعذب بجنسه.

وزعم أيضاً أن الله موجود لا يجوز عليه الرؤية، وهذا أيضاً كذب لأن كل موجود مرئي.

(١) اجتاز: أي عبر ومرت.

فلما سمع بهلول كلامه عمد إلى مَدْرَة^(١) كبيرة فرمى بها رأس أبي حنيفة وشجّه^(٢) في رأسه. وجرى الدم على وجهه فركب بهلول قصبته ومضى مع الأطفال.

فخرج أبو حنيفة وأتى شاكياً إلى الخليفة هارون العباسي فلما حضر سألَه لِمَ فعلت بإمام المسلمين هذا الفعل؟

فقال: سلّه عن هذا أما قال: إن جعفر بن محمد عليه السلام كذب في قوله إن للعبد فعلاً، بل الأفعال كلها من الله، فلذا كان هذا مذهبه فالله سبحانه هو الذي شجّه بهذا المدر فما يكون تقصيري أنا؟ وقال أيضاً: إن الجنس لا يتعذّب بجنسه فهذا أبو حنيفة مخلوق من التراب، وهذا المدر من التراب، فلمَ تعذّب أبو حنيفة به؟ وقال أيضاً: إن كل ما هو موجود مرئي، فسلّه عن هذا الألم الذي حصل له من هذه الشجّة أهو مرئي أم لا؟

فأفحم^(٣) أبا حنيفة ثم مضى بهلول وتركه^(٤).

حواره مع العدوي في فضل أهل البيت عليهم السلام

حكى صاحب المجالس عن الشيخ الأجل المتكلم محمد بن جرير بن رستم الطبري أنه روي في كتابه الإيضاح أن بهلول كان ماراً في بعض أزقة البصرة فرأى جماعة يسرعون في المشي أمامه فقال لرجل منهم: هؤلاء البهائم الشاردون بلا راع إلى أين يذهبون؟! فقال له ذلك الرجل من باب المزاح: يطلبون الماء والكلأ!!

(١) المَدْرَة: الطين العلك الذي لا يخالطه رمل، القطعة من المدر.

(٢) الشجّة: الجراحة التي تكون في الرأس.

(٣) فأفحم: أي أسكته بالحجة في خصرته.

(٤) الأنوار النعمانية: ج ٢ ص ٢٤٥.

فقال له البهلول: كيف ذلك مع قلّة الحمى والمنع الشديد، والله لقد كان العلف كثيراً رخيصاً ولكنهم أحرقوه بالنار، ثم أنشد هذه الأبيات:

برئت إلى الله من ظالم لسبط النبي أبي القاسم
ودنت إلهي بحب الوصي وحب النبي أبي فاطم
وذلك حرز من النائبات ومن كل متهم غاشم
بهم أرتجي الفوز يوم المعاد وأنجو غداً من لظى ضارم
ولما سمعوا كلامه رجعوا إليه، وقالوا له: إنهم ذاهبون إلى مجالس
والي البصرة محمد بن سليمان بن عم هارون.

فقال: لأي شيء تذهبون إليه؟

فقالوا: إن عمرو بن عطاء العدوي من أولاد عمر بن الخطاب، ومن
علماء الزمان حضر مجلسه، ونريد تحقيق حاله ومعرفة مبلغ فضله وكماله،
وإن كنت تذهب معنا لتناظره كان ذلك حسناً!

فقال لهم بهلول: ويلكم؛ مجادلة العاصي توجب زيارة جراته على
العصيان، ويمكن أن توقع أصحاب البصيرة في الشبهة، ولا شك في وجود
الله تعالى، ولا شبهة في الحق ولا إلتباس، فإذا كنتم من أهل المعرفة
تقنعون بما أخذتم من أهل العرفان.

فلما يشسوا منه ذهبوا إلى مجلس محمد بن سليمان، وحكوا له ما
جرى لهم مع بهلول، فأمر غلمان بهحضاره فأحضروه، فلما وصل إلى
قرب دار محمد بن سليمان، قال عمرو بن عطاء العدوي واستأذن محمد بن
سليمان في مناظرة بهلول!

فأذن له.

فلما وصل بهلول إلى الدار قال: السلام على من اتبع الهدى وتجنب
الضلالة والغوى.

فقال عمرو بن عطاء: السلام على المسلمين، اجلس يا بهلول.

فقال بهلول: أتأمروني بشيء لا مدخل لك فيه ولا تتقدم فيه على رجل فضله عليك ظاهر، ومثلك في هذا الباب مثل رجل طفيلي على خوان رجل آخر ويريد أن يمتن على الناس ويعطيهم من هذا الخوان!!
فبقي عمرو بن عطاء مبهوراً لا يحير جواباً!!

فحينئذ قال محمد بن سليمان لعمرو بن عطاء: كنت تريد أن تناظره، وهو في حديث الورود جعلك ساكناً مبهوراً!

فقال بهلول: أيها الأمير هذا الأمر ليس صعباً عند الله تعالى، أما قرأت قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

ثم قال محمد بن سليمان للبهلول: المجلس مجلسي وقد أذنت لك في الجلوس!

فدعا له بهلول فقال: عمّر الله مجلسك، وأسبغ نعمه عليك، وأوضح برهان الحق لديك، وأراك الحق حقاً، وأعانك على اتباعه، وأراك الباطل باطلاً، وأعانك على اجتنابه.

قال عمرو بن عطاء، يا بهلول التزم طريق الحق وابتعد عن الهزل، وتكلم كلاماً حسناً.

فقال بهلول: ويلك! هل يوجد كلام أحسن من هذا الكلام الإلهي؟ وهل يوجد كلام جدي غيره؟ فأنت تكلم كلاماً تقياً، ولا تشر إلى عيوب الناس قبل أن تنظر إلى عيب نفسك!

فقال عمرو بن عطاء: أنت ترى نفسك من مشهوري زمانك، وتدعي الاطلاع على المعارف، فأريد إما أن تسألني أو أسألك؟

فقال بهلول: لا أحب أن أكون سائلاً ولا مسؤولاً!!

فقال العدوي: لماذا؟

قال: لأنني إذا سألتك عن شيء لا تعلمه؟ لا تقدر أن تجيبني عنه، وإذا سألتني بطريق أهل التعنت والعناد؟

فيختلط الحق بالباطل، والذين هم كذلك نهى الله تعالى عن مجالستهم، بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا رَأَيْنَا الَّذِينَ يَحْضُرُونَ فِي مَآئِنَا فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يُغِيثُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الْمُحَاوَرَةِ مَعَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).

فقال العدوي: إن كنت من أهل الإيمان، فقل لي ما هو الإيمان؟

فقال بهلول: قال مولاي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: الإيمان عقد بالقلب، وقول باللسان، وعمل الجوارح والأركان^(٢).

فقال العدوي: تقول إن إمامك الصادق! فتظهر من هذا أنه في زمانه لم يكن صادق غيره؟

فقال بهلول: هو كذلك، ومع ذلك فهذا يجري عليك فإن سمي أبا بكر الصديق، فهل في زمانه لم يكن صديق غيره؟!

فقال العدوي: بلى لم يكن غيره!

قال: كذبت وخالفت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٣) وحديث رسوله صلى الله عليه وآله: «إذا فعلت الخير كنت صديقاً»^(٤).

(١) سورة الأنعام، الآية ٦٨.

(٢) راجع بحار الأنوار، ٤٩، ص ٢٤، ١٣ و ٤٩، ح ٢٢ وج ٧٧، ص ٤٢، ح ١٠٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٦٨.

(٤) روي عن الإمام الباقر عليه السلام عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ما يزال العبد يصدق حتى يكتبه الله صديقاً، وما يزال العبد يكذب حتى يكتبه الله كذاباً. راجع: بحار الأنوار: ج ٧٢، ص ٢٣٥، ح ٢.

فقال العدوي: سموه صديقاً، لأنه أول من صدق النبي ﷺ .

قال: مع أن الأولوية ممنوعة، وتخصيصه بذلك خطأ في اللغة، ومخالفة للآية المذكورة.

فغالطه العدوي وقال: مَنْ إمامك يا بهلول؟

قال: إمامي من سبّح في كفّه الحصى، وكلمه الذئب إذ عوى، وردت له الشمس بين الملا، وأوجب الرسول ﷺ على الخلق له الولاء، فتكاملت فيه الخيرات، وتنزه عن الخلق الدنّيات، فذلك إمامي إمام البريات.

فقال العدو: ويلك! أليس هارون إمامك؟

قال: بل الويل لك! حيث لم تر أمير المؤمنين لهذه المحامد أهلاً، وما أخالك إلا عدواً له تظهر طاعته وتضمّر مخافته، ولئن بلغه مقالك ليؤدّبك.

فضحك عن ذلك العباسي وأمر بإخراج العدوي، وقال لبهلول: «ما الفضل إلا فيك، وما العقل إلا من عندك، والمجنون من سمّاك مجنوناً، أخبرني عليّ أفضل أو أبو بكر؟»

قال: أصلح الله الأمير! إنّ علياً عليه السلام من النبي ﷺ كالشيء من الشيء، والصنو من الصنو، وكالمفصل من الذراع، وأبو بكر ليس فيه ولا يوازنه في فضله إلا مثله، ولكل فاضل فضله.

قال: أخبرني بنو عليّ أحق بالخلافة أم بنو العباس؟

فسكت البهلول.

قال: لمّ سكت؟

قال: ما للمجانين وهذا التحقيق والتمييز! ثم خرج وهو يقول:

إن كنت تهوهم حقاً بلا تعب فالزم حياتك^(١) في جد وفي لعب
إياك من أن يقولوا: عاقل فطن فتبتلي بطويل الكد والنصب
مولاك يعلم ما تطويه من خلق فما يضررك إن سبوك بالكذب
فقال العباسي: لا إله إلا الله! لقد رزق الله علي بن أبي طالب لب كل
ذي لب^(٢).

بهلول وإسحاق بن الصباح

قال الجاحظ في بيانه: ومن مجاني الكوفة بهلول، وكان يتشيع، قال
له إسحاق ابن الصباح: أكثر الله في الشيعة مثلك!
قال: بل أكثر الله في المرجئة مثلي وأكثر في الشيعة مثلك!^(٣)

من كلامه مع جماعة من النواصب

حكى أنه مرَّ بهلول على جماعة يتذكرون الحديث، ويروون عن
عائشة أنها قالت: «لو أدركت ليلة القدر لما سألتُ ربي إلا العفو والعافية».
فقال بهلول: والظفر على علي بن أبي طالب عليه السلام.
يعني أن الظفر على علي بن أبي طالب عليه السلام^(٤)، كان من أعظم
أمنيات عائشة، فكان ينبغي أن تضمه هاهنا إلى العفو والعافية^(٥).

(١) جنونك.

(٢) قاموس الرجال، ج ٢ ص ٢٥٣؛ روضات الجنات، ج ٢ ص ١٥٢ - ١٥٥؛ ربحانة الأدب، ج ٥ ص ٢١٠؛
مجالس المؤمنين، ج ٢ ص ١٥ - ١٩؛ كشكول البحراني، ج ٢ ص ٣٣٢؛ أعيان الشيعة، ج ٣ ص ٤١٨ -
٤١٩.

(٣) قاموس الرجال، ج ٢ ص ٢٥٣؛ البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ج ٢ ص ٢٣٠؛
روضات الجنات، ج ٢ ص ١١٩؛ المحاضرات، ج ١ ص ١٧٩؛ التذكرة الحمدونية، ج ٩ ص ١٥٤.

(٤) في لطايف الطوائف: والظفر على الجمل.

(٥) روضة المؤمنين، ص ١٣٤ عن زهر الربيع؛ أعيان الشيعة، ج ٣ ص ٤١٩؛ كشكول البحراني، ج ٢
ص ٢٣٧؛ مجالس المؤمنين، ج ٢ ص ١١٩؛ التذكرة الحمدونية، ج ٩ ص ١٥١.

من الصادق المتواضع إلى الكاذب المتجبر!

قال سالم بن عطية: كتب بهلول إلى ابن أبي داود^(١).

أما بعد: فإنك قد ميّزت كلام الله من الله، وزعمت أنه مخلوق، فإن يك ما ذكرت باطلاً رماك الله بقارعة من عنده، ويلك أكنت معه حين كلم موسى؟ فإن راداً عليه فاقراً: ﴿رَمَقَهَا قَرَّةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾^(٢).

ثم ذيل كتابه بقوله: من الصادق المتواضع إلى الكاذب المتجبر!^(٣).

من بهلول إلى رئيس الشرطة!

قال عبد الرحمن الهاشمي: لما ولي الخلمي على شرطة بغداد، وكان يرى برأي ابن أبي داود^(٤).

كتب إليه بهلول:

«أما بعد، فإن السماء بأكتافها^(٥) ونور كواكبها وضياء شمسها وقمرها وصفوف ملائكتها والعرش والملائكة المقربين، والحجب^(٦) المزدلفة بقدرة خالقها، والنار وزبانيته، والجنة وسُنْدُسها^(٧)، والأرضين وجبالها، والجبال وكهوفها، والحيتان في بحارها، والوحش في قفارها، والجن في أقطارها، والطير في أوكارها، والسباع في أوجارها والأشجار وثمارها يسبحون له في الغدو^(٨) والأصا^(٩)».

(١) في المصدر: «ابن أبي داود»، والصحيح ما ذكرنا.

(٢) سورة عبس، الآيتان ٤١ - ٤٢.

(٣) عقلاء المجانين، ص ١٠٧؛ مواقف الشيعة، ج ٣ ص ٢١٤.

(٤) في المصدر: (ابن أبي داود).

(٥) أكتافها: جمع كتف، وهو الجانب.

(٦) كذا في المصدر.

(٧) السُنْدُس: نسج الديباج أو الحرير.

(٨) الغدو: أول النهار، والأصا: جمع أصيل وهو الوقت قبيل غروب الشمس.

(٩) عقلاء المجانين، ص ١٠٨؛ مواقف الشيعة، ج ٣ ص ٢١٤ - ٢١٧.

بهلول يكتب إلى الواثق!

قال نعيم الخشاب: كتب بهلول إلى الواثق^(١).

أما بعد: فإن المراء قد لعب بدينك، والأهواء قد أحاطت بك، ومقالات أهل البدع قد سلخت عنك عقلك.

وابن أبي داود المشؤوم قد بدل عليك كلام ربك. اقرأ: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاتَّخَذَ نَعْيُكَ إِلَهًا بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لَنَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾^(٢).

أ يكون هذا الكلام مخلوقاً؟

فرماك الله بحجارة من سجيل مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد.. ثم ذيل كتابه بقوله: من الخائف الذليل إلى المخالف لكلام الله تعالى^(٣).

قال السيد محسن الأمين رحمه الله في أعيان الشيعة ج ٣ ص ٦٢٢، وأنا أظن أن هذه الكتب موضوعة عليه.

أولاً لأن الواثق ببيع بالخلافة سنة ٢٢٨، وتوفي سنة ٢٣٢، وبهلول توفي سنة ١٩٠ وكان في عصر هارون كما مر.

ثانياً: أنه لم يكن يكتب إلى الواثق - وهو الخليفة - بأنه مخالف لكلام ربه تعالى وقد مرّ توقيه من الكلام على التفضيل بين العلويين والعباسيين، ولم يكن يكتب إلى القاضي ابن أبي داود ويصفه بالكاذب المتجبر وهو قاضي قضاة الواثق.

(١) الواثق بالله: هارون بن محمد المعتصم، تاسع خلفاء بني العباس (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧ م) ولد في بغداد سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ومات بسامراء، شغل بالاختلافات الكلامية.

(٢) سورة طه، الآيات ١٢ - ١٤.

(٣) عقلاء المجانين، ص ١٠٨.

العمل لوجه الله تعالى

مرّ بهلول يوماً بمسجد - لم يتم بناؤه بعد - في محلة من محالّ بغداد ليطلع على بنائه، فلما رأى المسجد لم يكتثر بشكل بنائه وزخرفة جدرانه وسقفه وقبته، وكأن كان يخبئ شيئاً في نفسه، ثم إنه نظر من خارج المسجد إلى لوحة خشبية كبيرة معلقة على جدار المسجد مكتوب عليها: مسجد الشيخ جمال.

والشيخ جمال هذا، رجل يحب الشهرة ويحب أن يطلع الناس على أفعال البر التي كان يقوم بها، وكان بهلول يعرف ذلك تماماً.

غرق بهلول في تفكيره بالمسجد ولوحته وإذا به قد أحس بشغل يد على كتفه، فلما التفت إلى خلفه رأى الشيخ جمال وهو مبتسم، وقد حدّق النظر إليه، ابتدره بهلول قائلاً: «السلام عليكم».

رفع الشيخ جمال يده عن عاتق بهلول وأجابه بتلك الابتسامة: «وعليكم السلام».

قال بهلول: «إنه مسجد كبير وحسن البناء».

خطا الشيخ جمال خطوة إلى الإمام وسأير بهلولاً، ثم قال: «سأل الله القبول».

قال بهلول - وكان شيئاً قد لفت نظره - : «أريد أن أسألك عن شيء إلا أنني لا أدري أسألك عن ذلك أم لا؟».

قال الشيخ: «لا بأس عليك، سل فإنني أرجو أن أملك لسؤالك جواباً مقنعاً».

حرك بهلول رأسه وقال: «طبعاً، هو كذلك»، إلا أنه بعد ذلك مكث قليلاً ثم قال: «لمن بنيت هذا المسجد؟».

لم يكن الشيخ جمال يتوقع مثل هذا السؤال، ومكث يفكر قليلاً فخطر على ذهنه أن بهلولاً رجل مجنون، ولا ينبغي العجب من المجنون أن يسأل مثل هذا السؤال، فأجابه قائلاً: «وهل يكون بناء المسجد لغير الله؟!». .

قال البهلول: «نعم، نعم الأمر كما تقول، لن يدع الله عملك بلا أجر، إنه لن ينسى أجر ذلك أبداً».

لم يتكلم الشيخ جمال بعد ذلك بشيء لأنه لا يفهم ماذا يريد بهلول منه بالضبط، لذا أخذ يخطو خطوات قصيرة لكن متواصلة حتى ابتعد عن بهلول.

وفي صباح الغد علا صوت الشيخ جمال بالصياح أمام المسجد الذي بناه بحيث يسمعه كل من يمر بالمسجد، وهو يقول: «أيها الناس، اشهدوا على ما قام به بهلول، إنه يدعي تملك هذا المسجد.. أيها الناس..».

وكان الحق في ذلك مع الشيخ جمال، فإن اللوحة الخشبية مكتوب عليها «مسجد بهلول» لذا أصاب الشيخ جمال الدوار في رأسه من شدة الصدمة، ويُنحّ صوته من كثرة الصياح، ذلك أنه لم يخطر على باله يوماً أن شخصاً مثل بهلول يأتي ويكتب اسمه على لوحة المسجد الذي بناه الشيخ، فكيف تجرأ بهلول على مثل هذا العمل؟ لكن مع ذلك، فقد كان الشيخ يخبئ لهيب غضبه، ويهدئ نفسه بما يخطر على باله أن بهلولاً رجل مجنون، لكن سرعان ما يجيب به نفسه، فيقول: «إن للمجنون حداً، أليس يعلم الناس من بنى المسجد، فقد سمعنا بكل ما يصدر عن المجانين إلا مثل هذه الأعمال، آه.. إنه يريد أن يكون المسجد باسمه لكنني سوف أعطيه درساً لن يجراً بعده على مثل ذلك أبداً.. سوف أريق ماء وجهه أمام الناس».

اجتمع عمال بناء المسجد حول الشيخ جمال ليستمعوا ما يقول، وإذا به صاح فجأة بصوت عالٍ وغضب: «هلموا بنا لنبحث عن بهلول كي نعطيه درساً لا يتجاسر بعده على حقوق الآخرين».

ذهب هو مسرعاً وتبعه بعض عمال البناء الذين كانوا يتحينون الفرص للهروب من العمل، قائلين للشيخ: «نحن نأتي معك يا شيخ للبحث عن بهلول».

توجه كل منهم إلى جهة، فلم يستغرق البحث عن بهلول أكثر من ساعة حتى عثروا عليه، فجاؤوا به إلى المسجد، وكان يسبقهم في ذلك الشيخ جمال الذي استولى عليه الغضب، فلما واجه الشيخ بهلولاً وجهاً لوجه - وقد كادت عينان تخرجان من الحدقتين - صاح بصوت عالٍ: «أيها المعجون، ما حملك على ما فعلت؟».

نظر بهلول إلى من حوله، وقال بسكينة: «وما فعلت؟».

حدق الشيخ جمال بوجه بهلول، وقال: «إنك لن تجرأ على الاعتراف بذنبك أمام الملاء، أليس كذلك؟».

أجابه بهلول وكأنه لا يعلم شيئاً: «وهل أذنبت؟ وما هو ذنبي؟».

تضاحك الشيخ جمال والغضب قد استولى عليه، فأشار بيده إلى لوحة المسجد، وقال: «هل يجراً غيرك أن يكتب اسمه على لوحة مسجد بناء غيره؟».

ألقي بهلول ببصره إلى لوحة المسجد ثم صرف بصره وكان لم ير شيئاً ذي بال، وقال بهدوء: «إن كنت تريد بذلك هذا - وأشار إلى اللوحة - فلإني فعلته».

أخذ غضب الشيخ يزداد لحظة بعد أخرى حتى صاح ببهلول: «هل أنت بنيت المسجد لتكتب اسمك عليه؟».

رفع بهلول رأسه - مرة أخرى - إلى لوحة المسجد وأجاب: «إني لم أبين هذا المسجد، لكنني كتبت اسمي عليه».

أمسك الشيخ جمال بهلولاً من تلايبيه والتفت إلى الحاضرين، وقال: «انظروا، إنه يعترف بذنبه، إنه اعترف».

ارتفع صوت الحاضرين بالكلام، فكل منهم تراه يقول شيئاً لكن بهلول لم يرعوي لكلامهم، وأشار إليهم بيده أن اسكتوا، فسكتوا وسكت الشيخ جمال، وتجددت لبهلول الجرأة على رد الشيخ وقال: «أيها الشيخ، أسألك عن شيء أحب أن تصدقني فيه».

قال الشيخ: «ولماذا الكذب؟».

قال بهلول: «بالأمر التقيت بك في هذا المكان وتكلمنا قليلاً، ثم سألتك: لمن بنيت هذا المسجد؟ قلت: أريد به وجه الله تعالى».

قال الشيخ جمال: «واضح وجه من أريد ببنائه، فقد قلت بالأمر واليوم أكرر وأقول: إني أردت بذلك وجه الله».

تبسم بهلول وقال بصوت عالٍ: «تقول لله! فهل الله يعلم بأنك أردت وجهه أم لا؟».

أجابه الشيخ بغضب: «مع أنني لا أرغب في إطالة الكلام معك، أقول: نعم، إن الله يعلم بذلك، كي لا تكون لك الحجة عليّ عند القاضي».

سكت بهلول هتة ليلفت بذلك الأنظار إليه، ثم قال: «أيها الشيخ، إن كنت قد بنيت هذا المسجد لله فلا ضير عليك أن يكون باسمك أو باسم غيرك، لكن اعلم أنك قد أردت بذلك وجه غير الله، نعم أردت به الشهرة، فقد أحبطت بذلك أجرك».

كان كلام بهلول يحمل في طياته حقيقة مرّة أيقظت الشيخ جمال من نوم الغفلة، فماذا عليه بعد أن يقول؟

لقد ألجم بهلول الشيخ بذلك فأسكته، واستحسن الحاضرون جواب بهلول، ولم يتكلم أحد بعده بشيء.

قال بهلول - وهو يمشي مشياً تقاربت خطاه - للشيخ جمال: «أريد أن أرفع اللوحة التي تحمل اسمي من على المسجد».

أراد الشيخ أن يقول شيئاً لكن الكلمات تلكأت على شفثيه فسكت.

خطأ بهلول خطوات نحو اللوحة لكنه رجع والتفت إلى الحاضرين قائلاً: «أردت بذلك الكشف عن الحقيقة، وهي أن تعلموا أن العمل إن كان لوجه الله تعالى فلا يضركم ما يكون رأي الناس فيه ما دام الله هو المطلع على حقائق الأمور».

ثم انصرف ليرفع اللوحة التي كتب عليها اسمه.

مناظرته مع بعض المخالفين

في الأثر: أن رجلاً من علماء المخالفين قال يوماً لبهلول: إنه ورد في الحديث الصحيح أن يوم القيامة توضع أعمال أبي بكر وعمر في كفة من الميزان، وأعمال سائر الخلائق في كفة أخرى، فترجح أعمال الشيخين على أعمال الخلائق!

فقال بهلول: إن كان هذا الحديث صحيحاً فالعيب في الميزان^(١).

(١) روضة المؤمنين، ص ١٤٣؛ عن زهر الربيع ص ٢٥٠؛ روضات الجنات، ج ٢ ص ١٥٢؛ ربحانة الأدب، ج ٥ ص ٢١٢؛ أعيان الشيعة، ج ٣ ص ٤١٩؛ مجالس المؤمنين، ج ٢ ص ١١٩؛ كشكول البحراني، ج ٢ ص ٣٣٨؛ شجرة طوبى، المجلس العشرون.

مناظرة أخرى مع بعضهم

قيل لبهلول المجنون: أتشتم فاطمة وتأخذ درهماً؟

قال: لا بل آخذ دانقاً وأشتم معاوية^(١).

(١) البيان والتبيين، ج ٢ ص ٢٢٨، محاضرات الراغب، ج ٢ ص ٤٨١ (بل آخذ دانقاً وأشتم معاوية)؛ البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (م ٤١٤هـ) ج ٢ ص ٨٠؛ العقد الفريد، ج ٧ ص ١٤٤.



الفصل الثالث عشر

أخباره مع هارون
وبعض الأمراء والقضاة





مواجهة الاستهزاء بالمثل

١ - دعاه هارون ليضحك منه، فلما دخل دعا له بمائدة فقدّم عليها خبزٌ وحده، فولى بهلول هارباً.

فقال له: إلى أين؟

فقال: أجيئكم يوم الأضحى فعسى أن يكون عند لحم^(١).

٢ - ويُروى أن بهلول مرّ به هارون، فقام وناداه ووعظه، فأمر له بال.

فقال: ما كنت لأسود وجه الموعظة^(٢).

وقال هارون لبهلول: عظني وأوجز.

فقال: يا أمير المؤمنين، لو دامت الدنيا لمن قبلك لما وصلت إليك^(٣).

احتجاجاته مع هارون

١ - حكى أنه قال هارون لبهلول: أتحب أن تكون خليفة؟

(١) التذكرة الحمدونية، ج ٩ ص ٤٥٤.

(٢) تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات، ١٨١ - ١٩٠ ص ٨٩.

(٣) المخلات: ص ٥٨٠.

قال: لا، وذلك أنني رأيت موت ثلاثة خلفاء، ولم يرَ الخليفة موت بهلولين^(١).

٢ - سأله هارون أيضاً: أبو بكر وعمر خير أم عليّ عليه السلام؟

فقال: واحد بإزاء الإثنين لا يجوز، ولكن عليّ والعباسُ خيرٌ من أبي بكر وعمر^(٢).

٣ - ودخل بهلول على هارون وعنده عليان، فكلّمهما فأغلظا له في القول وأمر بالنطع والسيف.

فقال عليان: كنا مجنونين فصرنا ثلاثة. فضحك هارون وعفا عنهما^(٣).

العروج إلى السماء

كان هارون كثير المزاح مع بهلول، وأيضاً كان من يحضر في القصر من القادة وغيرهم يمزحون مع بهلول.

حاول بعض الحاضرين يوماً فتح باب المزاح مع بهلول فقال: «هل تعلم ماذا فعلت؟».

قال بهلول: «عمّ يتحدث حضرتكم؟».

قال الرجل: «تشبهت بالمجانين وأخذت تجول الأسواق والطرق حافي القدمين، فقد جعلت نفسك بذلك سخرية الناس».

قال بهلول من دون امتعاض: «تفضلوا إن أمكنكم عزّفوا لي نفسكم».

(١) زهر الربيع، ج ٢ ص ٢٢٤.

(٢) التذكرة الحمدونية، ج ٧ ص ٢٣٩ نثر الدرر، ج ٣ ص ٢٧٤.

(٣) غرر الخصاص الواضحة، ٧٩.

قال الرجل: «من العجيب أنك لا تعرفني، ألم تعلم أنني من المقربين في دولة هارون؟».

تبسم بهلول وقال: «إن كان لك مقام عند هارون فهل لك مثل ذلك المقام عند الله تعالى؟».

قال الرجل - وقد وجد بذلك فرصة التعريف بنفسه - : «لي عند الله درجة من القرب والمنزلة بحيث صرت أعرج إلى السماوات وبعد مدة من السير فيها أنزل إلى الأرض».

قال بهلول: «هل ضرب وجهك شيء ناعم عند عروجك إلى السماء؟».

قال الرجل بتأمل: «نعم، ضرب وجهي ما تصف كراأ».

وبعد هنيئة قال الرجل: «أعتقد أن الذي ضرب بوجهي جناح الملائكة؟».

قال بهلول: «أقسم بنفسك الشريفة أن الذي ضرب وجهك هو ذيل حماري».

ضحك الحاضرون من الرجل وحسنوا عقل بهلول وفطنته.

العبور على الصراط

كان بهلول في بعض الأوقات يذهب إلى المقبرة ويجلس على القبور، ثم يقرأ الفاتحة للأموات سواء كان يعرفهم أو لا.

وذات يوم وعلى عادته كان قاصداً مقبرة المسلمين فصادفه في الطريق هارون وهو يريد الذهاب إلى الصيد، فلما رآه هارون سأله قائلاً: «ماذا تفعل هنا يا بهلول؟».

أجابه بهلول وكان جالساً على قبر من القبور: «جئت أناساً لا يفتابون أحداً ولا يرجون نمي شيئاً ولا يؤذونني».

نزل هارون من فرسه وأمر يديه على أذني فرسه ثم خطا نحو بهلول وقال: «أريد أن أسألك عن شيء».

قال بهلول: «إن كنت أعلم جواب مسألتك أجبتك».

وقف هارون على القبر الذي كان بهلول جالس عنده وقال: «أخبرني عن الصراط وأخبار الآخرة».

نهض بهلول من على القبر ووقف إلى جانب هارون - وكان مطرقاً إلى الأرض - ثم قال لهارون: «قل لهؤلاء أن يوقدوا ناراً هنا».

أمر هارون من حوله ليذهب في طلب الحطب، فلما أحضرت النار قال بهلول لهارون أن يأمر له بطشت فيضعوه على النار، فلما نفذوا أمر هارون واشتدت حرارة الطشت قال لهارون: «يا هارون سوف أقف على هذا الطشت ثم أعرف نفسي وما أكلت وما لبست، فإن أتممت كلامي تقف أنت أيضاً وتفعل مثل ذلك».

قال هارون - وهو لا يعرف ما يعني بهلول - مستعجباً: «هل بإمكانك أن تذكر لي ما فائدة ذلك؟».

قال بهلول: «سألت فاسمع مني الجواب وافعل ما أمرك به».

كان هارون يخشى الوقوف داخل الطشت فحاول صرف بهلول عما ينويه، فقال بهلول: «عليك أن تفعل ذلك أنت أولاً».

كان يُشم من كلام هارون رائحة الخوف الممزوج بالتهديد، لكن ذلك لم يكن ليثنى بهلولاً عن عزمته فقال: «نعم، أفعل ذلك أنا أولاً» ثم ذهب إلى الطشت فوقف في وسطه، وقال: «أنا بهلول، طعامي التمر وخبز

الشعير والخل، ولباس من الصوف» فلما أتم بهلول كلامه خرج وليس في قدميه آثار الحروق.

والآن أيها الأصدقاء الأعزاء وصلت النبوة لهارون، تقدم هارون وقد أمسكوا به من تحت إبطيه ليخلع نعليه، وكان من حوله ينظر إليه نظر المشفق، فقد تقدم وهو يلفظ أنفاسه بسرعة والعرق يتصبب من جبينه، وأخيراً خلع نعليه ودخل الطشت على عجل، فلم تكن له طاقة الوقوف أكثر من لحظة قال فيها: «أنا هارون...» ثم قفز بسرعة.

لم يجراً مَنْ كان حول هارون على الضحك من هارون وحاولوا أن يمسكوا أمام أفواههم.

لم يكن يستطيع هارون الوقوف على قدميه أمام حاشيته، فأخذ ينظر إلى من حوله وقال لبهلول بغضب: «قل لي الآن ماذا أردت من ذلك؟».

تبسم بهلول وقال: «اعلم أن يوم القيامة بهذا النحو، فإن الذين لا يملكون في الدنيا مالاً ولا ذهباً يعبرون الصراط آمنين، وأما من كان متعلقاً بالدنيا وزبرجها فليس له قدرة العبور على الصراط، فإن من كان كذلك يسقط في جهنم في اللحظة الأولى من وقوفه على الصراط».

السفك والخليفة

تغيرت أجواء قصر الخليفة يوم العيد حيث الخوان^(١) الكثيرة والأطعمة المتعددة والشراب المتنوع.

كان كل من يدخل القصر ذلك اليوم يأكل ويشرب ويقضي وطراً بالفرح والسرور، وكان الخليفة في تلك الأيام - أيام العيد - غارقاً في

(١) المائدة التي يوضع عليها الطعام.

غروره وتكبره، وهو يعطي ويهب الصلّات والأموال الكثيرة لمن يحب ويريد.

كان هارون جالساً على عرشه وإلى جانبه زوجته زبيدة، وهي جالسة أيضاً على كرسي مرصع بالجواهر، وهما يلعبان الشطرنج، وإلى أسفل منها الجوّان والموائد التي ملئت وغاصت بالأطعمة والأشربة الكثيرة والمتنوعة، وكان جميع من حضر المجلس في فرح وسرور.

وقد حفّ المجلس خدمكثيرون وفي أيديهم موائد الطعام، حتى إذا خلت إحدى تلك الموائد وضعوا أخرى مكانها.

دخل بهلول يوم العيد قصر الخليفة، فطلب هارون منه الجلوس على مائدة الطعام لكنه رفض وجلس ناحية من المجلس، وفي تلك الأثناء دخل البواب فقال: «يا أمير المؤمنين، في الباب سمّاك يطلب إذن الدخول عليك».

أجابه هارون وهو ينظر إلى طاولة الشطرنج: «ماذا يفعل السمّاك هنا وما يريد منا؟ فإنه لا بد أن يكون الآن على نهر دجلة».

قال البواب: إنه جاءكم بسمكٍ سمينٍ ويريد أن يصل إلى خدمتكم بنفسه».

أجاز هارون للسمّاك الدخول، لأن ذلك اليوم كان عيداً ويدخل فيه الناس على الخليفة يهتثونه به.

فلما دخل السمّاك وقدم ما جاء به من سمك إلى هارون، تعجّب هارون كثيراً فإنه لم يكن يرى قبل ذلك اليوم مثل ذلك السمك في حجمه.

عظّم السمّاك هارون وهو ينتظر الأجر على ذلك لينصرف، فأمر هارون للسمّاك بأربعة آلاف درهم أجراً على ذلك السمك.

اعترضت زبيدة على المبلغ الذي أعطاه زوجها هارون للسمك وقالت: «ألا تعتقد أن ما أعطيته السمك كان أكثر مما يستحقه؟».

نظر هارون إلى زبيدة وقال: «لماذا تعترضين على عطائنا؟!».

أجابته زبيدة: «إن هذه الأيام أيام عيد يأتي فيها الوجوه والأعيان والقادة وأعضاء الدولة، وهم يرجون منك الصلوات والعطاء، وهأنت قد أعطيت لهذا السمك مثل هذا المبلغ، فإنك لن تستطيع أن تعطي أحدهم أقل مما أعطيت السمك، وإلا قالوا: لم يُقم أمير المؤمنين لنا وزناً، بل لسنا عنده بمنزلة السمك».

ألهمي هارون نفسه بالشطرنج وذهنه مشغول بما قالت زبيدة، ولما عرفت زبيدة أن لكلامها وقع في نفس هارون، عاودت الكلام فقالت: «إن الأمير يعلم جيداً أنه لو أراد العطاء بمثل هذا المبلغ لم يبقَ في الخزينة شيء».

بقي هارون أسير فعله وهو لا يعلم ما يفعل، قال: «وكيف أستطيع أن أسترده ما وهبته، فإنك تعلمين أن ذلك يضّرّ بسمعتي».

فكرت زبيدة قليلاً ثم قالت: «إن سمح لي أمير المؤمنين أن أفصح بما يختلج في ذهني ونفسي أفصحت به».

فأجابها قائلاً: «قولي، فإني أحب أن أسمع ما تقترحيه».

قالت: «ادعو السمك واسأله: أذكر سمك أم أنثى».

قال هارون: «فإن أجاب بأنه ذكر أو أنثى ما ينفعنا ذلك؟».

قالت: «إن قال: ذكر هو، قل أنا لا أحب الذكور من السمك، وإن

قال: أنثى، قل لا أحب الإناث من الأسماك، ثم استرجع ما وهبته إياه بهذه الذريعة».

كان بهلول قريباً من الخليفة وزوجته وقد سمع حوارهما، فقال: «أيها الأمير، اترك السمك وشأنه، ولا يخدعك هذا الكلام».

لم يعتنِ هارون لكلام بهلول، لأنه كان يحترم زبيدة زوجته كثيراً، فأمر بإحضار السمك.

رجع السمك فرحاً إلى داره وقد علّق على ما أخذه من الدراهم الآمال الطويلة العريضة، وأنها ماذا يفعل بها، وإذا به كذلك حتى نودي من خلفه: أن ارجع إلى القصر فإن الأمير أمر بإحضارك.

نعم أيها الأصدقاء، حضر السمك بين يدي الخليفة، فسأله بما اقترحته عليه زبيدة، فقال: «هل السمك الذي اصطدته من الذكور أم من الإناث؟».

تبسم السمك - وهو مبهور لما سمع - إذ ماذا يمكن أن يقول، وهل يمكن أن يعرف أحد ذكور السمك من إناثه؟

اقترب في هذه اللحظات بهلول من السمك وهمس إليه بكلمات لم يسمعها أحد غير السمك ثم انصرف عنه وقال: «إن هذا السمك لا من الذكور ولا من الإناث، إنه من الخنثى».

تعجب هارون من جواب السمك وبقي مبهوراً لما أعجبه من ذكاء السمك، فأراد أن ينتهز الفرصة في امتهان زوجته، فقال للسمك: «أحسنت.. أحسنت بما أجبت» ثم أمر له بأربعة آلاف درهم أخرى.

طلب السمك الإذن بالانصراف، فأذن له الرشيد بالانصراف ثم نظر إلى زبيدة نظرة ازدراء وسخرية.

كان صرّتا الدراهم في يد السمك، وكان قد همّ بالخروج فإذا بدرهم منها سقط على الأرض، انحنى السمك ليأخذه من الأرض، فرأته زبيدة

وقالت لزوجها: «انظر جشع هذا السمّاك، بيده ثمانية آلاف درهم ومع ذلك لا يتمكن من التجاوز عن درهم واحد منها» أمر هارون بإحضار السمّاك مرة أخرى ليأخذ ما في يده من الدراهم لأجل ذلك.

قال بهلول لهارون: «اتركه وشأنه»، فلم يُعر لكلام بهلول أهمية وتغافل عنه كأنه لم يسمع شيئاً. وأمر بإحضار السمّاك، فلما رجع السمّاك قال له هارون بغضب: «بيدك ثمانية آلاف درهم فإذا سقط واحد منها انحنيت لتأخذه».

أدرك السمّاك بأن هارون يريد استرجاع ما وهبه إياه بأي حجة، فانحنى أدباً ثم قال: «إنني أريد تقدير الأمير لأن على أحد وجهي هذا الدرهم آيات من الكتاب العزيز وعلى الوجه الآخر منه اسم أمير المؤمنين، فإن تركته داسته الأقدام وكان في ذلك إهانة لكتاب الله ولاسم أمير المؤمنين».

أعجب هارون كلام السمّاك فأمر له بأربعة آلاف أخرى، ثم نهض من كرسيه وسوى ظهره، ثم قال لبهلول: «يقول الناس بأنك مجنون، لكنني أشد جنوناً منك، فقد نصحتني بترك ما فعلت مع السمّاك فلم أقبل منك، وأخذت بكلام هذه المرأة».

محاورته لبعض الخلفاء

١ - وحكي أن بعض الخلفاء قال لبهلول: أتريد أن أحيل أمر معاشك إلى الخزانة حتى لا تكون في تعب منه طول حياتك.

فقال: أرضى به ما إن خلى من معائب:

أولها: أنك لا تدري إلى مَ احتاج حتى تهينه لي.

ثانيها: أنك لا تدري متى احتاج حتى لا تتجاوزته.

ثالثها: إنك لا تدري مقدار حاجتي حتى لا تزيد عنه، ولا تنقص فتبليني، والله الذي ضمن رزقي يدري جميع هذه الثلاثة مني، مع أنك ربما غضبت عليّ فحرمتمني، والله سبحانه وتعالى لا يمنعني فضله ورزقه، وإن كنت عاصياً له بجميع أعضائي وجوارحي^(١).

٢ - بعث هارون إلى بهلول، فأحضره، وأجلسه في صحن الدار، وأم جعفر تراه من حيث لا يراها، وعيسى بن جعفر جالس.

فقال هارون: يا بهلول عدّ لنا المجانين.

فقال: أولهم أنا.

قال: هبه.

قال: وهذه وأشار إلى موضع أم جعفر.

فقال له عيسى: ابن اللخناء تقول هذا لأختي؟

فقال بهلول: وأنت الثالث يا صاحب العريضة!

فقال هارون: أخرجوه.

قال: وأنت الرابع^(٢).

من قصصه الطريفة

دخل ذات مرة على هارون وهو يتنزه في بعض عماراته الجديدة، فسأله أن يكتب شيئاً عليها.

فأخذ بهلول فحمة وكتب بها على بعض الجدران:

(١) روضات الجنات، ج ٢ ص ١٥٤.

(٢) محاضرات الأدباء، ج ٤ ص ١٧٢؛ غرر الخصاص الواضحة، ج ١ ص ١٧٨ روضات الجنات، ج ٢ ص ١٤٩.

رفعت الطين، ووضعت الدين، رفعت الجص، ووضعت النص، فإن كان من مالك فقد أسرفت، والله لا يحب المرففين، وإن كان من مال غيرك، فقد ظلمت، والله لا يحب الظالمين^(١).

وقد حكى: أن هارون الرشيد أرسل بشوطة طعاماً إلى بهلول.

فقال: من أين هذا؟

فقال: من هارون.

فقال: لا حاجة بي إلى طعامه.

فقال: لِمَ؟

فقال: مهلاً مهلاً^(٢). لو فهمت كلاب الهراش^(٣). لذلك لما أكلته^(٤).

أترى الله يُعطيك وَيَنساني؟

قال علي بن ربيعة الكندي: خرج الرشيد إلى الحج، فلما كان بظاهر الكوفة إذ أبصر بهلولاً المجنون على قصبة^(٥). وخلفه الصبيان، وهو يعدو، فقال: من هذا؟

قالوا: بهلول المجنون.

قال: كنت أشتهي أن أراه، فادعوه من غير ترويع فذهبوا إليه^(٦).

(١) روضات الجنات، ج ٢ ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) تمهل في فعله: تناوله برفق ولم يعجل.

(٣) تقاتل الكلاب.

(٤) تفسير البصائر، ج ٣١ ص ٢٤٤.

(٥) عود من القاب الفارسي يتخذ الأطفال حصاناً يركب، حيث يضعونه بين أرجلهم ويمسكون بطرف منه ويجرون.

(٦) من غير تخويف ولا إقزاع له.

فقالوا له: أجب أمير المؤمنين. فعدا على قصبته، فذهب إليه هارون.

فقال هارون: السلام عليك يا بهلول.

فقال: وعليك السلام يا أمير المؤمنين.

قال: كنت إليك بالأشواق.

قال: لكنني لم أشتق إليك.

قال: عظني يا بهلول!

قال: وبِمِ أعظك! هذه قصورهم، وهذه قبورهم!

قال: زدني فقد أحسنت.

قال: «يا أمير المؤمنين، من رزقه الله مالاً وجمالاً، فغف في جماله،

وآسى في ماله»^(١). كُتب في ديوان الأبرار، فظن الرشيد أنه يريد شيئاً.

فقال: قد أمرنا لك أن يُقضى دينك.

قال: لا يا أمير المؤمنين، لا يُقضى الدينُ بدينٍ!! أرؤد الحق على

أهله، واقض دين نفسك من نفسك.

قال: فإننا قد أمرنا أن يُجرى عليك^(٢).

فقال: يا أمير المؤمنين، أترى الله يعطيك وينساني؟ ثم ولّى هارباً^(٣).

وروي بإسناد آخر أنه قال لهارون:

يا أمير المؤمنين! فكيف لو أقامك الله بين يديه، فسألك عن النكير

والفتيل والقطمير^(٤)، قال: فخنته العبرة.

(١) وآسى البائس الفقير، وأخذ بيد الضعفاء، وأنساهم آلامهم وخفف عنهم متاعهم.

(٢) يُجرى عليك: يُخصص لك رزق ثابت ومعاش دائم.

(٣) عقلاء المجانين ١٠١ قصص العرب، ج ٤ ص ٤٢٤.

(٤) النكير والفتيل والقطمير: نجدها في نواة البلع. فالنكير: النقرة في ظهر النواة. والفتيل: ما يكون في شق النواة. والقطمير: القشرة الرقيقة. والمراد: إن الله سوف يسأله حتى عن الصخير من أعماله.

فقال الحاجب: حسبك يا بهلول، فقد أوجعت أمير المؤمنين.

فقال هارون: دعه.

فقال بهلول: إنما أفسده أنت وأضرابك.

فقال هارون: أريد أن أصلك بصلة.

فقال بهلول: رذها على من أخذت منه.

فقال الرشيد: فحاجة^(١).

قال: ألا تراني ولا أراك!

ثم قال: يا أمير المؤمنين! حدثنا أيمن بن نائل، عن قدامة بن عبد الله الكلابي، قال: رأيت رسول الله ﷺ يرمي جمرة العقبة على ناقه له صهباء^(٢). لا ضَرْبَ ولا طَرْذَ ولا إليك^(٣).

ثم ولّى بقصبته وأنشأ يقول:

فعدك^(٤) قد ملأت الأرض طُرّاً ودان لك العبادُ فكان ماذا؟
ألسنٌ تموت في قبرٍ ويحوي تراكبك بعد هذا، ثم ماذا؟^(٥)

من أنا؟

روي أنه لما انصرف هارون من الحج لقيه بهلول في الطريق، فناده ثلاثاً بأعلى صوته: يا هارون!

(١) أي أقضي حاجة.

(٢) الأصهب: ذوي اللون الأصفر الغارب إلى شيء من الحمرة والبياض، وهي صهباء.

(٣) لا ضرب ولا طرد كما يحدث في موكب هارون، ولا يقال لأحد: إليك عني: أي ابتعد! فلا يُصرف عنه أحد.

(٤) عُدك: افترض أحسن أن.

(٥) عقلاء المجانين، ص ١٠١ - ١٠٢ راجع أيضاً: روض الرياحين في حكايات الصالحين: نزهة الميرون، ص ٤٣ - ٤٤.

فقال: من هذا؟

قيل: بهلول المجنون.

فقال: قيل هارون، من أنا؟

قال له: أنت الذي لو ظلم أحد في المشرق وأنت في المغرب سألك الله عن ذلك يوم القيامة.

فبكى هارون وقال: ما لك من حاجة؟

فقال: إن تغفر لي ذنوبي وتدخلي الجنة.

فقال هارون: ليس هذا بيدي ولكن أقضي دينك.

قال: الدين لا يقضى بالدين أذ أموال الناس إليهم.

قال: نأمر لك برزق يأتي إليك إلى أن تموت.

قال: نحن عبدان لله، أذكرك وينساني؟^(١).

الحب بالنسيئة لا يكون!

قال هارون لبهلول: من أحب الناس إليك؟

قال: من أشبع بطني.

قال: فأنا أشبع بطنك فأجيني.

قال: الحب لا يكون نسيئة^(٢).

وعظه لهارون

قيل: إن بهلول أتى يوماً إلى قصر هارون، فرأى المسند والمتكأ الذي

(١) زهر الربيع، ص ٣٩٣ شجرة طوبى، المجلس العشرون.

(٢) محاضرات الأدباء، ج ٤ ص ٧٢٠ غرر الخصائص الواضحة، ص ٧٨، التذكرة الحمدونية، ج ٧ ص ٢٣٩.

هو مكان هارون، فجلس في مكانه لحظة، فرآه الخدمة الخاصة فضربوه وسحبوه عن مكان الخليفة.

فلما خرج هارون من داخل قصره رأى بهلول جالساً يبكي، فسأل الخدم، فقالوا: جلس في مكانك، فضربناه، وسحبناه، فزجرهم ونهرهم، وقال له: لا تبك.

فقال: يا هارون! ما أبكي على حالي، ولكن أبكي على حالك، أنا جلست في مكانك هذا لحظة واحدة فحصل لي هذا الضرب الشديد، وأنت جالس في هذا المكان طول عمرك، فكيف يكون حالك؟!^(١).

يعني: هذا مكان ينبغي أن يجلس من يعدل في الرعية وينصف في القضية ويقسم بالسوية وأنت لست بأهل^(٢).

اللغز الهاروني

كان هارون الرشيد قد أجاز الدخول لبهلول عليه كل حين ومتى شاء وذات يوم كان هارون مجتمعاً بعدد من كبار رجال دولته والمقربين منه، فدخل عليهم بهلول القصر بلا إذن أحد، وجلس إلى جانب هارون.

كان سلوك بهلول في ذلك اليوم مؤذياً لهارون، لكنه ما دام قد أذن له بالدخول متى شاء لم يتمكن من إخراجه من القصر.

كان بهلول في ذلك المجلس يقلّد فعل هارون حيث كان واضعاً إحدى رجله على الأخرى فوضع بهلول إحدى رجله على الأخرى أيضاً مقلداً في ذلك هارون، ضحك الحاضرون في المجلس من فعل بهلول الذي كان يؤذي هارون لحظة بعد أخرى، وفجأة خطر بذهن هارون فكرة

(١) زهر الربيع، ص ٣٩٣، شجرة طوبى، المجلس العشرون، ص ٤٤.

(٢) شجرة طوبى.

يمكنه من خلالها تأديب بهلول، قال هارون: «لا بد لك من الجواب عن هذا اللغز ما دمت جالساً إلى جانبي».

قال بهلول: «إذا لم ترد التخلص من الجائزة كما فعلت ذلك معي مراراً أجبتك عن اللغز».

أراد هارون أن ينتهر بهلول وأنه متى تخلف عن وعده، لكنه سرعان ما تذكر أن بهلولاً صادق فيما يقول لأنه - أي هارون - أخلف وعده لمرات عديدة معه، لذا حاول التعامل مع بهلول بهدوء وقال: «إن أجبت عن هذا اللغز أمرنا لك بألف سكة ذهبية، وأما إن لم تجب عنه فسوف نأمر بحلق لحيتك ثم نضعك على حمار ويدار بك أزقة المدينة».

قال بهلول: «لا حاجة لي بالذهب، لكنني مستعد للجواب عن اللغز بشرط واحد».

قال هارون - بعد هنيئة - : «لنر ما هو شرطك؟».

قال بهلول: «إن أجبتك عن اللغز أريد منك أن تأمر الذباب بعدم التعرض لي وإيذائي».

لما أدرك هارون أن بهلولاً بشرطه هذا يريد إثبات عجز - هارون - وضعفه، ضحك قليلاً ثم قال: «لا يمكن العمل بشرطك، لأن الذباب ليس بأمرى».

حرّك بهلول رأسه مؤيداً كلام هارون ثم قال: «لا ينبغي أن أتوقع من شخص ضعيف وعاجز أمام الذباب شيئاً، لا بد من البحث عن أحد يتمكن أن يأمر الذباب بذلك».

حسن الحاضرون فعل بهلول في قلوبهم دون الاستهتيم لأن كلامه هذا ينم عن عقله وحسن تدبيره..

ولما علم بهلول أن كلامه أثر في هارون - الذي صار لونه يتغير لحظة بعد أخرى من شدة الضربات التي صار يواجها من بهلول - قال: «أنا مستعد الآن أن أجيبك عن اللغز بدون أي شرط».

ولما أحس هارون بأنه خاسر في هذا الجدال لم يكن يحب أن يطيل الكلام أكثر من ذلك مع بهلول، فقال: «ما هي الشجرة التي لها من العمر سنة واحدة، ولها من الفروع والأغصان اثنا عشر، وعلى كل غصن منها ثلاثين ورقة، في وجه من وجوه كل ورقة ظلام وفي الوجه الآخر منها ضياء ونور؟».

أجابه بهلول بدون أي تأمل: «أما الشجرة فهي السنة، وأما أغصانها فهي الأشهر، وأما ما كان في وجه أحد أوراقها الظلام فهو الليل والآخر فهو النهار».

لما سمع هارون بذلك لم يكن له بد من القبول، فإذا به رفع صوته وقال: «أحسن، أحسن».

وهكذا الحاضرون قالوا مثل قول هارون، ثم خرج بهلول من القصر وهو لم يعتن بهذا التهريج ولم يبال بأحد من الحاضرين.

جزاء الوالي

دخل بهلول يوماً إلى دار الحكومة في الكوفة، فجلس على مسند الوالي وأخذ يقلد الوالي في أفعاله، فلما رآه الحرس والحجاب ضحكوا عليه، ثم أدركوا أن الوالي لو دخل عليهم ووجد بهلول جالساً على مسنده سوف يبدل ضحكهم إلى بكاء، لذا هرعوا إلى بهلول - بعد أن نصحوه أن ينزل من مسند الوالي فامتنع - وأخذوا يضربونه حتى أنزلوه.

ذهب بهلول إلى زاوية من القصر وصار يبكي، وفي هذه الأثناء دخل

الوالي فرأى أن وضع القصر غير طبيعي، سأل رئيس الحرس وقال: «ما الذي حدث؟».

قال رئيس الحرس - بعد أن انحنى تعظيماً للوالي - : «سيدي إن بهلولاً جلس على مسند الخلافة، فلما وعظناه بالتزول عنه امتنع، ثم اضطرنا إلى ضربه».

ذهب الوالي إلى بهلول فوجده يبكي، قال له: «عليك بالصبر، فإن الذي يعمل علام مخالفاً للقانون عليه أن يوطن نفسه لمثل ذلك».

قال بهلول: «أيها الوالي إنا لا أبكي على نفسي». تعجب الوالي لذلك وقال: «فما السبب في بكائك؟».

قال بهلول: «إني جلست على مسندك دقائق فنزل بي من العذاب ما ترى، فكيف بك وقد جلست عليه سنوات، فإنه لا يعلم ما ينزل بك من العذاب إلا الله».

الذئب والعلف والخروف

كان سوق طرح الألفاز ماشياً جداً، فقد كان يجلس أعضاء دولة هارون - الذين كان أكثرهم من أقربائه - يتبادلون طرح الألفاز بدلاً عن حل مشاكل المجتمع ويحصلون على الجواب فيما بينهم.

وذات يوم كان هارون في زورقه المصنوع على شكل الوزة وقد أخذ منه الغرور مأخذه، فأمر بإحضار بهلول، ونزل بعض الخدم إلى الماء في زورق صغير ليأتوا بهلول.

وعندما أحضروا بهلولاً بين يدي هارون، سأله هارون قائلاً: «هل تستطيع أن تجيب عن هذا اللغز؟».

قال بهلول: «لو استطعت أجبتك».

ضحك هارون بصوت عالٍ: «إن أجبت عن هذا اللغز أعطيناك مئة دينار ذهبي، وإن عجزت عن ذلك أمرنا بإلقائك في ماء دجلة الهائج».

لم يفقد بهلول سكينته ووقاره المعتادين، وقال: «لا حاجة لي بذهبك، لكنني أشرط عليك أنني إن أجبتك عن هذا اللغز كان عليك إطلاق سراح مئة من السجناء ممن أحب، وإن لم أجبك فأنا مستعد للإغراق في دجلة».

كان يعتقد هارون أن بهلولاً عاجز عن الجواب، لأنه سأل ذلك من كثيرين فلم يسمع منهم جواباً سوى السكوت، لذا وافق على شرط بهلول بدون أي قلق، ثم قال - هارون - : «لو كان عندنا خروف وذئب وعلف، وأردنا نقلها واحدةً واحدةً من هذه الجهة من الماء إلى الجهة المقابلة، كيف نصنع، بحيث لا يأكل الذئب الخروف ولا الخروف يأكل العلف؟».

قال بهلول: «جواب ذلك عندي».

تصوّر هارون بادئ الأمر أن بهلولاً يتكلم اعتباطاً، فقطع كلام بهلول وقال: «قل، قل بسرعة ماذا نصنع؟».

قال بهلول: «ننقل الخروف إلى تلك الجهة أولاً، ثم ننقل العلف ونرجع بالخروف إلى مكانه الأول، ثم ننقل الذئب إلى تلك الجهة، ثم الخروف».

قفز هارون من مكانه وجلس على ركبتيه، وصاح: «أحسن، أحسن» انتظر بهلول حتى هدأ هارون ثم قال له: «الآن أوف لي بوعدك».

قال هارون: «اكتب أسماء الذين تريد إطلاق سراحهم» فلما كتبهم، عرف هارون أنهم من شيعة موسى بن جعفر عليه السلام، فكيف يمكنه الموافقة على إطلاق سراح أعدائه الذين كانوا يجاهدونه بأنفسهم، فإن أطلق سراحهم ماذا يمكن أن يخلقوا له من مشاكل...؟

أخلف هارون وعلى عادته ما وعد به بهلول، وقال: «كلا، كلا، لا يمكن ذلك أبداً».

قال بهلول: «إنك وعدتني بذلك».

قطب هارون وجهه وقال بلهجة فيها غضب: «إن أصررت على ذلك أكثر ألقيت بك معهم في السجن».

لم يرتض بهلول أن يرجع خالي اليدين إلى الساحل، فقد تمكّن بعد إصرارٍ شديد من إقناع هارون بإطلاق سراح عشرة من الشيعة الذين كانوا في أسر هارون.

ما في الدنيا أحبّ إلى أمير المؤمنين من الدراهم!

وقال بعض الكوفيين: حج هارون فذكر بهلولاً حين دخل الكوفة، فأمر بإحضاره، وقال: ألبسوه سواداً، وضعوا على رأسه قلنسوةً طويلة، وأوقفوه في مكان كذا.

ففعلوا به ذلك، وقالوا: إذا جاء أمير المؤمنين فادع له.

فلما حاذاه هارون: رفع رأسه إليه وقال: «يا أمير المؤمنين، أسأل الله أن يرزقك ويوسع عليك من فضله».

فضحك هارون وقال: آمين.

فلما جاوزه هارون دفعه صاحب الكوفة في قفاه وقال: أهكذا تدعو لأمر المؤمنين، يا مجنون؟!

قال بهلول: أسكت، ويلك يا مجنون، فما في الدنيا أحبّ إلى أمير المؤمنين من الدراهم!

فبلغ ذلك هارون فضحك وقال: ما كذب^(١).

بهلول مع موسى الهادي

وأحضر بهلول وعيناوه عند موسى الهادين فقال موسى: لِمَ سميت بهلول؟

فقال: أنت لم سميت موسى؟

فقال: يا ابن الفاعلة. فالتفت بهلول إلى عيناوه وقال: كنا اثنين فصرنا ثلاثة.

ثم قال موسى لعيناوه! ما هذا السر؟

قال: أرمني.

قال: وهذا المقعد.

قال: طبري.

فصفحه بهلول وقال: أسكت فإن الساعة يقول هم أصحاب أنماط لا مجانين.

فضحك موسى حتى استلقى!^(٢).

هل يقضي القاضي بعلمه؟

قال علي بن الحسين: لما مات أبو بهلول خلف ستمائة درهم، فأخذها القاضي، وحجر عليها، فأتاه بهلول، فقال: أصلح الله القاضي، أو تزعم أنني مصاب في عقلي؟ فأنا جائع، فادع لي بمائتي درهم، حتى أقعد

(١) عقلاء المجانين، ص ١٠٢.

(٢) روضات الجنات، ج ٢ ص ١٤١.

في أصحاب الحلقات أبيع وأشتري، فإن رأيت مني رشداً ضمنت إليها الباقي، وإن تلفت فالذين أتلفت أقل مما بقي.

فدعا القاضي بالكيس، ووزن له مائتي درهم.

فأخذها بهلول، ولزم الحيرة حتى أنفذها، ثم جاء إلى القاضي وهو في مجلس الحكم، فقال: يا بهلول؟ ما صنعت؟

فقال: أعز الله القاضي «أنفقتها»، فإن رأى القاضي أن يزن من ماله مائتي درهم، وردها إلى الكيس حتى يرجع الكيس إلى ما كان».

فقال القاضي: فتجحد لي ما أخذت؟

قال: كلا، ولكني ما أقمت عندك شاهدين لأنني موضع لها.

قال: صدقت ودعا بمائتي درهم، وردها إلى الكيس^(١).

وعن محاضرات الراغب مثله.

قال السيد محسن الأمين رحمته الله في أعيانه:

أظن هذه الحكاية موضوعة على لسانه فإن من يمتنع عن جائزة الرشيد ويكون بهذا الزهد لا يحتال على القاضي بأخذ المال ولكن الناس تعض على كل أحد ما يناسب حاله، كما وضعوا على جُحى كل ما فيها سخف، وعلى أبي نواس كل ما فيه مجون، وعلى مجنون ليلى كل شعر فيه وجد.

وأظن أن من هذا القبيل ما رأيته في بعض المواضع من أن بهلول مرّ بقوم عند أصل شجرة فقالوا: تصعد هذه الشجرة وتأخذ عشرة دراهم.

(١) عقلاء المجانين، ١٠٤ نزهة الجليس، ج ١ ص ٥٧٨؛ التذكرة الحمدونية، ج ٨ ص ٢٤٧.

قال: نعم فأعطوه إياها فجعلها في كمه ثم قال هاتوا سلماً.

فقالوا: لم يكن هذا في الشرط.

فقال: كان في شرطي دون شرطكم.

فإذا كانت صفاته ما مرّ كيف يحتال لأخذ المال؟^(١).

أيها الأمير، ما هذا الحزن؟!

قال بعض أهل الكوفة: ولد لبعض أمراء الكوفة ابنة فساه ذلك! فاحتجب وامتنع عن الطعام والشراب، فأتى بهلول حاجبه، فقال: ائذن لي على الأمير، هذا وقت دخولي عليه.

فلما وقف بين يديه قال: أيها الأمير، ما هذا الحزن؟ أجزعت لذات الذي خلق فسوى هيأها رب العالمين؟! أيسرك أن لك مكانها ابناً مثلي؟
قال: ويحك! فرجت عني، فدعا بالطعام، وأذن للناس^(٢).

بهلول مع الوزير

قيل إن الوزير قال له يوماً: يا بهلول طب نفساً فإن الخليفة ولأك على الخنازير والذئاب.

فقال: إذا عرفت ذلك فالزم نفسك كي لا تخرج من طاعتي وولايتي.
فضحك الحاضرون وخجل الوزير^(٣).

(١) انظر: كتاب الأذكياء، ص ٢٣٤؛ أخبار الظراف والمتاجنين، ص ٨٠ - ٨١ غرر الخصائص الواضحة، ج ١ ص ٧٨، أعيان الشيعة: ج ٣ ص ٤٢٢.

(٢) عقلاء المجانين، ص ١١٠٤؛ كتاب الأذكياء، ص ٢٣٤ غرر الخصائص الواضحة، ج ١ ص ١٧٨ ريحانة الأدب، ج ٥ ص ٢١٣.

(٣) روضات الجنات، ج ٢ ص ١٤٧؛ أعيان الشيعة، ج ٣ ص ٤١٩؛ ريحانة الأدب، ج ٥ ص ٢١١.

كلب الصيد

كان والي الكوفة مضرباً للمثل بين الناس في الخسة والبخل، لكن لم يجراً أحد أن يقول ذلك للوالي.

وذات يوم كان الوالي مرتاح البال فأخذ يبحث عن شيء يلهي به، فصمم أن يدعو بهلولاً إلى القصر ليقضي معه يوماً سعيداً.

هذا مضافاً إلى أن مثل هذا اللهو لا يكلف الوالي شيئاً، لذا أمر نقرأ من الحرس ليأتوه ببهلول، فقال: «اذهبوا وأتونا ببهلول».

ذهب الحرس في طلب بهلول وجاؤوا به إلى قصر الخلافة، فلما وقع نظر الوالي عليه فتح معه حديث المزاح لكنه في كل مرة كان يسمع جواباً صارخاً من بهلول، بحيث أصدقاء الوالي يضحكون في قلوبهم على ما يصار يعاني منه الوالي من أجوبة بهلول.

أراد الوالي التخلص من بهلول بشكلٍ من الأشكال بحيث يجعل بهلول يغادر بنفسه القصر، فقال الوالي له: «سمعت بأنك تعرف الكلاب جيداً».

قال بهلول: «لعل الأمر كذلك، فهل معرفة الكلاب تقدم خدمة للوالي؟».

قال الوالي: «أنت تعلم بأنني أحب الصيد كثيراً، لذا أريد منك أن تبحث لي عن كلب جيد للصيد».

قال بهلول: «سوف أفعل ذلك».

قال الوالي: - وهو يريد من بهلول الانصراف بسرعة - : «نعم تستطيع أن تبدأ البحث عنه من الآن».

قال بهلول: «حسناً، سأذهب ثم أعود بعد أيام مع الكلب الذي أردته».

وبعد أيام جاء بهلول ومعه كلب سمين جداً إلى قصر الخلافة وهو يجرب به، فلما رآه الوالي صاح به بغضب: «هل جئت؟». أجابه بهلول بسكينة: «ولماذا أجن؟».

أشار الوالي بيده إلى الكلب، وقال: «هل تعرف صفات كلب الصيد؟».

قال بهلول: «نعم، أعرف ذلك».

صاح به الوالي وقال: «فما هي صفاته؟».

قال بهلول: «لا بد أن يكون كلب الصيد نحيفاً وخفيفاً ليتمكن من اقتراس صيده بسرعة».

قال الوالي: «إن مما يدعو للأسف أنك تعلم ذلك، ومع ذلك جئتنا بكلب سمين».

أجابه بهلول، وقال: «لا تغضب يا حضرة الوالي، إنك مع البخل المعروف عنك بين الناس ستجعل من هذا الكلب كلباً للصيد في أسبوع واحد لما سيبلغ من الهزلة والضعف بحيث لا يقاس به كلب صيد آخر».

ولما نظر الحاكم إلى من حوله وقد كانوا يؤيدون كلام بهلول برؤوسهم، صاح الحاكم بهم: «هل تعرفون غني البخل؟».

أجابه الحاضرون في القصر بأجمعهم من حيث لا يشعرون، «نعم يا مولاي».

صاح بهم بغضب: «ثكلتكم أمهاتكم» ثم انصرف عنهم لكي لا يرى منهم الهمز واللمز بسبب ما حدث.

مصادر البحث

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - كتب السير .
- ٣ - بلاغة الإمام جعفر الصادق عليه السلام - لمؤلفه مهدي العطوي البصري .
- ٤ - الإمام الصادق (كما عرفه علماء الغرب، الدكتور نور الدين آل علي).
- ٥ - الإمام الصادق والمذاهب الأربعة (أسد حيدر).
- ٦ - توحيد المفضل - إملاء الإمام أبي عبد الله الصادق على المفضل بن عمر الجعفي .
- ٧ - من عرفان الإمام الصادق عليه السلام .
- ٨ - مروج الذهب - المسعودي .
- ٩ - مناقب: ابن شهر آشوب .
- ١٠ - تاريخ اليعقوبي .
- ١١ - تهذيب التهذيب .
- ١٢ - رسائل الجاحظ للسندوبي .
- ١٣ - الصواعق المحرقة: ابن حجر .
- ١٤ - الملل والنحل: للشهرستاني .

- ١٥ - تاريخ بغداد: للبغدادي.
- ١٦ - إتحاف الأشراف: للشبراوي الشافعي.
- ١٧ - أصول الكافي.
- ١٨ - الميزان.
- ١٩ - ضحى الإسلام.
- ٢٠ - صحيح الترمذي.
- ٢١ - صحيح مسلم.
- ٢٢ - تفسير ابن جرير الطبري.
- ٢٣ - الفصول المهمة، لابن الصباغ المالكي.
- ٢٤ - الدر المنثور، للشيخ السيوطي.
- ٢٥ - أسد الغابة.
- ٢٦ - شرح الترمذي، لابن العربي.
- ٢٧ - العقد الفريد: لابن عبد ربه الأندلسي.
- ٢٨ - الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: الجزء الأول، لمؤلفه أسد حيدر.
- ٢٩ - الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: الجزء الثاني، لمؤلفه أسد حيدر.
- ٣٠ - الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: الجزء الثالث، لمؤلفه أسد حيدر.
- ٣١ - حياة الإمام الصادق: للمظفر.
- ٣٢ - رسائل جابر بن حيان نشرها المستشرق كراوس.
- ٣٣ - مقاتل الطالبين، أبو الفرج الأصفهاني.

- ٣٤ - الكامل لابن الأثير .
- ٣٥ - فهرست ابن النديم .
- ٣٦ - الإمامة والسياسة : لابن قتيبة الدينوري .
- ٣٧ - وكتب ومتفرقات أخرى تجدها في هوامش الكتاب .



الفهرس

٥	الإهداء
٧	مقدمة الدكتور عبد المجيد العلي
١١	مقدمة المؤلف
١٣	الفصل الأول: شخصية الإمام جعفر الصادق عليه السلام وأقوال العلماء فيه
٣٥	الفصل الثاني: الإمام الصادق عليه السلام مدرسته وتلاميذه ورواة حديثه
١٢١	الفصل الثالث: الإمام الصادق عليه السلام ملوك عصره وأمرائه بلده
١٥٧	الفصل الرابع: الدعوة الصامتة عند الإمام جعفر الصادق عليه السلام
١٧١	الفصل الخامس: مناظرات الإمام الصادق عليه السلام واحتجاجاته
	الفصل السادس: توحيد المفضل إمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام
٢٢٧	على المفضل بن عمر الجعفي أحد تلاميذه المشهورين
٣٢٩	الفصل السابع: الإنسان والكون في رأي الإمام الصادق عليه السلام
٣٣١	الإنسان وخلقه في رأي الإمام الصادق عليه السلام
٣٣٧	نظرية الضوء عند الإمام الصادق عليه السلام

- نسبية الزمن عند الإمام جعفر الصادق عليه السلام ٣٥١
- نظرية الصادق عليه السلام حول أسباب بعض الامراض ٣٦٥
- نظرية الصادق عليه السلام بشأن أشعة النجوم ٣٧٧
- نظرية الصادق عليه السلام بشأن البيئة ٣٩٥
- الفصل الثامن: من خطب ورسائل الإمام جعفر الصادق عليه السلام ٤١١
- في رأي الصادق عليه السلام أنَّ الإنسان يعمل على تقصير عمره ٤١٣
- الرِّضاعة السليمة في رأي الإمام الصادق عليه السلام ٤١٩
- حركة الموجودات في رأي الصادق عليه السلام ٤٢٥
- في خطبة له عليه السلام يذكر فيها حال الائمة عليهم السلام وصفاتهم ٤٣٥
- كلامه عليه السلام في وصف المحبة ٤٣٩
- الفصل التاسع: مكاتيبه ورسائله عليه السلام ٤٤٩
- رسالته عليه السلام إلى جماعة من شيعته وأصحابه ٤٥١
- جوابه عليه السلام لرسالة عبد الله النجاشي ٤٦٥
- جواب الإمام الصادق عليه السلام على كتاب الفضل بن عمر ٤٧٣
- من احتجاجات الإمام الصادق عليه السلام ٤٨٣
- من مناظرات الصادق عليه السلام مع أي حنيفة النعمان ٤٨٩
- احتجاجه عليه السلام مع سفيان الثوري ٥٢٣
- الخبر المروي عن الفضل بن عمر في التوحيد المشتهر بالإمليلجة ٥٢٩

٥٦٩		الفصل العاشر: من حكم ومواظ الإمام جعفر الصادق عليه السلام
٥٧١		حكم ومواظ للإمام الصادق عليه السلام
٥٩٩		الفصل الحادي عشر: من عرفان الإمام جعفر الصادق عليه السلام
٦٣١		الفصل الثاني عشر: من مناظرات واحتجاجات بهلول
٦٥٣		الفصل الثالث عشر: أخباره مع هارون وبعض الأمراء والقضاة
٦٨١		مصادر البحث

